

الكتاب التذكاري
لقسم اللغة العربية
جامعة الكويت

عبد السلام هارون

معلماً ومؤلفاً ومحققاً



اعداد

أ.د. وديعة طه النجم — أ.د. عبده بدوي

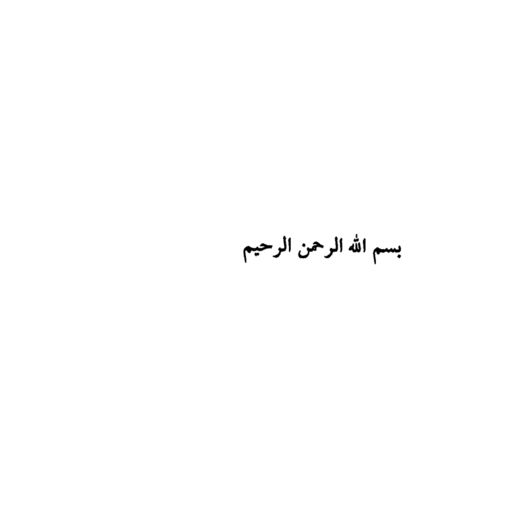
كتاب تذكاري

بحوث وكتابات مهداة الى

الأستاذ عبد السلام هارون

في ذكراه الثانية

١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة الكويت
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

الأستاذ عبد السلام هارون
معلما ، ومؤلفا ، ومحققا

إعــداد

أ.د. وديعة طه النجم

أ.د. عبده بـدوي

تقـــديـــم

وديعه طه النجم
رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها

لقد بدأت فكرة كتاب تذكاري يقدّمه قسم اللغة العربية بجامعـة الكويت في الذكرى الأولى لوفاة العالم الجليل أستاذ الأجيال عبدالسلام هـرون تجول خـاطرة في النفس. ولم تكد تظهـر إلى الوجـود، حتى كان ذات يـوم وفي أثناء حـديث دار بيني وبـين تلميذي وزميـلي الدكتـور عبدالله الغـزالي مدرس الأدب العـربي بقسم اللغة العربية، وإذا بالفكرة تتجسد في نية معقودة عند مجموعة من البـاحثين من الشبـاب نحو إحياء ذكرى أستاذنـا الكبير بكتـاب يقدمـه له تـلاميذه ممن تخـرج على يـديه في العربية. وكـأنّه أعلن مـا كان يجـول في خاطـري. فبادرتـه حينئذ بـأن تضمّ الجهود وتتسع بدائرة المشاركين ـ وهي أصلاً واسعة إذا ما اعتبرنا بمن تتلمـذ على يـدي هذا العـالم الجليل ـ وليكن الجهـد في ظل قسم اللغـة العربيـة بجامعـة الكـويت. هـذا القسم الذي يرجع الفضل الأول في إرساء قواعـده إلى أستاذنـا الكبير نفسـه.. وما أقلّ ما نقدّم نحن إزاء عظم ما قدّم هو...!

فـإذا كان للفضـل أن يردّ إلى أصحـابه، فـإن فضل المبـادرة الأولى إلى كتابـة هذاالسفر التذكاري في ذكرى الأستاذ عبـدالسلام هـرون جاءت من لـدن مجموعـة خيّرة من تلاميذه ومريديه من جامعة الكـويت من أساتـذة العربيـة وطلابهـا. ولقد كانت بادرة وفاء وإجلال تصدر بكل تلقـائية وعفـوية عن تـلاميذ لأستـاذ وعالم من علماء العـربية قضى حيـاته يعمـل على إعـلاء شأن هـذه اللغة وآدابهـا درساً وبحثـاً وتحقيقاً وتعليماً... ومازال تلاميذه في أقسام اللغـة العربيـة أو مدارسهـا أو سواهـا يحملون الأمانة غرساً أينع وأثمر...

وإذا كان قسم اللغة العربية بجامعة الكويت ثمرة من ثمرات جهود خيّرة لأستاذنا الكبير، فإن الثمرات العلمية الجليلة التي تزخر بها المكتبة العربية ستظل تحمل اسمه عبر أجيال من الدارسين والباحثين والعلماء، فقد أربت الآثار التي قام بتحقيقها على المائة عدداً، ما بين كتب ضخمة أو رسائل أو مجالس علماء أو مجموعات شعرية وغيرها. . .

وإذا لم يكن للمكتبة العربية مما قام به الأستاذ العالم عبدالسلام هرون من تحقيق ونشر غير آثار أبي عثمان الجاحظ، فإن في ذلك وحده خير دليل على تلك الأناة وذلك الصبر الذي تميزت به تحقيقاته، حتى اقترن اسمه باسم أبي عثمان الجاحظ، رحمهما الله.

فلأستاذنا الجليل، الفضل الأول في تعريف الدارسين بالجاحظ وأدبه الغزير الذي تفخر به العربية بما أتاحه للباحثين من مؤلفات الجاحظ الموسوعية، كمثل كتاب الحيوان، وهو أول كتاب نال بتحقيقه على جائزة مجمع اللغة العربية (في نحو سنة ١٩٥٠). ثم البيان والتبيين، ومن بعد ذلك مجموعة رسائل الجاحظ التي قدّمها في مجلدين ضخمين، اشتمل الأول على رسائل الجاحظ بنصوصها الكاملة، واشتمل الثاني على مختارات من رسائل الجاحظ. هذا فضلاً عن تحقيق كتاب العثمانية وأخيراً رسالة البرصان والعرجان (١٩٨٢). .

وتتميز تحقيقات أستاذنا القدير، فضلاً عن الصبر والدقة في التتبع، بتلك الفوائد اللغوية التي يقدمها في الحواشي وتلك التخريجات الموفّقة التي لا تكون إلا لمحقق عانى النص وعايش مؤلفه حتى نشأت بينهما ألفة جعلته سريع اللمح، حتى يخيل للقارىء أن التحقيق للتراث لا يكلف ذاك الجهد والعناء. . . وذلك هو السهل الممتنع. . وتلك هي الخبرة العلمية الطويلة والصبر والتتبع عبر السنين الطوال.

إن من يعاين كتب أبي عثمان الجاحظ يدرك حقيقة الفضل العظيم الذي قدّمه الأستاذ عبدالسلام هرون للدارسين. فالجاحظ الموسوعي الثقافة والكتابة لم يكن يؤمن بالتنظيم في التأليف ولا بالاقتصار على موضوع بعينه في المصنف الواحد. من هنا فإن قارىء أبي عثمان يجد نفسه وقد أبحر في لجج من المعارف والطرائف يتداعى

بعضها مع البعض، دون رابط واضح. من هنا كان دور المحقق الأستاذ عبدالسلام هرون في ذلك الحرص على أن يجعل معارف كتب الجاحظ، ولاسيما كتاب الحيوان ذو الأجزاء السبعة، منظومة في فهارس متقنة الصنع ومفصلة لم تقتصر على الفهارس المألوفة، بل شاء أن يسهل عمل الباحث في فهارس لا تكاد تفوت شيئاً، يتصدرها فهرس الحيوان بأصنافها ونبذة تختصر طبيعة الإشارة إليها. ثم يلي ذلك فهارس للأعلام والقبائل والطوائف والبلدان والأمثال والأشعار والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب والمعارف العامة والمباحث الكلامية... إلخ، مما لا يضاهيه أي تحقيق لأي أثر، بهذا الحجم وهذا المقدار..

ولقد أصبح هذا المنهج سمة تتميز بها تحقيقات أستاذنا الجليل في عامة ما قدّمه من تراث العربية، مما سهل سبل الوصول إلى ذلك التراث.

جزاه الله كل خير، وطيّب ثراه.

وأخيراً، كلمة ثناء وتقدير للزملاء الكرام أعضاء اللجنة التي أشرفت على الكتاب وتابعت جمعه ولمّ شمل أبحاثه بكل الحرص والعناية ليظهر بصورة تليق بالمقام الكريم.

القسم الأول في الأدب

يحرره :

أ.د. وديعه طه النجم

أ.د. عبده بدوي

د. سهام الفريح

أ.د أحمد كمال الدين

د. طيبة حمد بودي

د. عبدالله الغزالي

د. محمد منصور أبا حسين

د. حلمي محمد القاعود

د. سعد دعبيس

د. أحمد فوزي الهيب

الأسلوب الجاحظي والاستعمال اللغوي

أ. د. وديعه طه النجم
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

كلما ذكر الجاحظ عند دارس الأدب تبادر إلى ذهن ذلك صورة الدارس رسمتها كتب تاريخ الأدب والأخبار العامة لشخصية مولعة بالفكاهة والسخر:

فضولها شديد وحبها للناس في شتى أحوالهم وفئاتهم أشدّ. تطلب الحقيقة أينما تجدها. حتى إذا وجدتها راحت تقلّبها على كل وجه، وتتقلب معها بين الجد والهزل، حتى غلب هزلها على جدّها.

وفي ثنايا هذه الصورة، كثيراً ما تغيب الحقيقة الأصلية المكونة لهذه الشخصية الفذة في تاريخ أدبنا العربي في أزهى عصوره وأمجدها. . .

يغيب عن ذهن الدارس أن الفضل الأكبر لهذه الشخصية قد لا يكمن في تلك الصورة الأخّاذة الظاهرة، بل خلف تلك الصورة تكمن حقائق لعل من أهمها:

تلك السعة في العلم، وذلك التعمق في اللغة، مقترناً بهما مرونة مدهشة على استيعاب الجديد.

إن الجاحظ أبا عثمان الذي كان صورة لثقافة عصر لوّنت بشتى الألوان والمكوّنات، والذي سعى إلى صهرها وسبكها ليصوغ منها ثقافة يخاطب بها القارىء العربي من أية طبقة كان، قد تفرّد بين كتّاب عصره بتلك القدرة المعجبة على التوفيق بين الشكل والمضمون:

فلم يـدّخر جهـداً في توظيف طـاقات اللغـة حتى يمكنها من أن تحتـوي تلك المضامين التي جدّت على الحضارة العربيـة والفكر العـربي. فكان بـذلك من أوائـل العلماء الأدباء الذين وفقوا إلى احتواء الجـديد، دون تضحيـة بالقـديم.. ولعل مما ساعد أبا عثمان على هذا النهج أنه لم يكن ممن أتقن غير العربية لغة، فلم تستطع لغة أخرى أن تدخـل الضيم على لغتـه الأولى (كما هـو الحال مـع ابن المقفع، مثـلاً، أو غيره من المترجمين...). وهكذا ظلت لغة أبي عثمان ناصعة لا تشـوبها شـائبة، مـع قدرة ومرونة فائقة على مسايرة الحياة الحضرية الجديدة، في نشـاطاتهـا العقلية، حتى تمكنت اللغـة العربيـة على يـديه من احتـواء تلك المضامـين التي جدّت عـلى الفكر العـربي، وفي نشاطـاتها المـادية واليـومية حتى تكـونت تلك اللغة التي نسميهـا لغـة المصطلح أو لغة الأداة.

وليس هيّنا أن تسعفك اللغة التي تريدها وتستجيب لك أدواتها، إلا بعـد أن تمنحها من نفسك وفراغك ما يهيىء لك معرفة بدقائقها. وليس هيناً، حتى بعـد أن تجد ما يناسب مرادك منها، أن تجعل اختيـارك مقبولاً عنـد أهل عصرك. فهـا نحن نجد المجامع اللغوية تسعى سعياً متواصلاً حتى تجعل اللغة مـواكبة لثقـافة العصر، حتى إذا توصلت إلى إيجاد المناسب من اللغة لما يجدّ من مظاهر الحضارة، لم تجد آذاناً صاغية لما تنادي به، ويبقى عملها بعيداً عن متناول الناس وممارساتهم الفعلية.

وهنـا كان فضـل أبي عثمان الـذي جعل من العـربيـة أداة قـادرة عـلى تحمـل مسؤولية العصر بثقافاته المتعـددة وبطبقـاته المتفـاوتة، علماء أو عـامة.. ولعـل أكبر الفضل يكمن في ذلك الانغماس الذي عرف به الجـاحظ في العصر، كلاً متكـاملاً، روحاً وقالباً... فهو مثقف بين المثقفين، ولكنه لا يتعالى على العامة بجميع فئـاتهم وطبقاتهم.. ينقل عن جميع الفئات ويناقش جميع المسائل بروح المتطلع إلى المعرفة، يحكمه في ذلك ذوق مميّز واتصال وثيق بالعصر، وتمدّه ثقافة لغوية واسعة.

من هنا أرى أننا لا يمكن أن ننظر إلى لغة أبي عثـمان بمعزل عن أسلوبـه وذوقه واختياره الأدبي ولعل الطرف الأدبي في هذه المعادلة مرجح في كثير من الأحوال. من هنا فإنّ ما يصح من اللغة في موضع قد لا يصلح بالضرورة في سواه. وحينـما يقول الجاحظ في كتاب البخلاء مثلاً:

«وإنْ وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير مُعرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنّا إنما تركنا ذلك لأنَّ الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حدّه. . . »[1].

علمنا أن استعمال الكلام الملحون جاء في هذا الموضع مرسوماً رسماً قاصداً، يحكمه ذوق الجاحظ واختياره، ولم يأت عبثاً أو اعتباطاً أو سهواً. . .

ويؤدي الكلام (المعدول عن جهته) ـ كما سماه الجاحظ ـ غايات شتى: بعضها يتعلق بفن الحكاية، وبعضها يلحق بمراعاة لغة أهل الحاضرة. وهؤلاء ينتمون إلى طبقات وثقافات، بعضهم عامّة أصحاب حرف وغير متعلمين، نقل عنهم الجاحظ معلومات وأخباراً، كما نقل حكايات. . . ومنهم مثقفون متكلمون، وعلماء محدّثون تنعكس آثار ثقافتهم على لغتهم المكتوبة أو لغتهم التعليمية، ولكن لم تنج لغة كلامهم من أثر التوليد والحضارة. فهم سكان حواضر، تميل بهم الحداثة نحو لغة مسايرة لها، وقد أقرّ الجاحظ بهذا كله، والتفت إليه باهتمام، وربما كان أول من سجله من الأدباء في كتاباته.

فهذا إبراهيم بن سيّار النظام، ينقل عنه الجاحظ كلاماً صدر عنه عفو الخاطر، ينمّ على هذه المسايرة للغة العصر، حيث يقول النظّام ـ كما ينقل أبو عثمان ـ وقد ألحّ عليه ذات يوم، كلب فأصاب النظّام ذعر منه، فإذا به يقول:

« . . . إن كنت سبع فاذهب مع السباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت سكوت البهائم. . . »[2].

ويردف الجاحظ هذه العبارة بقوله:

« . . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون، من قولي (إن كنت سبع) ولم أقل (إن كنت سبعاً). . . » ثم يقول:

« . . . وأنا أقول إن الإعراب يفسد كلام المولّدين، كما أنّ اللحن يفسد كلام الأعراب. . . »[3].

---

(١) البخلاء: ٤٠.

(٢) الحيوان ١/٢٨١.

(٣) الحيوان ١/٢٨٢.

ومن جهة أخرى نقرأ في كتاب الحيوان وغيره روايات وأخباراً منقولة عن رواة العامّة من السماكين والصيادين ومربّي الحمام والديكة والسنانير. . . فإذا بلغة تلك الروايات تأتي بلسان أصحابها مؤدية مضامينهم بالطريقة المناسبة لطبقتهم وثقافتهم وتجاربهم. . . ينقل الجاحظ عن مثنّى بن زهير (أحد مربّي الحمام) روايات في طبائع الحمام وتربيته تفاصيل قد لا يجدها في أي مصدر آخر. ونجد الجاحظ مسايراً لصاحب الحمام هذا في طبيعة رواياته وفي لغته، حتى أنه ينقل أمثال قوله:

«. . . وقد رأيت الحمامة تزاوج الحمام ثم تتحول منه إلى آخر. . .»[٤]، متخذاً من لفظتي (الحمامة) و(الحمام) وسيلة للتعبير عن المؤنث والمذكّر هكذا. وهي مما يجري على السن العامة. «إذأن العرب تجعل لفظة (الحمامة) للذكر والأنثى. . . كما في (حيّة) و(نعامة) -للذكر والأنثى على حدّ سواء»[٥]. ولفظة (الحمام) في العربية يراد بها (جنس الحمام)، وليس للمذكر. وليس الجاحظ غافلاً عن مثل هذا الفرق الدقيق، كما يتضح في كتاب الحيوان أو سواه من دقة تتبعه اللغوي. ومثل هذا الاستعمال، ما يشيع في لغة الكلام من استعمال لفظة (طير) للدلالة على المفرد من الطيور وليس لجنس الطيور. ويتردد هذا الاستعمال عند ابن البطريق مترجم كتاب أرسطو. . . كثيراً.

والجاحظ مولع بنقل لغة الكلام اليومي خاصّة في تلك الحكايات المنقولة عن عامة الناس، التي زخر بها كتاب البخلاء بخاصّة. من ذلك ما نقله عن امرأة فقيرة من العامة من قولها: (أمّا المصران فإنه لأوتار المندفة. . .)[٦].

والعامّة تجعل (المصران) مفرداً وتجمعه على (مصارين). وهذا ما تفعل هذه المرأة في كلمتها المنقولة هنا. . .

وهكذا فإن لغة الجاحظ تؤدي غاياته بمرونة كبيرة وبوعي من صاحبها. . .

على أنّ الناظر نظرة عابرة إلى أدب أبي عثمان قد تغرّه تلك الطلاوة الظاهرة

(٤) نفسه ١٦٦/٣.

(٥) ابن منظور. لسان العرب (حمم).

(٦) البخلاء ٢٨.

وذلك التساهل في استعمال اللغة الموافقة للعصر، حيث شاعت أساليب مولّدة على السن الحضريين من عامّة أو خاصّة وكان أبو عثمان من أشدّ المولعين بنقلها. وهنا موضع الخطر الذي قد يغرّ الناظر فيظنّ أن الجاحظ قد انحاز إلى لغة العصر إطلاقاً وترك العربية ظهرياً دونما عناية. . . على حينَ أنه في الواقع لم ينطلق هذا الانطلاق ولم يتوسع ذلك التوسع إلاّ بعد أن استقرت له أركان الفصحى، وعرف مكامنها وقدراتها. فكان ذلك التفريع والتوسع والتوليد، ممّا لا يتأتى ولا يكون إلا لمتكلم أديب كأبي عثمان مخض اللغة واستخلص ما توفّر مما دق وَصَفا.

وهكذا، فإن الجاحظ حينما يميل إلى صيغ واشتقاقات أو عبارات بأعينها، ويظهر هذا الميل في تفضيله استعمالها أكثر من غيرها، فلابدّ أن لهذاالميل أسباباً ذات صلة شديدة بالأسلوب الجاحظي.

وفي هذا البحث نظرات خاطفة في أسلوب الجاحظ وفي الاستعمالات اللغوية، مما لا تكاد العين المتأملة تخطئه مما اختص به أبو عثمان.

من المعلوم أن الجاحظ من أكثر كتّاب عصره ولعاً بنقل ما كان يجري في مجالس المتكلمين من محاورات ومناظرات، لاسيما وهو واحد من أولئك المتكلمين الذين شهدوا تلك المناظرات وعنوا بها، من منطلقه الاعتزالي الواضح المعالم. . وتكاد كتاباته تكون شاهداً على ما كان يجري في مجالس عصره بجميع اتجاهاتها وصورها. . . ولقد غلبت صورة الحياة العامة دون الحياة الفردية في عامة ما كتبه عن العصر. . . فضلاً عن غلبة أسلوب الحوار والمناظرة والجدل. . . من هنا أصبح أسلوب المناظرة أسلوباً جاحظياً معلوماً وخاصاً به. وليس مهمّاً أن تكون المناظرة منقولة عن واقع حقيقي أو هي مما يتخيل أبو عثمان إمكان وقوعه بين المتجادلين. . . فكل فكرة تعرض على الجدل، وكل قضية تقلّب على وجوهها بين طرفين يصطنع الجاحظ حججهما، غائصاً في دقائقها، حتى صار ذلك أسلوباً خاصاً به، وأضفى على أدبه نكهته المميّزة.

إن هذه الصفة التي تميز أسلوب أبي عثمان تظهر ـ كما أرىٰ ـ في طبيعة اختياراته اللغوية وفي غلبة تلك الاختيارات وترددها وتواترها في الاستعمال. ففضلاً عمّا أضفى هذا الولع على أسلوبه الأدبي من سمات اختص بها ـ جدّاً أو هزلاً ـ فقد

ارتسمت صفة المحاورة والمبادلة على لغته، فإذا بأكثر الصيغ شيوعاً في الاستعمال في كتاباته تلك التي تؤدي عنه غاية المبادلة أو المشاركة، وعلى رأسها صيغتا (المفاعلة والتفاعل) الدالّتان على ذلك، سواء كان ذلك على مستوى تبادل الرأي أو المناظرة والمجادلة، أو الترابط بين السبب والمسبب الذي لا يكاد يغيب عن ذهن أبي عثمان في حال من الأحوال. . من هنا يكثر حديثه عن (المناقلات) ـ وهي تلك المحاورات التي يتبادلها أهل الجدل والمنطق في (منازعاتهم) ـ كما يسميها أحياناً. .[7].

وإذا ما تذكرنا أن أدب الجاحظ أدب اجتماعي يعبر عن مشاركة الجماعة أكثر من تعبيره عن حياة الفرد الخاصة، أدركنا أهمية المشاركة والمبادلة أسلوباً من أساليب القول المتكررة. . ومن هنا كانت: المباسطة والمؤاكلة والملابسة والمباثّة والمخالصة والمناصحة والمكانفة والمكاتفة (بمعنى واحد تقريباً) والمغالبة والمبادأة والمؤازرة والمقاربة والمساهلة والمعاسرة والمخارجة والمماحة والموافقة والمخالطة والمسالمة والمنازعة والمفاكهة. . .[8] جميعها تنسجم مع المناظرة والمحاورة وما تستتبعانه من نمط القول. . فضلاً عن (المؤاجرة) وأشباهها مما استدعته طبيعة بعض العلاقات الحضرية في الحياة العباسية. . .[9]، وهناك من صيغة (التفاعل): التفاسد والتباين والتتابع. وشبيه بهذا مما تردد استعماله في أسلوب أبي عثمان هناك الأفعال: خاتل وغازل وماكر وخادع وراوغ وقارص وكاتف. . . وقد تفيد بعض هذه الصيغ دلالة التسلل والتدرج، كما في قوله، في صفة النبيذ:

«ولا والله حتى يغازل العقل ويعارضه، ويدغدغه ويخادعه، فيسرّه ثم يهزه، فإذا امتلأ سروراً وعاد ملكاً محبوراً، خاتله السكر وراوغه وداراه وماكره، وهازله وغانجه. . .»[10]

---

(٧) في دلالة لفظة (مناقلات)، انظر السامرائي، من معجم الجاحظ ٤١٧.

(٨) وجاء عند الجاحظ (مشاررة) و(مضاددة) ـ بفكّ الإدغام ـ واختلف فيها المحققون هل هي تحريف النساخ أم أن الجاحظ اختار فك الإدغام (كما يفعل بعض المعاصرين في (المحاججة).
(انظر رسائل ـ ط. هرون ١٦/٣)، تحذف العبارة التي جاءت في طبعة ساسي (مشاررته). وانظر السامرائي من معجم الجاحظ (ضدد). والحيوان ٥٧/٥.

(٩) قال عبدالسلام هارون، تعليقاً على لفظة (غلام مؤاجر)، إنها «لفظة عباسية، يقصد من يستأجره اللاطة. .» (الاالحيوان ٢٦/٣).

(١٠) ر. في مدح النبيذ، رسائل الجاحظ (ط. هرون) ١٤٤/٣.

فكم أدّت هذه الصيغة من غايات دقيقة.

وفضلاً عما تؤديه هذه الصيغ من غايات في الدلالة، فإنها قد تؤدي غايات صوتية نغمية. فالجاحظ لم يكن صاحب سجع وتكلف وتصنع لفظي مما عرفه العصر، وأفضى بكثير من كتّاب عصره ومن يليهم إلى اصطناع أساليب من الصنعة بلغت حداً متطرفاً.

ويميل أبو عثمان بعبارته إلى ما يمكن أن نسميه بأسلوب الموازنة، وهو أسلوب ربما أملته تلك السمة العقلية نفسها التي تضع الأفكار في الميزان، قبل أن تبلغ بها غايتها.. فكأن المضمون قد استدعى الشكل وليس العكس على أية حال.. من هنا مدّ الجاحظ يده نحو خزائن اللغة، وهي ملك متاح له، فاغترف منها ما شاء أن يغترف ليزوّد ذلك الفكر بما يناسبه من الشكل..

وإذا ما سلّمنا بأن رسالة التربيع والتدوير قد بلغ الجاحظ بها أوج مجده الفني والفكري - كما وصفها بعض أهل عصره - تقليباً للأفكار وتفنناً في الأساليب والأشكال، فإن بعض عبارات من تلك الرسالة قد يفي بغايتنا شاهداً على ما ذكرت. يقول أبو عثمان، في وصف طول أحمد بن عبدالوهاب الذي جعله هدفاً لقلمه، في هذه الرسالة:

«وبعد، فأيّ قدّ أردى وأيّ نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر وطول مجاوز للقصد؟. ومتى لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقّه، ويأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه، خرج الجسد من التقدير، وجاوز التعديل:

وإذا خرج من التقدير تفاسد . وإذا جاوز التعديل تباين.»[11]

فالعبارات زاخرة بأسلوب الموازنات والمقابلات، شكلاً ومحتوى، وكأنّ هناك مقدمات منهجية جدلية تنتهي بعد المعادلات إلى النتيجة التي بلغت أوج الموازنة، حيث تصدرت الصيغ المفضلة عنده العبارتين الأخيرتين بتوازن تام (تفاسد/وتباين). ولا يفوتنا ملاحظة التوازن التام في طول العبارتين، وفي المقابلة بين صيغتي (التقدير - والتعديل) صورة ومحتوى.

---

(۱۱) ر. التربيع والتدوير ١٥ - ١٦.

وبجمل العبارتين يقول: إن كل ما خرج عن المقدار مؤداه إلى أن يفسد بعضه بعضاً، وكل ما جاوز الاعتدال ـ الذي يفضّل الجاحظ مراراً فيه لفظة (التعديل) لا (الاعتدال) ـ كان مصيره الافتراق والاختلاف[١٢].

وقد يفوت الباحث دقة الاستعمالات اللغوية عند الجاحظ، إذا ما اكتفى بالتتبع الشكلي البحت. دون مراعاة الأسلوب الجاحظي الحافل بالتلوين والتنويع.. وما دمنا في صدد صيغتي (التفاعل والمفاعلة) فلنورد أمثلة تكشف عن هذا التلازم بين طبيعة الأسلوب والمناسبة بينه وبين الاستعمال اللغوي. هذا مثل من كتاب البخلاء للجاحظ، عن جماعة من البخلاء، يقول:

«وزعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر. ثم أنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم معهم. فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينه بمنديل..»[١٣].

لقد علّق الأستاذ إبراهيم السامرائي على استعمال الجاحظ لفعلّي (تناهدوا وتخارجوا) قائلاً بأن الأصل في (المخارجة) هو (الخروج والمبارزة أو الثورة...) وعلّق على هذه العبارة من البخلاء مفسراً:

«ومن هذا الاستعمال في «الخروج» الذي يراد به الثورة وما يشبه ذلك قول الجاحظ في البخلاء، (ثم أنهم تناهدوا وتخارجوا..)[١٤].

وقال ما يشبه هذا في (نهد): «.. نهد أحدهم على الأرض، أي خرج وهجم وثار...»[١٥].

وهذا تفسير، وإن كان معجمياً بحتاً، بعيد كل البعد ـ فيما أراه ـ عما أراده أبو عثمان. فليس الحديث بصدد ثورة أو خروج بأية حال من الأحوال. ومن الواضح

---

(١٢) يفهم السامرائي لفظة (التفاسد) على أنها ظهور قليل من الفساد والنقص، وقد لاحظ أن الاشتقاق غير معروف أو شائع في كتب اللغة (من معجم الجاحظ ٣٢٤ ـ ٢٥) ـ وقد جاء في اللسان (تفاسد القوم تدابروا وقطعوا الأرحام) وقد أورد ابن منظور بيتاً من الشعر شاهداً على الاستعمال.

(١٣) البخلاء ١٨.

(١٤) من معجم ١٢١.

(١٥) نفسه ٤١٩.

أن هؤلاء البخلاء تعاونوا وتناهضوا (أو تناهدوا)، وتخارجوا (أعان بعضهم بعضاً على (الخرج) أي إخراج المال (أو الخرجية، كما تعرف في العامية العراقية ـ وهي المصروف من المال). وليس أدل على هذا المعنى من قوله مردفاً: (. . . وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم معهم. .).

من هنا كان من الضروري أن يفهم النص الجاحظي من منطلق الأدب الجاحظي نفسه.

ومثل آخر طريق مما له علاقة بأسلوب التبادل والمشاركة، معبراً عن تلك العلاقات الاجتماعية التي عُني أبو عثمان بوصفها والحديث عنها، ما قاله في وصف علاقات القيان وأساليبهن في الخداع، يقول:

«إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودّها. . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء. . . فإذا أحسّت بأن سحرها قد نفذ فيه وأنه قد تعقّل في الشرك، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه. .»[١٦].

فجميع صيغ التفاعل قد أدت غايتها في أكمل وجه. . ولا يفوتنا أن نلاحظ، بالمناسبة، قول الجاحظ تعبيراً عن الوقوع في الشرك، (تعقّل في الشرك)، وهو من تلك التعابير الخاصة. . .

وينقلنا هذا إلى نمط آخر من الاستعمالات اللغوية التي ينحو فيها الجاحظ منحى التوسع في الاشتقاق أو الدلالة، مستجيباً لدواعي العصر من جهة، وللقدرة اللغوية التي يتمتع بها، مما أكسبه ثقة ومرونة في التعامل مع المفردة أو التعبير. . ومن مظاهر هذا التوسع المفيد تلك الاشتقاقات التي دعت الحاجة إليها للتعبير عمّا جدّ في العصر من اتجاهات ومذاهب عقيدية أو فلسفية أو غيرها. . ويحضرني، في هذا الصدد ملاحظة طريفة للأستاذ أحمد أمين، حول تسميات الفرق الإسلامية وما تنمّ عليه من أصولها القديمة أو المولدة. فقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين ـ محقاً ـ أن أسماء الفرق في صدر الإسلام تمضي على اشتقاق قياسي مثل: الشيعة، الخوارج، الأزارقة. . . حتى إذا تقدمنا في العصر وجدنا الاشتقاق يتّخذ صورة مولّدة، مثل:

(١٦) رسائل الجاحظ (ط هرون) ١/١٧١ ـ ١٧٢.

الزيدية والشعوبية والدهرية . . وكأنّ الصياغة نفسها تدلّ على تأخر زمانها في ميلها إلى هذه المصادر الصناعية .

أما أبو عثمان، فقد ذهب أبعد في التوسع فصاغ من هذه المصادر (على وزن تفعل) أفعالاً مثل (تدهّر، ويتدهّر)، انتسب إلى القول بالدهرية، أو (تشعّب) - من الشعوبية . . ويؤدي هذا التشقيق كثيراً من المعاني التي يبتغيها مثل قوله، (زأبق رأسه)[17] - طلاه بالزئبق، و(زفّت) و(تدنيقه في نفقاته)[19]، ومنه قوله (يبعّضون) و(يبرغتون)[20]. أو قوله (فإن الرجل يتنخس في بيع الزنج)[21]. أو قوله (ألا ترى أني منقرس مفلوج . .)[22].

وجميع هذه الاستعمالات جاءت حقيقية، ولكن هذه الاشتقاقات تكتسب أهمية خاصة حينما ينحو الجاحظ فيها منحى التصوير، وذلك حين ينقلها إلى دائرة المجاز البلاغي، ويتصرف في مدلولاتها بما يتناسب وغايته فإنها حينذاك تحمل سمة التصرف والأسلوب الجاحظي الأصيل. ومن هذا القبيل، الأمثلة التالية:

يصوغ الجاحظ لفظة (التصندل) للدلالة على معنى التغزل، فيقول:

«كان عيسى بن مروان شديد التغزّل والتصندل»[23].

وشبيه بهذه الصياغة من الاسم الجامد استعمال لفظة (التطوّس)، حيث يقول:

«وعامّة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمّهم وتصنعهم لما يملكون إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء. ولو لم يكن إلاّ التنمّص والتطيب والتطوّس والتعرّس والتخضّب لكان في ذلك ما كفى . . . »[24].

---

(17) الحيوان ٥/٢٧١ .
(18) رسائل الجاحظ (هرون) ٤/٢٦١ .
(19) البخلاء ٢٤ .
(20) الحيوان .
(21) نفسه ٥/٢٨٩ .
(22) رسائل (هرون) ٣/١٤٤ .
(23) الحيوان ٦/٢٦٣ .
(24) نفسه ١/١١٠ .

وهذه الصفات، على اختلاف مدلولاتها الدقيقة، تفيد غاية واحدة، هي التصنع والتزين في المظهر. ويبدو لي، مع ذلك، أن في (التطوس والتصندل) مسحة من الاستعمال العامي. مما شاع على ألسن الناس في وصفهم. . وقريب من هذا، استعمال وصف (النيزكية والتخلّع)[٢٥] وهي من صفات الشطار.

والجاحظ مولع بصيغة أخرى من صيغ (تفعّل)، وهي (التوقّح) ومنها الموقّح، ولا يراد بها الاستهجان، بل هي بمعنى المجرّب والمكتسب جرأة بالدربة والمران، أو ما أشبه. يقول:

«ويقال إنهم لم يروا خطيباً قط بلدياً ألّا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلفاً أيام رياضته كلها، **إلى أن يتوقح وتستجيب له المعاني**. . .»[٢٦].

ويقول، . مخاطباً قارىء كتابه:

«وإن كنت صاحب علم وجدّ، **وكنت ممرّناً موقحاً، وكنت الف تفكير وتنقير**. . .»[٢٧].

وهكذا تؤدي صيغة (تفعّل) كثيراً ما يريده أبو عثمان، حقيقة أو مجازاً. . مثل قوله (تفتّيت) و(ترزّنت)، وقد مرّت بنا (تعقّل) ـ وقع في العقال ـ. . . وهكذا. . ومن طريف ما ورد من هذه الصيغة، منقولاً عن بعض شخصيات العامة، قوله (تبنّكت خاتون)[٢٨]، ومن الواضح أنها مصوغة من لفظة أعجمية، هي (بانو) ـ بمعنى (سيّدة).

لقد اشتهر الجاحظ، عند عامّة الدارسين، بولعه الشديد بأسلوب التكرار والترادف، كما عرف بالاستطراد والتفصيل. . ولكلٍّ من هذه السمات غايات تؤديها. . وليس بنا حاجة هنا إلى الوقوف على تفصيل ذلك، ممّا هو شائع ومعروف.

---

(٢٥) يقول (وكان صعترياً صاحب نيزكية وتخلّع. . .)، قال الأستاذ هارون: «الصعتري»، الشاطر. . . عراقية. . .»، البرصان. . (ط هرون)» ٣٣٨.

(٢٦) البيان ١/١١٢.

(٢٧) الحيوان ٣/٦.

(٢٨) البخلاء، ١٤.

ولكن التكرار عنده يتخذ صوراً وأشكالاً تختلف واختلاف السياق والمضمون. . فمن الواضح أن عصر الجاحظ شهد تحوّلات عظيمة في المفاهيم والمدلولات وقد وجد المترجمون إلى العربية عنتاً شديداً في سبيل التعبير عنها بلغة سليمة ومناسبة.

ولقد كان دور الجاحظ مزدوجاً في مواجهة الثقافات الجديدة:

فهو يواجهها لتستوعبها الثقافة واللغة العربية التي كان الجاحظ من أكبر المدافعين عن مقوماتها. .

وهو يواجهها، كذلك مناظراً بينها وبين تلك الأصول العربية والإسلامية، محتجّا ومجادلاً. . ذلك أن الجاحظ لم يكن أديباً عادياً يصوغ وينمّق، ولكنه أديب متكلم، تداخل الجانبان في ثقافته وامتزجا امتزاجاً كان نتاجه هذا الأدب الجاحظي المتميز. . والجاحظ معنيّ، فوق ذلك كله بثقافة قارئه. ولعلنا لا نخطىء الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن الجاحظ كان من أوائل كتّاب العربية الذين اتخذوا الكتابة وسيلة للتعليم، من جهة، ووسيلة لعرض الحجج والمناقشات الكلامية. من هنا فقد أصبحت رسائله معرضاً زاخراً لفكره الكلامي، وهي موجهة لعامّة القرّاء، كما هي موجهة إلى الخصوم وأصحاب الجدل. هنا يأتي دور الأسلوب الجاحظي الخاص به. فقد وجد أبو عثمان ضالته في أسلوب التكرار والترادف الذي أدّى عنه شتى الغايات. فهو أسلوب تعليمي جيد، وهو كذلك وسيلة متميزة عند نقل فكرة جديدة إلى القارىء، وهو وسيلة للتأني والنظر في الحجج الكلامية. وفوق هذا وذاك، فإن التكرار والترادف يمكن أن يضفيا على الأسلوب مسحة جمالية خاصة، كان الجاحظ من أمهر من استغلها.

ولقد وجد الجاحظ في العربية آفاقاً واسعة تعينه على الوصول إلى غرضه، لاسيما وهو المتبحر في أصولها الباحث عن دقائقها. ولا نبالغ إذا قلنا إن بعض كتاباته يمكن أن تقوم مقام المعاجم اللغوية في إيجاد الألفاظ والعبارات المناسبة من أجل تأدية المعاني الدقيقة. . . ولا يفوتنا أن نذكر أنّ الجاحظ ينتهز كل فرصة متاحة، في كتاب الحيوان خاصة، ليأتي بتلك الفوائد اللغوية المتخصصة التي استطرد إليها كلما وجد حاجة إلى ذلك. . . ولنقف في ما يلي عند بعض الأمثلة الموضحة لهذا كلّه:

في رسالته الموسومة (مناقب الترك وعامّة جند الخلافة)، يقدّم الجاحظ احتجاجات كل قوم ومفاخرهم بالأفعال أو بالأنساب أو ما أشبه. . وفي جملة ما يقول في وصف خلوص النسب، العبارات التالية: «. . . وكلّهم، مع ذلك، عربيّ خالص غير مشوب ولا معلهج ولا مذرّع ولا مزلّج. . .» [٢٩].

وواضح أن هذه الألفاظ جميعها تؤدي معنى اختلاط النسب، ولكن المعلهج غير المزلّج وهذا غير المذرّع. فالمعلهج، عربيّ الأب من أَمَة. والمذرّع من أُمّه أشرف من أبيه، والمزلّج، الملزق بالقوم وليس منهم. . وهكذا. .

ومن هذه الدقائق في النظر تفسيره ما يلي، يقول: «والدّجاج الخلاسيّ من بين النبطيّ والهندي، وإذا كان مثل ذلك بين البيضاء والحبشي فهو خلاسيّ فإذا كان بين البيضاء والسّندي فهو بيسريّ. .»[٣٠].

وفي مثال آخر نلاحظ دقّة التمييز بين دلالات الألفاظ، حيث يقول في إحدى حكايات البخلاء: «. . قال رجل منهم لصاحبه، وكانا إمّا متزاملين وإمّا مترافقين. . .»[٣١].

فهناك فرق دقيق بين (الزمالة) و(الرفقة). جاء في اللسان: «. . . فالزميل الرديف على البعير. . وقيل إذا عمل الرجلان على بعيرهما فهما (زميلان). فإذا كانا بلا عمل فهما (رفيقان). .»[٣٢].

ومن الترادف الطريف الذي يسم أسلوب الجاحظ بتلك النكهة الكلامية الخاصة به، قوله في التربيع والتدوير، مثلاً:

«. . . وهو رجل طينته حرّة وعرقه كريم ومغرسه طيّب، ومنشؤه محمود، غذّي بالنعمة وعاش في الغبطة، وأرهقه التأديب وجرى في عرقه ماء الحياء وأحكمته التجارب، وعرف العواقب، فأفعاله كأخلاقه، وأخلاقه كأعراقه، وعادته

---

(٢٩) رسائل الجاحظ (ط هرون) ٣/١٦٩.
(٣٠) كتاب البغال. رسائل الجاحظ ٢/٢٩٨.
(٣١) البخلاء ١٨ ـ ١٩.
(٣٢) ابن منظور، لسان العرب (زمل).

كـطبيعته وآخـره كأوّلـه، تحكي اختياراتـه التوفيق ومذاهبه- التسـديـد، لا يعـرف التكلف، ويـرغب عن التجوّز وينبـل عن تـرك الإنصـاف ولا يمتنـع عليـه معـرفـة المبهم. ولا يلحّـج باستبـانة المشكـل، ولا يعرف الشـك إلّا في غيره، ولا العيّ إلّا سماعاً. . . »[٣٣].

ولا يعدم أبو عثمان اللفظة المناسبة حينـما يرغب في التعبـير عن تلك الدقـائق الكـلامية أو العلميـة. ويتجلى هـذا في تلك اللغة الـدقيقة التي تـوفّر عليهـا كتـاب الحيوان، سواء في وصف أجزاء الحيوان أو أصواتها، وألـوانها، ومراحـل عمرهـا أو غير ذلك. . فقد عانى الجاحظ ما عاناه من لغة المترجمين وقد كـان جهده واضحـاً في إعـادة صياغـة ما نقله عن كتـاب أرسطو في الحيـوان مما قـام بنقله ابن البـطريق في مواطن عديدة من الكتاب. . ومن أمثلة ذلك، ما يلي:

يقول ابن البطريق مثلاً في وصف ما يفعله الخنزير: «فـإذا جفّ ذلك الـطّين تواقع لطخته بغيره. . . » وينقلها الجـاحظ إلى ما يـلي: (. . . ثم يذهب إلى الـطّين والحمأة فيتلطخ به، فإذا تساقط عاد فيه. . . »[٣٥].

وبـدلاً من عبارة ابن البـطريق (يجلس على البيض ويسخّنـه) يقول الجـاحظ (تحضن) فقط، وهي تفي بمقدار العبارة كلهـا. و(جرو) الخنـزير عنـد ابن البطريق هو (الخنّوص) عند الجاحظ. وهكذا.

ويحفل كتاب الحيوان بتلك الاستطرادات اللغـوية التي حـرص الجاحظ فيهـا على أن يأتي من اللغة بما يناسب الغاية. . . ومن هذه الاستطرادات المذكورة قوله:

«. . . وما كان من الخفّ فهو مشفر وما كان من الغنم فهو مرمّة وما كـان من الحافر فهو جحفلة. . . »[٣٦].

ومنها في وصف أصوات الحيوانات ودرجاتها:

---

(٣٣) ر. التربيع والتدوير (ط شارل بيلّا) ٥٨ ـ ٥٩.
(٣٤) أرسطو، طباع الحيوان ٢٨٧.
(٣٥) الحيوان ٤/٥٤.
(٣٦) الحيوان ٦/٥٢١.

«. . . وما كان من الخفّ فصوته بغام، فإذا ضجّت فهو الرّغاء، فإذا طربت في إثر ولدها قيل حنّت فإذا مدّت الحنين قيل سجرت. . .»[٣٧].

ولننظر إلى مثل من أمثلة هذا التتبع المدهش، في قوله:

«. . . ثم لا يخرج الحيوان، بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة كما يقال الصامت لما لا يصنع صمتاً قط، ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لما لم يتكلم قط. فيحملون ما يرعو ويثغو وينهق ويصهل ويشحج ويخور ويبغم ويعوي وينبح ويزقو ويضغو ويهدر ويصفر ويصوصي ويقوقي وينعب ويزأر وينزب ويكش ويعجّ، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض»[٣٨].

ومن الطريف، مع ذلك، أن نلاحظ أنّ المصطلح عند الجاحظ لم يقتصر على البحث عن اللفظة أو العبارة المفيدة للمحتوى العلمي، بل كان اهتمامه بكلّ ما جدّ على الحياة العربيّة، لا يقلّ عن اهتمامه بعلم الكلام أو العلوم الطبيعيّة. فقد أثبت الجاحظ مصطلح المكدين واللصوص والعيّارين والفتيان بحرص لا يقلّ درجة عن حرصه على المصطلح العلمي. وقد جعل جانباً من كتاب البخلاء معرضاً لبعض هذه الشخصيات وللغتها منقولة مباشرة عن أصحابها. . . هذا فضلاً عن رسائل متخصصة بهذه الفئات من المجتمع، كتبها أبو عثمان، وإن كان أكثرها لم يصل إلينا حتى الآن.

ومن الطريف أن العامية أو استعمالات اللغة اليومية التي تظهر في كتابات أبي عثمان هي اللهجة العراقية، وربما البصرية بخاصة، سواء كان ذلك في الألفاظ الدالة أو التعابير المحلية الشائعة أو حتى الأمثال العامة. . .

وفي ما يلي أمثلة دالّة على هذا؛ وكثير منها جاء في كتاب البخلاء بخاصة:

في وصف الناس لبخيل زاد بخله على بخل أبيه، يقولون (. . . فخرج فوق أبيه)[٣٩]. فالعبارة رغم تركيبها الفصيح، لها مسحة عامية شائعة. . .

---

(٣٧) نفسه.

(٣٨) نفسه ١/ ٣١.

(٣٩) البخلاء ٤٤.

ومن ذلـك قولـه: (فوضعت قـدّامهم سمكة، فجلط بطنها جلطة. .)[٤٠]. وهذا مما يعبر به العراقيون بمعنى (نزع بطنها. .)، والفعل لا يحمـل هذه الـدلالة في الفصحى.

ومن الألفاظ الدالة على أصول عامية:
استعـمال لفظة (عجـوز) للزوجة. ومنـه في البخـلاء أيضـاً، يقـول أحـدهم (فقلت للعجوز: لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة. . .)[٤١].

ومنه استعماله لفظة (شهوة) وهي عند العامة الـطعام الـذي يشتهى في بعض الأحيان، وليس مما يتخذ اعتياداً. . وهكـذا جاءت عنـد الجاحظ حيث يقـول (وأن أهله الحّوا عليه في شهـوة)[٤٢]. وهي هنـا دقيقـة التعبـير جـداً عن القصـد، لأن الجاحظ يريـد أن كل طعـام عندهم أصبـح يقوم مقـام (الشهوة) أي ممـا يشتهي في النادر القليل. . .

والجدير بالذكر أن الجاحظ يستعمل لفظة (شهيّ) بطريقة غير مألـوفة، حيث يصف بها شدة شهوة المشتهي لا الشيء المشتهى، كما هو شائـع في استعمالهـا. يقول في وصف الـذئب (لأن الذئب وحشي جـداً وشهيّ جداً)[٤٣]. وهـو فصيـح، وإن يكن غير شائع في الاستعمال. .

ومن هـذه الاستعمالات الـطريفـة أسـماء الأدوات المحليـة التي ألفتهـا البيئـة العراقية أو البصرية بخاصة، مثل لفظة (بروج ـ مفردها برج) لا للدلالة على بروج الفلك أو الحصـون. . بل يـريد بهـا (بيوت الحـمام) وهي دلالة لا يـوردهـا المعجم ولكنها لا تزال شائعة في اللهجة العراقية بهذا المعنى[٤٤]. ولا حاجة هنا إلى الدخول في تفاصيل الأدوات الزراعية التي شاعت في منطقة السواد بخـاصة، فهي كثـيرة في كتابات أبي عثمان. .

---

(٤٠) نفسه ٢٦.
(٤١) نفسه ٢٦.
(٤٢) نفسه ١١٩.
(٤٣) الحيوان ٢/٢١٧.
(٤٤) نفسه ٣/٢٦٩، من معجم ٣٦.

وهكذا تصبح كتب الجاحظ معرضاً زاخراً بالحياة في جميع صورها الثقافية العقلية أو المادية اليومية ولا يفوتنا في هذا الصدد أن الجاحظ مع ذلك، وكذا فعل المترجمون إلى العربية من قبل، حينما لم يجد في العربية ما يفي بغايته، لم يجد ضيراً من استعمال اللفظة الأجنبية، معرّبة بصورة من الصور. . وقد شاع هذا المنحى بخاصة في الأدوات والمستعملات المادية، ولاسيما في المآكل والملبس، مما لم يكن له ما يقابله في العربية. . وهو كثير في كتابات الجاحظ الذي عنى بتتبع كل ما يخص حياة الناس من حوله. على أن ذلك لم يؤدّ بالجاحظ، بأية حال من الأحوال إلى التفريط بالمستوى الرفيع للغة العربية. ولعل في هذا ما يفيد كتّاب القصة أو فنونها المختلفة في تعاملهم مع اللغة، فقد سبق أبو عثمان إلى اتخاذ ما يناسب الأحوال والموضوعات من لغة. . .

ويلاحظ بعض المعنيين بالدراسات اللغوية، أن الجاحظ يتمتع بحسّ لغوي رفيع، يتجلّى في حسن تصرفه في استعمال الأفصح ممّا جاء في لغة التنزيل، أو مما ثقفه من أعراب بادية البصرة أو نحاتها[٤٥].

وتظهر ثقة الجاحظ بلغته في تلك الجموع غير الشائعة التي يفضلها على الشائع المتداول، وإن كان ما يستعمله أقرب إلى القياس. . كما في جمعه (كسرى) على (كسور) وليس (أكاسرة) يقول:

«فالنعمان مع هذه المثالب قد رغب بنفسه عن مصاهرة كسرى، وهو من أنبه الكسور. .»[٤٦] ويجمع (مرآة) على (مرائيّ)[٤٧]، وثأر على (ثؤور). وقد علّق الأستاذ إبراهيم السامرائي على هذه الأخيرة بقوله:

«. . ولم أجد جمعاً لـ(ثأر) على (ثؤور)، إلاّ في قول الجاحظ، وهو كلام فصيح يوجبه القياس، وخلو المعاجم منه ليس بشيء»[٤٨].

---

(٤٥) يراجع في هذه الملاحظات القيمة التي جمعها الأستاذ عبدالسلام هارون في فهارس اللغة التي أثبتها لكتاب الحيوان أو لرسائل الجاحظ التي قام بتحقيقها ونشرها. . .

(٤٦) الحيوان ٤/٢٧٧.

(٤٧) التربيع والتدوير ٨٨.

(٤٨) من معجم الجاحظ ٦٣.

وينفرد أبو عثمان بجمع (عش) على (أعشة)[٤٩]. ومن الجموع التي وردت عنده (تاريخ) على (تاريخات)[٥٠] و(تحسين) على (تحاسين)[٥١]، بل جاء في موضع من الحيوان جمع (راس) على (راسات)، وإن كنت أشك في صحة النص لأنه لا يفيد المعنى شيئاً، قال:

«والنهم يعرض للحيات، والحية لا تمضغ، وإنما تبتلغ ذوات الرّاسات، وهي غير ذوات الأنياب. .»[٥٢].

فمن الواضح أن هناك تحريفاً في النص، وإلّا فما هي الحيات (ذوات الراسات) التي هي (غير ذوات الأنياب)؟. وقد لاحظ الأستاذ عبدالسلام هرون في الحاشية قائلاً: «. . . لم أر هذا الجمع إلا للجاحظ، والرأس يجمع على رؤوس وأرؤس».

وينفرد الجاحظ كذلك باستعمالات لغوية لا تكاد تجدها عند سائر كتّاب عصره، كما لا نجدها في الشائع المتداول في الاستعمال، وهي فصيحة لا غبار عليها، على أية حال. . . من ذلك مثلاً، استعمال الفعل (ما تلعثم أن) بمعنى (ما لبث أن. . .)[٥٣]. وقد أورد الأستاذ عبدالسلام هرون أمثلة أخرى لهذا الفعل، مما لا يشيع في الاستعمال، مع وجوده في اللغة، مثل (ما تلوّم، وما عتم، وما تلبّث. . . إلخ).

ولأبي عثمان تعبيرات خاصة تتكرر في أسلوبه، منها طريقة تعبيره بحرف (كم)، في مثل قوله:

«. . . وقال لي كم شئت من أصحاب القصب والبواري. .»[٥٤]، أو قوله: . . . وخبرني بذلك كم شئت من ثقات أصحابنا. . .»[٥٥]، أو «. . . .

---

(٤٩) الحيوان ٣/٢٥٩.
(٥٠) التربيع ٢٥، والعثمانية ٦.
(٥١) الحيوان ٣/٢٤٤.
(٥٢) الحيوان ٢/٥٦.
(٥٣) الحيوان ٢/٢١٨.
(٥٤) كتاب البغال، رسائل الجاحظ (هرون) ٢/٧.
(٥٥) الحيوان ٢/١٧٨.

وخبّرني كم شئت من أطباء الناس وأصحاب التجارب»[٥٦].

وقد تأتي (كم) و(كأيّن) عنده أحياناً، مجرورتين بحرف جرّ، ومنه قوله:

«. . . مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة. . »[٥٧]. وقد علق الأستاذ إبراهيم السامرائي على قول الجاحظ هذا بقوله:

«. . . قال النحاة إن (كم) مع موادّ أخرى من الألفاظ التي لها الصدارة في الكلام، أما في كلام الجاحظ فقد جاءت مجرورة بـ (من)، وليس من ضير في هذا، فقد تجرّ بالباء فنقول (بكم هذا) غير أنها وقعت ـ وهي مجرورة بـ (من) ـ في حشو جملة، فلم تتحقق الصدارة.

هذا ما أردت أن أنبّه عليه من الاستعمالات الجاحظية ذات الفائدة التاريخية. . »[٥٨].

ومن الاستعمالات التي تبدو وكأنها من آثار التوليد والحداثة إدخال (أل) التعريف على (بعض)، وهذا مما كرهه بعض النحويين وقالوا إن العرب لم تقل به، وإن كان بعض نحاة البصرة قد أجازه، أمثال سيبويه والأخفش[٥٩]. وقد أباحه الجاحظ لنفسه، ربما، لتلمذته على الأخفش.

وأخيراً، قد يتصرف الجاحظ في بعض الاستعمالات النحوية مما لم يتسامح به النحويون، ولكن لغة الجاحظ مع ذلك لها من المنزلة والمكانة ما يجعلها حجّة على النحاة أنفسهم. من ذلك، مثلاً، اتخاذه اسم المفعول من فعل لازم لا يعقبه جار ومجرور أو ظرف أو مصدر، كما في قوله:

(. . . اثنان منهومان، طالب علم وطالب دنيا)[٦٠].

---

(٥٦) نفسه ٥/٣٧٤.

(٥٧) رسالة في النابتة، رسائل (هرون) ٢/٧.

(٥٨) من معجم الجاحظ ٣٦٥.

(٥٩) تعليق الأستاذ عبدالسلام هرون على هذا الاستعمال عند الجاحظ في رسالته (في الجدّ والهزل) رسائل ١/٢٤٨.

(٦٠) رسائل (ط هرون) ١/١٥٧.

وقد علّق الأستاذ السامرائي على هذا قائلاً:

«فانظر ـ أيها القارىء ـ أن العربية لا تضيق بأقوال النحاة، بل تتسع لهم ولغيرهم. . .»[٦٢].

(٦١) الحيوان ٧/١٢٥.

(٦٢) من معجم ٤٤٦.

ظواهر أسلوبية في شعر المتنبي

أ. د. عبده بدوي
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

يعتبر كل شيء في المتنبي فريداً في بابه، فهو من ميلاده إلى موته عاش حياة عريضة أشبه ما تكون بقصة محكمة مثيرة للخيال وقادرة على التجوّل في كل العصور، وفي ضوء هذا يكون أنموذجاً له خصوصيته بين الشعراء ذلك لأنه خرج يطلب بالشعر الملك، فكان أن أصبح ملكاً على الشعر لا ملكاً على الحياة، ومن هنا عاش بين التوتر والسجن والخَطَر والكيد والهجرة، فقد جرّ عليه الشعر الكثير، وكان فيما جرّه القتل البائس الحزين، ولكنه عرف كيف يقوم من الموت، ثم يتجوّل في كل العُصُور، لا كالنسيم ـ على عادة الكثير من الشعراء ـ ولكن كالعواصف التي لا تتمسح بأشجار الكون، وإنما تقتلعها اقتلاعاً شديداً، المهم أنه ظل دائماً يخلق حوله أعداء وأنصاراً[1] ذلك لأنه عرف كيف يوائم بين نفسه المحتدمة وبين ثقافة عصره

---

(١) كان هناك من أسال دمه على الحقيقة بعد نقاش كابن خالويه، ومن تجاهله كصاحب الأغاني، ومن تحامل عليه كالصاحب بن عباد على حد ما نعرف من كتابه «الكشف عن مساويء المتنبي» وابن حنزابة الذي ألف رسالة بعنوان «المنصف للسارق والمسروق» بالإضافة إلى دور الحاتمي، وابن العميد، ومن تحامل عليه في فترة كأبي علي الفارسي.. الخ وهناك من عرف فضله كابن جنى، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي العلاء المعري، والبديعي، ومع أن السلسلة تستمر إلا أن أعمق الدراسات ما قام بها المحدثون على نحو ما فعل إبراهيم عبدالقادر المازني حين ربط بينه وبين نابليون في عدد من الصفات، وحين رأيناه مرة أخرى يقول: لو كان الحظ آتاه وحباه الملك لحاول أن يكون كالأسكندر المقدوني ـ حصاد الهشيم ص ١٤١، ١٤٢، ونحن نعرف أن العقاد قال أن فلسفته تتقارب مع فلسفة نيتشه، بل لقد أورد احتمالا يقول أن المتنبي كان معروفاً عند نيتشه ـ مطالعات في الحياة ٢٣٠ ـ ٢٣١، وهناك من يرفع شعره في الحروب إلى المستوى المعروف في الملاحم الكبرى كالألياذة، =

التي كانت مزيجاً ذكياً بين العديد من الحضارات، ولأنه عرف كيف يفيد من هذا كله، بحيث ينطبق عليه القول بأنه كان شاعراً يتفلسف[٢]، وأنه من خلال شعره قد تفجرت عبقرية اللغة العربية، ووصلت إلى المدى الأسمى الذي يمكن أن تقدمه اللغة، بل يمكن القول بأنه عرف كيف يخاطب القارىء العربي بالطريقة التي ترتضيها مسيرة الحضارة ككل، والتي نعني بها البساطة والحيوية قبل أن يقوم اتجاهُ أبي تمام بانحناءة خطرة في هذا المجال، صحيح أن البحتري حاول تصحيح مسيرة أستاذه أبي تمام، ولكن الذي حسم الموقف كان المتنبي، المهم أن المتنبي لم يكن يتراجع في مسيرته، فهو قبل الوصول إلى سيف الدولة قد ملأ الجو حوله ضجة بحيث انعقدت الأبصار عليه، وحين تغنى عند سيف الدولة بالروميّات وبالأمجاد العربية وصل إلى القمة، وفي مصر ـ والمناخ غير المناخ ـ وصل إلى قمة تختلف طبيعتها عن القمة الأولى، وفي فارس وصل إلى قمة جديدة تختلف عن الأولى والثانية، والثالثة، فهو في الأولى كان يجرب باقتدار، وهو في الثانية كان قد سكر بالمجد الذي وصل إليه، وهو في الثالثة كانت عيناه على الأمل الذي وعد به، وهو في الأخيرة رغب أن يغني غناء صافياً ـ للحياة ـ واليأس إحدى الراحتين ـ وأن ينتمي إليه العالم لا أن ينتمي إلى رجاله في هذا العالم. . ولكنه لم يكمل أغنيته، فقد قتل وهو قادر على العطاء. . وأخيراً فإنه إذا كان قد قال: الشعر على قدر البقاع[٣]، فإنه يمكن القول بأن الشعر على قدر النّفْس!

= والشاهنامة على نحو ما ذكر عبدالوهاب عزام في ذكرى أبي الطيب ص ٨٦، وهناك من يدرسه في ضوء مقولة العالم النفسي أدلر التي ترد كل موهبة سامية إلى الرغبة في التعويض في ضوء ما قاله على أدهم في كتابه على هامش الأدب والنقد ص ٧٨، ٧٩، وهناك من ركز على أثر القرمطية في شعره كما سينيون وطه حسين ـ عن الفن ومذاهبه ص ٣١٢، ٣١٣، مع المتنبي. . . الخ. وما أصدق المقولة التي قالها ابن رشيق في العمدة، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس، ومقولة الثعالبي في يتيمة الدهر. . كادت الليالي تنشده والأيام تحفظه، ولله در القائل

ما رأى الناسُ ثاني المتنبي	أي ثان يُرى لبكر الزمان
كان من نَفْسه الكبيرة في جيـ	ـشٍ ومن كبرياه في سلطان
هو في شعره تَنبَّا ولكنْ	ظهرت معجزاته في المعاني

(٢) إذا كان أحمد أمين يشك في ثقافته الفلسفية ـ الهلال. عدد خاص بالمتنبي ١٩٣٥ ـ فإن الدكتور محمد مندور لا يستبعد هذا ـ النقد المنهجي عند العرب ١٦٦.

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ٢/ ١٤٦.

لقد كان هناك من تعرّض لعوامل خلود المتنبي، فذكر أن السبب في ذلك يرجع إلى أنه أقوى الشعراء انفعالاً، وأحدّهم عاطفة، وأنه أبعدهم تفكيراً وأسدهم رأياً، وأنه أكثرهم ضرباً للحكمة والمثل، بالإضافة إلى أنه أشدهم اتصالاً بالنفس الإنسانية في كافة حالاتها[٤]، وهناك من أرجع عوامل خلوده إلى غزله بالأعرابيات، وغلبة التشاؤم والحزن على شعره، والغناء الحار للبطولة، وضربه الحكم والأمثال، بالإضافة إلى حسن تعبيره عن طموحه واعتداده بنفسه[٥] . . ونحن بدورنا نرجع هذه العوامل إلى أنه كان ثائراً يعرف عصره ـ ضعفاً وقوة ـ ويغترب عنه، وفي الوقت نفسه كان يعرف قدراته ويعلي من قيمة الشعر، ويتعامل مع غير العادي، ويحسن التعبير عن قضايا إنسانية كبيرة متجددة.

* * *

ـ ٢ ـ

وما يهمنا هنا هو التعرّف على بعض خصائص التّعبير عنده، والبحث لن يسير في مسارات مجهولة، ذلك لأن المتنبي أحسن إلى نفسه حين جمع بنفسه ديوانه، ورتّبه وشرح بعض أبياته، وأسمعه لخلصائه، ثم إن ديوانه قد رواه ثقاةٌ كثيرون منهم ابن جني، وعلي بن حمزة البصري، وأبو زكريا التبريزي، وعبدالقاهر الجرجاني، وأبو البقاء العكبري، والقاضي الجرجاني. . إلخ ونخصُّ هنا بالذّكر دور أبي العلاء المعري في: اللّامع العزيزي ومُعْجِز أحمد، ولعل الذي أعطى لديوانه هذا «الأحكام» أنه كانتْ هناك حلقات يدرس فيها شعره، وقد كانت منها حلقة شهيرة في جامع عمرو بن العاص، كما كانت هناك حلقات تعقد للغضّ من شعره على نحو ما نعرف من حلقة ابن وكيع الذي كان يفعل ما يفعل إرضاء لابن حِنزابة وزير كافور وعلى نحو ما نعرف من كتابه المنصف للسارق والمسروف منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي، المهم أنه أصبح للمتنبي أدب خاص به، وأنه اهتم به أكثر مما اهتم بأي شاعر في العربية.

---

(٤) على هامش الأدب والنقد. علي أدهم. ص ٦٣.

(٥) الفن ومذاهبه. د. شوقي ضيف. ص ٢٦٠ وما بعدها.

في مطلع أسلوبياته التي نهتم بها ما يسمى ببراعة الاستهلال، فمن المعروف أن العرب يهتمون بهذا النوع من البراعة إلى حد قول الصاحب «إن أول ما يحتاج إليه في الشعر حسن المطالع والمقاطع»[٦] ويسوّغ ابن رشيق لهذا بقوله «لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح. . والشعر قفل أوله مفتاح، فينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، لأنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول شعره، لأنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة، وليجعله حلواً سهلاً وفخماً جزلاً»[٧]، ومثل هذا جاء في الوساطة[٨]. . ومما لاشك فيه أن هناك مطالع قد سلمت للشاعر، ولن يخطئها القارىء في ديوانه، ولكن الشيء الواضح هنا أن المتنبي لم يكن يحسن المطالع عادة، فله مقاطع رديئة تشبه وأمثالها بما يقوله العامة «أوّل الدنّ درديّ»[٩] وقد تنبه ابن رشيق لشيء من هذا حين ذكر أن بعض مطالعه يحتاج إلى مفسر كالأصمعي، وأنه يفعل ذلك ثقة بنفسه وإغراباً على الناس[١٠]، ونحن لا ننسى قول الصاحب بن عباد عن مطلعه:

أراع كذا كلّ الملوك همام وسحٌ له رسل الملوك غمام

«إنه يفتح طرق الكرب، ويغلق أبواب القلب»[١١] ونحن نرى أن الأمر يتصل بشخصية المتنبي فهو لم يكن سهلاً «ومستأنساً» حيث ترق مطالعه ، ثم إنه لم يكن يعبأ كثيراً بمن يسمع، بل إن الطبيعة الشعرية عنده تكون في أول أمرها غامضة ومستعصية إلى حد ما ثم تتكشّف التجربة بعد ذلك بأكثر من لحظة تنوير، كما أننا نجد أنه في بعض مطالعه لم يكن يقصد إلا تهيئة الجو لموسيقى القصيدة، بل إننا نحسن أنه يريد أن يتعالى على المستمعين، وأن يرفعهم إليه، وذلك بأن يلقي إليهم ما يحيّر ويثير، فهو يريد أن يفرغ في أول الأمر آذانهم وأفهامهم، ثم يتصدّق عليهم بعد ذلك بالفهم، ثم إن طبيعة قصائده، وبناءها التشكيلي، وموسيقاها

---

(٦) الكشف عن مساويء المتنبي للصاحب بن عباد ص ١٠٠ .
(٧) العمدة ١/١٤٥ .
(٨) ص ٤٩ .
(٩) الصبح المنبي ٢/١٤ .
(١٠) العمدة ١/٦٠ .
(١١) الكشف عن مساويء المتنبي ص ١٨ .

المحتدمة تتنافى إلى حد ما مع تلك الصور الجمالية المبتسمة التي رسمها النقاد للافتتاحيات البارعة، ومن زاوية أخرى يمكن القول بأنه لم يكن يستعطف أسماع الحضور ويستميلهم إلى الإصغاء ـ على حد تعبير صاحب الوساطة ـ وإنما كان يتحداهم، تأمل مثلاً قوله:

صِلةُ الهجْرِ لي وهجْرُ الوصالِ نكَساني في السُّقْمِ نُكْسَ الهلالِ
(و)سِرْبُ محاسِنُه حُرِمتُ ذَواتِها داني الصِّفاتِ بعيدُ مَوْصُوفاتِها
(و)وفاؤكما كالرَّبْعِ أشْجاهُ طاسِمُهُ بأن تُسْعِدا، والدّمعُ أشفاهُ ساجمه

ثم أنه كان عجلاً في المقدمة فكان يذكر تشبيباً شبيهاً بمحور القصيدة ـ ولعل وراء ذلك أنه لم يكن خالصاً للحب ـ ثم يفعل مثل هذا الحديث عن الرحلة ـ ولعل وراء ذلك ما عنده من كبرياء وترفع عن ذكر المتاعب والهوان التي تذكر عادة في هذا المجال ـ بل إنه قد يعجل إلى الممدوح فيمدحه دون مقدمات كما في مدحه لبدر بن عمار في قصيدته الدالية، وكما في رائيته التي يمدح فيها علي بن أحمد بن عامر.
أطاعن خيلاً من فوارسها الدَّهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

وكما في بائيته التي مدح بها سيف الدولة، والتي استعطفه فيها على بني كلاب، ثم إذا جئنا لما يسمى «بحسن التخلص» الذي يأخذ به المتنبي وما يسمى «بالاقتضاب» الذي يأخذ به البحتري، فإننا نجد أن المتنبي يؤثر حسن التخلص على الاقتضاب، وقد يقال أنهما كان يجب أن يتبادلا المواقف لسلاسة البحتري وجهامة المتنبي، ولكن بدراسة الاقتضاب عند البحتري يظهر أنه زخرفي ومتلائم مع صنعته، أما المتنبي فقد آثر حسن التخلص لأنه يعكس محاولاته العنيفة ـ والمحفوفة بالخطر ـ لعالم التقارب بين نفسه التي يحس حرية في التعبير عنها، وعالم الممدوح الذي لا يحب أن يذوب فيه، وإن كنا نستثني من هذا أكثر شعره في سيف الدولة، الذي لم يكن أكثر من قناع له، فقد كان بينهما الكثير من المشابه كالسِّن، والحماس للعروبة، وللتشيّع، وللعديد من ضروب الحياة.

ولعل مما يؤيد ذلك أن الشاعر قد غير أسلوب «حسن التخلص» في القصائد التي وجد فيها الطريق مفتوحاً بينه وبين الممدوح، على نحو ما نعرف من نونيته في

عضد الدولة «مغاني الشعب طيباً في المغاني» ولا مِيَّتَهُ في سيف الدّولة «ليالّيَ بعد الظاعنين شكول» ومثل هذا يمكن قوله في بائيته في كافور[١٢]. وقد لا يوفق حين لا يكون هناك تناسب في قوله:

وأين من زفراتي من كلفتُ به ... وأين منك ابْنَ يحيى صولةُ الأسد

ومن الملاحظ أن المتنبي إذا كان يبدأ غامضاً ومثيراً للأذن والخيال لما سبق أن ذكرنا، فإنه بعد ذلك يكون واضحاً وسافراً كل السفور، فهو لا يومىءُ إلى حاجته وإنما يصرّح بها عند الممدوح.

قالوا: هجرت إليه الغيثَ قلتُ لهم ... إلى غيوث يديْه والشآبيب

إلى الذي تهبُ الدّولات راحته ... ولا يَمُنّ على آثار موهوب

وهو يخاصم العديد من شعراء عصره، ويدمغهم بقسوة:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمد الدّاء العُضالا

ومن يكُ ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا

وهو يجهر لأمته بالقول الغليظ:

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ ... كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة ـ تداركها الله ـ ... غريب كصالح في ثمود

وهو شديد السخرية بالسّود[٧٣]، وبالأعاجم.. ما نريد أن نؤكده أسلوبياً أنه يبدأ غامضاً لينتهي واضحاً، وأن اللغة والسياق يتعاونان تعاوناً وثيقاً مع الغموض ومع الوضوح، فهو يبدأ مستعلياً ومنفصلاً عن الناس، ثم ينتهي إلى خصيصة من خصائص الأسلوب البدوي وهي الوضوح، وفي الوقت نفسه لا ننسى أن نذكر أنه كان يخرج على نظام المطالع، بل قد أعلن ثورته عليه في قوله:

إذا كان مدحٌ فالنّسيب المقدَّمُ ... أكلُّ فصيح قال شعراً متيم؟

* * *

---

(١٢) القصيدة المادحة. د. عبدالله الطيب. المخطوم ص ٦٦، ومن جودته في هذا الباب قوله.

وليل دجوجي كأنا جلت لنا ... مُحيّاك فيه فاهتدينا السّمالقُ

(١٣) السود والحضارة العربية ١٨١ وما بعدها. للدكتور عبد بدوي.

إذا كان لابد من وقفة أسلوبية عند ألفاظه في ظلال السياق، فإننا نلاحظ عليها بصفة عامة ما يسمى بعنصر الجزالة الملتحم تماماً بالمضمون، وفي الوقت نفسه لانعدم أن نجد عنده بعض الألفاظ التي لا تتوافق مع اللغة وقوانينها، ومع طبيعة التجربة فنحن نجد صعوبة في تجرّع ما يقوله في الغزل:

بانوا بخرعوبة لها كفل يكاد عند القيام يقعدها
رَبَحْلة أسمر مقبلها سبحلة أبيض مجرّدها(١٤)

فمع التّناقض في الأوصاف، وتراكمها، ومع جمالية الصورة التي يريد رسمها إلا أن هذه الألفاظ النّاتئة «تَقْعد بالقصيدة» كما نجد ضيقاً بقوله في بدر بن عمار:

لم تبق إلا قليل عافية قد وفدت تَجْتَدِيكَها» العلل

وهو قد يشغل نفسه بهذا النّوع الفارغ من المهارات التي يتمثل في التقطيع اللفظي.

لامة، فاضةٌ. أضاة، دلاصٌ أحكمت نسجها يدا داود
(و)العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن الهارض الهتن، ابن العارض الهتن
(و)عش. ابق. اسم ـ سد. قد. جد. مر. انْه. اسر. فه. تسل.
(و)غظ، ارم، سب، احم، اغز. . اصب. رع، زغ. دل. اثن. أنل.

وهو قد يقع في أسر لفظ ضاغط كقوله:

مبيتي من دمشق على فراش حشاه لي بحر حشاي حاش

وهو قد يقع في التكرار لغير ما يحسن له التكرار كالتوكيد والتلذذ. . فيقول:

وحمدان حمدون، وحمدون حارث وحارث لقمان. ولقمان راشد

ولقد كان الصاحب بن عباد يسخر من هذا بقوله: إنه من الحكمة التي ذخرها أفلاطون وأرسطوطاليس لهذا الخلف الصالح، ومن كلامه عنه: أنه ربما يأتي

---

(١٤) الخرعوبة: الناعمة الشابة دقيقة العظام، الربحلة: السمينة الطويلة العظيمة، السبحلة: السمينة الطويلة العظيمة.

بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء[١٥]، وقد يزيد قبح التكـرار حين يقـع بغير فَصْلٍ كقوله:

قبيـل أنـت أنـت وأنـت منـهـم   وجـدّك بـشـر الـمـلك الـهـمـام

كما يقبح التكرار في حروف الربط كقوله:

وشـوق كـالـتّـوقـد فـي فـؤاد   كجمـر في جـوانح كـالمحـاسن[١٦]

كما أنه كثيراً ما يقع في الحشو غير المفيد كقوله:

أمسـاورٌ أم قـرنُ شـمسٍ هـذا   أم لـيـث غـاب يـقـدم الأسـتـاذا

في مـوقف وقـف الحِـمـام عليـهـم   فـي ضنكـه واستـحـوذ استـحـواذا

لـمّـا رأوك رأوا أباك مـحـمـدّاً   في جـوشن وأخـا أبيـك مـعـاذا

والملاحظ أنه يكثر من الحشو في القصائد ذات القوافي الصعبة.

ومما يتصل باللفظة عنده اهتمامه «بالتّصغير» وقد تنبه لهذا أبو العلاء في رسالته إلى ابن القارح فقال: إنها عادة عنده صارت كالطبع، وقـد تلقف العقاد هـذا وذكر أنها من الطبع وفيها ترجمة عنه، ومجاراة لنوازعه، فهو كان يستكثر نفسه على الشعر، ويرى أنه خلق للملك، وهو كان يشعـر شعور العـظماء، ويقيس بمقاييسهم «وكـان مطبوعاً على غرار رجال المطامع ولكن في داخل نفسه لا في ظـاهر عمله، كـان له في خلقه وتفكيره استعداد عظماء الأعمال ولكن بغير أداة العظمة، فخرجت عظمته هذه في عالم الفنون ولم تخرج في عالم الحوادث، وأظهر مظاهر شعوره بالعـظمة في سـمات شعـره المبالغـة في التهويـل، والتضخيم من جهة، وهـذا الولـع بالتصغـير من جهة أخرى» وقد رد الدكتور محمد مندور على العقاد بأنه لا يظن أن التصغير جاء في شعر

---

(١٥) الكشف عن مساوي المتنبي ط القدس ص ٣.

(١٦) قضية التكرار تشمل الشاعر في كل مراحله، وهي شاهـد على إنشغـاله طيلةحيـاته بـرواسب بعض المعاني والألفاظ المكررة، ثم أنها قد تكون محاولة للتفوق على النفس بعد حالة التفوق على الآخرين - فن المتنبي بعد ألف عام. إبراهيم العريض ١٢٨ ، ١٢٩ ط الكويت.

(١٧) مطالعات في الكتب والحياة ١٨٦ ، ١٨٧ .

المتنبي لتكبّره وإنما هو أداة معروفة لكل الشعراء في الهجاء، فليست هناك رابطة تلازم بين التكبير والتصغير[18]، ورد العقاد بأن التّصغير ليس لصيقاً بكل هجاء، وأن المتنبي ليس من الهجائيين المشهورين، فكثرته ترجع إلى خلائقه الشخصية.

ثم أن هناك تلك الدراسة الهامة التي أدارها الدكتور شكري عياد حول صيغة التفضيل في شعر المتنبي، وكيف أنها عنده تفوقت تفوقاً واضحاً على عشرة شعراء مؤكّدين مع ذكر النسبة، وكيف أنها كانت لازمة في أوائل قصائده ثم قلل من هذه الظاهرة بعد ذلك، وكيف أن هذه الصيغة كانت تقترن عندهُ في كثير من الأحيان بالحكمة، والذي يبدو أن الجامع بين الظواهر الثلاث هو «التجريد» فالحكمة تقوم على التجريد، والمطلع ينطوي على قدر كبير منه لأنه يتوخى أن يحدث فيه نوعاً من المفاجأة العقلية، وإذا كان ما يجمع بينها جميعاً هو التجريد فإنه يجمع بينها كذلك القرب من «المطلق»، والتعلق بالمستحيل[19].

وعلى كل فألفاظ المتنبي الغزيرة والمنحوتة في الوقت نفسه بدقة وإيجاز قد أثارت الكثيرين. فابن جني ـ راويتُه وصديقُه وشارحُه.. يلاحظ عليه الإكثار من «ذا» ومن «ذي» وحين يقول المتنبي مجادلاً، هذا شعر لم يعمل في وقت واحد، يقول له: صدقت إلا أن المادة واحدة[20] وقد تنبه من وقت بعيد صاحب الوساطة إلى ضعف «ذا» الأشارية[21] وإلى أنها تدل على التكّلف، مع اعترافه بأنها قد تجد مكاناً في الشعر يليق بها، ومهما يكن من شيء فإنها تدل على التعالي على الناس، ونحن في حياتنا قد نستعملها حين لا نحب تسمية أحد، وحين نَدِلُّ على إنسان.

... ولعل هذا يسوقنا إلى عدم «المواءمة» بين الشكل والمضمون، فهو لم يكن يوائم بين الأشياء بعضها بعضاً، وإنما كان يوائم بين نفسه البدوية الغاضبة

---

(١٨) في الميزان الجديد ١٨٤.

(١٩) المتنبي مالىء الدنيا. العراق ص ١٣٩ وما بعدها.

(٢٠) سفر الفصاحة ١٩.

(٢١) ص ٨٥ تأمل مثلا قوله:

إذا كان لا يدعى الفتى إلّا كذا   رجلا فَسَمُّ الناس طراً إصبعا

وبين الأشياء التي يقول فيها الشعر، فهو يقول لابن العميد الـذي كتب له رسـالة ـ وكأنه يتحدث عن نفسه ـ

إذا سـمـع الـنـاس ألـفـاظـه خـلقـن لـه فـي الـقـلوب الـحـسـد
فـقلت ـ وقـد فـرس الـنـاطقـيـن ـ كـذا يـفـعـل الأسـد بـن الأسـد

ولهذا قال الواحدي أحد شرّاحه: وأي موضع للأخراق والأبراق والفرس في وصف الألفاظ والكتب، وهو مثـلاً حين يعـزّى سيف الدولـة في عبده يمـاك التركي يقول:

لأبقى يـمـاك في حـشـاي صبـابـة إلـى كـل تـركـي الـنـجـار جـليـب
ومـا كـلّ وجـه أبـيض بـمـبـارك ولا كـلّ جـفـن ضـيّـق بـنـجـيـب

فمن تاريخه نعرف كرهه للأعاجم، وحسرته على تسللهم إلى المناصب، ومن هنا نراه يقذف من أتون تلك الكراهية كلمات مثل جليب، وضيق الجفن، وهو قـد يصدم المحبوب حين يقول فيه:

تَفَـرّد بـالأحكـام في أهـل الهـوى فأنت جميل الخلق مستحسن الكـذب

وكـذكره في رثـاء أخت سيف الدولـة الفم والأسنان والمفـرق والفؤاد الملتهب ولعل هذا يؤكد ما ذكر من أنه كان يحبها[٢٢].

ووراء ذلك أنه ممتلىء بترائه، وممتلىء بنفسه أكثر من موضوعـه، وأنه مشغـول بـالجليل عن الجميـل، وبالجـزل عن الرقيق، وبـالصلابـة عن السيولـة، فهو فـاقد أساساً لما يسمّى بالرّهافـة، ولهذا الضعف الإنسـاني الجميل. ولعـل هذا كـان وراء قصوره في الغزل وفي الـرثاء. . ثم أخيـراً لعل وراء تعقيـده، وغموضـه ـ في بعض الأحيان ـ الانهزام المتكرر، واستحالة الأمل، وقلة نصيبه من الخيال، فاعتـماده على العقل كان يدخله في المتاهات، وكان يقلل من تشابيهه الحسية[٢٣].

وعلى كل فـما أكثر الـذين تعقبوا ألفـاظه وتـراكيبه، ووجـدوا عنده مـا يسمى

---

(٢٢) أكد هذا محمود شاكر ـ المقتطف ج١ مجلد ٨٨ ص ١٣٠ ـ ورفضه د. طه حسين المتنبي ص ٢١٢، ولم يستبعدها مارون عبود في الرؤوس ١٩٧، ١٩٨.

(٢٣) انظر مقالة د. محمد كامل حسين في الكاتب المصري. نوفمبر ١٩٤٥.

بالضّرورة الشعرية، وميله إلى مذهب أهل الكوفة حين أتى باسم انّ نكره:

فمن يكذب مدع لك فوق ذا والله يشهد أن حقاً ما ادعى

وحين عطف من غير فاصل كلمة «بنوه» على الفاعل المستتر في كلمة مضى:

مضى وبنوه وانفردت بفضلهم وألف إذا جمعت واحد فرد

ثم أنه كان يقع في كثرة الحشو، والتضمين، وقبح الاستعارة وخفاء الكناية، بالإضافة إلى الإيجاز المُخل، وسوء المطابقة والسطحية، والتعامل مع بعض مصطلحات المتصوفة والفلاسفة من غير صهرها في التجربة.

ولقد كان من الطبيعي أن يقول الثعالبي «وقد أُلفت الكتب في تفسيره، وحل مشكلة عويصة، وكثرت الدّفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والأفصاح عن أبكار كلامه وعُونه، وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه..»[٢٤] ولعله يجيء في مقدمتها كتاب شرح مشكل أبيات المتنبي لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الذي صدر أخيراً بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين.

ما نريد أن نؤكده أنه كان وراء كل ذلك أن المتنبي كان يوائم بين ما في نفسه وبين الأشياء، وأن هذه المواءمة كانت تُعطي الألفاظ نوعاً من التضاد، والحركة المترددة بين النفس والأشياء، ولو كان قد واءم بين الأشياء والأشياء لبردت الألفاظ عنده، ولما كان له هذا النّوع من الْفَرادة والخصوصية وهو يعبّر عن هذا الجانب تعبيراً جيداً في قوله قبيل مغادرته مصر:

وإني لنجمٌ تهتدي صُحْبتي به إذاحال مِنْ دون النّجوم سحاب

غَنِيٌ عن الأوطان! لا يستخفّني إلى بلد سافرتُ عنه إياب

وعن ذملان الْعِيس، إن سامحْت به وإلّا ففي أكوارهن عقاب

وأصْدى.. فلا أُبدي إلى الماء حاجة وللشمس فوق اليعملات لعاب

وللسرّ مني موضع لا يناله نديمٌ، ولا يفضي إليه شراب

---

(٢٤) يتيمة الدهر ١/٩١.

ولـلـخُـود منّي سـاعـة، ثم بيننـا فـلاة، إلى غيـر الـلقـاء تـجـاب

المهم أنه خرج على خصائص الأسلوب المتعـارف عليها، والمتمثلة أسـاساً في الصحة والوضوح والدقة، فهو هنا يقيم جدلاً بين الشيء ونقيضه ويتحـدث بمفهوم المخالفة، وينجح في الكشف عن علاقـات جديـدة بينه وبـين الأشياء فهـو يستجد طريقة محكومة به شخصياً قبـل أن تكون محكـومة بقـوانين اللغـة وأعراف النـاطقين بها، صحيح أنه تعامل مع عنـاصر صحراويـة غزيـرة ولكن كلّ ذلـك كان محكـوماً بمحور رئيسي اسمه المتنبي.

* * *

ـ ٥ ـ

إذا تخطينا حركة الألفاظ عنده إلى حركة المعاني، نجد أن النقاد العرب بصفة عامة كانوا يطلبون من الشاعر وضـوح المعنى، ومن هنا كـان كلامهم المستفيض عن الطرافة والاستقامة، والوفاء بما يراد، ولكن المتنبي كـان على خـلاف ما قـرره النُقاد القدامى[٢٥]، ذلك لأنـه شابـك بين بعض المعـاني، وعقد، ولأنـه كان وراء ذلـك الاتصال بنفسيته أكثر من الاتصال بقوانين اللغة، فهو في كثير من المعاني التي كـان يوردها كان يحب أن يستثير، وأن يلهـو، وأن يكون غـامضاً، وأن تتعـددّ حول مـا يريد الآراء.. وحقاً لقد تعددت، وهو نفسه القائل:

أنـام مـلء عيـوني عن شـواردهـا ويسهـر الـخْلق جـرّاهـا ويـختـصم

(٢٥) يقول صاحب سر الفصاحة ص ١٩٥ وما بعدها «إن المحمود من الكلام ما دلّ لفظه على معناه دلالة ظاهرة، ولم يكن خافيا مستغلقاً كالمعاني التي وردت في شعر أبي الطيب.. وأمثلة الكلام الذي يظهر معناه ولا يحتاج إلى الفكر في استخراجه كثيرة، وعـامة شعـر البحتري عليـه، فأمـا الذي يسـأل عن معناه ويفكر في فهمه فكالأبيات التي من شعر المتنبي، وقد نعاها عليه الصاحب بن عباد ـ رحمه الله ـ وكـان يسميها «رقي العقـارب».. وابن خلدون يقول.. «إن الشعر لايكون سهـلا إلا إذا كـانت معانيه تسبق ألفاظه إلى الذهن، ولهذا كـان شيوخنـا ـ رحمهم الله ـ يعيبون شعـر ابن خفاجـة شاعـر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري لعدم النسج على الأساليب العربية، فكان شعـرهما كـلاما منـظوماً نـازلاً عن طبقة الشعـر ـ باب صنـاعة الشعر ـ»، بل إن الـواحدي في مقـدمة شرحـه للمتنبي يؤكد بـأنه خفيت معـانيه عـلى أكثر من روى شعره.

فهو حين يقول:

أحـاد أم سـداس فـي أحـاد ليـيلتنـا المنـوطـة بـالتّنـاد

تتكاثر الآراء، ويقربها الواحدي حين يقول: إنه أراد أواحدة أم ست في واحدة؟ جعلها فيها كالشيء في الظرف، وقد خصّ هذا العدد لأنه يريد ليالي الأسبوع، وفي الوقت نفسه جعلها كناية عن ليالي الدهر جميعاً، ومن المعروف أن ابن جني وابن فورجة حين شرحا البيت الذي يقول:

إذا داء هـنـا بقـراط عـنـه فلم يعـرف لصاحبـه ضـريب

قال الآمدي: إنهما لم يعرفا معناه، وخبطا فيه، ولا نجد في شرحه ما يوجب هذا، ومع أن هناك أبياتاً تكاد تكون واضحة كقوله في سيف الدولة:

إذا مـا سـرت في آثـار قـوم تخـاذلت الجمـاجم والـرقـاب

فقد اختلف حوله ابن جني، والواحدي، والخوارزمي، والمعري، والخطيب بل قد يكون هذا وسيلة للتنكيل بين بعضهم بعضاً، على نحو ما كان يفعل الواحدي ـ ولسانه حديد!! ـ

وعلى كل فقد كان وراء هذا كله قضية تبسيط الشعر، ووضوح المعنى، وضرورة أن تسبق معانيه ألفاظه في الذهن على حد تعبير ابن خلدون، إلى جـانب التوافق، والبعد عن التضارب، ولكن المتنبي بصفة خاصة ـ ومن قبله أبي تمام ـ قد غيّر هذا الطريق، فنحن نراه يتعامل مع الشيء ونقيضه، ويولّد من السلب إيجاباً، ومن الإيجاب سلباً، وذلك لأن هذا يتفق وعالمه النفسي أولاً، ولأنه إدرك جديد لقوانين ذات فعالية في الحياة، فالملاحظ أنه كان لا يفكر في الأشياء في اتجاه واحد، لأنه لا يعترف بأن للشيء وجهاً واحداً[٢٦]، فالحياة في حقيقتها طباق وليست جناساً، وفي ضوء هذه الحقيقة يجب أن تتغير وظيفة الشعر من الجمود إلى الحركة، ومن الانسجام إلى التصارع، ومن الموافقة إلى الرفض، ومن المألوف إلى غير المألوف. وبصفة عامة فقد تعامل أسلوبه مع عنصر المبالغة، فهو يسْرف في حديثه عن البطل وعن الحدث وعن نفسه، ذلك لأن عصره كان مليئاً بالأحداث وكان

---

(٢٦) المتنبي مالِئ الدنيا ص ١٦٥ وما بعدها دراسة الدكتور عزالدين إسماعيل.

يريد أن يعطيه الثقة فيما يجري حوله، ومن باب أولى في نفسه، ومن مبالغاته قوله:

تَجاوزتَ مقدار الشجاعة والنُّهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
(و)طوالُ الرّدينات يقصفُها دمي   وبيضُ السُّريجيّات يَقْطعها لحمي
برتْني السُّرى بَرْى المدى فردَدْنني   أخفَّ على المركوب من نَفَسِي جِرْمي
ورقـةُ وجْـه لـو خَتَمت بنـظرة   على وجنتيه ما امّحى أَثَرُ الختم
زعيمـاً للقنـا الخـطيّ عـزمى   بِسَفْـك دم الحـواضِـر والبـوادي

فكل هذا يدخل في المبالغات المستحيلة، وبخاصّة حين يتفلسف، ويقترب من كلام أهل علم الباطن كقوله:

وأبْعـد بُعـدنـا بُعْـد التّـداني   وأقـربَ قـربَنـا قـرب البُعْـاد!

* * *

— ٦ —

إذا كانت موسيقى الشعر لا تنفك عن معناه، وعن نفسية الشاعر، فإننا نلاحظ أن موسيقى المتنبي لم تكن في الغالب مستوية، وسهلة، وساحرة الرنين، ذلك لأنها كانت تتصل بقضايا متفجرة، وشاعر موّار الأحاسيس.

وأول ما يطالعنا من شعره أن هذا الشعر قليل على الرغم من توفر الشاعر على الشعر فديوانه يحتوي على نحو مائتين وثمانين قصيدة ومقطوعة وهي حصيلة استقلها «شوقي» حين قال في مقدمة ديوانه: «. . . ألم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب، ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر، تسعة أعشارها لمدوحية، والعشر الباقي ـ وهو الحكمة والوصف ـ للناس». . . ولكن كان وراء ذلك أن الشاعر نخل شعره نخلاً شديداً، وأنه أبعد عنه الكثير، فقد كان يكره حتى نقاط الضعف عنده.

وعلى كل فحين ينظر إلى هذا الشعر يتبين أن نحو سبع وخمسين من قصائده من البحر الطويل، وست وأربعين من الوافر، وثلاث وأربعين من الكامل، ومعنى هذا أن أكثر شعره قد جاء من البحور القوية المعطاءة ذات النغم الممدود الذي

يصلح للتعبير عن حالات التصارع النفس، وهو ما سميناه حالات «الطباق» لا حالات «الجناس»، ومعنى هذا أنه جار على بقية البحور لأنها لم تكن تحسن التعبير عن عواصف المتنبي البدوية فهي بحور متحضرة، ذات إيقاعات لامعة، تحتاج إلى النفوس المتصالحة مع الحياة، لا التي تدخل معها في شقاق، ومن الغريب أن النقاد القدامى يأخذون على الشاعر عدم استعماله لكل البحور، وكأنّ العملية الشعرية استعراض مهارات، بينما الذي يحكم هذا كلّه هو عالم الشاعر الداخلي وهو طبيعة التجربة(٢٧)، مع ملاحظة أن المتنبي لجأ إلى «المتقارب» في تلك القصيدة التي يقول عنها طه حسين: وما أدري إلا أن ما كان يملأ نفس الشاعر من فرح وأمل ونشاط هو الذي دفعه إلى هذا البحر المتقارب الذي يلائم اضطراب النفس بالأمل القوي حين تضطرب بالأمل القوي، وغليان النفس بالحزن المضطرم حين تغلي بالحزن المضطرم.

طلبنا رضاه بترك الذي ... رضينا له فتركنا السُجودا
أمير أمير عليه الندى ... جواد بخيل بأن لا يجودا

ويلجأ إلى بحر المتقارب مرة أخرى في لاميته التي قالها في ثورة القرامطة فالشاعر فيها يصف مسير الخيل في طلب العدو، وانهزام هذا العدو، وقد اصطنع هذا الوزن السريع المتحدر لأنه يلائم حركة اندفاع الخيل في أثر العدو، وما يكون هناك من كرّ وفرّ، وإقدام وإحجام(٢٨)، ومن هذه القصيدة:

خذوا ما أتاكمْ به واعذروا ... فإن الغنيمةَ في العاجل
وإن كان أعجبكم عامكم ... فعودوا إلى حمص في قابل
فإن الحسام الخضيب الذي ... قتلتم به في يد القاتل

المهم أن شعره وزناً وإيقاعاً كان صورة لنفسه ومواقفه.

فإذا جئنا إلى قوافيه وجدنا أنها تسير في نفس اتجاه الوزن والإيقاع، فقد كان يركب القوافي الصعبة على حد قول الصاحب بن عباد، وبعبارة أخرى لقد كان

---

(٢٧) المتنبي وشوقي ـ عباس حسن ١٣٥.
(٢٨) مع المتنبي ١٢٦ وما بعدها.

ينطلق أساساً من القوافي المدوّية لا القوافي الهامسة، وقد يتعمد التركيز على حرف داخل القصيدة ليعبر عن شيء قلق داخله، كقوله:

شرف ينطح النجوم بقرنيه وعزٌّ يقلقل الأجيالا
فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشى قلاقل عيسٍ كلهن قلاقل

وقد تعقبه الصاحب في قوله:

تفكره عِلْمٌ. ومنطقة حُكْمُ وباطِنُه دينٌ. وظاهره ظَرْف

فقال: سبيل عروض الطويل أن تقع مفاعلن، ولا يجوز مفاعلين إلا إذا كان البيت مصرعاً، وهذا البيت غير مصرع.

ويقول إن شعر العرب حكم في هذا، غير أن أبا العلاء يلتمس له العذر في هذا لأن القبض ـ وإن كان الأكثر ـ إلا أنه قد ورد عروض الطويل غير مصرع على مفاعلين، ثم أن مفاعلين هو الأصل[٢٩]، ثم أن الدكتور «شوقي ضيف» على الرغم من وقوفه على خلل في شعره، إلا أنه يقول إن هذا الخلل يذكر بخلل مماثل من بعض الوجوه في الموسيقى الحديثة، إذ نرى الفنون تتعقد ويظهر المذهب الرمزي في الشعر والتصوير[٣٠].

المهم أنه كان على وعي بالموسيقى الداخلية والخارجية في القصيدة، وأنه كان يوائم بينهما بما يتفق وطبيعة تجاربه، ومن وسائلة في هذا التنبيه إلى موسيقى الحروف، وذلك بأن يكرر حروفاً ذات طبقة صوتية معينة، ثم يناغم بينها، وبخاصة حين تكون لهذه الحروف صِلَةٌ بالقافية، وأكثر ما يكون هذا في المطالع الذي يوجد بها التّصريع.

ولاشك أنه كان وراء ذلك فن الإلقاء الذي يقتضي الضغط على بعض الحروف والمقاطع والكلمات، وتنويع الصّوت عند النداء والتعجب والندبة والاستفهام والإثبات والنفي، والأمر والنهي، بالإضافة إلى التقسيم والتّصريع.. المهم أننا لا نجد في موسيقاه استواء، وتكراراً مملاً، وإنما نحس في الصميم أن هناك

---

(٢٩) الكشف عن مساويء المتنبي ٢٢، ٢٣، معجز أحمد ١٣٦.
(٣٠) الفن ومذاهب طه ص ٤٠.

عدداً من المستويات الصوتية التي يتعامل معها، ويكون المتنبي في أروع حالاته الموسيقية حين يتعامل مع «القرار» و«الجواب» على أساس تقاطعهما، أو دخولهما في حوار، فهو يتعامل مثلاً بأقصى حرف في المخرج (أ) وبحرف شفاهي هو الميم.

أتى الـزمـان بنـوه في شبيبتـه فسـرهم وأتـينـاه عـلى الهـرم

وهو يستخدم حروف المد حين يريد أن يهول

رمـيتـهـمُ بـبـحـر مـن حـديـد لـه فـي الـبـر خـلـفـهـم عـبـاب

فـمسّـاهـم - ويـسـطـهـم حـريـر - وصـبـحـهـم - ويـسـطـهـم تـراب -

ومـن فـي كـفّـه مـنـهـم قـنـاة كـمـن فـي كـفـه مـنـهـم خـضـاب

وهو قد يجسد الصوت ويضغط عليه ويكرره مع الاعتماد الرئيسي على المقطع الطويل المفتوح

وأجفـل بـالفـرات بنـو نميـر وزأرهـم (الـذي زأروا) خـوار

حذار فتى إذا لم يرض عنهم فليس بنـافـع لـهـم الحـذار

(و)ودهـر نـاسُـه نـاسٌ صغـار وإن كـانـتْ لهم جثثٌ ضخام

أرانـبُ.. غيـر أنـهـم مـلوك مفتّحـة عـيـونـهـم.. نيـام!

المهم أن موسيقاه لا تقوم على التماثل - كعادة الكثير من الشعراء - ذلك لأنه يتعامل مع أداة أخرى هي التقابل. والتقاطع، مع ملاحظة أن الإنسجام الصوتي قد يكشف عن توتر نفسي مثير، ومع أنه قد تكون هنا مفارقة إلا أنها سرعان ما تذهب حين نعرف أن أروع الموسيقى لا تخرج عن كونها تركيبة أصوات منسجمة متناغمة[٣١]، المهم أنه كان بتعبير واضح ثنائي العزف لا أحادي العزف، ولعل ما يسوّغ لهذا أنه كان كثيراً ما يحس بانقسام نفسه، على نحو ما نعرف من قوله:

إذا مـا الكأس أرعشت اليـدين صحـوت فلم تَحُل بيني وبيني

في مقدمة قضية التشكيل عنـد المتنبي نريـد أن نطرح أولاً سؤالاً يقـول: هل رسم المتنبي نفسه؟ ذلك لأن من يعجز عن تقديم نفسه يعجز عن تقديم الآخرين،

(٣١) المتنبي مالئ الدنيا. مقال د. نبيلة إبراهيم ص ٣٧٨.

وابتداء نرى أن المتنبي أجاد في تصوير عالمِْه الخارجي والداخلي فنحن نراه يطلع على الدنيا غاضباً خشناً مليئاً بالطموح والإدانة لكل ما حوله:

أي محل أرتقي | أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله، | وما لم يخلق
محتقر في همتي | كشعرة في مفرقي
(و)أنا صخرةُ الْوادي إذا ما زُوحمت | وإذا نطقت فإنني الجوزاء
(و)أين فَضْلي إذا قنعت من الدّهـ | ـر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدّري، وطال في طلب الرِّز | ق قيامي، وقلّ عنه قعودي
أبدًا أقطع البلاد، ونجمي | في نحوس، وهمّتي في سعود
عشّ عزيزاً أو مت وأنت كريم | بين طعْن القنا وخفق البنود

فهو هنا في فترة المراهقة، ولا يمكن أن يكتفي بالتمني، وإنما لابد أن يفجر ثورته، ويرفع لواءه على دولة اسمها العصيان، فهو هنا ينتقل من حالة الغضب إلى حالة العصيان، ومن ثم نراه يخرج على الدولة[٣٢] ويسجن، ولا تغيب عنه قضيّة أن يكون حاكماً، فقد لّمح عند سيف الدولة، وطلب عند كافور، ومع أن الدليل ليس حاسماً في الطلب عند سيف الدولة، إلا أنه يبقى التّفسير الذي ارتضيناه وهو أن سيف الدولة كان مجرد قناع من أقنعته، بل إنه كان أروع الأقنعة التي تكلم من خلفها عن نفسه لما سبق أن ذكرنا.

ثم أنه يصور نفسه في صورة البدويّ المهاجر المطارد أبداً، وإذا كانت هجراته معروفة فإن المطاردة معروفة كذلك، فقد كانت هناك محاولة اغتياله من غلمان أبي العشائر، وهو يصرح بأن هناك من أعد له «السّودان في كفر عاقب».

أتاني وعيد الأدعياء وأنهم | أعدّوا لِي السودان في كفر عاقب

وهو قد قطع «سينا» مطارداً من رجال كافور، وقضية قاتله الذي ربض له مع

---

(٣٢) هناك شبه إجماع على خروجه، ويذهب الدكتور طه حسين إلى أن ما وراء سجنه كان التهجم على الحكام وتوعدهم - مع المتنبي ٩٥ - ٩٨.

مجموعة من الفرسان معروفة . . ومن قبل كان هناك الإعداد للقبض عليه من أمير حمص الذي جعل في رجله وعنقه خشبتين من خشب الصفصاف. وقد استمر حبسه عامين ٣٢٤ ـ ٣٢٥هـ ثم أنه إنسان إذا أقام أثار عليه الشعراء ـ لأنه يرى نفسه الصوت والآخرين الصدى ـ فإذا اقترب من الشخصية المحورية كسيف الدورة وكافور، أهمل الشخصيات الأخرى المحيطة بها، بل يستثيرها، بل قد يخرج على المألوف مع الشخصية المحورية كإدْلاله الشديد بنفسه، وكعتابه لسيف الدولة على رؤوس الأشهاد، بل قد يفاضل بين اختيْ سيف الدولة، مفضلاً الكبرى على الصغرى في صور لا تليق بموقف الرثاء.

يعلمْن حين تحيى حسن مبسمها	وليس يعلم إلا الله بالشَّنب
مَسَّرة في قلوب الطيب مفرقها	وحسرة في قلوب البيض واليلب
وهل سمعت سلاماً لي ألم بها	فقد أطلت وما سلمت عن كثب
قد كان قاسمك الشخصين دهرهما	وعاش درّهما المفدى بالذهب

وما نريد أن نصل إليه هو أنه يقدم نفسه في صورة البدوي الخشن الطباع الذي لم يستأنس في القصور، ولم يشغل نفسه بالغواني والخمر، فإذا أحب فإنه يحب البدويات «حمر الحلي والمطايا والجلابيب» ثم أنه لم يكن يخفي شَيْبه، ولم يكن يهتم بتوسيع دائرة الأصدقاء، فقد كان يتوجّس خيفة من الناس، وكان يعاني من «الآخر»، ويرى نفسه محسوداً، ولأمر ما سمي ولده محسداً، ثم أنه كان يبالغ في الحب وفي الكره على نحو ما فعل مع كافور، فهو لم يستطع أن يتأدّب بآداب المدينة وإنما ظلّ عاصفة تعصف بأشياء كثيرة حوله. . من كل هذا ـ وغيره ـ نرى أنّه قدم صورته الشخصية وصورة نفسه بوضوح وأجاد في رسم هذه الصورة طموحاً ويأساً، وفرحاً وحزناً. . إلخ. ومن الطبيعي أن الذي يحسنُ رسم نفسه فإنه يجيد رسم الآخرين، وابتداء نذكر أن الشعر العربي يهرب من الرسم الواضح للشخصية بصفة عامة، فمع أنه يبدأ من شخصية بعينها قد تكون المأمون أو المتوكل أو المعتصم إلا أن هذه الشخصيات سرعان ما تتلاشى وتتجرد، بحيث تتحول إلى الحكمة والطيبة والشجاعة، إلا أنه يلاحظ أن المتنبي كان إلى حد ما يتخطّى قضية التجريد إلى قضية التجسيد، بحيث يقدم لنا أناساً من لحم ودم ونوازع على نحو ما نعرف من العديد من الشخصيات التي تعرّض لها في حالات الحب والكره، ونحن نلاحظ

أنه حين كان يقدم الشخصية، وبخاصة الشخصية المحورية، فإنه لم يكن ينسى أن يقدم زمان ومكان الشخصية، ولم يكن ينسى تقديم شبكة من العلاقات التي كانت تحيط بهذه الشخصية، سواء أكانت شبكة علاقات إنسانية، أو شبكة علاقات بيئية، على نحو ما نعرف مثلاً من قوله في سيف الدولة.

وقد تمنّوا غداة الدّرب في لجب أن يبصروك.. فلما أبصروك عموا
صدمتهم بخميس أنت غرّته وسمهريته في وجهه غمم
فكان أثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والأرواح تنهزم
والأعوجية ملء الطرق خلفهم والمشرفية ملء اليوم فوقهم
إذا توقفت الضربات صاعدة توافقت قلل في الجو تصطدم

فهو هنا يرسم الفارس قبل الفروسية، وهو يرسمه ـ فيما يرسم ـ بأعدائه فإذا كان قد قيل إننا لا نفهم «عطيل» من خلال شخصية عطيل، وإنما من خلال «ياجو» و«ديدمونة» ووالدها، فإن الإعداء في اللوحة جزء من رسم شخصية سيف الدولة، على أن الرائع حقا هو تحويل سيف الدولة إلى «بطل ملحمي» ذلك لأنه كان تجسيداً للآمال العربية في هذه الفترة، ولأنه كان أمل الكثيرين. فإذا اقتربنا مما يسمى فن البورتريت Portrait وجدنا أنه ينطلق في رسم الشخصية من اسمها أو لقبها أو كنيتها وما وراء ذلك من مفارقات فسيف الدولة هو سيف بني هاشم، وأبو المسك هو المسك، ثم يجعل زاوية الرؤية تقع بعيداً فسيف الدولة قمر، ثم أنه تطلع ـ وهو نطفة ـ إلى عصر كافور، ثم أنه إذا استعمل الصفات المتوارثة كالقمر والأسد، فإنه يبالغ في النعوت بما يذكرنا بظاهرة «فن التكبير» في الفنون التشكيلية، ثم أنه يجعل الممدوح في بؤرة النور ويطرد الآخرين إلى الظل فالمغيث رأس وغيره ذنب، وأخيراً فهو لا ينسى التعامل مع الألوان(٣٣).

---

(٣٣) راجع دراسة هامة لعبدالجبار داود البصري في كتاب المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ص ٣٨٨ وما بعدها، وتأمل قوله «وإذا صادف أن جمع شاعر ما جمعه المتنبي في لوحاته من لون وتكبير وإضاءة وظل وحركة والمواد المستعملة في الرسم فإن طريقة الرسم والصياغة وزاوية الرؤية تبقى صفات لصيقة بشخصيته وأصالته.. كان الجمهور المعجب بقائده البطل سيف الدولة الحمداني لا يستطيع الحصول على صورته ليعلقها على الجدران، ولكنه كان يستطيع أن يقرأ قصيدة للمتنبي تصوره حيا، كانت قصيدة المتنبي لوحة من لا يملك لوحة.

وقد وقف القدامى عند صوره الجزئية، ووضعوها في إطار المبتكرات، وقد وصل الأمر ببعضها إلى أنها كانت تكمد منافسيه، فحين سمع «السرى الرُفاء» قوله:

وخِصْرٌ تثبتُ الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال: هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون! ثم أنه حُمَّ في الحال حسداً، وتحامل إلى منزله، وأبو العباس النامي يقول: كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالها ما سبق إليها، أما أحدهما فقوله:

رماني الدّهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله:

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان[٣٤]

وهناك العديد من صوره التي وقف عندها الثعالبي والجرجاني لأنها تصور العالم الداخلي بمهارة كقوله:

وضاقت الأرض حتى صار ربّهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً
(و)فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم
وكم من عائب قولا صحيحاً وآفتُه من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذان منه على قدر القرائح والعلوم

وهو قد يضع نفسه في صميم إطار اللوحة كقوله:

وأنا منك لا يهنأ عضو بالمسرّات سائر الأعضاء

وقد تنبه الواحدي لهذا، وعجب من تحمل كافور له[٣٥]، وقد لاحظ الثعالبي أنه يخاطب ممدوحه بمثل خطاب المحبوب والصديق[٣٦] المهم أنه لم يكن

(٣٤) الصبح المنبي ١/٥٧.
(٣٥) شرح الواحدي ص ٢٥٢.
(٣٦) اليتيمة ص ١١١.

ينسى فطرته وبداوته وتراثه وحالة التهيج الدائمة عنده حين كان يرسم صوراً له وللآخرين، فصوره ـ وكذلك موسيقاه على وجه الخصوص ـ تنتمي في الأساس لعالمه الدّاخلي فإذا أردنا التّعرف على حالات التّصوير الخارجي عنده وبخاصة الطبيعة وجدنا أن كل هذا كان خطوطاً فرعية عنده، أو كان في خدمة طموحاته وانطلاقه الواسع في الحياة، فنحن نجد في شعره جبال لبنان، وبحيرة طبرية، ولكنه يعكس نفسه على اللوحتين، ثم أنه يلقط المنظر في حالة الحركة والتّصارع، على نحو ما نعرف من وقفته أمام مهر يصارع الجوع، وكلب ينقضّ على غزال، وباز يفترس حجلة، وتيوس جبلية تلقى من القمم إلى الوديان، ثم أنه مع الآكل لا المأكول، ومما يؤكد هذا أنه في طردياته يكون مع الصائد لا الصيد، وأنه يجيد في وصف الحيوانات التي تفترس كالأسد لا الحيوانات الضحية، هذا بالإضافة إلى عالم الصحراء الموحش الرهيب، وإلى عالم بعض المدن التي مر بها مغاضبا، ثم أنه لم يلتفت إلى أنهار الشام والعراق ومصر، وأنكر عليه الدكتور طه حسين عدم التفاته إلى الأهرام، ذلك لأن هذه الأشياء لم تمثل معادلاً موضوعياً لأشياء تُمور في نفسه، فإذا كان قد أجاد في «شعب بوان» فلأنه كان مجرد وسيلة للغاية، ثم لأنه كان قد انكسر نفسياً ووهن العظم منه[37]، فإذا أردنا أن نقف عند بعض النصوص رأينا أنه في وصفه لبحيرة طبرية يصف عالمه هو، أما ما يفد إلى الذهن من صور مبتسمة عند الحديث عن البحيرات فلا يجيء عند المتنبي.

لولاك لم أترك البحيرة والـ . .	ـغور دفيء، وماؤها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة	تَهْدُر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها	فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها	جيش وغى: هازم منهزم

فهذا آت من فكرته عن تصارع العالم، ومن أن الصلة بينه وبين الآخرين هي صلة القاتل بالمقتول.

ومن عرف الأيام معرفتي بها	وبالنّاس روّى رمحه غير راحم

(۳۷) انظر دراسة في النص الشعري. د. عبده بدوي والتعليق على هذا النص ص ١٩٢ وما بعدها.

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم!

المهم أنه لا يقصر وقوفه عند التشابه الحسي بين الأشياء وإنما يجعل الصور الجزئية ـ كالتشبيه ـ والصورة الكبيرة ـ كالموقف ـ في خدمة طموحاته، ووجهات نظره في الحياة، وتثبيت العلاقة بين الشيء والفكر، وبين الواقع والأمل، بالإضافة إلى أنها تكون تعبيراً عن كبت في الداخل، فما لم يحققه في الحياة يحققه في صورة كلبٍ يفترس غزالاً، أو بازٍ يفترس حجلة.

وكلما كانت الصورة عند المتنبي حسية وفي حالة شروع كانت موفّقة، فإذا جنح إلى الصورة العقلية وجدنا ضعفاً ونقلة عن براءة الشعر، على حد ما نعرف من قوله:

ولو كان النساءُ كمن ذكرنا لفضّلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

ومثل هذا يمكن قوله حين يجعل المشبه أعظم من المشبه به، وحين يتعامل مع عنصر المبالغة، ولكنه يصل إلى الذروة حين يتعامل مع عنصر التجسيم كقوله:

كأن الريش منه في سهام على جسد تجسّم من رياح

، وكما هو الحال في قصيدة الحمّى، وإن كانت الصورة في قوله:

لم تحك نائلك السحاب، وإنما حمّت به فصبيبها الرّحضاء

غير موفقة، فتصوير المطر بعرق الحمى فيه مبالغة لا تزيد التصوير قوة، ولكن تزيده غرابة[38] ومثل هذا يقال في بعض استعاراته التي يكون وراءها المبالغة في التصوير، أو عدم الملاحة على حد قوله «أكلت» في البيت الذي يقول:

أكلت مفاخرك المفاخر، وانثنتْ عن شأوهنّ مطيّ وَصْفي ظُلَّعا[39]

* * *

(38) النقد الأدبي الحديث. ط بيروت. د. محمد غنيمي هلال ص ٢٣٣.
(39) المنصف للحسن بن علي بن وكيع. تحقيق د. محمد يوسف نجم ١/ ٤٥٤.

وأخيراً . . فهذه تطوافة في عالم الأسلوب عند المتنبي، للتعرف على خصائص اللغة التي كان يستعملها بعد أن يغمسها في دمه، ولمحاولة التعرف على أسرار المقومات الفنية التي عرفت التجول في الزمان والوصول إلينا، ذلك لأنها صدقت عن المتنبي شخصياً قبل أن تصدق على عصره وعلى حضارته، ولأنها عبرت عن عالم الفجائع الذي صاحب المتنبي، والذي لم يهرب منه إلى عالم الجماليات والزخرفة، وإنما وضع نفسه في صميمه، وخلق معادلا له بما يمكن أن يسمى «بالتّضاد المتناغم» بعد أن وضح له أن القبح يذود الجمال، وأن الخديعة تسود في كل المجالات، وأن هناك خللا في الحكام والنظريات التي تحكم الحياة من حوله . . ثم ـ وهذه مأساته الحقيقة ـ حين أدرك أنه شخصياً مطارد ومدفوع عن أمانيه وأن الحياة ستضن عليه حتى بالموت الشريف.

. . ومهما يكن من شيء فقد كانت عظمة المتنبي في أنه لم يلبس لكل حال لبوسها، وفي أنه جسد ثلاثة أشياء هي عذابه، وهي عذاب أمته، وهي عبقرية لغته، ولعل هذا كان وراء قيامته من الموت!

الشمس ودلالاتها في
شعر المتنبي

د. سهادم الفريح
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

يؤكد كثير من النقاد على أن صورة الشاعر لابد أن تكون واضحة ـ بل لابد أن تكون شديدة الوضوح في كل ما يكتب، فإذا عجز عن تقديم هذه الصورة لعالميه الخارجي والداخلي، فإنه يمكن القول بأن شاعريته لن تكون مكتملة ولن تكون ظاهرة السطوع، وليس معنى هذا أن على الشاعر أن يرسم نفسه رسما واقعياً، وأن يرصد كل ما يمر بنفسه، ثم يقدمه بلا زيادة أو نقصان، ذلك لأنه مع انطلاقه لابد أن يتجاوز وأن يتخطاه إلى عالم جديد من صنع قدراته، أو على حد تعبير حازم القرطاجني من صنع «التخييل»[1]، فالشعر في حقيقته ليس مجرد محاكاة للواقع، وليس حديثا مباشراً وصريحاً عن كل ما ينزل بالإنسان، أو كل مايحيط بالإنسان، وسيكون عالمه الذي يدور فيه ضيقا ومحدودا ومباشرا، لو وقف عند حد «المحاكاة»، ومن هنا يكون لابد له من التحايل على هذا العالم، وعلى طريقة الخروج عنه، والخروج عليه في الوقت نفسه، إن المطلوب من الشاعر أن لايكون من الذين يطلق عليهم النقاد أسم أصحاب «التجربة الواحدة»، فهو مهما كانت قدراته لابد أن يصاب بالملل، ولابد أن يصيب الآخرين بالملل إلا إذا توصل إلى طرق توصيل جديدة وذكية في الوقت نفسه، ويجيء في مقدمة الطرق الجديدة

---

(١) منهاج البلغاء، وسراج الأدباء ص ٦٣ وما بعدها.

والذكية، التعامل مع الرمز القوي الواضح، وقد يكون وراء هذا التعامل ظاهرة خطرة في الشعر وهي «ظاهرة التكرار» ولكن الشاعر القوي - وأكاد أقول الجبار مادام الأمر يتصل بالمتنبي هو الذي يستطيع أن يلون في «التخييل»، وفي «الرمز»، وبعبارة أخرى أن على الشاعر أن يقدم جميع التداعيات المتخيلة والمواقف، وأنه كما أن هناك الحقيقة المادية للشيء، فإن هناك في الوقت نفسه ما يمكن أن يسمى «بالمغزي السري» فيما وراء حقيقة الظواهر[٢]، ولعل وراء هذا مان أشار إليه الموصلي - على حد تعبير الآمدي في الموازنة - من أن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة، ولا تؤديها الصفة.

إن نبوغ الأديب وابداعه مرتبط أيضا بطريقته في استخدام اللغة، وإن الشاعر الحق لا تقوم لغته الشعرية على الألفاظ بمعانيها المباشرة وحدها، وإنما تستغل معاني أخرى وراءها وهي دائما تعبر عن حياته الفكرية وتصوره مشاعره وأحاسيسه، ولعل وراء ذلك ما يسميه البلاغيون «المعاني الثواني» وما يسميه المحدثون «طبقات المعاني» فهناك أكثر من طبقة.

والمتنبي من الشعراء الذين تزخر لغتهم الشعرية بزخم من المعاني الجميلة والمتميزة، تحققت نتيجة قدرة فائقة في تطويع اللغة والألفاظ لتشكيل هذه المعاني التي تفيض بها قريحته.

وحين نتصفح ديوان المتنبي سنجد أشياء مثيرة في لغته، حيث الألفاظ عنده لا تقف عند حيز محدود، وإنما تتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة، ويجيء في مقدمة هذه الأشياء تعامله مع الشمس، ففي كل موقف يرد فيه ذكر الشمس نجده يحمل معنى عميقاً يسعى الشاعر إلى تفتيقه بصياغات تختلف عن سابقه وتتناسب وتنساب مع السياقق العام للبيت، ومن المعروف أن ديوان المتنبي ليس كبير الحجم، فقد كانت حياته الخصبة العظيمة تتحمل ضعف هذا الديوان، ولكن قرر أن «ينخله» بالتعبير التراثي، فقد عكف عليه مراجعة، وحذفا، وإضافة، حتى قدم لنا في هذا الحجم الذي يتصاغر أمام حياته الجارفة القوية والمثيرة في الوقت نفسه.

---

(٢) الفن والشعور الابداعي ص ٢٠.

والآن ماذا يمكن أن نجد في هـذا الديـوان المحدود الحجم، إنـه يمكن القول بأنه لايمكن أن يعطي كما لا يعطى أي ديوان في العربية ذلك لأن حياة الرجل كانت حياة بركانية متفجرة، فهي في كل جانب من جوانبها موحية، ومثيرة، وصـاخبة . . فهو لم يمش على الأرض «هوناً»، ولكنـه مشى عليها عـاصفة من العـواصف، وهذه هي عادة الشعراء الكبار في العالم، فالشاعـر الذي يكـون كالنسيم يؤثـر ـ ويعيش ـ كالنسيم، أما الشعراء العواصف فهم يقلقون الوجود لا في عصرهم فقط، ولكن في كل العصور.

. . . وعـلى كل فـالظاهـرة التي أمامنـا الآن، والتي لفتت نظري عنـد قـراءة ديوان الشاعر هي ظاهرة تعامله مع «الشمس» فما المقصود بالشمس عنده؟ هل هي الشمس التي تمـلأ الحيـاة بـالنـور والتي هي ملك للنـاس جميعاً كقـول الشـاعـر الإعرابي[٣]:

مـخبـأة أمـا إذا الـليـل جنّـهـا	فتخفي وأمـا بـالـغـدو فتـظهـر
إذا انشق عنهـا ساطـع الفجـر وانجلى	دجى الليل، وإنجاب الحجاب المستر
وألبس عــرض الأرض لـونـاً كـأنـه	على الأفق الشـرقي ثـوب معصفـر
بـلون كـزرع الـزعفـران يشـوبـه	شعـاع يـلوح فـهـو أزهـر أصـفـر
إلى أن علت وانشق منها اصفـرارهـا	فـلاحت كمـا لاح المنيـح المشهـر
تـرى الـظل يـطوي حين يعلو وتـارة	تـراه إذا مـالـت الأرض يـنـشـر
وتـدنف حتى مـا يكـاد شعـاعهـا	يبيـن إذا غـابـت لـمـن يـتبـصـر
فـأمنت قـرونـا وهي في ذاك لم تـزل	تكـوت وتحيـا كـل يـوم وتنشـر

أم هي الشمس التي تشمـل الرمـوز الدينيـة القديمـة ـ فهـل الآلهـة والأم كـما تصورها الوثنيون القدماء ـ[٤]؟ حيث تعكس صـورتها صـورا مختلطة من الخصوبـة والقـوة والجمال. . وكـما تعكس صفات أخـرى جسديـة منها ثـورة مثـاليـة للجـمال

(٣) شعر الطبيعة ـ سيد نوفل ص ١٩٣.
(٤) الصورة في الشعر العربي ـ د. علي البطل ص ٦٩ ـ ٨٤.

والعطاء، والحياة في لينها وقسوتها كقول الشاعر الجاهلي الذي يجمع بين أشعة الشمس وشعر المرأة وقرون الغزالة:

تمنح المرأة وجها ضاحكا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
وقرونا سابقا أطرافها غللتها ريح مسك ذي فتح
وفي الحي أبكار سبين فؤاده لشجو ولم يحضرن مى المزالف[5]

أم أنها «شمس» أخرى تتصل بالشاعر، ودوره في الحياة، وقدرته على التجدد، وإنه لا يمكن أن تستغني عنه الحياة، لأنه هو الذي يعطي الحياة معنى بعد معنى وتجديدا بعد تجديد!

وعلى كل فالشمس ككلمة ورمز وقيمة، قد شغلت الشاعر وألحت عليه إلحاحاً شديداً، ومحال أن يكون هذا الإلحاح عبثاً. ولما كان من الطبيعي ألا «يجمد» رمزه عند معنى واحد، وممدوح واحد، فإنه يكون من المفيد، ومن الطبيعي، أن نتأمل هذه القضية لا في مسار واحد، وإنما في عدد من المسارات.

ففي المسار الأول نرى أنه يركز على «الشمس» حين يتكلم عن شيء يحبه، وعن محبوب يقدره، وعن ممدوح يعرف دوره في الحياة، وأول من يقابلنا في هذا المجال هو «سيف الدولة» الذي يقول فيه (الديوان جـ١ ص٣):

الشمس من حسّاده، والنّصر من قرنائه، والسيف منن أسمائه

فهو عنده شيء فوق الشمس، بل إن الشمس تحسده ذلك لأنه أعظم منها قدرا، إن هنا مبالغة في المدح، ولكنها المبالغة الفنمية، المرسومة رسما جيدا، ذلك لأنه يتعامل مع ثلاثة مصطلحات متساوية في الحروف، وفي الأصوات، وفي التأثير: فهو يقول: الشمس.. والنصر.. والسيف، وهذا سرّ من أسرار الأداء اللغوي عند المتنبي وهوالتوازن الجمالي» بين ما يحسّ به وبين ما يريد أن يتكلم عنه. وفي ظل المبالغة المتعارف عليها في لغة المدح، وخاصة في الممدوح الذي ارتبط به برباط يختلف عن رباطه بغيره من الممدوحين وهو رباط المحبة والتقارب الذي لا يظهر ما

(٥) بين القديم والجديد ـ د. ابراهيم عبدالرحمن محمد ص ٥٦، ٦٥.

يوحي بأن هـذا الربـاط هو مـا يكون بـين ملك ممدوح وشـاعر مـداح، فلذا تصور بألفاظ سلسة مناسبة في شعره كقوله: (الديوان جـ١ ص ٢٨٣).

فلو كـان قـرن الشـمس مـاء لأوردا وصـول إلى المسـتصعبـات بخيله

وكذلك في قوله: (الديوان جـ٢ ص ٢٣٢).

وأنـت تـخـلق مـا تـأتي وتـبـتـدع تمشي الكـرام عـلى آثـار غيـرهـم
فـليس يـرفـعه شـيء ولا يـضـع من كـان فوق محل الشمس موضعـه

فهو هنا قد وصل إلى ما سماه الثعالبي: مخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب (اليتيمة جـ١ ص ٢٣٧)، وإلى ما يقرره الدكتور محمد منـدور من أن دوام المودة بينهما تسع سنـوات، قد انتهت بـأن جعلت استخدام لغة الحب في المدح إحدى خصائص الشاعر[٦].

. . . وإذا تعرضنا للقضية من جانب علم النفس نـرى أنه يتكلم عن الشمس بحب واعزاز، وكل شيء يشي بهذا الحب والإعزاز، فإذا كان تعرضه بعد ذلك لقضية الشمس وكان الممدوح هو كافور، فإننا نرى شيئا بعدم الرضا، فالمتنبي يتحكم فيه عالمه الداخلي ويؤثر لا على ألفاظه فقط، ولكن التأثير قد يصل إلى حد الموسيقى، وعلى كل فلنتأمل قوله في كافور: (الديوان جـ١ ص ٣٤).

يفضـح الشمس كلمـا ذرت الشّمـ ـس بـشـمـس مـنـيـرة سـوداء

فشتان بين الشمس السيفية والشمي الكافورية، فشمس سيف الدولة مشرقة وزاهية مقدرة لـدور سيف الدولة إلى حد الغيرة منه، والحسد الذي ليس بعده حسد، أما الشمس عند الحديث عن كافور فهي مسبوقة بكلمة لها أكثر من دلالة وهي كلمة «الفضيحة»، والأمر لا يقف عند صدور «الفضيحة» وإنما يتعداه إلى كلمة «ذر» وإلى كلمة «سوداء!».

وما نريد أن نصل إليه هو هـذا العالم «التخييلي» الذي يخلقه المتنبي خلقاً،

---

(٦) النقد المنهجي عند العرب ص ٣١١.

والذي يجعل الشمس في مكان مقدّرة، وموحية، ومثيرة، ويجعلها في مكان آخر على خلاف ذلك.

. . . يمكن القول بأن دور الشمس المشرقة كان يلح عليه دائما في صلاته بسيف الدولة، بل إن قضية «الحسد» بدلالتها تلح عليه، حتى وهو يعزي سيف الدولة في وفاة عبده يماك التركي، فهو إذا كان قد سبق وذكر أن الشمس من حساده، فهو يطوع الكلام وهو يعزي سيف الدولة، ويجعل الشمس محسودة، والناس حاسدين، حين قال: (الديوان: جـ١ ص ٥٦).

فدتك نفوس الحاسدين فإنها معذبة في حضرة ومغيب

وفي تعب من يحسد الشمس نورها ويجهد أن يأتي لها بضريب

فالملاحظ أن قضية الحسد كانت تشغل الشاعر لهذا نراه يلح عليها إلحاحاً شديداً وينظر إليها من أكثر من زاوية.

ومن زاوية ثالثة يعرض لسيف الدولة فيقول: (الديوان جـ١ ص٧٤).

بسيف الدولة الوضّاء تمسى جفوني تحت شمس ما تغيب

فهو هنا يتلاعب بقضية الشمس من أجل الممدوح، وذلك حين يجعل للشمس شروقا وغروبا ويجعل لسيف الدولة شروقاً بلا غروب! وهذا ما يحقق ما ذهب إليه الدكتور محمد مندور.

. . . ثم نراه يضع الشمس في صورة «الأنثى» وذلك حين قال: (الديوان جـ١ ص ٨٣)

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهم ضباب

فالشمس هنا كناية عن النساء، وهو لا يهتم بغزو النساء، ذلك لأن ما يهمه في المقال الأول هو الدفاع عنهن لا الغزو لهن.

وفي قول آخر يرد فيه لفظ الشموس ويصف بها النساء أيضاً: (الديوان جـ٢ ص ٣٧٧)

أيـــامٌ فيـــك شمـوس مــا انبعثن لنــا   إلا انبعثن دمــا بــاللحظ مسفــوكــا

فهـو يتذكـر في صباحـه شموس مـا ذهبن وجئن إلا أجرين بـالحاظهن دمـاء عشـاقهن، وقد وردت في لفظ الشمـوس، ويقصد بـه أيضا النسـاء الموانـع التي لا تطمع الرجال فيهن في قول أبي صخر الهذلي:

قصـار الخطى شمّ شمـوس عن الخنـا   خـدال الشوى فتـح الأكفّ خراعب[7]

وقد يرد الجمع: شمس كما في قول النابغة: (ديوان النابغة ص ٦١)

شـمس، مـوانــع كــل لـيــلة حــرّة   يـخلفـن ظنّ الـفــاحش المـغيــار[8]

أما عن (صورة شمس الأنثى) فقد وردت كثيرا في أشعاره الغزلية ومنها قـوله في قصيدة مدح بها سيف الدولة: (الديوان جـ٣ ص٥٥).

تجنى الكــواكب من قــلائــد جيــده   وتســأل عين الشمس من خـلخــالــه

فـأصبح يـرى الكواكب بقـلائد المحبـوب، ويرى الشمس بخلخـاله، وقـد يكـون أخذ المنى من الشمس التي هي ضرب من القـلائد من قـول الشاعـر (لسان العرب: مادة شمس).

والـــدرّ والـــلؤلـــؤ فـــي شـــمـــســـه   مـــقـــلـــد ظـــبـــي الـــتـــصـــاويـــر

فصـورة (الشمس والأنثى) ترد في شعـر المتنبي في صور لا تختلف كثيـراً عن صور غيره من الشعراء، وقد ترد بصورة وألوان بديعـة يظهـر فيها تـلاعبه بـالألوان مغايرا لغيره، وذلك كقوله: (الديوان جـ١ ص ٣٢٩).

فـرأيت قرن الشمس في قمـر الـدجى   مــتــأودا غــصـــن بـــه يــتــأود

فاستعار الصفرة للحياء عوضا عن الحمـرة، ولعله كما قـال المنصف لم يعتمد مـذهب الفلاسفـة في هـذا الأمـر، واعتمـد مـذهب الشعـراء (انـظر المنصف جـ١

---

(٧) لسان العرب (مادة: شمس).

(٨) ديوان النابغة الذبياني ص ٦١.

ص ٢٠٧) ولكي يضفي مظهر الجمال والفتنة للصفرة التي طغت على بياضها فقال (كما صبغ اللجين العسجد) لكي يؤكد على جمال هذا التشكيل اللوني فهو يريد أن يقول إنها كانت كالقمر في بياضها، فلما اصفرت خجلا صارت الصفرة في بياضها كقرن الشمس في القمر. وفي قوله: (الديوان جـ٢ ص ١٢٣)

رأت وجه من أهوى بليلٍ عواذلي   فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر

فالمعنى في هذا البيت لا يخرج من دائرة الوصف التقليدي فاستخدمه في وصف المحبوبة عندما تعجب عواذله من رؤية الشمس في الليل لأنهن حسبن وجه من يهواها شمساً.

وفي مدح عبيدالله بن خراسان الطرابلسي يرد ذكر الشمس في هذه الصورة في البيت التالي: (الديوان جـ٢ ص ١٨٧)

فريدة لو رأتها الشمس ما طلعت   ولو رآها قضيب البان لم يمسِ

فالمرأة التي تغزل بها المتنبي خفرة لم ترها الشمس، ولكن لو رأتها لخجلت وغابت ولم تطلع حياء من نورها وحسنها.

فالمعاني التي مرت في رسم صورة (الشمس الأنثى) لم تخرج عن الدوائر التقليدية التي نصادفها في شعر الأقدمين في تشبيه المرأة بالشمس أو استعارة صفات الشمس كالنور والضياء والإشراق وإضافتها على المرأة.

ولكنه يركز على صورة «شمس الأنثى» حين يرثي أخت سيف الدولة، وهذه القصيدة من الفرائد في الشعر العربي، وفي شعر المتنبي، وذلك لأن فيها «وشاية» عن حبه الذي يكنه للأمير أخت سيف الدولة، ومع أنه قد أثير كلام كثير حول قضية حب المتنبي لأخت سيف الدولة، على نحو ما قرره محمود شاكر في كتابه عن المتنبي، والذي صدر في الأصل في عدد من أعداد المقتطف بدعوى أن «الحرقة» التي في النص، «والروعة» التي في الرثاء تشير إشارة واضحة إلى أنه كان يكن حباً قوياً للأميرة الحمدانية: (المتنبي جـ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٥٠)، ولنتأمل البيت: (الديوان جـ١ ص٩١).

فليت طالعة الشمسين غائبة   وليت غائبة الشمسين لم تغب

وأن هـذه الحرقـة التي في النص لا نصادفهـا في قصيدة أخـرى رثى بها أخت سيف الدولة الصغرى وقد تكون وفاتها قبل الكبرى «محبوبـة المتنبي»، إذ أنه يعـزيه بوفاتهـا ويسليه بـالكبرى. والحـديث في هذه المـرثية يـدور حول سيف الـدولة عـلى عكس المـرثية السـابقة التي انـطلقت معانيهـا بلا ارادة نحـو أخت سيف الـدولـة. (الديوان جـ ٣ ص ١٣٢)

وإذا الأرض أظـلمت كـأن شـمـسـا   وإذا الأرض أمـحـلـت كـان وبـلا

فالشمس هنا لسيف الدولة وليس لأخته.

عـلى الرغم من هـذا كله إلا أن للدكتور محمـد مندور وجهـة نـظر تقـول أن الثعـالبي نبهنا إلى استخـدام المتنبي للغة الحب لا في رثـاء خولـة فحسب، بـل وفي مدح سيف الدولة، وكافور، وابن العميد، وعضد الدولـة، فهل كـان المتنبي يحب كل هؤلاء أيضا حبا يشبه حبه لخولـة؟، بل إن الأمـر لا يقف عند ذلـك لأن المتنبي يصف الحرب والطعن بلغة العشق[٩].

وفي رثاء أم سيف الدولة يظهر الوقار الشديد الذي يليق بهذه المرأة ويتنـاسب مع مكانتها: (الديوان جـ ٣ ص ١٨).

ولـو كـان الـنسـاء كـمـن فـقـدنـا   لـفضـلت الـنـسـاء عـلى الـرجـال

ومـا التـأنيـث لاسم الـشمس عـيب   ولا الـتـذكـيـر فـخـر لـلـهـلال

فأم سيف الدولـة لم يقصد التـأنيث بمكانتهـا فهي كالشمس لهـا الفضل وإن كانت مؤنثة، والقمر لا يعدل بها وهو مذكر.

وبصفة عامة فلحديثـه عن الشمس في اطار الأسرة الحمـدانية أكـثر من معنى سواء أكان سيف الدولة هو الشمس، أو كانت الشمس هي أمه، أو كانت الشمس هي الرمز للنساء كافة، باعتبارهن رمز للعطاء المتجدد.

صحيح أنه تعـرض للشمس في رثائـه محمد بن اسحق التنـوخي: (الديـوان جـ ١ ص ١٠٧)

---

(٩) النقد المنهجي عند العرب ص ٣١٣.

طلعن شمـوسـاً والغمـود مشـارق لهن وهـامـات الـرجـال مـغـارب

فشبـه حـركـة السيـوف السريعـة، وهي تجتث رؤوس الـرجـال بـالشمس، وأغمادها كالمشارق، وعندما غابت في رؤوس الرجال كانت كالمضارب، والصورة في هذا البيت تذكرنا ببيت بشار بن برد في قوله:

كـأن مـثـار النـقـع فـوق رؤوسنـا وأسيـافنـا ليـل تهـاوى كـواكبـه(١٠)

وفي مدحه للمغيث بن علي بن بشر العجلي: (الديوان جـ ١ ص ١١١)

كـأنهـا الشمس يعيي كفّ قـابضـه - شعـاعهـا ويـراه الـطرف مغتـربـا

أمـا الشمس في هذا البيت فهي المـرأة الجميلة، القريبـة بـالنـظر إلى جمـالهـا البعيدة المنال كالشمس فهي قريبة النور بعيدة القبض، وهذا البيت بصوره ومعانيـه قريب الشبه ببيت الطرماح:

هـي الشـمس لـمـا تـغـيّـب لـيـلهـا وغـارت فمـا تبـدو لعين نجـومهـا
تـراهـا عيـون النـاظـرين إذا بـدت قـريبـا ولا يسـطيعهـا من يـرونهـا

وفي مدحه لعلي بن منصور الحاجب: (الديوان جـ ١ ص ١٢٢)

بـأبي الشمـوس الجـانحـات غـواربـا الـلابسـات من الحـريـر جـلابيـا

استخـدم لفظ الشمس في هذا البيت وأراد بهـا المرأة أيضـا، ولكنهـا بصيغـة الجمع، فكنى عن النساء عامة بلفظة (الشموس)، وكنى بالغروب عن بعدهن.

ومثل هذا نراه في مدح بدر بن عمار حين قال:

طـاعن الفـرسـان في الأحـداق شـزرا وعـجـاج الحـرب لـلشمس نـقـاب

فالشمس وردت هنا بمعناها اللغوي المباشر، ويـريد الشـاعر بهـا أن الممدوح حاذق بالطعن في الأحداق حتى في أظلم مكان حين صار الغبار نقابا للشمس، فهـو عارف بمواقع الطعن.

وفي مدح علي بن مكرم التميمي: (الديوان جـ ١ ص ١٤٥)

فـلا زالـت ديـارك مـشـرقـات ولا دانـيـت يـا شـمس الـغـروبـا

---

(١٠) ديوان بشار بن برد جـ ١ ص ٣١٨.

فهو يتمنى لدياره الإشراق لأنه الشمس (إذا ناده يا شمس) الذي لا يريد لها الغروب حتى تبقى دياره مشرقة.

وفي مدحه لمحمد بن عبيدالله العلوي من قصيدة قالها في صباه: (الديوان جـ ١ ص ٣٠٦):

شمس ضحاها، هلال ليلتها   درّ تقاصيرها زبرجدها

فجمال النظم هنا لا يتعدى التقسيمات الموسيقية في اللفظ إلى الوصول إلى درجة الإبداع في التخييل ورسم الصور، فالمعنى هنا قريب إذ جعل الممدوح الشمس في ضحاها لأن أكثر ما يكون نورها وحسنها عند الضحى، وهلال لياليها كما يتطلع إلى الهلال وهو الدر والزبرجد في القلادة.

إلا أن الواضح أن التعامل مع «الشمس» هنا يدور حول قدرة التعامل باللغة وحول الصور القوية، ومثل هذا يمكن أن يقال حول دوران الشمس حول كافور في مدائحه وأهاجيه، وإن كان العامل النفسي هنا يظهر أن الشاعر يكن لكافور كراهية خفية على نحو ما سبق أن ذكرنا، وعلى نحو قوله بعد ذلك في كافور (الديوان جـ ١ ص ١٧٩)

ويوم كليل العاشقين كمنته   أراقب فيه الشمس أيان تغرب

ففي البيت حالة «كمون» و «ترصد»، وحالة «غروب الشمس» لا شروقها، وفي الواقع فإن دراسة المتنبي من واقع مفاهيم علم النفس يعطي قيمة كبيرة لمثل هذا النوع من الدراسات.

وشتان بين دور الشمس في كل ما يتصل بسيف الدولة، ودور الشمس في كل ما يتصل بعالم كافور، فبينما يقول في سيف الدولة: (الديوان جـ ٢ ص ٩٩).

تكسّب الشمس منك النور طالعة   كما تكسّب منها نوره القمر

فيجعل الشمس هي المستفيد من نوره كما يستفيد القمر من نور الشمس[١١]. ويقول: (الديوان جـ ١ ص ٢٨)

---

(١١) أخذه من قول المعتز (اليتيمة جـ ١ ص ١٧٠):

البدر من شمس الضحى نوره   والشمس من نورك تستلمي

أحبـك يـا شمس الـزمـان وبـدره وإن لامني فيـك السهـا والفـراقـد

إن إنسياب اللفظ في الشطر يعبر عن عاطفة جياشة توحي بأن المخاطب امرأة وليس أميراً ذا سطوة ونفوذ، لكن الشاعر تدارك نفسه في الشطر الثاني فخفف من حدة العاطفة ومن اندفاعها ليؤكد أن المخاطب هو الأمير سيف الدولة الذي لا يبلغ منزلته أحد ممن يعرفهم.

وفي قوله: (الديوان جـ ٢ ص ١١٠)

كـأن شعـاع عـين الـشـمس مـنـه ففـي أبـصـارنـا عـنـه انـكـسـار

استخدم شعاع عين الشمس ليصور علو مكانته عند أهل عصره واجلالهم له حتى لا يملأوا أبصارهم من النظر إليه.

.. لكننا نراه يقول في كافور: (الديوان جـ ٢ ص ٣٧)

كسفت سـاعـة كمـا تكسف الشمـ ـس وعـادت ونـورهـا فـي ازديـاد

ويقول:

ولا تـجـاوزهـا شـمس إذا شـرقـت إلا ومـنـه لـهـا إذن بـتـغـريـب

.. فالشمس عند سيف الدولة مصدر للعطاء والحب والاشراق وهي أيضا كناية عن شدة الهيبة والوقار، ولكنها عند كافور محكومة بالكسوف، والغروب!

.. وإذا كانت قضية الشمس في رثائياته على نحو ما نعرف من عزائه لأبي شجاع وقد ماتت عمته: (الديوان جـ ١ ص ٢١٢)

لـم يـر قـرن الـشـمس فـي شـرقـه فـشـكّـت الأنـفـس فـي غـربـه

وفي مدحه للرجال البعيدين عن القمة كمدحه «لعلي بن أحمد الأنطاكي» في قوله: (الديوان جـ ٢ ص ١٥٦)

فجئنـاك دون الشمس والبـدر والنـوى ودونـك في أحـوالـك الشمس والبـدر

توضح أن التعامل مع الشمس هو مجرد تلاعب بكلمة من الكلمات، ومثل هذا يمكن أن يقال حين يتعرض لكلمة الشمس في معرض «الوصف» فالصورة قد تكون جميلة، ولكنها تكون بلا أبعاد على نحو ما نعرف من قوله في الحسين بن ابراهيم حين دخل عليه وهو يشرب فقال: (الديوان جـ ٢ ص ١٣٧)

رأيت الحميا في الزجاج بكفّه فشبّهتها بالشمس في البدر في البحر

فهنا صورة جميلة جزئية متتابعة، ولكنها بلا أبعاد . . وبلا دلالات ! كالتي ـ مثلا ـ وردت في قوله: (الديوان جـ ٢ ص ٣١٨)

سهاد لأجفان، وشمس لناظر وسقم لأبدان، ومسك لناشق

فقد توالت الأضداد في هذا البيت، فعاشقها لا ينام شوقاً إليها، إذا رآها فكأنه يرى الشمس بها، وهي سقم لبدنه، ومسك عند شمه، ولعله قصد الخمرة أيضا لأنها تجمع هذه الصفات، فعاب عليه ابن وكيع قوله هذا، وقال: ينبغي أن يقول:

سهاد لأجفان، ونوم لساهر وسقم لأبدان، وبرء سقام

حتى يصح التقسيم والطباق (ديوان المتنبي: الهامش جـ ٢ ص ٣١٩) فالشاعر لم يصل في هذا البيت والذي قبله إلى المكانة التي كانت فيها باقي أشعاره، والتي صادفناه في أمثلة عديدة جاء فيها ذكر الشمس وكانت مثلا في سيف الدولة، والسبب يكمن في شدة الحاح هذه اللفظة على الذهن واستخدامه لها في العديد من معانيه، وقد كان هناك تفاوت شديد في استخدامه لهذه اللفظة التي تلح عليه، والتي لم تعد لفظة وإنما تحولت إلى قيمة وإلى رمز.

وما نريد أن نصل إليه هو أن لكل شاعر رموزه، وأن طريقة التعامل مع الرمز هي التي تعطي له قيمة وبقاء، وقد نجح المتنبي في تعامله مع رمز «الشمس» الذي سيطر على شعره سيطرة واضحة، ومن خلال البحث في هذا «الرصيد الشمسي» الغزير نجد أن الشاعر لم يقبل على عالم الشمس عشوائيا، وإنما كان وراءه فهم للحياة، وللتعامل مع الإبداع، ومع قضية «التخييل» فهو لم يقف بها عند حالة من الحالات، ولم يقف بها عند ممدوح من الممدوحين، وإنما نراه أعطاها دلالة لكل حالة فرثاؤه لأخت سيف الدولة التي يقال أنه كان يعشقها غير رثائه للأخت الثانية، وغير رثائه لأم سيف الدولة، وغير رثائه أيضا لعمة عضد الدولة التي قال فيها (الديوان جـ ١ ص ٢١٢)

لم ير قرن الشمس في شرقه فشكّت الأنفس في غربه

فشتان بين هذا البحر الجاف، والقافية القلقة، وشتان بين قوله:

فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغب

ومدحه لسيف الدولة يختلف عن مدحه لكافور، فقد أقبل على كل منهما وهجر كلا منهما ولكن شتان بين عاطفة الحب هنا وعاطفة مقنع يمكن أن يكون في جانب ـ أو جوانب منه ـ كراهية ! فالتشبيه بالشمس يأتي عادة للتبجيل والتكريم في قصيدة المدح، ويأتي لإظهار الحب والإعجاب في قصيدة الغزل اضافة إلى وروده في القصيدة بمعناه المباشر وهو ما تتصف به هذه الظاهرة الكونية من صفات خاصة بها. فالمتنبي بعد أن أوردها في قصائد المدح وفي قصائد الغزل لم يبخل بها على نفسه وعلى شعره بالذات، فقد وصف شعره بين الشعر عامة كالملائكة بين الناس وهو سائر في الدنيا سير الشمس، وذلك في قوله: (الديوان جـ ٢ ص ٣٧٤)

إن هذا الشعر في الشعر ملك   سار فهو الشمس والدنيا فلك[١٢]

إن المتنبي لا توجد فيه الرمزية فقط، وإنما هو كالشعراء الكبار في كل شيء، والذي يهمنا من هذا الجانب هو أن الرمزيين يريدون أن يغوصوا بشعرهم في أعماق النفس، فلا يجرون وراء الصور الطبيعية للخروج من نطاق الذات[١٣].

وقد وجدنا المتنبي ـ من خلال الرمز بالشمس لأشياء كثيرة تعرض لها، قد غاص في عالم النفس، وأعطى نوعا من الحساسية لكل حالة من حالات «الغوص» !، وفي الوقت نفسه يمكن أن يقال بأنه غير «مقامات الكلام»، وأعطى العبارات طاقات جديدة لا يستطيعها غيره.

صحيح أنه كرر رمزه كثيرا، وأنه ألحّ عليه الحاحا شديدا إلى حد القول بأنه لا توجد قصيدة أو مقطوعة إلا ونجد فيها اشارة للشمس، ولكن هذا التكرار غير ممل، وغير خارج عن الحالة الفنية، ما دام قد أصبح له اشعاعه الخاص به في كل

---

(١٢) وله قول آخر في الشعر السائر: (الديوان جـ ٤ ص ٢٥٣)

فسرت وقد حجبن الشمس عني   وجئن من الضياء بما كفاني

وقد ذكر صاحب اليتيمة أن أحسن ما قيل في وصف الشعر السائر وأبلغه قول علي بن الجهم حيث قال: (اليتيمة جـ ١ ص ١٤)

ولكن احسان الخليفة جعفر   دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر

فسار مسير الشمس في كل بلدة   وهب هبوب الريح في البر والبحر

(١٣) الأدب المقارن د. محمد غنيمي هلال ص ٣٩٨.

مجال، فالتكرار له دلالات فنية ونفسية، وهو يدل على أن هناك اهتماما شديدا في موضوع ما، ولنتأمل قوله تعالى في سورة ابراهيم آية (٤٦): ﴿**وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾.

إن التكرار في هذه الآية جميل، لأن التكرار له دلالات فنية ونفسية يدل على الاهتمام بموضوع ما، يشغل البال سلباً كان أو ايجاباً، خيراً أم شراً، جميلاً أم قبيحاً، ويستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاته، والتكرار يصور مدى هيمنة المكرّر، وقيمته وقدرته[١٤]، والملاحظ أن المتنبي مع هيمنة كلمة الشمس عليه لا يعطي دلالة واحدة، أو قيمة واحدة، وإنما يجعل لها في كل بيت بعداً جديداً، وخاصية جديدة . . وهذا إحدى خصائص الشعر العظيم والشعراء العظام، وهي الخاصية التي تنبه لها حازم القرطاجني حين دعا إلى تجاوز الشكل السطحي الخارجي للأشياء، إلى ما يمكن أن يسمى بالجو النفسي لما يراد تخييله، فحقيقة التخييل عنده هو أن يناط ـ على حد تعبيره في المنهاج ص ٩٠ ـ بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول كتخييل الأمور السارة في التهاني، والأمور المفجعة في المراثي !

فإذا التمسنا لهذا مساندة في النقد الحديث، وجدنا الدعوى التي تقول بأن الفن يجب أن يقوم بمهمة اعطاء شكل للشعور بالنسبة للفرد، وبالنسبة للجماعة.

---

(١٤) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي د. عبدالحميد جيدة ص ٦٧.

فهرس المراجع والمصادر

(١) الاتجاهات الجديدة في الشعر ـ د. عبدالحميد جيدة ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٠ .

(٢) الأدب المقارن ـ محمد غنيمي هلال ـ الطبعة الخامسة ـ دار العودة ببيروت .

(٣) بين القديم والجديد ـ د. ابراهيم عبدالرحمن محمد ـ مكتبة الشباب ـ مصر ١٩٨٧ .

(٤) جمهرة أشعار العرب ـ أبوزيد القرشي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ١٩٢٦ .

(٥) ديوان بشار ـ شرح محمد الظاهر بن عاشور ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ١٩٥٤ .

(٦) ديوان المتنبي ـ شرح عبدالرحمن البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ببيروت ـ ١٩٨٠ .

(٧) ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٨ .

(٨) ديوان النابغة ـ تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ـ شركة التونسية ـ الجزائر ١٩٧٦ .

(٩) ديوان النابغة ـ دار صادر ـ بيروت .

(١٠) ديوان الهذليين ـ نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٥٠ .

(١١) شعر الطبيعة ـ سيد نوفل ـ ط الثانية ـ دار المعارف مصر / الدار القومية للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٥ .

(١٢) الصورة في الشعر العربي ـ د. علي البطل ـ دار الأندلس ١٩٨٠ .

(١٣) الفن والشعور الابداعي ـ غراهام كوليبر ـ ترجمة د. منير صلاحي الأصبحي ـ ط. دمشق ١٩٨٣ .

(١٤) لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار لسان العرب ـ ببيروت .

(١٥) المتنبي ـ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة.

(١٦) المنصف للسارق والمسروق منه ـ لابن وكيع ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ السلسلة التراثية ـ وزارة الإعلام ـ الكويت .

(١٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ القرطاجني ـ تحقيق محمد حبيب الخوجة ـ تونس ـ ١٩٦٦ .

(١٨) نثار الأزهار في الليل والنهار ـ لابن منظور ـ مطبعة الاستانة ١٢٩٨ هـ.

(١٩) النقد المنهجي عند العرب ـ محمد مندور ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الطبعة الثانية .

(٢٠) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣ .

حقيقة الخيّام

أ. د. أحمد كمال الدين
قسم اللغة العربية
جامعة الكويت

عاش الخيّام في عصر السلاجقة واتّصل بسلاطينهم وعظمائهم وعلمائهم ومفكّريهم ، وتعرّض للمدح والقدح ، وانفعل بالأحداث ، فجادت قريحته بأشعار تعكس أحاسيسه ومشاهداته .

والسلاجقة طائفة من الأتراك الغُزّ مسلمة سنيّة ، قدمت من صحاري تركستان ، وانتهزت فرصة سماح السامانيين لها بعبور بلادهم . . فاستقرّت ـ بقيادة زعيمها « سلجوق بن تقاق » ـ قرب نهر سيحون ، واتّخذت من « جند » قاعدة ، وكوّنت جيشاً كبيراً .

وصبرت هذه القوّة الفتيّة على ضيم السلطان « محمود » الغزنوي ، فلما تولّى ولده « مسعود » . . تمكّن الزعيم السلجوقي « طغرل بك » من الجلوس على العرش سلطاناً في نيسابور (عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م)[١]، وصار المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية . وبإسقاطه للدولة الزيارية (٤٣٣هـ = ١٠٤١م) ، وقضائه على دولة الديالمة (٤٤٢هـ = ١٠٥٠م) ، وعلى دولة البويهيين في بغداد (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) ، وكسبه تأييد خليفة بغداد نتيجة مساندته له . . صارت الدولة السلجوقية أقوى دولة إسلامية في عهدها[٢] .

---

(١) تاريخ البيهقي ، ج ٢ ص ٦٧٣ ؛ راحة الصدور ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ؛ لب التواريخ ، ص ١٠٥ .
(٢) مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ ؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ٢٨ .

وحين تولّى « ألب أرسلان » بعد وفاة طغرل عام ٤٥٥هـ = ١٠٥٥م[٣]، وبعد تمكّنه من إخضاع مناوئيه . . أخضع بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، فدخلتها الحضارة الإسلامية والحضارة الفارسية . أما خليفته « ملكشاه » فقد وصل بفتوحاته حدود الصين والهند . وكان غيابه عن مسرح الأحداث ـ بعد مصرع وزيره نظام المُلك عام ٤٨٥هـ سبباً في انصراف السلاجقة عن الفتوحات[٤].

وبعد صراع عنيف على العرش . . استقر الأمر « لبركيارق »[٥] دون أخيه « محمود » . ونتيجة للحروب بين السلطان بركيارق وأخيه غير الشقيق « محمد » تقسّمت المملكة بينهما . وبعد وفاة بركيارق وإزاحة « ملكشاه الثاني » من الطريق . . صار محمد سلطان السلاجقة دون منازع . غير أن الدولة تجزّأت في عهده بين أكثر من حاكم . ويؤثر عنه أنه استطاع أن يحدّ من خطر الاسماعيلية ، وأن يقتل « عطّاش » قائد قلعتهم : (شاهدژ)[٦].

ومات محمد عام ٥١١هـ = ١١١٧م ، فحلّ ابنه « محمود » مكانه ، لكن « سنجر » ـ الأخ الشقيق لمحمد ـ أقصاه ، ونصب نفسه سلطاناً . ثم عطف عليه فلقّبه بالسلطان ، وأنابه عنه في العراق . وأعاد سنجر للدولة هيبتها ، فاستحقّ لقب « آخر السلاجقة العظام » ، وجعل من خراسان مركزاً للعلم والأدب . وبهزيمته على يد « الخطا »[٧] ثم على يد « الغز » من بعدهم . . تعرّضت بلاده لكثير من الدمار ،

---

(٣) هناك خلاف حول تاريخ الوفاة ، أنظر : لب التواريخ/١٠٥ ، طبقات ناصري/٢٥٢ .

(٤) لمعرفة الكثير عن أحداث عصري الب أرسلان وملكشاه ، أنظر : تاريخ كزيده/٤٣٣ ؛ تاريخ سلجوقيان كرمان/١٣ ؛ راحة الصدور/١٢٦ ، ١٢٧ ؛ الكامل ـ حوادث ٤٨٥ ؛ تاريخ آل سلجوق/٥٨ ؛ تاريخ مختصر الدول/٢٤٣ ؛ الأنوري عصره وبيئته وشعره ؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة . . صفحات كثيرة .

(٥) لم يكن عمره يزيد على ١٣ عاماً ، لذا علّقوا التاج على العرش فوق رأسه لثقلّه إشفاقاً عليه . (سيرة ابن هشام/٤٢) .

(٦) فارسنامه ؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة/١٨١ ، ١٨٢ .

(٧) لمعرفة تطوّرات الصراع بين سنجر والخطا ، إرجع إلى : سلاجقة إيران والعراق/١١٨ ؛ إيران ماضيها وحاضرها/٦١ ؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة/٥٦ ـ ٦٠ ؛ تاريخ آل سلجوق/٢٥٣ ؛ حبيب السير/ جـ٢ ص ٥٠٩ ؛ ديوان أنوري/٦٤ ، ٦٥ .

وتعرّض علماؤها وأدباؤها للقتل والهوان[٨] . وبموته عام ٥٥٢هـ = ١١٥٧م آل الحكم إلى عدد من الحكّام . وبمصرع آخرهم -عام ٥٩٠هـ = ١١٩٤م -عام ٥٩٠هـ -ونعني به « طغرل السلجوقي » الذي قضى عليه « تكش » الخوارزمشاهي . . ابتلعت الدولة الخوارزمشاهيّة دولة السلاجقة في كل من إيران والعراق .

وقد وُلِدِ الخيّام (أبو الفتح عمر بن ابراهيم) في نيشابور في الفترة ما بين عامي ٤٤٩هـ ، ٤٥٥هـ . . في عهد طغرل ، وعاش فترة دراسته وسني شبابه في عهد ألب أرسلان ، ودخل في خدمة ملكشاه ، وعاصر محمداً ومحموداً وبركيارق وملكشاه الثاني ، وشهد طفولة سنجر ، وعاده أثناء إصابته بمرض الجدري ، ومات بعد جلوسه على العرش سلطاناً بمدّة طويلة . ولازم خاقان بخاري « شمس الملوك » ، وكان يجلسه بجواره على العرش ، وزامل في الدراسة كلاً من « نظام الملك » الوزير السني الخطير ، و « الحسن الصباح » الداعية الشيعي الشهير .

* * *

ويتّسم العصر السلجوقي بِسِمَة اجتماعيّة بارزة هي عدم الاستقرار . . الذي نجم عنه سيطرة اليأس والتشاؤم على نفوس الناس عامة والشعراء خاصّة ، ولجوء الكثيرين إلى العزلة . كما نجم عنه رواج التصوّف بين الساخطين على دنياهم . ونتيجة لاختلاف الجنس التركي الحاكم عن الجنس الإيراني المحكوم . . برزت العصبيّة العنصريّة ، وتبدّت في شكل عدم ثقة من جانب الأتراك ، ونفور ورهبة من جانب الإيرانيين .

وترتّب على تفشّي المجون والاستهتار بالخلقيّات . . شرب الخمر جهاراً ، وبروز ظاهرة عشق الغلمان بصورة تفوق ما كانت عليه في أي عصر سابق على عصر السلاجقة[٩] . ونتج عن كثرة امتلاك الغلمان ظهور طبقة جديدة هي طبقة الرقيق . وكان العبيد ومن في حكمهم يتفننون في إذلال الكثير من العلماء.

---

(٨) لمعرفة أثر الغز في مسيرة السلاجقة ، أنظر : السلاجقة في التاريخ والحضارة - الباب الثاني - الفصل السادس .

(٩) تاريخ طبرستان/ جـ ٢ ص ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ؛ طبقات الشافعية/ جـ ٣ ص ١٨ ؛ حبيب السير ج ٤ ص ١٢٦ ؛ راحة الصدور/ ١٤٠ ؛ تاريخ دولة آل سلجوق/ ٧٦ .

ورغم مظالم الأتراك ومفاسدهم ، كانوا يعدّون أنفسهم مكلّفين من قِبَل الحقّ سبحانه بنُصرة الدين ، وصدّ الخارجين عن أحكامه ، وردع أصحاب البدع . ولعل هذا ما حدا بهم إلى توقير الصوفيّة ممن يتميّزون بالاعتدال والمسالمة . . وإن كانت المصادر تؤكد أن بعض الفرق الصوفيّة كانت تلجأ إلى العنف في سبيل الإصلاح . . كفرقة الأخية الفتيان ، وأن من بين الصوفية من تعرّض للقمع والقتل .

ونتيجة لبروز أهمية بعض المدن ، برزت العصبيّات المحليّة بصورة حادّة ، وشاع القتل والسلب ، وصار الهجاء المتبادل بين الشعراء أمراً مألوفاً[١٠] . ونجم عن غنى العظماء وميلهم إلى الترف . . إهتمامهم البالغ بضخامة مجالسهم ، وبعقد مجالس الغناء والشراب . وصارت المنادمة مهنة ، وازدهرت صناعات معيّنة لتلبية حاجات أصحاب هذه المجالس والمشاركين فيها .

وكانت فترات الهدوء النسبي ـ التي تسود أحياناً ـ عاملاً من عوامل تجمعّ الأدباء والفنّانين في نواحٍ عديدة من بلاد إيران ، وسبباً في نشاط الحركات الفنيّة والأدبيّة التي شهدها ذلك العصر . كما شجّع على هذا النشاط وجود ساسة ينتمون إلى أسر عريقة ، أوْ لَهُم اهتمامات أدبيّة .

* * *

وإلى جوار الاضطراب السياسي وسوء الحالة الاجتماعيّة . . ساد الاضطراب المذهبي ، وكثر المتعصّبون ومن يصادرون الحريّة الفكريّة . وتدخّل العلماء وأصحاب المذاهب والفقهاء في شؤون الحكم والرياسة ، وحرّموا الفلسفة والعلوم العقلية ، مما أدى إلى ضيق النظر . . نتيجة انحراف العلم عن محوره الحقيقي وهو البحث عن حقائق الأشياء ، وتسبّب في جَعْل الفلسفة والحكمة تابعتين لمجادلات أصحاب المذاهب ومناظراتهم ، وجَعْل المباحثات العلمية محدودة داخل نطاق الإحساسات المذهبية[١١] .

---

(١٠) استخدمت في الهجاء كلمات نابية رفض بعض الأدباء تسجيلها . أنظر : تذكرة الشعراء / ٧١ ، ٧٢ .

(١١) تاريخ بخاري (الترجمة العربية) حاشية ـ ص ١٣٥ ؛ أخبار دولة آل سلجوق/ ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٤ .

وكان السلاجقة يتعصّبون للسنّة ، ويؤيّدون خليفة بغداد ، بينما يراه الشيعة غاصباً ، ولا يعترفون به إماماً للمسلمين ورغم عداء السلاجقة الشديد للشيعة . . كثرت المدارس الشيعية والمساجد والمكتبات والمجالس ، وكان أتباع المذهب الشيعي يروّجون لمذاهبهم علانية ، ويشجّعون الشعراء على مدح أئمتهم(١٢) .

وإلى جانب الصراع بين السنّة والشيعة . . كان هناك صراع بين المذاهب السنيّة ، وقد انقسم أهل السنّة والجماعة إلى سبع فرق متجادلة فيما بينها(١٣) . وبفضل تشجيع السلطات الرسمية للفقهاء كثر عددهم ، وتغلغل الدين بين الناس ، وضعفت العلوم العقلية ، ووُجدت المدارس المذهبية . غير أن ذلك لم يوقِف تعّرض بعض الفقهاء للنفي والحبس ، والتعذيب ، وإجبارهم على ترك عقائدهم ، ولم يحجب الإهانات والاتهامات التي كانت تُوجّه إلى كبار رجال الدين أحياناً .

وقد شارك بعض الشعراء في المعارك المذهبيّة بالهجوم والدفاع ، وأحجم بعضهم خوفاً أو مداراة . وتسبّب الوضع في ضيق أفق الشعراء ، وفي توجيههم الحديث نحو انعدام الفضائل وذم الاختلاط وتحبيذ العزلة(١٤) .

وبقيت الفرق الصوفية المسالمة بعيّدة نوعاً ما عن دائرة التعصّب(١٥)، وقوي نفوذها ، وتغلغلت أفكارها في الأدب السلجوقي ، وملأته بالمعاني المجازية والاستعارات والكنايات الإشراقية الصوفية . وصارت نغمة جزء كبير من الشعر مستمدة من التصّوف .

وفي عهد السلاجقة ، راجت اللغة الفارسية بسبب إقامتهم في إيران ، واتخاذ بعض مدنها عواصم لهم، وإصرار حكامهم على جعل الفارسية ـ بدلاً من العربية ـ لغة البلاد الرسمية ولغة الكتابة(١٦) . كما راج الأدب الفارسي، وزاد عدد الشعراء

---

(١٢) كان المتعصّبون يقطعون لسان المادح أحياناً . (كتاب النقض/٧٧) .

(١٣) اقرأ حول هذه الفرق ومواضيع الجدال في : المنتظم جـ ٨ ص ٦٣ ، ٣٠٥/ جـ ٩ ص ٤٠٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ١١٥ ؛ الكامل ، حوادث ٤٤٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٥ ؛ تبصرة العوام ، ص ٩١ ، ٩٦ ، ٩٧ .

(١٤) تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ص ٢٧٨ .

(١٥) لا يصدق ذلك على كل الفِرَق . . أنظر : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ ، ٤ .

(١٦) تم ذلك في عهد ألب أرسلان (شعر العجم ، ط ١ ص ١٤٨ ، ١٤٩) .

والكتّاب بفضل تشجيع الفرس من أصحاب النفوذ، وبفضل انتشار المراكز الأدبية الفارسيّة، وتصَاعُدِ حّدة الصراع المذهبي، وكثرةِ الخانقاهات.

ونتيجة لتدريس العربية في المدارس، واهتمام الأدباء بقراءة الأشعار والمتون العربية، وحفظهم لها باعتبارها شرطاً أساسياً للكتابة والنظم . . زاد حجم المفردات والمركّبات العربية في اللغة الفارسية، واستُفيد من قواعدها فاستُخدِم جمْعُ المذكّر السالم وجمع التكسير، وأُلحِقت علامة التأنيث بآخر الصفة .

ونتيجة لتشجيع طلّاب العربية ومن يستخدمونها في كتاباتهم . . ظهر العديد ممن يستخدمون العربية أكثر من غيرها . وشجّع رواج العربية عدداً من معارضّي الشعوبية على نشر كتب في النحو والصرف العربي[١٧].

ونتيجة للفتوحات والاختلاط بين العرب والفرس ظهر تغير واضح في النظم والنثر الدريّ[١٨] ـ الخاص بخراسان وما وراء النهر ـ فتحول الايجاز إلى إطناب، وقصر الجمل إلى طول فيها، وكثر الاستشهاد من القرآن والشعر العربي، وإيرادُ النوادر العربية، واستخدامُ الكنايات والاستعارات والتشبيهات والموازنة والسجع والصناعات البديعية والصنعة الأسلوبية.

ونتيجة لرواج الآداب العربية اتّخذ النثر الفارسي طابع التكلُّف، وتبع الشعر الأسلوب العراقي. وترتّب على الاهتمام الزائد بالعربية تقلصّ دراسة قواعد اللغة الفارسيّة، وأصبح الكتّاب الفرس وكأنهم عرب، وتميّزت عباراتهم بالصعوبة والغموض، ورويداً رويداً قلّ وجود من ينشىء بالفارسيّة الخالصة، وشاع الأدب بصورته هذه في قونية وسائر بلاد آسيا الصغرى، وهناك برز العديد من الأدباء والفضلاء[١٩].

وكما كثر عدد المؤلّفين بالفارسية كثر عدد المؤلفين بالعربية[٢٠]، وسار التيّار

---

(١٧) سبك شناسي، ص ٦٥ .

(١٨) نسبة إلى اللهجة الدرّية التي أصبحت منذ أواسط القرن الثالث الهجري لهجة إيران الرسمية والأدبية، وهي الفارسية الإسلامية .

(١٩) تراث فارس (الترجمة العربية) ، ص ٧٩ .

(٢٠) يمكن معرفة الكثير من المؤلفات الفارسية والعربية التي كتبت نثراً في عهد السلاجقة بالرجوع إلى السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢٦٠ ـ ٢٩٠ .

الفكري في اتجاهين متعارضين . . أحدهما يساند الفلسفة والحكمة والآخر يعارضها ويعتبرها إلحاداً . وظهر روّاد الشعر الصوفي والمؤلفات العرفانيّة النثريّة الفارسيّة ، وانقسمت العلوم إلى شرعيّة وعقليّة ، وكثر التأليف في كل قسم . وارتقت العلوم الأدبيّة واللغويّة والبلاغيّة نتيجة انتشار المدارس في الممالك الإسلاميّة عامة ، وكثرة الأساتذة العظام .

وقد أُثر عن شعراء هذا العصر أنهم كانوا يكوّنون طبقة محترمة ينتمي إليها الخاصّة والعامّة . وكانت دراية الشاعر بأكثر من فرع من فروع العلم ، وقدرته على الإتيان بالقوافي الصعبة ، وعلى الارتجال . . تتيح له الشهرة أكثر من سواه ممن يفتقرون إلى هذه الميزات(٢١) .

والخيّام(٢٢) باعتباره ابن عصره قد جمع إليه الكثير من تلك العلوم التي مرّ ذكرها ، وأسهم بالكتابة في أكثر من علم ؛ فبالرجوع إلى كتب التراجم نجدها تلبسه ثوب العالم المتمكّن الذي يجيد أكثر من فن ، وتسند إليه مقام الإمامة في العلوم المذهبيّة والأدبية والتاريخية ، وتشيد بتفوّقه ونبوغه في مجالي الطبيعة والرياضيّات . وتذكر أنه ـ نتيجةً لتبحرّه في علم الهيئة والنجوم ـ قد رأس جماعة من كبار العلماء في عهد ملكشاه وبأمرٍ منه ، فأخرج « زيج ملكشاه » أو ما يعرف بالتقويم الجلالي(٢٣) . وأنه نتيجة شغفه بالفلسفة ـ قد قام بنشر عقائد فلاسفة اليونان وأفكارهم(٢٤)، مما عرّضه للاتهام بالإلحاد ، ودفعه إلى السفر إلى الحجاز ليدرأ عن نفسه الشبهات . ومؤلفات الخيّام العديدة شاهد صدق على تبحّره في العديد من الفنون(٢٥)، وهي تنفي ما يشاع من أنه

---

(٢١) الأنوري : عصره وبيئته وشعره ، صفحات متفرّقة .

(٢٢) (الخيام) لقب للشاعر ولعائلته ، وهو يفسره حين يشبّه نفسه في إحدى رباعيّاته بالخيمة . ويبدو أنَّ أباه وعائلته كانوا يصنعون الخيام . وعلى أي حال فإنه لا يوجد ما يؤكد الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها عائلته .

(٢٣) يرد في الكامل لابن الأثير أن وضعه التقويم كان في عام ٤٦٧هـ .

(٢٤) تاريخ الحكماء للقفطي ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢٥) ليست له كتب في الطب رغم وجود أخبار تشير إلى أنه استدعى يوماً لفحص سنجر قبل أن يصبح حاكماً .

أنظر : تتمة صوان الحكمة / ١١٤ ؛ وزارت در عهد السلاطين بزرگ سلجوقي / ١٩٥ .

كان قليل التأليف . ويلاحظ أن معظمها علميّة أو فلسفيّة ، وأن القليل منها في الأدب والاجتماع . ومن مؤلفاته :

رسالة بالعربيّة في براهين الجبر والمقابلة ، يعرفها علماء الرياضة في أنحاء العالم اليوم ، وأخرى في الكون ومسألة التكليف ، وثالثة في شرح مشكلات مصادرات كتاب إقليدس ، ورابعة بعنوان ميزان الحكمة . . وضعها في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضّة في جسم مركّب منهما ، وخامسة باسم رسالة الضياء العقلي . . وهي في موضوع العلم الكلّي ، وسادسة في جواب ثلاث مسائل تتعلقّ بالحكمة ، وسابعة في كليّات الوجود . . تعرف باسم روضة القلوب ، وثامنة في صحّة الطرق الموصلة لاستخراج الجذر المكعّب ، وتاسعة في مشكلات الحساب التي عرضت في مقدمة رسالة شرح ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس ، وعاشرة في الطبيعيّات . أمّا رسالته الحادية عشرة فإنها في بيان زيج ملكشاه ، والثانية عشرة حول رسالة نظام الملك المتعلّقة بالحكم ، والثالثة عشرة بعنوان « لوازم الأمكنة » . وإلى جانب كتابه المعروف « نوروزنامه » أي كتاب النوروز . . نجد له ترجمةً لخطبة ابن سينا ، نقلها من العربيّة إلى الفارسيّة . وبجوار هذا النتاج العلمي الفارسي العربي المتنوع . . نجد له أشعاراً عربيّة ورباعيّات فارسيّة .

وتتناثر أشعاره العربيّة في كتب التراجم والسير ، ويكشف بعضها عن عميق خبرته وفرط يأسه من تحقّق الوفاء لدى الإنسان ، كقوله :

زجّيتُ دهراً طويلاً في التماس أخٍ	يرعى ودادي إذا ذو خلّةٍ خانا
فكم صحبتُ وكم آخيتُ غير أخٍ	وكم تبدّلتُ بالإخوانِ إخوانا
وقلتُ للنفس لما عزّ مطلبُها :	إياك أن تصحبي ، ماعشتُ ، إنسانا

ويؤكد بعضُها اعتزازَه بنفسِه وفكرِه ، كقوله :

سبقتُ السائرين إلى المعالي	بثاقب فكرة وعلوّ همّه
فلاح لناظري نور الهدى في	ليالٍ للضلالة مدلهمّة
يريدُ الحاسدون ليطفئوه	ويأبى الله إلّا أن يُتمّه

ويؤكد قسطٌ منها قناعته ورضاه ، وتفضيله العمل على ما عداه ، كقوله :

إذا رضيتْ نفسي بميسور بُلغة يحصّلها بالكدّ كفّي وساعدي
أمنتُ تصاريف الحوادثِ كلِّها فكن يازماني مُوعدي أو مُواعدي
ولي فوق هامِ النيرين منازلٌ وفوق مناط الفرقدين مُصاعدي

ويبرز جانب منها عفّته ، ونظرته إلى نفسه على أنه قدوة صالحة ، وإن استهلّها بما يفيد إلحاده :

تدين ليَ الدنيا بل السبعةُ العُلا بل الأفقُ الأعلى إذا جاش خاطري
أصوم عن الفحشاء جهراً وخِفيةً عفافاً ، وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عصبةٍ زلّتْ عن الحقِّ فاهتدتْ بطرْق الهدى من فيضي المتقاطر
فإنّ صراطي المستقيم بصائر نصبنَ على وادي العمى كالقناطر

أما رباعيّاته الفارسيّة فإنها القالب الذي يحوي أفكاره ، ويبرز آراءه ، ويعكس شعوره ، ويبدي ما في صدره من شكوك ونزعات ووساوس ، وهي تتّسم بشدّة التركيز ، وتشعّب الأهداف ، وتأرجح الأسلوب بين الرقّة والمنطق والاستدلال والجدّ والمزاح والفكاهة والجرأة والخوف والخشية والرجاء . وهي ذات ظاهر وباطن . . على نحو يجعل قرّاءها ينقسمون بشأن صاحبها إلى أكثر من فريق ؛ فبينما يضعه فريقٌ بين كبارِ المتصوّفة وأهل العرفان ، يضعه آخر في مصاف الفلاسفة ومنكري الأديان ، وبينما يؤكدّ فريق خلاعته ومجونه ، يرجّح غيره اتّجاهه إلى طلب المعرفة شأنه شأن المتفتحي الأذهان . ومع كثرة نتاج الخيام العلمي وتنوّعه ؛ فإن شهرته اليوم تكاد تنحصر في هذه الرباعيّات .

ونظراً لحدّة الخلاف حول عقائده وأسلوب تفكيره وطريقته في الحياة . . لجأنا إلى رباعيّاته هذه لنتحدث من خلالها حول موضوعات الخلاف الشائعة . لكنّا نرى ـ تحقيقاً للفائدة ـ أن نبدأ حديثنا بذكر بعض المراجع القديمة والأبحاث الحديثة التي تمكّن الباحثين من معرفة الكثير عن الخيام الشاعر العالم أو العالم الشاعر . . وهذه أهمها :

تاريخ الحكماء للقفطي ـ الملل والنحل للشهرستاني ـ الكامل لابن الأثير .
تاريخ الأنطاكي ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ـ حبيب السير لخواندمير

جهان گشا للجويني ـ شعر العجم لشبلي النعماني ـ نهاية الأرب للنويري .
تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ـ مرآة الزمان لسبط بن الجوزي ـ روضة الصفا لميرخواند .
ديوان الخاقاني الشيرواني ـ سبك شناسي لمحمد تقي بهار ـ التاريخ الألفي لأحمد بن نصرالله .
فردوس التواريخ لخسرو الأبرقوهي ـ مرصاد العباد لنجم الدين الرازي .
آثار البلاد لزكريا القزويني ـ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله .
تذكرة الشعراء لدولتشاه ـ نزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزوري .
چهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي ـ تاريخ گزيده لحمدالله مستوفي القزويني .
تاريخ أدبيات در إيران لذبيح الله صفا ـ تاريخ أدبيات إيران لرضا زاده شفق .
مقدّمة ساخاتو على الآثار الباقية للبيروني ـ رباعيّات خيّام لرضا توفيق بك .
مقدمة أحمد رامي على ترجمته للرباعيات ـ مقدمة الصافي النجفي على ترجمته للرباعيّات .
مقدمة أديب تقي على تعريب النجفي للرباعيّات ـ رباعيّات الخيام لوديع البستاني .
ثورة الخيام لعبدالحق فاضل ـ كشف اللثام عن رباعيّات الخيام لمبشّر الطرازي .
عمر الخيام الحكيم الرياضي الفلكي النيسابوري لأحمد حامد الصرّاف .
عمر الخيام وعصره لدنيسون روس ـ بين المعري والخيّام لأحمد كمال الدين .
عمر الخيام والرباعيّات الجائلة لقالنتين جكوفسكي :

Umar Kh. and Wandering Quatrians.

المقابلة بين ترجمة فيتزجرالد وأصول الرباعيات الفارسية لإدوارد هارون ألن :

Edward Fitz Gerald's Rubaiyyat of Omar Kh. with their Original Persian Sources.

تاريخ الأدب في إيران لإدوارد جرنفيل براون :

A Literary History of Persia-from Firdawsi to Sadi.

ويشتمل الملحق التاسع والأربعون ـ الذي نشره ناثان هسكل ـ للرباعيّات في بوسطن ولندن عام ١٨٩٨م ـ على قائمة طويلة من الطبعات تكفي لإشباع نهم كل معجب بالخيّام وأخباره وأفكاره .

والرباعية منظومة مستقلة فيها وحدة في الشكل والمضمون ، وهي ضرب جميل من ضروب النظم بشرط أن يحيكها شاعر مُجيد ، يستطيع أن يمهّد لما يرمي إليه في أشطرها الثلاثة الأولى ، وأن يفرغ في الشطر الرابع النتيجة التي مهدّ لها . ولكونها فناً فارسياً خالصاً يرتكز على أربع شطرات من الشعر ؛ تسمىّ بالرُباعيّة أو الرُباعي . أما الذين يطلقون عليها اسم الـ (دوبيت) فإنهم يعتبرونها مجرد بيتين من الشعر . . كأي بيتين في مطلع قصيدة أو غزليّة . . وهم في زعمهم مخطئون ، إذ يشترط في الرباعية دائماً أن تكون على وزن من الأوزان الخاصة المستخرجة من بحر الهزج[٢٦] ، وأن تفي بالغرض الذي أنشئت من أجله ، فلا تكون هناك صلة بينها وبين الرباعية السابقة عليها أو التالية لها . وتؤكدّ بالتالي أنه لا توجد منظومة من عدّة رباعيّات ، ولهذا فإن ناظمي الرباعيّات يرتّبون رباعيّاتهم في دواوينهم على نحو واحد ، يتّبعون فيه الترتيب الألف بائي وفقاً للحرف الأخير من القافية . . في الشطرات المقفّاة ، إذ تقفّى مصاريع الرباعيّة (الأوّل والثاني والرابع) مع بعضها بعضاً دائما ، بينما يقفّى المصراع الثالث معها أو لا يقفّى . . والحالة الأخيرة هي الأفضل .

والرباعيّات ضربٌ من النظم سهل المحاكاة ، فهي تتشابه غالباً في الصيغة والألفاظ والوزن والتركيب والمحسّنات البلاغية ، إلى جانب كونها قصيرة النفس ، تعالج الخاصّ من الأمور دون العام . . وهذا ما يجعل من الصعب على القارىء أو السامع إطلاق حكم قاطع بأن شاعراً بعينه هو ناظم رباعيّة بعينها . وقد كان الشاعر الذي يجيد ارتجال رباعيّاته أجدر الشعراء بتقدير العظماء . وتحدّثنا كتب التراجم بما يفيد أن « المعزى » قد نال عن هذا الطريق شهرته وغناه ، وهذاً « العنصري » ثائرة

---

(٢٦) تأتي الرباعيّة في بحر فارسي دخيل على العربية ، يسمى بحر الدوبيت ، وأفضلها ما كان على وزن « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » . غير أن بعض المتأخرين من أدباء العرب ـ كإلياس فرحات والشيخ علي الشرقي ـ قد أطلقوا اسم الرباعية على أربعة أبيات تشبيهاً لها برباعيات الخيام ، بينما رباعيات الخيام تتألف من بيتين فحسب . (رباعيّات عمر الخيام للنجفي ، ص ١٠) .

مولاه ، وأراح « الأزرقي » فؤاد الملك «طغانشاه»(٢٧) .

ومنذ زمن قريب نسبياً تركّز اهتمام القرّاء في رباعيّات الخيّام ، واشتهر خارج وطنه بصورة لم يكن يحلم بها يوم أن نظم رباعيّاته ؛ إذ المعروف أنه لم يشتهر في حياته شاعراً ، وأن بني جلدته لم ينشروا آثاره الشعرية إلّا بعد أن اشتهر برباعيّاته خارج وطنه ، وأن ما طبع على أيديهم تكثر به العيوب . وإذا أردنا التثبّت من افتقاره إلى الشهرة في حياته شاعراً وجب علينا أن نلجأ إلى المصادر القديمة ، وعندها لن نجد له ذكراً في المقالة الخاصة بالشعر والشعراء في كتاب « چهار مقاله » المؤلَّف في القرن السادس الهجري ، وسوف نجد بعض أخباره في المقالة الخاصة بالنجوم والمنجمين(٢٨) . ولن نجد له ذكراً قط في « لباب الألباب » المؤلَّف في القرن السابع الهجري . وسوف نجد أن اسمه قد جاء عرضاً في كتاب « تذكرة الشعراء » المؤلَّف في نهاية القرن التاسع الهجري(٢٩) .

غير أن عدم رواج رباعيّاته قديما لا يعني أنها لم تكن معروفة ؛ فقد وجدنا بعضهم يستشهد بنماذج منها على صحّة ما ألصقه بالخيّام من تهم ، أو استحقاقه لما كاله له من مديح ؛ فنجم الدين الرازي ـ في كتابه « مرصاد العباد » المؤلف في القرن السابع الهجري ـ يستشهد على كفره وإلحاده برباعيّتين . والقفطي يجمع بين مدحه وقدحه في كتابه « تاريخ الحكماء » المؤلَّف في القرن السابع أيضا ، ويستشهد بسبعة أبيات عربية للخيام ، والشهرزوري يؤكد نبوغه في أجزاء علوم الحكمة ، ويشيد

(٢٧) بالرجوع إلى تاريخ الأدب في إيران لبراون ـ الترجمة العربية ، جـ٢ ص ٤٩ ـ ٥٢ ـ نقف على قصة المعزي الشاعر والسلطان ملكشاه ، وكيف أجزل له العطاء ومنحه لقب الأمير معزى لقاء رباعيتين قالها على البديهة .

وبالرجوع إلى صفحة ٥٢ ، ٥٣ (نقلاً عن جهار مقاله) نجد أن العنصري قد استطاع برباعية أنشدها على البديهة أن يزيل غضب محمود الغزنوي . . الذي كان قد أمر بقطع طُرة غلامه أثناء سكره ، وندم عندما أفاق .

وبالرجوع إلى ص ٥٣ نجد أن طغانشاه ثار عندما ألقى النرد طالباً ستّتين فحصل على واحدين ، فلمّا برّر له الأزرقي الأمر ـ برباعية على البديهة ـ سكنت ثائرته .

(٢٨) الحكاية السابعة والعشرون والحكاية الثامنة والعشرون .

(٢٩) تذكرة الشعراء ، ليدن ١٩٠٠م ، ص ١٣٨ .

بتفوّقه في علوم اللغة والتواريخ والقراءات السبع ، ويمتدح قوة ذاكرته وقدرته الغريبة على حفظ ما يقرأ ؛ كما يتهمه بسوء الخلق وضيق العطن . . فيستشهد على ما ذهب إليه بأشعاره الفارسية والعربية في كتابه « نزهة الأرواح » المؤلَّف في القرن نفسه . وفي القرن التاسع الهجري ، يورد خسرو الأبرفوهي ـ في كتابه « فردوس التواريخ » رباعيّتين للخيام ، بينما يورد أحمد بن نصرالله التتوي ـ في كتابه « التاريخ الألفي » ـ رباعيّة يستشهد بها على اعتناقه مذهب تناسخ الأرواح .

وإن عقدنا مقارنة بين رباعيّات الخيام ورباعيّات سابقيه أو معاصريه أو من جاءوا بعده من شعراء الفرس أقررنا أستاذيّته في الاتّجاه والأسلوب والبيان . وإن كان هذا لا يمنعنا أيضاً من الإقرار بأن بعضهم قد تناول في رباعيّاته موضوعات لم يتناولها الخيام ، فبابا طاهر الهمداني (العريان) ـ أحد شعراء القرن الخامس الهجري ـ كان يتبدّى في رباعيّاته شعوره بالاشتياق المعنوي على نحوٍ لا وجود له عند الخيام . وأبو سعيد بن أبي الخير[٣٠] ـ أحد شعراء القرن الرابع الهجري ـ قد أضفى على الرموز والتعبيرات الصوفية جمالاً باهراً وخيالاً قاهراً . . أثرا عن الشعر الصوفي منذ فعل ، وهو أمر لم يفعله الخيّام . والأنوري[٣١] ـ أحد شعراء القرن السادس الهجري ـ ترد في ديوانه ٤٧٦ غزليّة ، تتعدّد فيها الأغراض بصورة تميّزها عن رباعيّات الخيام ، وما جاء منها في الغزل يصلح نواة لغزلية تامة . ومحمد فرّخي اليزدي[٣٢] ـ أحد شعراء القرن الرابع عشر الهجري ـ يمثّل طائفة من الشعراء الذين كانت لهم في رباعيّاتهم غايات

---

(٣٠) اعرف الكثير عنه بالرجوع إلى :
أخلاق جلالي/٢٨ ؛ تاريخ كزيده ؛ نفحات الأنس ؛ أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد ؛ هفت إقليم ؛ مقالات « إتيه » المنشورة في عامي ٧٥ ، ١٨٧٧ ؛ رسالة حورائية ؛ مجلدي جوكوفسكي المنشورين عام ١٨٩٩م ، والمشتملين على نصوص نادرة تتصل بحياة أبي سعيد ؛ الترجمة العربية التي وضعتها د. إسعاد قنديل لأسرار التوحيد ، ومقدمتها على الترجمة.

(٣١) إعرف الكثير عن الأنوري ورباعيّاته بالرجوع إلى : مقدمة سعيد نفيسي على ديوان الأنوري ـ طهران ١٣٣٧هـ ؛ الأنوري شاعر السلاجقة ؛ أوحد الدين الأنوري : عصره وبيئته وشعره ؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة/٣٣٤ ـ ٣٤٥ .

(٣٢) من مواليد عام ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م . للقراءة حوله وحول رباعيّاته ، أنظر :
فرّخي اليزدي للدكتور أحمد الخولي ، رسالة ماجستير مقدمة لآداب عين شمس ، عام ١٩٦٨ ؛ دراسات ومختارات فارسية/ ١٧٥ ـ ١٧٧ .

خاصة كالدين والوطن والإنسانية . . مما لم يطرقه الخيّام في رباعيّاته .

وتعدّ ترجمة « فيتزجرالد » ـ الشاعر الانجليزي ـ لرباعيّات الخيّام . . أفضل أسباب شهرتها ، وأبرز عِلل تعلّق القرّاء بها . لقد أجاد الترجمة فانتشرت شرقاً وغرباً ، ونجم عن انتشارها صدور عدد كبير من الأعمال حول الخيّام ورباعيّاته . ومن أسباب شهرتها أيضا فهم الخيّام الكامل لمعنى الحياة وفق عقيدة المدنيّة الحاضرة وذوقها . . في بريطانيا خاصّة . لقد رأى فيه الغربيّون شاعراً حكيماً بعيد النظر ، يسبق زمنه فكرياً ، ويناسب المرحلة الحياتية القلقة التي كانوا يعيشونها في القرن الماضي ، فأخذوا يطرون تعاليمه ويمتدحون طريقته ، ومن ثمّ عشقوا رباعيّاته . أما الشرقيّون فقد رأوا فيه شاعراً جريئاً يثير القضايا الحبيسة في صدورهم ، ومرآة صافية تعكس نظراتهم التشاؤمية ورغباتهم الدفينة وشرههم المستور إلى العبّ من نهر الحياة الزاخرة بالمتعة . . فعشقوا بدورهم رباعيّاته .

ولما كانت أشعار الفرس تجري كلها ـ تقريباً ـ على طرائق متماثلة ، ولا يشذّ الخيّام في ذلك عن غيره ، ولما كانت اللغة الفارسية الأدبية التي استعملها منذ قرون لا تختلف عن تلك التي استعملت بعده إلّا اختلافاً طفيفاً . . فإنّ من الصعب التفرقة بين رباعيّاته ورباعيّات سواه[٣٣]. ولا يستبعد ين تكون الكثير من الرباعيّات قد نسبت إليه نظراً لشهرته في هذا الميدان. وقد أدّى العجز عن التفرقة بين رباعيّاته ورباعيّات غيره إلى اختلاف الدارسين والمترجمين حول عدد رباعيّاته. ويرى المتعاطفون معه أن الرباعيّات السخيفة التافهة هي وحدها المدسوسة عليه[٣٤].

ويمكننا أن نعزو الاختلاف أيضاً إلى رأي شديد الأهمية ، هو الافتقار إلى نسخة قريبة العهد من زمن الخيّام ، فأقدم النسخ المخطوطة يعود إلى عام ٨٦٥هـ ، أي أنها قد نسخت بعد وفاة الخيّام بأكثر من ثلاثة قرون . وقد نجم عن التباين الملحوظ بين

---

(٣٣) مقدمة وديع البستاني على كتابه : « رباعيات الخيّام » .

(٣٤) مقدمة «أديب تقي» على (رباعيات حكيم عمر خيام نيشابوري)، ص ٢ وما بعدها من القسم العربي ؛ مقدمة النجفي على ترجمته للرباعيات . ويمكننا الوقوف على أقوال الكثير من المدافعين بالرجوع إلى مجلة : (روزنامه استان قدس) ـ مقالة سيد محمد باقر سيزواري : « خيّام » .

النسخ الخطيّة اضطراب في عدد الرباعيّات . وأدّى اضطراب العدد إلى تكرار الفكرة أكثر من مرة في أكثر من موضع . ويمكن أن يُعزى ذلك إلى كتاب الرباعيّات في أكثر من طور من أطوار حياة الخيّام ، وفي فترات متقطعّة . . وفق وحي خاطره ووجدانه . . وهذا في حدّ ذاته ينطوي على صدق شاعرّيته ، ويؤكدّ أنه شاعر يسجّل أفكاره دون التزام بموقف ثابت .

ونتيجة لافتقاد رباعيّاته إلى التماسك والارتباط . . دخل التغيير والتبديل بعضها حين تناقلتها الألسن ، فبتنا لا نتبينّ الخيّام واضحاً ، وكأن فلسفاته وآراءه قد تاهت من أثر السنين[٣٥] ؛ فهو تارة شاكٌ مرتاب وتارة مؤمن موقن . وهو فيها يعرضه من موضوعات متعارضة أحياناً ـ تبعاً لنفسيته ـ يستغلّ فهمه للطبائع البشريّة ، ويورد عبارات منسجمة سلسة خالية من التكلّف زاخرة بالصور المعبّرة والتشبيهات والاستعارات دون افتعال ، حافلة بالألفاظ الرشيقة التي تناسب موضوع رباعيّته . وهو في تركيزه ـ الذي فرضته عليه طبيعة الرباعيّات ـ لا يدخل بالرباعيّة في دائرة الخلل ، وإنما يصل بالمعنى إلى أقصى حدود الكمال ، وكأنه يكتب قصيدة كاملة العناصر واضحة المعالم ، وبذا يؤكد عبقريّة فذّة . وإن تساءلنا عن السبب في عدم تنقيح الخيّام لرباعيّاته قبل جمعها في نسختها ـ إذ كان ذلك كفيلاً بتلافيه عيبها الواضح وهو التكرار ـ كان الردّ المناسب أنه لم يجمعها في حياته ، ولم يُطلع عليها إلاّ خاصّة أصدقائه ومريديه خشية أن يُتهّم بالمروق ـ أو غير ذلك ـ مما يعرّضه للخطر . لقد أطلعهم عليها متفرقة فلم ينتبهوا إلى ما فيها من تكرار أو ينبّهوه إلى هذا التناقض . وهكذا جُمعت من بطون الكتب بعد وفاته ، فلم يكن لأحد مصلحة في تنقيحها .

* * *

وبناء على ما ورد في الرباعيّات من صور حكم الكثير من الدارسين أن الخيّام قد نسجَ رباعيّاته على منول لزوميات الشاعر العربي « أبي العلاء المعري » (المولود عام ٣٦٣هـ) . وهكذا حكموا بأنه تلميذه في أفكاره وخليفته في مبادئه وآرائه . والواقع أن التشابه بين الشاعرين كبير ، والتماثل بينهما في الأفكار قائم في نقاط كثيرة ، لكنّ

(٣٥) إرجع إلى : مجلة اوبولو ، أعلام الشعر ـ عمر الخيام ، ص ٤٧ .

الخلاف بينهما كبير أيضا في نقاط أخرى[٣٦]. ولما كان المعرّي يسبق الخيام بثمانين سنة على الأقل فالمرجّح أنه قرأ أشعاره وخضع لتأثيرها ، لكنّ اختلاف مزاجيهما أدى إلى اختلاف نظرتيهما لحلّ قضيّة الحياة . . رغم تشابههما في عقائدهما الفلسفية وموقفهما الصريح من الدين والمذهب إلى حدٍ بعيد .

والموازنة[٣٧] بين اللزوميّات والرباعيّات تؤكد أن الشاعرين كانا يرميان إلى أغراض متقاربة كخلع ثوب الرياء ، وتحكيم العقل في أمور الدين ، واعتناق فلسفة الماديّة ، وتجنّب الغرور . كما تؤكدّ أن تشاؤم المعّري كان حقيقياً ، أما تشاؤم الخيّام فكان نظرياً شعرياً ؛ فالخيّام يائس أكثر منه متشائم وتؤكد أن المعرّي كان جاداً وقوراً في تفكيره ، متقشّفاً بعيداً عن اللذات والشهوات ؛ أقواله فلسفية أخلاقيّة تحثّ على القناعة والزهد ، بينما الخيّام يهوى المتعة ويفتنه الجمال ويساير شهواته . . فهو أبيقوري عاقل معتدل ، لا ولع له بدروس الفضيلة والأخلاق التي تشغل المعّري . كما تؤكد أنهما وإن كانا بالنسبة إلى فلسفة الرواقيين يختلفان علمياً ويتفقان نظرياً . . فإنهما يتشابهان غاية التشابه بالنسبة إلى الفلسفة الانقلابيّة .

وتؤكد الموازنة أيضاً تقارب مدلول العديد من أشعارهما ، إذ نجد الخيام وكأنه يكرّر كلمات المعرّي أو يترجمها . يقول المعرّي في مقام الفخر بنفسه :

ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي   على أنني بين السماكين نازل

ويقول الخيام :

ولي فوق هام النيرين منازل   وفوق مناط الفرقدين مصاعدي

ويقول المعري مظهراً اعتقاده في الفلسفة الانقلابية ، حاثاً على التواضع :

خفّف الوطءَ ما أظن أديم الـ   أرض إلّا من هذه الأجسادِ

---

(٣٦) للاطلاع على الاختلافات ، أنظر : « بين المعّري والخيّام » ، مجلة الشعر ؛ « مقايسة اى بين أبو العلاي معري وخيام » .

(٣٧) لعقد موازنة عن طريق مؤلفات الشاعرين أنظر : رباعيات الخيام ؛ لزوم مالا يلزم جـ ١ ، جـ ٢ ؛ سقط الزند .

ويقول الخيام :

طائرى الأرض يانديم برفقٍ فهي عينٌ وفتنةٌ واحورارُ

لكن هذا التشابه والتقارب لا يكفي للموافقة على قول الزاعمين بأنه قد سطا على أقوال المعرّي وأفكاره ؛ فالاتّجاهات الفكريّة المتقاربة ، والنبع الفلسفي الواحد ، وحفظ الخيام لأشعار أبي العلاء ـ كما يؤكد الزمخشري ـ يجعل التشابه والتقارب غير المتعمَّدين أمراً ممكناً[٣٨] .

وإذا كان البعض قد شبهّوا الخيّام بأبي العلاء ، فقد شبهّه الكثيرون بالحكيم الفيلسوف اليوناني « أبيقور » الذي يبني فلسفته على أساس إيمانه بأن السعادة كائنة في اللذائذ والمشهّيات ، وينادي بأن أيام العمر قليلة ، وفرص المتعة نادرة . . ينبغي اقتناصها قبل ضياعها . وهناك أيضا من يشبهّونه بالشاعر الروماني « لوكريسيوس » الذي يمثّل آراء أبيقور أصدق تمثيل . وقد بنى هؤلاء وهؤلاء حكمهم على ما ورد في رباعيّاته من أفكار . . تلك الأفكار التي جعلت أدباء الغرب يقدّرون الرباعيّات حق قدرها ، ويمتدّ تقديرهم إلى ناظمها ، فيمتدحونه ويعقدون المقارنات بينه وبين عظمائهم . . « شوبنهاور » و « فولتير » و « جوته » و « هنري هايد »[٣٩] .

وقد فعل أدباء الشرق الشيء نفسه ؛ فشبَّه « الصافي النجفي » الرباعيّات باللآلىء المكنونة ، وجعل ناظمها فيلسوفاً رزيناً ، واعتبر الدفاع عنه دفاعاً عن حمى الأدب . ووصف « رامي » آراءه فقال إنها مزَّة قصيرة ، تجعل لأسلوبه روحاً خاصاً . . يختلف عن روح معاصريه من الشعراء . ووصف « وديع البستاني » الرباعيّات فقال إنها شعر الخيام الفلسفيّ الجليل ، وأثره الشعري الخالد ، ونعت الخيّام بالفيلسوف والشاعر . وأكد « عبدالحق فاضل » أن الرباعيّات تجمع بين الطرافة وروعة التعبير وجدّة الأسلوب . أما آفتها فهي التكرار . ويتحدث « أديب تقي » عن عبارات الخيّام التي يستخدمها في رباعيّاته ، ويقول إن مثل هذه العبارات تؤكدّ أنها محصول عبقرّية فذّة ونبوغ نادر . وبينما يهاجم « ابراهيم عبدالقادر المازني »

---

(٣٨) فروزانفر : قديمترين اطلاع از زندكي خيام ـ مجلة كلية الأداب ـ جامعة الفردوسي .

(٣٩) مقدمة أديب تقي على « رباعيات حكيم عمر خيام نيشابوري » ، ص ٢ وما بعدها .

الرباعيّات نجده يؤكدّ في عين الوقت أنها تحوي أفكار صنف من الناس وأحاسيسهم . . مما لا يمكن عزله عن المجتمع . ويقول « محمد عبدالغفار الهاشمي » : « خرجت من دراسة الخيام بأن كل رباعيّة تخالف الشريعة الإسلاميّة وتكون منسوبة إلى الخيام أو غيره . . هي من جميع وجوهها ليست من الخيام ولا من مسلم(٤٠) .

ولا يعني هذا بالطبع أن رباعيّات الخيام كانت ممتدحة على طول الخط ؛ فقد عيب ما فيها من تكرار وما اشتملت عليه من أفكار دسّها شاعر خليع مدمن عاشق مفتون ، جريء يهاجم معاصريه ، وينقد خالقه ، ويكشف عن دهريّته وطبيعيّته وإلحاده دون خجل .

وقد كوّن غالبية الدارسين آراءهم اعتماداً على ترجمات للرباعيّات افترضوا صحّة ترجمتها ، وأن الخيام هو ناظم كل ما ورد بها ، فانقسموا بين مدافع ومهاجم . . وغفلوا عن أنه ليس من المستبعد أن يكون هناك خطأ في الترجمة ، أو أن تكون الرباعيّات التي اعتمدوا عليها مدسوسة على الخيام . وكذلك الحال بالنسبة لمن يجيدون الترجمة عن الفارسية . . فقد أبدى بعضهم تعاطفه مع الخيام ، وتحامل عليه آخرون ، وتذبذب البعض فيما صدر عنه من رأي . فالشاعر « أحمد رامي » يعطي تفسيراً لميل الخيام إلى العبّ من متع الحياة يبدو فيه متعاطفاً معه ، ويعزو تشاؤمه إلى عيشته عيشة الشاعر الحكيم . . ينعي الحياة ويتعلّق بها . ويرى أنه ـ رغم شكّه في أمر الحياة والموت ـ موحدٌ يؤمن بوجود إله خلق الكون وهيمن عليه ، ومتديّن يؤدي فريضة الحج ويواظب على الصلاة . ولا يضع رامي بعد ذلك تعليلاً لنسبته الإيمان إلى شخص لا يؤمن بالبعث. ويتناول أكثر من نقطة ، ويبدو كالتائه بين أفكار الخيّام

---

(٤٠) لمعرفة ما قاله هؤلاء الشرقيون في هذا الصدد إرجع إلى :
رباعيات عمر الخيام للنجفي ، المقدّمة ط ٢ ، ص ٦ ، ١٠ ، ١١ ؛ مقدمة رامي على كتابه : رباعيات الخيام ، ط ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ؛ رباعيات عمر الخيام لوديع البستاني ؛ عمر الخيام الحكيم الرياضي الفلكي النيسابوري لأحمد حامد الصّراف ؛ ثورة الخيام لعبدالحق فاضل ؛ مقدمة أديب تقي علي (رباعيات حكيم عمر خيام نيشابوري) ؛ حصاد الهشيم لابراهيم عبدالقادر المازني ؛ خلاصة رأي المازني في الخيام والرباعيّات والردّ عليه ، مجلة اوبولو ، باب أعلام الشعر ، سبتمبر ١٩٢٤م ، ص ٥١ ؛ « رباعيات الخيام الحقيقية » للهاشمي ، المقدّمة ص ٢٨ .

وآرائه المتشعّبة ولعل إحساسه بذلك هو ما جعله يتمنّى لو أن الرباعيّات وُجدت مجموعة حسب وضعها التاريخي لكي يفهم تدرّج الشاعرية في عمر ؛ إذ أن الترتيب الألف بائي للرباعيّات يُضيّع تسلسل أفكار الخيام ، ولا يعطي صورة مّطردة لحياته أو مناحي تفكيره .

ويدافع « السباعي »[٤١] عن احتساء الخيام للخمرة الحقيقية ، لأنها ـ في رأيه ـ أقرب وسيلة وأقصر سبيل لاستشفاف نور الحق من وراء حجب الكائنات ، واجتلاء سرّ الأبد من خلال ظلمة الغيب . . ولا ندري كيف يتأتّى هذا لمن ذهب عقله !

ويجعل « البستاني »[٤٢] من الخيّام صوفياً يخالف الصوفية في الوسيلة . وينقد أعمالهم ويكشف سترهم ولهذا رموه بالكفر والإلحاد ؛ فلجأ إلى الحذر منهم . ثم يتحدث عن إيمانه بإله واحد . وخوفه من ضياع ما في يده ، مما يدفعه إلى الشراب قبل فوات الأوان وقبل الموت . . آملاً في عون الله ورحمته الواسعة . فالبستاني يتراجع أو يكاد عن نسبة الخيام للتصوّف ، ويكتفي بتأكيد توحيده لخالقه وإيمانه بوجوده ويؤكد « الصراف »[٤٣] خشية الخيام من تلقيبه بالفيلسوف ، واهتمامه بأن يراه الناس في ثوب المفكرّ الباحث عن الحقيقة :

« فيلسوف أنت » قال الخصم لي   يعلم الديّان أن قد أخطأ
إنني عند الأسى أسعى إلى   كشف ذاتي ، هل تراني مخطئا !؟

ويبرّر اتهام معاصري الخيّام له بالزندقة عن طريق الرباعيّة التالية :

أنا إن أكن ثملاً بخمرة المجوس فأنا ذاك ،
أو كنت كافراً أو مجوسياً أو وثنياً فأنا ذاك .

---

(٤١) قام الشاعر المصري محمد السباعي في العشرينيات بترجمة ١٠١ رباعية من رباعيات الخيام إلى العربية ، وكتب حول مؤلفها .

(٤٢) ترجم وديع البستاني البيروتي بعض رباعيّات الخيام شعراً عن الانجليزية لعدم معرفته الفارسية ، وجعل النظم على صورة سُباعيات . ويعتبر أول من لفت أنظار أدباء العرب إلى رباعيات الخيام في العصر الحديث .

(٤٣) ترجم الصّراف الرباعيّات نثراً ، ونشرها مصحوبة بدراسة واسعة عن الخيام .

فلكلّ زمرة في الناس ظنّ فيّ . .
أما أنا فملك نفسي أكون كما أريد .

وقد اعتمد الصرّاف على رباعيّة تختلف بعض مفرداتها عن مفردات الرباعيّة التي نظمها النجفي[٤٤]، ولهذا أثبت كفر الخيام ومجوسيّته ووثنيّته ، بينما أثبت النجفي شربه الخمر وخلاعته . وهذه ترجمة النجفي :

نعم أنـا من راح المجـوس بنشـوة   وصب خليع لم أزل مـدمن الـراحِ
يـرى كـلّ ضـرب فيّ رأيـاً ومـذهبـاً   وإني لنفسي كيفمـا كنتُ يـاصـاح

وبذا يتأكّد لنا أن أحكام الدارسين قد تخطىء إذا لم يقع الدارس على النص الصحيح .

وينفي عبدالحق فاضل عن الخيام وصمة الكفر ، ويؤكد أنه مجرد مفكّر ثائر يجهر بما يهمس به غيره لنفسه ، ويحاول إيجاد التفاسير والحلول « مع إيمانه بالله واليوم الآخر » .

ويؤكّد الهاشمي تصّوف الخيّام ، ويفسّر كل ما ورد في الرباعيّات من كلمات وعبارات وأفكار تفسيراً صوفياً ، ويهاجم مهاجميه ، ويقول دون دليل : « إنه لم يذق خمر السكر والعربدة في حياته بشهادة معاصريه »[٤٥]، ولعله يعني أن معاصري الخيام وكتّاب السير القدامى لم يذكروا أي خبر يفيد أنه كان يتناول الخمر .

* * *

وهكذا نجد أن رباعيّات الخيّام كانت مرتعاً خصباً لكلّ من تناول الخيام بالبحث والدراسة . وقد سجّل كلّ باحث ودارس ما ارتآه معتقداً أنه الصواب . لهذا

---

(٤٤) يبدو الخلاف في المفردات على النحو التالي (برجوعنا إلى النصين الفارسيين) :
(گكر عاشق زند وبت پرستم هستم) ، (گر عاشق ورند ومي پرستم هستم)
(عاشق زند : مجوسي ، بت پرستم : وثني) ، (عاشق ورند : عاشق وخليع ، مي پرستم : مدمن خمر) .

(٤٥) رباعيّات الخيّام الحقيقية ، ص ٢٥ .

نرى أن استعراض عدد من تلك الرباعيّات والتعليق على أفكار ناظميها قد يفيدنا في ترجيح مزاعم بعضهم أو تفنيدها ، أو في إماطة اللثام عما خفي على غيرنا. ومادام الخلاف يتركزّ حول تعيين عقائده الفلسفية . . فبإمكاننا ـ عن طريق رباعيّاته التي تعكس أفكاره وتجليّها ـ أن نعينّ تلك العقائد .

من بين رباعيّات الخيام[٤٦] ما يثبت أنه كان فيما يتعلّق بمسائل ما وراء الطبيعة (الوجود المطلق ، حقائق الأشياء ، حقيقة الروح ، المبدأ والمعاد) يعتنق فلسفة « اللاإراديّة » . وينتمي إلى الفلاسفة اللاإراديين الذين يعترفون بأن طاقة البشر عاجزة عن الإحاطة بمثل هذه الأمور . فها هو يقر بالعجز في قوله :

لم يحلّ الناس أسرار الفلك لا ، ولم نسمع بمخلوقٍ سَلَك
ها هو التلميذُ يسعى جاهداً مثلَ أستاذٍ له . . قبلُ هَلَك

وتقوده هذه الفلسفة إلى الإيمان بوجوده قوة قاهرة فوق قدرة البشر (القدرة الكلية)، ووجود صمداني سرمدي هو الله، وتجعله يؤكدّ أنه لا يمكن لمخلوق أن يعرف أسرار الأزل ، ولن يتسنّى لكائن من كان أن يحلّ المعّميات، ويُصرّح بأن الكشف عن حقيقة الموجودات المحسوسة أمر متعذّر، لأن صور الحادثات لا ترتبط بالحقيقة المطلقة، وإنما ترتبط بأجهزتنا الحسيّة. ومما قاله في هذا الشأن:

أترك الأقدار لا تعبأ بها لا تفكرّ قط في همٍ مضى
عش سعيداً واقض دهراً هانئاً أنت لم تُخلق لتدبيرِ القضا

ومما قاله أيضا :

كلّنا تُعييه أسرار الأزل أنت لا تقوى ، ولا أقوى أنا
خلف سترٍ عيشُنا طول الأجل حين يبلى السِتْرُ نمضي للفنا

والمطّلع على أقوال الصوفية يدرك اتّفاقهم مع الفلاسفة في النقطة الأخيرة .

---

(٤٦) يمكن الرجوع إلى النصوص الفارسية للرباعيات في كتابي النجفي والهاشمي ، وقد رأينا عدم إثباتها في مقالنا هذا مراعاة للاختصار . كما يمكن الرجوع في ذلك الأمر إلى كتاب « تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي » لإدوارد براون .

وتكثر الرباعيّات التي يبدي فيها الخيّام حيرته ، ويكثر من التساؤل ، ويسجّل على نفسه أنه لا يدري . . لا يدري لماذا جاء ؟ » لماذا يعيش ؟ ، لماذا يُعاقب على خطأ مفروض عليه ؟ ؛ ولذا نسلكه في عداد معتنقي فلسفة « اللاأدريّة » . وهذه رباعيّة له تؤكد هذا الاتجاه :

أتى بي خالقي دونَ استشاره   فزادت حيرتي والوهمُ زادَ
وأمضي للردى . . عند الإشاره   لماذا ؟ ما الذي ربي أرادَ ؟

وكان الخيام يباهي بـ (لا أدري) هذه ، ويرى أنه لا يجوز لكل شخص أن يدّعي مثل هذا المقام ، ويرى أنه مقام خاص بالعلماء ، وحدهم ، فيقول :

جاهلٌ أنت في شؤون الحياة . .
فـ (للاأدري) يعزُّ وصولُك .

ومن بين الرباعيّات أيضا ما يعكس الفلسفة الانقلابيّة التي تعرف اليوم بـ (الموبيليزم) . والخيّام في هذا اللون من الرباعيّات ينظر إلى الحادثات نظرة فلسفية علمية ، شأنه في ذلك شأن الفلاسفة الطبيعيين .

والكائنات في نظر أصحاب هذه الفلسفة ـ سيل مستمر يندفع من الأزل إلى آخر الأبد ، والإنسان كدقاق العيدان يتقاذفه السيل ويمضي به ، وهو جاهل لا يدري من أين جاء وإلى أين يمضي . وجميع العناصر دائمة التركيب والانحلال . والأجزاء البسيطة التي تتكوّن منها مادة الموجودات . . في تجمعٌ وتفرّق دائمين ، فالإنسان بعد الموت ومواراة جثته باطن الثرى (المعمل الكبير الذي يُسمّى الطبيعة) تنحلّ عناصره وتتبعثر ، فيدخل بعضها في زهرةٍ ، ويتحوّل بعضها إلى كتلة طين يشكّلها الخزّافُ جسمَ جرَّة أو أذنيها . . أو غير ذلك . وربّما يترتّب على ذلك أن تكون ذرّات من جمجمة كيخسرو قد دخلت في تركيب كأس يقدّمه الساقي لأحد الشاربين . وربما تكون الزنابق التي تزيّن ضفاف الجداول . . شفة حسناء أو قلب عاشق .

إن العالم في نظرهم مستمرٌ في الانحلال والتركيب دون انقطاع ، وتَبَعْثُر العناصر وتفرُّقها في أجسام أخرى يجعل من المستحيل عليها أن تعود لتؤلّف الجسم الأوّل ؛ فالبعث اذاً بعد الموت أمرٌ غير ممكن . ومعظم رباعيّات الخيام حافلة بهذه

الأفكار التي تكوّن المبادىء الأولى والمعتقدان الأصلية لفلسفة الطبيعيين في كل زمان ، والتي تشكّل ـ هي نفسها ـ العقيدة الأساسية للمادية التي اقتبست أصولها وأحكامها عن العلوم الطبيعيّة . ومثل هذا اللون من رباعيّات الخيام شديد التأثير في النفوس[٤٧]. ومن أمثلته :

ـ ذلك الكوزُ كان يعشق مثلي	يتغنّى بشَعر من يهواه
يده فيما مضى كانت يداً	لامَسَت جيداً يضيء سناه
ـ توارى جسمَنا بعد الممات	قبورُ الطين تؤخذ من رفاتِ
ويصنع طيننا قبراً ، ولكن	لمن يأتون بعد إلى الحياةِ
ـ العشب ينمو عند ضفة نهرنا	أما حقيقته . . شفاه الحور
لا تحتقره أو تطأه بقسوة	فالعشب ـ لو تدري ـ خدودُ زهور
ـ فكم توالى الليل بعد النهار	وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهوينا إنّ هذا الثرى	من أعين ساحرة الإحورار

وربما اختلطت أفكار هذه الفلسفات في ذهن الخيام في وقتٍ واحد ، وربما تأثّر بالواحدة منها تلو الأخرى . لكننا ـ على أي حال ـ يمكننا تفسير الكثير من تصرّفاته الحياتية من خلال معتقداته الفلسفية ؛ فإيمانه بأنه لا عدل في وجود ثواب أو عقاب في عالم آخر ، وأنه لا جدوى من وراء أعماله الجليلة مادام العقاب يترصّده دون حولٍ منه أو قوّة . . هو أحد أسباب يأسه وتشاؤمه :

ـ سويتني ياخالق الأكوان من طين وماء	وتركتني لجوارحي في الكون أفعل ماأشاء
الشرّ أفعلُه وأفعل ضده . . لا حول لي	أنت الذي قدرّته . وأنا المنفّذ للقضاء
ـ طيننا سوّاه ربي يوم جئنا للحياة	ربّنا قد كان يدري فعلنا نحن العُصاه
كلٌ ما قد كان مِنّا من ذنوب . . شاءها	هل دخول النار يوم البعث من عدل الإله؟!

وإيمانه بقصر العمر وقرب الفناء ، وتفاهة الحياة وعدم جدواها مادام الموت بالمرصاد . . هو أحد أسباب دعوته إلى اللذائذ واغتنام الفرص السانحة :

---

(٤٧) مقدمة أديب تقي على « رباعيات حكيم عمر خيام نيشابوري » ، ص ٢ وما بعدها من القسم العربي .

دنيـاك سـاعـات فـلا تحفـل بهـا واشـرب ، فذا أولى بمن هـو عـاقـلُ
أخمـد بمـاء الكـأس نـاراً أضـرمت واجل الهموم . . فعن قـريبٍ ترحـلُ

وإنكاره البعث والآخرة تأثُّراً منه بإحدى الفلسفات هو السبب في جعله يرى أن الغاية عدم مطلق :

ـ قبّلتُ بـالأمس ثغـرَ الكـوز في وَلَـه سـألتـه ـ طـامعـاً ـ خلداً لإنسـان
فقبـلً الكوز ثغـري وهْو يهمس لي : «لا لن تعـودَ، فعـاقِرْ إبنة الحـانِ»
ـ نفنى ويبقى كـوننـا من بعـدنـا وتـزول من سِفر الـورى أسمـاؤنـا
الكـون كـان منـظّمـا مـن قبلنـا وكـذا سيبقى بعـد فقـد رسـومنـا
ـ العمـر يومـان فـاحس الـراح صـافيـةً فقـد تـذوقُ الـردى قبـل انتهـائهمـا
دنيـاك تسعى تجـاه العُـدْم في عَجـل فاشرب صباحاً، وأكمِل في مسائهمـا

وقد دفعه خوفه من العقاب إلى إقراره بوحدانية الله ، وإيهام نفسه بأن رحمته ستشمل العصاة ، وأن عدم الشرك كافٍ لغفران الخطايا :

ـ إن لم أكن أخلصت في طـاعتـك فـإنـني أطـمـع في رحـمـتـك
وإنـمـا يـشـفـع لـي أنّـني قـد عشت لا أشـرك في وحـدتـك
ـ قيـل : لدى الحشـر يكون الحسـابْ فـيغـضـب الله الـشـديـد الـعـقـابْ
ومـا انـطوى الـرحـمـن إلاّ عـلى إنـالـة الـخـيـر ومنـح الـثـواب

ودفعه قلقه وضعف عقيدته الدينية ـ نتيجة كثرة الفلسفات التي وقف عليها ـ إلى التخبطّ ؛ فهو تارة يوجّه للخير ، وتارة يحضّ على الشر ، وطوراً يخلط بين الخير والشر ، وطوراً يوافق العرف العام أو يخالفه :

ـ أحـسـن إلـى الأعـداء والأصـدقـاء فـإنـمـا أنس الـقـلوب الـصـفـاء
واغـفـر لأصـحـابـك زلاّتـهـم وسـامـح الأعـداء تـمـحُ الـعـداء
لحكم القضـا وكًل أمـورك مااحتـوى كيـانُـك أعصـابـاً وجلداً وأعـظُمـا
دع المنَّ من خـلٍ وإن يـك حـاتمـا وللخصم لا تخضـع وإن يكُ رُسْتَمـا

ـ حتى مَ صومك والصلاة تنسّكاً ... فدع المساجد واقصدنّ الحانا
واشرب فسوف ترى رفاتك تارة ... كوزاً وأخرى أكؤسا ودنانا
ـ الله يخلق لذّات الحياة لمن ... يحيا وحيداً بلا زوج بعصمته
أما الذي يترك اللذّات مقترناً ... بزوجةٍ ، يحملنَّ هموماً فوق طاقته
ـ دَع كلَّ مفروضٍ ومندوبٍ ومِن ... قوتٍ لديك فأطعمنّ الناسَ
لا تؤذ خلق الله أو تغتبهُمُ ... وأنا الضمين غداً ، فهاتِ الكاسا
ـ زخارف الدنيا أساس الألم ... وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خليَّ البالِ من أمرها ... فكلّ ما فيها شقاء وهم
ـ إنّ الذي تأنس فيه الوفاء ... لا يحفظ الودَّ وعهد الإخاء
فعاشر الناسَ على ريبةٍ ... منهم ، ولا تكثير من الأصدقاء

وقد جعل التشاؤم منه خصماً للزمان وعدواً للفلك :

ـ يادهرُ ضِقنا بجورِكَ هل ستعترف؟ ... هل تكتفي أو بدار الظلم تعتكف؟
تُعطي البخيلَ نعيماً لا يجودُ به ... تُشقى الكريمَ، حمارٌ أنت أم خَرِف؟
ـ ليتني كالحقِّ أمتلك الفلك ... أو أمدّ له يدي فأزيله
كي أُجِلَّ مكانه فلكاً به ... يبلغ الحرُّ المنى ، وينالـه
ـ ليت الذي خلق الوجود يبيده ... والكونَ يبدىء غيرَه ويعيده
فيزيد رزقي في الحياة ، وإن أبى ... فالموتَ أرجو والفناءَ أريده

وتزخر رباعيّاته بالحديث عن المعاصي لينفث غيظه الناجم عن إحباطه وخيبة أمله . أو يلجأ إلى السخرية واللامبالاة ليبدي عدم اكتراثه بما يلقاه من الفلك ، وعدم اهتمامه بغضب الناس لقاء جهره بعصيان خالقه . . وبذلك يعكس مبادىء فلسفة « اللاأباليّة » :

ـ إذا ما أتينا خاشعين لمسجد ... فلم نأت نقضي للصلاة فروضَها
ولكنْ سرقْنا منه سجّادةً ومذ ... عراها البلى جئنا لكي نستعيضها
ـ هدّ ركنَ الايمانِ ذنبي وأنسي ... ذنب من راح يعبد الأوثانا

أنـا أخـشى ذنـبـي مـتـى وزنـوه يـومَ حشـرٍ أنْ يكسـر الميـزانـا
ـ أعُبُّ الـطّلا عمـداً ومثلي ذو حجى لـه يَغتدي عنـد النهى شربهـا سهـلا
درى الله قِـدْمـا بـارتشـافي للطلا فـإن أجتنْبهـا ينقلبْ علمُـه جهـلا

وبين الرباعيّات الخيّامية رباعيّات يتجرأ فيها الخيّام على خالقه وعلى أوامره ، ويعترض على مشيئته . وهذه الرباعيّات ليست نتاج خبل أو إلحاد ، وإنما هي نتاج أفكار ووساوس فرضتها تلك الفلسفات . لقد عرض فيها قضايا الإنسان وهمومه في حوارٍ فكري طليق ، وفلسف شعوره ومعاناته ، وأراح نفسه بإجابات وجد فيها الحلّ والإنصاف للإنسان المكره المسيَّر المستحقّ للغفران :

ـ نصبتَ في الـدنيـا شـراكَ الهـوى وقـلـتَ : أجـزى كـلَّ قـلبٍ غـوى
أتـنـصـبُ الـفـخَّ لـصـيـدي ، وإن وقعتُ فيـه قلتَ : عـاصٍ هـوى؟!
ـ إلهيَ قـلْ ليْ : من خلا من خـطيئة؟ وكيف تُرى عاش البريء من الذنب؟
إذا كنتَ تجـزي الـذنب مني بمثله فمـا الفرق مـا بيني وبينك يـاربي؟!
ـ كم للذي بسط الثـرى وبنى السمـا مـن لـوعـةٍ بـقـلـوبـنـا وعـذابِ
كـم من شـفـاه كـالعـقـيـق وطُـرَّةٍ كـالمسـك أودعـهـا حقـاقَ تـرابِ

أما الرباعيّات التي لا يمكن تفسيرها على النحو السابق ، والتي تدلّ على إلحاده وكفره فقد تكون مدسوسة عليه ، أو أنه نظمها في فترة من فترات عمره ثم امتنع عن نظم أمثالها . . وهي قليلة على أي حال ، منها :

ـ سـألتُك هـل زادت بملكـك طـاعتي وهـل أنقصتْ منه خـطايـايَ من قـدْرِ
فـدعني ودع نصرِي فـطبعُك بـان لي سـريـعٌ لخـذلانٍ بـطيء عن النصـر
ـ كسـرتَ يـاربِّ إبـريقَ المُـدام كمـا سـددت لي بابَ عيشي حيثمـا كـانـا
أنـا شـربتُ وتبـدى أنتَ عـربـدةً ليت الثـرى بغمى ، هل كنت نشـوانا

وجرَّته قناعته بوجوب العفـو عن المخطئين إلى إقرار الجبـر دون الاختيار ، وانعكس هذا في العديد من رباعيّاته :

ـ أبدعتني ياخالق الأكوان من طين وماء وتركتني لجوارحي ألهو وأصنع ما أشاء

الشرّ أفعله وأفعل ضدّه لا حول لي . . أنت الذي قدّرته ، فمن البريء ومن أساء

ـ فلك الشهْب قال لي : أفتغروا لي حكمَ القضاء في الأكوانِ !!
لو غدا لي في السير أدنى اختيارٍ لم تجدني أدورُ كالحيران

ـ لو كنتُ ربَّ اختيارٍ ماأتيتُ إلى الدُنيا ولم ارتحل عنها ولم أبنِ
ما كان أسعَدني لو لم أجيء أبداً للكون يوماً ، ولم أرحلْ ولم أكنِ

وقارىء رباعيّات الخيّام يستنتج ـ دون إعمال فكر ـ أنه كان يهوى المتعة والشراب ، ويحبّ الموسيقا والجمال ، ويكره الموت لأنه يبتعد به عن هذه المتع واللذائذ . . التي تخفّف قسوة الزمان ، وتساعد المرء على النسيان . . نسيان ما يحيّره ويشغل باله ؛ وتسير به في طريق المعرفة . . معرفة ذاته ووجوده وخالقه .

وهو بحبّه للمتعة واللذّة يعكس نزعة فلسفية « أبيقورية » ضمّها الخيام إلى فلسفاته التي اعتنقها وشكّل حياته بموجبها . وهي فلسفة تتلاءم وظروف عصره الذي كانت تسود فيه المتع ويعمّه القلق ، ويشقى فيه البعض وينعم البعض . وقد انعكست هذه الفلسفة في رباعيّاته أكثر من غيرها من الفلسفات . واتّسمت رباعيّاته التي تعكس هذه الفلسفة بقدرٍ كبير من الطرافة وروعة التعبير :

ـ أطفىء لظى القلب ببرد الشراب فإنما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيالٍ ، فنلْ حظّك منه قبل فوت الشباب

ـ لا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع الليالي الأمان

ـ أنا راضٍ من عيشتي بحبيب وبعودٍ وخمرةٍ وخميلهْ
لا أريد الجنان . . خذها صديقي لا أطيقُ الوعودَ حتى الجميلهْ

ـ إجلس إلى الراح تبلغ مُلْك محمود وأصْغ للعود تسمع لحن داود
دع ذِكر مالم يجيء أو ما أتى ومضى والآن فاهنأ فهذا خيرُ مقصود

ـ لا عيش لي بسوى صافي المُدام ولا أطيق حملاً بدون الراح للجسدِ
ما أطيب السُكر والساقي يناولني كأساً ، وتعجز عن أخذ الكؤوس يدي

ـ لا تحسبوا أني أخاف الزمانْ أو أرهب الموت إذا الموتُ حانْ

المـوتُ حقٌ لـستُ أخشى الـردى　　وإنـمـا أخـشـى فـواتَ الأوان

ـ لم أشـرب الخمرَ ابتغـاء الـطرب　　ولا دعـتـنـي قـلّـةٌ فـي الأدب

لـكنّ إحـسـاسـي نـزاعـاً إلـى　　إطـلاق نـفسي كـان كـلَّ السبب

ـ تـقـلِّل الـراحُ تـكـبُّـر الـورى　　وهـي تحـلُّ مـشـكـلاتِ الـعـالَـم

لـو ذاق إبـليس الـمُـدام مـرّةً　　أتـى بـألـفَـيْ سجـدةٍ لآدم

ـ إشـرب الـراحَ فـهْـي روحُ الـروح　　بلسمُ الـنفس والـحشـا الـمجـروح

وإذا مـا دهـاك طـوفـانُ هَـمٍ　　فـانـج فيهـا فـذي سفينـةُ نـوح

وإن تصفّحنا أي نسخة تشتمل على رباعيّات الخيام وجدنا الشراب يـرد في معظم الرباعيّات . ولذا لا يبدو غريبا أن يخصّص بعضَها لشروطٍ يضعها ليلتزم بها الشاربون ، لكن الغريب أن يُحرِّم الشراب إلاّ على العالِم :

ـ إن تشربِ الراح فاشربْ معْ ذوي أدبٍ　　أو ذي جمـالٍ صقيـل الخـدّ مبتسم

ودع تعـاطِيـهـا بيـن المـلا عـلنـاً　　واشـرب خفـاء ولا تكثـر ولا تُـدِم

ـ ليس الشـراب حـلالاً في ديـانتنـا　　لكنّ مقـدارَه ، أو كيف تشـربـه ،

ومن جليسـك . . يشفـع في تنـاولـه　　وبعـد ذا ، عـالمٌ لا غيـر يقـربـه

ـ أحسـو المـدام ولا أعـربـد قط أو　　كفّي تمـدُّ لمـا عـدا الـكـاسـات

لكنه ينقض هذه الشروط في رباعيّات أخرى ، ولا نجد مناصاً من قبول ما جاء في تلك الرباعيّات ونسبتها إليه . . بعد أن عرفنا أنه ابن وقته وأسير متعته ، وشاعر يسجّل ما يحسّه عندما يحسّه وكيفما يحسّه :

ـ أراني من الصهبـاء لم أصح لحـظة　　وأثمـل حتـى إن تكـن ليـلة القـدر

أعـانـق دنـاً أو أقـبِّـل أكـؤسـاً　　وكفّي بجيـد الكـوز تبقى إلى الفجـر

ـ إذا نلتَ رطْليْ قَـرْقَفٍ فاحسَ كـأسها　　بكـلِّ اجتماعٍ راقَ أو محفـلٍ حـالي

فمـا يعتني بـاري الـوجـود بشـاربٍ　　لمثلك ، أو يهـتمّ فـي ذقن أمـثـالي

وفي وصايا الخيام ـ إذا جاز لنا هذا التعبيرـ نجد الشراب هو المستفيد الأول من الوصية ؛ لقد تمسَّك به الشاعر ، فقاسمه شهرته ، وارتبط به الآن في ذهن القرّاء :

ـ اجعلوا قوتي الطِّلا وأحيلوا كهرباءَ الخدود لياقوتِ
وإذا متُّ فاجعلوا الراح غُسلي ومن الكرم فاصنعوا تابوتي
ـ غسِّلوني بالراح بعد المنون واذكروها والكاسَ في تلقيني
ولدى الحشر إن أردتم لقائي من ثرى باب حانةٍ فاطلبوني[٤٨]

ومن الرباعيّات ما يشير إلى تصوّف الخيّام . ونحن نميل إلى نسبته للتصوف في فترة من فترات حياته ، ونرجح أنه كان يخفي تصوّفه إدراكاً منه لظروف عصره ، وما يمكن أن يتعرّض له من إيذاءٍ بسبب خروجه عن جادة الصوفية المعتدلين . ومما لا ينفي تصوّفه أنه لا يوجد نص صريح لعارفٍ صوفي يؤكد عدم انخراطه في سلك الصوفية ، كما أن هجوم كبار الصوفية كان مركّزاً على أقواله لما يمكنها أن تحدثه من ضرر بليغ بعقول الصوفية المخلصين بعد أن تسرّبت إلى مجالسهم وخلواتهم ، ودخلت في أقوالهم ومحاضراتهم ، مع ما فيها من معارضة للشريعة . ونحن نلتمس للمتشككين في تصوّفه عذراً لأن تلاقي التصوّف والفلسفة في بعض النقاط يجعل من الصعب تحديد هذا الأمر . فاللاأباليون مثلاً يتلاقون مع الصوفية في الإيمان بأن الكشف عن حقيقة الموجودات المحسوسة أمرٌ متعذّر ، والوسائل الإدراكية هي التي تجعلنا نقنع بما نصل إليه من علم فيما يتعلّق بالكائنات ، مع أن ذلك ليس الحقيقة والواقع[٤٩] . فإذا ما تحدّث الخيام حول هذه النقطة فلن يكون الحكم بتصوّفه أو فلسفته أمراً سهلاً . أما إذا تحدث ـ مثلاً ـ عن استمرار العالم في الإنحلال والتركيب دون انقطاع ، أو عن تفرّق العناصر في الأجسام واستحالة عودتها ثانية لتؤلّف الجسم الأول ، وحكم بعد ذلك بأن البعث بعد الموت أمر غير ممكن . . كان من السهل الحكم بأنه يردد أقوال الفلاسفة الانقلابيين ؛ لأنه بحديثه يُعارض ما يقوله المتصوّفة الذين يرون أن الإنسان يتّحد بالله ويعود إلى مصدر واحد بعد موته . . هو الله ، لأنه من روح الله ، فالبعث إذاً في رأيهم أمر ممكن لأن عناصر الإنسان لم تتفرّق في أجسام أخرى .

---

(٤٨) أثبت الكثير من ترجمات رامي والنجفي الشعرية لرباعيات الخيام إلى جانب الترجمات التي قمت بها لكثير من الرباعيات نظماً .

(٤٩) مقدمة أديب تقي على « رباعيّات حكيم عمر خيام نيشابوري » .

وللخيام رباعيّات قليلةً صريحةً في اتّجاهها الصوفيّ لم يلتزم فيها التزاماً كاملاً بتعاليم الصوفية تأثّراً منه بالفلسفة ، ورغبة منه في ألّا يحصر نفسه في نطاق الفكر الصوفي المحدود . . الذي لا يقبل البحث الواسع المفصّل الذي يبلغ حد الجدل والهجوم . ورغم أننا لا نستطيع تحديد الفترة التي عاشها متأثراً بالتصوّف . . إلّا أن لهجة بعض الرباعيّات الصوفية يوحي بأنها كانت في الفترة الأخيرة من حياته ، وهذا أقرب إلى المنطق والطبيعة البشريّة ؛ فالخيام ـ طبقاً لما ورد في كتب السير ـ قد أصاب ثراء وشهرة في بداية حياته ، وخالط السلاطين والملوك والعظماء ، وجالس كبار العلماء ، ونال احترام الجميع وتكريمهم[٥٠]. وقد خصّص له الوزير نظام الملك ـ رفيق دراسته ـ مئتي ألف مثقال من الذهب يتقاضاها من بيت مال نيسابور سنوياً . وظل ذلك الأمر معمولاً به إلى أن أغتيل الوزير عام ٤٨٥هـ[٥١]. ولا شك أن الثراء وانشغال الخيّام بالندامة والتنجيم والرصد والفلك وغير ذلك . . جعله بمنأى عن التصوُّف . . لهذا نرجّح أن يكون انخراطه في سلك التصوّف في فترة متأخرة من عمره . . وهي التي عاصر فيها سنجر الذي كان يبغضه مذ كان صبياً[٥٢]. وهناك قصة وردت في « آثار البلاد وأخبار العباد »[٥٣] مفادها أن الخيام نزل ببعض الربط ،

---

(٥٠) يمكن الوقوف على ما ورد بكتب السير بالرجوع إلى : تاريخ الأدب في إيران (جـ ٢ ـ الترجمة العربية) ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ ؛ مقدمة رامي على كتابه (رباعيات الخيّام) ، ص ٩ ، ١٠ .

(٥١) وردت في الكثير من كتب التراجم رواية مفادها أن الخيام ونظام الملك والحسن الصباح كانوا زملاء دراسة على الإمام الموفّق النيسابوري ؛ فتعاهدوا أن يرعى أفضلهم حظاً زميليه . ولما أصبح نظام الملك وزيراً لألب أرسلان منح الصباح مكاناً سامياً في القصر ، وخصّص للخيام راتباً سنوياً . غير أن هذه القصة لا تحظى بتصديق معظم الدارسين .

أنظر : جامع التواريخ ، الورقة ٢٩٢ ب ؛ تاريخ الأدب في إيران (جـ ٢ ـ الترجمة العربية) ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩ ، ٣١٤ ؛ النار تتكلّم ، ص ١٩٤ ـ ١٩٧ ؛ الوصايا ، ص ٣٣ ، ٣٤ ؛ نظام الملك الطوسي للكنبوري ، ص ١٧٨ .

(٥٢) كان سنجر صبياً حين عاده الخيام وعرف أنه مصاب بمرض الجدري . وقد سمعه خادم حبشي أثناء قوله للوزير : « الصبي مخوف » . فنقل ما قاله لسنجر . . الذي أسرّها في نفسه ، وأضمر له بغضاً كبيراً .

أنظر : تتمة صوان الحكمة للبيهقي ، ص ١١٤ ؛ وزارت در عهد سلاطين بزرگ سلجوقي ، ص ١٩٥ (نقلاً عن نزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزوري) . وقد قمتُ بترجمة الكتاب إلى العربية بعنوان « الوزارة في عهد السلاجقة » .

(٥٣) آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ، ص ٣١٨ .

وصنع لأهلها تمثالاً من الطين على هيئة الطير ، ووضعه في مكان مكشوف فكفّ أذى الطير عنهم . ولعلّه كان يعد نفسه آنذاك للدخول في زمرة الصوفيّة ، ويسمعهم أشعاره ، لكنها ليست فترة تصوّفه الفعلية .

وهذه بعض رباعيّات الخيّام ذات المسحة الصوفية ؛ وهي إلى جوار ما بها من عبارات العرفان . . تؤكدأن الانسان من روح الله وأن مردّه إلى أصله . . يفنى فيه ويتحّد به . وتؤكدّ أن حبّ الله أسمى ألوان الحب ، وتحثّ على وجوب حفظ السر ونبذ زخارف الدنيا :

ـ إن تفصل القطرة من بحرها ... ففي مداه منتهى أمرها
تقاربت يارب ما بيننا ... مسافة البعد على قدرها
ـ كيف يحوم القلب يوماً على ... غيرك أو يبغى هوًى معْ هواك
إن دموعي لم تدعْ لحظة ... عينيَ ترنو لحبيبِ سواك
ـ نهجَ التصوّفِ سِربِهِ كي تبلغ الأربا ... واذرف دمَ القلب المَعَنَّى والهاً طربا
كن مثلَ من جابهوا كلَّ الصعابِ فإن ... لم ترتضي ماارتضَوا لن تبلغ الأربَا
ـ أنا ما تركتُ كؤوسي خوف إملاق ... ولا مخافة عار . . أتقي الساقي
شربتُ إذ كانت الأشواقُ تعصفُ بي ... لمّا حللتَ بقلبي عِفْتُ أشواقي
ـ ياعاقلاً لا تُبد سراً إن تَرمْ ... وصلاً وغِب وتوارَ كالعنقاءِ
فالبحر في الصدفاتِ يُخفى سِرَّه ... فيبدِّلَنْ دُرّاً بقطرة ماءِ

* * *

وهكذا نخلص إلى أن الخيّام ـ كان في حياته وبين معاصريه ـ عالماً أكثر منه شاعراً . وهو لم يكن يدافع عن مذهب فلسفي معيّن ؛ ولذا تعكس رباعيّاته العديد من الآراء التي صدرت عنه في مواقف متعددة غير متماثلة ، وفي حالات نفسية متغايرة ، وفي فترات مختلفة من عمره الطويل . غير أن مافي رباعياته من آراء متناقضة أحياناً لم يحل دون تخطّيها سياج الأدب العالمي ، واعتبارها ثروة أضيفت إلى هذا الأدب ، وأدخلته في زمرة المبدعين العالميين .

ومعظم هذه الرباعيّات ـ بما تحمله من دعوة سافرة إلى الكفر والفساد والفجور والتحلل ـ تشكل خطراً ؛ فقد يترتّب على الاقتناع بما جاء بها أن تشيع الفاحشة وتكثر الموبقات بين الشباب خاصة . ولهذا يرى بعض الدارسين أن « فينرجرالد » قد صاغها بأسلوب بليغ بذل فيه غاية جهده ليصل إلى هذه الغاية ، وأن المبشرّين قد لجأوا إليها للطعن في الدين الإسلامي عن طريق مقولات موضوعة تنسب لعالم من علماء المسلمين ، نشأ نشأة إسلامية وتربىّ على تعاليم الرسول الكريم .

ويسهل تبرئة الخيّام من نظم مثل هذه الرباعيّات إذا جمعنا أقوال القدامى في حقّه ، والألقاب التي أطلقوها عليه . فالعروضي يلقبه بـ (بزرگ) أي العظيم أو الولي ، ويقول إن موته ترك العالم السفلي يتيماً محروما من صحبته وإرشاده ، وإنه كان لا يجد له نظيراً في بسيط العالم وأقطار الربع المسكون ، ويصفه بحجة الحقّ تارة وبالإمام أخرى . والزمخشري يقص قصة اجتماعه به في المجلس الفريدي ، ويصفه بحكيم الدنيا وفيلسوفها الشيخ الإمام الخيّامي . والإمام ظهر الدين البيهقي يسميه الدستور الفيلسوف حجّة الحق . . وغير هؤلاء كثيرون .

ويسهل تبرئته إذا قلنا إننا لم نقرأ قولاً لأحد معاصريه أو قدامى المؤرّخين يذكر فيه أنه شارب خمر أو فاسق فاجر . ويسهل تبرئته إذا قلنا إنه لا يمكن التأكد من نسبة رباعيّة بعينها إلى الخيّام . . اعتماداً على عدم وجود نسخة مدوّنة لرباعيّاته ، إلا ما دوّن بعد مرور ثلاثة قرون ونصف قرن على وفاته ، ونحن لا نعرف المصدر الذي أخذ منه صاحب هذه النسخة ، ولذا يمكن القول بأنها موضوعة .

ويسهل تبرئته إذا رجعنا إلى كتاباته هو ، وأحسسنا بما كان يحمله في جنباته من حسن عقيدة وإيمان بخالقه . فهو ينهي رسالته « الكون والتكليف » بقوله : « فقد بان بأن جميع الذوات والماهيّات إنما تفيض من ذات المبدأ الأول الحق جلّ جلاله على ترتيب وفي سلسلة نظام . وهي كلها خيرات لا شرّ فيها بوجه من الوجوه ، إنما الشرّ الذي هو الذم أو لازمه يحصل من ضرورة التضادّ على ما قد عرفت تفصيله ، تعالى عما يقوله الظالمون الملحدون علوّاً كبيرا ، ولا حول ولا قوة إلاّ به ، وهو حسبي ونعم

---

(٥٤) أقدم النسخ (نسخة بودلين) المحفوظة في أكسفورد ، وقد كتبت عام ٨٦٥هـ ، وتشتمل على ١٥٨ رباعية .

المعين . والحمد لله الذي هو المبدأ الأول ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين ـ تمّت بعون الله وتوفيقه »[٥٥] .

ومع ذلك فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الخيّام هو صاحب هذه الرباعيّات المبتذلة ، باعتباره إنساناً عاش عمراً طويلاً ، وتأثّر بما حوله ، وتنقّل بين العديد من الفلسفات ، وسجّل ما أحسّ به وعاشه ؛ وباعتباره ابن عصره وبيئته الحافلة بالمتناقضات .

* * *

(٥٥) كشف اللثام عن رباعيّات الخيام لأبي مبشي الطرازي الحسيني ، ص ١٢٠ .

ثبت بالمراجـع

هذا الثبت مرتّب أبجدياً باعتبار الكلمات مجرّدة من أداة التعريف (ال) ومن كلمتي (ابن وأبو) .

١ ــ ابراهيم عبدالقادر المازني : حصاد الهشيم ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٥٨م .

٢ ــ ابن الأثير : الكامل ، طبع مطبعة ذات التحرير ، ١٣٠٣هـ .

٣ ــ أحمد حامد الصّراف : عمر الخيام الرياضي الفلكي النيسابوري ، بغداد ١٩٦٠م .

٤ ــ د. أحمد الخولي : فَرُّخي يزدي ، ماجستير مقدمة لآداب عين شمس ، ١٩٦٨م .

٥ ــ د. أحمد الخولي وآخرين : دراسات ومختارات فارسية ، دار الرائد العربي ، ١٩٧٥م .

٦ ــ أحمد الصافي النجفي : رباعيات عمر الخيام ، المكتبة العصريّة ، بيروت .

٧ ــ د. أحمد كمال الدين حلمي : الأنوري : عصره وبيئته وشعره ، رسالة دكتوراة بآداب عين شمس ، ١٩٧١م .

٨ ــ المؤلف نفسه : الأنوري شاعر السلاجقة ، مجلة عالم الفكر ، عدد ٢ المجلد ٧ ، عام ١٩٧٦م .

٩ ــ المؤلف نفسه : بين المعري والخيام ، مجلة الشعر ، عدد ١٧ ، يناير ١٩٨٠م .

١٠ ــ المؤلف نفسه : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ط ٢ ، ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٦م .

١١ ــ المؤلف نفسه : النار تتكلمّ ، مؤسسة الصباح بالكويت ، ١٩٧٩م .

١٢ ــ اربري (ومجموعة من المستشرقين) : تراث فارس (تعريب أساتذة عرب) ، القاهرة ١٩٥٩م .

١٣ ــ ابن أسفنديار : تاريخ طبرستان ، طهران ١٣٢٠ هـ . ش .

١٤ ــ أمين أحمد الرازي : تذكرة هفت إقليم ـ جلد أول ـ كلكتا ١٩٣٩م .

١٥ ــ أنوري (أوحد الدين) : ديوان أنوري ، طهران ١٣٣٧هـ .

١٦ ــ براون (ادوارد جرنفيل) : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي (تعريب د. الشواربي) ، مصر ١٩٥٤م .

١٧ ــ ابن البلخي : فارسنامه ، لندن ١٩٢١م .

١٨ ــ البنداري : مختصر دولة آل سلجوق ، نشر هوتسما ، ليدن ١٨٨٩م ، مصر ١٩٠٠م .

١٩ ــ بهار (محمد تقي ملك الشعراء): سبك شناسي (تاريخ تطور نثر فارسي) ، جـ ٢ طهران ١٣٢١ هـ . ش .

٢٠ ــ البيهقي : تاريخ البيهقي (تاريخ مسعودي) ، ج ٢ طهران ١٣١٦ هـ . ش .

٢١ ــ جامي (عبدالرحمن) : نفحات الأنس من حضرات القدس ، لكهنو ١٩١٥م .

٢٢ ــ جلال الدين دواني : أخلاق جلالي ، لكهنو ١٨٦٦م .

٢٣ ـ الجوزجاني (منهاج السراج) : طبقات ناصري ، ط ٢ ، كابل ١٣٤٢ هـ . ش .
٢٤ ـ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٨ هـ .
٢٥ ـ د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، القاهرة ١٩٥٥م .
٢٦ ـ حمدالله مستوفي قزويني : تاريخ گزيده ، طهران ١٣٣٩هـ ، ليدن ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م .
٢٧ ـ خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، بمباي ١٢٧٣هـ = ١٨٥٨م ، طهران ١٣٣٣ هـ . ش .
٢٨ ـ دولتشاه : تذكرة الشعراء ، ليدن ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .
٢٩ ـ رباعيات حكيم عمر خيام نيشابوري ـ مؤسسة مطبوعات علمي ، تهران ١٣٤٢هـ .
٣٠ ـ رامي (أحمد رامي) : رباعيات الخيّام . طبع القاهرة .
٣١ ـ الراوندي (نجم الدين أبوبكر محمد بن سليمان)) راحة الصدور وآية السرور ، ليدن ١٩٢١م .
٣٢ ـ الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، تعريب الدكاترة : الشواربي ، عبدالنعيم ، الصياد ، القاهرة ١٩٦٠م .
٣٣ ـ ابن السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١١٢٩هـ .
٣٤ ـ سيد محمد باقر : خيّام ـ مجلة روزنامه استان قدس ، شماره دوره نهم ، ٣٠٦ مسلسل ، خرداد ١٣٥٢هـ .
٣٥ ـ شبلي نعماني : تاريخ شعراء وأدبيات ايران ، ترجمة فخر داعي گيلاني ، تهران ١٣١٦هـ .
٣٦ ـ عباس اقبال : وزارت در عهد سلاطين بزرگ سلجوقي ، طهران ١٣٨٨ هـ . ش .
٣٧ ـ عبدالحق فاضل : ثورة الخيّام ، القاهرة ١٩٥١م .
٣٨ ـ د. عبدالنعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، مصر ١٩٥٩م .
٣٩ ـ ابن العربي : مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٨٩٠م .
٤٠ ـ عماد الدين محمد حامد الأصفهاني : تاريخ آل سلجوق (اختصار البنداري) ، مصر ١٩٠٠م .
٤١ ـ الغزالي (أبو حامد محمد) : تهافت الفلاسفة ، بمباي ١٣٠٤هـ .
٤٢ ـ فروزانفر : قد يمترين اطلاع از زندگي خيام ، مجلة دانشكد ه أدبيات . دانگشاه فردوسي ، شماره ٨ ـ ٩ .
٤٣ ـ القزويني (زكريا بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، جوتنجن ١٩٤٨م .
٤٤ ـ القفطي : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣م .
٤٥ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ، القاهرة ١٣٥١هـ .
٤٦ ـ مبشّر الطرازي : كشف اللثام عن رباعيّات الخيام ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م .

٤٧ ــ محمد بن إبراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ليدن ١٨٨٦م .
٤٨ ــ محمد عبدالغفار الهاشمي الأفغاني : رباعيات الخيام الحقيقية ، القاهرة ١٩٦٠م .
٤٩ ــ محمد عوفي : لباب الألباب ، ليدن ١٩٠٣م .
٥٠ ــ محمد بن المنّور : أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد ، نشر د. صفا ، تهران ١٣٣٢ هـ . ش .
٥١ ــ مجلة أبولو ، باب أعلام الشعر ، خلاصة رأي المازني في الخيام والرباعيّات والرد عليها ، مصر ١٩٢٤م .
٥٢ ــ المعري (أبو العلاء) : لزوم مالا يلزم ، ط ١ ـ طبعة بيروت .
٥٣ ــ المؤلف نفسه : سقط الزند ـ طبعة بيروت .
٥٤ ــ نظامي عروضي سمرقندي : چهار مقاله ، بمباي ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، ليدن ١٩٠٩م ، طهران ١٣١١هـ .
٥٥ ــ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، طبع وستنفلد .
٥٦ ــ وديع البستاني البيروتي : رباعيات الخيام ، بيروت .
٥٧ ــ ولبر (دونالد. ولبر) : إيران ماضيها وحاضرها (ترجمة د. عبدالنعيم حسين) ، مصر ١٩٥٨م .
٥٨ ــ يحيى القزويني : لب التواريخ ، نشر سيد جلال طهراني ، مؤسسة خاور ، ١٣١٤هـ .

ضوء على الأعشى

د. طيبة حمد بودي
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية
جامعة الكويت

الشاعر ميمون بن قيس من الشعراء الكبار الذين ما زالوا يسطعون على عالم الشعر العربي من زمان الجاهلية، فقد استطاع أن يودع شعره قيماً فنية لا خلاف على قيمتها، ثم، إنه لم يعش على هامش الحياة، ولكنه عاش في صميم الحياة، وقد عرف الفقر، والخوف من الخوف ـ ولعله كان وراء ذلك أنه ابن الرجل الذي سمي «قتيل الجوع» لأن صخرة عظيمة سقطت من الجبل على باب غار كان قد آوى اليه، وظل في مكانه حتى الموت ـ كما أنه عرف في الوقت نفسه رخاء العيش، فقد عرف له المجتمع من حوله حقه، ذلك لأنه كان يعرف كيف يرفع ويخفض الآخرين بشعره، بل كيف يتحكم في حياة بعض الأسر، على حد ما نعرف من كتاب الأغاني، حين يذكر لنا أن الأعشى كان يوافي سوق عكاظ في كل سنة، وقد وقع في طريقه «المحلّق الكلابي الذي قيل عنه: أنه كان مئناثا مُمْلقاد بمعنى أنه لم يرزق ذكورا وفي الوقت نفسه كان فقيراً فقراً مدقعا، وقد كان من الطبيعي أن يقلق هذا زوجه، ومن هنا رأيناها تقول له: ما يمنعك من التّعرض لهذا الشاعر؟ فما رأيت أحدا اقتطعه إلى نفسه الا وأكسبه خيرا، فما كان منه الا أن قال: ويحك، ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل، فقالت: الله يخلفها عليك، فقال: لابد من الشراب والمسوح، فقالت: إن عندي ذخيرة لي، ولعلي أن أجمعها، فَتَلْقَاه قبل أن يسبق اليه أحد، فما كان منه الا أن أسرع اليه وأخذ بخطام ناقته، فقال الأعشى: من هذا

الـذي غلبنا عـلى خطامنـا فرد عليـه: المحلق، فقال الأعشى: شريف كـريم، وقد استقبله المحلق، ونحـر له النـاقة الـوحيـدة التي يمتلكهـا، وكشط لـه عن سنـامهـا وكبدها، ثم سقـاه، وأحاطت بنـاته بـه يغمزنـه ويمسحنه[1]، وقـد خرج من عنـده مكرما وسعيدا، وحين وصل إلى غايتـه نادى: يـا معشر العرب. هـل فيكم مزكـار يـزّوج ابنـه إلى الشريف الكـريم . . ؟ وكـان أن تسـابق النـاس إلى بنـات المحلق، فتزوجن، وتحول المحلق من الفقر إلى الغنى، فقد تردد في الجزيرة قول الأعشى فيه:

لعمـري لقـد لاحت عيـونٌ كثيـرة ... إلـى ضـوء نـارٍ بـالْيَـفـاع تـحـرق
تِشَبُّ لـمقـرورَيْـن يَصْـطليـانـهـا ... وبـات على النـار النـدى والمـحلق
رضيـعي لبـانِ ثـدي أمّ تـحـالـفـا ... بـأسـحمَ داج عـوضُ لا نَـتَفَـرَّق[2]

ولقد عرف كثيرين في طريق حياته، ولما كانوا يقدرون شعره، ويعرفـون قيمة هذا الشعر، فـإنهم أجازوه وأعـطوه الكثير، وقـد كان من الـذين لاقاهم في طـريقه الأسود العنسي، وعامـر بن الطفيـل، وربيعة بن حبـوة، وعبدالمـدان بن الديـاني، وقيس بن معـد يكرب، وايـاس بن قبيصة الـطائي، وسلامـة ذا فائش بن يـزيـد، وهوذة بن علي الحنفي . .

ولقد كان في مقدمة من مدحهم النعمان بن المنذر الذي قال فيه:

اليـك أبيتَ اللَّعْنَ كـان كـلالهـا ... إلى المـاجـدِ الفَـرْعِ الجَـواد الْمُحَمَّـد
إلـى مـلكٍ لا يـقـطعُ الـلَّيْـلَ همَّـه ... خـروجٍ تـروك للفـراش الممهَّـد
طـويـلُ نجـاد السَّيف يَبْعث همـه ... نِيَامُ القَـطَا بـالليـل في كـل مَهْجـد
فمـا وجـدتـك الحـربُ اذ فـرَّ نـابهـا ... على الأمـر نعـاسـاً على كُـلِّ مَـرْقَـد

. . . ومعنى هذا أنه كان على صلة بكبار الرجـال في عصره، وأنه ضرب لهم أكباد الأبل، وأنهم كانوا يقدرونه كـل التقديـر، ونحن لا ننسى أنه طمـح في مقابلة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد رحل إلى النبي في صلح «الحديبية» وبلغ قريشا

---

(١) الأغاني ١٠٨/٩ وما بعدها.

(٢) أسحم داج: أراد الليل، عوض: أبدا. أنظر العمدة لابن رشيق ٣٧/١.

هـذا، فاهتمت لذلك، ورصـدوه على الـطريق وقالـوا ـ فيما قـالوا ـ: هـذا صناجـة العرب ما مـدح أحداً قط إلا رفـع قدره، فلما ورد عليهم قـالوا لـه: أنه ينهـاك عن خلال، ويحرّمها عليك، وكلها موافق لك، قال: ما هنّ، قال أبوسفيان بن حرب: الزنا فقال الأعشى: لقد تركني الزنا وما تركته ثم مـاذا: قال: القـمار فرد: لعـلي إن لقيتـه، إن أُصِيبَ منه عـوضاً من القـمار، ثم ماذا: قـال: الربـا قال: مـا دنت ولا آدنت، ثم ماذا: قال: الخمر فرد الشاعر: ارجع إلى صبابة قد بقيت لي في المهراس فأشربها. . قال له أبوسفيان:

هل لك في خير مما هممت به فقـال: ما هو: قال: نحن وهو الآن في هُـدْنه، فتأخذ مائة من الأبل، وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير اليه أمرنـا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت حلفا، وإن ظهر علينا اتيْته، فقال: ما أكره ذلك، فقال أبـوسفيان: يـامعشر قريش، هـذا الأعشى، والله لئن أتى محمـداً واتبعـه، ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الأبـل، ففعلوا، فأخـذها وانـطلق إلى بلده، فلما كان بقاع «منفوخة». . . رمى به بعيره فقتله، وكان قد قـال قصيدتـه التي يمدح بها النبي ومطلعها

ألـم تَغْـتَمِض عيـنـاكَ لـيْـلَةَ أَرْمَـدَا وبتَّ كمـا بـات السّليـم المسهّـدا

وروي أن النبي محمد ﷺ، قال في حقه كاد ينجو ولما[1] !.

. . . المهم أن مجتمعـه قدره كـل التقـديـر، وأن المشركـين نجحـوا واهتمـوا اهتماما كبيرا بابعاده عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وعـلى الجهة الأخـرى، كان المسلمون يتوقون إلى أن يهديه الله، فيدخل في الإسلام، ولكن الـرياح هبَّت بمـا لا يشتهي المسلمون ذلك لأنه سرعان ما لاقى حتفه بعـد أن قابله أبـوسفيان وأنـظره ـ لمدة عام! فكره الذهاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنـه على الـرغم من ذلك ترك وراءه ثـروة عظيمـة من الشعر لم يجـادل أحد في روعتهـا، ذلك لأنـه كان يملك باقتدار خاصية من خصـائصه وهي «الـطرب»، فاذا كـان قد قيـل أن قواعـد الشعـر أربعة هي: الـرغبة والـرهبة والـطرب والغضب، فإن الأعشى اذا كـان قـد

(١) دراسات في النص الشعري، د. عبده بدوي ص١٧.

تعامل مع هذه القواعد جميعا لأنه مدح وهجا واعتذر واستعطف وفخر، فإنه وقف طويلاً عند خاصيته الطرب التي من خصائصها الإحسان في النسيب، واظهار التشوق، والبراعة في الوصف، ولنتأمل قوله:

روادفه تثني الرداء تساندت	إلى مثل دَعصْ الرمَّلة المتهيل
وثَدْيان كالرّمانتين، وجيدها	كجيد الغزال غير أن لم يعطل !
وتضحك من غُرٍّ الثنايا كأنه	ذرى أقحوان نبته لم يُفَلَّل
تلالؤها مثل اللجين، كأنما	ترى مقلتي رئم ولو لم تُكحل
يجولُ وشَاحَاها على أخْمَصَيْهما	اذا انْفَتلت جَالاَ عليْها بجلجل[1]

ـ ٢ ـ

للشاعر ميمون بن قيس بن جندل ـ ويكنى أبا بصير ـ خاصية خاصة في عالم الشعر العربي، والشعر الجاهلي بصفة خاصة، ذلك لأنه توصل إلى سر أسرار الموسيقى في شعره، فكل شيء في شعره ابتداء من «الحرف» يعبّر عن موسيقى رائعة، والموسيقى هنا ليست معزولة عن مشاعر الشاعر، وليست معزولة كذلك عن طبيعة العمل الفني الذي يتناوله، وقد كان «محمد بن سلام» على حق حين سأل «يونس بن حبيب» من أشعر الناس؟ فما كان من يونس الا أن قال: لا أومىء إلى رجل بعينه ولكني أقول: أمرؤ القيس اذا غضب، والنابعة اذا رهب، وزهير اذا رغب، والأعشى اذا طرب. . . فالطرب طبيعة كاملة فيه، ولقد كان يعرف هذه الظاهرة، ويتكىء عليها، ويجيد العَزْفَ بها إن صح التعبير، ولم يكن هذا يؤثّر على تلك الرحابة في عالمه الشعري، ذلك لأنه كان يطيل في شعره، فلا يضعف هذا الشعر بالطول، وكثير من الذين يقدمونه في العالم الشعري، يقدمونه لكثرة طواله الجياد. . بل البالغة الجودة.

---

(١) يلاحظ أنه مالم يعتبر اذا أداة جزم، فإن فعل يجلجل يبقى مرفوعا ويكون في البيت إقواء. ديونه ص ٦٣ ت فوزي عطوى.

ولعل الوحيد الذي ارتضى النقاد القول بأن له معلقتين لا معلقة واحدة، فهم يذكرون له تلك المعلقة اللامية التي ذاع صيتها في عالم الشعر، والتي تبدأ بقوله:

ودع هريرَة إن الرَّكب مرتحل وهل تطيقُ وداعا أيها الرجل
غراء فرعا مَصْقولْ عوارضها تمشي الهُوينى كما يَمْشي الوجِى الْوَحِلُ
كأن مشيتها من بيت جارتها مرّ السحابة.. لا ريثُ ولا عجل
وتَسْمع للحلى وسواسا اذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل[1]

أما المعلقة الثانية التي احتسبها له الدارسون فهي تلك المعلقة التي تبدأ بقوله:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي.. وما ترد سؤالي؟
ومِنَةُ فَقرة تعاورها الصيف بريحين من صبا وشمال[2]

لقد كان وراء هذا اهتمامه الواضح بالموسيقى بشكل متميز، واستحقاقه بجدارة لهذا اللقب الذي خُصّ به وهو «صناجة العرب» فالشاعر كانت صلتُه وثيقة بعالم الموسيقى، إلى حد القول بأنه كان يجيد العزف على آلة «الصنج»، وأنه كان يلتفت في شعره إلى تلك الآلات التي كانت معروفة في هذه الفترة، فهو يقول مثلا:
اذا قلتْ: غنَّى الشَّرْب، قامتْ بمزهر يكاد اذا دارت له الكف ينطق[3]

فالغناء عنده لابد أن يصاحب آلة، والآلة تكاد اذا مستها الكف تنطق، وهو حريص على التعرف على من يَعْزف، وهل العزف على آلة واحدة، أو أن العزف يعتمد على عدد من الآلات، ولنتأمل قوله:

---

(١) يلاحظ أن صدر البيت متقلقل الوزن، وهو يستقيم له اذا أبدلت كلمة تسمع بكلمة «سمعت» أو كلمة «تصيخ»، والعشرق اسم شجرة: أنظر ديوان الأعشى. تحقيق فوزي عطوي حرا ـ دار صعب. بيروت.
(٢) الشاعر يمدح بها الأسود بن المنذر اللخمي.
(٣) ديوان الأعشى: ص ٢١٩.

وطنــابيــر حـســان صــوتـهــا عنــد صنـج كلمــا مـسّ أرن
واذا الـسْـمَــع أفــنـى صــوتــه عزف الصنج فنـادى صوت ون

وقد ينقل الصورة الغنائية إلى عالم «الحلية»، فهو حين يتكلم عن المرأة يذكر أنها «مكدسة» بالحلى، وعملية التكديس عنده ـ وكلمة التكديس من مصطلحاته كقوله يكدس في ترائبه الفريد ـ تَعْني في المقام الأول أنها تُحدث أصواتا متتابعة، لهذا كان من الطبيعي أن يضيف إلى ظاهرة التّكديس، ظاهرة «الكبر»، ولهذا تعامل مع ما يسمى «التومة» وهي نوع من الأقراط التي حباتها كبيرة، ومن الطبيعي أن أقراطا من هذا النوع الكبير لابد أن تُحدث صوتا[1].. فهو مولع بالأصوات، وبكل ما يصدر عنه الصوت، وفي الوقت نفسه نراه يحرص في شعره الغزلي على وجه الخصوص برسم الصورة الموسيقية للمرأة، فهي «تمرُّمَرَّ السحابة لا ريْثٌ ولا عجل»، وهي حين تمشي تسمع لحليها «وسوسة» كما استعان بريح عشرق زجل، ولا ينسى أن يذكر أن لثوبها حفيفاً، كحفيف الحصاد صادف بالليل ريحا دبورا»[2].

المهم أنه كان يحرص على إبراز الجانب الصوتي في الصور التي يرسمها بتوفيق، وباقتدار، ولعل هذا كان وراء قول الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان:

إنه الأعذب بحرا، والأصلب صخرا، فقد كان حريصا على تقديم ما يمكن أن يسمى «بالعذوبة الصوتية !»، ومن أجل هذا عرف كيف يتوصل إلى أغزل بيت وهو:

غَــرَّاءُ فـرعــاءُ مصقـول عــوارضهــا تمشي الهوينى كما يمشي الوجى الْوَجِلُ

وإلى أخنث بيت وهو:

قــالت هـريــرة: لمـا جئتُ زائــرَهـا ويْلي عليـكَ، وويلي منـك يــا رَجُـل

وإلى أشجع بيت:

قــالوا: الــطِّراد فقلنـا: تلك عـادتُنـا أو تَنْــزِلُــون فــإنّــا مَعْشَــرٌ نــزل..

---

(١) أنظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث د. نصرت عبدالرحمن ص ٦٠ ـ مكتبة الأقصى . عمان.

(٢) نفسه ص ١٠٠.

. . فالذي كان وراء الوصول إلى: الأغزل والأخنث والأشجع هو: الموسيقى ولا شك أن البيئة التي عاش فيها قد ساعدته على هذا مساعدة كبيرة، فهو في المقام الأول كان يعتمد على «الأذن» أكثر من اعتماده على «العين» التي كانت ضائعة أو شبه ضائعة، ثم إنه أحب هريرة، وهريرة حين يقدمها صاحب الأغاني نراه يقول عنها: كانت هريرة التي يشبب بها الأعشى أمةً سوداء لحسان بن عمرو بن مرشد، وعن قراس بن الخندف قال: كانت هريرة وخليدة أختين قينتين كانتا لبشر بن عمرو بن مرشد، وكانت تغنيانه النصب[1]، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان. . ثم أنه من جهة أخرى يلاحظ أنه كان يهتم اهتماما خاصا بحروف اللين ـ هي الحركات من فتحة وضمة وكسرة ـ ولقد كان يجيد في هذا الجانب، ويعرف أن لكل مقامٍ حركاتٌ خاصة به، فإذا أردنا أن نأخذ دليلا على تعامله مع الضمة نراه يقول في المعلقة:

مِلْءُ الوشِاح، وصفر الدرع بهكنة	اذا تأتي يكاد الخصر ينخزل
هركولةٌ، فنقٌ. درمٌ مرافِقُها	كأن إخمصها بالشوك منتعل
ما روضةٌ من رياض الحزن معشبةٌ	خضراءُ جاء عليها مسبل هطل
يُضاحك الشمس منها كوَكبٌ شرق	مؤزَّرٌ بعميم النبث مكتهل[2]

فليس معنى هذا التعامل الغزير مع الضمة أنه أعرابي جلف غليظ، ولكن لأنه يريد أن يرسم بألوان قاسية وواضحة منظرا بعينه، ولأنه يريد أن يوصِّل معنى تعبر عنه العامية فتقول: مرهوط، ملظلظ، مبغلط. . .، فهو يكثر من الضمّات إكثاراً مقصودا، لتظهر صورة لمط الشفتين إلى الأمام، ولتكورهما بطريقة بعينها تحمل على الضحك، فهو قد تعمَّد أن يضاعف من تكوير هذه الضمَّات، ليحمل المستمع على الضحك، وعلى الإعجاب بالاستدارة والتكوير، وقد وضع الغربيون

---

(١) ضرب من أغاني العرب شبيه بالحداء.

(٢) ديوانه ص ١٧، ١٨.

لهذا مصطلحاً معناه كثيرة الأقواس أو التكورات[1] . . ويمكن أن نقيس على هذا تعامله مع الكسرة في قوله:

رب خرقٍ من دونها يخرس السَّفْر ومـيـلٌ يـفـضـي إلى أميـال
وادلاج بعـد المنـام، وتهجيـرٌ وقف، وسبسبٌ ورمال

فهو هنا يتعرض لحالةٍ من حالات الحزن والهجر، عبَّر عنها المطلع للمعلقة الثانية التي أولها:

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطْلالِ وسُؤالي، فهل تردُّ سؤالي؟

فالكسر مفتتح به، ومعبر به في الوقت نفسه عن الحالة الحزينة التي يريد أن يتكلم عنها الأعشى !

ويمكن أن نقيس على هذا تعامله مع الفتحة

قد رامها حججاً ـ مُذْطَرَّ شاربُه حتى تَسَعْسَعَ يَرْجوُها وقد خَفَقَا
من نالَها نالَ خُلداً لا انقطاع له وما تمنّى، فأضحى ناعماً أنِقَا

بعد كفاح في ميدان الكلمة الشعرية ـ رأيناه يصبح بحق شيخ الشعراء في الجاهلية، بل وظل دائما المورد الذي يَسْتقي منه الشعراء، ويتتبعونه خطوة خطوة فاذا قال الأعشى:

من خمر «عانة» قد أتى لختامها حولٌ . . تسل غمامة المزكوم

واذا قال:

وكأسٍ شربت على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

رأينا أبانواس يقول

دع عنك لومي فإن اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء !
. . الخ

---

(١) الشعر الجاهلي. د. محمد النويهي ٤٩١١ ـ الدار القومية. القاهرة.

- ٤ -

والآن نقف عند أهمية البصر عنده، وأهمية الصورة البصرية التي كان يتمتع بها الشاعر الجاهلي، فهل توصّل الأعشى إلى شيء من ذلك، وهل يمكن القول بأنه ربّى عينيْه وثقفهما ليدركا الأشياء من حوله، «فالعينان آلة تصوير تلتقط الصور الجميلة وتزّود بها الدماغ، القوة العظيمة المهيمنة وهو بدوره يقوم بعمله الجبار، فينظم العلاقة بين العالم الخارجي والعالم الداخلي للإنسان، ويساعد علي رؤية الجمال في الإنسان والطبيعة، كما يساعد أيضا على الاستزادة من الثقافة التي تؤخذ بالعين كالقراءة والرسم»[1]. نحن نعرف أنه كان أعشى، ويبدو أنه لم يولد أعمى ولكنه فقد بصره شيئا بعد شيء، ومن هنا فالعالم كان محفورا في نفسه، وظل محفورا بها، لأننا نجد عنده صوراً بصرية رائعة، ولنتأمل قوله:

تحسب الزقّ لديْها مُسْنداً | حبشياً نامَ عَمْداً فانبطح
ومغنٍ كلّما قيل له: | أسمع الشَّرب، فَغَنَّى، فصدح
وثنى الكفَّ على ذي عتبٍ | يصل الصوت بذي زير أَبَحْ
في شباب كمصابيح الدجى | ظاهر النعمة فيهم، والفرح.. الخ

فالصورة هنا بصرية في غاية الوضوح، وفي منتهى الحيوية، ولكن مما يلاحظ أن «الصّور السمعية» تتداخل مع هذه الصور البصرية، وتصبح سيدة الموقف، وبخاصة حين يكون الموضوع متصلا بالغناء.

فبانت وفي الصدر صَدْعٌ لها | كَصَدْع الزُّجاجة ما يلتئم
وصهباء طاف يهوديُّها | وأبرزها وعليها ختم
وقابلَها الريحُ في دنِّها | وصلَّى على دنِّها وارْتَسَمْ!
تَمَزَّ زْتُها غير مستدبر | عن الشرب أو منكر ما علم
ويهماءَ تعزفُ جنانها | مناهلُها آجناتٌ سَدم

---

(١) أدب العرب في عصر الجاهلية. د. حسين الحاج ص ١٨٤.

. . . غضــوبٌ من الســوط، زيــافــةٌ اذا مــا ارتــدى بــالــســراةِ الأكَــمْ
كــتــومُ الــرغــاء، اذا هــجــرت وكــانــت بــقــيــة ذو ركــتــم[1]

. . وقضيية «البصر» عنده لها دخْلٌ «بالوصف» ولعل أول من لاحظها «أبوعبيدة» حين قال عنه إنه . . أوصف للخمر والحمر[2] من طرفة المشهور بذلك والمعروف أنه يقصد «بالحمر» النساء، ولقد كان هذا وراء حماسة أهل الكوفة له فقد كانوا لا يقدمون عليه أحداً[3]، وقد كان «أبوعبيدة» موفقا حين سئل عن الشاعر لبيد والشاعر الأعشى فكان جوابه المعجز: لبيد رجل، صالح والأعشى رجل، شاعر[4].

وأخيرا . .

فقد ظل الشاعر محتفظا بمكانته في العالم العربي، فلم يكن أحدٌ يستطيع أن يهز هذه المكانة، وقد حدث في القرن الثاني الهجري أن شغل النقاد بالموازنة بين القصائد والأبيات ـ وكانت هذه خطوة جديد في الشعر ـ وكان أن نزل إلى الساحة ـ رأي أن قصيدة مروان بن حفصة التي يقول فيها:

طرقتك زائرةٌ فَحَيِّ خَيالَها .
مقدمة على قصيدة الأعشى
رحلت سميةُ غدوةً أجمالها

ولما كان صاحب الرأي هو «يونس» فإن الناس قد انزعجوا، بل أن الشاعر مروان نفسه كان في مقدمة المنزعجين، وكان أن دخل في حوار مع يونس، موضحا له أنه لا يمكن له ولا لغيره أن يجاري الأعشى، فما كان من يونس الا أن تراجع وقال «إنما قدمْتك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كله !» وهنا هدأ الشاعر، فهو لم يفرح لأنه قيل أنه أشعر من الأعشى، ولكنه انزعج لمجافأة الحقيقة . . والشاعر دائماً مع الحقيقة !

---

(١) ديوانه ص ١٥٢ .
(٢) الشعر والشعراء ٢٦٣ .
(٣) فحولة الشعراء ٢١ .
(٤) شرح الكافية ١/ ٨٥.

من كل هذا نعرف أن الأعشى كان له خطره وتقديره في كل مراحل التاريخ، وقد تَوَّجَه «المُفضّل» حين قال فمن «زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف شعرا، وانما يفعل ذلك بالهوى والميل[1]، ولقد كان أبوعمرو بن العلاء يفخم منه، ويشاركه في عملية التفخيم هذه خلف الأحمر بدليل أن ابن سلام حين سأله: فأيهم أعجب اليك يا أبامحرز رد عليه بلا تردد: الأعشى[2]، وقد عرف عن الأصمعي أنه كان لا يقدم عليه أحداً[3].

وهكذا عاش الشاعر مقدما في المسيرة العربية، ولم يقف أمره عند حد «الكوفة» لأنه تخطاها إلى كل من ينطق العربية!

وأخيراً فرواية علي بن سليمان النَّوفلي تُلْقِي أكثر من ضوء عليه، فقد قال: حدثنا أبي قال: أتيتُ اليمامة واليا عليها، فمررتُ بمنفوحة، وهي منزل الأعشى التي يقول فيها: بشط منفوحة فالحاجر! فقلت: أهذه قرية الأعشى؟ قالوا: نعم، فقلتُ: أين منزله؟ قالوا: ذاك، وأشاروا إليه، قلت: فأين قبره؟ قالوا بفناء بيته، فعدلتُ اليه بالجيش فانتهيتُ إلى قبره، فإذا هو رطب، فقلت: مالي أراه رطباً؟ فقالوا: إن الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم، فإذا صار اليه القدح صبوه عليه[4].

---

(١) جهرة أشعار العرب ٦٣.
(٢) شرح الكافية ١/٨٥.
(٣) طبقات ابن سلام ٥٤.
(٤) فحولة الشعراء ٢١.
(٥) الأغاني ٩/١١٠.

القصائد العشر الطوال
لأحمد بن حسين الكيواني
(١١١١هـ - ١١٧٣هـ)

تحقيق وتقديم
د. عبدالله محمد العيسى الغزالي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الكويت

أولاً: الشـاعـر:

أحمد بن الحسين الكيواني هو من أكبر شعراء العصر العثماني وأجودهم شعراً وأرهفهم شاعرية. ولقد ترك لنا ديوان شعر كبيراً، أكثر قصائده في الغزل والشكوى.

وفي المقالة التي نشرتها عنه بعنوان: أحمد بن حسين الكيواني: دراسة في الشاعر وأعماله الأدبية، وتحقيق أرجوزته في الشطرنج، توصلتُ إلى أن سنة ميلاده كانت ١١١١هـ تقريباً. وأنه ولد بدمشق كما صرّح بذلك المرادي في «سلك الدرر»، ووافقه من أتى بعده ممن ترجموا للكيواني. وكانت وفاته سنة ١١٧٣هـ كما هو ثابت عند جميع من ترجم له[١].

---

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادي والثلاثون - الجزء الأول، جمادى الأولى - شوال ١٤٠٧هـ / يناير - يونيو ١٩٨٧م، ص١٤٧ - ١٨٧.

كما تطرقتُ بشيء من التفصيل، في تلك المقالة، إلى شيوخه ورحلاته وثقافته وشعره.

وللكيواني، بالإضافة إلى ديوان الشعر، الآتي:

١ ــ مزدوجة صغيرة تقع في ست صفحات ثبتت في نسختي الظاهرية وبرلين من الديوان ولم يَرِد لها ذكر في نسخة تركيا من الديوان.

٢ ــ منظومة في موضوعات شتى كالآداب والأخلاق سماها: «أقل ما يحفظه الأديب» وتقع في حوالي ٣٥ ورقة، ثبتت أيضاً في نسختي الظاهرية وبرلين من الديوان ولم يَرِد لها ذكر في نسخة تركيا من الديوان.

٣ ــ مجموعة قصائد أطلق عليها عنوان: «جملة من نظم الأديب الفاضل أحمد بيك بن كيوان الدمشقي» وصنفت هذه القصائد بدار الكتب الظاهرية مستقلة تحت الرقم ٨٤٤٨ عام ولم يرد لها ذكر في نسخة تركيا ولا برلين من الديوان.

وبالإضافة إلى ذلك الإنتاج الشعري للكيواني فإنّ له ديوان شعر كبيراً أخرتُه لتفصيل الأمر، ولاحتوائه على القصائد العشر الطوال التي هي الموضوع في هذا المقال.

ثانياً:

وصل إلينا، فيما يبدو، من ديوان الكيواني ثلاث نسخ. وعند قراءتها يمكننا الاطمئنان إلى وصول شعر الكيواني إلينا بصورة تامة واضحة، رغم اختلاف النسخ أحياناً في بعض الكلمات، أو عدد الأبيات في القصائد الواحدة، أو في ترتيب القصائد. غير أننا عند فحصنا تلك القصائد في النسخ الثلاث نصل بلا شك إلى ما أراد الكيواني أن يقوله بصورة واضحة لا لبس فيها، بخلاف أرجوزته في الشطرنج التي اختفت أبياتها كثيراً من نسخة إلى نسخ المخطوط ولاسيما في عدد الأبيات. ونسخ ديوان الكيواني الثلاث التي وصلتنا هي:

١ ــ نسخة مكتبة عاشر أفندي بجامع السليمانية:

وهي النسخة الأصلية المنقولة من نسخة المؤلف الشاعر أحمد بن الحسين

الكيـواني وهي مكتوبـة بخط نسخ معتـاد، واضحة ومقـروءة بشكل ميسّر. وتبـدو خالية من آثـار الرطـوبة والأرضـة. وتقع في تسـع وسبعين ورقـة مقاسهـا ٧ ١/٢ × ١٤ ٣/٤ سنتيمتراً.

وأولها يبدأ بالورقـة ١ ب: «بسم الله الرحمن الـرحيم» قال الأديب الأوحـد، الفاضل الرئيس أحمد بن حسين الكيواني الدمشقي». ثم يبدأ بعـد المقدمـة القصيرة هذه بأول قصائد الديوان:

صُـبْـحُ تَـعَـمَّـمَ بـالـشَّـفَـق ... ويـصـدغِـهِ سَـكَـنَ الـغَـسَـق

وينتهي المخطوط بقول الناسخ:

«تَـمَّ الـكِـتَـابُ تـكـامـلت ... نِـعَـمُ الـسـرورِ لـصـاحِـبِـه
وعـفـا الإلـهُ بـفـضـلِـه ... وبـجـودِهِ عـن كـاتِـبِـه

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» (٧٩ ب).

ويبـدو أيضاً في نهايـة الورقـة ٧٩ ب اسم الناسـخ وهو إبـراهيم عبدالـرحمن البلبيسي الشافعي الذي كان حياً سنة ١١٧٩هـ[٢] ـ كما تبـدو سنة النسـخ وشهره، وهما شهر ذي القعدة سنة ١١٥٠» (٧٩ ب). وقد استقرت هـذه النسخة في مكتبـة عاشر أفندي بجامع السليمانية باستانبول بتركيا، وهي تحمل الرقم (٩٥٨) ولا أريد أن أطيـل في الحديث عن هـذه المخطوطـة هنا وبيـان مجموع قصـائدهـا، أو النثر أو أنواع الشعر الذي فيها وموضوعاته، أو الفرق بينها وبين النسخ الأخرى، بل أردت إلقاء الضوء على أهم المعلومات المتعلقة بالمخطوط لتساعد على تكـوين صورة عـامة عن القصـائد العشر الـطوال للكيواني فيـه، تـاركـاً مـوضـوع الإسهـاب في وصف المخطوط لحين نشر الديوان بإذن الله تعالى.

٢ ــ نسخة دار الكتب الظاهرية:

وهي نسخة جيدة مقروءة بشكل واضح، مصححة ومقـابلة على نسخـة أخر كـما أثبتت ذلك النـاسخ في آخـر المخطوط، وهي مكتـوبة بخط نسـخ معتاد، وقـد

---

(٢) انظر معجم المؤلفين: ١ / ١٠.

كتبت مفاتيح القصائد بالأحمر. وتخلو بشكل عام من آثار الرطوبة والأرضة. وتقع في أربع وستين ورقة مقاسها ٢/١٣١ × ٢/٢١١ سنتيمتراً، بواقع ٢٩ سطراً في الصفحة الواحدة وأولها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أظهر منا الجميل وستر القبيح...». (١ ب).

وتطول المقدمة إلى نهاية الصفحة (١ ب) ليبدأ بأولى قصائد الديوان:

بكيتُ لتغريدِ الحمائمِ في الفجرِ وبرّح بي وجدي وزايلني صبري»

وينتهي الديوان في الورقة ٦٤ أ بقوله: «والحمد لله وحده، وصلى الله على مَن لا نبي بعده، آمين».

وهذه النسخة كتبت سنة ١١٩٦هـ كما بيّن ذلك د. عزة حسن في فهرس مخطوطات كتبت الظاهرية. ويظهر تاريخ النسخ هذا في الورقة رقم (٩٢ أ) وهي آخر ورقة في المنظومة المسماة: أقل ما يحفظه الأديب، التي أخذت رقماً مسلسلاً بعد الديوان من الورقة ٦٦ أ إلى الورقة ٩٢ أ حيث يقول الناسخ: «تمت بحمد الله تعالى وعونه في جمادى اثاني سنة ١١٩٦، أحسن الله ختامها وجعل إلى خير تمامها». ولم يذكر اسم الناسخ.

٣ ـ نسخة مكتبة برلين الوطنية:

وهي نسخة جيدة واضحة ومقروءة، كتبت بخط نسخ معتاد. وتخلو من آثار الرطوبة أو الأرضَة. وتقع في ستين ورقة، مقاس الورقة فيها، كما بيّنه Ahlwardt في فهرسه لمخطوطات مكتبة برلين الوطنية (٢٣×٣/١٣٢ و٢/١٧١ × ٢/٧١ سنتمتيراً. ويبدأ المخطوط بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أظهر منا الجميل وستر القبيح...» (١ ب). ثم تأتي بنهاية الصفحة القصيدةُ الأولى وهي:

«بكيتُ لتغريدِ الحمائمِ في الفجرِ وبرّح بي وجدي وزايلني صبري»

وينتهي الديوان في الورقة ٦٠ ب بقوله: «وقد نجزت هذه النسخة على يد الفقير الحقير، المعترف بالعجز والتقصير، والمحتاج إلى عفو مولاه، الشيخ عبدالرحيم بن محجمد السلامي ثم الموصلي، غفر الله له ولوالديه، وأحسن إليهما وإليه، في يوم السبت رابع عشر جمادى الثانية سنة ثلاث وعشرين وألف من هجرة

من له في العز والشرف، ﷺ، وعلى آله الآيلين إليه، وأصحابه نجوم الهدى ومن تبعهم بإحسان على حز المدى، ما تعاقب الملوان، وكرّ الجديدان، والحمد لله رب العالمين».

والناسخ كما هو ثابت هو الشيخ عبدالرحيم بن محمد السلامي الموصلي أمّا سنة النسخ فقد ثبتت كما سلف سنة ١٠٢٣هـ. غير أنّ أن المحقق الكبير Ahlwardt أثبت خطأ ذلك التاريخ وأن تاريخ النسخ هو سنة ١٢٢٣هـ وليس سنة ١٠٢٣هـ، فلقد سقطت كلمة مائتين قبل كلمة الألف وبعد الثلاث وعشرين(٣).

ثالثاً: منهج التحقيق:

١ ـ لما كانت نسخة المؤلف الشاعر نفسه غير موجودة لدينا، ولما كانت الفروق تبين النسخ الثلاث بسيطة فقد قمت بقراءة النسخ الثلاث ومقابلتها ببعض واعتمدت أقرب الروايات إلى المعنى الذي يستقيم به البيت. ورمزت إلى نسخة عاشر أفندي بالحرف «ت» ونسخة دار الكتب الظاهرية بالحرف «ظ»، ونسخة مكتبة برلين الوطنية بالحرف «ب».

٢ ـ إثبات جميع الفروق في الحواشي، سواء الاختلاف في عدد الأبيات، أو ترتيبها، أو التغير في بعض الكلمات.

٣ ـ ضبط الكلمات لتسهل القراءة.

٤ ـ شرح معاني بعض الكلمات ليسهل المعنى.

---

(٣) انظر فهرس مخطوطات برلين للعلامة Ahlwardt: ٧ / ١٦١ ـ ١٦٢.

رابعاً القصائد العشر الطوال:

القصيدة الأولى(*)

وقال حفظه الله وتعالى:

١ - لِمَنْ طَلَلُلٌ بعد القطين تَغَيّرا عرفتُ به كُنْهَ الأسى إذْ تَنَكّرا

٢ - تَجُرُّ بِهِ هُوجُ الرّياحِ ذُيُولَها فأضْحَى كَجِسْمِي بَالياً مِثْلَ ما تَرَى

٣ - أحَقُّ من المقتولِ ظُلماً بِرَحْمَةٍ مَشوقٌ رأى ما هَاجَ مِنْهُ التَّذَكُرَا

٤ - وأعْذَرُ مَنْ قد مات غَمّاً وحسرةً مُحِبًّا رَأى رَبْعَ الأحبّةِ مُقْفِرَا

٥ - فيا دارَ أحبابي وإنْ هِجْتِ لِيْ الأسى سقاكِ فَرَوّاكِ السّحابُ مُبَكِّرَا

٦ - وَصَادِحَةٍ نـاحَتْ فهاجَتْ بـلابلي وأجْرى بُكاها دَمْعَ عينيَ أحْمَرَا

٧ - وأحْسَسْتُ في الأحشاءِ للوجدِ سَوْرَةً فَبِتُّ كَأَنَّ السُّمَّ في جَسَدِي سَرَى

٨ - تَسِيلُ جِراحِي كُلّما أظْلَمَ الدُّجى وَتَشْتَدُّ آلامي إذَا الصُّبْحُ أسْفَرَا

٩ - إذَا قُلْتُ: فَيْضُ الدّمعِ قد أطْفَأَ[1] الجوى تَصَاعَدُ أنفاسُ الأسى[2] فَتَسَعَّرَا

١٠ - وإنْ قُلْتُ غَاضَ الدّمعُ مما سَجَمْتُهُ تَـذكّرتُ أيـامَ اللِقـا فَتَفَجَّـرَا

١١ - ولو كانَ يُمْكِنُ الصّبرُ بعدَ أنْ نأوا كُنْتُ مِنْ غيري على الصّبرِ أقْدَرَا

١٢ - يَحُوْلُ الهوى بين المحبِّ وقلبِهِ وتفضحُهُ الأشْـواقُ مهمـا تَسَتَّـرَا

١٣ - فَمَنْ لِمُحِبٍّ أخْلَصَ الحبُّ سبكَهُ فأصبحَ شخصاً مِنْ غَرامٍ مُصَوَّرَا

١٤ - وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُمْ وقد ذُبْتُ حَسْرَةً سِوَاهُمْ وعَهْدِي بَعْدَهُم ما تَغَيَّرَا

١٥ - كأَنّ عُيوني ليس تُبْصِـرُ غَيْرَهُمْ ومـا خُلِقَتْ إلاّ لِتَبْكِي وأسْهَـرَا

(*) «ت» القصيدة رقم ١٨، عدد الأبيات ٢٠، الورقة رقم: ٩ أ- ٩ب.
«ظ» القصيدة رقم ٦، عدد الأبيات ٢٠، الورقة رقم: ٣ ب - ٤ أ.
«ب» القصيدة رقم ٦، عدد الأبيات ٢٠، الورقة رقم: ٣ ب - ٤ أ.

(١) كذا في «ب» و«ظ»، وفي «ت»: أبرد.

(٢) كذا في «ب» و«ظ» وفي «ت»: الجوى.

١٦ ـ وأفْدِي بروحي واهِنَ[٣] العهدِ مُدْنَفَ الـ ـجفونِ غضيضاً ساجِرَ الطّرْفِ أحْوَرَا
١٧ ـ إذَا ما رَمَى مِنْهُ المُريبُ بِنَظْرةٍ أذَاعَ مِنَ الأسرارِ ما كان مُضْمَرَا
١٨ ـ تَنَاسى غريباً كلما ذُكِرَ الحِمىٰ شَجَـا قَلْبَهُ تِـذْكَـارُهُ فَتَفَـطَّرَا
١٩ ـ عُذَيْرِيَ مِنْ طُولِ الحياةِ مع النّوى ومِنْ جَلَدٍ أوْدَىٰ وَصَبْرٍ تَعَذَّرَا[٤]
٢٠ ـ وكنتُ سعيداً لو يُعاجِلُنِي الرّدَى ولكنْ لأشْقَى بالحياةِ (كما تَرَى)[٥]

(٣) كذا في «ب» و«ظ»، وفي «ت» موهن.
(٤) كذا في «ت» و«ظ»، وفي «ب»: وصبرٍ تغيّرا.
(٥) في «ت» و«ظ» سقطت العبارة «كما ترى» وهي زيادة مني، وفي «ب» لم يرد الشرط الثاني بأكمله، وورد في الحاشية: كذا في الأصل ولعله «ولم يك عيشي بالفراق مكدّرا».

القصيدة الثانية(*)

وقال أيضا:

١ - لِمَنْ العيسُ تختفي وتبينُ ... تحتَ سترِ الدُّجى لَهُنَّ حَنينُ

٢ - قد تَعفَّتْ شُخوصُهُنَّ من الإدْ ... لاجِ حتى حِراكُهُنَّ سُكونُ

٣ - ولِمَنْ منزلٌ تَعَفَّتْ نواحِيه ... وأقوى إذْ بانَ عنهُ القطينُ

٤ - ظَلْتُ فيه أهيمُ شوقاً ووجداً ... وكأنِّي من حَيْرَتِي مسجونُ

٥ - وكأنَّ البُكا على العينِ فَرْضٌ ... أو على الرَّبعِ(١) للطَّلولِ ديونُ

٦ - أيُّها الركب حدِّثوني لعلَ الـ ... ـقلبَ يرتاحُ فالحديثُ شُجُونُ

٧ - واخبروني عن التجلُّد، والإلـ ... ـفِ طوتهُ الخطوبُ كيفَ يكونُ

٨ - ليتَ شِعري وللمُحِبِّ إدّكارٌ ... وحنينٌ وللعليلِ أنينُ

٩ - أَذَكَرْتُمْ صَبّاقُضِي في هواكمْ ... وهْوَ مُغْرىً بذكرِكُمْ مفتونُ

١٠ - أو تُرَى عهدنا بنعمانَ مَرْعيٌّ ... م وسرُّ المُحِبِّ(٢) الكريمِ مَصُونُ

١١ - يا سقى ذلك الجنابَ وعهداً ... قد تَقَضّى به سَحابٌ هَتُونُ

١٢ - لي إذا ما ذُكِرْتُمُ زَفَراتٌ ... ودُمُوعٌ عَمّا أُجِنُّ تَبِينُ

١٣ - إنّما الحُبُّ شَقْوَةٌ وعناءٌ ... وإذا ما أَلَحَّ فَهْو جُنُونُ

١٤ - فإذا كانَ فيهِ هَجْرٌ وصَدٌّ ... أو فِرَاقٌ يَطُولُ فَهْوَ المَنُونُ

١٥ - أرْتَجي من يَدِ الحِمامِ انفلاتاً ... وَهْوَ الشوقُ بالرّدى مَقْرُونُ

١٦ - سَكَنٌ نازحٌ وشوقٌ لَجوجٌ ... وهوى جامحٌ وصبرٌ حَرُونُ

١٧ - وسقامٌ بادٍ وداءٌ دَفِينٌ ... وفؤادٌ بالٍ وقلبٌ حزينُ

١٨ - وخُطُوبٌ تترى ودَهْرٌ على الأحرار ... قاسٍ وبالكرامِ ضَنِينُ

(*) «ت»: القصيدة رقم ٢٣، عدد الأبيات: ٢٥، الورقة رقم ١٤أ - ١٥أ.
«ظ»: القصيدة رقم ٨، عدد الأبيات: ٢٥، الورقة رقم ٤ب.
«ب»: القصيدة رقم ٨، عدد الأبيات: ٢٤، الورقة رقم ٤أ - ٤ب.

(١) كذا في «ت»، وفي «ب» و «ظ»: الدمع.

(٢) كذا في «ب» و «ظ»، وفي «ت»: المحب.

١٩ ـ لا تـلُمنـي عـلى مُـجـانبـةِ الـنـا س فَـعُـذْرِي في ذاك عُـذْرٌ مُـبِـيـنُ
٢٠ ـ رُبَّ خِـلٍّ قـد عِـفتُ لُـقيـاه إذْ أصـ ـبـحَ فـي وجـهِ وُدِّهِ تـلْويـنُ
٢١ ـ لا عـرانـي الـهـوانُ إنْ كـان عُـودي مـع مـا بِـي لـلغـامـزيـن يَـلِيـنُ[٣]
٢٢ ـ لا تسمني في مـطمـعٍ بَـذْلَ وجهي كُـلُّ صـعـبٍ سـواهُ عـنـدي يَـهُـونُ
٢٣ ـ تـكـتـفي الأنـفُس الأبـيـةُ بـالـقـو تِ إذا خَـانَـهَـا الـزمـانُ الـخـؤونُ
٢٤ ـ والـغِنى في الـقُنـوطِ مـن مَـدَدِ الـعـا لَـم والـفـقـرُ في الـرجـاءِ كَـمِـيـنُ
٢٥ ـ وإذا بِـعْـتَ مـاءَ وجـهِـكَ بـالـخُـلدِ لِـخـلـقٍ فـإنّـكَ الـمَـغْـبُـونُ

---

(٣) البيت سقط من «ب».

القصيدة الثالثة(*)

وقال أعلى الله قدره:

١ - لِمَن الدارُ أقْفَرَتْ بالمُصَلّى ... دَرَسَ الغيثُ رسمَها فاضمحَلّا

٢ - لا تلمنِي على الوقوف عليها ... ليس لومُ المُحِبِّ في ذاكَ عَذْلا

٣ - ومن الجهل أنْ تُعَنِّفَ مجبُو ... لاً(١) على الحبِ ليسَ يقبلُ عَذْلا

٤ - تلكَ دارُ الأحبابِ فاستوقف الركـ ... ـبَ المُجِدِّين ساعةً نتملّى

٥ - نتشاكَى وَجْداً ونسفحُ دمعاً ... ونُناجي رَبعاً وعصراً تَوَلّى

٦ - كيفَ أصبحتِ يا ديارُ وقد زا ... يلك الأُنسُ حينَ بانوا وولّى

٧ - وكأن الديارَ إذ فارقُوها ... زهرةٌ من لألىءِ الطلِّ عَطْلَى

٨ - كان فيها بَدْراً إذا ما تجلّى ... فالمُحبُّونَ بين صَرْعَى وقتلَى

٩ - حَجَبَتْهُ عن ناظري سُحُبُ البين ... وفي القلبِ والجوانح حَلّا

١٠ - عاطِني يا نديمُ كأسَ الأماني ... عَلّ هَمِّي بذلك الكأسِ يُجْلَى

١١ - أيُّها النازحُ الذي ليس يهوى ... غَيْرَهُ القلبُ في البريّةِ خِلّا

١٢ - كُلَّ يومٍ أقضي عليكَ حذاراً ... أن يَرَى مُبصرٌ لشخصكَ ظِلّا

١٣ - واشتياقي إليكَ في البُعدِ مثلُ الـ ... ـقرب نَارٌ بها الجوانِحُ تُصْلَى

(*) «ت»: القصيدة رقم ٧، عدد الأبيات ١٣، الورقة رقم ٥أ.
«ظ»: القصيدة رقم ١٦، عدد الأبيات ١٣، الورقة رقم ٧ب - ٨أ.
«ب»: القصيدة رقم ١٦، عدد الأبيات ١٣، الورقة رقم ٧أ - ٧ب.

(١) كذا في «ب» و «ظ»، وفي «ت» يُعنف مجبولا.

القصيدة الرابعة(*)

وقال أيضا:

١ - أَخْلَقَ الدارَ بالعقيق الدُّثورُ ... ومَحَت آيَهَا الصَّبَا والدَّبُورُ
٢ - أوْحشت بَعْد أهلِها فكأنْ لَمْ ... يَكُ في الدارِ زائرٌ ومزُورُ
٣ - ما بها غير أغبرَ أشعثَ الرأ ... س حبيس، على البِلى مَقْصُورُ
٤ - وأثَافٍ تحكِي قُلُوبَ المحبينَ ... م احتراقاً لكنّها لا تَطِيرُ
٥ - ونُؤىٍ تَسْفِي الرمالَ عليهنَّ ... م وُفُودُ الرياحِ وهي عُبُورُ
٦ - رَسَبَتْ في سَرابِها سفنُ العِيس[1] ... م من العِيِّ والسرابُ يَمُورُ
٧ - وكأنَّ المهامِهَ الفَيحَ طِرْسٌ ... وحُروفَ المطيِّ فيه سُطُورُ
٨ - جدَّد الوجدَ والحنينَ إدكارُ الـ ... عيش فيها وَرَبْعُها المَهْجُورُ
٩ - فَحَبَسْنَا فيها مَطِيّاً طَوْتها ... شُقَقُ البيدِ والفَلا المنشُورُ
١٠ - ووقفنا أنْضَاء وَجْدٍ وَوَخْدٍ ... فحنينٌ يَسْرِي[2] ودمعٌ غزيرُ
١١ - ما بقي منهمُ على شُعَبِ الأكوارِ ... إلّا دُمُوُعُهُم والزفيرُ
١٢ - وتعفَّت فليسَ يظهرُ للنّا ... ظرِ إلا قُتُودُها والسُّيُورُ
١٣ - عذلُوني على الوقوفِ أُناسٌ ... ما دروا أنّني بِهِ معذُورُ
١٤ - ما على الرّكب من وقوفي بدارٍ ... أنا فيها على فؤادي أدُورُ
١٥ - كان حظّي من المسرةِ فيها ... وافراً فالبكاءُ منّي يسيرُ
١٦ - ما وفوا بالعهودِ صَحْبي ومِثْلي ... لك يا دارُ بالوفاءِ جديرُ
١٧ - إن يكنْ فيكِ للهجير سُمُومٌ ... فبأحشائي للهُمُومِ سعيرُ
١٨ - إنّ هول[3] الفراقِ أفظعُ من كلِّ ... م مَهُولٍ ويَوْمُهُ قمطريرُ[4]

(*) «ت»: القصيدة رقم ٣٨، عدد الأبيات ٣٣، الورقة رقم ٢٧ب - ٢٨أ.
«ظ»: القصيدة رقم ٥٣، عدد الأبيات ٣٣، الورقة رقم ١٧أ - ١٧ب.
«ب»: القصيدة رقم ٥٣، عدد الأبيات ٣٣، الورقة رقم ١٦أ - ١٦ب.

(١) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: رسبت في رسابها تسبق العيس.

(٢) كذا في «ت»، وفي «ظ»: يثري، وفي «ب» يرى.

(٣) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» يوم الفراق.

(٤) كذا في «ظ»، و «ب»، وفي «ت»: قطمير. والقمطرير: الشاق.

١٩ ـ نَشَطوا للسُّرى فَحَثُّوا المطايا وفؤادِي مع الركاب أسيرُ[٥]
٢٠ ـ وأهابَ الحُداةُ بالعيسِ لكنّ م فؤادي مِن دُونِهَا المزجُورُ[٦]
٢١ ـ رحلوا سَحْرَةً ببدرِ تمامٍ في بروج الحُدوج أمْسَى يَسيرُ[٧]
٢٢ ـ إنَّني حاسدٌ لِعُودِ أراكٍ جَالَ في ثغرِهِ فأمسَى يُنيرُ
٢٣ ـ فهْو نشوانُ من لَمَاهُ وفيه من ثناياهُ بارقٌ وعبيرُ
٢٤ ـ ما كذا كان في عهودِكَ ظَنّي وعُهُودُ الظَّبي الغرير غُرُورُ
٢٥ ـ بَرَّحَ الحزنُ فَلْيُسَّر حَسُودي[٨] وافترقنا فَلْيَطْمَئِنَّ الغَيُورُ
٢٦ ـ سَكَنٌ نازحٌ وصَبْرٌ خؤونٌ وخَطُوبٌ مع الفِراقِ تَجُورُ
٢٧ ـ ما وَفَى لي بَعْدَ المدامع إلاّ ساجعاتٌ وُرْقٌ لهُنَّ هديَرُ
٢٨ ـ كُلَّمَا شَفَّنا الغرام[٩] فَنُحْنَا قيل: غَنَّوْا وأيْنَ مِنّا السُّرورُ
٢٩ ـ أوْجمتني الهمومُ بل أسكتتني فَبِنُطقِي عن البيانِ قصورُ
٣٠ ـ يا جُفوني تَكَلَّمِي بِدُمُوعي واشرَحِي بعضَ ما يُجِنُّ الضميرُ
٣١ ـ وأدِرْهَا عَلَيَّ عَلَّ هُمُومِي تَتَجَلَّى ساعةً بها يا مُديرُ
٣٢ ـ وأرو لي يا نسيمُ أخبارَ أحبا بِيَ سِرّاً وغَنِّني يا سميرُ
٣٣ ـ فلَعَلِّي أرتاحُ إنْ غِبْتَ عَنّي رَيْثَمَا ينقضي النوى[١٠] المقدورُ

(٥) كذا في «ت» و «ب»، وفي «ظ»: يسير.
(٦) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: مزجور.
(٧) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: يشير.
(٨) كذا في «ت» و «ب»، وفي «ظ»: حسود.
(٩) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: السقام.
(١٠) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: الهوى.

القصيدة الخامسة(*)

قال أيضا:

١ - قِفُوا بالنَّاجياتِ على زَرُودِ ... نُنَاجِ دوارسَ الدِمنِ الهُمُودِ

٢ - نُحَيِّي حِمَى زَرُودٍ بالقَوَافِي ... ونَبْكِ عليهِ بالدّمعِ البَديدِ

٣ - عفا أطْلالَها وَكْفُ الغوادي ... بِعَرْصتِهَا ودمدمةِ الرُّعودِ

٤ - تَعرّتْ من بشاشتِها فأضْحَى ... يَسُرُّ مُحولُها قلبَ الحسودِ

٥ - وأخْلَقَ ثوبُ جدّتِها وكانت ... مفوفةَ الدّرانِكِ والبُرودِ

٦ - وقد كانت تَهِشُّ لزائريها ... منازِلُها وتضحكُ للوفودِ

٧ - سقى أيّامنَا بزرودَ غيثٌ ... يجودُ مدى الزمانِ على زَرُودِ

٨ - ليالٍ باللِّقا بيضٌ أُعِيضَتْ ... بأيامٍ من التفريقِ سُودِ

٩ - وَلِي كبدٌ بذاكِ الجوِّ حَرَّى ... تلوبُ به مِن الظمأ الشديدِ

١٠ - وقلبٌ لا يُعَنَّفُ بالتّسلي ... ودمعٌ لا يُعَيّرُ بالجُمودِ

١١ - وَرَكْبٍ أدلجُوا والليلُ مُرْسٍ ... بكلكلِهِ على قلبٍ رَقُودِ(١)

١٢ - أبادُوا العيسَ ممّا كلّفُوها ... ذُؤُباً قطْعَ بيدٍ بَعْدَ بيدِ

١٣ - وما زالَ الهوى والشوقُ يسرى(٢) ... براكبِهِ إلى أمَدٍ بعيدِ

١٤ - إذا أنّوا مِن الأشواقِ أنّتْ ... مِن الجَهْدِ المُبَرّحِ والوخيدِ

١٥ - ترامى كالسهامِ(٣) بهم وتَرْمِي ... بخوصٍ عُيونِهِنّ إلى الوُرُودِ

١٦ - فقد ألقوا بها قطعَ الفيافي ... وقد مَرِنَتْ على حَزِّ القُتُودِ

١٧ - تشفّ جسومُهم من حَرٍّ وَجْدٍ ... ويبدو عَظْمُهُنّ من الجُلُودِ

(*) «ت»: القصيدة رقم ٣٥، عدد الأبيات ٥٢، الورقة رقم ٢٤أ - ٢٥أ.

«ظ»: القيدة رقم ٥٩، عدد الأبيات ٥٣، الورقة رقم ٢٠أ - ٢١أ.

«ب»: القصيدة رقم ٥٩، عدد الأبيات ٥٣، الورقة رقم ١٩أ - ٢٠أ.

(١) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: وركب أولجو والليل مرسٍ: بكلكله على قب قتود.

(٢) كذا في «ت» و «ظ»، وفي «ب»: يرمي.

(٣) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: بالسهام.

١٨ ـ إلى أنْ ثـار جيش الصبـح يسـطو	علـى الـظلمـاء[٤] خَفَّـاقَ البُنُـودِ
١٩ ـ فَكَفُّـوا الـزجـرَ عن عيس تـفـانت	وخـرّوا كـالسجـودِ على الصعيـدِ
٢٠ ـ فـرُحتُ أُسائِـلُ الـركبـانَ عَن مَن	أضـاعُـوني ولم يَـرعـوْا عُـهُـودي
٢٢ ـ وألـصِقُ بـالثَّـرَى كَبِـدي عسـاهُ	يَـخِـفُّ بِـبَـرْدِهِ بـعضُ الـوُقـودِ
٢٢ ـ وأسـفـحُ دَمْـعَ مُشتـاقٍ عَـمـيـدٍ	إلى سَكَـنٍ نَـأى عَنّي[٥] فَـقـيـدِ
٢٣ ـ دموعـاً بـالجَوَى والـوجـدِ أضحتْ	شُهـوداً[٦] لا تُقَـابَـلُ بـالجُحُـودِ
٢٤ ـ فَـذُبْ يـا قـلبُ أشـواقـاً وَهَـمّـاً	ويـا طـرفـي تَسَـلَّ عـن الـجُـهـودِ
٢٥ ـ وشعـرٍ حُكْتُـهُ مِن نَسـجِ فِكْـرِي	بُـروداً مـثـلَ دِيـبـاجِ الـخُـدودِ
٢٦ ـ مـعـانٍ مثـلُ معسـولِ الامـانـي	وأشْـهـى مـن رِضـابِ فَـمٍ بَـرُودِ
٢٧ ـ وألـفـاظٍ عـذابٍ رائـقـاتٍ	تـروقُ بـحسـنِهـا دُرَّ الـعُـقـودِ
٢٨ ـ كمـا جَمَـعَ الهـوى مِن بَعْدِ شـوقٍ	يُـذيـبُ النَّفسَ بين فَمٍ وجِيـدِ[٧]
٢٩ ـ شكـوتُ بهـا هـوى ظبيٍ غـريـرٍ	يُـعـذِّبُـنـي بـهـجـرٍ أو صُـدُودِ
٣٠ ـ فـليس لـه مـن الإعـراضِ بُـدٌّ	ومـا[٨] عـن هـواهُ مِـن مَـحِـيـدِ
٣١ ـ إذا أحـيـا بـمـنـطِقِـهِ فـؤادي	أذابَ الـنَّفْسَ بـالـصـدِّ الـمُـبِـيـدِ
٣٢ ـ أخـذتُ السِّحـرَ عـن عينيـهِ حتى	طبعتُ السِّحـرَ نـظمـاً كـالفَـريـدِ
٣٣ ـ قـوافٍ مثلَ مـا سقـطتْ دمـوعُ الـ	نَـدَى وَهـنـاً على الـروضِ المَجُـودِ
٣٤ ـ تـميـلُ بـكـلِّ معنى[٩] مـسـتـقـيـمٍ	وتُـطْرِبُ كـلَّ مِـفْـضـالٍ مَـجـيـدِ

---

(٤) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: البيداء.

(٥) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب»: عنه.

(٦) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: دموع . . وشهود بالرفع.

(٧) في «ت»: خلط بين الأبيات الثلاثة فجاءت الرواية كما يلي في بيتين:

مـعـاني مـثـل معـسـول الامـانـي	تـروق بـحـسـنـهـا در الـعـقـود
والـفـاظ عـذاب رائـعـات	يـذيـب الـنـفس بـيـن فـم وجـيـد

وما أُثبِتَ فمن «ظ» و «ب».

(٨) كذا في «ت»، وفي «ب»: ولا لي.

(٩) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب»: طبع.

٣٥ - إذا أنـشـدتُـهُـنَّ أدرتُ راحـاً وقـالَ الـدهـرُ لي: هـل مِن مـزيـدِ
٣٦ - رَمَـى كَبِـدِي بـثـالـثـةِ الأثـافـي زمـانٌ حُـكْـمُـهُ حُـكْـمُ الـولـيـدِ
٣٧ - زمـانٌ أخْـرَقٌ قـد راحَ سُـكـرًا يَـجُـرُّ ذيـولَ جَـبَّـارٍ عَـنـيـدِ
٣٨ - يُـريـكَ البـازَ من خَـدَمِ الحُبَـارَى وأسْـدَ الغـابِ مِن خَـوَلِ الـقُـرودِ
٣٩ - وأجـدلُ مَـرْقَـفٍ بِـمْـسِـي غـرابٌ يـهـددهُ بـأنـواعِ الـوَعـيـدِ
٤٠ - وأيـامٌ غِـضَـابٌ لا لِـجُـرْمٍ على الأحـرار[١٠] معلنـةُ الحُـقـودِ
٤١ - دعـا داعي الحِـمـامِ بِغُـرِّ قـومي فـوَافَـوْهُ عـلى خيـلِ الـبـريـدِ
٤٢ - وأوْدعـهـم لُـحُـوداً بَـلْ جُـفُـونـاً كـذا الأسيـافُ تـودَعُ في الـغُـمـودِ
٤٣ - فـلا زالتْ جفـونُ الـسُّحْـبِ تَهْـمِي عـلى تلكَ الـصـفـائـحِ والـلُّحـودِ
٤٤ - مـضـوا وبقيتُ بـعـدَهُـمُ فـريـداً أُقـاسـي وحشـةَ الـفـردِ الـوحيـدِ
٤٥ - أرى عـاراً وقـد أوْدُوا حـيـاتـي فـآنَـفُ مِنْ بـقـائـي ومِـن وجـودِي
٤٦ - أُكـفـكـفُ كـلّمـا ذُكِـرُوا دُمـوعـي فتعـصيـنـي وتـأبـى غـيـرَ جـودِي
٤٧ - تـرامـى همَّتي بـي كـل مـرمى وأرسـفُ مـن هـمـومـي فـي قُـيـودِ
٤٨ - وأطـوى أضلعـاً مُلِئَتْ ضـرامـا[١١] لـتـقـصـيـري عـلى نَـفَسٍ مَـديـدِ
٤٩ - أُغَـلّ بـآجِـنٍ رَنـقٍ وأمْـري عـفـافـهُ بُـلغـة دون الـزّهـيـدِ
٥٠ - تَـرَفَّـقْ يـا زمـانُ فـمـا فُـؤادي بِـصَـلْدٍ لا يـلـيـنُ ولا جـلـيـدِ
٥١ - ولـيسَ القـلبُ مِـن حَـجَـرٍ فيـبـقى عـلى هـذا ولا أنـا مِـن حـديـدِ
٥٢ - رُويـداً لا تُـحـاولْ مـاءَ وجـهـي وهـاكَ إن اشـتـهـيتَ دَمَ الـوريـدِ
٥٣ - ولا تحسبْ حيـاتي فيـك[١٢] مَـنّـاً فـإنّـي لـستُ أرغـبُ فـي الـخـلودِ

(١٠) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب»: الايام.
(١١) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب»: غراما.
(١٢) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: منك.

القصيدة السادسة(*)

وقال أيضاً:

١ ـ طَللٌ عكفتُ عليه بالٍ ... قَفْرٌ من الأحبابِ خالِ
٢ ـ فبكيتُ رسماً قد مَحَا ... ه جَرُّ أذيالِ الشَّمالِ
٣ ـ مازلتُ أبكي رَسمَهُ ... وعُهُودَهُ حتى بَكَى لي
٤ ـ ياجيرةً زالوا وما ... مَنُّوا عليَّ مع الزَّوالِ
٥ ـ وتقسّمت أحشاءَ[1] قلبي ... بعدهم أيدي الخبالِ
٦ ـ منعوا الرُّقادَ ولو بِهِ ... سمحوا لضنُّوا بالخيالِ
٧ ـ أفنى تحملهم غَدا ... ةَ البينِ صبري واحتمالي[2]
٨ ـ كيف احتيالي والزما ... نُ مُعانِدي كيف احتيالي
٩ ـ أتراهُمُ قسموا الليا ... لي بين حِلٍّ وارتحالِ
١٠ ـ قالوا الرحيلَ فعانقتْ ... نفسي الرَّدى قَبْل الزِّيالِ
١١ ـ طارتْ شَعَاعاً عندما ... طاروا إلى شُعَبِ الرحالِ
١٢ ـ وغدتْ تَخُبُّ بهم نوا ... جي العِيس في البِيدِ الخوالي
١٣ ـ فكأنَّما بيضُ الهوا ... دجِ فوقَ أدراجِ الرِّمالِ
١٤ ـ تطفو وترسبُ في بِحا ... رِ الآلِ أصدافُ اللآلي
١٥ ـ وبقيتُ أسألَ عنهمُ الـ ... ـركبان لو أغْنَى سُؤالي
١٦ ـ وأنا الفداءُ لِمَنْ نَأى ... متسلياً عن غير سالِ
١٧ ـ قد غابَ عن نظري مغيـ ... ـب البدرِ عن سَدَفِ[3] الليالي

(*) «ت»: القصيدة رقم ٢١، عدد الأبيات ٤١، الورقة ١١ب ـ ١٢ب.
«ظ» القصيدة رقم ٦٠، عدد الأبيات ٤١، الورقة ٢١أ ـ ٢٢أ.
«ب» القصيدة رقم ٦٠، عدد الأبيات ٤١، الورقة ٢٠ أ ـ ٢٠ب.
(١) كذا في «ت» و«ظ»، وفي «ب»: أعشار.
(٢) كذا ترتيب الأبيات في «ظ» و«ب»، وفي «ت» أتى البيت السادس بعد السابع.
(٣) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت»: شرف.

١٨ ـ فالدمعُ مني في انهما ل ٍ والجوانحُ في اشتعالِ
١٩ ـ بِأبي حبيبٌ لا يَمَلُّ من التَّجني والمَلالِ
٢٠ ـ ما للمتيمِ في هوا هُ(٥) سوى التجنبِ والمِطالِ
٢١ ـ يحكيه بَدرُ التمِ لا في الحسن بل بُعْد المَنالِ(٦)
٢٢ ـ يهتزُّ كالمُرَّانِ من خمرِ الشبيبةِ والدَّلالِ
٢٣ ـ فيشُكُّ حباتِ القلو بِ بمثلِ أطرافِ العوالي
٢٤ ـ يا بدرَ آفاق الجما ل وعينَ أربابِ الكمالِ
٢٥ ـ هَلَّا رثيتَ(٧) لسوءِ حا لي في الهوى وكسوفِ حالي(٨)
٢٦ ـ ورَحِمْتَ مهجةَ ناحلٍ متوقِّدِ الأحشاءِ صالِ
٢٧ ـ صادٍ إلى رؤياك يكـ ـرعُ من حياضِ الموتِ بالِ
٢٨ ـ عَفِّ السرائرِ رَاحَ ير ضى وِصالِك(٩) بالمحالِ
٢٩ ـ وَلِعَ السقامُ بجسمه وَلَعَ العواذلِ بالجِدَالِ
٣٠ ـ يامن بذلت له حيا تي وهو يبخُلُ بالوصالِ
٣١ ـ وتسيل نفسي من لوا حظه على حَدِّ النِصالِ
٣٢ ـ أأرى حِمامي كامِناً في مُقلتيك فلا أُبالي
٣٣ ـ وتُراعُ إنْ سرَّحت طر فيَ منك في روضِ الجمالِ
٣٤ ـ مولاي إنّي حامِدُ لك شاكرٌ في كلِّ حالِ
٣٥ ـ وحي اللواحِظِ منك أو قَضَى على السحر الحلالِ
٣٦ ـ فطبعتُهُ شعراً يرو قُ عقولَ أمجادِ الرِّجالِ

(٤) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت»: والجوارح.
(٥) الهاء في «هواه» ساقطة من «ت».
(٦) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت» لا بَعد المنال.
(٧) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت»: رأيت.
(٨) كذا في «ت». وفي «ظ» بالي، وفي «ب»: مالي.
(٩) كذا في «ت»، وفي «ظ» و«ب»: من خيالك.

٣٧ - ونظمته غَزَلاً يُغيرُ م عقودَ رباتِ الحِجالِ
٣٨ - ووصفتُ مَبْسَمَك الشَّهِيَّ م بمثلِ أبكارِ الّلآلي
٣٩ - ووصفت عارِضَكَ الصَّقَيلَ م مِن النعيم بلا صقالِ
٤٠ - ببدائعٍ معسولةٍ أصفى مِن الماءِ الزُّلالِ
٤١ - فلذاك أصبح مثل وجهك في الوجوه بِلا مثالِ

القصيدة السابعة(*)

١ ـ تَعَفَّىٰ العَقيقُ وكُثبانُه وأوحَشَ إذْ بانَ سكّانُهُ
٢ ـ تنكّر لِلعينِ معروفُه ولم يَفُتِ القلبَ عِرْفانُه
٣ ـ وجارتْ عليهِ صُروفُ الزما نِ حين تَرحَّلَ جيرانُه
٤ ـ رميتُ العقيقَ بطَرْفٍ تَجُودُ به في المنازلِ أجفانُه
٥ ـ فما زِلْتُ أبكي به الظاعنينَ حتّى ارتَوَى مِنه حِرّانُه
٦ ـ وغَازرْتُ بالدمع وَكْفَ الغَمَام فلم يَغْلِب الدَّمْعَ هَتّانُه
٧ ـ ومِمّا شَجانِيَ بعد الفراقَ وقد تَقْتُل الصَبَّ أشجانُه
٨ ـ حَمَامٌ ينوحُ فَيُبْكِي العيون ويَشْدُو فيهفُو به بانُه
٩ ـ يُبِينُ عن الشوق إعجامُه فَتُعْرِبُ باللَّحْنِ ألحانُه
١٠ ـ تكادُ من الشوقِ نفسيَ تفِيضَ إذا ما تَرَنَّمَ مِرْنَانُه
١١ ـ بِلَيْلٍ تَسُلُّ على مُهْجتي صِفاحاً من البَرْاقِ أجْفَانُه
١٢ ـ وقَفْرٍ تُغَنّي به جِنُّه وَتَرْقُصُ بالآلِ قِيْعانُه
١٣ ـ إذا ما عَوَىٰ الذئبُ مِنْ جَهْدِهِ بِه ذُعِرَتْ منه ظِلْمانُه
١٤ ـ تَضِلُّ القَطَاةُ به وِرْدَها ولا تَهْتدي قَصْدَها جانُه
١٥ ـ إذا راح يَنْفُخُ فيه الهجيرُ خَرَّ من الصَّعْقِ شيطانُه
١٦ ـ وذابتْ صُمُّ أحجارِه فَعَزٌّ على الريحِ ايطانُه
١٧ ـ ترفع شاهِق أعلامِهِ فجاورت الشهبَ أركانُه
١٨ ـ ودانَىٰ السماءَ إلى أنْ غدا يُناجي بها النَّسْرَ سِرْحانه
١٩ ـ تَرَآىٰ لعيني رَكْبٌ به تَهَاوىٰ من الجَهْدِ رُكْبانُه
٢٠ ـ تعجبَ مِنْ طَيَرَانِ المطيِ بهم كالأجادلِ عقبانُه

(*) «ت»: القصيدة رقم ٢٢، عدد الأبيات ٦٠، الورقة رقم ١٢ب ـ ١٤أ.
«ظ»: القصيدة رقم ٦١، عدد الأبيات ٦١، الورقة رقم ٢٢ أ ـ ٢٣ أ.
«ب»: القصيدة رقم ٦١، عدد الأبيات ٦١، الورقة رقم ٢٠ب ـ ٢١ب.

٢١ ـ فَـرُحْـت أسـائـلهـم أيـنَ حـلَّ م ذاكَ الـفـريـقُ ومـا شـانُـه
٢٢ ـ قـالـوا نَـعَـمْ قـد رأيـنـا الـغَـدَاة فـريـقـاً تُـحَـمِّـلُ أظْـعـانُـه
٢٣ ـ تَـخُـوضُ حَشَـا الليـلِ رُكْبـانُـه وَتَـدَّرعُ الـنَّـقْـعَ فُـرْسـانُـه
٢٤ ـ تـنـادى مـن الـصـبـحِ آسـادُهُ فـتـزأى وتَـبْـغُـمُ غِـزْلانُـه
٢٥ ـ وفي الـظَّعْنَ كـلُّ مَصُـوْنِ الجَمَـا ل حَظُّ مُـعَـنَّـاهُ حـرمـانُـه
٢٦ ـ تُـعَـطِّرُ أنفـاسُـه الـخـافـقـيـنِ وَتَـنْـفَـحُ بـالـمِـسْـكِ أردانُـه
٢٧ ـ مَـلِيءُ الـمُـخَـلْخَـلِ ريَّـانُـه هـضـيـم الـمـوشـح ظـمـآنُـه
٢٨ ـ يَـهُـزُّ وَشيـكَ الـقَـضَـا سيـفُـه إذا مـا تَـنَـمَّـر غَـيْـرانُـه
٢٩ ـ وَيَـرْتـابُ مِنْ خَـطَراتِ النَّسِيمِ فـلا يـمـكـن الـريـحَ غِـشْـيـانُـه
٣٠ ـ وبـي مَـنْ يُـعَـذِّبـنـي ذِكْـرُه ولا يـمـكـن الـقَـلْبَ نـسـيـانُـه
٣١ ـ أبيتُ على الجَمْـرِ شـوقـاً إليـه تُـمَـزِّقُ قَـلْبِـي أحـزانُـه
٣٢ ـ ويـبـدو مـع الصبـح ليـلُ الهمـوم وتُـسْـجَـرُ فـي الـصَّـدْرِ نـيـرانُـه
٣٣ ـ إلـى كـم أحَـاوِلُ كَـتْـمَ الـهـوىٰ ولا يـمـكـن الـدمـعِ كـتـمـانُـه
٣٤ ـ إذا غَـلَّبَ الـشـوقُ قَـلْبَ الـفـتـى فـكـتـمـانُـه الـحُـبَّ إعـلانـه
٣٥ ـ ومـا حيلتِي في الـهـوىٰ والـهـوى يـجـور عـلى الـنـفس سـلطانُـه
٣٦ ـ وكـلُّ الـجـوارحِ مِـنِّـي عـلـيَّ ـ ولاسـيـمـا الـقَـلْبَ ـ أعـوانُـه
٣٧ ـ وأعـوانُ مِـثْـلِي عـلى مـثـلـه بـمـا حـكـمِ الـحـبَّ خَـوَّانُـه
٣٨ ـ ألا لـيـتَ قَـلْبي يُـطِـيـعُ الـرَّشـا د فـقـد أتْـلَفَ الـنَّـفْسَ عِـصْـيـانُـه
٣٩ ـ تَـضـيـقُ بـه الأرضُ مـن هـمِّـهِ عـلـى أنَّ صـدري مـيـدانُـه
٤٠ ـ أزالَ الـتَّـغـربُ سـكـر الـشـبـا بِ عـنِّـي فـودّع ريـعـانُـه
٤١ ـ ولـمـا أراق الـنـوى راحَـهُ عـلى الـبـيـنِ صَـوّح ريـحـانُـه
٤٢ ـ ودهـرٍ يـخـادعُ مـسـتـلـئِـمـاً لـه، قَـتَـلَ الـشَّـكُّ إيـقـانُـه
٤٣ ـ زمـانٍ لأحـرارِهِ لـم يـزلْ عـدواً تَـوقّـدُ أضـغـانُـه
٤٤ ـ تَـمَـلأ مـن سـكـرِهِ صـرفُـهُ فـلا يـعـرفُ الصّحـوَ سكـرانُـه
٤٥ ـ ولـي هـمـةٌ لا تـزالُ تـتـوقُ إلـى مـطلبٍ عَـزَّ إمـكـانُـه

٤٦ ـ وقلبٌ يفارقُ جُثمانَهُ إذا سامَهُ الذلَّ جُثمانُه
٤٧ ـ ونفسٌ تعافُ دنيء الورودِ وإنْ أفعمت منه غُدرانه[1]
٤٨ ـ ولا يزدهيها به[2] زُخرفٌ وإنْ راقتْ الطّرف ألوانُه
٤٩ ـ ألا كلُّ شيءٍ تراه العيو نُ زورٌ يَغُرُّكَ عنوانُه
٥٠ ـ وما كان زوراً فلابد أنْ يحولُ ويمحوهُ بُطلانُه
٥١ ـ فلا تَهْوَ مادُمْتَ فوقَ التُّرا بِ شيئاً يسؤكَ فُقْدانُه
٥٢ ـ ألا أينَ عادٌ وبنيانُهُ وأيْنَ السَّديرُ ونعمانُه
٥٣ ـ ألا أيْنَ قارونُ أو ما حَوَتْ خوائِنُهُ، أين خُزّانُه[3]
٥٤ ـ وأيْنَ الذي شَيّدَ الصرحَ كي ينال السماءَ وهامانُه
٥٥ ـ وأيْنَ البساطُ متون الرِّيا حِ تحمله وسليمانُه
٥٦ ـ وأيْنَ ثمودُ وأيْنَ الجُنو دُ بل أيْنَ كِسرى وإيوانُه
٥٧ ـ وأيْنَ الوليدُ وأيْنَ يزيدُ وأيْنَ الغريضُ وألحانُه
٥٨ ـ وأيْنَ الرشيدُ واسحاقُهُ وأيْنُ الأمينُ وندمانُه
٥٩ ـ مَضَوا وسنفنى على إثرهم ويفنى الوجودُ وأزمانُه
٦٠ ـ وسوف نُعادُ ليوم المعادِ ويبلو السرائرَ ديّانُه
٦١ ـ فما ينفعُ المرءَ ما حازه بلى ينفعُ المرءَ إحسانُه

---

(١) كذا في «ب» و«ظ» وفي «ت» «غوارنه».

(٢) كذا «ظ»، وفي «ت»: بها.

(٣) ثبت البيت رقم ٥٣ في النسختين «ظ» و«ب» وسقط من ت.

القصيدة الثامنة

وقال أيضا:

١ - مَنْ لنفسٍ طـال في الحبّ عَنـاهـا ... لم يدعْ منها الهوى إلاّ ذَماها[1]

٢ - أشربُ الدّمعَ ليُطفي حرَّها ... نَفَدَ الدمعَ وما بَلَّ صدَاها

٣ - إنْ تكنْ هانتْ على مُتلفها ... فلقد عَزَّ دواها وعزاها

٤ - وطلولٍ باللِوىٰ باليةٍ ... جدّد البلوى وما رثّتْ بَلاها

٥ - لم يزلْ يبكي على أياتِها ... واكفُ مُنْسَرِبُ حتى مَحاها

٦ - وبكت أجفانُ عيني رَسمَها ... قبلَ أن جفّت فَمَوّهْتُ ثَراها

٧ - سحبت ريح النُعامى[2] ذيلَها ... في رُباها فلذا طاب شذاها

٨ - أنفذت عيني دمعي ودمي ... وأراقت في البُكا حتى كراها

٩ - مَنْ مُعيري مقلةً أبكي بها ... فعسى يرتاحُ قلبي ببكاها

١٠ - لو رأى المحزونُ يوماً مقلةً ... للبكا تُشرى بمالٍ لاشْتراها

١١ - لا يجفُّ الدمعُ من أجفانِ ذي ... شجنٍ إلاّ إذا الحزنُ تناهى

١٢ - لِمَنْ العيسُ بوادي المُنحنى ... كالحنايا شَفَّها جذبُ بُراها

١٣ - سُمّهَا[3] داميةٌ أخفافُها ... أسْهُماً لكنه الوخد[4] براها

١٤ - لمْ تزل تقطعُ أجوازَ الفَلا ... بالسُّرَى حتى طوته وطواها

١٥ - رُزَّماً كانت إذا سابَقَها ... موشكُ البَرقِ شأته[5] وتلاها

(*) «ت»: القصيدة رقم ٢٨، عدد الأبيان ٣٣، الورقة رقم ١٧أ - ١٧ب.
«ظ»: القصيدة رقم ٦٦، عدد الأبيات ٣٣، الورقة رقم ٢٥أ - ٢٥ب.
«ب»: القصيدة رقم ٦٦، عدد الأبيات ٣٣، الورقة رقم ٢٣ب - ٢٤أ.

(١) والذّماء بقية النَفَس.

(٢) النُعامي ريح الجنوب.

(٣) سُمها أي تجرى جريانا لا يعرف الإعياء من سَمَه أي جرى لا يعرف الاعياء فهو سامِهٌ وهي رواية «ت»، وفي «ظ» سهماً، وفي «ب» اسهماً.

(٤) من أنواع المسير.

(٥) شأته تجاوزته.

١٦ - وهـي الـيـومَ إذا مـا زُجِـرَتْ تـتـرامى وقــدا لِـفَـتْـرِ[٦] خُـطـاهـا
١٧ - ضَـحِـكَ البـرقُ عـليهـا شـامتـاً فـبكتْ من عَـيِّهـا حتى بكـاهـا
١٨ - وكـذا الـدهـرُ وشـيـكٌ غـدرُهُ مـا رأى ذا عـزةٍ إلا نَـفَـاهـا
١٩ - حَـمَـلَتْ أنـضـاءَ شِـوْقٍ جـعـلوا وِرْدَهـا مِنْ دمعهم عـنـد ظُمـاهـا
٢٠ - كُـلَّمـا أنَّتْ مِنْ الـوجْـد اشتكى ألَـمَ الـوجـدِ إليـهـا حـاديـاهـا
٢١ - أيُّهـا الـرّكبُ قفـوا لـي تُـؤْجـرُوا بـتـلافي مـهجـةٍ[٧] قـبـل فنـاهـا
٢٢ - بـالـذي قـدَّرَ أنْ تِـودي بِـنَـا فُـرقـةُ الأحبـابِ لَمَّـا أن قضـاهـا
٢٣ - هـل لـكـم عـلمٌ بـسـكـانِ اللوى أيَّ أرضٍ نـزلـوا منهـا حِـمَـاهـا
٢٤ - كُـلُّ أرضٍ نـزلـوهـا صَـيَّـروا تُـرْبَهـا مِسْكـاً وكـافـوراً حصاهـا
٢٥ - رحـلوا لـيـلاً وفـي أظـعـانـهـم شمسُ حُسْنٍ ليسَ يغشاهـا دُجَـاهـا
٢٦ - أيَّ حـيـنٍ طـالـعـت غُـرَّتُـهُ آيـةَ اللـيـلِ مَحَـتْـهَـا بِسَنَـاهـا
٢٧ - لـو رأتْـهُ الـقـاصـراتُ العينُ مـا قَصَّـرَتْ عن قُـرْبِـهِ يومـاً مُنـاهـا
٢٨ - ذوي عُـيـونٍ كُـلُّ مَـنْ أبْـصـرهـا قـال مِـنْ سـاعتـه: يـا قـلبُ آهـا
٢٩ - يَـسْتَـقِـلُّ السحـرَ أنْ يُعـزى إلى طـرفِها شخصٌ رأى شخصـاً رآهـا
٣٠ - حـاجـةٌ في نفس يعقـوب الأسـى لـو يجود الـدَّهرُ يـومـاً لقضـاهـا
٣١ - وهـي إنْ كـان رَدَاه بـالـهـوى فـليكـن قـاتِـلُهُ حَـدُّ ظُـبَـاهـا
٣٢ - أنِـفَـتْ نـفـس حـيـاتـي بـعـدَهُ وحشةً يـا ويحهـا مَنْ ذا[٨] دهـاهـا
٣٣ - فـارقـتْ لا عـن تَـقَـالٍ إلْـفَـهَـا فَـرَأتْ مِنْ بـعـدِهِ عـاراً بـقـاهـا

(٦) كذا في «ت»، وفي «ب» و «ظ»: قدر الفتر.
(٧) كذا في «ظ» وفي «ب»، وفي «ت» وتلافي مهجتي.
(٨) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب» ماذا.

القصيدة التاسعة(*)

وقال أيضاً:

١ ـ لِمَنْ طللٌ بالجزع قفر جوانبُهْ مَحَتْ رسمَهُ محو اصطباري جنائِبُه

٢ ـ وقُوِّضَ عنه إنْسُهُ عندما خلت نواحيه مِن آرامِهِ وملاعبُهْ

٣ ـ عكفتُ عليه بعدما اسودَّ جوُّه وقد أُفِلَتْ أقمارُهُ وكواكبُهْ

٤ ـ كأنَّ السُّها والقطبَ فيه مطيَّتي ودمعيَ غيثٌ والجفونُ سحائبُهْ

٥ ـ فما زِلْتُ أبكيه وأبكي عُهُودَهُ إلى أنْ بكاني وحشُهُ وسباسِبُهْ

٦ ـ تَحَدَّثَ دمعي بالعقيقِ بما جرى وخَطَّ به الشكوى فأفصحَ كاتبُهْ

٧ ـ وسال بأعناقِ البطاحِ حديثُهُ وقد كان لا يذريه في الخَطْبِ صاحبُهْ

٨ ـ فلانت به صُمُّ الحصى لِشِكايتي وما لان خَطْبٌ من زمانٍ أُخاطبُهْ

٩ ـ وزايلني صبري وكان مصاحبي ويا رُبَّ مصحوبٍ تُذَمُّ عواقبُهْ

١٠ ـ فقلت له: بِنْ مثلي قلبي غادياً[١] فقد خانني قلبي ولست أعاتبُهْ[٢]

١١ ـ وقبلكما[٣] قد خان أُنسي وراحتي وأنْكَرَ جِفني الغَمْضَ فهو مُجانبُهْ

١٢ ـ وعوَّلتُ في أمري على دمعِ مُقلةٍ تفيضُ مجاريهِ وتَدْمي مساكبُه

١٣ ـ ولم يُطفِ لي دمعي غليلاً[٤] وإنّما يُبَرِّدُ حَرَّ الرملِ حوليَ ساكبُهْ

١٤ ـ ولَمْ أنْسَهم والعيس تَحْدَجُ[٥] للنوى وقد نعبت عند الفراق نواعبُهْ

١٥ ـ وراحوا يحثّونَ الركابَ على السُّرى[٦] وركب نجوم الأفق تَسرى ركائبُهْ

(*) «ت»: قصيدة رقم ٣٦، عدد الأبيات ٤١، الورقة رقم ٢٥أ ـ ٢٦أ.

«ظ»: قصيدة رقم ٧١، عدد الأبيات ٤١، الورقة رقم ٢٨أ ـ ٢٨ب.

«ب»: قصيدة رقم ٧١، عدد الأبيات ٤١، الورقة رقم ٢٦أ ـ ٢٧أ.

(١) كذا في «ب»، وفي «ت»: فقلت له من مثلي قلبي غادرا. وفي «ظ»: فقلت له بن مثل قلبي غادرا.

(٢) كذا في «ت»، وفي «ظ» و «ب»: أعاقبه.

(٣) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» مثلكما.

(٤) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: «ولم يَطْفِ لي دَمْعاً غليلي».

(٥) الحدج هو شد الحدج على البعير.

(٦) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» الثري. والسُّرى السير ليلا.

١٦ - وقد غربت أكوارُها في غواربٍ[٧] ... تسيلُ نجيعاً والنسوع مساربُه

١٧ - فلله ركب تمتطي منه نُجْبُهُ ... وتجنبُ فيه للهياج جنائبُهْ

١٨ - يشيمون[٨] برقا بالغضا متألقا ... تَحِنُّ له أنجابه ونجائبُهْ[٩]

١٩ - فَيَصْهَلُ عُنْجُوجٌ[١٠] ويزأرُ ضيغمٌ ... وَيبغُمُ ظبيٌ ناصَبَ العيسَ ناصِبُهْ

٢٠ - وفي الركب ظبيٌ في الأكلة مخدرٌ ... عوارِضُهُ مصقولةٌ وترائِبُهْ

٢١ - يُعَنِّفُ لاحي[١١] مَنْ يهيمُ بحبِهِ ... ويُمَدِّحُ مُطريهِ ويَأْثُمُ عائِبُهْ

٢٢ - ويُلقي سِجِلُّ الذنبِ كاتبُ صبه ... وَيْعجِزُ عن إحصاءِ قتلاه حاسِبُهْ[١٢]

٢٣ - إذا ما رمى منه خلياً بنظرةٍ ... يُخالسها الواشينَ ضاقت مذاهِبُهْ

٢٤ - وتَعْلَقُ الأطماعُ منه بوصلِهِ ... أيطمعُ في البدرِ التمامِ مراقِبُهْ

٢٥ - ودون حماه كلُّ أسمرَ ذابلٍ ... وعضبٍ جُرازٍ لا تكِلُّ مضارِبُهْ

٢٦ - وغيران إنْ مرّت به الريحُ رابَهُ ... شذاها وعنّاه من الظن كاذِبُهْ

٢٧ - فينظر عن جمرٍ يطير شَرارُهْ ... ويزورُّ منه لحظُهُ ومناكِبُهْ

٢٨ - فلا تلحني إن همت[١٣] شوقا وحسرة ... فإنّ اشتياق المرء لا شك غالبُه

٢٩ - سَقَتْ سارياتُ المزن ما انهلَّ ودقُها ... مِنْ الشام رَبْعاً لا بأمري أجانِبُهْ

٣٠ - سأبكي على عصرٍ حميدٍ مضى بِهِ ... بجفنٍ قريحٍ ما تَغِبُّ سوارِبُهُ

٣١ - فيا رُبَّ عيشٍ مَرَّ لي فيه ناعماً ... رقيقِ حواشي البُرْدِ عَذْبٍ مشارِبُهْ

٣٢ - ولم نَفْرق التفريق إذْ نحن جيرَةٌ ... فقد عالنا دهرٌ تجورُ نوائِبُهْ

٣٣ - وما الدّهرُ إلا غادرٌ يسلب الذي ... أعارَ مِنْ اللذات، لا كان سالِبُهْ

٣٤ - لقد كان لي قلبٌ أُحَمِّله الأسى ... إذا ما التأسى أعوزتني مطالِبُهْ

---

(٧) الغوارب جمع «غارب» وهو الكاهل أو مابين السنام والعنق.

(٨) يشيمون أي ينظرون إلى البرق.

(٩) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» انحن إلى أنجابه وجنائبه.

(١٠) العنجوج جياد الخيل والإبل.

(١١) اللاحي اللائم.

(١٢) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: ويأتي سجل الذنب كاتبه صبه ويعجز عن قتلاه حاسبه كاتبه.

(١٣) كذا في «ب»، وفي «ت» و «ظ»: مِتّ.

٣٥ ـ فقد أعْدَمَتنيهِ النوائبُ عندما تَصَدَّعَ لما ضاقَ بالهَم قالبُهْ
٣٦ ـ وراح إليها الشوقُ يجذبني وقد فنى عزماتي قيدُ خطبٍ أجاذِبُهْ
٣٧ ـ فمازلت[14] يبريني النسيمُ إذا انبرى من الشام حتى قد حكاني لاغبُهْ
٣٨ ـ ومَلَّ طبيبي والعواذل[15] جانبي فلا مُسْعِدٌ إلا حَمَامٌ أجاوِبُهْ
٣٩ ـ ويَفْتُرُ أحياناً عن النوحِ والبُكا ولكن دمعي لا تَمَلُّ سواكِبُهْ
٤٠ ـ ولا وصلَ حتى يأذنَ اللهُ باللقا لمستسلمٍ راح الزمانُ يُحارِبُهْ
٤١ ـ وإلا فإني ميتٌ فَمُوسَّدُ بقبرٍ غريبٍ ما ترن نوادِبُهْ

---

(١٤) كذا في «ب»، وفي «ت» و «ظ» فمازال.

(١٥) كذا في «ت»، وفي «ظ»، و «ت» العوائل.

القصيدة العاشرة(*)

* وله رحمة الله *

١ - أأرجو من الإلمام بالطلل البالي   لما بيَ ابلالاً وذلك أبلى لي
٢ - منازلَ مَن أهوى سقاكِ كأدمعي   على كل حالٍ كُلُّ أوْطَفَ هَطّللِ
٣ - أُحييكَ أم أبكيكِ أم أشتكي النوى   إليكَ أمْ الأيامَ أم سوءَ أحوالي
٤ - وأعْذَرُ باكٍ مَن يُخاطِبُ أعجماً   ويرجو شفاءً من دَوارسَ أطْلالَ
٥ - محا الدهرُ مِن رِقِّ الفلاة سُطورها   كما أنهجت أيدي البِلى خطَّ تمثالِ
٦ - وقفتُ بها والعيسُ بالركب(١) ترتمي   هَوِيَّ القطا للوردِ في المهمةِ(٢) الخالِي
٧ - أهابَ بها الحادي المطرِّبُ فانتضى   سُيوفاً على أنضاءِ وَخْدٍ وإرقالِ(٣)
٨ - فمرت سراعاً كالسهامِ بِسُهَّمٍ   كبسُمْرِ القَفا أحلافَ هَمٍّ وبلبالِ(٤)
٩ - كأن لم يروا إلا الرحالَ مَواطِناً   ولم يُخلقوا إلاّ لِشَدٍّ وترحالِ
١٠ - فلم أرَ إلا أشعثَ الرأسِ مائلاً   وسُفْعَ أثافٍ ما ثلت قَلْبِيَ الصالي
١١ - ونؤياً كَسَتْهُ السافياتُ عُذَافِراً   كَمَخْبِيِّ زِندٍ تحت منهجِ أسمالِ
١٢ - أفئدةٍ للعاشقين بجوِّها   تلوبُ أواماً كالحوائم(٥) ضُلّالِ
١٣ - إذا الوُرْق غنّت في الديارِ رأيتَها   على نغمات الطير ترقص كالالِ

(*) «ت»: القصيدة رقم ٣٩، عدد الأبيات ٦٧، الورقة ٢٨ب - ٣٠أ.
«ظ»: القصيدة رقم ٧٢، عدد الأبيات ٦٧، الورقة
«ب»: القصيدة رقم ٧٢ عدد الأبيات ٦٧، الورقة

(١) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: في البهم الخالي.

(٢) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: في البهم الخالي.

(٣) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» على أرقا وخد وأرقال.

(٤) كذا في «ب» وفي «ظ»:

فمرت سراعاً كالسهام بسهم   كسمر القنا أحلافهم وبلبالي

وفي «ت»:

فمرت سراعاً كالسهام بأسهم   لسمر القنا أخلاف هَمٍّ وبلبال

(٥) كذا في «ظ»، و «ب»، وفي «ت»: الحمائم.

١٤ ـ كـأنْ لَـمْ تكـن مـأوى كـرام أعـزةٍ ومثـوى وُفـودٍ فـي غـدوٍ وآصـالِ
١٥ ـ وكـلٍّ مُـعَنًّـى بـالمكـارمِ والعُـلى من المهـد بَـذَّالِ الـرغـائبِ مِفْصـالِ
١٦ ـ كـريمٍ وقـورٍ حَـازَ كـلَّ فضيلةٍ[٦] أغَـرٍّ السجـايـا مـا جـدِ العَمِّ والخـالِ
١٧ ـ لـه شغـل عن جـودِهِ وسمـاحِـهِ عن النفس والأنفـاس من غير إخـلالِ
١٨ ـ حـديثُ المعـالي والمكـارمِ بينهم وصـايـا شيـوخٍ بـل تمـائمُ أطفـالِ
١٩ ـ كـأن لم يجُـلْ فيها على كـلِّ سـابقٍ ولـم يتـلاقَ[٧] كـلُّ أروع جَـوّالِ
٢٠ ـ وأغـلبَ ضـارٍ ليس غَـيْـرَ مفـاضـةٍ لـه لِـبَـدٌ مِـن فـوقِ أجـردَ ذَيَّـالِ
٢١ ـ يفـوت الـريـاح النّكبَ وهـو مقيـدٌ ويسبقُ رَجْـعَ الطرفِ مِن غيـرَ إعْجالِ
٢٢ ـ أخفُّ على الغبـرا مـن الـظل وطـأةً وأوشك من كر[٨] الهواجس فى البالِ
٢٣ ـ إذا اتقـد المـاذي[٩] من حـر عـزمهم وحَـرٍّ ذُكـاءٍ يـومَ كَـرٍّ[١٠] وأهـوالِ
٢٤ ـ فمـا ثَمَّ ظِـلٌّ غيـرُ فسـطاطِ عِثْيَـرٍ دعـائمُهُ المُـرّان والأسَـلُ العـالي
٢٥ ـ مـرابضِ آسـادٍ ومجـرى سـوابقٍ ومـسـرحِ آرامَ ومـرتـعِ أشبـالِ
٢٦ ـ كـأن لم تكن يـومـا كِناسـا ومَعقِـلا لآرامِ إنسٍ بيـن حـالٍ ومِعـطالِ
٢٧ ـ كـأن لم أُطِـعْ فيهـا دواعي صبابتي ولَمَ أرْضِ أحبـابي ولم أعْصِ عُذّالي
٢٨ ـ كـأن لم يَطُفْ فيهـا عليَّ بكـاسِـهِ أغـرُّ الثنـايـا واضـح الجيـدِ والخـال
٢٩ ـ بلى كم سقـاني والصباحُ مـع الـدجى كتـوشيـع وشى في مـدَارِعِ أبّـال[١١]
٣٠ ـ يشـج الحُمَيّـا لي بمعسـول ريقِـهِ فتسكَـرُ قبلي من لَمـاهُ بِسلسـالِ
٣١ ـ بـعينـه للرائين تـقـطيبُ فـاتـكٍ وحيـرةُ مـظلومٍ وطلعـةُ مـغتـالِ
٣٢ ـ وروعـةُ مبغـوتٍ وادهـاشُ سـاحـرٍ وإيـنـاسُ نَبّـاذٍ وهـيـبـةُ نـبـالِ

---

(٦) صدر البيت سقط من «ت».
(٧) «ولم يتلاق» ساقطة من «ت».
(٨) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت» جَرّ.
(٩) الماذي كلا سلاح من حديد.
(١٠) كذا في «ظ» و «ب» وفي «ت» حَرّ.
(١١) كذا في «ظ» و «ب»، وفي «ت»: مدارع أنبال.

٣٣ - وعفـةُ نَسـاكٍ وتكـريـهُ شـاطـرٍ　　وتمـويـه منـاعٍ وأطـمـاعُ بـذالِ
٣٤ - ونـظرةُ مشتـاقٍ واغـفـاءُ صـادف　　وإعـراضُ إهـمـالٍ ولفتـةُ إقبـالِ
٣٥ - يُـميتُ ويحيي مـن يـشـاءُ بنـظرةٍ　　ويُبدي الذي تخفي الضمائرُ في الحالِ
٣٦ - وفي كـل عضـو منـه ساقٍ وقـرقَفٍ　　وفي كـل عـرق فيَّ سَـوْرةِ جَـرْيَـالِ
٣٧ - وهـاتفـةٍ تُملي حـديثَ صبـابـةٍ　　على غُصُنٍ عـالٍ من الرنـد ميّـالِ
٣٨ - فنبّـه أشـواقي ووجـديَ سَجْعُهـا　　ولم أكُ ساهٍ عن هـواه[١٢] ولا سـالي
٣٩ - كأن غليل[١٣] الشوق بين جوانحي　　لسـانُ لهيبٍ ذَبَّ في جِسْمٍ ذُبَّـالِ
٤٠ - فـوَاحَـرَّ أشـواقي وواطـول غلتي　　وواكبـدي الحـرا وواجسمي البـالي
٤١ - رمتني الليـالي بـالفـراق وجـذّذتْ　　بسيف النـوى والبين قلبي وأوصـالي
٤٢ - فإن تُرْدِني الأشـواق مت[١٤] بحسرتي　　ويبقى الهـوى والشـوق أسـرع قتّـالِ
٤٣ - وإن تبقني الأشـواقُ للحـزن والضنـا　　أعِشْ كـاسِفاً بـالي بِهَمٍّ وأوْجـالِ
٤٤ - كفى حـزنـا طـول اغتـرابٍ ووحشـةٍ　　وقـلةُ أعـوانٍ[١٥] واخـفـاق آمـالِ
٤٥ - فـلا بـدع إنْ قَـلَّ احتمـالي أمُنْكَـرٌ　　تغيـرُّ حـالي بعـد خمسـة أحـوالِ
٤٦ - تَـنَـوُّعُ أطـوارٍ وفَـقْـدُ مـوآنسٍ　　وإعـوازٍ أو طـارٍ وقـلةُ أشـكـالِ
٤٧ - وَهَمٌّ بـلا حَـدٍّ وطـرف بـلا كـرى　　وقـلبٌ بـلا أنسٍ وكـفٌ بـلا مـالِ
٤٨ - تنكبـكَ الهَـمُّ الـدخيـلُ فـإنّـه　　إلى الحُـرِّ أسرى من خيـالٍ إلى خالِ
٤٩ - وأضيـعُ مَن أوْدى بـه الـهَمُّ والأسى　　كـريمٌ أهـانت قَـدرَهُ رِقَّـةُ الحـالِ
٥٠ - وغَيّـر منـه العُـدم غُـرَّ خِصـالِـهِ　　وكَلَّفَـهُ الإقـلالُ عـادات[١٦] بُخّـالِ
٥١ - فـإنْ تَـرني من حِلْيـةِ المـال عـاطِـلاً　　فـإنّي بحمـدَ الله من عِفّـةٍ حـالي

---

(١٢) كذا في «ظ»، و «ب»، وفي «ت»: هواك.
(١٣) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت» كأن لهيب.
(١٤) كذا في «ت» وفي «ظ»، وفي «ب»: واقض بحسرتي.
(١٥) كذا في «ت» و «ظ»، وفي «ب»: أعوالٍ.
(١٦) كذا في «ت» و «ظ»، وفي «ب»: عادة.

٥٢ ـ ومـا فضـلُ حُـرٍّ ذِلَّ في طلب الغِنَى — وَرَبُّ الورى يكفيهِ مِن غيرِ إشكالِ
٥٣ ـ ولا كنتُ إنْ لانت قنـاتي لغـامـزٍ — ولـو قطِّعتْ نحـري قـوارضُ أغـلالي
٥٤ ـ وإنْ كـان مـازان اللئـامَ مِن الثـرى — يـعـادلُ عنـدي كُـلُّهُ وَزْنَ مِـثـقـالِ
٥٥ ـ فَقُـلْ لـغـبـيٍ بـالـزمـان وأهـلِهِ — يحاول جهلاً[١٧] منه هضمي وإذلالي
٥٦ ـ يـمينـاً بحـول الله لـيس ينـالُـهُ — ولـو حَزَّ أوصـالي بـأبيضَ فصـالِ[١٨]
٥٧ ـ ألامَنَّ غيـري الخسفَ واستبقِ وثبتي — فـإنّي إذا سـاورتني غيـرُ نَـكَّـالِ
٥٨ ـ فـإنْ ترى يـومـاً للخـطوبِ استكـانتي — فمـا خَـالَفَتْ واللهِ قـوليَ أفعـالـي
٥٩ ـ ومـاذاك إلّا لـلقـضـاء ضـراعـةً — وهـل تَـدْفَـعُ الأقـدارَ حيلةُ مُحتـالِ
٦٠ ـ ومـضـطغن تـبـدو شـرارةُ حـقـدِهِ — فيـطفئُهـا صفحي وحِلمي وإمهـالي
٦١ ـ أُنـزِّهُ طـرفي[١٩] أن أحمـله القَـذَا — ومـا خُلِقَتْ نفسي مـطيـةَ إدغـالِ
٦٢ ـ يـجشـمني خـوفَ الهـوانِ إذا بـدا — كـأنيَ منهـا بين أشـداق رِئبـالِ[٢٠]
٦٣ ـ ودويـة تشكـو الـريـاحُ كـلالَـهَـا — إذا سلَكْتُهـا والقـطا خـوفَ إضـلالِ
٦٤ ـ إذا مـا طغى فيهـا حـريقُ هجيرهـا — تحصّنت الأرواحُ فـي طُـرَر الضـالِ
٦٥ ـ أحـرُّ نـسيـمـاً من ديـارٍ تـنـكـرت — لِـحُـرٍّ رأى فيـهـا تَـحَكُّـمِ أنـذالِ
٦٦ ـ وأعـوزُ من كف البخيـل مخـارجـاً — وأفسـح مـن آمـال أخـرقَ بَـطّالِ
٦٧ ـ أَحَبُّ إلى قـلبي مـن الخُـلد مـوطنـاً — إذا حـاولـوا في الخُلد ذِلـةَ أمثـالي

---

(١٧) كذا في «ظ»، و«ب»، وفي «ت»: يحاول هضماً منه هضمي.
(١٨) كذا في «ظ» و«ب»، وفي «ت»: نَصّال.
(١٩) كذا «ت». وفي «ب» «ظ»: أنذره طبيعي.
(٢٠) الرئبال الأسد والذئب.

خامساً: الخاتمة:

يحتوي ديوان أحمد بن الحسين الكيواني على أكثر من مائة قصيدة في موضوعات مختلفة وجاءت أكثر قصائده في الغزل والشكوى، بالإضافة إلى بعض رسائل نثرية ومخاطبات مع شيوخه، مثل شيخه العلامة محمد العامري المعروف بابن الغزي، وأحبابه وزملائه. وله في هذا الديوان أكثر من عشر قصائد طوال ولقد اخترت هذه القصائد العشر اختيارا لوجود ظاهرة فنية مشتركة بينها كلها وهي ابتداءها بالمقدمة الطلية على غرار القصائد الجاهلية. ولاشك - في تقديري - إن هذه القصائد العشر الطوال ذات المقدمات الطللية تشكل ظاهرة في شعر أحمد بن الحسين الكيواني بشكل خاص، وتشكل ظاهرة في الشعر العربي المنظوم في العصر العثماني بشكل عام أيضاً، إذا أضيفت إلى قصائد طوال أخرى نظمها شعراء عرب في العصر العثماني.

والمقدمة الطللية في الشعر قديمة، تحدث عنها النقاد بشكل كبير واتفقوا على أن شاعراً سبق امرىء القيس بن حجر في البكاء على الديار وأن امرىء القيس حاكاه، ويردد النقاد القدماء البيت الذي يثبت محاكاة امرىء القيس لشاعر سبقه سماه ابن حذام حيث يقول امرىء القيس بن حجر:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكي ابن حذام

ثم يمضي النقاد القدماء في الحديث عن ظاهرة المقدمة الطللية ونشأتها ويقدمون التفسيرات الكثيرة لها مثل ابن قتيبة والآمدي وابن رشيق وابن حزم وعبدالقادر البغدادي. ومما هو ثابت أن المقدمة الطللية عرفت قبل امرىء القيس بن حجر ثم جاء شعراء في العصر الجاهلي فأبدعوا فيها وجعلوها بداية لقصائدهم الطويلة ومن أشهرهم امرىء القيس بن حجر وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد.

واستمرت هذه المقدمة الطللية بداية لقصائد الكثيرين من الشعراء الجاهليين وبعد ظهور الاسلام ظل بعض الشعراء ينظمون قصائدهم مبتدئين بالمقدمة الطللية غير أنه بعد تلك ولاسيما في العصر العباسي ظهرت مجموعة من الشعراء، أشهرهم

أبو نواس، بدأوا يرفضون المقدمة الطللية ويدعون إلى الخروج عليها. وتطور الفن الشعري ومضمونه تطورا كبيرا عبر السنين غير أن الإطار العام للقصيدة الجاهلية ظل محتفظا بقوته ومؤيديه، وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي إلى العصر العثماني ينظمون الكثير من قصائدهم مبتدئين بالمقدمة الطللية. ومن الملاحظ عند قراءة دواوين الشعر العربي في العصر العثماني أن ظاهرة التقيد بشكل ومضمون القصيدة الجاهلية القديمة ظلت مسيطرة وبشكل كبير على الكثيرين من شعراء العصر، وأن ظاهرة التمسك بالمقدمة الطللية وتصدير القصائد الطوال بها انتشرت بشكل يجعلها ظاهرة تستحق الدراسة، وتثير أسئلة مهمة. فَمَنْ هُم الشعراء العرب في العصر العثماني الذين بدأوا قصائدهم بمقدمات طللية، وما هي أسباب ذلك، وكيف تفسر هذه الظاهرة، وما حجمها، والشعراء في العصر العثماني يعيشون حواضر كدمشق ومصر وحلب ومكة والمدينة واليمن وغيرها وقد ابتعدوا عن العصر الجاهلي بقرون طويلة؟

ولاشك أن الاجابة على هذه الأسئلة شاقة وعسيرة، ويزيد من مشقتها وعسرها أن أكثر الشعر العربي في العصر العثماني مازال مخطوطاً. غير أن محاولة الكشف عن جوانب من هذه القضية، اعتمادا على ما هو منشور ومطبوع من شعر العصر العثماني، أمرٌ لا يخلو من فائدة.

سادساً المراجع:

(١) حسن، عزة، فهرس مخطوطات دار الكاتب الظاهرية ـ الشعر، دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤.

(٢) كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، ١٥ جزء، دمشق: المكتبة العربية، ١٣٧٦ ـ ١٣٨١/١٩٥٧ ـ ١٩٦١م.

(٣) الكيواني، أحمد بن حسين. نسخة دار الكتب الظاهرية، رقم ٨٥٩٦ عام.

(٤) ــــ. نسخة مكتبة برلين الوطنية، رقم

(٥) ــــ. نسخة مكتبة عاشر أفندي، جامعة السليمانية، رقم

(٦) الغزالي، عبدالله. أحمد بن حسين الكيواني: دراسة في الشاعر وأعماله الأدبية، وتحقيق أرجوزته في الشطرنج. الكويت: مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادي والثلاثون الجزء الأول، جمادي الأولى ـ شوال ١٤٠٧هـ/ يناير ـ يونيو ١٩٨٧م، ص ص: ١٤٧ ـ ١٨٧.

«القول السديد الأظرف في سيرة الملك السعيد الأشرف»
لمحة عن السيرة الشعرية في العصر المملوكي البرجي، وتحقيق سيرة قايتباي لمحمد بن يوسف الباعوني

د. محمد منصور أبا حسين
كلية الأداب، جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

مقدمة المحقق

توطئة

عُني مؤلفو التراجم والطبقات في فترة العصر المملوكي بتدوين تراجم قادتهم ومشاهيرهم وأدبائهم عناية فائقة، فتعددت كتب التراجم وتنوعت كتب الطبقات(١). وأفرد بعض المؤلفين «سيرا» تناولت بالتفصيل ما أُثر عن بعض القادة

(١) انظر على سبيل المثال:
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق. القاهرة: مطبعة المدني ١٩٦٦، محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة: مكتبة القدسي ١٣٥٣، محمد بن محمد الغزي (١٠٦١) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩، عبدالوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٤.

من مـآثر ومتجـددات، تمثل في مجملهـا إسهامـا شخصيـاً في نسيـج الحيـاة العـامـة للأمة[٢].

وحيث إن هـدف كُتّاب تلك السـير متجه نحـو إبراز تلك المـآثر والمنجـزات لذاتها، ومنصرف إلى تأرختِ الأحداث وسرد ماله صلة من حكايات ونوادر ومنامات مختلفة؛ فإنهم بذلك قد أهملوا جانباً فنياً هاماً في بناء السيرة. فلم يعملوا عـلى بلورة الجوانب الإنسانية للشخصية المترجم لها ولم يتتبعوا مراحل نموهـا وتطورهـا[٣]. بيد أن بساطة أسلوب تلك السير وحيويتهـا القصصية قـد منحاهـا قسطاً غـير قليل من التميز والامتاع والعبرة.

وعلى الرغم من أن الأدب عـامة فيـها بعد القـرن السادس الهجـري قد غلب عليـه التكلف والابتذال، وشهـد ظهور طبقـة من الفقهاء والقضـاة والكتـاب غـير المتخصصين في حقول الأدب؛ فـإن بعض تلك السير قـد اصطنعت أسلوبـاً وسطاً

---

(٢) السيرة: «الطريقـة. يقال سـار بهم سيرة حسنـة.. والسيرة: الهيئـة.. وسيَّر سـيرة: حدّث أحـاديث الأوائـل». محمد بن مكـرم بن منظور (ت ٧١١ هـ). لسـان العرب، (بـيروت: دار صـادر ١٩٥٦) ٤ / ٣٩٠.

ولقد وضعت كلمة «سيرة» بين حاصرتين للتأكيد على أن هذه التسميـة إنما اختـارها المؤلفـون أنفسهم عناويناً لتلك الأعمال، مع تحفظي على هذه التسمية. وكمثال على السير المفردة انـظر: محيي الدين بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢ هـ) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعـزيز الخـويطر ونشره، الـرياض ١٣٩٦ هـ، بهـاءالـدين بن شـداد، النـوادر السلطانيـة والمحـاسن اليـوسفيـة، القـاهـرة: ١٣١٧ هـ، أحمد بن محمد بن عرب شاه (ت ٨٥٤)، «سـيرة السلطان الشهيد الملك الـظاهر جقمق» مخطوط. أنظر لطفي عبدالبديع، فهرس المخطوطات المصورة، معهد المخطوطات العربية (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٦) ٢/٨٧، محمود بن أحمد العيني (ت ٨٨٥ هـ) «السيف المهند في سـيرة الملك المؤيد»، مخطوط (باريس رقم ٦٧٥ ـ ف ٤٠٠). أنظر لطفي عبدالبديع، فهـرس المخطوطـات المصورة ٢/٨٨، بدرالدين بن قاضيي شهبه (ت ٨٧٤) الكواكب الدرية في السيرة النوريـة، تحقيق محمود زايد، بيروت: دار الكتاب الجديد ١٩٧١.

(٣) G.E. Von Gurnebaum. **Medueval Islam.** (Chicago: Chicago University Press 1956) pp. 275 - 281.

Donald Presgrave Little. **An Introduction to Mamluk Historiography.** Wiesbbaden: Franz Steiner Verlag GMBH. 1970, P. 113,

انظر إحسان عباس، فن السيرة. (بيروت : دار الثقافة ١٩٥٦) ص.ص ٣٤ ـ ٣٥.

بـين الأساليب المصنـوعة والأسـاليب الركيكـة وحافـظت عـلى قـدر من الـوضـوح والسلامة اللغوية[٤].

وقد كان للعوامل السياسية والأوضاع الاجتماعية وحالـة الكاتب الاقتصـادية وتقاليد الكتابة آنذاك دور واضح في نوعية المحتوى وتحديد الشكل الأدبي[٥].

ولم تقتصر كتابة السير في العصر المملوكي على النثر فحسب، بل انحاز بعض المؤلفين إلى الشكل الشعري. فنظم عبدالرحيم العـراقي (ت ٨٠٦هـ) «نظم الـدر السنيـة في السير الـزكية»[٦] ونـظم محمد بن أحمـد البـاعـوني (ت ٨٧١هـ) «منحـة اللبيب في سيرة الحبيب»[٧]، ونظم محمد بن أحمد السخـاوي المالكي (ت ٨٩٥هـ) «الدرة المضية في المآثر الأشرفية»[٨]، ونظم محمد بن يوسف البـاعوني (ت ٩١٦هـ) «القول السديـد الأظرف في سـيرة الملك السعيد الأشرف»[٩] وهـذه السيرة الأخـيرة هي موضوع هذا البحث دراسةً وتحقيقاً.

---

(٤) عباس، فن السيرة، ص ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٥) Hilary Kilpatrick «The Medieval Arab Poet and the Limits of Freedom» **British Society for Middle Eastern Studies** (BRSMES) Bul. 6, ii, 1979

(٦) عبدالرحيم بن الحسين العراقي الكردي (ت ٨٠٦ هـ) «نظم الدرر السنية في السيرة الزكية»، مخطوط ٤٥١٨ برنستون: مكتبة جامعة برنستون.»

Rudolf Mach, **Catalog of Arabic Manuscripts in the Garrett Collection.** (Princeton: Princeton University Press, 1977), p. 49.

وانظر خير الدين الزركلي، **الاعلام**. (القاهرة: مطبعة كوستاتسوماس ١٩٥٤) ٤ / ١١٩.

(٧) محمد بن أحمد الباعوني (ت ٨٧١ هـ)، «منحـة اللبيب في سيرة الحبيب»، مخـطوط ٤٥٢٥ برنستـون: مكتبة جامعة برنستون، وانظر الزركلي، **الاعلام** ٦ / ٢٣١.

(٨) محمد بن أحمد بن موسى السخاوي القاهري المالكي (ت ٨٩٥ هـ) «الدرة المضيَّة في المآثـر الأشرفية»، مخطوط ١٦١٥ باريس: المكتبة الوطنية.

M. Le Baron Deslane, **Catalogue Des Manuscrits Arabs,** Departement Des Manuscrits Bibliotheque Nationale. (Paris: Imprimerie Nationale, 1983 - 1895) p 303 - 304

(٩) محمد بن يوسف الباعوني (ت ٩١٦) القول «السديد الأظرف في سيرة الملك السعيد الأشرف».

مخطوط: 9821, We. 4266 برلين: المكتبة الوطنية، مخطوط ١٦١٥ باريس: المكتبة الوطنية.

Whilhelm Ahlwardt, **Verzeichnis der arabischen Handschriften der Koniglichen Bibliothek zu Berlin** (Berlin: A. Asher & Company, 1889 - 99), Buch XX, p 3116

نظرة في نسيج عائلة المؤلف في إطار العصر المملوكي

تواشج حظ عائلة المؤلف وتزامن صعودها مع استحواذ المماليك البرجية على زمان السلطة. ولعله من غريب المفارقات أن يواكب أُفول نجم الدولة المملوكية خمول شأن تلك الأسرة الباعونية وانحلال نسيجها. ويمكن اعتبار تلك العائلة مثالا نابضاً لبعض الجوانب الهامة في حياة العصر المملوكي ونشاطه الأدبي.

كان الجد الأكبر لعائلة الباعوني «حائكاً اتجر في البز وركض به في البلاد وولد له إسماعيل وأحمد»[١٠].

أما اسماعيل (٧٢٩ ـ ٨٠٩هـ) فقد سلك طريق التصوف وصحب الفقراء، وكان شيخ الناصرية من عمل صفد على طريقة الفقراء[١١]. بينما اختار أخوه أحمد طريقاً دنيوياً مغايراً، سيكون له أثر في أقدار هذه العائلة.

ولد أحمد في الناصرة (٧٥١ ـ ٨١٦هـ) ونشأ بها وتلقى العلوم التقليدية على علماء عصره، وتنقل بين مدن الشام للسماع والعمل[١٢]. وحينما قدم القاهرة هارباً من صفد[١٣]، نوَّه به السالمي عند الظاهر برقوق[١٤]، فنال الحظوة عنده وأسند إليه خطابة الجامع الأموي بدمشق ثم القضاء بها. وقد أُمتحنَ بالعزلِ لامتناعه اقراض السلطان برقوق من مال الأيتام واتهم بالارتشاء، فأهين وسجن إلى أن أُخلي سبيله

---

(١٠) نسبة إلى باعون بالقرب من عجلون، «وسميت باعونة من أجل أنه كان موضعها دير للنصارى اسم راهبة باعونة، فلما أزيل الدير وعملت القرية مكانه عرفت به». السخاوي، **الضوء اللامع**، ٦٢/١، ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(١١) السخاوي، **الضوء اللامع**، ٢/ ٣٠٨.

(١٢) السخاوي، **الضوء اللامع** ٢/ ٢٣٢.

(١٣) يشير السخاوي إلى أنه «قد جرت له كائنة مع أهل صفد لكونه مدح منطاش وغض من برقوق فخرج خائفا يترقب حتى قدم القاهرة وكان السالمي يعرفه من صفد» السخاوي، **الضوء اللامع** ٢ / ٢٣١.

(١٤) يلبغا أبوالمعالي السالمي الظاهري البرقوقي الحنفي، سمرقندي جلب إلى مصر فاشتراه برقوق وقربه لمهارته في القراءة والكتابة. وكان يطمع في السلطنة فلم يتم له ذلك. وكان متشددا يخاشن الأمراء فأبغضوه. جمع الأموال زاعما أنه سيحارب تيمور لنك، فانكشف أمره، ونفي إلى دمياط، وعرف بمبالغته في حب محيي الدين بن العربي. السخاوي، **الضوء اللامع** ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

بعد ثبوت براءته. وتقلبت به الأحوال تبعا لتقلب الأوضاع السياسية آنذاك. فعندما تسلطن الناصر فرج ولّاه قضاء دمشق إلا أنه مالبث أن عزل ثانية خلال فترة الاضطراب السياسي[١٥]، فتوجه إلى القاهرة حيث تولى قضاء الشافعية أثناء الفترة القصيرة لخلافة السلطان المستعين الذي مالبث أن أرغم على التخلي عن منصبه ليحل مكانه المؤيد شيخ سلطانا لمصر. «وكان أول من بايع المؤيدَ شيخ، جلال الدين البلقيني، وكان منفصلاً عن القضاء، فتولى في ذلك اليوم، وفيه عزل أحمد الباعوني، فكانت مدة ولاية الباعوني دون الشهرين»[١٦].

وقد عاب عليه السخاوي إعجابه بنفسه وتزيده في الكلام، وأخذ عليه قلة استحضاره للفقه، وكثرة مناماته، وذكر ما أشيع من مقدرته على البكاء بعينٍ واحدة!!. إلا أنه أشاد بذكائه وفطنته ومهابته وحسن إدارته لأوقاف دمشق ومناصرته للفقهاء، واشتغاله في الأدب. وأورد شيئا من أشعاره في العقيدة والتوكل والشيب. وذكر تأليفه نظماً كتاباً في التفسير. وتوفي الباعوني في وقت فشا فيه الطاعون وأزهق آلاف الأرواح[١٧].

وخلف من الذرية ثلاثة أبناء هم إبراهيم ومحمد ويوسف.

أما إبراهيم (٧٧٧ ـ ٨٧٠هـ) فقد «برع في فن الإنشاء وصناعة الأدب والترسل والنظم والنثر، بحيث إنه لم يكن في زمنه من يدانيه في ذلك، فقد كان شيخ الأدب بالبلاد الشامية بغير مدافع، وباشر مشيخة الخانقاه الباسطية في

---

(١٥) تعاقب على السلطنة خلال سنة واحدة كل من خشقدم، ويلباي، وتمربغا. انظر الرسم البياني.

(١٦) محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى وبال كاله. (القاهرة: عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠) ٢/٣-٦.

وقد هجا بعض الشعراء أحمد الباعوني تعصبا لجلال الدين البلقيني، فقال:

يقول المسجد الأقصى لو أن الناس راعوني
لما جابوا لمحرابي يهودياً وباعوني

وذكره السيوطي في أرجوزته ضمن من تولى قضاء الشافعية في الديار المصرية فقال:

ثم الجلال بعده الباعوني ثم الجلال باذل الماعون

جلال الدين السيوطي حسن المحاضرة في أعيان مصر والقاهرة، (القاهرة: المطبعة الشرفية، ١٣٢٧) ٢/١٠٨.

(١٧) السخاوي، الضوء اللامع ٢/٢٣١.

دمشق. وعندما توفي حضر جنازته جمع غفير من الأمراء والأعيان، وصُلي عليه صلاة الغائب بجامع الأزهر، وتقدم في الصلاة عليه في الجامع الأموي أخوه محمد خطيب المسجد[١٨].

عاش محمد (٧٨٠ ـ ٨٧١هـ) بدمشق وتلقى العلوم التقليدية على عدد من علماء عصره وولي خطابة الجامع الأموي وباشر نظر الأسرى، ثم انقطع للعبادة، وتعاني النظم مكرسا تقاليد عائلة الباعوني في نظم العلوم التقليدية. فنظم السيرة النبوية وكتب منظومة في تأريخ الخلفاء المسلمين انتهى فيها إلى الأشرف برسباي[١٩].

وثالث أبناء أحمد هو يوسف (٨٠٥ ـ ٨٨٠هـ) ولد بالقدس ورحل مع والده إلى دمشق فدرس على علمائها وأتيحت له الأسباب فتنقل بين عدد من المدن للدراسة والعمل. فتولى كتابة السر بصفد ثم ولي القضاء بها، وتولى منصب القضاء بطرابلس وحلب ودمشق، وضبط إدارة البيمارستان النوري بدمشق واشترى من دخله بعض الأماكن والمباني وأضافها لوقفه.

وقد أفرط السخاوي في مديحه وتقريظ نظمه ونثره وأشار إلى أنه نظم قطعة من المنهاج الفرعي. ويقال إنه مات مسموماً وخلّف أولاداً كثيرين ذكوراً وإناثاً[٢٠]. من بينهم محمد مؤلف «القول السديد في سيرة الملك السعيد»: موضوع هذه الدراسة.

---

(١٨) السخاوي، **الضوء اللامع** ١/٢٦ ـ ٢٩، عبدالقادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧)، **الدارس في تاريخ المدارس**. تحقيق جعفر الحسيني، (دمشق مطبعة الترقي) ١/١٧٥، ٢/١٤٣.

(١٩) محمد بن أحمد الباعوني (ت ٨٧١ هـ) تحفة الظرفاء في تاريخ الخلفاء، مخطوط 9712 We 426 برلين: مكتبة برلين الوطنية.

وانظر السخاوي، **الضوء اللامع** ٧/١١٤، ومقال صلاح الدين المنجد «المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن العاشر». **مجلة معهد المخطوطات العربية** (القاهرة: مطبعة مصر ١٩٥٦) ٢/٦٣ ـ ٤٥.

(٢٠) السخاوي، **الضوء اللامع** ١٠/٢٩٨، محمد بن طولون (ت ٩٥٣) **قضاة دمشق**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق: المجمع العلمي العربي ١٩٥٦ ص ص ١٢٢ ـ ١٢٤. واشتهر من بين بناته عائشة الباعونية التي عرفت بتصوفها وكثرة مؤلفاتها.

الغزي، **الكواكب السائرة** ١/٢٨٧ ـ ٢٩٢، عمر رضا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، (دمشق: المطبعة الهاشمية ١٩٤٠) ٢/٩٣٩ ـ ٩٤١.

حياة المؤلف: محمد بن يوسف الباعوني

ولد بدمشق (٨٥٩ ـ ٩١٦هـ) وتتلمذ على عدد من علماء عصره ومتصوفته. وغلب عليه الأدب فجمع عدداً من الدواوين الشعرية. وأشارت بعض المصادر إليه إشارات خاطفة، فذكر ابن طولون أن كلا من المؤلف ورضي الدين الغزي له بنت صغيرة زوج كل منهما بنته بالآخر لأمر بينهما، وذلك في سنة ٨٨٥هـ، وذكر في موضع آخر أن محمد بن يوسف الباعوني قد خرج من دمشق خوفاً من القاضي رضي الدين أن يدق عليه في أمر البيمارستان النوري وذلك سنة ٨٩٣[٢١].

ومهما تكن أسباب الجفوة وتبدل تلك العلاقة بين الرجلين ـ شخصية كانت أم رسمية أو كلتيهما ـ فإن ذلك الخلاف قد اضطر المؤلف إلى التوجه مع زوجته المصرية إلى القاهرة، عاصمة الدولة المملوكية ومقر السلطان السعيد قايتباي. حيث أنهى مسودة مظومته التي أشاد فيها بمآثره ومتجدداته.

الأشرف قايتباي: ملك الباعوني السعيد

ولد قايتباي على وجه التقريب سنة بضع وعشرين وثمانمئة، وقدم القاهرة مع تاجره محمود، والد نزيل مكة انذاك مصطفى بن رستم. فاشتراه الأشرف برسباي[٢٢]. وحينما تولى الظاهر جقمق أعتقه وصيره خاصكيا[٢٣]. ثم ارتقى

(٢١) السخاوي، **الضوء اللامع** ١٠/٨٩، أحمد بن طولون (ت ٩٥٣ هـ) **مفاكهة الخلان**، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) ١/٢٢، ٨٧، الغزي، **الكواكب السائرة** ١/٧٢ ـ ٧٣،
عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. (القاهرة: مطبعة القدس ١٣٥١) ٨/٤٨. يضع بروكلمان ولادة المؤلف ووفاته بين (٨٥٠ ـ ٩١٠ هـ).
Carl Brockelmann, **Geschichte der arabischen Literatur,** 2nd edition, g,ii, p. 54, s. ii. p. 53.

ويضع عمر رضا كحالة ولادته ووفاته بين (٨٥٧ ـ ٩١٠ هـ).
عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية**، (دمشق: المكتبة العربية ١٩٥٧) ١٢/١٢١.

(٢٢) السخاوي، **الضوء اللامع** ٦/٢٠١، ابن إياس، **بدائع الزهور** ٣/٣ ـ ٣١٥، الغزي، **الكواكب السائرة** ١/٩٧ ـ ٣٠٠.

(٢٣) يتم اختيار الخاصكي صغيراً فينشأ على الولاء المطلق للسلطان ويلازمه في خلواته. انظر أحمد بن =

مـدارج السلم العسكـري المملوكي خـلال وقت اضـطربت فيـه الأحـوال السيـاسية[٢٤]، وشـاعت فيه منـامـات المتصـوفـة المتنبئـة بصعـود نجمـه وانفـراده بالسلطنة[٢٥].

وعلى الرغم من أن عهده قد شهد عدداً من الفتن وأعمال الشغب التي تسبب فيهـا بعض مماليكـه وأمراء دولتـه وعربـان البـاديـة، وعـانى من جـراء الضـائقـات الاقتصـادية في الـداخل، والمنـاوشات الحـربية مـع المغول والـدويلات الـتركـمانيـة المتاخمة، فإن عهده قد تميز بالاستمرارية وإشادة المآثر المعمارية الباهرة التي ما زالت شاخصة تحكي روعة العمارة المملوكية وتفردها وبراعة الفنانـين المعماريـين العرب في ذلك العصر[٢٦].

وحينما أوشكت أيامه على الانقضاء جمع الأمراء بأجمعهم.. وحلّفهم الأيمـان الأكيدة، وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يـدخلوا ولده في شيء من أمـورهم ولا يتعـرضوا اليـه في سلطنة ولا غـيرها[٢٧]، إلا أنهم ضربـوا برغبـة السلطان عـرض

= عـلي المقـريـزي، السلوك لمعـرفـة دول الملوك. (القـاهـرة: لجنـة التـأليف والـترجمـة والنشر، ١٩٥٦ - ١٩٧٣) ١/٦٤٤.

(٢٤) ابن اياس، بدائع الزهور ٢/٣ - ٦.

(٢٥) المنامات جنس فلكلوري صوفي شاع في تلك الفـترة بشكل ملحـوظ، وتكاد لا تخلو كتب الـتراجم والسير في تلك الفترة من ذكر تلك المنامات. وقد أفـرد بعض كتاب تلك الفـترة أبوابـا في مصنفاتهم لهذا الجنس الفلكلوري، فقد خصص سري الدين عبدالـبر بن الشحنة بـاباً لهـذا اللون في كتابـه، «البدر الزاهـر في نصرة الملك الناصر»، تحقيق ريتشـارد مورتيـل، مجلة كلية الآداب، جـامعة الملك سعود، م ١٤ (٢) ص ص ٧٢٤ - ٧٣٢.

(٢٦) يرجع كارل بتري الأسباب الدافعة إلى ازدهار البناء المعماري الديني في العصر المملوكي إلى ما يلي:

(١) المـواريث: فالممـاليك بـطبيعة وضعهم الـطبقي وانخـراطهم في السلم العسكـري المملوكي لا يقرون توارث السلطة والثراء.

(٢) الضرائب: في ظـل الاقتصاد غـير المستقر، ونـظراً لاعتباطيـة المكوس فـإن المخـرج من ذلـك الوضع يتمثل في الإفادة من الفقرة الاستثنائية المتعلقة بالأوقاف.

(٣) العامل النفسي: فإن حداثة عهدهم بالإسلام وتردي الجانب الأخـلاقي قد دفعهم إلى التـوسل بالمآثر الملموسة ووقف بعضها على أعمال الخير بغية المثوبة في الحياة الأخرى.

Carl F. Petry, «A paradox of Patronage» **Muslim World, Vol. 73, 1983, PP 182 - 209.**

(٢٧) ابن الشحنة، «البدر الزاهر في نصرة الملك الظاهر» ص ٦٨٣.

الحائط وسلطنوا ابنه محمداً خلال احتضاره، وعندما توفي سنة ١٩٠١ هـ[٢٨] «حمل نعشه على أعناق الرجال، وسائر الأمراء والعساكر وجميع المماليك السلطانية وغيرهم، والأعيان والرؤساء والقضاة، والفقهاء، والفقراء والصوفية والرعايا مشاة يضجون ويبكون»[٢٩].

وبعد وفاة السلطان قايتباي تقلبت الأحوال بمحمد الباعوني إلى أن استقر به الحال في مدينة طرابلس حيث أعاد النظر في أرجوزته ونقحها ونسخها بمنزله تحت وطأة الحزن فقد درج عنه الأحباب والأخوان، وروعته الأحداث وأثقلت الكوارث كاهله.

وبعد وفاته، واصلت أخته عائشة الباعونية تقاليد هذه العائلة في النظم[٣٠] والتصوف والصلة بسلاطين الدولة المملوكية، فقابلت السلطان قانصوه الغوري في حلب سنة ٩٢٢ هـ، إلا أنها ما لبثت أن توفيت في السنة ذاتها، وفي الوقت نفسه كانت الدولة المملوكية تحتضر، إلى أن أجهز عليها العثمانيون في معركة مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ.

وصاحب أفول نجم الدولة المملوكية انحلال نسيج هذه العائلة الباعونية. ووجد مؤلفو السير والتراجم في العصر العثماني مادة جديدة نسجوا منها سير قادتهم ومشاهيرهم وأدبائهم وفق تقاليد أدبية مميزة[٣١].

---

(٢٨) سقطت الأندلس في نفس السنة.

(٢٩) ابن الشحنة، «البدر الزاهر»، ص ٦٨٥.

(٣٠) من ضمن منظوماتها «الاشارات الخفية في المنازل العلية»، اختصرت فيها منازل السائرين للهروي، ومنظومة أخرى لخصت فيها القول البديع في الصلاة على الشفيع للسخاوي. الغزي، الكواكب السائرة ١/ ٢٨٧ ـ ٢٩٢.

(٣١) انظر على سبيل المثال علي بن محمد اللخمي الاشبيلي المغربي، «الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان». مخطوط (بغداد كوشك ١٩٧ ـ ف٦٥٩) انظر لطفي عبدالبديع فهرس المخطوطات؟؟؟؟؟

أهمية المخطوط وموضوعه

ليس من المتوقع أن يضيف تحقيق هذا المخطوط ودراسته شيئاً إلى المعلومات التاريخية المتاحة عن السلطان الثامن عشر للدولة المملوكية[٣٢]. أو الايحاء باعتبار هذا المخطوط وثيقة شعرية تسجل منجزاته ومتجدداته[٣٣]. كما أن هذا المخطوط لا يمثل إسهاماً أدبياً يجب تحقيقه ودراسته لإضافة شيء جديد، أو تغيير رأي سائد عن حالة الأدب في العصر المملوكي[٣٤]. ولكنه، على أية حال، يظل شهادة على واقع العصر الثقافي.

ويمنحنا ملاحظة التطور الأسلوبي خلال العقد الأخير من حياة مؤلف عاش في تلك الفترة المملوكية[٣٥]، ومسايرته لتقليد أدبي له جذور في الأدب العربي[٣٦] وتأثره بمن سبقه ممن سخّروا بحر الرجز لمديح الخلفاء والملوك[٣٧]، وأنه قد وجد فيه مرونة في الايقاع يسّرت عليه ـ وهو القاضي وليس الأديب ـ أمر النظم، فاتخذه

---

(٣٢) ربما تتعارض مبالغات كتاب السير الرسمية في إطراء قادة المماليك وتصويرهم كأنموذج لكمال الفضائل الاسلامية مع حداثة عهدهم بالإسلام. يشير السيوطي إلى أن السلطان برقوق هو الوحيد الذي تحدر من أب مسلم. السيوطي، حسن المحاضرة ٢/ ٧٩.

(٣٣) لم يتم بناء كثير من الصروح المعمارية خلال حياة واقفيها.

Michael H. Burgonyne, **Mamluk Jerusalem-An Architectural Study,** (Great Britain: On behalf of the British School of Archaeology in Jerusalem by the World of Islam Festival Trust, 1987) p610.

(٣٤) يزدري روزنثال هذه الأرجوزة

Franz Rosenthal, **Muslim Historiography,** 2nd Ed. (Leiden: Ej Brill, 1968) p185.

(٣٥) لمزيد من المعلومات حول هذه لاشكالية انظر:

Rev.W. Cureton, «An Account of the Autograph Ms. of the First Volume of Ibn Khallikan's Biographical Dictionary» **Journal of the Royal Asiatic Society,** Vol. 6 1941, p223-238.

(٣٦) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري. (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦) ٥/ ٤٥٨ ـ ٤٩١.

(٣٧) عبدالله بن المعتز، ديوان ابن المعتز. (بيروت: دار صادر ١٩٦١) ص ٤٨١ ـ ٥٠٥.
وانظر ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/ ٥٠٠ ـ ٥٢٧.

كغيره من فقهاء عصره، حماراً شعرياً وأداة تعليمية للتحفيظ(٣٨). وأنه قد اختاره لمواصلة تقليد أدبي حافظت عليه عائلته طوال مئتي سنة من فترة الدولة المملوكية(٣٩).

ومهما يكن الأمر، فقد كان العصر المملوكي من العصور التي كان لبحر الرجز فيها مد صاحبه انحسار في القدرة البارعة على التجديد والابتكار.

كما يكشف المخطوط عن تلك العلاقة الحميمة والتسامح الواضح بين الفكر الرسمي والتوجه الصوفي. وربما كان للغربلة التي قام بها ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) لركام التصوف ومحاولته تخليصه مما شابه من بدع مستجدة، قد منح التصوف المعتدل شرعية ونفوذا في السياسة العامة لذلك العصر ولتراثه الأدبي(٤٠).

ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في حياة تلك العائلة الباعونية، حيث زاوج أفرادها بين القضاء الرسمي والتصوف الشخصي(٤١). ونفذ ذلك التأثير الصوفي إلى منظومته في مديح السلطان قايتباي، فحاول التسامي بموضوعه الدنيوي وصياغته،

---

(٣٨) يقول المؤلف (١٨أ):

فكلمت بذلك الأرجوزة	وضمنها المحاسن المحوزة
بليغة وجيزة الألفاظ	قريبة المأخذ للحفاظ

(٣٩) نظم أحمد الباعوني منظومة في التفسير.
ونظم محمد بن أحمد الباعوني منظومة في السيرة النبوية وأخرى في التاريخ.
ونظم يوسف بن أحمد الباعوني منظومة في الفقه الشافعي،
ونظمت عائشة الباعونية عددا من المنظومات الصوفية.

(٤٠) يرى بعض الباحثين أن ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) لم يكن ضد التصوف بشكل مطلق وإنما تصدى لتطهيره مما شابه من تقديس للأولياء والاعتقاد بالمعجزات والخوارق والدجل.

M.U. Memon, **Ibn Taimiya's Struggle against Popular Religion.** The Hague: Religion and Society 1, Mouton, 1976.

G. Makdisi, «Ibn Taymiyah: a Sufi of the Qadeyriah Order» **The American Jornal of Arabic Studies,** vol., 1 (1973) pp. 118-29.

(٤١) كان عمه إبراهيم شيخ خانقاه، وتكشف أخته عائشة عن وصولها مقام التكليف وكان والده فقيه النفس.

عاقداً الصلة بين مآثر قايتباي الدنيوية وما سيناله من مثوبة ورضى[٤٢]، فقسم عمله على ثلاث مقامات صوفية، مستخدماً كلمات تكشف العديد من الإيحاءات الصوفية، وتعكس ما وصل اليه التصوف من نفوذ خلال زمن يؤذن بأفول الدولة المملوكية.

ويكمن الاعتبار الأخير لهذا المخطوط في كونه أنموذجاً للسيرة الشعرية في أواخر العصر المملوكي. ومع أن هذه السيرة لم تحقق أو تحرز العناصر المطلوبة في كتابة السيرة الشعرية[٤٣]، فإنها تظل مخلصة للمغزى الأخلاقي الذي ألحّت عليه السيرة العربية عبر مراحل تطورها[٤٤]. ويعكس إصرار المؤلف على نعتها بالسيرة الأشرفية[٤٥].

مقارنة المخطوط بأعمال شعرية مماثلة

لم يكن محمد الباعوني وحيدا في مجال كتابة سيرة شعرية في مديح قايتباي.

(٤٢) ربما كان هناك دعاية صوفية تحاول التسامي بقايتباي. يروى نجم الدين الغزي، بعض أولياء الله المتصوفة رأى مقام الأشرف قايتباي في الولاية، وإن هذا الولي قد اجتمع بجده محمد الغزى وأمره أن يعتقد به وأن ينظم قصيدة في مآثره، فامتثل الغزي وكتب قصيدة رائية في مآثر قايتباي وعمائره ضمنها ديوانه «الدرة المضية في المآثر الأشرفية»

الغزي، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٨، وانظر عثمان اسماعيل يحيى، ختم **الولاية**، بيروت: ١٩٦٥.

(٤٣) Ruth Morse. «Medieval Biography: History as a Branch of Literature», **Modern Language Review.** col.80. April 1985, Part II, p25-68.

(٤٤) عباس، فن السيرة، ص ١٨.

ويشير بلوتارك إلى المغزى الأخلاقي من السيرة فيقول: ربما نعجب بالفن دون أن نتمنى أن نكون الفنان أو الموضوع (الشخصية) بينما في الوقت ذاته نود أن نكون وأن نتصرف كالشخصيات التي درستها السيرة»

A. Wardman, **Plutarch's Lives.** (Brkeley: Univ. of California, Press, 1974) p24.

(٤٥) يقول المؤلف (٢أ، ٢ب)

عنيت قايتباي وهو الأشرف	وفضله على الملوك يعرف
سيرته شريفة مشكورة	وبالجميل لم تزل مذكوره
أورد منها نبذة يسيرة	عند محل ذكره في السيره
سميتها القول السديد الأظرف	في سيرة الملك السعيد الأشرف

فلقد خلف الناسخ أحمد بن محمد التلواني[٤٦] مجموعة تضم سيرتين شعريتين في مآثر قايتباي: إحداهما للمؤلف الباعوني والأخرى لمحمد بن أحمد السخاوي المالكي[٤٧].

تتشابه السيرتان عملياً في مضمونيهما، كما تتشابه مهنتي مؤلفيهما. فالسخاوي، أيضا، كان قاضيا في المدينة المنورة، وحافظت أسرته على استمرارية الصلة بالدولة المملوكية[٤٨]. كما أنه قد استخدم موهبته الشعرية في «نظم الشعر وامتدح به الأكابر وارتفق به في معيشته وراج أمره فيه حتى كان جل ما يذكر به[٤٩].

وعلى أية حال، فإن هذه الدراسة غير معنية باكتشاف السبب الذي حفز هذين المؤلفين على كتابة سيرة شعرية متشابهة في موضوعها، أو الافتراض بأنهما ضمن ثلة تسابقت شعريا في مضمار الولاء للسلطان قايتباي[٥٠]. وإنما تسجل هذه الدراسة ظاهرة شعرية في حقل السيرة. شارك فيها شعراء نظموا كما يزعمون «دررا» نثروها أمام أقدام السلطان المملوكي قايتباي. وليس في وسع هذه الدراسة إثبات تأثر أحدهما بالآخر، مع إمكان ذلك الاحتمال.

وعلى الرغم من تشابه السيرتين في المحتوى، فإنهما تختلفان في الشكل الشعري. فقد صاغ السخاوي سيرته في قالب شعري مفضلا بحر البسيط لوقعه في النفوس ومشيداً بمآثر الأشرف قايتباي. في حين اصطفى الباعوني بحر الرجز للتلميح بمآثر السلطان نفسه وكشف دلائلها.

لم يقم السخاوي سيرته على مخطط معين، سوى أنه رتب المآثر حسب

---

(٤٦) محمد بن أحمد التلواني، لم أعثر على ترجمة له فيما راجعته من مصادر.

(٤٧) انظر الهامش رقم (٨) والهامش رقم (٩).

(٤٨) وكما مدح السخاوي السلطان قايتباي فإن ابنه كذلك قد عرض على الظاهر جقمق وعرض حفيده محمد كذلك على الأشرف قايتباي. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٧/١١٠، ٠/٤٧، ١٩٨.

(٤٩) يشير السخاوي المؤرخ إلى أن السخاوي المالكي المذكور قد أكثر من القصائد النبوية ورسخت قدمه فيها، وأنه قد مدح السخاوي المؤرخ بقصيدة قيلت في حضرته، كما أجاز نظماً مؤرخ مكة عبدالعزيز بن فهد (ت٩٢١) السخاوي، **الضوء اللامع** ٤/٢٢٤، ٧/١١١.

(٥٠) إلى جانب الباعوني والسخاوي، نجد أن الغزى قد نظم عملا شعريا مماثلا في سيرة قايتباي ومآثره، انظر الحاشية السابقة رقم (٤١).

أولويتها الدينية، وهو منهج استثمره الباعوني ووضعه في قالب صوفي ثلاثي. فقد قسم سيرة قايتباي على موضوعات صوفية، وأقام بناءها على مقامات ثلاث هي: الصبر والشكر والتوكل(٥١).

تشترك السيرتان في الاشادة بمآثر قايتباي في اعادة بناء الحرم النبوي بعد حادث الحريق الذي وقع سنة ٨٨٦ هـ(٥٢). ويتخذ المؤلفان من تلك الحادثة وسيلة للكشف عن مآثر قايتباي الدينية. إلا أنه في الوقت الذي يزخرف فيه الباعوني تلك الحادثة بأوصاف متخيلة، رغم سذاجتها كوصفه طيور بيضاء تحوم حول النار الملتهبة في المسجد النبوي محاولةً كفها عن بيوت الجيران(٥٣)، فإن سيرة السخاوي تكشف عن ولعه بذكر الحقائق والأرقام المتعلقة بعدد العمال والصناع المشاركين في البناء ووسائل النقل المستخدمة انذاك(٥٤). كما يُضمّنُ سيرته تقريراً شعريا عن

---

(٥١) يقول المؤلف:

من غيره من سائر الملوك	يسير في مراتب السلوك
بالصبر والشكر وبالتوكل	في كل أمر معضل ومشكل
فهي مقامات ذوي الأيمان	مسالك الأخلاص والايقان

تظهر هذه المقامات الثلاثة وثيقة الصلة على خريطة المقام والحال. ولعلها محاولة لوضع قايتباي على طريق الولاية. انظر الحاشية السابقة (٤٩). وانظر عبدالكريم بن هوازم بن عبدالملك القشيري (ت ٤٦٥هـ) **الرسالة القشيرية**. (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي ١٩٤٠) ص ص ٨٢ - ٩٢.

(٥٢) علي بن عبدالله السمهودي (ت ١٠١١هـ) **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، (القاهرة: مطبعة الآداب ١٣٢٦هـ) ١/٤٥٤. وابن طولون، **مفاكهة الخلان** ١/٥٠.

(يقول المؤلف:

فبينما عيونهم تفيض	إذ لاح فوقهم طيور بيض
ترد بالأجنحة النيرانا	ومن لظاها تحرس الجيرانا
فعند هذا خمد الزفير	وبعد ذلك انطفأ السعير

وأشار إلى هذه الطيور المتخيلة، السمهوري، وفاء الوفاء ١/٤٥٦، وابن طولون، مفاكهة الخلاف ١/٥٣، ويذكر ابن طولون أن من أحسن ما نظم في ذلك الحريق القصيدة المسماة «كافي أولي العقول في الحادث بمسجد الرسول» وممن أشار إلى الحريق من مؤرخي العصر العثماني قطب الدين النهروالي، **الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، تاريخ مكة**. (القاهرة: المطبعة العثمانية ١٣٠٣) ص ١٠٥.

(٥٤) يقول السخاوي: (٣ب، ٤أ)

وجاء من مصر صناع ليشتغلوا	ميتان ثم ثلاثون كما كانا
وجاء من مكة مع طيبة خشب	ميتان من بعدها سبعون إنسانا
وخمسمائة إنسان مرتبه	معلومة لصنوف الشغل اتقانا

=

الغارة التي شنها البدو وسلبهم الجمال المثقلة بالمؤن لبناء المسجد النبوي(٥٥).

وليس غريباً أن تثير الخرافات خيال مؤلف كمحمد الباعوني يعيش مطمئناً على البعد يكتب في القاهرة سيرة في مآثر قايتباي. بينما يُعنى السخاوي، قاضي المدينة المنورة - والمشارك في تنظيف مسجد نبيها بعد الحريق - بهجمات العربان أكثر من اهتمامه بطيورٍ متخيلة(٥٦).

يفوق الباعوني نظيره السخاوي في قدرته على وصف حريق المسجد النبوي الشريف واعادة بنائه، فقد كانت صوره أكثر إثارة وحيوية(٥٧).

= فكان ذلك ألفا غير من سألوا ... بأجرة وبمن قد جاء مجانا
وستمائة ألف قد أتين بها ... من الحمول من الآلات أتيانا
وأربع ثم عشرون كذا ضبطت ... غير الذي قبله في طيبة بانا
مع الرخام وآلات الدهان ومن ... جبس وخشب وبطحا صوب بطحانا
ومن نحاس وأحجار والتها ... مع الرصاص حديد جاء قضبانا
وجاء جمال من السلطان جملتها ... مايتان من بعدها خمسين أضعانا
ومن حمير حسان عدها مئة ... ينقلن جبسا وحصبا ثم تربانا

(٥٥) يقول السخاوي: (٤ب)

كذاك قد يرسلوا من بعد ذا إبلًا ... ينقلن للشغل أحطابا وعيدانا
فجاء قوم من الأعراب باغية ... ساقوا الجمال جماعات ووحدانا
فراح من طيبة في أثرهم فزع ... فادركوهم ولكن أخطأوا الشانا
فعند ذلك ضاق الصدر من حرج ... من باسهم مالهم في الأرض أوطانا
فعن قريب أتى الهادي بشيخهم ... إلى المدينة بالتقدير إعلانا
فقيدوه وصار الآن في حبس ... عند الخواجا ليلتي المال أعيانا
وقال ما راح يأتي ضعفه عجلا ... مع الديات ولا تخشون نقصانا

(٥٦) يشير السخاوي إلى مشاركته في عملية التنظيف التي أعقبت الحريق (٣أ)

والردم لم يبق شيئا للصلاة به ... فقمت والناس للتعزيل مجانا

ويذكر السمهودي أن السخاوي قد أخبره في شهر شوال أنه رأى في النوم من يقول له اطفئوا النار من الحجرة الشريفة، يعني الموضع الذي تركوا تنظيفه حولها، فتفقدوا ذلك فوجدوا النار في ثمانية مواضع، فأطفأوا ذلك ثم رأوا السمهودي، **وفاء الوفاء**، ٤٥٨/١.

(٥٧) يقول الباعوني في وصف قناديل الحرم النبوي:

كذا القناديل التي قد علقت ... مثل كواكب السماء أشرقت
يقول رائي حسن نورها الوضي ... في وصفها يكاد زيتها يضي
تحملها سلاسل ذات لهب ... تحسب أنها سلاسل الذهب

كما يفوق نظيره السخاوي في وصف حريق الجامع الأموي واعادة بنائه كجزء من المآثر الأشرفية. ولعل لدمشقيته وقربه من الحدث دوراً في ذلك. وفي حين يكتفي السخاوي بذكر الحقائق والمعلومات المتاحة مقتربا في ذلك من السيرة الشعرية التأريخية(٥٨)، فإن الباعوني يُبحر في أرجوزته إلى مناطق التخيل ومقامات التصوف.

وصف المخطوطات

أولا: نسخة المكتبة الوطنية بباريس.

تشتمل مجموعة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦١٥. على ثلاث منظومات شعرية جمعها الناسخ أحمد بن محمد التلواني.

الأولى: أرجوزة محمد بن أحمد الباعوني (هذه أرجوزة لطيفة في التاريخ)

الثانية: أرجوزة محمد بن يوسف الباعوني - موضوع هذه الدراسة - وتحمل عنوانين: أحدهما يظهر على صفحة العنوان (اللمحة الأشرفية والبهجة السنية)، والآخر يظهر على الورقة ٢ب (الاشارة الوفية إلى الخصوصيات الأشرفية) وتقع هذه النسخة في إحدى وعشرين ورقة، ومعدل الأبيات في كل صفحة ١١ بيتاً وعدد أبياتها ٤٥٠ بيتاً.

وتبدأ بقوله:

يقول أفقر الورى إلى الهدى ... محمد بن يوسف بن أحمدا

وتنتهي بالبيت التالي على الورقة رقم (٢١ أ)

على الرعايا في البلاد كلها ... ووضع الأشياء في محلها

ويقول السخاوي في وصفها: (١٥)

كذا القناديل أيضا في سلاسلها ... كذا لشبابيك احصانا واتقانا

(٥٨) يشير روزنثال إلى أن الشعر لم يؤد خدمته للتاريخ الاسلامي إلا مرة واحدة، وكان ذلك على أرض فارسية لتحقيق طموحات قومية، ويظهر ذلك في ملحمة الشاهنامة للفردوسي

F.Rosenthal, **Muslim Historiography**, p.179.

وتشير آخر كلمة في أسفل الورقة السابقة رقم (٢١ أ) إلى أن الصفحة التالية ستبدأ بكلمة (لا سيما) غير أن البتر المفاجىء في هذه النسخة قد تسبب في عدم اكتمالها.

الثالثة: منظومة محمد السخاوي، وقد سبق ذكرها في هذه الدراسة.

وتظهر خاتمة هذه المجموعة على الورقة رقم (٣٢ أ) كالتالي:

(وكان الفراغ من كتابته في اليوم المبارك السادس والعشرون (هكذا) من شهر ربيع الثاني سنة أربع وتسعين وثماني مائة أحسن الله عاقبتها وذلك على يد كاتبه أحمد بن محمد التلواني).

ثانيا: نسخة مكتبة برلين الوطنية.

يظهر عنوان هذه النسخة بخط المؤلف على الورقة (٢ ب) كالتالي: (سميتها القول البديع الأظرف في سيرة الملك السعيد الأشرف) وعلى الجانب الأيسر في الصفحة ذاتها ازاء العنوان أبدل المؤلف كلمة البديع بكلمة السديد. ويقع هذا المخطوط في ١٩ ورقة. وعدد أبياتها ٥٥٦ بيتاً. ومعدل الأبيات في كل صفحة ١٤ بيتاً.

وتبدأ الأرجوزة بعد البسملة بقوله:

(يقول أفقر الورى إلى الهدى   محمد بن يوسف بن أحمدا)

وتنتهي بقوله:

(وختمت براعة الكلام   بما يفوق الحسن في الختام)

ويظهر على الورقة (١٩ ب) خاتمة المؤلف.

(كان الفراغ من النظم في مسودتها نهار الاثنين رابع عشر من المحرم سنة (   )[٥٨] بالمنزل المعروف (   )[٦٠] ببركة الرطلي[٦١] ظاهر القاهرة

(٥٩) لم استطع قراءة السنة (انظر صورة الورقة ١٩ب من المخطوط).

(٦٠) لم استطع قراءة اسم المنزل (انظر الصورة السابقة).

(٦١) حي من أحياء القاهرة كان «يعمل بها الطوب، وكان في شرقيها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد، فنسبت إليه» ابن ظهيرة، **الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة**، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس (القاهرة: مطبعة دار الكتب ١٩٦٩) ص ٢٠٧، حاشية المحقق رقم (٤).

المحروسة، ومن تحرير هذه النسخة وكتابتها نهار الثلاثاء خامس عشر من رمضان المعظم سنة (   )[٦٢] بمسكن مسطرها وناظمها جوار المدرسة (   )[٦٣] بطرابلس المحروسة، قال هذا وكتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بن يوسف الباعوني الشافعي عفا الله عنهم، آمين وحسبنا الله ونعم الوكيل).

بعد معارضة النسختين بعضها ببعض، وتحليل محتواهما، وفحص تواريخهما تبين التالي:

١ ــ أن نسخة باريس هي مسودة أولية لنسخة برلين.
٢ ــ أنه من خلال مقارنة نسخة باريس بنسخة برلين يمكن ملاحظة نوعية التنقيح الأسلوبي والأطوار التي مرت بها هذه الأرجوزة.
٣ ــ أن المعلومات الواردة في فهارس المخطوطات تخلّف في الذهن انطباعا بأن هذا المؤلف قد خلف عدداً من المؤلفات في مآثر قايتباي، بينما هي في واقع الأمر عناوين مختلفة لعمل واحد هو (القول السديد)[٦٤].

وللأسباب المذكورة سابقا، فقد تم التعويل على نسخة برلين واتخذت نسخة باريس معين على قراءة ما يصعب من كلمات بخط المؤلف[٦٥].

ويبدو أن الطريقة التي رسم بها المؤلف كلماته تختلف عن القواعد الكتابية

---

(٦٥) لم استطع قراءة السنة ولعلها سنة (أربع). انظر صورة الورقة (١٩ ب).

(٦٣) اسم المدرسة غير واضح ولعله (الحميمية) انظر صورة الورقة (١٩ ب).

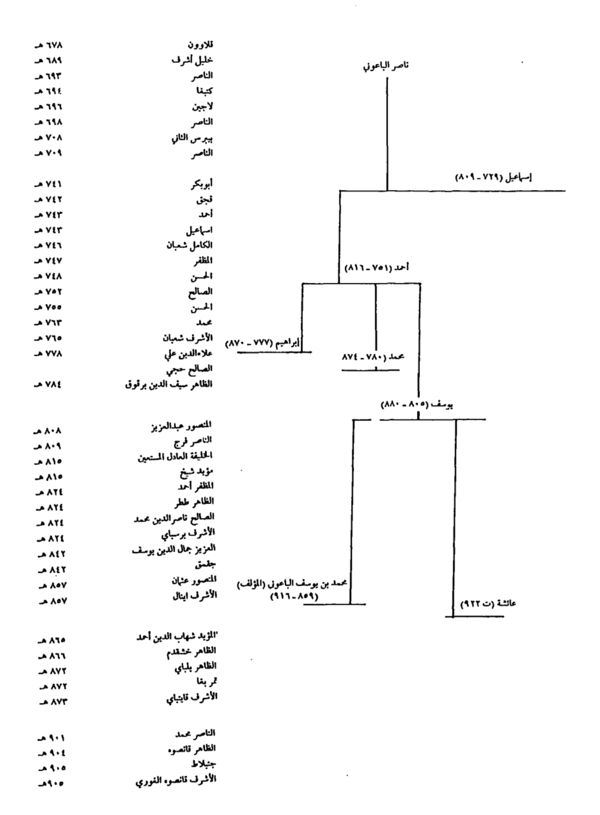
(٦٤) فهرسها الورد تحت عنوان (القول البديع الأظرف في سيرة الملك السعيد الأشرف) وذكر بروكلمان أن للمؤلف ستة أعمال إلا أنه لم يشر إلى أن أربعة منها هي عناوين مختلفة لهذا المخطوط.
ويذكر لطفي عبدالبديع في فهرسه أن بلدية الاسكندرية تحتفظ بنسخة بعنوان (الإشارة الوفية إلى الخصوصيات الأشرفية) وأنها كتبت بخط عادي بدون تاريخ. ويذكر أيضا إلى أنها «لم ترد في بروكلمان، وهي أرجوزة في برسباي الملك الأشرف. . ابتدأها بالأشرف قايتباي وإليه تنسب، والأشرف هو الملقب بالعزيز تولى الملك عام ٨٤١ »ويبدو أن أمر هذه الأرجوزة وموضوعها قد اختلطا على الدكتور لطفي عبدالبديع. كما أن بروكلمان يذكر هذا العنوان في فهرسه. لطفي عبدالبديع، **فهرس المخطوطات المصورة**. وانظر الزركلي، **الاعلام** ٨/٣٠. وكحالة، **معجم المؤلفين** ١٢/١٢١.

(٦٥) بسبب ترقيم المخطوطات من اليسار إلى اليمين، فإنني لم أتقيد بترقيم الورد كما رقمت أرجوزة الباعوني ومنظومة السخاوي نسخة باريس بأرقام متسلسلة تبدأ بـ (١أ) وتنتهي بـ (٣٢ أ).

المتفق عليها في عصرنا الحـاضر، فقد عمـد المؤلف إلى تخفيف الهمزة وجعلهـا ياءً. فـ «الـدائم» و «الفضائـل» و «لوائـه» و «الصائـغ» كتبها الـدائم الفضايـل ولـوايـه والصايغ. كما أنه يضع نقطتـين تحت الألف المقصورة فـ«إلى» و «هـوى» يكتبها «إلي وهـوي». ويكتب الألف المقصورة ألفـاً ممدودة فـ «وفى بمـا وعـد» يكتبهـا «وفـا بمـا وعد»، وانتمى يكتبها «انتما».

خطتي في التحقيق

اعتمـدت مخطوط بـرلين، وتقيـدت بنصـه كـما حـرره المؤلف. وأشرت إليـه بالحرف (ن) وأشرت إلى مخطوط باريس بحـرف (س). وصوبت مـا يجب تصويبـه وأشرت إلى ذلـك في الهـوامش. وشرحت بعض الكلمات الـواردة في الأرجـوزة. وعرفت بالأسماء والأماكن والمصطلحات.



قلاوون ٦٧٨ هـ
خليل أشرف ٦٨٩ هـ
الناصر ٦٩٣ هـ
كتبغا ٦٩٤ هـ
لاجين ٦٩٦ هـ
الناصر ٦٩٨ هـ
بيبرس الثاني ٧٠٨ هـ
الناصر ٧٠٩ هـ
ابوبكر ٧٤١ هـ
قجق ٧٤٢ هـ
أحمد ٧٤٣ هـ
اسماعيل ٧٤٣ هـ
الكامل شعبان ٧٤٦ هـ
المظفر ٧٤٧ هـ
الحسن ٧٤٨ هـ
الصالح ٧٥٢ هـ
الحسن ٧٥٥ هـ
محمد ٧٦٣ هـ
الأشرف شعبان ٧٦٥ هـ
علاءالدين علي ٧٧٨ هـ
الصالح حجي
الظاهر سيف الدين برقوق ٧٨٤ هـ
المنصور عبدالعزيز ٨٠٨ هـ
الناصر فرج ٨٠٩ هـ
الخليفة العادل المستعين ٨١٥ هـ
مؤيد شيخ ٨١٥ هـ
المظفر أحمد ٨٢٤ هـ
الظاهر ططر ٨٢٤ هـ
الصالح ناصرالدين محمد ٨٢٤ هـ
الأشرف برسباي ٨٢٤ هـ
العزيز جمال الدين يوسف ٨٤٢ هـ
جقمق ٨٤٢ هـ
المنصور عثمان ٨٥٧ هـ
الأشرف اينال ٨٥٧ هـ
المؤيد شهاب الدين أحمد ٨٦٥ هـ
الظاهر خشقدم ٨٦٦ هـ
الظاهر يلباي ٨٧٢ هـ
تمر بغا ٨٧٢ هـ
الأشرف قايتباي ٨٧٣ هـ
الناصر محمد ٩٠١ هـ
الظاهر قانصوه ٩٠٤ هـ
جنبلاط ٩٠٥ هـ
الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٥هـ
ناصر الباعوني
إسماعيل (٧٢٩ - ٨٠٩)
أحمد (٧٥١ - ٨١٦)
إبراهيم (٧٧٧ - ٨٧٠)
محمد (٧٨٠ - ٨٧٤)
يوسف (٨٠٥ - ٨٨٠)
محمد بن يوسف الباعوني (المؤلف)
(٨٥٩-٩١٦)
عائشة (ت ٩٢٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول أفقر الورى إلى الهدى	محمد بن يوسف بن أحمدا
يُعزى إلى باعون منْه النسبُ	وللامام الشافعي المذهبُ
عنهم عفا[1] الله وجاد بالرضى	وعمّ بالرحمة من منهم مضى
وعن جميع المسلمين إنّهُ	أجزل للخلق جميعا مَنًّهُ[2]
الحمد لله القديم الوارث	الدائم الحي المميت الباعث[3]
الواحد المبدي المعيد الباقي	مقدر الآجال والأرزاق[4]
مودع سر العقل في الانسانِ	مغيبا يظهر باللسان[5]
فإنه مترجم البيان	وذاك تعليم من الرحمن
ومثل حكم القول حكم الفعل	حيث هما نتيجة للعقل
فتنقل الأفعال والأقوال	عمن لها يُصِدر والأحوال

---

(١) في النسخة «ن»: «عفى» ولم يرد هذا البيت في النسخة «س». . .

(٢) انفردت النسخة «ن» بهذا البيت.

(٣) في النسخة «س»: «الحمدلله القديم الباقي مقدر الآجال والأرزاق».

(٤) انفردت النسخة «ن» بهذا البيت.

(٥) في النسخة «س»:

«ودايم العزة والسلطان	ومودع الأسرار في الإنسان»

ويليه في النسخة ذاتها الأبيات التالية:

«فعقله في أشرف الأسرار	به يبين حندس الأفكار
ويظهر الدليل والبرهان	وينجلي للعاقل الإيمان
وتدرك الحكمة في الأخبار	وقصص الماضين في الأعصار
لا سيما من حكموا وملكوا	وكيف بادوا كلهم وهلكوا
لأن هذا عبرة من العبر	وإنها والله من إحدى الكبر
مدركها من الدليل النقلي	وهو أجل مسعف للعقل
قامت به شواهد الإيمان	وثبت التوحيد بالبرهان
فجل مالك الملوك وعلا	من خلق الخلق وأوجد الملا
الدايم الباقي بلا زوال	وموجد الأزمان والأزال»

ليستدل بالذي منها بدا   هل عن ضلال وهوى أو عن هدى
وذا من الحكمة في قص القصص   مع عبرة العقول فيما فيه نص
نسأله الصلاة والسلاما   على النبي المصطفى دواما
محمد وآله الأبرار   وصحبه وحزبه الأخيار[6](١أ)
ما همعت بسحها غمامة   وسجعت بدوحها حمامة[7]
وبعد فالتاريخ والأخبار   علم له في الملة اعتبار
وقد كفى فيه من البرهان[8]   ما جاءنا من قصص القرآن
يزيد في العقل وفي الإيمان   بما يُرى من غير الزمان
بقصص الماضين في الأعصار   وما تداولوا من الأمصار
وكيف فيها حكموا وملكوا   وكيف بادوا كلهم وهلكوا
لأن هذا عبرة من العبر   وأنها والله من إحدى الكُبر
يدرك هذا كل ذي استبصار   بنور عين القلب لا الابصار
وكان شمس الدين عمي قد حوى   فنونه مع ما وعاه وروى[9]
من الفنون والفضائل التي   بها استقل من علوم الملة
فأسأل الله تعالى يرحمه   وبرضاه في النعيم يكرمُه[10]
فمن مصنفاته الوجيزة   مؤرخاً في الخلفاء أرجوزه[11]
فبالخليفة المقدم ابتدا   وهو أبوبكر إمام الشهدا
دامت عليه بالرضى سحابة   تسقي ثراه وثرى الصحابة

---

(٦) في النسخة «س»: (وآله وصحبه الأبرار   ورهطه وحزبه الأخيار).
(٧) في النسخة «س»): (ما همعت بودقها غمامة   وهتفت بسجعها حمامة).
(٨) في النسخة «س»: (وقد كفى فيه من القرآن).
(٩) في النسخة «س»: (وكان شمس الدين عمي قد مهر فارق بحدود ستتمتر فيه وكان لعُد ومثله بهر).
(١٠) في النسخة «س»: (فأسأل الله تعالى يرحمه   وبرضاه في الجنان يكرمه).
(١١) يلي هذا البيت في النسخة «س»: (وفي تواريخ ملوك الترك   ممن تولى أمر هذا الملك).

مختتما بالمستعين[١٢] عمَّتِ	أجزاه نعمةً عفوٍ تمت[١٣](١ب)
وفي الملوك والسلاطين إلى	عهد برسباي كذا على الولا[١٥]
وهو المليك الأشرف المترجم	بأنه عن الوغى ما أحجم[١٦]
لا زال مُنهلٌ سحاب الرحمة	عليه مع من قد مضى في الأمّة[١٧]
أبرزها مثل العروس تنجلي	من البيان في بديع الحُلَلِ
وها أنا مذيلٌ عليها	بنبدة أضيفها اليها
أذكر فيها القائمين بعد من	أوردهم عمي في ذاك الزمن
من الملوك، وبعمي أقتدي	في وضعه وبالعزيز أبتدي[١٨]
مختتما بملك الزمانِ	سلطان هذا العصر والأوانِ[١٩]
عنيت[٢٠] قايتباي وهو الأشرف	وفضله على الملوك يُعرف
سيرته[٢١] شريفة مشكورة	وبالجميل لم تزل مذكورة

(١٢) تولى الخلافة سنة (٨٠٨ هـ)، وبويع بالسلطنة مضافة للخلافة سنة (٨١٥ هـ) وذلك خلال فترة الاضطراب السياسي بين الناصر فرج ومؤيد شيخ. وعندما تمكن المؤيد شيخ من زمام الأمور خلعه. وتوفي المستعين بالطاعون سنة ٨٣٣ هـ. عبدالرحمن السيوطي. (ت ٩١١ هـ) **تاريخ الخلفاء**. تحقيق محيي الدين عبدالحميد. (القاهرة: مطبعة السعادة ١٩٥٢) ص ٥٠٥ - ٥٠٩.

(١٣) في النسخة «س»: (وختم الأرجوزة المذكورة بصاحب المناقب المشهورة).

(١٤) جلب برسباي (ت ٨٤١ هـ) إلى حلب فاشتراه الأمير دقماق وقدمه إلى الظاهر برقوق، فأعتقه وتدرج في السلم العسكري إلى أن تسلطن بعد خلع ططر سنة ٨٢٥ هـ. وفتحت في عهده قبرص سنة ٨٢٩ هـ. وُصِفَ بالبُخلِ الشديد وكثرة التلون ومقت الرعية. السخاوي، **الضوء اللامع** ٣ / ٨ - ١٠.

(١٥) لم يرد هذا البيت في النسخة «س».

(١٦) في النسخة «س»: (وهو برسباي المليك الأشرف بفضله كل الورى معترف).

(١٧) في النسخة «س»: (سقى ضريحه الرضى والرحمة فكم له محاسن في الأمة).

(١٨) في النسخة «س»: (يحذوه فيها مؤخرا واقتدى وبالعزيز في الملوك ابتدى).

والعزيز هو يوسف بن برسباي (٨٢٧ - ٨٦٨ هـ) كان عمره عندما سلطنوه أربعة عشر عاما. ابن اياس، بدائع الزهور ٢ / ١٩٠، السخاوي، الضوء اللامع ١٠/٣٠٣.

(١٩) في النسخة «س»: (ومن غدا اسكندر الأوان).

(٢٠) في النسخة «س»: (أعني).

(٢١) في النسخة «س»: (بسيره).

أورد منها نبذة يسيرة　　عند محلّ ذكره في السيرة
أذكر ماله من الخصائص[٢٢]　　من كل منسوب إليه خالص
ما فرح الملوك في الدهور　　بمثل وصف مجده المشهور[٢٣]
فغاية القصد بهذا النظم[٢٤]　　مع قصد تذييلي كتاب عمي
سيرة هذا الملك السعيد　　ذي الفضل مع شأو العْلى البعيدِ[٢٥]/[٢أ]
إذا ما رأينا مثلها في النقل　　وهذه هدية المقل
سميتها القول السديد[٢٦] الأظرف　　في سيرة الملك السعيد الأشرف[٢٧]
ومن هنا أشرع في المقصود　　معتصماً بالملك المعبود[٢٨]
واسأل الله يعينني على　　إبرازها تبهر من تأملا[٢٩]
نافعة خليّةً من الزلل　　موصلة إلى المراد والأمل[٣٠]
بمنه وفضله وطوله　　والعون من قوته وحوله[٣١]
أقول ناقلا سطور الكتب　　لاعن رواتها فجانب عتبِي
إن برسباي انقضت أيامه　　وسلفت وطويت أعوامه

---

(٢٢) في النسخة «س»: (فيها إشارة إلى الخصائص).

(٢٣) في النسخة «س»: (بمثله في الملأ المشهور).

(٢٤) في النسخة «س»: (فجل مقصودي بهذه النظمى).

(٢٥) في النسخة «س»: (ذو الفضل والكمال والتأييد ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها:

(لأجل ذا صرفته إليه　　معولا في قصصي عليه)

(سميته الاشارة الوفية　　إلى الخصوصيات الأشرفية)

(٢٦) كانت القول البديع ثم شطب المؤلف كلمة البديع وكتب ازاءها في الجانب الأيسر كلمة السديد.

(٢٧) لم يرد هذا البيت في النسخة «س».

(٢٨) يلي هذا البيت في النسخة «س»:

معتمدا ما سطروا في الكتب　　معتذرا عن موجبات العتب

(٢٩) في النسخة «س»: (ابرازها مثل العروس يجتلي).

(٣٠) في النسخة «س»:

في حلل البديع والبيان　　رشيقة الألفاظ والمعاني

(٣١) في النسخة «س»: (بمنه وفضله وحوله وجوده وعونه وطوله).

بعد محاسن له عديدة   وحركات كلها سديدة
ومنذ قام عنده الدليل   بأنه قد قرب الرحيلُ
أسند بالعهد قُبيل الهُلكِ   إلى ابنه يوسف أمر الملك[٣٢]
ولقبوه الملك العزيزا   وطرزوا الملك به تطريزا
فملك السرير يوم السبت   ثالث عشر حجة بالثبت
في عام واحد وأربعينا   بعد ثمان قد مضت مئينا (٢ب)
فاختلعوه بعد ذا سريعا   وكان شهر خلعه ربيعا
اعني به شهر ربيع الأول   من سنة اثنين، فكان ما ولي
في غير غبطة بها ولا دعة   سبعين يوما انقضت وأربعة
لأنه كان نهارا الأربعا   تاسع عشر الشهر يوم خلعا
وذلك اليوم تولى جقمق[٣٤]   وعاد للملك السنا والرمق
ولقبوه بالملك الظاهر   وكان ذا عقل وفضل باهر
ما كان ملكه بغير حق[٣٥]   بل استحق الملك بالترقي
لأجل هذا كان قد تهذبا   وكان ورد ملكه مستعذبا
قد أشبه الربيع في الزمان   [بماسه] يبلغ من أماني[٣٦]
وكان ذا محاسن لا تنحصر   في حسن وصفها المطيل مقتصر[٣٧]
فاق على الملوك قدراً وسما   وكم أزال[٣٨] ضررا وحسما

---

(٣٢) انظر الهامش (١٨).
(٣٣) في النسخة «س»:
(في غير راحة بها ولا دعة   تسعين يوما حررت وأربعة)
(٣٤) توفي جقمق سنة ٨٥٧ هـ. انظر ابن اياس، **بدائع الزهور** ٢ / ١٩٨، والسخاوي، **الضوء اللامع** ٣ / ٧١ - ٧٤.
(٣٥) في النسخة «س»: (مالك الأمر بغير الحق).
(٣٦) لم يرد في النسخة «س» ولم أستطع قراءة الكلمة الأولى في عجز البيت. فرسمتها كما في النص.
(٣٧) في النسخة «س»:
(وكان ذا محاسن لا تنحصر   مطيل وصفها لعمري مقتصر)
(٣٨) في النسخة «س»: (فاق عا).

وكم حبا بفضله الرعايا   وأجزل الهبات والعطايا
وكان ذا دين وذا عبادة   وذا شهامة وذا سعادة
قد نشر[٣٩] العدل على العباد   ومدَّ مهد الأمن في البلاد
ومن دمشق الشام مع أعمالها   قد أبطل المكوس باستئصالها (٣أ)
وهذه من أعظم المناقب   تشرق بالنور كنجم ثاقب
وعندما حلت به الأسقام   وثم لم يبق له مقام[٤٠]
أحس بالرحيل والزوال   وبانقلاب صور الأحوال[٤١]
فأسند الملك بعهد منه   إلى ابنه لكي يقوم عنه
وكان في يوم الخميس حادي   عشرين حررت بلا ازدياد
من المحرم الحرام مسح   سنة سبع بعد خمسين فصح
عد سنيه أربعا وعشرا   وتسعة من الشهور أخرى
وقام عثمان ابنه من بعده   الملك المنصور يوم سعده[٤٣]
فلم تطل مدته بل انقضت   وأدبرت دولته وانتقضت
كأنها في الحلم كانت نوما   ثلاثة وأربعون يوما
هذا الذي رأيت لكن قيلا   زادت على ما قلته قليلا
ووقعت بين الجيوش معركة   فاختلعوه من أمور المملكة
خامس أيام ربيع الأول   ودام أمر الملك غير منجلي
ليوم الاثنين وكان ثامنا   فأظهر المنابذون الكامنا
ونال منهم المنى من نالا   وسلطنوا من بعده اينالا[٤٤] (٣ب)

---

(٣٩) في النسخة «س»: (كم نشر).
(٤٠) في النسخة «س»: (وانتشرت بجسمه الآلام).
(٤١) في النسخة «س»: (لما رأى من خلل الأحوال).
(٤٢) في النسخة «س»: (عشرى محرم سناه بادي).
(٤٣) كان عمر عثمان بن جقمق (٨٣٩ ـ ٨٩٢) عندما تولى السلطنة ١٩ عاما. ابن اياس، بدائع الزهور ٢ / ٣٠١، السخاوي، الضوء اللامع ٥ / ١٢٧.
(٤٤) توفي اينال سنة ٨٦٥ هـ. ابن اياس، بدائع الزهور ٢ / ٣٠٧، السخاوي، الضوء اللامع ٢ / ٣٢٨.

الـملك الأشـرف لـيـث الـتـرك	بـغـايـة الـعـز ارتـقـى لـلمـلك
وذا لأنـهـم لـه قـد بـايـعـوا	بـالـمـلك مـرات وهـن أربـع
وهـو يـريـهـم عـزة وعـفـة	والـسعـد مـن رب الـسـمـاء حـفـه
حتى رقـي ذلـك الاثـنـين عـلى	كـرسيـه سلطان ذلـك الـمـلا[٤٥]
دام ثـمـانـيـا مـن الـسـنـيـنـا	مبـواً في مـلكـه تـمـكـيـنـا[٤٦]
وخـمـسـة أيـضـا من الـشـهـور	كـمـا رأيـتـه من الـمـشـهـور[٤٧]
ـهـا مـن عـدد الأيـام	كـعـدد الـسـنـيـن بـالـتـمـام[٤٨]
وحـل يـوم الأربـعـا في الـجـنـدل	رابـع عـشـر مـن جـمـادى الأول
في عـام خمسـة وستين مـضت[٤٩]	بـعـد ثمـان مـائـة قـد انـقـضـت
وقـام أحـمـد ابـنـه الـمـؤيـد	من بعـده لـله شكـرا يـحـمـد[٥٠]
فـاخـتـلعـوه فـي نـهـار الأحـد	تـاسـع عـشـر رمـضـان الأمـجـد

(٤٥) في النسخة «س»:

(حتى رقى في يوم الاثنين على	كـرسيـه مسلطنا على المـلا)

ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها:

(وهـذا الـذي رأيـتـه مـسـطـر	وعـنـدمـا أرخـه مـحـررا
وقـد رأيـت رقـعـة مـشـتـمـلة	على الـذي أذكـره في التكملة
قـد نقلت من حجـر منـقـور	في البعض من قـنـاطـر الجسـور
من عـهـد اينـال نقلت منـهـا	ومـا رويـت بـعـد ذا فـإنـهـا
حتى بلغت يـوم قـام الأشـرف	وهـو الـذي بكـل فخـر يـوصف
ثـم الـذي أذكـر مـن أخـبـاره	ممـا بـدا في الكـون من آثـاره
فـعـن شـيـوع ذكـره أحـكـيـه	ولـسـت عـن مـعـيـن أرويـه
فـعـنـدنـا أخـبـاره مـاثـوره	وفي الـورى سيـرتـه مشهـورة
ومـن هـنـا نـرجـع لـلمـقـال	حتى يتم الـقـول في ايـنـال

(٤٦) في النسخة «س»: (دام ثمانيا من السنين في ملكه بالعز والتمكين).

(٤٧) في النسخة «س»: (كما نقلته أيضا من السطور).

(٤٨) في النسخة «س»: (وبعد ذا من عدد الأيام بقدر ما ذكرت في الأعوام).

(٤٩) في النسخة «س»: (في عام خمس بعد ستين مضت).

(٥٠) في النسخة «س»: (وقام بعده ابنه المؤيد مكانه وهـو المقام). ؤيد أنظر، ابن اياس، أحمد، وعن المؤيد انظر، ابن اياس، بدائع الزهور ٢/٣٦٩، السخاوي، الضوء اللامع ١/٢٤٦.

ثلاثة أيام بلا غلط | ومائة من بعد عشرين فقط
فصار بعد الخلع في حكم العدم | وسلطنوا الظاهر وهو خُشقدم[51]
فولى خمسة من الأعوام | ومثلها الأشهر مع أيام[52]
عدتها عشرون بعد واحد | ونزل اللحود غير عائد[53](٤أ)
في السبت وهو عاشر من شهر | ربيع الأول أبهى الدهر
من سنة اثنتين مع سبعينا | وفيه كان ربنا معينا[55]
للملك الظاهر يلباي فقد | تبوأ التخت بعزم قَدْ وَقَدْ
فاختلعوه من جلوس التخت | وكان ذاك الخلع يوم السبت[57]
سابع أيام جمادى الأول | من عامه فكان قدر ما ولي
خمسين يوماً مع سبعة فقط[58] | وسلطنوا مكانه لما سقط
ويوم الاثنين لستة مضت | من رجب بالخلع تمت وانقضت[60]
أيامه فقام فيه الأشرف | الشهم قايتباي فيما يعرف[61]

---

(٥١) عن خشقدم (ت ٨٧٢) أنظر ابن اياس، بدائع الزهور ٣٧٨/٢، والسخاوي ١٧٥/٣.
(٥٢) في النسخة «س»: (فدام خمسة من الأعوام كذا من الشهور بالتمام).
(٥٣) في النسخة «س»: (من بعد عشرين من الأيام وواحد وزال بالحمام).
(٥٤) في النسخة «س»: (في السبت يوم العشر من ربيع وهو ربيع مولد الشفيع).
(٥٥) في النسخة «س»: (من سنة اثنين وسبعين وقد تسلطن الظاهر فيه وقعد).
(٥٦) في النسخة «س»: (في تخت ملكه وكان يسمى يلباي لكن سعده ما تما).
توفي يلباي في السجن سنة ٨٧٣ هـ - انظر، ابن اياس، بدائع ٤٥٨/٢، والسخاوي ٢٨٧/١٠.
(٥٧) في النسخة «س»: (بل خلعوه في جلوس التخت وكان خلعه نهار السبت).
(٥٨) في النسخة «س»: (بعد سبعة).
(٥٩) في النسخة «س»: تمربغا ولقبوه الظاهرا فكان حظه عليه قاهرا.
ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها
(أقام ستين من الأيام واختلعوه في شهور العام)
توفي تمربغا سنة ٨٧٩. انظر ابن اياس، بدائع الزهور ٤٦٧/٢، والسخاوي، الضوء ٤١/٣.
(٦٠) في النسخة «س»: في يوم الاثنين لستة مضت من رجب الفرد الحرام وانقضت.
(٦١) في النسخة «س»: فقام قايتباي فيه وانتصب الملك الأشرف مذهب الوصب
ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها
وها هنا وقفت ليس عن ضجر بل تم ما رووا عن نقش الحجر

ومن هنا فيما قصدت أشرع	مما به عندي يطيب المشرع[63]
من سيرة أثنى بها عليه	وشيم أسندها إليه
تزهو على فرائد السلوك	بها يفوق سائر الملوك[64]
إذ قد نشا على التقى والدين	بلا تغير ولا تلوين[65]
فإنه لم يعرف التصابي	ولم يمل إلا إلى الصواب[66]
مما به يمتاز عند الناس[67]	طهارة الذيل من الأدناس (٤ب)
يسلك في مناهج العبادة	يهجر في سبيلها رقاده[68]
تهجداً في ظُلم الليالي	تنسكا فيها لذي الجلال
يقسم الأوقات بالأوراد	مقتدياً بسنن العبّاد
ألحانه التهليل والأذكار	لا دف عنده ولا مزمار
من غيره من سائر الملوك	يسير في مراتب السلوك
بالصبر والشكر وبالتوكل	في كل أمر معضل ومشكل
فهي مقامات ذوي الإيمان	مسالك الإخلاص والايقان[69]
ثبات جأشه سلوك الصبر[70]	وطاعة الله أجلُ شكر[71]

---

(٦٣) في النسخة «س»: (لكنني فيما وعدت أشرع   مما به عندي يطيب المشرع).

(٦٣) في النسخة «س»: (من سيرة السلطان عز نصره   وبانبساط العدل طاب عصره
ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها
فكم له محاسن لا تحصى   تعد بالمدح ولا تستقصى

(٦٤) يلي هذا البيت في النسخة «س»:
(قد عظمت وحسنت أدابه   في الدين والفضل الجميل دابه)
(أجل ما يثنى به عليه   من الذي أنسبه إليه)

(٦٥) في النسخة «س»: (نشئته على التقى والدين   فلا تغير ولا تلوين).

(٦٦) في النسخة «س»: (فإنه لا يعرف التصابي   ولا يميل لسوى الصواب).

(٦٧) في النسخة «س»: (مما به ساد جميع الناس).

(٦٨) في النسخة «س»: (بل إنها طريقة العبادة   يهجر في سلوكها رقاده).

(٦٩) في النسخة «س»: (فهذه خلاصة الإيمان   وهي دليل الصدق والايقان).

(٧٠) في النسخة «س»: (مقام).

(٧١) في النسخة «س»: (مقام الشكر).

كم نـزلت من عنـده عسـاكـر ... وهـو على البذل الجـزيـل صـابـر
يـنفـق في مصـالـح العـبـاد ... حـرصـا عـلى صيـانـة الـبـلاد
مـا لـيس يحصى قـدره بـالـضـبط ... بـل فـات حصـره حساب القبط[٧٢]
ولـيس عـنـده مـن الـبـذل مـلـل ... وبجميـل الصبـر يلقى مـا حصـل
يـدأب في عمـارة المسـاجـد[٧٣] ... لأجـل كـل راكـع وسـاجـد
وكـم وكـم عـمَّـر مـن مـدارس ... لأجـل كـل قـارىء ودارس[٧٤]
من ذاك مـا في مكـة قـد أسـسـه ... لمـا بنى ربـاطهـا والمـدرسـة (٥أ)
والمكتب المـوقـوف لليتـامى[٧٥] ... والـعـيـن يجـري مـاؤهـا دوامـا
ومسـجـد الخيف كـذا سبـيـله ... زال عـن الـظامي بـه غـليـله[٧٦]
والمشـعـر الأعـلى ومسـجـدٌ بـه ... ومسجـد الجمـع بـغيـر مشـبـه
والعين يجـري مـاؤهـا في عـرفـه ... تمت بـهـا المحـاسن المختلفـه
وطـفـحـت غـدرانهـا مـن بعـد مـا ... مـاتت بها نفـوس قـوم بـالـظمـا[٧٧]
وفـي خليص عـيـن مـاءٍ أيـضـا ... في بـركـة بـهـا تـفيض فـيـضـا
وغـيـر ذا مـن خـيـره وبـره ... أليس هـذا من سلوك شكـره[٧٨]
وفى[٧٩] لـه الـلـه بـمـا قـد وعـده ... فـزاده بـشـكـره وأسـعـده
كـم هـيـأ الـلـه مـن سـبـب ... حتى لـقـد حـاز عـلو الـرتـب[٨٠]
فـنـال مـا كـان لـه مـدخـرا ... بـه عـلى كـل الملوك افتـخـرا[٨١]

---

(٧٢) في النسخة «س»: (لا بالدواوين ولا بالقبط).
(٧٣) في النسخة «س»: (من شكره عمارة المساجد).
(٧٤) في النسخة «س»: (وما له في الكون من مدارس ... اعانة لقارىء ودارس).
(٧٥) في النسخة «س»: (المخصوص).
(٧٦) في النسخة «س»: (زال به عن ذي الضما غليله).
(٧٧) في النسخة «س»: (قد طفحت غدرانها من بعد ما ... ماتت بها نفوس قوم بالظما).
(٧٨) في النسخة «س»: (فانظر إلى خيراته وبره ... أليس هذا كله من شكره).
(٧٩) في النسخة «ن»: (وفا)، وفي النسخة «س»: (وفـا).
(٨٠) في النسخة «س»: (فاق به من قد مضى في الحقب).
(٨١) انفردت النسخة «ن» بهذا البيت.

وكم مضى من ملك عليه ... مجتهدا ولم يصل إليه[٨٢]

مثل الذي جدده بمكة ... مما به شيد فينا مُلكَه[٨٣]

ومثل ما في طيبة قد صنعا ... فاكتسب الذكر الجميل والدعا[٨٤]

وكم له فيها من المآثر ... فإنها من أعظم المفاخر

أجرى له الله بها الأقدارا ... حتى لقد صارت له تذكارا[٨٥] (٥ب)

على ممر الدهر والزمان ... سائرة الذكر مع الركبان

شائعة في سائر البلدان ... ملء عيون الناس والآذان[٨٦]

فاصغ لما أسرده من ذكرها ... بإذن واعية بفكرها[٨٧]

قد قدر الله حريق الحرم ... واتقدت أخشابه بالضرم[٨٨]

وعمت النار جميع المسجد ... وغيرت أحوال ذاك المعهد

وما دنت للحضرة الشريفة ... ولا لتلك القبة المنيفة

وهي التي عمرها السلطان ... من قبل أن تشتعل النيران

فصار ذاك المسجد الشريف ... والمعهد[٨٩] المكرم المنيف

ممتلئا بساقط البنيان ... من سائر الجهات والأركان

حتى تبدلت به الحالات ... وقد تعذرت به الصلاة

وقصة الحريق كانت هائلة ... صارت بهولها العقول ذاهلة[٩٠]

---

(٨٢) في النسخة «س»: (كم قد مضى بحسرة عليها ... من ملك ولم يصل اليها).

(٨٣) في النسخة «س»: (من ذاك ما ذكرته في مكة ... فخلد الله تعالى ملكه).

(٨٤) في النسخة «س»: (ومن هنا نذكر ما في يثرب ... وطيبة هي مدينة النبي).

(٨٥) في النسخة «س»: (حتى تصير بعده تذكارا).

(٨٦) في النسخة (س): (وليس يخفى قط في مكان) ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها

من ذا من الملوك في زمانه ... فاز بهذا الفخر في سلطانه

(٨٧) لم يرد في النسخة (س).

(٨٨) في النسخة (س):

(فقدر الله حريق الحرم ... ودرست آثاره بالضرم)

(٨٩) في النسخة (س): (المشهد).

(٩٠) في النسخة (س): (بهولهاالعقول أمست ذاهلة).

قد لحقت جماعة فاحترقوا وشمل الناس هناك الفرق

من حيث ظنوا أنها تلحقهم وبلهيب لفحها تحرقهم[٩١]

لما رأوه من جليل الخطب بحيث حققوا نزول العطب

فبينما عيونهم تفيض إذ لاح فوقهم طيور بيض/(٦أ)

ترد بالأجنحة النيرانا ومن لظاها[٩٢] تحرس الجيرانا

فعند هذا خمد الزفير وبعد ذلك انطفا السعير

وإنه لحادث مكدر فبلغ السلطان هذا الخبر

فشق أمره عليه جدا فقام في استدراكه مجدا[٩٣]

أخلص فيه نية وقصدا وسال الله الهدى والرشدا

وسلم الأمر إلى مولاه حتى[٩٤] من التوفيق ما أخلاه

فمن تمام سعده المؤيد توفيقه لحسن[٩٥] هذا المقصد

فنهضت همته الشريفة لنيل[٩٦] هذى الرتبة المنيفة

وجهز الرجال والعمالا من فوره وبذل الأموالا

على يد المولى المقر الشمسي[٩٧] لا زال يضحي سالما ويمسي

أبي الوفا محمد بن الزمن من دابة الخيرات طول الزمن

أبقاه رب العالمين سالما يجدد الآثار والمعالما

فاستصحب الرجال والأموالا وقطع القفار والرمالا

---

(٩١) في النسخة (س): (جميعهم وأنها تحرقهم).

(٩٢) في النسخة (س): (ومن أذاها).

(٩٣) في النسخة (س): (وسال الله تعالى رشدا).

(٩٤) في النسخة (س): (لذا).

(٩٥) في النسخة (س): (لمثل).

(٩٦) في النسخة (س): (لحوز).

(٩٧) «كان الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن من مشاهير التجار في سعة المال وهو صاحب المدرسة التي ببولاق عند الرصيف وكان دينا خيرا لا بأس به، توفي سنة ٨٩٧هـ».
ابن طولون، **مفاكهة الخلان** ١/(٩، ابن إياس، **بدائع الزهور** ٣/١٨٨، ٢٩٣ السمهودي، **وفاء الوفاء** ١/٥١٦.

وسار حتى وصل المدينة ... في غاية الخضوع والسكينة

فدخل المسجد وهو خاشع ... منهلّةٌ من أعينه المدامع /(٦ب)

لما رأى من أثر الحريق ... ففاز بالرشد وبالتوفيق[٩٨]

وشرعوا من فورهم في العمل ... مستبشرين ببلوغ الأمل[٩٩]

وابتدأوا من الجدار القبلي ... وهدموه للأساس السفلي[١٠٠]

لكونه اختل من النيران ... وصار محتاجا إلى البنيان

وبعده[١٠١] الغربي والمنارة ... وكل محتاج إلى العمارة

ثم أعادوا كل شيء كانا ... كأنهم قد جددوا المكانا[١٠٢]

وأحكموا الأوضاع في البنيان ... وذا بحسن نية السلطان[١٠٣]

ووضعوا الأشياء في محلها ... يروق للأبصار حسن شكلها

فالقبة العالية المنيفة ... على محل الحجرة الشريفة

وما يليها من مقام فاطمة ... فإنهم قد جددوا معالمه

مستتبعين بالبناء الماكن ... ما حول ذا من سائر الأماكن[١٠٤]

كذلك محراب الإمام الأعظم[١٠٥] ... عثمان صاحب الرسول الأكرم

---

(٩٨) في النسخة (س): (فسال الامداد بالتوفيق)

(٩٩) في النسخة (س):
عسى يفوز ببلوغ الأمل ... وشرعوا من فورهم للعمل)

(١٠٠) في النسخة (س): (وهدموه كله من اصل).

(١٠١) في النسخة (س): (كذلك).

(١٠٢) في النسخة (س): (وجددوا الجهات والأركانا).

(١٠٣) في النسخة (س):
(واتقنوا صناعة البنيان ... وكل ذا بنية السلطان)

(١٠٤) في النسخة (س):
(وما حواليه من الأماكن ... فاحكموه ببناء ماكن)

(١٠٥) في النسخة: (س): (الشهيد الأعظم).

كـذلـك محـراب النبي التهـامي سـووه بـالـروضـة والـمـقـام
فـصـارت الـقـدوة لـلـمـصـلي في الـروضـة الشـريـفـة المحـل
تـصـح إجـمـاعـا بـلا ارتـيـاب خلف إمـام ذلـك المحـراب/(٧أ)
ونـقـلوا مـا كـان مـن تـراب في الحـجـرة الـرفيعـة الجـنـاب
والـروضـة الشـريفـة المعـظمـة وحـولهـا في البقـعـة المكـرمـة
إلـى مكـان فـي أواخـر الـحـرم لـكـون ذلـك الـتـراب يـحـتـرم
واجـتـمـع الـكـبـيـر والـصـغير لـلنقـل والـغـنـيُّ والـفـقـيـرُ
حـتـى مـن الـنـسـاء والأطـفـال فـإنـهـم جـاؤوا مـع الـرجـال
وربـهـم أعـانـهـم بـالـيـسـر فـتـم فـي نـحـو لـيـال عـشـر
وجـعـلوا بـه هـنـاك مـعـهـدا لـلعـاكـفـيـن وابـتـنـوه مـعـبـدا
وقـد بـنـوا ثـم لـه مـحـرابـا[١٠٦] وأمـلوا مـن ربـهـم ثـوابـا
تـشـمـلهـم ظـلالـه الـوريـفـة وتـمـلا الـصـحـائف الـشـريـفـة
وأحسـنـوا في المنبـر الـشـريف صـنـاعـة الـتـركيب والـتـرصيف
حـتـى بـدا يـحـيـر الأبـصـارا ويـدهش الألـبـاب[١٠٧] والأفكـارا
كـذلـك الـروضـة والـمـقـام قـد فـوقت والـوزرة الـرجـام[١٠٨]
وقـد حـوى بـاب الـسـلام حسـنـا أضـحى بـه من الـريـاض أسـنى
ونمقـوا الـطرز بحيث قـد حكت[١٠٩] ثغـور زهـر في الـريـاض ضحكت
ورخـمـوا الحـجـرة أيضـا كـلهـا وحسنوا للناظرين[١١٠] شكلها/(٧ب)
وأحـكـمـوا فيهـا مـن الـصـنـاعـة مـا يـسـتـمـر لـقـيـام الـسـاعـة

---

(١٠٦) في النسخة (س): (وجعلوا أيضا له محرابا).
(١٠٧) في النسخة (س): (العقول).
(١٠٨) في النسخة (س): (ووزرة حليها الرخام).
(١٠٩) في النسخة (س): (أما الطرازات فإنها حكت).
(١١٠) في النسخة (س): (للزائرين).

يـروق لـلعيـن بحسن بـاهـر | كـأنـهـا وجنـة روض زاهـر[111]
قـد زخـرفت بكـل شكـل مبتكـر | بفـرط حسنـه يحيـر الفكـر[112]
وكـل مـا[113] في الحـرم الشـريف | مـن الـثـقيـل أو مـن الـخـفيـف
قـد صيـروه كـلـه جـديـدا | لا يشبـع الطرف بـه ترديـدا[114]
ولا تـفـي بـوصـفـه الـعـبارة | وعـنـدمـا تـنـاهـت الـعـمـارة
ونـجـزوا مـن سـائـر الأعـبـاء | أتـوا من العـقيـق بـالحصبـاء[115]
وفرشـوهـا في جميع[116] المسجـد | وهـيـأوا الـمـكـان لـلـتـعـبـد
وأرسـل الـسـلطان أيـضـا بسـطا | فـأكملت بـالمعنيين[117] البَسـطا
مـن أنـفس الـبسط ومـن أغـلاهـا | كـأنـهـا الـزركش فـي حـلاهـا
وأرسـل الـربعـات والمـصـاحفـا | لـهـا ثـواب يـمـلا الصحـائـفـا
وكـتـبـا فـي الـعـلم والـقـراءة | كـانـت مـن الـنـار لـه بـراءة
كـذلـك المقصـورة المحجـرة[118] | من الحـديـد جعـلت مـشـجـرة
كـي لا تـكـون مـوطـىء الأقـدام | حجـرة خيـر الـرسـل الكـرام[119]
وجـهـة الـقـبـلة مـنـهـا فـصـلت | وبـالشبـابيـك النحـاس جعلت/(٨أ)

---

(111) في النسخة (س):
(يـروق لـلعيـن بحسن الـمـنـظر | كـأنـهـا ابـتـسـام ثـغـر الـزهـر
(112) في النسخة (س): (وحلية الصندوق تدهش البصر | فيها صناعات تحير البصر).
(113) في النسخة (س): (وكلما).
(114) في النسخة (س):
(فـإنـه صـار جـديـدا مـتـقـنـا | مـا تـرك الـصـنـاع فـيـه مـمـكـنـا
(115) في النسخة (س):
(واشـرقـت بـالـنـور والـلالاء | جـاوا مـن الـعـقيـق بـالـحـصـبـاء
(116) في النسخة (س): (نواحي المسجد).
(117) في النسخة (س): (بالمعين).
(118) في النسخة (س): (المشجره).
(119) في النسخة (س):
(لـلحـجـرة الـعـالـيـة الـمـقـام | كـيـلا تـكـون مـوطـىء الأقـوام)

بهـا محاسن المكـان احتبكت … كـأنهـا من النضار سبكت
فـأشرقت وسطعت أنوارها … وابتهجت بحسنها زوارها
وكسوة الحجرة فوق النعت … لم يـر مثل حسنها في الوقت[120]
كـذا القناديل التي قد علقت … مثل كواكب السماء أشرقت
يقول رائي حسن نورها[121] الوضي … في وصفها يكاد زيتها يضي
تحملها سلاسل ذات لهب … تحسب أنها سلاسل الذهب
فصار ذاك المشهد العظيم … والمعد المشرف الكريم
وكل ما فيه من البدائع … ومحكمات سائر الصنائع[122]
وماله يضاف من توابع … بين معالم إلى مرابع
ينسب للسلطان عز نصره … كما كماله يعز حصره
وإن هذا غاية الكمال … لأنه من أفضل الأعمال[123]
لو لم يكن له من المعروف … إلا بناء الحرم الشريف
لكان كافيا له في ذخره … ووافيا بمجده وفخره[124]
فكيف والله تعالى زاده … سعادة يقضي بها مراده
ويقتضي في ملكه تمكينه … فإنه جدد في المدينة /(٨ب)
غير العمائر التي في الحرم … جوار ذلك المشهد المكرم
مدرسةً عليَّة المنار … جليلة مشرقة الأنوار

---

(١٢٠) في النسخة (س): (في وقت).
(١٢١) في النسخة (س): (شكلها).
(١٢٢) في النسخة (س):
(وكل ما فيه من التوابع … من محكمات ساتر الصنايع)
(١٢٣) في النسخة (س):
فإن هذا غاية الكمال … ومنتهى المرام والآمال)
(١٢٤) في النسخة (س):
لكان هذا كافيا في فخره … على الملوك وسمو قدره)

تظهر للرائين باطن الحرم ... كأنها في حسن رصفها ارم[١٢٥]
لها منارة منيرة علت ... ولعيون الناظرين قد حلت
تفوق في أوصافها العروسا ... وتبهج العقول والنفوسا
جوارها الرباط قد عمره ... وفيهما المعروف قد قرره
يجري مدى[١٢٦] الأيام والدهور ... يبقى[١٢٧] مع الأعوام والشهور
كذلك السبيل بالوجهين ... ومثله السبيل قرب العين
كل سبيل لم يزل ملآنا ... يروى بعذب مائه الظمآنا
كما[١٢٨] على باب السلام أيضا ... بنى سبيله يفيض فيضا
فظهر ذلك السبيل مكتبا[١٢٩] ... والبر للأيتام فيه رُتِّبا
معلومهم مقرر لن يبرحا ... وعمر الفرن ودارا للرحا
وعمر الحمام والوكالة ... والظل والمكس رأى إبطاله
والمكسَ للأمير كان رسما ... فحسم السلطان ذاك حسما[١٣٠]
وعوض الأمير بالحلال ... وهذه من أشرف الخلال/(٩أ)
قرره يحمل كل عام ... بضعف قدر رسمه الحرام[١٣١]
فهذه في طيبة آثاره ... وكل فعل حسن شعاره[١٣٢]
كذا رباط حصنها العتيق ... يعاده بمنظر أنيق[١٣٣]
كذاك في منزل وفد مكة ... عمر مسجدا لهم وبركة

---

(١٢٥) في النسخة (س):
(كأنها في حسن وصفها ارم ... تظهر للرائين باطن الحرم)
(١٢٦) في النسخة (س): (مدا).
(١٢٧) في النسخة (س): (باق).
(١٢٨) في النسخة (س): (كذا).
(١٢٩) في النسخة (س): (وقد بنى ظهر السبيل مكتبا).
(١٣٠) في النسخة (س): (هذا).
(١٣١) في النسخة (س): (المكس والحرام).
(١٣٢) في النسخة (س):
فهذه آثاره في يثرب ... وفعله الجميل في حب النبي)
(١٣٣) في النسخة (س): (عاد له حسن البنا الوثيق).

وحوض ماء وكذا السبيل ماؤهما الرائق سلسبيل[134]
فهذه مناقب جليلة وسيرة مشكورة جميلة[135]
ومن تمام فضله الشريف وظله المنتشر الوريف[136]
ما كمل المحاسن المذكورة وتمم الفواضل المأثورة
من يعظم المناقب المشهودة ليس لها نظائر معهودة
وشرح هذا إنه لما ورد للقدس زائرا بعزمٍ اطرد[138]
على محامد الفعال نالها وأخلص النية واعتنى لها[139]
فشهد المشاهد العظيمة[140] مؤملا للرحمة العميمة
من حيث زار[141] مشهد الخليل وحل في مقامه الجليل
وصار من ضيوفه والنزلا أعطاه ربه المنى وأجزلا[142]
فشاهد السماط في المقام مسبّلاً يجري على الدوام[143]/(٩ب)

---

(١٣٤) في النسخة (س): (ثواب كل منهما جزيل).
(١٣٥) في النسخة (س):
(فذي هي المناقب الجليلة والسيرة المشكورة الجميلة)
(١٣٦) في النسخة (س): (فضلها) و(ظلها).
(١٣٧) في النسخة (س): (واكرم الخصائص المعدودة).
(١٣٨) في النسخة (س):
وشرح هذا أنه لما قصد زيارة القدس الشريف واجتهد)
(١٣٩) في النسخة (س):
(على مواقع القبول نالها ويسر الله له أعمالها)
(١٤٠) في النسخة (س): (الكريمة).
(١٤١) في النسخة (س): (وسار نحو).
(١٤٢) في النسخة (س):
(وصار من ضيوف ذاك المشهد يؤمل الفيض وحسن المدد)
ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها: ثلاثة أبيات لم ترد في النسخة (ن).
(فنال منهم القرى الجليلا وقد كسوه ملبسا جميلا)
(حلة فضل وافتخار وعلا يظهر فضله بها على الملا)
طرازها يشرق في الاكوان بحسن ذكره مدى الزمان)
(١٤٣) في النسخة (س):
لما رأى السماط في المقام مسبلا لساير الانام)

فمد عين فكره الدقيق[١٤٤] بلائح من بارق التوفيق
لأن يكون مثله في مشهد نبينا أكرم به من معهد[١٤٥]
وسيلةً لحوضه المورود ولسبوغ ظله الممدود
وطلبا في الموقف المشهود للحشر مع لوائه المعقود
والفوز بالدخول في الشفاعة والسبق للفردوس يوم الساعة
وسرعة المرور في الصراط[١٤٦] ومقعد الصدق على البساط
فنهضت[١٤٧] حينئذ عزائمه وطفحت وسمحت مكارمه
واستوفرت[١٤٨] همته الشريفة إلى ارتقاء الرتبة المنيفة
وحقق النية بالإخلاص فنال منها رتبة[١٤٩] اختصاص
بحيث لم يسبقه في الكون أحد لفعل[١٥٠] ذا فهو الذي به انفرد
فقرر الوقف الجزيل الوافي بحيث إنه لذلك كافي[١٥١]
ورتب القوت لأهل طيبةِ مع الحضور جارياً والغيبةَ
مثل سماط مشهد الخليل مخلد التحبيس والتسبيل
وفى لهم بوعد ذي المبرَّةِ وحط عنهم إصرَهم الميرةِ[١٥٢]
فكم من الضعفاء والأيتام وفقراء ذلك المقام / (١٠أ)
من مخلص بصالح الدعاء لله في الصباح والمساء
بنصر هذا الملك السعيد الصادق الإيمان والتوحيد

---

(١٤٤) في النسخة (س): (لاحت له بوارق التوفيق فمد عين فكره الدقيق).
(١٤٥) في النسخة (س): (لأن يكون مثل هذا المشهد في باب أشرف الورى محمد).
(١٤٦) في النسخة (ن): (السراط).
(١٤٧) في النسخة (س): (تحركت).
(١٤٨) في النسخة (س): (ونهضت).
(١٤٩) في النسخة (س): (فنال هذا الخير).
(١٥٠) في النسخة (س): (الفعله).
(١٥١) في النسخة (س): (فصار جاريا لأهل يثرب وقف على سماطها المرتب).
(١٥٢) في النسخة (س): (وانجز الوعد لأهل طيبة وابتهجوا بهذه الميرة).
والميرة: الطعام يمتاره الإنسان.. والميرة جلب الطعام، ابن منظور، لسان العرب، ١٨٨/٥.

فكم لـه في الكـون من كـرامـة خـالـدة الـذكـر إلى يـوم القيـامـة

كـل كـرامـة لـهـا إشـراف سـر مـن إشـراقـهـا الآفـاق[١٥٤]

صـغـيـرهـا قـد مـلأ الأقـطارا وطـبـق الـبـلاد والأمـصـارا

كـيـف يـنـال وصـفـنـا كـبـيـرهـا ولـم يـسـع بـيـانـنـا صـغـيـرهـا

فـنـطقـنـا بـأبـلـغ الـعـبـارة نـسـبـتـه لـوصـفـهـا إشـارة

وهـذه آثـاره الـعـظيـمـة في مثـل تـلك البقعـة الـكـريمـة

مـن بـعض مـا خـصـصـه الـله بـه مـن دون أهـل شـرقـه وغـربـه

ومـن خصـوصيـاتـه الـحـج إلى حـضـرة بـيـت الـلـه جـل وعـلا

مـع زيـارة[١٥٥] الـنـبـي الـهـادي خـيـر الـورى وأشـرف الـعـبـاد

صـلى عـليـه ربـنـا وسـلمـا[١٥٦] والآل والصحب ومن لـه انتمى[١٥٧]

وعـم عـام الـحـج بـالـنـوال والـكـرم الـجـزيـل والأفـضـال

جـيـران بـيـت الله والـرسـول بـلـغـم الله جـمـيـع الـسـول

قـد زاده الله جـمـيـل الـذكـر على سلوكه مقام الشكر[١٥٨]/(١٠ب)

كـان دلـيـل شـكـره الـزيـادة من موجبات السعد والزيـادة[١٥٩]

فـقـد رقى لأفـخـر الـمـراتـب بـجـمـع مـثـل هـذه الـمـنـاقـب

لأنـهـا سـامـيـة الـمـنـال إذ ذاك بـعـضـهـا مقـام عـالي[١٦٠]

يـظهـر هـذا لـلذيـن نـظروا بـالـحـق فـي أسـراره واعـتـبـروا

---

(١٥٣) في النسخة (س): (من مبتهل).

(١٥٤) في النسخة (س): (يبين من إشراقها الآفاق).

(١٥٥) في النسخة (س): (ثم زيارة).

(١٥٦) في النسخة (س): (ربه وسلم).

(١٥٧) في النسخة (ن): (والنسخة (س): (انتما).

(١٥٨) في النسخة (س): (لولا سلوكه مقام الشكر ما زاده الله جميل الذكر).

(١٥٩) في النسخة (س): (دليل حسن شكره الزيادة من موجبات الفوز والسعادة).

(١٦٠) في النسخة (س): (لأنها سامية المنال إدراك بعضها مقاما عالي).

ووردوا مشارب الحقيقة | وأدركوا الحكمة في الخليقة[161]
وكشفت سواطع الأنوار | لعلمهم مواقع الأسرار[162]
فالخلق للسر الخفي مظهر | والنور في هذا المقام أزهر
كم من ملوك في الزمان سبقوا | لكنهم لفعله ما لحقوا[163]
فهذه بشائر العناية | صاحبها سيبلغ النهاية[164]
وكلما قابلها بالشكر | يزداد فضلا لم يكن في الفكر
تجري المقادير له أسبابا | حتى ينال الفخر والثوابا
فبعد ذكر الحرمين ينبغي | نذكر من سيرته للمبتغي
أفراد ما خصصه مولاه | به من الفضل وما أولاه
فمن جليل خيره المؤسس[165] | سياقه قناة بيت المقدس
تعرف بالعروب كانت درست | ومن تعاقب السنين اندرست[166]/ (11أ)
فطهرت بسعدة وعمرت | وبمعين مائها قد غمرت
قد بلغت مناهلا منتشرة | في العد نحو بضعة وعشرة[167]
غالبها على الدوام يجري | طوبى له فاز بهذا الأجر[168]
من بعد ما كان الوضوء يشترى | والماء كان ربما تعذرا[169]
صار على طول المدى[170] مبذولا | يجري سبيلا قل وسلسبيلا

(161) في النسخة (س): (وعرفوا الحكمة في الخليقة).
(162) في النسخة (س): (بقلبهم مواقع الأسرار).
(163) في النسخة (س): (وما لقايتباي قط لحقوا).
(164) في النسخة (س): (بأنه سيبلغ النهاية).
(165) في النسخة (س): (فمن جميل خيره المؤسس).
(166) في النسخة (س): (ومن تعاقب الدهور وطمست).
(167) في النسخة (س): (يجري إلى مواضع معتبرة   تبلغ نحو بضعة وعشرة).
(168) في النسخة (س): (طوبى لمن فاز بهذا الأجر).
(169) في النسخة (س): (والشرب كان ربما تعذرا).
(170) في النسخة (س): (المدا).

هـذا هـو الـظل العميم الـسـابـغ   في ضمنـه النفـع العـظيم البـالـغ
كـم مـن وفـود مـن جـمـيـع الأرض   تـوسـعـوا في الـشـرب والتـوضـي
ووردوا مـنـهـل هـذا الـمـشـرب   مـن عـرب وعـجـم ومـغـرب[١٧١]
وعـمـر الـسلطان أيـضـا مـدرسـة   في المسجد الأقصى غـدت مؤسسة
فـي غـايـة الاتـقـان والإحـكـام   بـزخرف الـطُرز وبـالـرخـام[١٧٢]
يـحـار فـي نـعـوتـهـا الـمفـكـرُ   وبـالـجـنـان حـسـنـهـا يـذكـر
فنـونهـا بـالـوصـف ليس تـحصـر   ولا يـمـل مـن حُـلاهـا الـبـصـر
أبهـج من زهـر الـريـاض المُغـرس   لـم يـر مثلهـا ببيـت الـمقـدس
قـيـل ولا فـي سـائـر الأمـصـار   حتى ولا في سـالف الأعـصـار[١٧٣]
ومـن غـريب مـا بـه قـد وصفت   مع كونها على السطوح رصفت/(١١ب)
بـمـرتـقـى تـعـددت سـلالـمُـه   وأحكمت في وضعهـا معـالمـه[١٧٤]
إن بـعـيـرهـم لـوسـطهـا صـعـد   بـتـنـبـكٍ يـسـمـعـه كـل أحـد
ومـن فـرائـد الـخـصـائص الـتـي   عـزت عـلى كـل ملوك الـملة[١٧٥]
عـمـارة الـجـامـع فـي دمـشـق   بـعـد الـحـريـق المؤلـف الـمشـق
بـعـد بـنـي أمـيـة قـد انـتـسـب   حقـا لقـايتبـاي واسمع السبب[١٧٦]
كـانت قضيـة الحـريـق مـوجعـة   ولـلقـلوب بـالـلظىٰ مـروعـة[١٧٧]
تـعـلـقـت نـار جـوار الـجـامـع   ثـم استـطالـت بـاللهـيب الـلامـع
وانتشـرت فـأحـرقت مـا حـولهـا   وأظهـرت بـالاشتعـال هـولهـا[١٧٨]

---

(١٧١) في النسخة (س): (ومغرب).
(١٧٢) في النسخة (س): (قد طرزت بالأنفس الرخام).
(١٧٣) وفي النسخة (س): قيل ولا في ساير الأمصار   من ساير البلاد والأمصار).
(١٧٤) في النسخة (س): (بدرج تعددت سلالمه   لكنها قد أحكمت معالمه).
(١٧٥) في النسخة (س): (ومن فرائد المناقب التي   عز وجود مثلها في الملة).
(١٧٦) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.
(١٧٧) في النسخة (ن): (بلظى)، وفي النسخة (س):
(وقصة الحريق كانت موجعة   وللقلوب كلها مروعة).
(١٧٨) في النسخة (س): (وأظهرت خطوبها وهولها).

ونفذت للجامع المعمور من كوة مفتوحة للنور
وعظم الزفير والشهيق حتى سعى وانتشر الحريق
وأخذت تأكل في الأخشاب بسرعة وقوة التهاب[١٧٩]
وارتفعت في الجو لما اشتعلت حتى سمت على الجبال وعلت
لها دوي كالرعود القاصفة باتت به كل القلوب واجفة
وعظم العجيج والضجيج وهي بكل جهة تهيج
وكلما راموا خمود جمرها تضاعفت فارتبكوا في أمرها[١٨٠]/(١٢أ)
وأحرقت أسواق وقف الجامع وما بها للناس من بضائع[١٨١]
تسعة أسواق صارت بها هبا كانت حوت بضائعا وذهبا[١٨٢]
واحترق الجامع منها كله[١٨٣] وحال حاله وزال شكله
إلا رواقه الشمالي فلم يصل لسقفه اللهيب والضرم[١٨٤]
وغالب المشاهد الكريمة من الحريق أصبحت سليمة
وأصبحت[١٨٥] دمشق في حال ردي إذ حسنها كان بهذا المعبد
وكان وقفه خلاصة البلد فأصبحوا في أسف وفي كمد
من تاجر وصائغ وعنبري وخائط وبائع ومشتري
كذلك الرسام والحريري والأدميُّ وكذا السيوري
وغيرهم سكان وقف الجامع فأصبحوا يبكون بالمدامع
قد فقدوا غالب ما قد ملكوا وفجعوا في مالهم وارتبكوا[١٨٦]

---

(١٧٩) في النسخة (س): (بسرعة وشدة).
(١٨٠) في النسخة (س): (وكلما تقصدوا إخمادها كأنما قد قصدوا إيقادها).
(١٨١) في النسخة (س): (وأحرقت).
(١٨٢) في النسخة (س): (عدة أسواق).
(١٨٣) في النسخة (س): (أيضاً).
(١٨٤) في النسخة (س): (الحريق والضرم).
(١٨٥) في النسخة (س): (فأصبحت).
(١٨٦) في النسخة (س): (واضطربوا في أمرهم وارتبكوا).

ومـن بـنـور كـحـلت بـصـيـرتـه وبـالهـدى تنـورت سـريـرتـه[187]
لاحـت لـه بـوارق الـحـقـيـقـة فـأبـصـر الـمـدارك الـدقـيـقـة
حـتى رأى كـل مـواقـع الـقـدر ممـا بـه يبـدو صفـاء أو كـدر[188]
فـي ضـمـنـه سـر مـن الأسـرار وحكمةبهاالقضاءجاري[189]/(12ب)
تـخـفـي عـلى مـدارك الأنـام بـنـظر الأفـكـار والأفـهـام[190]
كـمـا تـضـمـنـتـه تـلك الـقـصـة فـراسخ العقـل يـراهـا فـرصـة[191]
مـعـدودة مـن فـرص الـزمـان هـيـأهـا الإلـه الـسـلطان
من الخـصـائص التـي مـا سبقـت لـلغيـر بـل سـوقـا إلـيـه اتفـقـت
ظـلالـهـا عـلى الـورى وريـفـة تـكـتـب لـلصـحـائف الـشـريـفـة
فـإنـه بـالأمـر لـمـا عـلمـا شـق عـلـيـه رأفـة وألـمـا[192]
وانـبـعـثـت فـكـرتـه الـمـضـيـة لـنـظر فـي هـذه الـقـضـيـة[193]
فـصـدقـت نـيـتـه فـي الـحـال وجـاد لـلجـامـع بـالأمـوال
ورسـم الـسـلطان بـالـعـمـارة ووردت بـذلـك الـبـشـارة
فـعمـروا مـن مـالـه الـمـصـروف مـا كـان قـد زال من الـوقـوف[194]
وجـددوا الأسـواق حـتـى عـادت لحسنهـا المعهـود بـل قـد زادت[195]
واخـتلفـوا عـنـد بـنـاء الـجـامـع فـي الـرأي مـن مـعـلم وصـانـع
وكـيـف يـرتـقـون لـلعـلوِّ في الارتـفـاع الـشـاقـه الـسـمـوِّ

(187) في النسخة (س): (لكن من قد فتحت بصيرته).
(188) في النسخة (س): (مما يؤثر الصفا والكدر).
(189) في النسخة (س): (من ضمنه سر من الأسرار يدق من غوامض الأفكار).
(190) في النسخة (س): (وحكمة تخفى على الأنام ولا تنالها يد الأفهام).
(191) في النسخة (س): (وشرح هذا ضمن تلك القصة فثابت العقل يراها فرصة).
(192) في النسخة (س): شق على خاطره والما.
(193) في النسخة (س): (لأنه قد رحم الرعية فيما جرى من هذه القضية).
(194) في النسخة (س): (فعمروا من ماله الشريف ما شمل الهدم من الموقوف.
(195) في النسخة (س): (لحالها بل حسنت وزادت).

بـكـل عـود مـثـل طـود راسـي — يـخـرج عـن دائـرة الـقـيـاس
واضـطربـت في ذلـك الـعـقـول — وصـار كـل قـائـل يقـول[١٩٦]/ (١٣أ)
ولـم تـزل تـخـتـلف الـحـظوظ — فقـام شخص بـينهم مـلحـوظ[١٩٧]
مـحـمـد شـهـرتـه بـالـكـفـتـي — بقصـد في ذا الاختـلاف يفتـي[١٩٨]
فـقـال إنـي عـارف بـحـركـة — فـاعتبـروا لعـل فيها حـركـة[١٩٩]
بـهـا تـخـف سـائـر الأثـقـال — فسخـروا منـه بـذا المـقـال[٢٠٠]
فـقـال لـو تـكـون كـالـجـبـال — رفـعـتـهـا بـلولـب الـحـبـال[٢٠١]
خـالـفـه الـمـعـلمـون كـلهـم — ولـم يـسـع إمـكـان هـذا عـقـلهـم
فـقـال مـن يـحـكـم فـي ذا الـشـان — وكـان مـن جمـاعـة السلطان[٢٠٢]
دعـوه لـلذي يـقـول يـصـنـع — و/ربـوه ولـه لا تـمـنـعـوا[٢٠٣]
فـإنـه إن صـح فـهـو الارب — أو لا فـمن جـملة مـا يـخـرب[٢٠٤]
فـصـح مـا قـد قـالـه ونـفـعـا — وفـي أجـل مـوقـع قـد وقـعـا

---

(١٩٦) في النسخة (س): (فصار كل واحد يقول).
(١٩٧) في النسخة(س): (فقام شخص منهم ملحوظ).
(١٩٨) في النسخة (س):
(مـحـمـد الـكـفـتي ثـم الـصـالـحـي — وكـان ذا رأي سـديـد نـاجـح)
عن الكفتى انظر ابن طولون، **مفاكهة الخلان** ٥١/١.
(١٩٩) في النسخة (س):
(فـقـال إنـي قـد رأيـت حـركـه — لـعـلـهـا تـكـون فـيـهـا)
(٢٠٠) في النسخة (س):
(بـهـا تـخـف سـايـر الأثـقـال — بـلولـب يـفـتـل بـالـحـبـال)
(٢٠١) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.
(٢٠٢) في النسخة (س):
(فـقـال مـن جـمـاعـة الـسـلطان — مـا كـان قـائـمـا بـهـذا الـشـان)
(٢٠٣) في النسخة (س):
(وهـو الـذي كـان إلـيـه الـمـرجـع — دعـوه لـلذي يـقـول يـصـنـع)
(٢٠٤) في النسخة (س):
(فـإن يـصـح حـصـل الـمـقـصـود — أو لا فـنـفـعـل الـذي نـريـد)

فـرفـعـوا بـيـــوم واحــد	بـرغم كـل منكـر وجـاحــد[٢٠٥]
عشرين عـودا في كـل عـود كـالجبـل	في ذلـك العلو والضـد اختبـل[٢٠٦]
ولـم يكـن قــد مـر فـي أفكــارهـم	أن يـرفعـوا عـودين في نهـارهم[٢٠٧]
بـل كـان رفـع واحـد عـسـيـرا	فـيـسـر الـلــه بـه تـيـسـيـرا[٢٠٨]
ورفـعـوا الـمـحـامـل الـثـقـيـلة	جميعهـا في مـدة قليلـة/(١٣ب)
ولـم يـزل مـقـاصـد الـسـلطان	سعيـدة في سـائـر الأوطـان[٢٠٩]
لهـا[٢١٠] تهـون سـائـر الصعـاب	بـالـلطف مـن مسبـب الأسبـاب
وكـان مـن ثـواب ذلـك الـرجـل	ومـن عـظيم أجـره الـمـعـجـل
إن اقتضـى رأى الإمـام الأكـرم[٢١١]	تـجـهـيـزه إلـى بـنـاء الـحـرم
فـزار تـلك الـحـضـرة الـشـريـفـة	ونـال فيهـا الـرتبـة المنيـفـة[٢١٢]
وجـاور الـنـبـي تـلك الـمـدة	وبـالـنـجـاح ربـه أمـده[٢١٣]
والـسـعـد إن سـاعـد لا مـحـذور	وجـاء مـن حيث الشجى الـســرور
فـكـان ذا ثـوابـه الـمـعـجـلا	ثـم قـضـى مـن بـعـد هـذا الأجـلا
وسـار لاحقـا بمن[٢١٤] كـان مضى	فـرحـمـة الله عـليـه والـرضـى
فـإنـه كـان عـليَّ الـهـمـة	فـي سـائـر المـواضـع الـمهـمـة

(٢٠٥) في النسخة (س):

حـتـى بـه شـالـوا بـيـوم واحـد   عـشـريـن عـودا فـي الـعـلو الـزائـد)

(٢٠٦) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.

(٢٠٧) في النسخة (س): (إنكارهم).

(٢٠٨) في النسخة (س): (لهم تيسيرا).

(٢٠٩) في النسخة (س): (يخدمها السعد مدىٰ الزمان).

(١١٠) في النسخة (س): (حتى تهون ساير).

(٢١١) في النسخة (س): (الأعظم).

(٢١٢) في النسخة (س): (ونال أعلى الرتب المنيفة).

(٢١٣) في النسخة (س):

وجـاره الـنـبـي تـلك الـمـدة   ونـجـح الـلـه تـعـالـى قـصـده)

(٢١٤) في النسخة (س): (لمن).

هان بـه في الجـامـع المعمـور — أصعب ما كان من الأمور
وهـذه عـوائـد العنـايـة — تلحق بالسابق ذا البداية
ولم يـزل مسـاعـداً في الجـامـع — فيما سوى الثواب غير طامع[215]
مشاركا في الجل والأخشاب — وآله السقوف والأنساب[216]
وصيغة الدق وفي الأبواب — مكتسبا للأجر والثواب[217]/ (١٤أ)
وبعد ذا تنافس الصناع — واجتهدوا بكل ما استطاعوا
ونجزوا الجامع والمقصورة[218] — فبرزت على أجل صورة
وأودعوهما من اللطائف[219] — وما استطاعوه من الزخارف
ما حير الألباب والأفكارا — وصيروه بعدهم تذكارا[220]
ومسعد من بالجميل يذكر — وفضل حسن الذكر ليس ينكر[221]
لا سيما في موضع معروف[222] — منه ترجى رحمة الرؤوف
وعاد للجامع حسن شكله — وصار حايز الكمال كله[223]
حتى لقد جلوا له العروسا — وقبة النسر[224] حكت طاووسا
مدت جناح ظلها الوريف — لمن بذاك المعهد الشريف[225]

---

(٢١٥) في النسخة (س): (مشاركا في ساير الصنايع).
(٢١٦) في النسخة (س):
(في الدق والجل وفي الأخشاب — والة السقوف والأبواب)
(٢١٧) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.
(٢١٨) في النسخة (س): (ونجزوا العمارة المبرورة).
(٢١٩) في النسخة (س): (وأودعوا فيها من اللطائف).
(٢٢٠) في النسخة (س): (حتى يكون بعدهم تذكارا).
(٢٢١) في النسخة (س):
(فالذكر بالجميل مما يقصد — ومع غموض سره لا يجحد)
(٢٢٢) في النسخة (س): (موضع شريف).
(٢٢٣) في النسخة (س): (وازداد حسنا لم يكن في أصله).
(٢٢٤) في النسخة (س): (قبة النشر).
(٢٢٥) في النسخة (س): (لمن بها لازمن الصفوف).

وأصبحت محاسن المقصورة — معدودة[٢٢٦] ولم تكن محصورة

وقد حكى المنبر روضة زهت — تبصر فيها العين كل ما اشتهت[٢٢٧]

وعظمت جلالة المحراب — في سائر القلوب والألباب

بحيث لا يحويه وصف واصف — وورث السلطان أجر الواقف

بمثل ذا يفتخر الملوك — وهكذا فليكن السلوك

حتى يطيب في الزمان ذكرهم — ويستمر بالثناء شكرهم[٢٢٨]/(١٤ب)

ولا يزول مجدهم وفخرهم — ومع هذا فالثواب ذخرهم[٢٢٩]

لا جرم السلطان عز نصره — فقد حوى مجدا يعز حصره[٢٣٠]

فاق على كل ملوك الأرض — بفضله وبالسلوك المرضي[٢٣١]

وأودع الدنيا من المناقب — ما نور أدناه كنجم ثاقب[٢٣٢]

من ذا من الملوك في الأعصار — وساير البلاد والأمصار[٢٣٣]

أظهر مثل هذه الآثار — يقل فيها قول ذي الإكثار[٢٣٤]

في أشرف البقاع والأماكن — وأفخر البلاد والمساكن

سيرته قصر عنها النعت — وضاق عن وصف علاه الوقت

لكن على الخصائص اقتصرنا — وإن أطلنا إنما اختصرنا[٢٣٥]

وما ذكرناه من الفرائد — فكعقود الدر والقلائد[٢٣٦]

---

(٢٢٦) في النسخة (ن): (ولمن).
(٢٢٧) في (ن) و(س): (كلها).
(٢٢٨) في النسخة (س): (ويستمر مجدهم وفخرهم).
(٢٢٩) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.
(٢٣٠) في النسخة (س): (يلقى به عن الزمان اصره).
(٢٣١) في النسخة (س): (المرتضي).
(٢٣٢) في النسخة (س): (مالم يزل يشرق كالكواكب).
(٢٣٣) في النسخة (س): (أظهر مثل هذه الآثار).
(٢٣٤) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.
(٢٣٥) (وما أطلنا بل قد اختصرنا).
(٢٣٦) في النسخة (س): (فإنه من أعظم الشواهد).

وإنــهــا مــن أعــظم الــشــواهــد	لـكـل غـائب وكـل شـاهـد[٢٣٧]
عـلى سلوكـه مقـامـات الـهـدى	وإنــه مــا حــاز ذا الـفـخـر سـدى
وإنــه حــقـيـقـة مـوحـد	لـه سلوك ظـاهـر لا يجحـد[٢٣٨]
فـقـد ذكـرنـا صـبـره وشـكـره	فـلا أراه الـلـه شـيـئـا يـكـره
ومـن هـنـا فـنـذكـر الـتـوكـلا	فهـو مقام في السلوم قـد علا/ (١٥أ)
لأنـه نـتـيـجـة الإيـمـان	وفـي الـسـلـوك غـايـة الأمـانـي
وأوضـح الـدلـيـل والـبـرهـان	قـام عـلى تـوكـل الـسـلطان[٢٤٠]
ولـيس يـحـتـاج إلـى بـيـان	لأنـه شـواهـد بـالـعـيـان[٢٤١]
لأنـه يـنـزل كـل وقـت	مـفـوضـا لـلـه أمـر الـتـخـت
حتى لـقـد سـافـر في الـبـلاد	مـنـفـردا وسـار في الـبـوادي[٢٤٢]
فـقـد ذكـرنـا حـجـه الـمـبـرورا	وعـوده مبـتـهـجـا مـسـرورا[٢٤٣]
وكـيـف زار الـقـدس والـخـلـيـلا	لا زال ظـل مـلكـه ظـلـيـلا[٢٤٤]
ذا شـاهـد التـوكـل الحقيقي[٢٤٥]	وهـو دلـيـل الـسـعـد والـتـوفـيق
أظـهـر مـا يـكـون فـي الأسـفـار	تـسفـر عـنـه غـايـة الأسفـار[٢٤٦]

---

(٢٣٧) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.

(٢٣٨) في النسخة (س): (وإنه حقيقة قد وحدا).

(٢٣٩) في النسخة (س): (فهو عليه أوضح البرهان).

(٢٤٠) انفردت النسخة (ن) بهذا البيت.

(٢٤١) في النسخة (س):

(ولـيس فـي تـوكـل الـسـلطان شـك فـقـد شـوهـد بـالـعـيـان)

(٢٤٢) في النسخة (س): (ودار في البوادي).

(٢٤٣) في النسخة (س): (لا زال جيش عزه منصورا).

(٢٤٤) في النسخة (س):

(كـذاك زار الـقـدس والـخـلـيـلا فـدام ظـل عـدلـه ظـلـيـلا)

(٢٤٥) في النسخة (س): (هذا هو التوكل الحقيقي).

(٢٤٦) النسخة (س):

(أظـهـر مـا يـكـون فـي الأسـفـار فـإنـهـا مـظـنـة الأخـطـار)

ويلي هذا البيت في النسخة ذاتها =

وإنها مظنة الأخطار ... لا سيما في شاسع الأقطار
بحيث لا يخشى ولا يخاف ... كيف وقد حفت به الألطاف
وهذه سمة من توكلا ... على الإله الحق جل وعلا
ولم يقع في سالف الأوقات ... مثل نزوله إلى الفرات
في بعض أفراد من الجند فقط ... وما اختشى أخطار هاتيك الخطط
وقطع الفرات في سفينة ... أليس تلك حجة مبينة/ (١٥ب)
له على توكل قد سلكه ... وصار عنده بهذا ملكه
وعندما عاود بالسلامة ... فكم وكم يزال من ظلامه
ومد ظل العدل والأمان ... ومنح العباد بالأماني
وعم بالفضل وبالإحسان ... بحيث فات الوصف باللسان
أخصبت البلاد بعد محلها ... بوضعه الأشياء في محلها
لا سيما في حلب والشام ... وما به قد حاز من مقام
وعمر الخان بوادي التيم ... في موضع كان كثير الضيم
فيه لأبناء السبيل رفق ... لا سيما وللغمام دفق
وإنه لمحكم العمارة ... منعقد بالكلس والحجارة
متسع الفضاء والبوائك ... وإنه في موضع مبارك
ففيه قد رأيت في منامي ... طه البشير أشرف الأنام

= (ولم يقع في سالف الأوقات ... مثل نزوله إلى الفرات
في بعض أفراد من الجند فقط ... ولم يخف أخطار هاتيك الخطط
وقطع الفرات في سفينه ... أليس تلك حجة مبينة
دلت على توكل قد سلكه ... وصار عند بهذا ملكه
بحيث لا يخشى ولا يخاف ... كيف وقد حفت به الألطاف
وهذه شيمة من توكلا ... على الوكيل الحق جل وعلا
وعندما عاود بالسلامة ... فكم وكم أزال من ظلامه
ومد ظل العدل والأمان ... والفضل والإنعام والإحسان
على الرعايات في البلاد كلها ... ووضع الأشياء في محلها
وبهذا البيت تنتهي نسخة باريس.

دامت عليه سحب الصلاة ... مع السلام سائر الأوقات

والآل والأصحاب والأزواج ... ما غرد الحمام في الأبراج

موقعه في أحوج المواضع ... إليه كان أحسن المواقع

وهذه عوائد السلطان ... في سائر الأقطار والأوطان/ (١٦أ)

أفعاله ناطقة بفضلها ... لوضعه الأشياء في محلها

وحصن الثغور بالأبراج ... وعم بالمعروف كل راجي

وملا الحصون بالسلاح ... من محكم الدروح والصفاح

ومهد الأمان في المسالك ... وأسس الخيرات في الممالك

وعاد واثقا برب العزة ... وفاض جوده لأهل غزة

وعمر المدرسة الجديدة ... فيها بحيث أصبحت فريدة

مدرسة أوصافها جميلة ... كأنها أزاهر الخميلة

وليس يخفى في بلاد مصر ... كم من عمارة وكم من قصر

فإنه عمرها وشادها ... بحيث قد كملها وزادها

فرفلت من حسنها في حلل ... إذ سد ما كان بها من خلل

فعمر الربوع والجوامعا ... ووسع الدروب والشوارعا

وعمر الأسواق والسواقيا ... واكتسب الذكر الجميل الباقيا

وعمر الجسور والقناطرا ... تجديد رسم أو مجددا طرا

لا سيما ما عرفت بالعشرة ... وأصبحت أوصافها منتشرة

قد أجمع الناس الذين وصفوا ... إن الملوك مثلها ما وصفوا/ (١٦ب)

فامتلأت أقطارها عمائرا ... تملأ بالتعجب الضمائرا

في كل قطر جامع أو مسجد ... أو قبة عظيمة أو معهد

أو بركة تفيض أو سبيل ... أو دوح غرس ظله ظليل

عمائر محكمة الترصيف ... كأنها الرياض في التفويف

وثيقة محكمة مكينة ... لو جمعت لعادلت مدينة

قصر عن نعوتها البيان ... كأنما أخبارها عيان

وكل من حواهم الزمان | لو بالغوا في وصفها ما مانوا
غاية ما يقوله اللسان | في نعتها جميعها حسان
حاكىٰ بوصف الشام وصف القاهرة | فأصبحت زاهرة وباهرة
فقد رائت القنوات تجري | بها بريد ماؤها كالنهر
طورا من البحر جرت وطورا | ساقي السواقي ساق فيها ثورا
تسقي الخمائل التي قد بسقت | وقد نمت أشجارها واتسقت
مذ شربت مما جرى كالنهر | فأينعت غصونها بالزهر
من كل صنف من صنوف الثمر | حديث واصفيه مثل السمر
وطاب عرف دوحها النفاح | بالخوخ والمشمش والتفاح/ (١٧أ)
والأقحوان باسم الثغور | قد حف بالنرجس والمنثور
والزنبق الأنيق والنسرين | فذا ربيع الوقت أو تشرين
إذ مع ذا بنفسج بهيج | أضحى الهوى بنشره يهيج
فهذه بعض مزاياه التي | قد لبست بالفخر أبهى حلة
قد سبغت ظلاله الوريفة | بجمع ذي المحاسن الشريفة
فلو صرفنا عمرنا في عدها | لما بلغنا المنتهى من حدها
وهذه خصائص ما حصلت | لغيره في المدد التي خلت
فقد أشرت موجزا اليها | مخلدا أحسن الثنا عليها
دلت على سلوكه في الدين | منازل السير إلى اليقين
وإنه من الذين نشقوا | عرف الهدى وعرفوا وحققوا
مشربه في العارفين صافي | مقامه الشريف غير خافي
فوض لله الأمور كلها | إبرامها وعقدها وحلها
فمنه قد أنارت السرائر | فهو مع الله تعالى سائر
فالله يبقه بقاء الفلك | يفوق في الزمان كل ملك
وينشر العدل على الرعايا | يوفر الهبات والعطايا/ (١٧ب)
ويمتطي صهوة كل شرف | ويملك الدنيا بكل طرف

منفردا بالنصر والمعالي ما دامت الأيام والليالي
وها هنا تم الذي أردته مما من التاريخ قد أوردته
في ذكر من قد جاء بعد الأشرف وهو برسباي، فوعدي قد وفى
لعهد قايتباي قاهر العدا الأشرف المنصور في طول المدى
مدة من بينهما ذكرتها وغاية التحرير قد حررتها
فكملت بذلك الأرجوزة وضمنها المحاسن المحوزة
بليغة وجيزة الألفاظ قريبة المأخذ للحفاظ
أمليتها عن فكرة كليلة ومهجة مصدوعة عليلة
وخاطر مفرق مشتت وكبد مفطر مفتت
وذهني استغرقه الذهول بحيث لا أعرف ما أقول
قد صدعتني حادثات دهري وأثقلت بالكارثات ظهري
ودرج الأحباب عني ومضوا وانقرض الإخوان دوني وقضوا
وتركوني بعدهم مروعا مكتئبا عليهم ملوعا
والعذر عند الكرماء يقبل وحلمهم على العيوب يسبل/ (١٨أ)
لو علموا حالا بها نظمتها من غصص الغيظ التي كتمتها
مما أقاسيه من الحوادث وما ألم بي من الكوارث
لبسطوا من عندهم لي عذرا إذ لم أطق أخذ منها حذرا
لكن عقبى الصبر سوف تحمد وشرر النار قريبا يخمد
وسيف سطوة الزمان يغمد ودمعة الأسى لعمري تجمد
فهذه الدنيا لها أدوار بحسبها تختلف الأطوار
فلا تدوم في الزمان حالة بل كل حالة إلى استحالة
فربما تبسم العبوس وزال وارد الأسى والبوس
والغم مثل الغيم سوف يقلع وبعده شمس السرور تطلع
إن مع العسر في الانشراح يسرا يزيل غمم الأتراح[٢٤٧]

(٢٤٧) اشارة إلى سورة الشرح، آية ٥.

لا سيما وروده مكررا ... يسر من من عسره تضررا

وكم من الألطاف ضمن القهر ... فالصبر نعم صاحب في الدهر

والأمر لله هو المختار ... وهو الحليم المحسن الستار

وهذه الأعذار قد بسطتها ... (والنفس بعد كسالٍ نشطتها) (٢٤٨)

فهذه النفائس المكنوزة ... من المعاني ضمن هذه الأرجوزة/ (١٨ب)

لعل كل ناظر اليها ... يسبل ذيل ستره عليها

ويصفحون عن خطاها والخطل ... ويصلحون ما بها من الخلل

فإنني شيمتي التقصير ... لأن باعي ضيق قصير

لكنها تشرفت بالأشرف ... لما أتت من مدحه بطرف

وجاوزت من المئين خمسا ... وأطلعت من البيان شمسا

رياضها تزهر بالبديع ... فيها دواء الخاطر الصديع

عقودها باهرة الجواهر ... تسمو على الزهر مع الأزاهر

والحمدلله على ما أنعما ... وألهم الصواب فيما علما

ثم صلاته مع السلام ... على نبي ملة الإسلام

محمد أكمل كل الخلق ... شفيعنا غدا بدار الحق

ثم على كل نبي مرسل ... وملك مقرب مفضل

والكل منهم وصحبه ... وتابعي سيرته وحزبه

ما أشرقت كواكب الآفاق ... وسطع النهار بالإشراق

وضحكت مباسم الزهور ... وافتر ثغر الدهر عن سرور

وهتفت حمائم العصور ... فهمعت غمائم الجفون / (١٩أ)

وهبت النسائم العليلة ... في روضة ظلالها ظليلة

ونفحت أنفاس زهر سحرا ... ولاح حسن للعقول سحرا

وختمت براعة الكلام ... بما يفوق الحسن في الختام

---

(٢٤٨) لم أستطع قراءة هذا الشطر.

إن شاء الله تعالى

والحمدلله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكان الفراغ من النظم في مسودتها نهار الاثنين رابع عشر من المحرم سنة (   )[٢٤٩]؟ بالمنزل المعروف (   )[٢٥٠] ببركة الرطلي ظاهر القاهرة المحروسة، ومن تحرير هذه النسخة وكتابتها نهار الثلاثاء خامس عشر من رمضان المعظم سنة (   )[٢٥٢] بمسكن مسطرها وناظمها حول المدرسة (   )[٢٥٣] بطرابلس المحروسة، قال هذا وكتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بن يوسف الباعوني الشافعي، عفا الله عنهم آمين، وحسبناالله ونعم الوكيل / (١٩ب).

---

(٢٤٨) لم أستطع قراءة هذا الشطر.

(٢٤٩) لم أستطع قراءة السنة (انظر صورة الورقة ١٩ ب) من المخطوط.

(٢٥٠) لم أستطع قراءة اسم المنزل.

(٢٥١) انظر حاشية رقم (٦٠) من المقدمة.

(٢٥٢) لم أستطع قراءة السنة ولعلها سنة (أربع) (٩٠٤ هـ).

(٢٥٣) اسم المدرسة غير واضح.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

يقول أفقر الورى إلى الهدى محمد بن يوسف بن أحمدا

يعزى إلى باعون منه النسب، وللإمام الشافعي المذهب

القديم الباقي مقدّر الآجال والأرزاق

ودائم العزة والسلطان، ومودع الأسرار في الإنسان

فعقله في أشرف الأسرار، به يبين حدث الأفكار

ويظهر الدليل والبرهان، ويجتلي للعاقل الإيمان

وندرك الحكمة في الأخبار، وقصص الماضين في الأعصار

لا سيما من حكموا وملكوا، وكيف بادوا كلهم وهلكوا

لأن هذا عبرة من الخبر، وإنما الله من أخذ الكبر

مدركها من الدليل النقلي، وهو أجل مسعف للعقل

الورقة الأولى من مخطوط الباعوني / نسخة باريس.

الرواية التاريخية في أدب محمد سعيد العريان

د. حلمي محمد القاعود
كلية الآداب ـ جامعة طنطا

١ ـ كان اهتمام «محمد سعيد العريان»[1] بالتاريخ، وربطه بالواقع الذي يعيشه ملحاً بارزاً في أدبه بصفة عامة، ونشأ عن هذا الاهتمام وعيٌ حاد بفلسفة التاريخ وأبعادها، ويمكن لمن يقرأ كتاباته أن يجد هذه الفلسفة مبثوثة في ثنايا العبارات والفقرات تتحدث عن إحساسٍ بمشكلة قومه أو وطنه التي تشغل الناس في زمانه وتؤرقهم، حيث الاستعمار الأجنبي يحتل البلاد، ويطارد العباد، والسلطة ظالمة قاهرة، والشعب لاهٍ مشغول بقضاياه وهمومه اليومية والوقتية.. والفترات التاريخية التي اختارها «محمد سعيد العريان» بذكاء لرواياته تماثل أو تشاكل الفترات المعاصرة أو المعاشة، وفيها تتبدّى عِبَرُ الماضي

---

(١) محمد سعيد العريان (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤م)، ولد بقرية محلة محسن مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية. التحق بالأزهر، وتخرج من دار العلوم سنة ١٩٣٠، وعمل بالتدريس، وانتقل إلى سلك الإدارة، فوصل إلى منصب مدير مكتب وزير المعارف في عهد كل من العشماوي باشا وطه حسين. كان له نشاط أدبي وصحفي ملحوظ، وحرّر في عدد من المجلات والصحف منها: الرسالة، والثقافة والكاتب المصري، وقد اهتم بأدب الأطفال، فأصدر عن دار المعارف مجلة «سندباد» عام ١٩٥٢ ليملأ فراغاً كبيراً في هذا المجال، وله العديد من المؤلفات في أكثر من مجال، من بينها: كيف اختار زوجتي (بحث عاطفي)، مجموعة القصص المدرسية (بالاشتراك)، روضة الأطفال (بالاشتراك)، حياة الرافعي، البترول والسياسة العربيّة، حقيقة الشيوعية (بالاشتراك)، رحلات سندباد، من حولنا (قصص قصيرة)، معركة الحرية، أهداف المعركة، العرب (مترجم)، كما قام بتحقيق بعض كتب التراث. (راجع: يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، جـ٣ ـ القسم الأول ـ منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ١٤٤/٦ ـ ١٤٥).

خدمةً للحاضر، ودروس التاريخ جِسراً إلى المستقبل.

ولا ريب أن «محمد سعيد العريان» وجد في الرواية التاريخية مجالاً أرحب وأفضل للتعبير عن مشاعره وآماله وطموحاته تجاه وطنه وأمته، وهو المجال الذي كان هدف كتاب كثيرين في زمانه وبعد زمانه، ولا ريب أنه كان على دراية بما يكتبه كتاب الرواية التاريخية الآخرون من أمثال الجارم وأبي حديد وباكثير ونجيب محفوظ وغيرهم، ونراه يشير في بعض تعليقاته على «ثورة الزنج» في روايته «قطر الندى» إلى رواية «الثائر الأحمر» لعلي أحمد باكثير باعتبارها الرواية التي تناولت جانبا من قيام وسقوط هذه الثورة من خلال تناول ثورة أخرى هي ثورة القرامطة[٢].

كذلك فإن علاقته بوزارة المعارف (التعليم الآن) ووجود «علي الجارم» أحد كبار مفتشي اللغة العربية وأحد رواد الكتابة للرواية التاريخية، كان فيما يبدو من العوامل التي جعلت «محمد سعيد العريان» على دراية جيدة بالمنهج والأسلوب في كتابة الرواية التاريخية، فضلاً عن كونه حافزاً على إبداعها...

وقد أنتج «العريان» أربع روايات تاريخية فضلاً عن مجموعة قصصية بعنوان من حولنا[٣]، والروايات الأربع هي: قطر الندى (١٩٤٥)، وعلى باب زويلة (١٩٤٧)، وشجرة الدر (١٩٤٧)، وبنت قسطنطين (١٩٤٨)، وتصور الروايات الأربع مراحل تاريخية مهمة في حياة الأمة الإسلامية عامة، ومصر خاصة، فالروايات الثلاث الأولى (قطر الندى، على باب زويلة، شجرة الدر) تحكي مراحل تاريخية في العصر الطولوني، وبداية ونهاية العصر المملوكي، أما الرواية الرابعة، فتتناول المبادرة التاريخية الفذّة، والتي لم يكتب لها التوفيق، في عصر الدولة الأموية، حيث حاول المسلمون افتتاح القسطنطينية عاصمة بلاد الروم، وهي المحاولة التي كررها فيما بعد «محمد الفاتح» الخليفة العثماني واستطاع أن يفتحها ويصل إلى قلب أوروبا.

وإذا كانت رواية «بنت قسطنطين» تقدم الحلم الذي تسعى إلى تحقيقه إرادة

---

(٢) محمد سعيد العريان ـ قطر الندى ـ دار المعارف بمصر ـ د.ت ـ ص ٣٦.
(٣) صدرت عن دار الكاتب المصري ـ القاهرة ـ ١٩٤٥.

ظافرة ومبادرة شجاعة من جانب الأمة وهي في حال قوتها ونضارتها، فإن الروايات الثلاث الأخرى - فيما يبدو - كانت تمثل بالنسبة للكاتب أو من وجهة نظره، الجانب المأساوي الحافل بكل ملامح المأساة في حياة الأمة حيث كانت تتردّد بين الطموح واليأس، والأمل والإحباط، فشهدت كثيراً من الهزائم والمحن والضيق والآلام، وأيضا فقد عرفت إلى حدٍ ما، ومضات خاطفة من النصر والعزة والسعة والآمال. .

في رواية «قطر الندى» يتناول الكاتب قصة قيام وسقوط الدولة الطولونية، ويبّين أسباب قوة الدولة الطولونية في أول عهدها، واضمحلالها بعد موت مؤسسها، ويؤكد على تميّز مصر وطابعها الخاص عن سائر دولة الخلافة، فلم تنمح شخصيتها، ولم تزل عنها صفاتها الأصلية، وظل لها كيانها، واستقلالها وتأثيرها البعيد المدى فيما حولها، وما بَعُدَ عنها من بلاد الدولة[٤]، ويشير إلى العوامل السياسية والاقتصادية والإنسانية التي مهدت لذلك الاستقلال وأعانت عليه، ثم تطورت به فقضت عليه[٥]. وإذا كانت الرواية تهدف إلى عرض قصة الفتاة «قطر الندى» بنة «خماوريه» الطولوني، وزواجها من الخليفة العباسي في بغداد، فإن المؤلف يشير صراحة في مقدمته للرواية بأن أحداث القصة ليست مجرد سرد لما جرى لقطر الندى «فهي قصة فتاة وقصة أمة»[٦].

وفي رواية «على باب زويلة» يصوّر «محمد سعيد العريان» سقوط دولة المماليك، وقيام الدولة العثمانية في مصر، ويركز المؤلف على صراع المماليك فيما بينهم كأمراء مجلوبين يتنافسون على السلطة والعرش، وكعبيد أرقاء يتنازعون على المستوى الشخصي، ويقدم صوراً كثيرة لهذا الصراع علنيّة وخفية، في الفترة منذ حكم السلطان قايتباي حتى سقوط دولة عصر المماليك، ويكشف حال الشعب المصري طوال هذه المرحلة، وما مرّ به من محن وآلام نتيجة لصراع حكامه وأمرائه.

أما رواية «شجرة الدر» فتصور المرحلة الفاصلة بين انتهاء الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية من خلال شخصية «شجر الدر» التي كانت أول ملكة في

---

(٤) قطر الندى - ص٦.
(٥) السابق - ص ٨.
(٦) السابق - ص ١٠.

مصر الإسلامية، وتحكي كيف استطاع المماليك الأتراك والكرد والجركس أن يشكلوا قوة طاغية تؤثر في مسيرة السلطة ومواجهة الغارات الأجنبية التي يشنها الصليبيون والتتر وحكام الممالك والإمارات المجاورة. وكان وضع «شجر الدر» مثيراً وغير عادي، وكان الظرف الذي تولت فيه صعباً والسلطان في النزع الأخير، أو هو ميت مسجّى، حنطته زوجته، وحكمت باسمه من وراء ستار، والمستقبل غامض مجهول، ولويس التاسع يقود الحملة الصليبية السابعة، ويتقدم من دمياط نحو المنصورة مروراً بفارسكور. . ليكون قتال وسجال، وانتصار لمصر يسجله التاريخ بأحرف من نور.

وهكذا تتجه الروايات الثلاث «قطر الندى»، «على باب زويلة»، «شجرة الدر»، وجهة تعبّر عن جانب مأساوي في تاريخ أمتنا، حال بالصراع والأبطال والأحداث والعبر والنتائج، ولأن هذا الجانب قد ألح عليه الكاتب بصورة مكثفة إظهاراً لعنصر الجهاد ومواجهة أعداء الأمة المغيرين (الصليبيين خاصة)، فإنه ربط هذا العنصر بالوضع الداخلي الذي يراه ـ كما تصور الروايات ـ أساساً لما يجري في الخارج وعلى الحدود، ولهذا فقد استأثر الوضع الداخلي بالكثير من الاهتمام والتصوير، وبيان الأبعاد والملابسات التي تؤدي للازدهار والرخاء أو تقذف إلى الحضيض والهوان. .

ويبدو لي أن رواية «على باب زويلة» . . كانت أكثر الروايات تعبيراً عن هذا الجانب الذي يصوّر الحركة في المجال الداخلي من خلال الشعب المصري الذي يشاهد صراعاً عنيفاً وعجيباً بين أمرائه وحكامه، ويدفع هو ثمن هذا الصراع كضحية مقهورة لا حول لها ولا شأن. . ومن ثم، فإن التوقف أمام هذه الرواية يصبح أمراً تلقائياً لنرى أبعاد هذا الصراع ومداه ونتائجه، وتأثيره على الشعب المصري، ودور هذا الشعب في مواجهة الأحداث.

٢ ــ يصور «محمد سعيد العريان» حالة مصر تحت الحكم المملوكي في روايته «على باب زويلة»، فيقدم صورة معتمة، مليئة بالقهر والظلم والدماء، دفع الشعب ثمنها دائماً من قوته وأمواله ورجاله، وقد فرض عليه المماليك هذا الصراع الذي لم تكن له فيه ناقة ولا جمل، اللهم إلا دفع الثمن الباهظ دونما مبرّر

منطقي أو عقلي . . وربما كان المبرر الوحيد أنه قبل أن يحكمه هؤلاء المماليك المتصارعون الذين تسلطت عليهم الشهوات والرغبات . . ويمكن أن نرى ذلك من خلال لوحة يرسمها لهجمة مملوكية على الدور والأسواق والمتاجر والناس .

«سرى الرعب في أنحاء المدينة كأنما شب حريق هائج أو هبت ريح عاصفة لا تبقي ولا تذر، فأغلق التجار دكاكينهم واستوثقوا من أقفالها، وسدت أبواب الدروب حتى لا يكاد ينفذ منها الراجل، واختفت البضائع من الأسواق فلا بائع ولا مشتري، وهدأت الرّجل في الطرقات فلا يمشي ماش ولا يركب راكب إلا حذراً يتلفت يخاف أن يأخذه الموت من كل ناحية، وقبع النساء والأطفال وراء أستار النوافذ المغلقة، يرقبون الطريق من خصاصها في انتظار الآباء والأزواج الذين تعوّقوا عن العودة إلى دورهم في هذا اليوم الذي ينذر بالشرّ.

لقد انبث مماليك السلطان ومماليك الأمراء جميعاً في الأسواق يكبسون الدور وينهبون المتاجر ويحطمون الأبواب ويخطفون العمائم ويهتكون الحرمات، ولهم في الطريق عطعطة وزياط وضجة . . . »[(٧)].

وألوان هذه اللوحة تشي بالقتامة التي تعبّر عن الانحدار الخلقي والسلوكي الذي وصل إليه المماليك في صراعهم لتحقيق شهواتهم ورغباتهم المحرّمة . والأمر لا يقتصر على المماليك الأمراء ومن هم أدنى منهم، ولكنه يصل إلى السلطان أو المملوك الأكبر نفسه، ولعل ما فعله السلطان الناصر ابن قايتباي حين ذبح زوجة التاجر جلال الدين بسيفه يعبّر عن البشاعة والدموية التي انحدر اليها بعضهم . لقد رآها، فطمع أن ينالها، فأرسل إليها رسوله، فتأبت عليه، فسعى إليها على قدميه، وحاولت أن تفرّ بعرضها فأدركها «وعاد من حيث أتى في كوكبة من مماليكه وجنده . . بل لعله لم يعد إلى قصره في ذلك اليوم الا بعد أن أتم جولته في المدينة وخرج من دار إلى دار، وتناول من كل كأس جرعة !»[(٨)].

---

(٧) محمد سعيد العريان ـ على باب زويلة ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٤ ـ د. ت ـ ص ٨٧، والعطعطة: تتابع الأصوات، والزّياط، الجلبة واختلاف الأصوات.

(٨) على باب زويلة ـ ص ٨١.

إن انحدار السلطان إلى هذا الدرك من الفحش والبشاعة يجعل من صورة الحكم المملوكي في عهد الناصر ابن قايتباي وحتى نهاية عصر المماليك أشد قسوة وهمجية في وجدان الشعب المصري.

وتصور الرواية في الوقت نفسه رد الفعل لدى الشعب المصري ضد قسوة المماليك ووحشيتهم ودمويتهم، وإن كان هذا الردّ يتسم غالباً بالسلبية والتمنيات التي يملكها الضعفاء العاجزون، بل إنه يحمل أحياناً على المصريين لصمتهم وتخاذلهم، ويضع هذا الرد في إطار قومي، ضيق ومفتعل بين جنسية المماليك وجنسية العرب والمصريين، وعندما يدور حوار بين نفر من الساخطين على ظلم المماليك نجد أعرابياً يخاطب الشيخ «أباالسعود الجارحي»، وهو متصوف له مريدون وصاحب طريقة يقول له:

«يا سيدنا الشيخ، إنما هي بلادنا لا بلاد الجركس، وقد جاءوا إلينا رقيقاً في يد النخاس، فما هي إلا أن قاموا بيننا حيناً حتى ملكوا رقابنا، واستصفوا أموالنا، وهاهم أولاء يريدون آخر الأمر أن تكون نساؤنا وبناتنا حظايا في قصورهم، لقد كان عرش هذه البلاد للعرب منذ رتل فيها قرآن، وإنما تركناه وديعة في يد الكرد إلى حين، يوم غزانا التتار، فأسلمه الكرد إلى هؤلاء المماليك، وقد حان أن ترد الأمانات إلى أهلها!

قال الشيخ باسماً:

- وترى من يسمع لقولك هذا من أبناء مصر فيعينك عليه يا أخا العرب؟

قال الأعرابي:

- أبناء مصر! .. إنهم لا يصلحون إلا أن يقادوا مقهورين كما يقاد البعير المخشوش من أنفه!»[٩].

إن صراع العناصر القومية جراكسة وأعراباً وأكراداً ومصريين لم يكن هو قضية الساعة آنئذ بقدر ما كان ردّ الظلم والتخلّص من الظالمين في إطار رؤية

---

(٩) السابق - ص ٨٣.

إسلامية هـو غايـة جميع المـظلومين عـلى أرض مصر. وإن كان اللوم كـما يشير إليـه الحـوار يقع في الأسـاس على المصريـين الذين يلومهم الشيـخ والأعرابي. وإذا كـان الشيـخ يستبعـد أن يستجيب المصريـون لنـداء الثـورة والتعـاون من أجلهـا، فـإن الأعرابي، يبدو يائساً من المصريين، بل يتحامل عليهم إلى درجة وصمهم بالتبعيـة، والاستكانة والخضوع، وشبّههم بالبعـير المخشوش من أنفـه، أي المنقاد من أنفـه، وفي ذلك ما فيه من مبالغة في الذلة والهوان..

وفي إطار الفعل ورد الفعل من جانب المماليك والشعب المصري، فإن «محمد سعيد العريان» طرح تصوره للعلاقة بين الطرفين في أكـثر من مناسبـة في الروايـات الثلاث: قطر الندى، على باب زويلة، شجرة الدر، واهتم ببيان تصور كل طـرف للآخر، موضحاً في كل ذلك سلبية المصريين تجاه ما يحدث لهم في معظم الحـالات، وإن كان في رواية «على باب زويلة» قد أفاض في شرح العلاقة التي تحكم الطرفين، من خلال تصور وطني قومي لم يكن مطروحاً في أوانه.

لقـد طرح رؤيـة الجراكسـة للمصريين، من خـلال حوار جـريء جرى بـين طـومان بـاي وعمه قنصـوه الغوري، وبـالرغم من أن «طـومان بـاي» كما صـورتـه الـرواية، وكـما سنرى فيـها بعد، يعـد شخصية مثـاليـة تتسم بـالنبـل والإخـلاص والشجاعة والتدين، إلا أننا نراه يحمل التصور العرقي الذي يستعلي على المصريين، كما نلمح في حواره التالي مع الغوري.. يقول له طومان وهما يتحدثـان عن مستقبل العرش:

«ـ ويومئذ يكون هذا الشعب قـد ثقل عليـه ما يحمـل من مظالم السـلاطين، فيخلع الجراكسة جميعاً، فلا يكون ثمة بلاط، ولا طومـان باي، ولا الغـوري، ولا خشقدم الرومي! ويخلص عرش مصر لبدرالـدين بن مزهـر أو لابن أبي الشوارب، من صعاليك المصريين أو صعاليك العربـان، وتنهار دولـة الجراكسـة بعد عـزّ ومنعة وتتناهبها أطماع البنادقة والروم وملوك النصرانية»[١٠].

وهذه الرؤية المملوكية أو الجركسية لا تعـبر في الواقـع عن النظرة الصحيحـة

---

(١٠) السابق ـ ص ١٤٢ وما بعدها.

لطبيعة العلاقة بين المماليك والمصريين، فالمماليك لا يعبأون إلا بمكاسبهم الخاصة، وأطماعهم الشخصية في العرش أو الثروة، على الأقل في تلك الفترة التي جرت فيها أحداث الرواية، أما كون الصراع في جوره بين الجراكسة والمصريين، فهذا غير دقيق لأن المصريين كانوا بعيدين عن الدائرة اللهم بقدر ما يدفعون من ثمن الصراع، فلم يكن ثمة من يسعى أو يفكر جدياً في منافسة المماليك الذين يملكون القوة والتدريب والانشغال بمسألة الحكم والعرش. وواضح أن التعبير «بصعاليك المصريين أو صعاليك العربان» يعبر عن تفاهة شأن المصريين والعرب في تلك المرحلة من الصراع... أما ما تردد على لسان «طومان» من إحساس بمظالم السلاطين، فهو يتسق مع تكوينه الخلقي الذي يبدو رافضاً للظلم منذ بداية ظهور شخصيته الروائية، وطموحه للمثل الأعلى، وتمسكه بالقيم النبيلة.

إن الإحساس بدولةٍ للجراكسة والتعصب لها لم يكن وارداً بقدر ما كان الإحساس بالوصول إلى العرش «شخصياً» من جانب من يملك القوة، سواءً كان جركسياً أو تركياً أو كردياً.. ولكن النزعة الوطنية القومية، تسلطت على نظرة الكاتب لتفسير التاريخ البعيد، وهو ما كان سابقاً لأوانه.

وهذا التصور للجراكسة ينفيه الكاتب في موضوع آخر مناقضاً نفسه بصورة ما، حين يرى أن مصر هي المستهدفة، وأن هؤلاء ما هم إلا قلة حاكمة لا يعنيها إلا نفسها، وأن واجب المصريين أن يدافعوا عن بلادهم انطلاقاً من المفهوم الوطني القومي.

«قال أرقم الرّمال وقد بلغ منه الغيظ:

- فهل كانت مصر لهؤلاء الجركس وحدهم حتى يكون عليهم وحدهم عبء الدفاع، فأين المصريون والعربان وفتيان الزعر؟ ولماذا لا يكتّبون كتائبهم للدفاع عن حريمهم والذود عن بلادهم وإنهم لأهل لأن يردوا جيش الروم فلولاً مبعثرة على أديم الصحراء لو اجتمعت عزيمتهم؟

قال عز الدين:

هذا هو الحق فما طرق العدو بلادنا من أجل الجركس، بل من أجل مصر، وما هؤلاء الجركس في مصر؟ هل هم إلاّ قلة لا يعنيها إلاّ حظّها من ترف العيش

وأسباب التنعم، ولو مات هذا الشعب ووطئته الخيل وهتك حريمه جند العدوّ، وإنما علينا نحن واجب الدفاع عن حريمنا وعيالنا وأموالنا وعن أرض هذا الوطن[11].

ويزداد إلحاح الرواية على إبراز المشاعر الوطنية من خلال التعبير عن مشاعر بعض الشخصيات وأحاسيسها، فهذه شخصية «علي بن رحاب» الذي لم يكن من أولئك الجركس الطامعين، ولا من هؤلاء المصريّين الثائرين (الثورة بمعنى الغضب والسخط الذي لا يتعدى التعبير القلبي أو القولي)، فإنه «كان يشعر أنه مصريّ، وأن مصريته تفرض عليه أن يتتبّع الأحداث الجارية في وطنه بين الشعب وأمرائه، وأن يكون له رأي فيما يجري من تلك الأحداث»[12].

وهذه المشاعر الوطنيّة تبدو مقحمة على طبيعة العصر، الذي كانت تسوده قيم أخرى، أكثر أهمية بالنسبة للأفراد والشعوب، فلم تكن هنالك غضاضة أن يتولى شخص ينتمي لأية جنسيّة عرش البلاد طالما كان مسلماً وملتزماً بتحقيق الغايات التي يهدف إليها كل حاكم صالح يسعى لبناء دولته وتقويتها ومواجهة الأخطار، وإشاعة العدل والرخاء بين الجميع.

إن الانطلاق من المشاعر الوطنية المصرية، قد جعل المؤلّف يؤكد دائماً على كون المماليك غرباء عن مصر وأهلها وشعبها، ويستنطق بعض هؤلاء المماليك بالتعصّب لجنسهم وعنصرهم، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يصوّرهم على أساس كونهم أصحاب مُلْكٍ لا يمكن أن يفرّطوا فيه للعرب الجفاة، بينما كانوا ـ أي المماليك ـ في الواقع يتقاتلون ويتصارعون على العرش والسلطة دون اعتبار لقرابة الدم أو النسب فيما بينهم النحو الذي تفصّله الرواية وتفيض فيه، يصف «أقبروي الدوادار» بعد عودته مع أخيه «كرت باي» من حملة لتأديب العصاة في الصعيد: «أولئك الأعراب الجفاة الذين لا تهدأ لهم ثائرة، ولا يريدون أن يدخلوا في طاعة سلطان الجركس، كأنما خيّل إليهم أنهم يستطيعون أن يردّوا الملك إلى

---

(١١) السابق ـ ص ٣٢٠، ٣٢١.

(١٢) السابق ـ ص ١١٨.

العرب، وأن يعود إليهم العرش والتاج والسلطان!»[١٣].

ويكاد يُجمع المؤرخون والمعنيّون بالدّراسات السياسية على أن ظهور الروح القومية في العالم الإسلامي لم تظهر بوضوح إلا مع أوائل القرن العشرين، بعد ظهورها في أوربة وتأكّدها على مدى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأن الإحساس بالعصبيّة العنصرية أو الوطنية لم تكن بهذا الإسراف الذي ظهر في روايات «محمد سعيد العريان»، وقد أشار إلى ذلك مؤلفا كتاب «الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث»[١٤] من خلال مناقشة الفكرة الإسلامية والفكرة القومية.

ويبدو لي أن الإلحاح على زاوية الإحساس بالروح الوطنية القومية في رواياته الثلاث[١٥]، كان نتيجة للاحتلال الإنجليزي لمصر، وكان الكفاح الوطني أيام كتابة هذه الروايات في أوجه وازدهاره، كانت المشاعر الوطنيّة حينئذ متأجّجة بالرفض للاستعمار الانجليزي، وأن تكون مصر مخزناً لغلاله وأقطانه وسوقاً لمنتجاته وصناعاته، وقاعدةً عسكرية يتحرك فوقها كيف شاء، إلى حيث شاء، ويحارب من قلبها أهل مصر، كذلك فإنّ فساد الحكم في مصر نتيجة لهذا الاحتلال أو الاستعمار، وصراع الحكام من أجل المصالح الخاصة، ووصول الشعب إلى حالٍ من البؤس والشقاء والقهر والفقر، ونهب الغرباء والأفاقين لثرواته وخيراته، كل أولئك فَمِن أن يجعل المؤلف يبحث في أعماق التاريخ عن حال مشابهة وفترة مشابهة يُسْقِط عليها ما يستشعره في واقعه المعاصر، يحثّ فيها الشعب على المزيد من المواجهة والإصرار على الجهاد، وكانت فترة العصر المملوكي أو أواخره بمعنى أدق من أقرب الفترات تعبيراً عن الحال المشابهة والفترة المشابهة. فقد كان هذا العصرُ حافلاً بالفساد الطّامي، فأصرّ المؤلف على تقديمه، ليقول: إنّ الأمم تتقدّم بمنطقٍ معينّ، وتنتكس بمنطقٍ معينّ أيضاً.

---

(١٣) السابق - ص ٥٤.

(١٤) قاسم عبده قاسم - أحمد إبراهيم الهواري - الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث - دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩ - ص ١٤٠ - ١٤٣.

(١٥) أكد الكاتب على النزعة الوطنية المصرية بوضوح في روايتيه الأخريين «قطر الندى» و«شجرة الدر»، وإن كان تأكيده في الأولى أكثر وضوحاً، انظر مثلاً: قطر الندى: ص١٨، ١٩، ٢٧.

ولعله يندخل في هـذا السياق تقـريعه الشـديد للمصريـين ولـومـه لهم عـلى سلبيتهم أمـام الطغـاة الظالمين، وأتصوّر أن إسقـاطه للرّوح الـوطنية عـلى أحداث التاريخ، وتفسيره لهذه الأحداث من خلال الرؤية الـوطنية والقـومية، كـأن مدخله لانتقـاد المصريّـين والحملة عليهم لسلبيتهم أو ما يـراه سلبيّـة في مـواجهـة الـطغـاة والغـزاة. يصف اجتماعـاً لمجموعـة من المصريين يتنـاقشـون فيـما يجـري من مـظالم ومحـن، فيقـول: «... وإنهم فيـما يتجـاورون ليخلطون الجـدّ بـالهـزل... ويستنبطون من كل معنى فكاهة ونادرة وضحكاً عريضاً»[١٦]، وكأنه يقرّع المصريين عـلى اكتفائهم بـالثرثـرة والضحك العـري على أنفسهم دون أن يـأخذوا لـلأمر مـا يستحقّ من احتشاد ومقاومة ومواجهة. بل إنه يبدو ساخطاً على المصريّـين وساخـراً منهم في آن واحـد، حين يـراهم يهتفون لمن يتـولى العرش أيًّـا كان، وبـأية طـريقة كـانت، فالصراع الـدمويّ الـذي يتمخض عن اعتلاء جـانبلاط العـرش يكون ردّ فعله: «وهتفت مصر كلهـا بـاسم السلطان الأشرف جـانبـلاط»[١٧]، وكـأن عـلى المصريين مهمة الهتاف وحدها! بل إنه يصوّر ردّ الفعـل لاعتلاء السلطان «أيّـا كان» من خلال خطبة الجمعة في مسـاجد القـاهرة، فعنـدما انهزم «طـومان بـاي» في أول الأمـر أمام «السلطان سليم»، خـطب الخطبـاء باسمـه، ولما بـدا أن «طومـان» قـد استعاد زمام المبـادرة قبل هـزيمته السـاحقة فيـما بعد خـطب الخطبـاء باسمـه! وهذه مفارقة) طريقها تبدو أولاً هكذا: «فلما كان يوم الجمعـة خطب في مسـاجد القـاهرة بـاسم السلطان سليم خـان بن بـايزيـد العثماني، ملك الـبرّين والبحـرين، وكـاسر الجيشين وخادم الحرمين الشريفـين...»[١٨] وتبدو ثـانياً هكـذا: «... واستمرّت الحرب في القاهرة أياماً، فلما كان يوم الجمعة السـابع من المحـرم خطب في مسـاجد القاهرة ثانية باسم السلطان طومان باي، ملك القطرين، وسيّد البحـرين، وحامي حمى الحرمين!»[١٩]، وكأنّ خطبة الجمعة صارت رمزاً لإعـلان استسلام المصريـين لمن يحكم أيًّـا كان، دون أن تعـبّر عن موقف إيجـابي لصـالـح النـاس في هـذا البلد

---

(١٦) على باب زويلة ص ١١٣، وانظر أيضاً ص ١١٩.

(١٧) السابق ـ ص ١٤٧.

(١٨) السابق ـ ص ٣٢٦.

(١٩) السابق ـ ص ٣٣٣.

المنكوب بالصراع على عرشه وخيراته.

وأيّاً كان الأمر، فإنّ «محمد سعيد العريان» وقد صوّر حالة مصر، بكلّ ما فيها من سلبيات وإيجابيات، تحت حكم المماليك، ودولتهم توشك على الغروب، بعد أن ذاق المصريون عذاب حكامهم وعانى من ويلات صراعهم الوحشي.

٣ ـ إن البطل في هذه الرّواية وغيرها من روايات محمد سعيد العريان ليس هو الشخصية الإنسانية المصنوعة من لحم ودم؛ بالرغم من أهميتها؛ ولكنه الأحداث والمواقف التي تصنعها الشخصية الإنسانية، فطومان باي، أو شجر الدر، أو قطر الندى، ليس البطل الذي تركز عليه الرواية، أو يستولي على اهتمامنا بالدرجة الأولى، ولكنها أحداث عصر، ومصائر أمّة، تشدّنا شدّاً ما بين الارتفاع وهبوط، وسموّ وسقوط، ونبالة وسفالة، وإخلاص وكيد، وجهاد وتخاذل..

إن الأشخاص ثانويون في كل الرّوايات، أما الأحداث بما فيها من انتصارات ونكبات، ومدّ وجزر، فهي البطل الأول الذي يأخذ بالألباب، ويستولي على الأفئدة.

ومع ذلك؛ فنحن حين نلتقي بالشخصيات الروائية، نستشعر مع بعضها نوعاً من التناغم والإحساس باللّمسات الإنسانية التي تكاد تنطقها وتبعثها حية أمامنا، بالرغم من أن الكاتب رسم معظمها من الخارج، أو وصفها من الخارج وصفاً مركزاً يتسق مع سرده للأحداث والوقائع التي مرّت بها، وتندرج في سلك عام، وهو سلك الرواية.

وقبل أن نشير إلى بعض هذه الشخصيات، فإننا نودّ أن ننبه إلى أن روايات «محمد سعيد العريان» مكتظة بالشخصيات والأسماء، لدرجة أنه أضاف في نهاية بعض رواياته فهرساً بالأعلام التي ورد ذكرها. ووصل عدد الشخصيات في بعض الروايات (قطر الندى) إلى أكثر من خمسين شخصية، كل منها له دور، وله موقف!.

ربما كانت شخصية الأسرة الصغيرة التي قام على أساسها البناء الروائي من

أفضـل الشخصيات في روايـة «على بـاب زويلة» فهـذه الأسرة التي تضم الأم «نـور كلدي» والأب أركماس (أرقم)، والابن «طومـان»، قد صنعت أحـداث الرّوايـة أو ارتبطت بها، وقـدمت ما يشبـه «التراجيـديا» التي تجمـع عناصر التضحيـة والمعانـاة والبطولة والنبل والمأساة. . . لقد فقـدت «نوركلدي» ذات يـوم زوجها الـذي خرج يبحث عن ثأر أبيه لـدى «قنصوه الغـوري» الذي فـرّ إلى أرض مصر، فسكبت كل حنانها وعطفها وأمومتها في قلب ابنها طومان الصبيّ، ولكنها فوجئت باختطافـه على يدّ نخاس (تاجر رقيق). فإذا بها تشد الرّحال بحثاً عن ابنها في ملحمة فريدة ونادرة بالرغم من عدم وضوح الطريق، أو ظهور بـريق من الأمل، وتستمـرّ هذه الملحمـة ثلاثين عاماً أو يزيد بحثاً عن ابنها طومان، الذي تدركه جثة معلّقـةً على بـاب زويلة في مصر، دون أن تسعد بمرآه حيًّـا وسلطاناً يحكم أقـوى وأكبر امـبراطوريـة في ذلك الحين، وفي رحلة البحث تلتقي بزوجها أركماس (أرقم)، دون أن تعرفه، ويـرافقها كرمال (يضرب الـرمل) ويسـاعدهـا في مسيرتهـا من بلاد الشـام إلى مصر، بعد أن أدرك ثـأره، وقتل السلطان قنصـوه الغـوري الـذي هـزمتـه قـوات السلطان سليم العثماني من «مرج دابق»، وتشهد «نوركلدي» معه نهاية ابنهـا «طومـان» المأسـاوية، وهو جثة تتدلى على باب زويلة!.

إن «نوركلدي» تمثّل الأمومة الفذّة والنادرة، التي تضحّي بكـل شيء في سبيل الوصول إلى ابنها، وهي تضحية من يتعلق بالأمل الـداخلي الـذي يحرّكـه، دون أن يصغى لصـوت الواقـع الذي يـطفىء هذا الأمـل لأسباب عـديدة. . ولكن الأمـل الداخلي يحرّك هذه المرأة لأكثر من ثـلاثين عـاماً دون أن تعبـأ بطول الشقـة، ولا قلة الزاد، ولا وحشة الطريق، ولا ضعف المرأة، وتتعـرض في بحثها عن «طـومان» إلى الكثير من العناء والآلام لدرجة أن يرميها الناس بالجنـون، ولكن قلب الأم يقودهـا إلى حيث أرادت في النهاية، وإن كانت فجيعتها أكبر من كل وصف.

ويبدو «أركماس» (أرقم) الوجه الآخر لزوجه (نوركلدي) في بحثـه عن ثأره، فقد قتل «قنصوه الغوري» أباه، وهرب من بلاد الكرج موطنه، إلى مصر، ويستمـرّ «أركماس» في البحث عن قصنوه حتى يدركه ذات يوم، ويكاد أن يقضي عليـه بسيفه لولا بروز جمـل هائـج، استطاع أن يفصـل بين الاثنـين، ويدوس أركـماس، فينجو الغـوري، ويتصوّر النـاس أن أركماس قـد مات، ولكن القـدر يُبقي عليه ولكن في

صورة عجيبة وفريدة، «مشوه الخلق» أصلم الأذن، معوّج الأنف، مائل الفكّ، أحمش الساقين، مستكرش البطن، كأنّه صرة ثياب على عصوين من قصب. . .»[٢٠].

ويستغل هذه الصورة في الانتظار والترقب، حتى يأتي اليوم الذي يثأر فيه، عندما يخرج قانصوه الغوري على رأس جيشه لملاقاة عدوّه العثماني في شمال بلاد الشام، فينهزم بسبب مؤامرة المماليك عليه، وهنا فإن أركماس أو الأرقم (لاحظ أن التسمية الثانية ارتبطت بشكله الجديد، وكأنه قد جرى عليها التخفيض كما جرى التخفيض على الشخص ذاته) يجد أن الفرصة المؤاتية للقضاء على عدوّه قنصوه قد لاحت فيقتله أخذًا بثأره، ويتابع مسيرته مع المنهزمين عائداً إلى مصر، ليلتقي بزوجه «نوركلوي» الذي يعرفها ولا تعرفه، ويخجل أن يكشف لها عن نفسه بسبب ما جرى لشكله المشوّه، ولكنه يصحبها إلى مصر، ليرقب ما يجري لابنه طومان الذي صعد إلى العرش.

أما طومان، فيمثل صورة مثالية للفروسية والنبل، ولكنه يأتي في غير أوانه حيث تتحالف الظروف والأحداث ضدّه، ليلقى نهايته المأساوية على باب زويلة، لقد اختطفه النخاس من موطنه في بلاد الكرج، ثم جاء به إلى بلاد الشام مع الفتاة «مصر باي»، فيبيعهما، وينتقلان من يدٍ إلى يد، حتى يذهب كل في طريق، وإن كانت الأقدار تدفع بطومان إلى مماليك السلطان قايتباي. فيشهد عالماً غريباً ومثيراً من صراع المماليك على العرش، ومكائد القصور التي تدبّر بليل سعياً لغايات وشهوات، وظلم الحكام والأمراء للشعب المصري، وتضعه الأقدار ليكون الأمل بالنجاة لمصر والمصريين، ولكن الظروف كانت أكبر منه، وبدلاً من أن يكون الأمل يكون الضحية، بعد أن أبلى بلاءً حسناً في الدفاع ضد القوات الغازية.

لقد صوّره الكاتب إنساناً ذا قلب، يخفق بالأمل والألم، وإنساناً ذا عقل يفكر في مصيره ومصير قومه، وإنساناً ذا بأس يقاتل دفاعاً عن عرضه ووطنه، وقبل ذلك صوره إنساناً ذا دين، يحافظ على عقيدته وسلوكه، فاختلف أو تميّز عن بقية المماليك

---

(٢٠) السابق ـ ص ٨٠.

من أقرانه، ولهذا نعقد عليه الأمل ليكون المنقذ من المأساة، ولكنه صار عنصراً من عناصرها الدامية والباكية!!

على كلّ، فقد جاءت أسرة طومان (أمه وأبوه وهو) في إطار إنساني متكامل، بالرغم من أن الأحداث كانت موّزعة على كثير من الشخصيات التي اكتظت بهم الرواية، وأسهموا في صنعها أو التأثير فيها.

وكان الكاتب حريصاً بصفة على تقديم شخصيات الحكام أو السلاطين، سواء كانوا صالحين أو طالحين، ولعل ذلك كان أهمّ أهدافه الروائية، وإن كان هذا التقديم يأتي غالباً من خلال وصف خارجي، ولعل شخصية «الناصر بن قايتباى»، وشخصية «قنصوه الغوري»، من أكثر الشخصيات التي استأثرت باهتمام الكاتب، فقد صوّر «الناصر»، كشاب فاسد، لا يعنيه إلا البحث عن المتعة وتبديد أموال الدولة، والانقياد للشهوات والمظالم التي أوردته مورد الهلاك، وكانت نتيجة أفعاله أن ضجّ الناس، وبذلوا ما يملكون لحماية أنفسهم وأهليهم من شرّه وفجوره «. . وحتى ليفتدي الأمراء أنفسهم وأعراضهم بالمال يبذلونه للسلطان، والسلطان نهم لا يشبع، شهوان لا يصبر، نشوان لا يفيق!»[٢١]، ويهتم الكاتب بتقديم نهايته المأساوية الدامية التي كانت نتيجة لسلوكه الذي أحفظ عليه الجميع، فقد كان مطلوباً للثأر من أكثر من شخص، وكان يجدّ في قتله شخصان هما التاجر «جلال الدين» الذي عاد ذات يوم فوجد السلطان الناصر قد قتل زوجته بعد أن فشل أن ينالها، والأمير «طومانباي» الدوادار الثاني الذي أزرى به وأذلّه أمام حاشيته، «وتدحرج رأس السلطان على التراب وتعلّق جسده بركاب فرسه متدلياً ينزف دمه، وبسط جلال الدين كفيّه يتلقى قطرات الدم يلعقه بلسانه ويمسح به وجهه ووجه ابنتيه وهو يقهقه قهقهة المجانين، وقد جحظت عيناه من محجريهما كأنهما لا تصدقان ما تريان». .

وتقاذفت الرأس أقدام السابلة، ودوّى الخبر في المدينة بمقتل السلطان.

---

(٢١) على باب زويلة ـ ص ٨٦، وانظر صورة مشابهة للملك العادل الذي ساء سيرة وفسد سريرة (شجرة الدر، ٥٥).

وصعد الظاهر قنصوه الخال إلى العرش، وخلع على طومانباي وجعله الدوادار الكبير[٢٢]. أما شخصية الغوري فهي شخصية الثعلب المتربّص الذي يسعى للحكم من وراء ستار، ويضرب الأطراف ببعضها حتى يخلص له العرش، ويجد الظروف مؤاتية ليُعمل عقله ويكدح ذهنه، حتى يصل إلى غايته، ولكنه يذيق الشعب ألواناً من الظلم والعناء جعلت أعرابياً يقول: «. . لقد أكلنا الغوري شحماً ولحماً ويطمع أن يحارب عدوّه منا بعظم معروق. .»[٢٣]، وتفصيل ذلك أنه بعد أن تخلص من أعدائه، وأغرى بعضهمْ ببعض، وسلم السلطان المخلوع لأعدائه ليثأروا منه ويتخلّقوا بدمه، أيقن أن المال «هو الوسيلة إلى استبقاء العرش، فكان في كل تدبيره من بعد ليجمع ما يقدر عليه من المال بكل ما يملك من أسباب، ولم يُبق في ذلك ممكنا إلا استعان به؛ حتى أتجّر في الغذاء والكساء. واتّجر في وظائف الدولة، واحتكر أنواعاً من المتاجر لا تباع ولا تشترى إلا من بابه، وسار الموظفون على نهج السلطان فاتّجروا واحتكروا، وفرضوا الضرائب لأنفسهم على الناس باسم السلطان، له منها نصيب ولهم نصيب. .»[٢٤].

ويحرص الكاتب على تصوير النهاية لشخصياته، وخاصة شخصيات السلاطين الطغاة، ومن بينهم «الغوري» فقد صوره وهو منهزم في «مرج دابق» بعد أن تخاذل المماليك، وخانه «خاير بك ملباى» الأمير الذي كان يعتمد عليه في صدّ

---

(٢٢) على باب زويلة ـ ١٠٧.

(٢٣) السابق ـ ص ٢٨٢.

(٢٤) السابق، ١٩٠/١٩١، وانظر في المقابل تصويره لأحمد بن طولون مثلاً، حيث يضعه في صورة مضيئة ومشرقة، يمهّد بها ليجعل منه حاكماً صالحاً يجمع إلى الاستقامة العدل والشجاعة والإخلاص: «لم يكن عربي الدّم، وإن حسبه كذلك كل من رآه أو استمع إليه، فقد كان له لسان وبيان، وكان فيه أريحيّة ونخوة، وحفاظ على العهد، وتحرّج في الدين، وعصبيّة للعرب» (قطر الندى: ص ١١). بل إنه يشير إلى ماضيه وسلوكه قبل الوصول إلى الحكم، فيروي أن أم المعتز كتبت إليه وهو يتولى حراسة الخليفة المستعين، وكان سجيناً في واسط، أن يقتله وتوليه إمارة واسط، فرفض قائلاً: «بئست الإمارة تقلّد فيها امرأة ثمناً لمقتل خليفةٍ له في عنقي بيْعة»، وتكون النتيجة أن يزداد حب العرب والترك لأحمد بن طولون، بعد أن أكبروا خلقه ودينه (قطر الندى ١٦، ١٧).

وواضح أن الإصرار على ذكر هذه المواصفات للحاكم الصالح نوع من الدعوة لمعرفتها والتمّسك بها حتى لا تدخل الأجيال الحاضرة في متاهة الضياع والخراب والألم والدماء. ويلاحظ أنه لم يتحدث بوضوح عن الشورى أو دورها في بناء حكم صالح، واكتفى بالعناصر الذاتية للحاكم وتأثيرها في تكوينه، فإن كانت طيبة فهو حاكم صالح، وإن كانت خبيثة فهو حاكم غير صالح أو حاكم فاسد.

الغـارة العثمانيـة، لدرجـة أن قلعة حلب الحصينـة استسلمت للفـاتـح بـلا قتـال، «وتسلم مفاتيحها جندي واحد من جند ابن عثمان، هزيل معـروق أعرج ليس معـه إلا سيف من خشب، فـوضع يـده على كـل مـا كـان في خـزائن القلعـة من ودائـع الغوري التي جلبها معـه من مصر، وبينها من الـذهب والفضة مقـادير لا تكـال ولا توزن ولا تعد»[٢٥]، ثم بـيّن كيف انهار «الغوري» وأجهـز عليه «أركـماس» أو أرقم ـ وهو هنا يشبه الجندي العثماني في هزاله وضآلة شأنه! ـ بعد أن اقتصّ منـه لجريمتـه التي مضى عليها أكثر من ثلاثين عـاماً! وكـأن الكاتب يضـع العقاب دائـماً على قـدر الجريمة، سواء كانت جريمة فرديّة أو وطنيـة؛ ليس في هذه الـرواية فحسب، بـل في روايتيه الأخريين[٢٦].

وقد صورت الرواية «عـالم الدين» كصـاحب موقف في مـواجهة الأحـداث، ولكن هذا التصور لم يلق العناية الكافية فنيًا، فجاءت صـورته شـاحبة، من خـلال «صوفي له مريدون» مثـل الشيخ أبي السعـود الجارحي، أو من خـلال العالم الفقيـه المفسر المصنف الشيخ «جلال الدين السيـوطي»، وإذا كانت شخصيـة الشيخ أبـو السعود تبدو أقرب إلى الموادعـة والمسالمـة، فإنّ شخصيّـة السيوطي تبـدو متصادمـة مهاجمة، حيث لا يتردّد في إعلان رأيه برفض ما يفعله السلطان الفاسق، ويدعو الله أن يعجّل به ليخلص الناس من شرّه[٢٧].

أما المرأة، فقد حظيت بـاهتمام بـالغ في روايـات العريـان، ويكفي أن تكون

---

(٢٥) على باب زويلة ـ ص ٢٩٤؛ وتأمل المفارقة في هذه النهاية للأموال التي جمعها الغـوري عنوة وقسـراً من المصريين وهي تذهب بسهولة مع قلعة حلب الحصينة إلى جندي عثمان، أهم صفاتـه أنه هـزيل وأعـرج ومعروق ومعـه سيف خشبي!!، وكأنـه يقول: هـاهي أموال المصريـين التي حرّمت عليهم أصبحت حلالاً لهذا الجندي المهزول!!.

(٢٦) انظر مثلاً نهاية السلطان الظاهر (قنصوه الخال)، حيث هرب من مـلاحقيه في زي النسـاء خوفـاً من القتل، وهو ينشد لنفسه بعد أن استغربت زوجه ما هو فيه:

وقـائـلـةٍ قـد دهـتـك الـهـمـوم　　وأمـرك مـتـمـثـلٌ فـي الأمـم
فـقـلـت ذريـنـي عـلـى غـصّـتـي　　فـإن الـهـمـوم بـقـدر الـهـمـم،

(راجع، على باب زويلة، ١٤٠).

(٢٧) على باب زويلة ـ ص ١٨٠).

أسماء روايات ثلاث من رواياته أسماء امرأة (بنت قسطنطين، شجرة الدر، قطر النّدى)، والمرأة بصفة عامة، تأخذ موقفاً متطرفاً فهي إما فاعلة وإيجابية إلى حدّ الدخول في بؤرة الضوء (شجر الدر)[٢٨] أو منقادة وسلبية (قطر الندى)، ويتراوح بين هذا النوع وذاك، نماذج للمرأة يحركها الطموح والإرادة، أو يسيّرها الواقع والتقاليد كمعظم شخصيات المرأة في رواية «على باب زويله». وأبرز شخصيات المرأة فيها، «نوركلدى» والدة طومان التي وصلت إيجابيتها إلى مدى أسطوري بإصرارها على البحث عن ابنها، وسبقت الإشارة إلى بعض ملامحها، ثم نجد شخصية «مصر باي» تلك الجارية التي حملها النخاس من بلاد الكرج ليبيعها في بلاد الشام مع طومان باي، فعبّرت منذ البداية عن طموحها وأحلامها بالوصول إلى العرش منذ التقت في الخان الذي ينزل به النخاسون أو تجار الرقيق؛ بخاير ملباي، وقد عبرت بالفعل عن هذا الطموح الجارف في وقت مبكر، فتزوّجت عدداً من الأمراء والسلاطين الذين أوصلوها إلى العرش واحداً بعد الآخر، دون أن تعبأ

---

(٢٨) تأمل وصفه لشجر الدّر في مقدمة الرواية ليبرز قدرتها على المبادرة والفعل حتى لو هزمت في النهاية، وهو وصف يلخّص كل ما جاء حولها في النصّ الروائي:

«كانت جارية ذات أدبٍ وعلم وفن. .

وكانت أنثى ذات جمال وفتنة وحيلة. .

وكانت زوجة ذات حبّ ووفاء وغيرة. . .

وكانت ملكة ذات حزم وإرادة وتدبير. . .» (شجرة الدّر، ص ١٢).

«أحبت وتزوجت، وحملت، ووضعت، ولكنها لم تنس في أي أحوالها أنها ملكة على رأسها تاج، وفي يدها صولجان، وتحتها عرش، وبها ترتبط مصاير أمة. . فكانت ـ حتى في اللحظة التي تنسى فيها كل أنثى أن لها إرادة ـ ملكة ذات إرادة وتدبير وكيد. . .

وملكت وتسلطت، وقبضت على الصولجان وركع تحت قدميها الرجال، ولكنها لم تنس في لحظة من لحظات السلطان الباطش أنها أنثى، وأن لكل أنثى رجلاً تخضع له، وتذوب إرادتها في إرادته. . فكانت ـ حتى في اللحظة التي ينسى فيها كل ذي سلطان أنه بشر ـ تستسلم للحب استسلام كل ذات قلب.

فلما جدت في آثارها الحوادث وأرغمتها على أن تختار بين أن تكون امرأة لرجل أو ملكة لعرش وتاج وصولجان، تنازعتها الكبرياء والغيرة فطاشت، فلم تكن في طيشها أنثى ذات قلب ولا ملكة ذات تدبير، وفقدت الرجل، والعرش، والحياة جميعاً. . .».

(مقدمة شجرة الدر ـ ص ١٢، ١٣).

بعواطف أو مشاعر. كان الذي يعينها أن تكون السلطانة أو الملكة التي تتربع على قمة البلاد زوجة للسلطان أو الملك، حتى لو كان هذا السلطان أو الملك من عيّنه «خاير بك ملباي» الذي خان البلاد، وسلّمها للسلطان العثماني، من أجل أن يتولى عليها تابعاً له.

ومعظم الشخصيات النسائية في الرواية تنتسب إلى الجواري، ولكن حركتهن وتأثيرهن في الأحداث يجعل منهن شخصيات فوق «فوق العادة» غالباً، فهذه «أصل باي» جارية السلطان قايتباي، وأم الناصر، أخت الظاهر (قانصوه الخال)، وزوجة جانبلاط. أربعة سلاطين يكتنفونها عن اليمين وعن الشمال «وكانت جارية في سوق الرقيق يسومها المفلس والمليء!»[٢٩]، ومع ارتفاع شأن الجواري، فإن مكائد القصور ومؤامراتها كانت تنبعث منهن وتقوم بتدبيرهن، مع شَرَه بيّن للانتقام والثأر لدرجة «التخلق بالدم». تتحدث «أصل باي» لقنصوه وهو يتآمر معها على السلطان، فتقول: «.. فلولا أنك تذكرني لغاب عني أنني كنت يوماً سلطانة، وكانوا لي بطانة، وإني لأشتري قطرةً من دم ذلك الباغي بكل ما أملك من مال! فقد نذرت نذراً أن أتخلق أنا وعيالي بدمه، بما أثكلني، ورمّلني، وأسخن عيني!».

قال الغوري:

ــ أرجو أن تجدي وفاء نذرك يا خوند وتقرّي عينا...[٣٠].

وقد تحقّق النذر حين أسلم الغوري السلطان لأصل باي، فتخلّقت بدمه!

وكان طبيعياً أن ترتبط مصائر هؤلاء الجواري بمصائر المماليك، وأن يشهدن الأحداث الدامية والترويع التي كانت تجري في حلبة الصراع، وأن يدفعن ثمن الكيد والمؤامرات ترمّلاً وثكلاً ووحدة وهواناً..

وإن كانت «مصر باي» ـ بالرغم مما عانته ورأته ـ قد فازت في النهاية بزوج يعتلي العرش في مصر، وهو الأمير «خاير بك ملباي» الذي خان السلطان

---

(٢٩) على باب زويلة ـ ص ١٣٩.

(٣٠) السابق ـ ص ١٨٥.

الغوري. . وكأن هذه النهاية التي التقى فيها خاير بك مع مصر باي تتوافق مع المثل الذي يقول: «وافق شنّ طبقه!».

٤ ــ يصدّر العريان روايته «على باب زويلة» بعبارة تحدّد مكان وزمان الأحداث التي وقعت فيها، فيقول: «بدأت حوادث هذه القصّة منذ خمسمائة سنة في بلاد الكرج: «جورجيا موطن ستالين»، وانتهت بالقاهرة في قصور السلاطين».

ويقسم روايته إلى فصول مرقمة ومعنونة[٣١]، وكالعادة لدى كتّاب الرواية التاريخيّة؛ فالعنوان يدل على فحوى الفصل وأحداثه أو شخوصه. وتتابع الأحداث تتابعاً تاريخيا أفقيا حتى تنتهي، وتمتد الأحداث منذ تولي السلطان قايتباي حكم مصر حتى سقوط طومان باي، في فترة حافلة بالأحداث والحكام كما سبقت الإشارة، ولكنها تنتظم في إطار قصّة إنسانية مؤثرة، تكاد تكون أسطورة، حيث الأم «نور كلدى» ـ كما رأيناها ـ تبحث عن ولدها طومان الذي اختطفه تجار الرقيق من بلاد الكرج (جورجيا) وذهبوا ليبيعوه في بلاد الشام، فتقوم برحلة بحث مضنية تمتد على ما يزيد على الثلاثين عاماً، ولكنها لا ترى طومان إلا جثة هامدة على باب زويلة!.

ويقدم الكاتب بما يمكن أن نسميه فرشة تاريخية أو رسم للخريطة السياسية في الفترة التي جرت فيها أحداث الرواية، فقايتباي يمتد ملكه من صحراء ليبيا إلى حدود بلاد الروم شرقا وغربا، ومن بحر الروم إلى حدود اليمن وما وراءها شمالاً وجنوبا، وكان الذي يخشاه هو ابن عثمان ملك الروم (آسيا الصغرى أو الأناضول ـ تركيا الآن).

ويأتي السرد في الرواية أفقياً متتابعاً أيضا، يحكي الأحداث بترتيبها التاريخي إلى حدّ بعيد، كما وردت في كتب التاريخ[٣٢]، ولكن في إطار من السرعة

(٣١) التقسيم نفسه متّبع في رواية «شجرة الدر» أما في «قطر الندى» فقد قسمها إلى ثلاثة فصول معنونة، ثم قسّم كل فصل إلى عدد من الأقسام المرقمة (دون عنوان). وجعل كل فصل من الفصول الثلاثة يتحدث عن مرحلة تاريخية بأكملها على النحو التالي (أحمد بن طولون ـ خمارويه بن طولون ـ عروس من القاهرة «يقصد قطر الندى»)، ويطول كل فصل أو يقصر حسب أهمية الأحداث.

(٣٢) يعد كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن اياس، من أهم كتب التاريخ التي تناولت تلك

المتلاحقة، مما يجعلها تصلح لفيلم سينمائي، حيث تبدو الفصول كمشاهد (سيناريو) فيلم سينمائي طويل، يقطع المؤلف رتابته باللقطات القصيرة الخاطفة، التي يكثف فيها الحدث ودلالته فيحقق نوعاً من التشويق والمتابعة(٣٣)، وساعد على ذلك خلوّ الرواية من الحشو والإسهاب والتطويل.

ويقوم السرد هنا على أساس استخدام ضمير الغائب ككل أو معظم الرّوايات التاريخية، لإضافة إلى الفعل الماضي بالطبع، مما يتيح للكاتب فرصة الحركة في الرسم والتصوير والتلوين، يساعده في ذلك أسلوب بيانيّ رفيع، فالعريان من الجيل الثاني في «مدرسة البيان في النثر الحديث»، ويعتبر الصورة المنقّحة لأستاذه «مصطفى صادق الرافعي»، وقد تأثر به إلى حدٍّ كبير، كما سنرى بعد قليل.

وهذا الأسلوب البياني، أعطى للعريان قدرة فائقة على «الوصف»، وبخاصة وصف المواكب والاحتفالات والأشخاص، والمناظر، والمدن، ولعلّ وصفه لدوران «المحمل» في ذكرى المولد النبوي الشريف بعد أن بطلت هذه العادة، يوضح مدى الدقّة والروعة التي تنقل المشهد حيًّا إلى وجداننا(٣٤)، ولكن أداءه السردي، يجعله أحيانا يقع فيما يشبه التقرير، وبخاصة حين يبدأ بعض الفقرات بصياغة نثرية صرفة، وإن كان بعض المحدثين يراها نوعاً من التجديد، كما نرى في النماذج الروائية التي استلهمت التاريخ، دون أن تلتزم بحوادثه، كأن يقول:

= الفترة، وقد كان كتاب «ابن زنبل» آخرة المماليك، حققه عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٢، من الكتب التي صاغت سقوط مصر في أيدي العثمانيين صياغة شبه روائية، وتعاطفت مع السلطان طومان باي تعاطفاً ملموساً.

(٣٢) يبدو لي «محمد سعيد العريان» كاتبا سينمائيا ممتازا يجيد تصوير المشاهد وفن الحوار باللغة الفصحى ويختزل الزمان والأحداث في لقطات مكثفة، ولعل هذا من أسرار نجاح «على باب زويلة» كمسلسل تلفزيوني، لقي إقبالاً عظيما في حينه.

(٣٣) على باب زويلة ـ ص ٢١٩، وانظر في «قطر الندى» مثلا وصفه لقصر خمارويه، والبستان الذي يحيطه، (قطر الندى، ١٤٤ وما بعدها).

(٣٤) على باب زويلة: ١٨٥، ثم انظر الفقرة التالية في «قطر الندى»:

«قال أبوبكر القرشي ابن أبي ليلى مؤدب الأمراء وصاحب الفقه والحديث والخبر: «والله لقد ورد عليَّ من ذلك يا أباأحمد مالا صبر عليه، فما يهون عليَّ أن يصير إلى ذلك أمر ولدك أبي العباسي.. الخ (قطر الندى: ١٢٩). وهي كما تبدو مأخوذة حرفيا من كتب الأدب والتاريخ، ولكنها موظفة في السياق الروائي بشكل ما، وقد ساعد على انتظامها في السياق، استخدام ضمير الغائب.

«ومضى جمادى، ورجب، وشعبان، والبذرة تستجمع لنفسها أسباب الماء والقوة في باطن الأرض، مما أهلّ هلال رمضان حتى نجم النبات واستطال وامتدت فروعه إلى يمين وشمال. . »[٣٥].

ويرتبط بهذه الناحية، استخدام التأريخ باليوم والشهر والسنة، ليذكر زمان الحدث، مما يعني أن ما يكتبه لا مجال فيه للخيال، وإنما هو تاريخ حقيقي صنعه أشخاص من لحم ودم، ويمكن أن نجد أمثلة عديدة على ذلك في ثنايا الرواية، ولنقرأ:

«اليوم، الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٩٠٤، وقد أخذت المدينة زينتها احتفالاً بالمولد النبوي الشريف. . »[٣٦].

أو:

«جلس قنصوه الغوري على العرش في يوم الفطر سنة ٩٠٦، وعيّدت المدينة عيدين. . »[٣٧].

أو:

«كان يوم الخميس الثامن من رجب سنة ٩٠٩، من أيام القاهرة المشهورة، فقد أزينت المدينة كلها بأمر السلطان احتفالاً بدوران المحمل. . »[٣٨].

ومهما يكن من أمر هذا التأريخ، وارتباطه بالروّاية، فإنه أسلوب «محمد سعيد العريان» الروائي أقرب إلى التعبير الحقيقي عن الجوّ القصصي بصفة عامة، على العكس من أسلوب «علي الجارم» الذي بدا أقرب إلى النماذج التعليمية والكليشهات البيانيّة. لقد طوع «العريان» أسلوبه البياني للقصّ الروائي، حيث حقق نظماً أسلوبياً لا نشعر فيه بالنبوّ أو النشاز، حتى لو استخدم بعض المفردات التي يقلّ استخدامها، ولكن السياق العام يتدفق، في السرد أو الوصف أو الحوار، والصياغة على وجه العموم.

---

(٣٥) على باب زويلة: ١٠٥.
(٣٦) السابق: ١٨٧.
(٣٧) السابق: ٢١٩.
(٣٨) السابق: ١٥٣، ١٥٤.

لقد كان «العريان» تلميذاً للرافعي ـ رحمه الله ـ وكتب عنه كتابه المشهور «حياة الرافعي»، وكان ملازماً له في كثير من الأحيان باعتباره «سكرتيره» الخاص، فقد كانا من محافظة واحدة، ومن تيّار واحد، فتشرّب أسلوبه وروحه التعبيرية؛ وربما روحه الفكريّة؛ ومن ثمّ، فقد ظهرت آثار الرافعي الأسلوبية في كتابة العريان، وهي ما نعثر عليه في كثير من المواضع. يصف حواراً بين «مصر باي» و«خايربك» مفعماً بالانفعالات والأماني، فيقول عن مصر باي:

«وكان صوتها يرنّ في أذنيه كالصدى راجعاً إليه من الزمان البعيد في المكان البعيد، وكأنه ذكرى تومض في الوجدان أو خاطر يتمثّل في الوهم، أهذه مصر باي التي لقيها ذات يوم في حلب فتحدث إليها وتحدثت إليه، بالعينين تارة، وبالشفتين، وتعاهدا على الوداد؟ . . .

إنها هي هي كما كانت، بل إنها لأكثر سحراً وفتنة مما كانت. . .

واستأنف خاير بك:

ـ إنني لم أزل يامولاتي على ذلك العهد، ولم يزل قلبي لك خالصاً لم يغيّره تقادم السنين. . .

وصمت فجأة وعضّ على شفته؛ كيف جرى على لسانه مثل هذا الحديث؟ لكأنّما يعيّرها ويمنّ عليها. . تلك التي عاهدته ذات يوم عهداً فلم تثبت على الوفاء به، وأسلمت نفسها للمقادير تتقاذفها من دار إلى دار، ولها في كل دار منها قلب وحبيب، وإنه على ذلك ما يزال يحبها. ويطمع أن تخلص له»[٣٩].

إنه يذكرنا بصورة الرافعي في «السحاب الأحمر» خاصة، ولنتأمل تعدد التشبيه، (تشبيه صوت مصرباي بالصدى والذكرى)، وتكرار الوصف لمتطابقين (وصف «البعيد» للزمان والمكان)، وتعدّد الفاعل «تحدثت بالعينين والشفتين، وتكرار الخبر «إنها هي هي»، وتكرار «كانت» وتكرار «دار». إنه التكرار الذي يقوم بعملية «التقطير» الأسلوبي الذي يلحّ على فكرة معينة لها في الإحساس أو العاطفة

(٣٩) راجع كتابي «مدرسة البيان في النثر الحديث ـ الباب الثالث، الفصل الثاني: تيار التوليد الذهني ـ ص ٢٩٩.

تأثير عظيم حتى يركزها ويثبتها في العقل والوجدان، وهو ما كان يفعله «الرافعي» على نطاق عريض[٤٠]، ويعدّ العريان امتداداً للرافعي في هذا المجال، ولكن بصورة منقّحة ـ كما قلت من قبل ـ وأكثر سلاسة وفطرية، وأقل إغراقاً في عملية التقطير والتركيز والتوليد.

وفي مواضع أخرى نلمح آثار الرافعي من خلال أسلوب العريان، ويبدو فيها أثر الصياغة العقلية واضحاً: «فمع الشباب دائماً الحرمان والشوق واللهفة، ومع سعادة الوجدان والظفر عجز الشيخوخة والهرم. هذه هي السنة، هي الطبيعة، وهذه سبيل الأقدار فيما تمنح وتمنع، وفيما تعطي وتسلب. إن الشارب المنتشي لا يجد لذته الكاملة إلا حين الكأس بين يديه فارغة من الشباب، فمع امتلاء الكأس الشوق واللهفة، ومع امتلاء النفس بالنشوة تفرغ الكأس فليست بعد ذلك إلا زجاجة للتحطيم!»[٤١].

نحن هنا إزاء عملية تقويم وتحليل للشباب والشيخوخة، والسعادة والشقاء، تقوم على استنتاج ذهني حادّ، يبصر الأعماق، ويرقب الأبعاد، ويرى ما لا يراه العجل المتسرع، ويخلص في هذه العملية إلى أن الحياة لا تعطي كل ما نريد، وعن طريق المفارقة بين عناصر التحليل ذاتها: الشباب = الشيخوخة، الحرمان والشوق = السعادة والظفر، تعطي = تسلب، تمنح = تمنع، امتلاء الكأس = امتلاء النفس، فراغ الكأس = تحطيم الزجاجة... إلخ. نجد أن صورة متكاملة تعبّر عن حالة الشخصيّة الروائية رسمها الكاتب باقتدار، من خلال تأثره بأستاذه الرائد مصطفى صادق الرافعي..

ويمكن أن نلمح في مواضع كثيرة آثار الرافعي بخصائص أسلوبية جديدة، نذكرها دون أن نتوقف أمامها، لأنها لا تخفى:

«وابتسم طومان باي مسافراً على ما به من الألم والضيق، أفيمتنع أن يكون الفتى عاشقاً وطالب مجد؟ وماذا يمنع؟ إن العاشق ليرتقي أحياناً إلى أسباب المجد

---

(٤٠) على باب زويلة: ص ٢٩٦.

(٤١) السابق: ص ٢١٠.

على معراج من شعاع عيني معشوقته، بل إنه ليمتنع أن يعشق الفتى النبيل ولا يطلب أسباب العلاء والمجد، ولكن من أين للغوري الشيخ أن يدرك هذه الحقيقة؟»[٤٢].

«وإنما مفتاح هذا القفل في يد الموت، وهو وحده الذي يفتح ذلك الصندوق المقفل على ما فيه من غيب الله»[٤٣].

«وضعفت نفوس المصريين وأصابها الوهن حتى لو أن صيحة أخذتهم من جانب الوادي لمضوا على وجوههم فارّين لا يردهم إلا البحر!»[٤٤].

وفي إطار التأثر بالرافعي، فإنه يمكننا أن نرى «العريان» وهو يحاول أن يستخلص لنفسه صوراً بيانية مبتكرة، ولكنه يظل مشدوداً بخيط ما إلى أستاذه. لننظر مثلاً إلى هذا التشبيه الذي يشبه فيه الهلال بقلامة ظفر.

«ـ انظر يا بني، هل ترى هلال ذي الحجة قد بزغ؟
فنظر طومان، ثم قال:
ـ نعم، قلامة ظفر توشك أن تغيب!»[٤٥].

وأحياناً نجده ينعطف نحو «المنفلوطي» في صوره الشهيرة كأن يقول: «. . . وغاب الفتى في ضمير الظلماء. . .»[٤٦].

ولأن رجال مدرسة البيان، قد جعلوا من القرآن الكريم النموذج الأعلى الذي يحتذونه، فإنهم تأثروا كثيراً بالتعبيرات والصور الفريدة في آياته الكريمة، ولمحمد سعيد العريان كما للجارم وباكثير وعبدالحليم عبدالله وغيرهم دورهم في هذا المجال، الذي ارتقى بأساليبهم الروائية وأضفى عليها مذاقاً تعبيرياً فريداً.

وسوف نسجل عدداً من النماذج للعريان يتضح فيها جمال العبارة وتفرّدها بعد اتصالها بالأثر القرآني. . .

---

(٤٢) السابق: ص ٢٤٦.
(٤٣) السابق: ص ٣١١.
(٤٤) السابق: ١٤٤.
(٤٦) على باب زويلة، ص ١٥١.

يتحدث طومان إلى الغوري عن أمنيته في لقاء أمّه ثانيـة، فيردّ عليـه الغوري في هدوء وابتسامة غامضة:

«ـ نعم... كما لقي يوسف أبـويه عـلى العرش.. عـلى العرش يـا طومـان يلتقي البُعَدَاء»[47]، مشيراً بـذلك إلى الآيـة الكريمـة: **﴿ورفع أبـويه عـلى العرش وخرّوا له سجداً﴾**[48]، حيث التقى سيدنا «يوسف» عليه السلام بأبويه وأهله بعد فراقٍ طويل وقصّة مثيرة. والغوري هنا يضيف إلى شوق «طومان» للقاء أمه، شـوقه هو الدفين إلى العرش ليحكم مصر، وهـو ما يبـيّن عمق اهتمام الغـوري بالعـرش، وإن كـان يخفي ذلك ظـاهريـاً عن الناس، حتى عن طـومان، كـما تكشف أحداث الرواية.

وتتكرر كثيراً في السرد الروائي «أنغض رأسه» بمعنى أمـالها وحـركها استهـزاءً وتعجّبـاً واستبعاداً، وهي مـأخوذة من قـوله تعـالى: **﴿فسينغضـون إليـك رءوسهم ويقولون متى هو..؟﴾**[49].

ولعلّه الكـاتب الوحيـد الذي استخـدم الفعـل أنغض بـين كتـاب العـربيّـة المحدثين في معظم كتاباته[50].

هنـاك فقرات وعبـارات وجمل تستلهم التعبـير القرآني في ذكـاء وتميّز، وتنتشر عـبر روايات العـريان المختلفـة، فتمنح السرد إيقـاعاً مـوسيقياً قـريباً إلى الـوجدان العـربي، يستلهم قولـه تعالى: **﴿ومن شرّ حـاسدٍ إذا حسـد﴾**[51] فيقـول: «... وكأنما أراد في هذه الجماعة من القاهريّين الـظرفاء أن يكتنف مجلسهم هذان الدميان ليكونا وقاية لهم من شرّ حاسدٍ إذا حسد!»[52] فالإحساس بالخوف من زوال النعمة يجعـل للحسد والحسّـاد مكانـة في الوجـدان تحتّم المواجهـة للحاسـدين بـالـوقـايـة

(٤٧) السابق: ص ٦٧.
(٤٨) سورة يوسف: الآية.
(٤٩) سورة الإسراء: الآية ٥١.
(٥٠) على باب زويلة ـ ص ٧٥ على سبيل المثال.
(٥١) سورة الفلق: الآية ٥.
(٥٢) على باب زويلة: ١٠٩.

والاستعاذة، ثم لنتأمل العبارات التالية:

«ولكن له مع ذلك همومه الخاصة قد أقفل عليها صوره وأمسك لسانه فلم يطلّع على غيبه أحد، فهو موّزع القلب بين أسباب الهوى وتقاليد الإمارة وفضول الشباب...»[٥٣]، وهي متأثرة بقوله تعالى: «**عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً**»[٥٤].

«وعاش علاء الدولة أميراً على مَلك البلاد خائفاً يترقب...»[٥٥]، وهي مأخوذة من الآية الكريمة: ﴿**فأصبح في المدينة خائفاً يترقب**﴾[٥٦].

... من تكون تلك الجركسية الملثمة التي تعترض الفتيان بكل سبيل وتقعد لهم في كل مرصد»[٥٧]. وهي مستوحاة من قوله تعالى: ﴿.. **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد...**﴾[٥٨].

«... والقاهرة يومئذ في أمر مريج»[٥٩]، وهي مستوحاة أيضاً من قوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج**﴾[٦٠].

ويستخدم الراوي بعض الوسائل التي تسهم في عملية القصّ وتنميتها، كالتذكّر وحديث النفس، والمونولوج. الداخلي.

فيخصص مثلاً فصلاً كاملاً بعنوان «عودة الماضي» يتذكّر فيه «طومان باي» طفولته، وما جرى فيها من أحداث قريبة، ويمتزج حديث الذكريات بالحديث إلى النفس، كذلك يتذكر الغوري فصولاً من ماضيه في بلاد الكرج، والصراع بينه

(٥٣) السابق: ٢٠٩.
(٥٤) سورة الجن: الآية ٢٦.
(٥٥) على باب زويلة: ٢٦٢.
(٥٦) سورة القصص: الآية ١٨.
(٥٧) على باب زويلة: ٢٧٠.
(٥٨) سورة التوبة: الآية ٥.
(٥٩) على باب زويلة: ٣١٧.
(٦٠) سورة قٓ: ٥.

وبين «أركماس» والد طومان باي . . .

ويبـدو التذكّـر هنا بسبب عـامل آخـر مثـير من المثـيرات : مـوقف ، كلمـة ، قصة ، . . تعيد إلى وجدان الشخصيّة الـروائية مـا مضى من وقائـع ، تربط تسلسـل الأحـداث ، وتضيء وجوانبهـا التي لم تكن قد اتضحت بصـورة كافيـة من قبـل ، أو تلّخص الأحداث في نقاط أساسية تمهيداً لما سوف لم تكن قد اتضحت بصورة كافية من قبل ، أو تلخص في نقاط أساسية تمهيداً لما سوف يأتي .

فعندما جلس الغوري وطومان يتعارفان بعد أن اطمأن كلّ منهما إلى صاحبه ، تذكّر الغوري أيامه الأخيرة في بلاد الكرج ، وقتله لرجل من أهله ليثبت رجولته ، ثم فراره الذي جاء به إلى هذه البلاد (مصر) واسترسل الغوري في ذكرياته وعـاوده دار الوطن» .

لقـد كان يـزعم لنفسه أنـه قد سـلا وانقطع مـا بينه وبـين ماضيـه ، وبلاده ، وأهله ، ثم برز له أركماس في بعض دروب القاهرة ذات يوم شاهراً في وجهه السيف ليثأر منه لأبيه ، فردّه إلى ذلك الماضي بعنف وبسط لعينيـه صحيفته ، ولكن القـدر لم يمهـل أركماس حتى يبلغ غـايته ، فـطواه الجمل الهـائج تحت خفّـة ونجـا الغـوري . وعـادت الأيام تسـدل الستار بينـه وبين مـاضيه ، وبـلاده ، وأهله ، حتى أوشـك أن ينسى ، وابتسمت لـه الأيام بعـد عبوس ، فـراح يرقى في سلك المماليك درجـة بعد درجـة حتى بلغ المنزلـة التي تنازعـه فيها نفسـه إلى العرش ، كـأن لم يكن يومـاً ذلك الشريد الأفاق المطلوب بالثأر من أقصى بلاد الأرض ! . . . إلخ»[٦١] .

وهذه الذكريات تكشف لنا ما مرّ بشخصيّة الغـوري من أحداث ومـواقف ، حتى وصـل إلى اللحظة الـراهنة التي يـواجه فيهـا «طومـان» ذلك الفتى الـذي ذكّره ببلاده وبماضيه .

ويبدو حديث النفس والمونولوج الداخلي في هذه الرواية أقرب إلى التذكر ، أو أنها جميعـاً يمكن أن تندرج تحت مـا يسميه المؤلف «بـالخواطـر» التي تخطر عـلى باب الشخصية ، فتثال عليها الذكريات والأحلام ، تستعيد المـاضي ، أو تصنع في الخيـال

---

(٦١) على باب زويلة : ص ٦٣ / ٦٤ .

المستقبل المنتظر أو المتوقّع، ويخصّص المؤلف ـ على سبيل المثال ـ فصلاً كاملاً بعنوان «أب وأم» يمتلىء بحديث النفس؛ يدور في داخل أركماس، حيث يواجه زوجته «نور كلري»، ولم يستطع أن يفصح لها عن نفسه بسبب دمامته وخلقته المشوهة التي تخلفت عن مداهمة الجمل له، وهو يهم بقتل الغوري في أحد دروب القاهرة. كما يستخدم المؤلف التساؤلات على لسان الراوي باعتبارها «حديث نفس»، فهو مثلاً يقدم مجموعة من التساؤلات المتلاحقة على لسان الغوري، وبعد أن ينتهي من سردها يعتبرها حديث نفس، بينما تكاد هذه الأسئلة تكون نوعاً من الخطاب العقلي الذي يعتمد على الفروض والبراهين والنتائج، مما يكاد يخرجها عن الإطار الروائي، وإن كانت في نفس الوقت تقوم بإلقاء الضوء على جوانب متعددة في بعض الشخصيّات والأحداث، أو تصوّر احتمالات المستقبل وحوادثه، وهذا هو ما يربطها بالسياق، فحين يعرض «قنصوه الغوري» لما يعتمل في نفسه تجاه الحكم والمماليك، نجد الرّاوي يطرح المسألة على هذا النحو:

«. . . لم يكن الغوري يومئذ بالمنزلة التي تسمح له أن ينافس على عرش مصر أقبردي الدوادار، وقنصوه الخمسمئي، نعم إنه من أقدم مماليك الأشرف قايتباي وأدناهم إليه منزلة، ولكن أين هو من أقبردي وقنصوه الخمسمئي؟ وأين وسائله للكفاح؟ . . . إنه لا يملك المال الذي يصطنع به الأشياع، ولا الجاه الذي يتكثر به من الأتباع، وليس له كغيره من الأمراء جيش من المماليك يعدّه للهجوم والدفاع: فمن أين له أن يبلغ ما يأمله؟ ولكنه إلى ذلك يملك الصبر والحيلة؛ أفليس يسعه الانتظار حتى يتفانى هؤلاء الأمراء العظام ويأكل بعضهم بعضاً فينفرد في الميدان؟ بلى، وإنه ليستطيع إلى ذلك أن يتعجل آخرتهم بما يزيّن لهم من الأماني. فإذا وثب بعضهم على بعض سقط الضعيف، وانتهى أمره، وانحلت عروة القويّ فزال خطره! ومن ذا يبقى في طريقه إلى العرش بعد تمراز الشمس، والأمير أبزك، وأقبردي الدوادار، وقنصوه الخمسمئي؟ ومن ذا يبقى في طريقه إلى العرش بعد هؤلاء؟ محمد بن قايتباي ذلك الصبيّ الذي لم يبلغ حدّ التمييز؟ . . نعم، وإنه لأقواهم جميعاً، أفليس هو ابن الأشرف قايتباي سيده ومولاه؛ فحسبه بذلك قوة! . . . ولكن من ذا يزعم أن هذا الطفل سيبقى فلا تطؤه أقدام أولئك العماليق، وهم يتصارعون بين يدي العرش؟

أفيمكن هذا؟ أفيكون عرش مصر لقنصوه الغوري يوماً؟ أفيبلغ هذا الأمل بالصبر والحيلة، حين لا مال معه، ولا جاه، ولا جند؟ لقد جاوز الخمسين ولم يزل أميراً، نائباً لقلعة حلب. . الخ»[٦٢]، ويظل الراوي يتحدث ويتساءل على لسان قنصوه الغوري، فيسرد تاريخه ونشأته ويتخيل مستقبله وغده، حتى يذهب به الحلم إلى الجلوس على عرش مصر بالصبر والحيلة !، وبعدئذ يقول لنا الراوي: «هكذا كان يحدث الغوري نفسه، وهو وحيد في مجلسه من قلعة حلب، حين جاءته الأنباء من القاهرة بما ثار من الفتنة بين أقبردي الدوادار وقنصوه الخمسمئي في سبيل المنافسة على العرش»[٦٣] وكما رأينا: فإن حديث النفس الذي أجراه المؤلف على لسان قنصوه الغوري، يبدو متسقاً مع مسار الأحداث، وفي اتجاه تحقيق الحلم الذي كان يحلم به وهو يقظان في قلعة حلب، حيث بدأت الفتنة والصراع بين الأمراء أو المماليك المتنافسين على العرش والسلطة. .

إن حديث النفس، ومعه التذكر، والمونولوج أيضا، يشبه في مهمته الروائية، مهمة الرؤيا وضرب الرمل والتنجيم، في الإشارة إلى المستقبل أو الإيحاء به، وإن كان يزيد عليها توضيح الماضي وإلقاء الضوء عليه، سواء ما تعلق بالأشخاص أو الأحداث أو الأماكن.

---

(٦٢) السابق: ٤٠ / ٤١.

(٦٣) السابق: ٤٢. وانظر أيضا تلك التساؤلات التي تدور بخيال الغوري، وهو يجري مونولوجاً داخلياً حول مسألة الحكم والوثوب إلى العرش، بينما يجلس إليه «طومان باي» أيضا، فيرى المماليك العظام وقد قاموا بتصفية بعضهم بعضا. واقترب أمله، فيتساءل الراوي: «. . . ومن ذا الذي يخشاه الغوري بعد ! أقنصوه الخال ـ ذلك الشاب الغرير الذي يحسب الأمر كله شركة بينه وبين السلطان الصبي لا ينافسهما أحد؟ أم جانبلاط نائب حلب الذي زين له هوى أصل باي أم السلطان أنه صاحب الحل والعقد لأنه صديق الأم والخال؟ أم. . الخ» حتى يقول: «لو شاء لوثب بأتباعه وثبة تزيح من طريقه كل أولئك وتصعد به إلى العرش، ولكنه لا يشاء الآن، إنه لا يريد أن يصعد العرش على أشلاء ودمار، لأنه يريد أن يلي العرش وليس عليه ثأر يطلب به. . يريد أن يلي العرش ليعمر على العرش أطول مما عمرٍ أستاذه السلطان قايتباي، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يتفانى أعداؤه ويأكل بعضهم بعضا. . الخ» وفي نهاية هذا المونولوج أو الحوار الداخلي يقول الراوي: «كانت هذه الخواطر تُطيف برأس الغوري، وقد عاد من جولته في المدينة، وطومان جالس بين يديه ينتظر أن يأذن له في الحديث. . » (الرواية، ص ٩٢، ٩٣)).

بيد أن الذي قد يفسد هذه الوسائل التي تقطع حدة السرد ورتابته، تدخل الكاتب بصوت عال، ليوضح فكرة أو رأياً، دون أن يكون هذا الرأي أو تلك الفكرة موصولة بالسياق الروائي كأن يقول مثلاً، وفي تدخل صريح:

«على أن المصريين في هذا العهد الذي نقصّ من تاريخه، لم يكونوا راضين عن نظام حكومة الجراكسة رضىً يفرض عليهم الطاعة والولاء، فقد ضاقوا بما يحملون من مظالم المماليك ضيقاً شديداً، فإنهم ليتمنون ـ لو استطاعوا ـ أن يخلعوا عن أعناقهم إصر هؤلاء السلاطين الذين يتوارثون عرش مصر سلطاناً بعد سلطان منذ ثلاثة قرون أو قريب من ذلك، فلم يعدلوا في الحكومة، ولم يقسموا بالسويّة، ولم يحققوا للشعب معنى من معاني الحرية والإخاء، أو يهيئوا له عيشة ناعمة رخيّة، وإنما كل همّهم أن ينعموا بحياة مترفة قد بلغت الغاية من البذخ والرفاهية... الخ»[٦٤].

وكما نرى فإن «العريان» يوجه صحيفة إتهام للجراكسة في صياغة تقريرية يمكن اجتزاؤها وتقديمها كمقال مستقل، وليس سرداً روائياً موصولاً بنسيج عام يرتبط ببعضه البعض.

على أن للرؤيا وضرب الرمل والتنجيم دورها الكبير في الصياغة الروائية في روايات «محمد سعيد العريان»، فهي تمنح النص نوعاً من الحيوية التعبيرية والتدفق الفني، وتقطع برتابة السرد التاريخي، وتهيىء لمتابعة الحدث، وتزيد في التشويق، ويتفاوت الاهتمام بالرؤيا وضرب الرمل والتنجيم في الروايات الثلاث، فبينما يهتم «العريان» بالحلم أو الرؤيا في رواية «قطر الندى» فإنه يهتم بدور «المنجم» في «شجرة الدر» اهتماماً واضحاً، أما «على باب زويلة» فتلعب فيها عملية التنجيم وضرب الرمل دوراً كبيراً... وإن كانت الأنواع الثلاثة موجودة في الروايات الثلاث، بل إنه يوظف «الحلم» في رواية «على باب زويلة» ليكون استجابة للواقع، مع وجود ما يمكن أن نسميه «بالهاتف» الذي يحدث يقظة، على نحو ما سنرى.

في رواية «قطر الندى» نجد حلمين مهمين، أولهما ما رآه أحمد بن طولون في

---

(٦٤) على باب زويلة ـ ص ٢٠٧ وما بعدها.

منـامه: فتى أزرق شقـر من وافدة بغـداد يشرف في الاصطبـل على الـدواب اسمـه «محمد بن سليمان» في يده مكنسة يكنس بها القصر وسائر الدور والحجـر، ثم يعاوده الحلم مـرة أخرى كـأنه انـذار من وراء الغيب بـأن هـذا الفتى يـدبـر شرًّا للدولـة، وتتحقق هذه الرؤيا فيما بعد حين خـرج هذا الفتى الأزرق الأشقـر من وافدة بغـداد على أحمد بن طولون وانضم إلى الموفق ضده.

ثم هناك حلم المربية «أم آسية» التي رأت قصراً وزينة، فقيـل لها إن عـروس بنت ملك المغـرب تزف إلى ملك المشرق صـاحب القصر، وكـانت العـروس قـطر الندى تجلس على سريرها وتـطل على نهر مثـل النيل من اليمـين ونهر مثل دجلة من الشمال.. ثم تنبهت المرأة من حلمها على صائح يصيح !! وقد تحقق الحلم بـالفعل بـزواج قطر النـدى من خليفة بغـداد وحدث زفـاف لم يسبق له مثيـل أدى إلى خواء الخزانة، ومقتل خمارويه والد قطر الندى، ثم ذبولها حتى ماتت[٦٥].

أما «على باب زويلة» فنرى فيها «طومـان» وهو يـرى صورة تشبـه صورة أمـه «نـوركلدي»، ولكنها ذابلة، نـاحلة، شاحبـة، في ثيـاب الحـداد، تقتلع أقـدامهـا اقتلاعاً في بادية رملية سحيقة، كـل ما حـولها رمـال، وقد أصـابها الكـلال والظمـأ والوهن.. وتنادي على ولدها:

ـ ولدي طومان !

وتستمد العزم من النداء، فتواصل السير، واقتلاع أقدامها من الرمال.

فيهب من نومه مذعوراً.. ويهتف:

ـ أمي نوركلدي !

فيصـل صوتـه إلى أمه هنـالك (كـأنه هـاتف) فتستأنف سـيرهـا في الـطريق الموحش»[٦٦].

هنا يوظف الكاتب الحلم الذي يستجيب للواقـع توظيفـاً جميلاً، حيث نـرى الابن طومان والأم نوركلدي، كأنّهما على وتر واحد من الإحساس والشعور. هي في

---

(٦٥) قطر الندى: ٤٧ ـ ٨٩، ٢٠٩.

(٦٦) على باب زويلة: ١٦٢ وما بعدها.

محنة البحث عنه (وهو واقع) وهو في رؤياه يشعر بآلامها وعذابها (حلم) فيهتف كل منهما بالآخر في عالم اليقظة، وهنا نرى البناء الروائي يتماسك في إيقاع إنساني فريد.

والرؤيا في المفهوم الإسلامي تختلف عنها في مفهوم علماء النفس، باعتبارها تمثل نوعاً من الوحي للأنبياء (رؤيا سيدنا ابراهيم عليه السلام بذبح ولده اسماعيل، ورؤيا سيدنا يوسف عليه السلام، والرؤى التي رآها سيدنا محمد ﷺ) وهي رؤيا حق وصادقة، كذلك فإن رؤيا الصالحين تتحقق غالباً، أو تشي بما سيتحقق، وقد أُلّفت كتب عديدة في تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا. ومن ثمّ، فإن توظيف الرؤيا في النص الروائي يبدو موفقا للغاية، ولكن الأمر يبدو مثيراً للجدل حين نلاحظ الإكثار من الرمّالين والمنجمين على مدى الروايات الثلاث (قطر الندى، شجرة الدر، على باب زويلة)، صحيح أن ضرب الرمال والتنجيم من الأمور الواقعية التي شهدها المجتمع وما زال، ولكن الإلحاح عليها قد يثير أكثر من تساؤل حول قصد المؤلف وغايته، ومدى توفيقه فنّيا بالإغراق في ذكر الرمالين والمنجمّين .. ويبدو أنه استشعر شيئاً من ذلك، فنراه، وهو في غمرة اهتمامه بالمنجمين، لدرجة أن أدخل أحدهم السجن بصحبة الملك في رواية «شجرة الدر»، يناقش قضية التنجيم والمنجمين عبر حوار الشخصيات، ويستدعي أبياتاً لعلها تلخص موقفه، منها:

دع النجوم لطُرْقيّ يعيش بها	وبالعزيمة فانهض أيها الملك !
إن النبي وأصحاب النبي نهوا	عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا ![67]

وإذا كان هذا رأيه في التنجيم، فإنه يستخدمه كنوع من النبوءة بالأحداث القادمة، وهي دائماً في رواياته نبوءات صادقة ومتحققة، لا تخلف وعدها أو مضمونها مرة واحدة ! ومن ثمّ، فهي لم توضع في البناء الروائي كنوع من التسلية أو تغيير حالة الرقابة في السرد، وإنما هي مقصودة لربط العناصر الروائية في مواضع مختلفة.. ولعل هذا ما جعله يخصص فصلاً من فصول «على باب زويلة» ويجعل له

(٦٧) شجرة الدر: ٥٣، وتأمل في هذه الرواية ما قاله المنجم لأيبك الجاشنكير (متذوق الطعام) من أنه سيصبح ملكا يجلس على العرش وتأتمر بأمره الملايين (ص ٢٠، ٢١)، وما قاله لشجر الدر من أنها ستبلغ باسم ولدها خليل العرش فتملك وتحكم وتبلغ من المجد مالم تبلغه امرأة في تاريخ المشرق والمغرب (ص ٤٢، ٤٣).

عنواناً يدل على مضمونه «أنباء من الغيب» يتحدث فيه عن نبوءة الرمّال، ويكشف عن مشاعر «مصرباي» زوجة السلطان، واهتمامها البالغ بما يقوله الرمال وتأثرها به، وإلحاحها في التساؤل لمعرفة ما يخبئه الغيب بالنسبة لها وبالنسبة للآخرين والأخريات، ولكن الرمال يقول لها:

«لقد قلت ما علمت يا مولاتي. . ستنقشع العاصفة ويصفو الجو عن نجم واحد قد انفرد في موضعه من الأفق الأعلى ومدّ من أشعته جسراً من النور إلى ذلك الكوكب الواحد المتفرّد على عرشه. . وقد تهاوت أنجم وكواكب!

قالت وهي تدفع إليه صرة دنانير:

ـ ويكون ذلك قريباً يا أباالنجم؟

قال وهو يدّس الصرّة في جيبه ويتهيأ للانصراف من مجلس السلطانة:

ـ ارقبي مدار الفلك يا مولاتي، فستجدين ذلك كله مسطوراً في كتابه! ثم مضى الرمّال وخلّف السلطنة تعدّ النجوم»[٦٨].

قد يكون الشوق إلى معرفة المستقبل أو ما سوف يأتي ضرورة للشخصيات الروائية في روايات محمد سعيد العريان، باعتبارها شخصيات تقود صراعاً أو تعيش صراعاً ضارياً يتعلق بالحياة والموت، والغنى والفقر، والأمل والألم. . ومن ثمّ يكون المنجم والرمّال ضرورة لهذه الشخصيات، حيث تعيش حالات نفسية حادة مليئة بالتناقضات، والضعف الإنساني قبل كل شيء، وتحتاج لمن يجبر هذا الضعف أو يوازن تلك التناقضات.

ومن الطريف أن الكاتب استطاع أن يحوّل بعض الشخصيات العاجزة في الواقع إلى شخصيات قوية يستمع إليها الناس بشغف واهتمام، كما فعل مع «أركاس» أو «أرقم» الذي كان يعيش على هامش الحياة بسبب ما جرى له يوم طواه الجمل تحت خفه، وعندما تحول إلى «رمّال» يتنبأ بالمستقبل فقد اهتم به الناس وأنزلوه منزلة عالية، لدرجة أن السلطان طلبه ليقرأ له طالعه!

---

(٦٨) على باب زويلة ـ ص ١٣٥، ١٣٦.

والأكثر طرافة من هذا أن يصبح الرمّال أو المنجم مؤثراً في مسيرة الدولة وموقف السلطان من الأمراء والأعوان، فعندما خرج الرمّال من مجلس الغوري، قال لنفسه:

«ـ إنه ليخيّل إليَّ أن ذلك الرمّال صادق فيما يحدث به عن نجومه، ولكن من ذلك الأمير الذي سيكون له من بعدي هذا العرش وأول اسمه س؟»(٦٩).

وبسبب هذه الـ «س» تحدث مشكلات ومظالم عديدة، لمن أول أسمائهم «س» تصيب بناء الدولة ذاته، حتى يأتي من أول اسمه «س» حقيقة فيتولى العرش، وتنتهي مقولة الرمّال التي تحوّلت في الرواية إلى واقع!

وإذا كان دور الرؤيا والتنجيم، يحوّل الأحلام والآمال إلى حقائق وواقع، فإن الكاتب يجعل من المصادفات القدرية حلاً لكثير من المشكلات التي يقابلها أبطاله، أو تحقيقاً لمفارقات بين هؤلاء الأبطال، فنجد مثلاً قنصوه الغوري يلتقي بطومان باي بصورة لم تكن متوقعة، وهو يحسب أنه فرّ من الثأر المطلوب به من جانب «أركماس» والد طومان، فيحتال على حرج الموقف، ويقنع طومان أنه عمه، فينتهي الموقف إلى تعاطف وحنان!(٧٠). كذلك نجد الغوري يلتقي قبلاً بأركماس الذي همّ أن يهوي بسيفه على رقبته فيقتصّ منه، ولكن يبرز جمل هائج يلقي «أركماس» على الأرض ويطويه تحت خفّه، وينجو الغوري(٧١)، ويعتبر الكاتب هذه المصادفات من تدبير الله تهيئة لأسباب وتمهيداً لطريق.. بل إنه حين يجعل «نوركلدي» تلتقي مع «أركماس» بعد هزيمة الغوري في مرج دابق، وانتقام «أركماس» منه، لا يتردد في القول واصفاً «أركماس» وهو مذهول: «إلى أي طريق تسوقه المقادير؟»(٧٢).

ويبدو أنه بإسناد هذه الأحداث إلى المصادفات القدرية، يحاول أن يضفي على البناء الفني عفوية من سياق الأحداث وتتابعها، ولكن هذه المصادفات بشكل

---

(٦٩) السابق ـ ص ٢٢٦.
(٧٠) السابق ـ ص ٦٥، ٦٦.
(٧١) السابق ـ ص ٤٢.
(٧٢) السابق ـ ص ٣٠٦.

عام مقبولة، ولا تزعزع البناء.

تبقى كلمة عن الحوار في رواية «على باب زويلة»، فهو حوار فصيح، ويعتمد على الاقتصاد في الألفاظ مع الدلالة الدقيقة على المعاني، والحوار بصفة عامة، يكشف عن تطورات جديدة في حياة الأشخاص وبصائرهم من خلال تلقائية وعفوية، فحين يتحدث طومان باي مثلاً عن «مصرباي» نجده وهو يجلس مع «جاني باي» تاجر المماليك، ويتحاور معه، يخبره الأخير أن «مصرباي» قد تزوجت كرت باي، وأنها كانت تعيش معه في صفد، ثم عادت إلى القاهرة بعد موته لتعيش في قصر أخيه، على عكس ما كان يتوقعه طومان من أنها تزوجت «خاير بن ملباي»:

«قال طومان لضيفه:

- وإذن فأنت لم تدع مصرباي لخاير بن ملباي؟

قال جاني باي:

- نعم يا سيدي، وأحسبها تعيش في قصر أقبردي الدوادار منذ عادت من صفد بعد موت زوجها كرت باي..

ثم صمت برهة، وعاد يقول:

- وللناس في شأنها أحاديث يتزيّد منها من يتزيّد وينقص من ينقص، ولأهل مصر يا سيدي فن وبراعة في اختراع الأراجيف»[٧٣].

وواضح أن العبارة الأخيرة «ولأهل مصر يا سيدي فن وبراعة في اختراع الأراجيف» عبارة تفسيرية، أو تعليق لم يضف جديداً، بل كان عبئاً على الحوار، فضلاً عن كونه إساءة بطريقة ما لأهل مصر، وتصويرهم على أنهم مخترعو أكاذيب.. وهو نوع من المبالغة على أقل تقدير، ولعل المثل العامي الذي يردده المصريون: لا دخان بغير نار، يفسّر معنى انتشار الشائعات التي تنطلق أحيانا، ويعتبرها الكاتب على لسان بطله «فنا وبراعة في اختراع الأراجيف»، ثم إن الشائعات ليست حكراً على شعب دون شعب في عالمنا العريض.

ويقوم الحوار أحياناً مفاجأة يكشف عنها الكاتب من خلال السرد، فعندما

(٧٣) السابق، ص ٧٤.

عاد قنصوه الخال من سرحته في البادية، لم تمض ساعة حتى أنبأته جاريته النبأ.

«ـ ماذا تقولين يا جارية؟

ـ كل ذلك قد كان يا مولاي، وستبيت مصرباي الليلة في القلعة زوجاً للسلطان الناصر!»(٧٤).

وهذا النبأ يفسره الكاتب بعد ذلك، فقد أرسل السلطان الأمير قنصوه إلى رحلة نائية ليخلو له الجوّ ويتزوج من مصرباي، وقد كان! وهكذا يقوم الحوار بدور التشويق لمعرفة طبيعة ما جرى.

وأخيراً فإن روايات «محمد سعيد العريان»، و«على باب زويلة» خاصّة، كشفت صفحات من تاريخ أمّتنا في مراحل حرجة، وأبانت عن صراع أشخاص؛ بكل ما في هذا الصراع من قيم وتقاليد ومثل، وأظهرت معادن الرجال والنساء، وأوضحت كيف تقوم الأمم وتزدهر على أساس من العدل والحق والتقوى، وكيف تنهار الدول إذا ابتعدت عن هذا الأساس وارتدت لباس الجور والباطل والدنس.. في إطار من الصياغة الفنيّة الجيّدة، التي تعبّر عن وعي بمهمة الفنّ الروائي في حمل الهموم والأشواق...

لقد اجتهد «محمد سعيد العريان» في تقديم صورةٍ لعصرٍ بكل ما في هذا العصر من نماذج إنسانية واجتماعية تمارس الحياة وتتفاعل معها. كما استطاع أن يبرز ملامح هذه الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، كأنّنا نرى هذه الملامح ماثلة أمامنا(٧٥)، فعشنا عصراً بعيداً يحمل خصائصه المتميّزة، وإن كانت خصائصه الإنسانية باقية لكل زمان ومكان، تجربةً تُروى، وعبرةً تُهدى، وقبل كل ذلك وبعده، دورةً من دورات التاريخ!

---

(٧٤) السابق، ص ١٠٢.

(٧٥) يرى مؤلفا الرواية التاريخية أن محمد سعيد العريان، قد تورط في أخطاء تاريخية معينة، فلم يكن الحكم وراثياً في عهد سلطان الجراكسة، كما جاء تصويره للمماليك للجلبان يكشف عن عدم فهمه لحقيقتهم، ثم إنه استخدم بعض الألقاب دون أن يفطن إلى أنها لم تكن مستخدمة في ذلك العصر مثل لقب سلطانة، ولقب كبير الأمناء (قاسم، الهواري، الرواية التاريخية: ١٥٠ وما بعدها)، ورأيي أن هذه الأخطاء لا تقلل من الجهد الكبير الذي بذله العريان في تصوير العصر تصويراً جيداً.

نحو تصور عربي جديد للشعر العربي

د. سعد دعبيس
الأستاذ المشارك بكلية الآداب
جامعة السلطان قابوس ـ عمان

لعلني لا أبالغ إذا قلت: إن ديوان «الجرح الأخير للشاعر الدكتور عبده بدوي، يمثّل أخطر مراجعة للشعر العربي المعاصر: موقفاً وتشكيلاً ونظرية وتطبيقا، كما يمثل مواجهة حادة بين الشاعر والمبشرين بالوثنيات الجديدة في شعرنا العربي المعاصر..!

إنّ مقدمة ذلك الديوان أقرب إلى أن تكون ثورة لا تقتصر على الرؤية المعاصرة للشعر العربي، بل تتجاوزها إلى مجالات أخرى.. إلى فَهْم التراث، وتفسير التاريخ، والتّعامل مع رموزه وأحداثه، وموقف السلطة الحاكمة من الفن والشهر، وموقف المجتمع أيضاً.. وكيف شُوِّه وجدان الإنسان العربي، وشُوِّه تاريخه، وشوهت رؤيته للحياة أحياناً عندما سار الشعراء كقطط أليفةٍ في ركاب السلطة الحاكمة، عندما صار الشاعر صَدَى الآخرين لا صدى نفسه هو، وصَدَى رؤيته.. عندما أغمض عينيه، واستعار عيون الآخرين..

وإذا كانت مقدمة الديوان، تمْتاز بطابع الحدَّة الغاضبة في بعض جوانبها، فنحن أحوج ما نكون في مسيرتنا الشعرية المعاصرة إلى مثل هذه الحدّة الصارخة، لأننا محاطون الآن بأكثر من مُخدِّر إعلامي مركَّز، وبأكثر من سحابة نَوَويَّة تنظيرية تحاول أن تشوِّه رؤيتنا للكون والوجود والماضي والحاضر والفكر والقيم، وبأكثر من كاهن من كهنة الخرافة المعاصرة الذين يحاولون أن يفرضوا وصايتهم على الحقيقة في

مجال الإبداع الفكري والأدبي والنقدي . . ومن ثمَّ فهُم يوزعون الأضواء على من يمْسخُ شخصية الإنسان العربي . ويمزقها، ويغرِّبها، ويُلقي بها إلى مَهاوي العبثية والعَدَمية والسِّيزيفية والفوضوية، ويحجبون هذه الأضواء عَمَّن يرفضون آلهتهم العصرية، وأوثانهم التقدمية، الغارقة في أوحال الجنس والسَّأم، والعنف، والتّعصب اللامعقول لكل معطياتِ الجنس الآري . . لكُل القيم التخريبية المرتبطة بأي انتهاء أوربي . . أيا كان شكله أو اتجاهه أو عصره، وهنا تحضرنا صيحة المفكر العربي المعاصر التي يوجهها للمثقف العربي المعاصر[1]، يقول الأستاذ محمود شاكر في كتابه الرائع عن المتنبي في رده على من يروجون تلك الأسطورة التي تقول: إنَّ الحملة الفرنسية جاءت ومعها قميص يوسف لتُنقِذ مصر من حالة التخلف والجهل إلى عالم النور والحرية . . يقول في رده على هؤلاء: «اقرأ تاريخَك بعينٍ عربية بصيرة لا تغفل . . لا بعينٍ أوربية تخالطها نخوة وطنية . . !».

إنَّ عبادة النموذج الأوربي، واعتباره المقياس الذي ينبغي أن نقيس به كُلَّ حركة إصلاحية، وكُلَّ حركة من حركات التجديد في الفكر والأدب والفن، أدَّت إلى آثار مخرِّبة للعقل العربي والوجدان العربي أيضاً . . ! فمن ذا الذي يوافق ـ مثلاً ـ على تزييف النصوص الأدبية العربية الحديثة، ليخضعها رغم أنفها لمصطلحات النقد الأوربي؟ وهل من المعقول ـ مثلاً ـ أن نوافق على ما يزعمه كثيرٌ مِنْ نُقَّادنا المحدثين من إطلاق مصطلح «التيار الكلاسيكي» وهو مصطلح ارتبط بمسرح «موليير» و «كورني» و «راسين» وعقلانية أرسطو، ونظرية «المحاكاة» على «تيار الشعر العربي الحديث» الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بالشعر «الغنائي» عند محمود سامي البارودي، والشيخ محمد عبدالمطلب، والسيد توفيق البكري ـ في مصر ـ ومحمد سعيد العباسي ـ في السودان، والكاظمي في العراق ـ وغيرهم من أعلام «الشعر التراثي» الحديث في أنحاء الوطن العربي؟؟

ومِنْ هذا المنطلق كان رفضي القائم على الدراسة الموضوعية لمصطلحي: «الكلاسيكية» و «الرومانتيكية» اللذين أطلقا ـ خطأً ـ على تيارين من تيارات الشعر

---

(١) انظر: دراسة بعنوان: «قراءة جديدة لتاريخنا الثقافي أيام نابليون ومحمد علي» للأستاذ سامح كريم الأهرام ١٩٨٧/٤/١٠.

العربي الحديث واقتراحي بدلاً منهما، مصطلحي: «التراثية» و«الهروبية» اللذين ينسجمان مع الخصائص الموضوعية والفنية لهذين التيارين، ومع النصوص الشعرية التي تنتمي لهما[١].

إنني حين أحاول مناقشة هذه القضية - في ظل مناقشتي للقضايا التي تثيرها مقدمة ديوان «الجرح الأخير» فإنني بذلك أحاول الإسهام مع صاحب هذه المقدمة، بقدر جهدي في تسليط بعض الأضواء على بعض الجوانب في أزمة الدراسات الأدبية الحديثة، وهي أزمة ترجع إلى عبادة النموذج الأوربي في مجال الأدب والنقد، وتتمثل هذه الأزمة في تميُّع المفاهيم واختلاطها، وغموض المصطلحات، وإبهام النَّصِّ النَّقدي وتعقيده، وخلو السَّاحة الأدبية من كبار النقاد، أو - من الكثير منهم -

ولا إخالُني في ذلك مُبالغًا، فهذا أنموذج من تحذيرات وصرخات ومخاوف بعض نقادنا، تفيض بها مجلاتنا الأدبية، بل وصحافتنا اليومية أيضا، فالأستاذ الدكتور حمدي السكوت، يصرخ محذراً في مقابلة صحفية نشرتها الصفحة الأدبية بجريدة «الأخبار» القاهرية:

«لِلأَسَفِ. . أَدَبُنَا مُسْتَورَدٌ. . ولا تُوجَدُ لنا نظريةٌ نَقْديَّة عربية يمكن أن نُسهِمَ بها في ركب التطور والحضارة. . !

نَعَمْ. . لأنَّ الأدب الذي يكتبه أدباؤنا. . أدبٌ مُسْتوردٌ، ومقاييسه النقدية - بالتَّالي - مُسْتَورَدَة - فكيف ننتظر - إذَن - نظرية أدبية عربية؟؟[٢]

لقَدْ وَقَعَ كثيرٌ من الشعراء وكُتَّاب القصة والمسرح في مصيدة المصطلحات البراقة لهؤلاء النقاد الذين يميلون إلى إرهاب المبدعين بشعارات الثورية والتقدمية وفي ذلك يقول أحد النقاد الأوربيين، وهو (جورج واطسن G.Watson): «في المراحل الأولى للتعصب الثوري لا يستنكف الثائر عن استخدام شيء من الإرهاب الفكري، والصورة الشائعة التي يأخذها هذا الإرهاب هي ما يمكن تسميته:

---

(١) انظر: كتاب «حوار مع قضايا الشعر المعاصر» للدكتور سعد دعبيس (الفصل الأول: أزمة المصطلحات والمفاهيم - ص١١ - ص٢٤).

(٢) جريدة الأخبار - الصفحة الأدبية - لقاء مع الأستاذ الدكتور حمدي السكوت - بجريدة الأخبار اليومية القاهرية - بتاريخ ١/٤/١٩٨١.

تخويف المولعين «بالموضوات». . . ؟ وتخويف «الموضة» يتحرك بسرعة كما هو الحال في ميدان موضعة الأزياء. . ويمكن أن يقضى على الكاتب من هذا الطراز بسهولة إذا لم يكن كما أرادوا له، سيقضي عليه باعتباره شخصاً تعوزه الحساسية إزاء مقتضيات الحياة الفكرية. . »[1] ويَبْدو أنَّ التعصب للإتجاهات الأدبية والمذهبية سريعة التغير ـ في العصر الحديث ـ قد أصبح لدى كثير من أدباء ذلك العصر، بديلاً للإيمان بالدين، وفي ذلك يقول الناقد السابق: «فمنذ أن حاد العقل الأوربي عن طريقه المعهود نتيجة لانهيار الإيمان بالدِّين منذ أكثر من قرن مضى حتى الآن، وهو يسعى طول الوقت باحثاً عمَّا يستعيض به عن ذلك الإيمان المفقود، ولسوف يجد المؤرخون في هذا البحث المتصل، العلامات الكبرى التي تميز عقلية القرن العشرين. . إننا نعيش في عصر يتَّسم بأشكال من التعصب، سريعة التغير، نُودي فيه بمذهب فكري تلو مذهب، باعتباره الحل الذي سيخرجنا من حيرتنا، وكانت الدعوة دائماً. . قصيرة الأمد[2]. . . ؟

هذا الإيمان السريع التقلُّب الذي ينحدر بتشنُّج نحو الشَّك في جميع القيم مارًّا من خلال عدد لا يحصى من المواقف والمذاهب، هو في نهاية الأمر العلامة الكبرى التي تميز رجُل الفكر المعاصر»[3].

لقد وصلت أزمة الشعر العربي المعاصر إلى منعطف خطير يمكن أن يؤدي إلى طريق مسدود، إذا ظلَّتْ قيادة الفكر والفن في مجتمعنا العربي المعاصر خاضعة للوثنية الجديدة. . . أعني: لعبدةِ النموذج الأوربي في الفكر والعقيدة، والمذهب والاتجاه، والفن والحياة. .

لابُدَّ ـ إذنْ ـ من جِدَّة المواجهة، لإيقاظ المريض المشلول الذي طال تخديره. . إنَّ أخشى ما نخشاه أن ينعزل الشعرُ العربي عن وجدان المثقف العربي، نتيجةً لسيطرة تيار (البهلوانية البديعية المعاصرة) بهلوانية (اللوغاريتمات) والغموض

(١) الفكر الأدبي المعاصر ـ تأليف جورج واطسن ـ ترجمة: دكتور محمد مصطفى بدوي ـ ص ٥١ .
(٢) المرجع السابق ـ ص٤٩ .
(٣) المرجع نفيه ـ ص ٥٤ .

الـذي ليس وراءه عمق، والخواء الإبهـامي، والتعقيد النـاشيء عن عجـز بيـاني. . والقصيدة البياض. . والقصيدة الإلكترونية. .

لقـد كَسَبَ شوقي والجـواهري والأخـطل الصغير وعمـر أبو ريشـة، جماهـير عـريضة للقصيـدة العربيـة العموديـة. . وكانت قصـائد شـوقي من عوامـل ازدياد التوزيع اليومي للجرائد اليومية. . فكَمْ قارئاً تكسبهـم الآن قصائد الخواء الإبهـامي واللوغـاريتمات للقصيـدة العربيـة المعـاصرة؟ أخشى أن أقـول: إنَّ كثيـراً من هـذه القصائد الآن لا يعجب بها إلا صاحبها وقلة من حوارييه. . وعلى الأرض السلام. . وأكثر من ناقد الآن يصرخ بأنَّه لم يَعُد يفهم شيئاً من ألغاز ذلك الشعر. . فـما بالكم بالمثقف العادي الذي ليس شاعراً. . ولا ناقداً؟؟

وتَحْتَ مـظلة ما يُسَمَّى بـالتجريب والمغـامرة. . وهي مـظلة أوحت للأعـلام الموهـوبـين من أمثـال المتنبي والمعـري وشـوقي وإيليـاء أبي مـاضي وأبي ريشة، وغيرهم. . أوحت لهم الكثير من ألـوان الإبداع الفني. . تحت هـذه المظلة، يحـاول الآن بعض من لا يملكون ذَرَّةً من موهبـة الشعر، أن يصنعـوا من أنفسهم بمساعـدة كهنة الوثنية الجديدة، أعلامـاً يشار إليهم بـألف بنان وبنـان، حتى ولو كـان مُدَّعى التجريب والمغامرة لا يحسن كتابة جُملة عربية واحدة. .

ولعـلَّ من المفيـد هنـا ونحن نتحـدث عن داء من أدواء القصيـدة العـربيـة المعاصرة، ألا وهو الغموض الخوائي، والتعقيـد المفتعل، أن نشـير إلى تلك القصة المضحكة التي يرويها الشاعر (رشيد ياسين) رداً على ناقدٍ هاجَمَ قصيـدته «إلى طيـار أمريكي» المنشورة في عدد يونيو من مجلة (الآداب) البيروتية عام ١٩٦٦، وقد ادعى الناقد المهاجم أن في قصيدته أسلوباً تقريرياً يفتقد الحسَّ الفني، فـردَّ عليه سـاخراً: «قد تكون التقريرية التي عناها الناقد وضوح مرامى القصيدة، وهذا في عرف بعض النقاد الجدد عيب فنيٍ خطير، لأنَّ العمق في زعمهم، لايكون بـلا غموض، وهـذه من أسوأ البدع في حيـاتنا الأدبيـة المعاصرة، لأنها تعمِّق الهـوة بين الشـاعر وقـرَّائه، وتُلْغي الحدود ـ وهذا ما يحصل بالفعل ـ بين الهذيان السقيم والشعر الحق، وعندي في هذا الصدد أمثلة كثيرة سأكتفي بإيراد أحدها:

في سنـة ١٩٥٠، كتب أربعـة من الشعـراء العـراقيـين بينهم المـرحـوم بـدر

السياب، وكاتب هـذه السطور، في أحـد مقاهي بغـداد، قصيدة توخوا أن تكـون خالية من أي معنى، واختاروا لهـا هذا الاسم العجيب (أصداء أسطورة ذابلة) ونسبوها إلى شاعرة لا وجـود لها سَمَّـوها (سمـيرة أحمد العـاني) ثم بَعَثُوا بـالقصيدة إلى مجلة أدبيـة محترمـة فلم تلبث أن نُشرت في مكان بـارز منها، ولم تقف المهـزلة عنـد هـذا الحد، فسرعان مـا تنبَّه أحدُ النقاد إلى مـواهب الشاعـرة الطالعـة، فصنَّفَها ضمن المبدعين من شعراء العراق . . وتنبَّأ لها بمستقبـل مرمـوق[1] . . » ثم يقول: «ولـولا مراعاة الإيجاز، لأوردتُ أمثلة أخرى لا تقلُّ طرافةً، وهي بمجموعها تدلُّ عـلى أن احتضان بعض النقاد لنزعة الإغراب والتعقيد الأجوف المتعمَّد في الشعر الحديث، واجتهـادهم في تأويـل مالا يقبـل التأويـل، ولا يستقيم للفهم، قد جَعَـلَ القارىء العربي ـ وهو قارىء محدود الاطلاع بحكم حداثة النهضة الثقافية في بلادنا ـ ضحية دَجَلٍ فني واسع النطاق[2] . . . »

هذه الأزمة الخطيرة التي تحاصر الشعـر العربي المعـاصر الآن، والتي أشرنا إلى بعض جـوانبها، كـان لها انعكـاساتهـا، على مـوقف الشاعـر الناقـد الدكتـور عبده بدوي، حين صـوَّر لنا في مقـدمة ديـوانه (الجـرح الأخير) رأيـه في اتجاهـات الشعر العربي المعاصر . . ورأيـه في حركـة الإبداع الشعـري العربي القـديم، وكان قـاسياً أحياناً في تعامله مع تيارات ذلك الإبداع، وإن كانت هـذه القسوة لهـا ما يـبررها في كثير من جوانبها . . ورُبَّما كان مأخذنا الوحيد عليه، أنه كان ـ أحيانًا ـ يلجأ لـظاهرة التعميم في الأحكام . .

ولنبدأ أولاً بعرض دعائم رؤيته لمسيرة الشعر العربي قديماً وحديثاً :

استهلَّ الشاعر الناقد، حديثه عن دعائم رؤيته لمسيرة الشعر العربي المعـاصر بمقولة يغلِّفها مزيج من الاحتجاج والرفض والتشاؤم، ولعلها ـ في نظري ـ تمثِّـل ما يشبه الصدمة الكهربـائية للقـارىء العربي المعـاصر، الذي تعـود دائماً، أن يسمـع مزيداً من الإعجـاب ـ بحقٍّ أو بغير حق ـ بـالرؤيـة المعاصرة للشعـر العربي . . وفي هذه المقولة، نرى الشاعر يصرح بأنه لاجديد في الشعـر العري المعـاصر . . بل إنَّـه

(١) عدد يونيو من مجلة الآداب البيروتية سنة ١٩٦٦ ـ ص ٦٢.

(٢) المرجع السابق ـ المكان نفسه.

يرى أيضاً أن الشعر العربي كله ـ قديمة وحديثه ـ على امتداد التاريخ يُغني عنه ست عشرة قصيدة، وما وراء ذلك فهو ثرثرة واجترار[1]. . . وكأنَّ الشاعر بهذه المقولة، يصرخ صرخة الحيرة والقلق التي عاناها من قبل «عنترة» حين قال:

هـل غـادر الشعـراء مـن متـردمِ أَمْ هَـلْ عـرفت الـدار بَعْـدَ تـوهُّمِ

ويبرهن الدكتور عبده بدوي على صحة رأيه هذا، فيقول:

«ولنأخذ ـ مثلاً ـ أروع ما في الشعر وهو المقدمة ـ فما وراءها غثاء كغثاء السيل ـ فهو يبدأ عادة بالحديث عن الطلل والتشبيب والرحلة، ويوجد لها نظائر حتى في شعر التفعيلة، حين يتحدث الشاعر عن موته ثم قيامه من الموت، وتجوله في الحياة، وهو في مجمله مكرر الألفاظ والتراكيب والشخصيات والأحداث ـ إن كانت هناك شخصيات وأحداث. . .»[2].

ويواصل الشاعر تعليله لهذا التجمد الفني الذي حاصر القصيدة العربية، حيث يرى أن من أهم عوامل ذلك التجمد، أنَّ حركة الإبداع الشعري القديم تجاهلت قضايا الخيال والدراما والابتكار، كما آمنت بمبدأ تبعيَّة الشاعر لشيءٍ ما، ثم لأن الشاعر العربي حُوصِرَ دائماً بالإرهاب ـ على اختلاف أشكاله ـ فقد كان دائماً «أسيراً لشيء ما يُحْسَبُ له حسابٌ في العصور، ومن هنا كان الشاعر تُصادر حريَّاتُه، ويُشَقُّ عن قلبه، ويُسْلبُ منه شيءٌ هامٌّ جداً، هو الحرية والرفض والجَسارة، وفي ضوء هذا لم يكن الشاعر ممتلئاً بالحياة وبنفسه، بل وبالثقافة، فقد حُورب الشاعر المثقف بعنف، ذلك لأنه لم يكن مطلوباً منه إلاَّ أن يصدح للآخرين ويُسليهم، ويشيد بهم، ثُمَّ إنَّه ما أكثر النقاد الذين قدَّموا ـ حسب تعبيرهم ـ شِعر الأهواء على شعر الآراء.. وفي الوقت نفسه. اعتبروا الشاعر «طالِب فضلٍ».

في مجتمع كهذا كان يَحْلُو للشاعر أن يتمدَّد كالمريض على تراثه، وألاَّ يتعامل مع ما يُسمَّى بالاختراع»[3].

---

(١) انظر مقدمة ديوان الجرح الأخير ـ ص ٥.

(٢) المقدمة ـ ص ٥.

(٣) المرجع السابق ـ ص ٦.

كما كان للنقد الأدبي دوره في تجميد انطلاقة الشاعر، فكثير من هؤلاء النقاد رفض الاختراع، وجعل الشعر جنساً مستقلاً عن حركة الفكر والثقافة والعلوم، «وهكذا أغلقت الدائرة. . دائرة الابتكار حين رأينا الشعر يغلق على نفسه الأبواب، فلم يُطعم سيرته بالعلوم، ولم يطعمها أيضا بالفنون، وبخاصة ما يتصل بالفن التشكيلي، فقد كان قبل الإسلام يستورد البعض منها، وبخاصة ما يتصل منها بالعبادة، وبَعد الإسلام وجد من يقول له: حَذَارِ. . حتىً لا تدخل في مباراة مع الله ـ وشتّان بين الخلقين، ومن الملاحظ أن الشاعر حين أحسَّ بشيء من الخواء، راح يركز على مفاهيم خارجية ثابتة، كالصنعة المزخرفة المتكررة، وكعدم التعامل مع الشخصيات شخصية شخصية، فعندنا شخصية واحدة للكريم وللجميلة وللشجاع وللمرثي. . الخ، ومن الطبيعي ألاَّ نتعرف على الصورة الشخصية لممدوح بعينه كهرم بن سنان، والحارث بن عوف، والمعتصم والمتوكل وسيف الدولة، وهناك قصور قديم معروف في مدح النبي، فقد نُظر إليه في الغالب في الإطار المعروف لشخصية الملك، بالإضافة إلى ضعف حركتي الحدث والزمن، ومن ثَمَّ كان لابُدَّ من بديل يغطي هذا النوع. . ولقد كان البديل هنا هو «الموسيقى» وكان أن صهلت خيول الموسيقى الشعرية، بلا ضابط في كل العصور، فقد أصبح كثير من الشعر لا تسمع منه إلا الموسيقى، حتى الشعر الحر رأيناه يسبح سباحة شديدة في الموسيقى، لأنه يعتمد أكثر ما يعتمد على ما يُسمَّى بالبحور الصافية، وتفعيلاتها كما هو معروف عالية الرنين، ولقد كان من الطبيعي التركيز على الموسيقى، وتسميتها «بالحدِّ الأول عِند النقاد»[1].

ثم يقول «ولأَمْرٍ ما. . ارتبطت قضايا التجديد أساساً في الشعر بموسيقى القصيدة في كل العصور، بل لقد فاضت الموسيقى على النثر، فكان السجع مثلاً، وعلى الأساليب البلاغية كالجناس، ولعلَّ هذا هو السبب الرئيسي في ابتعاد الشعر عن الدراما، مع أن الشعر الأصيل جوهرة درامي»[2].

وقد ركزَّ الشاعر في مقدمته تركيزاً قويا على خطر الإرهاب على اختلاف

---

(١) المقدمة ص ٧، ٨.

(٢) المقدمة ـ ص ٨.

أشكاله ذلك الخطر الذي حاصر الشعر العربي قديماً وحديثاً، وأفقده أحياناً كثيرة، فاعليته في مواجهة الزيف والفساد، وإخصاب آفاق الفكر بالشهب الثاقبة التي ترصد أفاعي الشياطين المتسللة إلى سماء الإبداع، ذلك الخطر تمثَّل في كثير من الأحيان في محاولة السياسة العربية فرض اتجاهاتها على الشعراء العرب «ونحن لا ننسى أنَّ ظروف الشعر العربي على مر العصور قد ارتضت أن يكون الشعر «مُسَيَّساً» وفي خدمة الآخرين في حقيقة الأمر، فهو قد خَدَمَ بجدارةٍ القبيلة، والخليفة والحاكم، ولم يشغل نفسه أساساً بتجويد أدواته وتطويرها، وبالتعامل مع الابتكار، واختراق الآفاق الجديدة، وحين كان يخرج عن هذه الدوائر المعتمة ـ كالصعاليك والسُّود والعذريين، والزهاد والمتصوفة ـ كان المجتمع لا يعترف بهم كُلَّ الاعتراف، وكان من الطبيعي ألا تنزل بهم نوازل صارخة، ذلك لأنهم ـ بانسحابهم ـ كانوا بعيدين عن دوائر التنفيذ الخطرة، وكل ما يتصل بعالم السياسة المتقلب، لقد كان جل ما وَقَعَ بهم نوعاً من العقاب المقبول عندهم «كالخلع»، أمَّا الذين اقتربوا من عالم التنفيذ الصاخب، فقد عوقبوا بصرامة، لقد تعرضوا للقتل وإهدار الدم، والحبس، والحرق والنفي، والحد والتعذير، والمطاردة، والصلب، والسلخ، والتكحيل.. الخ.. وقد اطلعت من فترة على مخطوطة في دار الكتب المصرية، إسمها «المغتالون من الشعراء» وقد هالتني المسيرة الحزينة..

ويبدو أن هذه المسيرة الدامية، هي التي «دجَّنت» الشعراء، وأطفأتْ داخلهم العديد من القناديل، وكان أن قدَّمت لنا شِعراً غزيراً مرتجفاً ومذعوراً، ولا يسير إلاَّ في الطرق الآمنة..[1]».

ويضرب الشاعر بعد ذلك، أكثر من مثال للإرهاب الذي وُجِّه للشعراء الذين حاولوا أن يجمعوا بين سلطة الكلمة الشاعرة، وسلطة الحُكم، كامريء القيس وإبراهيم بن المهدي، وابن المعتز، والمعتمد بن عباد، وابن زيدون، والمتنبي ـ قديماً ـ والبارودي الذي عانى من إرهاب السلطة الحاكمة والاستعمار البريطاني ـ حديثا[2].

---

(١) المرجع نفسه ص ٩ وما بعدها.

(٢) انظر المقدمة من ص ١٠ إلى ص ١٣.

وفي هذه الآراء التي يغلِّف بعضها شيء من التشاؤم الحاد ـ كما أشرنا سابقاً ـ إضاءات نقدية عميقة، تُعَرِّي كثيراً من مواطن الزيف، وتكشف كثيراً من مكامن العلل التي تسربت إلى رؤية الشاعر العربي قديماً وحديثاً، فنحن نوافق الدكتور عبده بدوي في موقفه والتأثير المدمر الذي أحدثته محاولات بعض الأنظمة تسييس الشعر العربي، وجعل الشاعر العربي أسيراً لأشياء خارج عالم الشعر، بحيث يصبح الشاعر صوت أسياده، لاصوت أقداس وجدانه الذَّاتي، وهذا ما أهدر كثيراً من طاقات بعض الشعراء الكبار في تراثنا العربي وحوَّلهم إلى موظفين مرتزقة في أجهزة الإعلام العربية قديماً وحديثاً، وما أبشع الجرائم التي ارتكبها الإرهاب قديماً وحديثاً في حق الفن والثقافة والفكر، بدءاً بمصرع امرىء القيس واغتياله، على يد امبراطور الروم بحلَّة مَسْمُومة، ومروراً بمصرع الكميت والمتنبي والحلَّاج، وانتهاءً بالبارودي وسيد قطب وهاشم الرفاعي.. وغيرهم.. ولكن الشيء الذي ينبغي أن نعيه جيداً، أنَّ مَنْ يولد شاعراً، لابُدَّ أن يتوقع الإرهاب والنَّفي.. والتعذيب حتى الموت.. وأعني بالشاعر هنا: ذلك الشاعر الذي يحمل في قلبه وهجَ الإشراق الإلهي.. ذلك الكائن الصغير الذي يلتقي في أعماقه العالم الأكبر. تلك الذَّرَّة الدقيقة التي تدور حولها ملايين الشموس والأقمار.. الشاعر الذي يعمق رؤية الإنسان للوجود، ذلك «الذي يقرع الصمت لتجيب الموسيقى، ويرغم اللاوجود ليمنح وجوداً فَعَملُ الشاعر ـ على حدِّ تعبير ناقد أمريكي معاصر ـ هو أرشيبالد ما كليش ـ هو «أن يتصارع مع صمت العالم، وما كان خلواً من المعنى فيه، ويضطره أن يكون ذا معنى، إلى أن يتمكن من جعل الصمت يجيب، وجعل اللاوجود موجوداً»(١) و (ماكليس) بهذه العبارة يعلق على أبيات اقتبسها من قصيدة نثرية لشاعر صيني قديم هو «لوتشي» يحدد فيها مهمَّة الشاعر، قائلاً:

«نحن الشعراء نصارع اللاوجود لنجبره على أن يمنح وجوداً، ونقرع الصمت لتجيبنا الموسيقى»(٢).

يقول الشاعر الألماني (نوفاليس): «ربَّما كان من الصواب القول بأن ظهور

---

(١) عن «بناء القصيدة العربية الحديثة» ص ٩ للدكتور علي عشري زايد.

(٢) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها.

شـاعر في هـذا العالم، يكـون لحكمة يشـاؤها القـدر، لأنَّ الأمر مـع هذا الفن أمـرٌ «عجيب»[1]، وذلك لأن الشاعر في نظر (نـوفاليس) «يمـلأ قُدْس أقـداس الوجـدان بأفكار جديدة عجيبة محببة، إنه يعرف كيف يثير فينا تلك القوى الخفية الكامنة فينـا كما يشاء ويمنحنا عالما مجهولا رائعا نستوعبه من خلال الكلمات، إن العصور القديمـة والمقبلة وجمـوع البشر التي لا حصر لهـا، والأمـاكن والجهـات العجيبـة، والمشـاعـر والإحساسات الغريبة، تتصاعد كلُّهـا في نفوسنـا، كأنها تخـرج من كهوف عميقـة، وتنتزعنا من براثن الواقع المألوف إنَّنا نسمع كلمات غريبة، ولكننا نعرف مع ذلك ما تدلُّ عليه، حكم الشاعر تؤثر فينا بقوة سحرية، كذلـك تخرج الكلمات المـألوفـة في ثوب من الأنغام الخلاَّبة، فتكسر المستمعين المأخوذين بسحرها»[2].

ومـا ظنُّكم بإنسـان يولـد وهو يحمـل في قلبة رسـالة إنقـاذ العـالم من الـزيف والعفن والحقد والغدر، والقسوة والظلم؟ هل ستهادنه قُوى الـزيف والبغي؟ ذلكم هـو الشاعـر، لو صَـدَقَ الشعراء ـ يـولد وعـلى كتف من كتفيه رسـالة الحق والخـير والجمال وعلى الكتف الأخرى أكفانه التي تنعاه؟

إنَّ أهمية الشعر في تحقيق جوهر الإنسـان تتعانق مـع أهمية الـدين لأن الأدب شعور وإيمان، وكذلك الدين شعور وإيمان، فالعلاقة بينهـما حميمة، وفي ذلـك يقول (دونـلي): «إن الشعور في الـدين يكـون عبـادة، وفي الفن يكـون مُجَسِّـداً للمُثُـل، وكلاهما شخصي يتخللـهما الشعور والإحسـاس، والأدب والدين يهـدفان إلى مُثُـل عليـا، ويبحثان عن الحقيقـة القصـوى، غـير أن الأدب حـر طليق، والـدين مقيـد بتقاليد[3]» . . . والأدب والدين متعانقان لا يختلفان في الجـوهر، لكنهـما يختلفان في طريقة أداء رسالتيهما ـ هذا ما ينادي به (كارليل) حيث يقـول: «إنَّ النبي يحمل إلى البشر رسـالة الـواجبات، أمَّـا الشاعـر فيحمل لهم رسـالة الجـمال، ذلك قـرأ السرّ العظيم، فأنار للعالم طريق الناموس وهذا قرأه، فأنار للعالم طريق المحبة[4]».

---

(١) انـظر: «ثـورة الشعـر الحـديث ـ من بـود لـير إلى العصر الحـاضر» حـ ١ ص ٤٨ دكتـور عبـدالغفـار مكاوي.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٤٨ وما بعدها ـ

(٣) انظر: القيم الروحية في الشعر العربي ـ ثريا ملحس ـ ص ٢٧

(٤) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها ـ

قَدَرُ الشعراء من أصحاب الرسالة ـ إذَنْ ـ في عالم لا يعرف أمانة الكلمة، ولم يوجد فيه حواريون لآدم الذي عُلمٍّ الأسماءَ كلها، ولم يوجد فيه مَنْ يفهمون المغزى الكامن وراء ابتسامة الرسول عليه الصلاة والسلام، لمقولة (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) وهو صاحب الرسالة الكبرى لإنقاذ العالَم قديماً وحديثاً. . ! قَدَرُ الشعراء (الرسالة). . في مثل هذا العالم، أن يقتّلوا، أو يصلّبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض. . وما ينتظر من عالم الزيف والفساد، إلاّ مثل هذه الحرب الشعواء. . !

وهُنا. . ينبغي أيضا أن نحذر ظاهرة التعميم في الدراسات الأدبية، فَبَعْضُ الشعراء الذين توهجتْ في أعماقهم أقباسُ الشعر الملهمة، لم يصونوا هذه الإشراقات الخضراء مِنْ أعاصير الزيف و الشرِ، وجَعَلُوا شِعْرهم أداة تخريب لينابيع الطير والنقاء ومَعَاول لهَدْمِ النفس الإنسانية، وهدم كل ما هو جميل ورائع في المجتمع العربي الإسلامي بدءاً بشعراء أبي جهل من أشياع العنصرية القرشية، والخرافة الوثنية، واستعباد المستضعفين في الأرض، ومُرُوراً بمَنْ حاولوا إذكاء نيران الشعوبية، وتمزيق وحدة العالم الإسلامي، وإبادة الإسلام والمسلمين، وهَدْم المآذن البيض، لترفع مكانها مَعابِدُ نيران المجوس من جديد، وروايات الخرافة مِنْ جديد، هؤلاء الذين كانوا يريدون هَدْم المجتمع الإسلامي من داخله بأَيْدٍ مُسْلمة، ومَعَاول مسلمة. . باستباحة الغلمان (الإيدز) القديم، والسخرية من الصلاة (الصلاة وهُمْ سكارى) والتعبُّد في خمريات الأديرة (انظر: الديارات للشابشتي) هؤلاء الذين جنَّدوا قديماً. . ومازال أتباعهم يجندون الآن. . كُلَّ طاقاتهم. . حتى لا تشرق الشمس في الأفق. . وحتى يعيدوا الناسَ إلى عبودية الخرافة، وعبودية المستبدين من الأكاسرة والقياصرة. . وعبودية أمثال أبي جهل. . هل تنتظرون من المجتمع أن يقف منهم موقف المتفرج وهُم يحاولون بأخطر سلاح عرفته المجتمعات العربية، وهو سلاح الكلمة الشاعرة. . وهو سلاح أخطر من أي سلاح خطير يمكن أن تتصوره في عصرنا هذا؟

إنَّ هؤلاء الشعراء. . لمْ يصونوا أمانة الإشراق الإلهي في قلوبهم، أمانة الشاعر الذي يحمل رسالة إنقاذ العالَم. . لقد كانوا يدمرون رسالة الشاعر. . رسالة

الطهر والنقاء والحق والخير والجمال. . ؟ لَقَدْ أعلنوا حرباً قذرة ضد كل ما هو نبيل ومُشْرق ورائع، وكانوا يمثِّلون أقذر ملامح الحرب الإعلامية والعقائدية الموجَّهة ضد الإسلام والمسلمين، وضد مسيرة الشعر (الرسالة) والشعر (الحب) والشعر (النقاء). . !

ولست من المؤمنين بمقولة الأصمعي (الشِّعر نكد بابه الشر) فقد بَنَى (إقبالُ) به دولة الباكستان المسلمة. . . !

ولسْتُ باكياً على جنسيات (بشار) التي تندرج الآن تحت أشرطة «الڤيديو» الجنسية. . ؟ ولسْتُ باكياً أيضا على غلمانيات أبي نواس. . ولست باكياً أيضاً على شعوبيتها المدمرة. . وشعوبيات اخوتهم الآخرين في القرن العشرين. . ! من عبدة الفرعونية والفينيقية والإقليميات المدمرة. . . !

ولنتأملْ موقف السلطة الحاكمة في أكبر دولة اشتراكية معاصرة، وهي: روسيا. . لنتأمل موقفها من أكبر شاعر كان يمثّل طليعة الشعراء الاشتراكيين. . ! لقد وُجِدَ (ماياكوڤسكي) ذات يوم صريعاً في غرفته. . ! لأنَّه ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ سمح لربات الشعر عنده أن تتغنَّى بتجربة الحُب. . بقصائد الغَزَل. . ! لأنه بذلك الغَزَل قد ابتعد عن الخط الدعائي لمذهب الحزب الحاكم. . ولم يقصر شعره على تمجيد انجازات وشعارات الحزب الحاكم[1]. . ! وشتَّان بين موقف مجتمع ذلك الشاعر المخلص لإنسانيته، وموقف المجتمع الإسلامي القديم من شعراء حاولوا تدمير إنسانيته. . !

ومن أبرز القضايا التي ناقشها الدكتور عبده بدوي في مقدمة ديوانه: قضية موقف الشعر العربي من الابتكار والتجديد، وعدم انفتاحه على المعرفة المتجددة، وثمار العلوم، وفي رأيي أن ذلك الموقف، لمْ يكن دائماً موقفاً قائماً على التلفيق والتقليد، فتاريخ الشعر العربي حافل بكثير مِنْ حركات التجديد والتطور، سواء في الشكل أو في المضمون، وحافل بعديد من الأصوات المتنوعة الخصبة، وقد يكون الحديث هنا مكرراً لو أشرنا هنا إلى بعض ملامح الفن القصصي من حوار وأحداث

---

(1) انظر: كتاب «االاشتراكية والأدب» ص٩١ ـ للدكتور لويس عوض

وشخصيات في بعض قصائد امرىء القيس، والمرقشين: الأكبر والأصغر وشعر الصعاليك، وعمر بن أبي ربيعة، وقصص الغزلين العذريين، وقصص العشق التي حفلت بها مصادر التراث ـ على نحو ما نرى في كتاب «مصارع العشاق» لابن السراج وبعض الملامح الملحمية في القصائد الجاهلية التي تتناول أيام العرب، وقد يفيدنا هنا أن نشير إلى رأي المستشرق الأسباني (جارثيا جومز) في كتابه عن الشعر الأندلسي[1] حيث يَرَى أن سَيْفيّات المتنبي، التي نظمها في بطولة سيف الدولة، في معاركه التي خاضها ضد أعدائه، تكوِّن في مجموعها ما يقرب من الملحمة، بل ان الدكتور شوقي ضيف يرى أن قصيدة أبي تمام التي مطلعها: «السيف أصدق أنباء من الكتب» الخ تعتبر ملحمة رائعة.. بل يعتبرها أُمَّ ملاحمه الكبرى[2]، كما يرى الدكتور عبده بدوي أن هذه القصيدة ممتلئة بالروح الملحمي، وإن كان لا يعتبرها ملحمة أو شيئا قريبا منها[3]..!

أمَّا إلى أي مدىً تأثرت مسيرة الشعر العربي بالمعرفة العلمية المتجددة، فيمكن أن نجد ذلك التأثر واضحا لدى شعراء المعتزلة، في حديثهم عن الجزء الذي لا يتجزأ، وفكرة «التولُّد» وهي الفعل الذي ينشأ عن فعل آخر دون قصد، بل إن أحد زعمائهم وهو بشر بن المعتمر، الذي سَخَّرَ عقله، في الردِّ على أصحاب المقالات والنحل، قد نَظم قصائد تأثرٌ فيها تأثراً كبيراً «بالتاريخ الطبيعي» حيث نراه فيها يتحدث عن مشاهد الطبيعة، ودلالتها على قدرة الصانع الأكبر[4]، ولا يمكن أن ننكر أثر الثقافات المتجددة والمعارف العلمية المتطورة في شعراء المعتزلة، ومن تأثر بهم كأبي نواس وبشار، ولا يمكن أيضا أن ننكر التيار الفلسفي في الشعر العربي لدى شعراء الفلسفة الإسلامية، ونظرية الشعر عند كل منهم من أمثال ابن سينا والكندي، والفارابي، وابن الرشد، وقد يفيدنا في هذا المجال أي: في دراسة نظرية الشعر عند هؤلاء الفلاسفة، أن نرجع إلى مرجع ككتاب «نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين»[5].

---

(١) انظر مقدمة ذلك الكتاب

(٢) انظر كتاب «العصر العباسي الأول» ـ ص ٢٨٣ وما بعدها ـ

(٣) انظر كتاب «أبو تمام وقضية التجديد في الشعر» للدكتور عبده بدوي ـ ص ٢٢٩ ـ

(٤) انظر كتاب «العصر العباسي الأول» للدكتور شوقي ضيف ص ١٥٢ ـ ص ١٥٥.

(٥) تأليف د. ألفت محمد كمال عبدالعزيز ـ صدر عن الهيئة العامة للكتاب ـ بالقاهرة ـ ١٩٨٤م.

وقد أوضح الشاعر أنَّ مواجهته الغاضبة لمسيرة الشعر العربي ـ قديماً وحديثاً قد دعته أخيراً إلى تهدئة نبض الشعر في داخله، مع أنه ظلَّ في حياته دائما «غرفة الإنعاش» المؤقتة، وبديلاً عن الموت «وولكن الذي حدث، هو أنني وَجَدْتُني كبطل «الماراثون» الذي قيل أنّه مات قبل الوصول إلى «أثينا» بساعة، لكنه ظلَّ يَعْدو ليعلن انتصار الإغريق فهناك فترة يواصل فيها الموق التّصرف كأنهم أحياء، ومِنْ ثَمَّ. . كان هذا الديوان. . كان هذا الجرح الأخير[1]».

والشاعر بذلك يوضح أنَّه حين يواجه انحرافات المسيرة الشعرية، فذلك لأنه يؤمن بالشعر إيماناً قوياً، وأنَّ المواجهة هنا مواجهة المحب لَمن يُحبُّ. . بل مَنْ يراه أسمى شيء في حياته، ويدعم هذا الموقف العاشق للشعر، دواوين الشاعر العديدة، وحياته التي أفناها في سبيل الشعر ثُمَّ. . آراؤه في دراساته النقدية العديدة، ولعلَّ مِنْ أبرزها كتابه «في الشعر والشعراء» و«الشُّعراء السود وخواصهم الشعرية» و«الشعر الحديث في السودان» و«أبو تمام وقضية التجديد في الشعر». . الخ، وفي كتابه «في الشعر والشعراء» يبدو الدكتور عبده بدوي أشبه بعاشق للتراث الشعري العربي «فإذا كان لكل حضارة فَنُّها المميز من نحت أو عمارة أو مَسْرح. . فإن الفن الأول للحضارة العربية كان الشعر. . «ولقد احتفوا «يقصد العرب» بالجيد من العشر على حد ما نعرف ـ مثلاً ـ من سجدة الشعراء وسجدة الشعر[2]» بَلْ إنَّ الشاعر في ديوانه هذا (الجرح الأخير) على الرغم من النغمة الغاضبة في مقدمته العميقة الرائعة يشيد بدون الشعر والشعراء إشادة بالغة في إحدى قصائده حيث يقول:

كُلُّ مَنْ قال شِعْرَه عبقريا	تعجز النارُ أنْ تراه بِشَرٍّ. . !
نحن أوْلى بجنّة وخلودٍ	مِنْ جميع الأنام في كل عصرِ
نحن في الخَلْقِ شافِعُون فعِيشُوا	مِثْلما شئتُمُ بِسِرٍّ وجَهْرِ. . !

إن الشعراء الذين يشيد بهم في هذه الأبيات. . ويجعلهم شافعين في بقية البشر، هم الشعراء بالمفهوم الحق. . الشعراء الرسالة. . شعراء الحق والعدل. .

(١) ديوان الجرح الأخير ـ المقدمة ـ ص ٨

(٢) انظر كتاب «في الشعر والشعراء» للدكتور عبده بدوي ـ ص ١ وما بعدها ـ

(٣) انظر قصيدته «دائماً يعود الشاعر في ذكراه» ص ٩٨ وما بعدها من «ديوان الجرح الأخير».

والخير والجمال، فهو يَرَى «أنَّ الشعـر الصحيح، يُعْـطي الإنسان الصحيـح، واللغة الصحيحة، والزمن الصحيح، وذلك حين لا يكون مجرد صوت للنَّفْس، أو للعـالم الخارجي، بل صوتاً للعـالم الخاص بـالشعر[1]. . ! ولكَيْ تتـوهَّج أقبـاسُ الشعر في آفاق الشاعر، فإنَّ عليه ألاّ يجعل شعره بُوقاً من أبواق الـطبقة، أو الحـزب الحاكم، عليه أن يقاوم كل أنواع التبعية، لتُصبح لها القدرة عـلى الخَلْق، إنّ التبعية العميـاء من الشعراء للحزب أو الطبقة، أفقدت كثيرا من الشعراء العرب المعاصرين فاعليـة الخلق والابتكـار، وجعلتْهم مجـرد أبـواق تردد مـا يصرخ بـه الآخـرون. . جعلتهم أدوات لدعم الإرهاب، ولافتات تحمل شعارات جوفاء. . !

وفي فترة الخمسينات والستينات. انطلق كثير من الشعراء الموجَّهين بـأصابـع السلطة الحـاكمة، يهـاجمون قتلة (لـوركا) و (چيفـارا) ولكنّهم لم ينطقـوا بكلمة عـمَّا يجري من عمليات قتـل وإبادة وتعـذيب، وراء أسوار الموت في بلادهم. . الإخـوة عرب. . وكُتَّاب وشعـراء عرب. . . ! لقـد مجَّدوا بـأشعارهم تلك الأيـدي العربيـة القذرة الملوثة بدماء الشهداء في بلاد عربية. . ! لأنها كانت أيدي الحزب الحاكم، أو السلطة الحاكمة، وما أروع تلك الصرخة الـواقعية الـذكية التي يُـوازن فيها (عبـده بدوي) بين حرية الشاعر العربي في العصر الجاهلي، وحرية الشاعـر العربي الآن. . في نهايات القرن العشرين، وذلك حيث يقول: «فنحن الآن ـ مثلا ـ لا نستطيع أن نقول ما قاله طـرفة في ملك وبشَّـار في خليفة، والمتبني في حـاكمم، ذلك لأننـا من فترة ـ نزمزم بالشِّعر ـ ولا نقول شيئا ذا بال. . . ![2]».

كما يَرَى الدكتور عبـده بدوي أنَّ عـلى الشاعـر ـ أعني الشاعـر الرسـالة ـ أن يقاوم الأشكال (البهلوانية) التي ترتدي عباءة التقدم والتجديد، وما هي إلا صـورة من الخـواء البديعي المعـاصر، يُراد لهـا أن تدمِّـر البقية البـاقية من جُسـور الاتصال الفكري والروحي، بين الشاعر العربي وأُمته العربيـة. . ومن هنا يخـترعون المعـارك الوهمية حَول ما يُسمَّى بالقصيدة الإلكترونية والقصيـدة البياض، وقصيـدة النثر. . الخ.

---

(١) المقدمة ص ١٣

(٢) انظر المقدمة ـ ص١٤، ١٥.

كما يهاجم شاعرُنا الدكتور عبده بدوي، ظاهرة المبالغة في إقحام تقنيات «فن السينما» «كالسيناريو، و «المونتاج» و «الجوقة» على فنِّ الشعر، وأقول هنا: الإقحام وليس التأثر والاستلهام، بحيث يتحول الشعر إلى شبكة لبلابية على أشجار الفنون الأخرى[1]، ولعل من أبرز القصائد المعاصرة التي يمكن أن تكون مثالاً لهذه المبالغة في إقحام الفنون الأخرى على فن الشعر، قصيدة الشاعر العراقي ياسين طه، التي عنوانها: (تجربة في الموسيقى) والتي حاول فيها أن يعطي بعض الأصوات، دلالات موسيقية خالصة وفيها يقول الدكتور علي عشري زايد: «وواضح أن هذه التجربة مغامرة مغرقة في الشكلية فيها كُلُّ مافي التجريب من إسراف وافتعال، **بحيث يكاد الإيحاء الصوتي فيها يكون هدفاً لذاتِه ومنعزلاً** عن عناصر البناء الشعري الأخرى، بل إن الاهتمام بهذا الجانب الصوتي الموسيقى شَغَلَ الشاعر حتى عن الاهتمام بالقيمة الموسيقية الأساسية العامة في الشعر من وزن وقافية، فالوزن في القصيدة على قدر واضح من الاضطراب والخلل، والقافية تكاد تختفي من القصيدة.. إن الحصيلة النهائية التي يخرج بها القاريء من هذه القصيدة هي أنَّها مغامرة في الشكل الخالص، وفي عنصر واحد من عناصر الشكل، على حساب العناصر الأخرى[2] وقد سارت هذه القصيدة في اتجاهين: أولهما: تحويل بعض الكلمات إلى مجموعة من الأصوات الموسيقية، ثانيهما: استغلال عنصر التكرار في إضفاء جو موسيقي خاص، عن طريق الاكثار من تكرار حرف معين أو حرفين متشابهين.

وهذه القصيدة عبارة عن حوار بين مجموعة من الآلات الموسيقية، التي تتحاور منفردة ومجتمعة[3].

وينهي الشاعر الناقد الدكتور عبده بدوي، مقدمة ديوانه (الجرح الأخير) بموجز لدعائم رؤيته الفنية للقصيدة العربية، تلك الرؤية التي آمن بها وطبقها في شعره، وفي ذلك يقول: «تعاملتُ مع مقومات الشعر الأصيلة، ولم أضرب في

---

(١) المرجع السابق ـ ص ١٥، ١٦.
(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ـ ص ٥٢.
(٣) المرجع السابق ـ ص ٥٠.

المجهول، وأنني في الوقت نفسه كنت صوت نفسي، وعصري بالإضافة إلى صوت الإنسان المظلوم، وإلى التعامل مع الأشكال الجديدة في العربية، كالأوبرا، والقصيدة السيمفوني. . ولقد كنت في دواويني السابقة أحاول بقدر الإمكان أن أفرق بين الشكلين اللذين أكتب بهما كنوع من تنظيم الموسيقى، ولكنني في هذا الديوان مزجت بين الشكلين، وبقي أن أذكر أن بعض القصائد من الشعر التفعيلي ـ على عادة كتابته عند الكثيرين ـ تبدو غير متجانسة الأضرُب، وقد يضعف هذا الموسيقى، إلاَّ أن هذا قد يكون مقصوداً ـ تلقائياً، ذلك لأنَّ أكثر هذا الشعر يجري على تفعيلات المتدارك، والمتقارب، والرمل. وهي «تفعيلات صافية» غزيرة الرنين، وقد كان من هَمِّي في الفترة الأخيرة، تنظيم صوت الموسيقى. . لإعطاء دور لبعض عناصر الشعر التي كانت معطلة، وليكون هناك صدق عن عالم النَّفْسِ الداخلي، وعن عالم الحياة في الخارج، وعن عالم القصيدة قبل هذا كُلِّه»[1].

ونستطيع أن نقول: إن دعائم الرؤية الفنية التي أمَنَ بها الدكتور عبده بدوي، وأوضحها في مقدمته تلك، قد تراءتْ في كثير من دواوينه السابقة، كما تجسَّدت بوضوح في ديوانه الأخير هذا، ولعل من المفيد ـ بعد أن ناقشت آراءه في مقدمته تلك ـ أن أوضح مَدَى انعكاس رؤيته الفنية التي نادى بها في تلك المقدمة، في أشعار ديوانه (الجرح الأخير)، وسأتحدث ـ **أولا** ـ عن أبرز أصداء هذه الرؤية في موقفه من الكون والوجود والحياة والمجتمع، ثم أتناول أبرز الظواهر التشكيلية في هذا الديوان:

وحين نتحدث عن أبرز ما يميز «عبده بدوي» (الموقف) في قصائد (الجرح الأخير) فسنراه ـ كما نادى في مقدمة ديوانه هذا ـ صوتاً محتجاً غاضباً لكرامة الإنسان المظلوم في كل مكان، وهذا هو موقفه منذ بدأ مسيرته الشعرية، فتى مخضوضر القلب والفكر، وافدًا من الريف المصري إلى القاهرة، إنساناً يعزف على ناي الشعر همسات النفس الحائرة ويعزف أيضا للإنسان المظلوم ـ كما سبق أن أوضح في مقدمته ـ الإنسان المظلوم في قُرى الريف المصري، والإنسان المظلوم في غابات أفريقيا، والإنسان المظلوم في القدس والإنسان المظلوم في كل مكان[2]. . إنَّه في

---

(١) مقدمة ديوان «الجرح الأخير» ص ١٧، و ص ١٨

(٢) انظر مقدمة الديوان ص ١٧.

هذا الديوان أيضاً يقف مع الإنسسان المظلوم في أفريقيا . . . ولكن بأدوات تشكيلية منظورة، ورؤية أكثر عُمقاً، وأكثر شمولية، ولنأخذ موقفه من الإنسان الافريقي نموذجاً لموقفه من الإنسان المظلوم في كل مكان:

إن وقوف الدكتور عبده بدوي مع الإنسان الافريقي المظلوم الثائر على الاستعباد العنصري في ديوانه (الجرح الأخير) ما هو إلا امتداد أصيل للخط الافريقي الذي امتاز به شعره، منذ بداية مسيرته الشعرية، وفي هذا الإتجاه الإفريقي عزف الشاعر أعذب أنغامه إبان مرحلة الشباب، ومازال حتى هذه اللحظة يعزف لأفريقيا التي عاش في مدنها وقُراها وغاباتها مرحلة حلوة من حياته، وتوحَّد بغاباتها وأنهارها، وتوهج شعره على ايقاع طبولها، وسِحر ليلها وامتاز إيقاعه الشعري فيها بثقافة عميقة، لم تتوفر لكثير من الشعراء العرب الذين كتبوا عن أفريقيا. فقد قدَّم للمكتبة العربية أضخم سفر لدراسة (السُّود والسَّواد في الشعر العربي) كما قدَّم أيضا دراسته الرائعة عن الشعر السوداني، ممَّا جعله يجيد استلهام الأسطورة الإفريقية، والرمز الإفريقي، والتراث الافريقي، وكفاح إفريقيا وقضاياها[1]. .

وهذا الاتجاه الافريقي، الذي تألقَّ في دواوينه السابقة (شعبي المنتصر، وباقة نور، وغيرهما) وفي دراسته الرائدة عن أفريقيا، يعود فيتألق من جديد، في ديوانه (الجرح الأخير) حيث نجده يصور لنا في قصيدة بعنوان (أفريقية) حنينه للتدفق، تدفقٌ أنهار أفريقيا. . إلى الفطرة النقية وحيث نراه يتخذ من الإنسان الافريقي البدائي، والغابة الإفريقية الغضة، رمزاً لنقاء الإنسانية وجوهر الكون، وصفاء الفطرة، مشيراً بهذين الرمزين إلى ضيق النبع المخضوضر في قلبه بتعقيدات الحياة المعاصرة، وما يعتورها من زيف وخداع، وضياع لرموز الفطرة والنقاء. . في حياتنا المعاصرة المختنقة بالآليَّة والأرقام. . والسباق الرهيب إلى الموت النووي. . وأراني في هذا المجال مضطراً لإيراد هذه اللوحة الافريقية كاملة برموزها وصورها

---

(١) انظر كتبه الآتية: (أ) شخصيات أفريقية. (ب) مدنٌ افريقية (حـ) مع شعوب إفريقية (د) رجال من إفريقية (هـ) حكايات من إفريقية (و) الشعر الحديث في السودان (ز) أوبرا الأرض العاليه (شعر) (ح) شعبي المنتصر «شعر» (ط) باقة نور «شعر».

وإيقاعاتها، ألا وهي قصيدة (افريقية)[1]:

يا إفريقيّة
يا أُمَّ الشمس وسيدة الكلمات السِّحْرِيه
يا مَن تَمْشي للرقصِ بأعماقي في كل عشيه
يا مَنْ تَغْدو من فرحتها عنقودًا مرحاً في كفيه
وأُدُورُ ـ أدور ـ بنشوتها ـ بالطبل ـ السهم الصّيد
النهرِ ـ الغابِ ـ السحرِ ـ اللون ـ النَّقْشِ ـ الأقنعة الكنغوليه
قد جاء أوانُ العشق،
وهمسن الليلات القمريه
يا إفريقيّه. . !
آه . . يا إفريقيّه
مَرَّت أزمان لم أتنزَّه فيها كالأنسامِ الفجريه
لم أقفزْ من حول النيران بحريّه
لم أُسْقِطْ أثمار «البابايٍ» على أحلام صبيه
لم أسمع قُرْبَ الصدر الهاجم تلك الأصوات الوثنيه
لم أصبح إيقاعا ينتظم الأرض. الجو. الآفاق
لم أزحف من جِذر الأشياء إلى الأوراق
لم أصبح كالطفل المشدود المتدلي من بطن الأمسيه
في دائرة تبْدو ـ رغم الأصوات الخضراء الرّعويه ـ
في أعمق أعماق الإنسانيه. . !!
يا إفريقيه
ما أروع أن أتهادى بين حُروف عذريه
أن أسطع مثل البرق على أغنيه

---

(١) ديوان «الجرح الأخير» ص ٦٤.

أن أمشي مختالاً في نخْب أوبرديَّة
أن أقرأ ديوان الشعر المنقوش على جدرانك في عَفْويّه
أو فيما غَنَّى «سنغور» في ديوان «الليلات الأسطوريه»
وقصائد أخرى قد صدحَتْ من رحلته تحت الآفاق الباريسيه
أن أصبح عصفورًا فجرْيا في عينيه الكونغو
وعلى الرّيشات الفرحَى ألوان لامعة تلغو
وعلى المنقار الشادي صوت الهمزة
والفاء، وحرف الراء.. وباقي الأحرف
حتى الهاء الفضية
يا إفريقية..!
يا إفريقية
مِنْ بَعْد وداعك قد أخَذتْ تدعوني ريحُ الموتِ الشتويه
لكن أتراني أقهرها بالألوان الوطفاء بعينيك
بالشمس - وقد قسمت عدلاً - في خديك
بقناع ألبسه كيما أخفي تلك الأحزان البازلتيه
وأدور، وأصرخ.. أو أتهاوي في قاع الليلات الوحشيه
فأنا خطواتي قد تاهت في البريه
لمَّا أن ضاعت مِنّي الدائرة الأبنوسيه
يا أفريقيه
يا إفريقيه
ضميني في شوق بين العينين اللؤلؤتين
ولنحلمْ هذي الليلة بين الأهداب الكونيه
يا إفريقيه

والشاعر في هذه القصيدة يعتمد على أدوات تشكيلية معاصرة، ففي أبياته

تبهرنا الرموز الإفريقية ماثلة في: الغاب، السِّحر، اللون، النقس، الأقنعة.. كما نرى في صورها الرائعة، اندماج الشاعر وتوحده بالنهر والغابة.. بل بحركة الكون كُلِّه، حتىًّ ليستحيل إلى عصير يَسْري في قلب أشجار الغابة، من جذور الأشجار إلى أوراقها...

ثمَّ نجد ظاهرة تشكيلية معاصرة أُخرى، وهي ظاهرة إلغاء أدوات الربط اللغوية، وهي ظاهرة اهتمَّ بها «الرمزيون» ومن بعدهم «السيرياليون» إذ نراهم يحررون لغتهم الشعرية من الروابط والصلات المنطقية التي تربط الجُمل والألفاظ بعضها إلى بعض، حتى إن بعض القصائد السيريالية النموذجية، كانت تتألف من مجموعة من الجمل المتجاورة بدون ترابط، أو حتى من مجموعة من الألفاظ غير المترابطة، وقد أسْرَف السيرياليون في هذا الاتجاه، حيث كانوا يرون أنَّ الجُمل ينبغي أن تتوالى أليًّا.. كما ترد في الذهن، دون أيٍّ تدخل من الفكر، لتنظيمها أو الربط بينها..

وقد تأثرت بمثل هذا الاتجاه القصيدة العربية الحديثة، فَشَاع في الكثير من نماذجها، توالى الجُمل بدون أدوات رَبط لغوي تصل ما بينها، وبخاصة في تلك القصائد التي تتألفُ الرؤية الشعرية فيها من مجموعة من الأحاسيس والخواطر والهواجس المبعثرة المشتتة، أو ما أشبه ذلك من الرؤى الشعرية التي تلائمها مثلُ هذه الوسيلة»[1].

وتبدو هذه الظاهرة في هذه القصيدة، حيث يقول الشاعر، مُخاطباً أفريقية:

يا مَن تَغْدُو من فرحتها.. عنقوداً مرحاً في كفَّيَّه
وأدُورُ ـ أدُورُ ـ بنشوتها ـ بالطبل ـ السَّهم ـ الصيد
النهر ـ الغاب ـ السحر ـ اللون ـ النفس ـ الأقنعة ـ الكنغوليه.

ولكني أرى أن إلغاء أدوات الربط، في هذه الأبيات، ساعد على تدفُّق الصُّوَر وتدافعها، ممَّا ساعد كثيراً على الإيحاء بسُرْعة إيقاع الحركة، والإيحاء بتدفُّق النشوة والحيوية والتلقائية، في صورة الراقص الليلي الفطري في هذه الغابات، أو

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ص ٦٦.

لينَقُلْ صورة البساطة النقية الشاعرة التي يعيشها الشاعر مغترباً في عالم الزيف المعاصر. . . ؟

وإذا كان الشاعر قد واصَلَ احتضان الإنسان الافريقي المضطهد، فقَدْ واصل أيضاً ـ كما قلنا من قبل ـ الدفاع عن الإنسان المظلوم في مناطق أخرى من هذا العالم. . ! إنّه يصرخ في جلّادي القدس، وسفّاحي دير ياسين، ويدين الصامتين الذين يديرون ظُهُورَهم جُبْناً، أو حرصاً، أو الذين يكتفون بعبارات الشجب والاستنكار. . ! إن الشاعر في هذا الديوان يفجّر في كل لوحةٍ من لوحاته عن القدس وبيروت، أكبر طاقة من طاقات الغضب، وتكاد دموعه تشتعل ناراً في وجوه الانهزاميين، والمرتعشين، وحاملي الأقنعة، وتجّار الشعارات، وقد جسَّد الشاعر بطولة المقاومة الفلسطينية تصويراً يقوم على بعض خصائص البناء الدرامي، في لهجة يمتزج فيها الحزن بالغضب، فالشاعر «الرسالة» الشاعر «الصدق» في عصر يضرب فيه المصلون في المسجد الأقصى بهراوات إسرائيل. . الشاعر الحق لابُدَّ أن يصبح صارخاً غاضباً، حزيناً متوتراً، يقول الدكتور عبده بدوي، في كتابه «في الشعر والشعراء»:

«إن الشاعر العربي الآن أصبح مهموماً، وهو يرى أشياء كثيرة تتصدع وتسقط مِنْ حواليه. . ومِنْ نَفْسِه. . ومِنْ ثَمَّ يكون من الطبيعي، أن تندسَّ نبرة الحزن في غنائه وأنْ يلفَّ وهجُ الغضب حتى ساعات الفرح النادرة في حياته، ولهذا يكون من الطبيعي ألاّ تصبح لغته مفاجئة للقارىء، وإنّما معادية له. . !»[1].

هذا الطابع التشكيلي القائم على بعض خصائص البناء الدرامي الممتزجة بلغة حزينة غاضبة متوترة، يبدو في قصيدته (الموت الجميل)[2] التي أهداها إلى الفدائية الفلسطينية (دلال المغربي) حيث يقول:

لَمْ يكُنْ موتاً حزيناً
إنّه قد كان موتاً عربياً

---

(١) انظر كتاب «في الشعر والشعراء» ص٤٩ ـ للدكتور عبده بدوي
(٢) ديوان الجرح الأخير ص٣٨ وما بعدها.

. . ذلك «الموت الجميل»
كان عرساً طار فيه الورد من جرح «الجليل»
كان عرساً ناح فيه العزم من تحت الصليل
وتغطّى الحزن فيه بالهديل
وبدا الإصرار وجْهاً يعربيًّا
وشذا طفلاً، وإصراراً نبيا. . !!

رجرج المطاط فوق البحر أشواقاً عتيهْ
لشباب شقَّ قلبَ الليل والأعداء في نور القضيه
أطرقوا . . ثم استداروا حول أشواق الصبيه
وهي ـ تلك البنت ـ لم تمسك بغير البندقيه
أسندتها، ثم هامت بين وديان قصيَّه
حين كانت وردة في مزهرية
لم تداعب خصلة الشعر العصيه
لم تلامس في المرايا دورة الصدر العتيه
والعطور الأنثويه
والخطوط الأوليه
حين كانت لوحة «للسبع عشرة»
هَمُّها قد كان جَمْع الشعر يعدو كالطيور الآسيويه
في شريط فيه ألوان ثريه
هَمُّها قد كان «يافا» والوجوه اليعربيه
وخياماً نصبوها فوق من صاروا ضحيه
وكلاماً قيل يوماً عن قضايا البشريه!

حين كانت نجمة في «طبريه»
وقريباً كان للموج عويل

ذكَّروها بحبيب كان مجْهول الهويه
اسمه «الموت الجميل»
صوته صوت كمان راعش فوق العشيَّه
وخطاه لِيْلكيه
فأفاقت من رؤاها
ثم راحت في الهواء
ترسم «الفاء» إلى «النون» الْقصيَّه
ومشى ظل ابتسام في الجفون المخمليه
واستراحت في الزوايا بسمة فرحى فتيَّة!!

طار منها القلب عصفوراً سماويا حزينا
فهو قد خَفَّ إلى «يافا» الشهيدهْ

وفي قصيدة (الأقمار والموت في بيروت) نجد عنف المواجهة بين الشاعر الغاضب ورموز الضعف والذل في العالم العربي، وتكاد رموز الشاعر المستوحاة من رموز القرآن الكريم والتوراة، وتراث الشعر العربي.. بل وتراث (شكسبير..) تكاد هذه الرموز، تفضح وتعرِّي صانعي المأساة العربية.. صانعي مأساة بيروت والقدس سواء مِنْ بني إسرائيل والصهاينة السفاحين، أو ممَّنْ يحملون أقنعة عربية، وأسماء عربية وإسلامية..! بلْ إنه يستهل قصيدته هذه بصرخة يوجِّهها أيضاً إلى الشعراء العرب اللاعبين على كل الحبال، فيقدِّم لهم صورة لمفهوم الشعر (الرسالة).. الشعر النضال.. حيث يقول:

«لا تطلب مِنِّي في هذا العصر الجَهم الممقوت
أنْ أنسجَ ـ في حُب ـ أوراق الوَرْد بأوراق الشعر
أوْ أجْعَلَ نجماً يسطع في شَطر
بَيْنا يتأرجح نجمٌ آخر
في قافية من ياقوت!

. . لا تطلبْ مني أقماراً . . إنَّ الأقمار الآن تُحَاصَرُ، ثُمَّ تموت
إنَّ الآلاف من الأبطال تودِّع في بيروت
تمشي خطواتٍ، ثم تقول بحزْنٍ: آهٍ يا بيروت
أترانا نرجع سُيَّاحا مِثْلَ الغرباء، ومن فوق الكتف «الكامرا»
والدهشة يا بيروت
أتكون جريدتنا في مائدة الافطار العَربي
«يَدْعوتْ أحرونوت»[1]. . . ؟

ثُمَّ لنتأمل روعة هذه الصورة والرموز الساخرة المستوحاة من تراث العالَمِ كُلِّه:

مَنْ خَانَ البسمة في وجه الأطفال المحتجزين؟
مَنْ خَان رغيفَ الخُبز، وديوان الشِّعر المسكين؟
مَنْ خان جوادَ صلاح الدين؟
مَنْ خان قصائد درويش، ومعين؟
مَنْ أرشد عن قلب كانت «يافا» من قبل الطلقة في حُلمه؟
قُولي يا بيروت
مَنْ زَجَّ بيونس في أعماق الحوت
مَنْ قال: «يُقَسَّم هذا السَّبْيُ على أربع
والبعض الآخر يُسْتَبقى كودائع في بنك الحسره
كيما يعطي أرباح الدم وأقصى عائد
في سلّة عملات حُرَّهْ؟
ماذا سيكون عليه الحال إذا رحلوا قَسْراً يا بيروت؟
ماذا سيكون عليه الحال إذا نجح التفتيت؟
قولي يا بيروت!

(١) ديوان الجرح الأخير ص٤٢ ـ (من قصيدة: الأقمار والموت في بيروت . .)

مَنْ قال بأن النجمة ذات الأضلاع السِّتة
ـ آهٍ من تلك النجمة ـ
لن تلمع من فوق الخيمة في الصحراء
لن تبرق فوق الأسرار الزوجية في المدن العصماء
ما دُمْنا قطعنا اللحمَ العربي على السندان، وساومنا الجزار، ولم نأبه للدمع المسفوك
ما دمنا قد مكنا من لحم حي «شيلوك» . . !؟
ووضعنا ماضينا والآتي في تابوت العهد . .
آهٍ من هذا التابوت . . !
مادمنا نأكل . . ثم نثرثر، ثم نقول: الصبر، الصبر[1]
مادمنا نهدر مثل الناقة، أو نستخذي كالكتكوت . . ؟

ثُمَّ لنتأمل لوناً آخر من الأدوات التشكيلية المعاصرة، ألّا وهو (المفارقة) حيث نَرَى صورة من صورها الرائعة في هذه القصيدة، وهي المفارقة ذات الطرف التراثي الواحد، وقد شاع في شعرنا المعاصر، استخدام هذه المفارقة التصويرية عن طريق استخدام بعض معطيات التراث، لإبراز التناقض بينها وبين بعض الأوضاع المعاصرة، وقد بُنيت المفارقة هنا على نوع من إثارة الإحساس بالمفارقة . . بَيْنَ مواقف بعض الرموز التراثية، ومواقف الحكام المعاصرين، بين رمز (امرىء القيس) حين عزم على القتال والثأر، ونفَّذَ ذلك فعلاً . . حين صاح: «اليوم خمر وغدا أمر» وبَيْنَ أشباه الرجال اليوم الذين لا يثأرون لشرف القُدْس المهان . . !! بين رمز «أبي تمام» في صيحته يوم «عمورية» . . يوم صرخت امرأة مسلمة «وامعتصماه» . . فكانت ملحمة إسلامية رائعة . . وبين موقفنا نحن المعاصرين . . ونحن نرى النساء الفلسطينيات . . أسْرَى في أيدي الصهاينة . . ثم نمضي في متابعة الحياة الذليلة . . مع الصمت والخوف. ومباريات الكرة وأفلام «الڤيديو»!

(١) القصيدة السابقة ـ ص ٤٣ وما بعدها ـ.

نعم.. ما أقصى لذعة الإحساس بالمفارقة الساخرة بين المتنبي الفارس المناضل وهو يفتخر بشجاعته.. المتنبي الذي لم يَخُن قضية العروبة والشعراء «الموالي» المعاصرين الذين تُغَطِّي سَوءاتهم قبعة (شارون..!):

يا قَهْري.. ماذا نفعل؟
أتراني أصرخ بالألغاز؟
فلأصرخْ بالألغاز
..قُلْ ياجد الشعراء المهزومين.. المغتربين
أنقول كما قد قلت بكنده:
اليوم تدار الخمر، وفي غدنا الأمر الجائر
أنميل بشق ـ في يوم السَّبْت العاهر ـ
والشق الآخر نعطيه للطفلِ المخدوع العربي ـ كما أوصيت ـ
يَبْدُو أنَّ الأيام السبعة سوف تكون سبُوتْ
ما عاد رجال الجمعة في الناسوت أو اللاهوت..!
قل لي يا صاحبَ عمُّورية
يا مَنْ قال بصدق السيف وزيف الكتب
فاللطمة ما عادت تدوي فيمن قالت: وامعتصماه..!
لكن اللطمة في وجه الأُمَّة
«يا والداه!»
والأُمَّةُ يا شيخي.. يأسٌ وقنوت
لغط.. وسكوت..!!
ماذا نفعل؟
يا صاحب سيف الدولة
يا مَنْ قد خانك سيف الدولة
فالشاعر ليس يخون
من يعرفه السيف

من يعرفه الليل
من تعرفه البيداء
من يعرفه القرطاس
أضحى مطروحاً في الصحراء يموت
وعليه من «شارون» الخوذة، والشعر الفضي المرخي
وغراب فوق السوأة يهبط، ينعق، يعلو، ثم يفوت
مِنْ فوق بيوت بَعْدَ بيوت[1]!

إنَّ أزمة الإنسان العربي المعاصر، لا تكمن في ضعف إمكاناته الاقتصادية، ولا في عوامل وراثية ترجع إلى الجنس والعنصر، فهو يمتلك بيئة متنوعة الموارد، وطبيعة جميلة، ومصادر عديدة للطاقة، وعشرات.. بل مئات الملايين من البشر.. فماذا وراء مأساته المعاصرة.. ما الذي جعل أعداءه من الصهاينة وحلفائهم يتداعون عليه، كما تتداعى الأكلةُ على قصعتها؟

لعلَّ أخطر عامل وراء هذه المأساة: عامل الإرهاب المسلط على الإنسان العربي، الذي أوجعتْ ظهوره السِّياطُ، وأفقدته حرية أن يقول «لا» وسدَّتْ عليه المسالك والدروب، وأفقدتْه إنسانيته، بلْ.. وأفقدته أخيراً إحساسه بالانتماء، وضاعفَتْ في نَفْسه الإحساس بالغربة.. الإحساس بأن وطنه لمْ يَعُدْ يرحِّب إلاَّ بذوي العيون الخضر، وذوات الشعر الأشقر من السَّائحين والسائحات..!!

«وعبده بدوي» يركِّز جانباً كبيراً من مشاعره الغاضبة التي تصور موقفه الرافض، في عديد من قصائد ديوانه هذا، إنه في قصيدته (المخبر العصري) يقدم لنا في مجموعة مشاهد درامية، قائمة على التراوح بين (المونولوج الداخلي) و(الديالوج).. يقدم لنا صدق هذه المقولة «حين يقترب الشاعر من الصدق، عليه أن يتوقع في أي لحظة أن يتصدى له الإرهابُ، بكُلِّ وحشية وعنف»:

في مقهى عصري يستلقي مثل الهرِّ على ليلٍ أملس
ويُسَيِّجُهُ من كُلِّ جوانبه زهر اللوتس

(١) انظر قصيدة «الأقمار والموت في بيروت» من ديوان الجرح الأخير ص ٤٤، ص ٣٤ ـ.

أحسستُ بأني نقَّيْتُ الدنيا في نفسي
وغدوت خيوط النور الصادحة الأولى
وصفاء حلواً مأمولا . . !!

قد حركني هذا المشهد
فهتفت لنفسي : فليخلد
فلأرسمه نوراً يرقى
فلأطلق فيه أزماناً تبقى
فلأحشد في جنبيه البرقا
لكني لما أشرعت أحاسيس الشاعر
أبصرتُ عيوناً تَرْمقني . . تَهْوي بي في جُب فاغر
ورأيت الحرف غدا أخرس . . !!
. . لكني لما حركت اللون الوارف
أبصرت الدنيا من حول مثل الإنسان الخائف
وإذا ألواني ذابلة، وإذا وجه مملوء بالأعين
يتحدث عنّي في الهاتف
ويقول لمَنْ في أقصى الخط سألقيه خلف الشمس
ويمشي في خطوات العارف . .
ويدمن فوق زناد مرهوب تَتَحَسَّسُ

كانت أمسيه
لمّا احركت بها «قِطع السُّكر»
أبصرت كأن الدنيا من حول تتكسَّر!
لمَّا قربتُ فمي
أبصرتُ دمي!
لما أن قلت لجاري : ما اسمك؟

قال: الحجَّاج!
لمَّا حاولت المخرج
لمْ ألْقَ سراج..!
لمَّا أمسكتُ ولم أنبس[1]
أحسستُ يداً تهوي ومُسَدَّس!

وفي قصيدة (القتل الليلة) يتصدى للقضية نفسها، معتمداً على صور تراثيه، ورموز تراثية أيضاً إنَّه يقدم لنا رمزين تراثيين للخيانة، مُمَثَّلَيْنْ في رمز (وحْشيٍّ) قاتل حمزة عم النبي ـ ﷺ ـ في موقعة أُحُد، ورمز (أبي لؤلؤة) المجوسي، الذي اغتال رمز الأمل للمستضعفين في الأرض، وأمل العدالة لكل مظلوم في العالم، ألا وهو (عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهكذا يقدم لنا الشاعر في قصيدة (القتل الليلة) قضية الإرهاب في لوحة درامية جديدة، تمثل الإرهاب الموجَّه إلى الشرفاء.. الإرهاب الذي يعتمد على عملاء التآمر والخيانة، من أمثال (أبي لؤلؤة) المجوسي:

أعرف الدقات تعوي في الدماء ... قبل أن تهتز أرجاء الفضاءْ
طلقة تهوي كنسر جارح ... طلقة مكتومة بين الهواءْ
قفز الطفل لها من حلمه ... وتَمَطَّى بين عينيه البكاءْ
.. آه منها وهي تغتال المُنَى ... في رُبَانا، وتميت الأبرياء
لم تَزَلْ تقلقني أصداؤها ... رغم ما مرَّ من الرعب وجاء
كلما أبصرت وجها باكيا ... قلت: قد عادت بواكير الشقاء
وتولاَّني وجومْ في الضحى ... وتغشَّاني نواح في المساء
وتسمعت غراباً حائماً ... حول رأسي، وبقايا من عواء
عند فجر اليوم.. كانت طلقة ... ثم أخرى.. ثم صمتٌ في الهواء
من تراه قد أتى في غضب ... من تراه يطفىء العمرَ المضاء؟
كلَّما حدّقت فيه لم أجد ... غير وجه من وجوه الأصدقاء
هل ترى «وحْشيٌّ» يخطو بيننا؟ ... أو «أبو لؤلؤة» في العصر جاء

(1) من قصيدة «المخبر العصري» ص ٧٦، وما بعدها ـ من ديوان «الجرح الأخير» ـ.

«بم.. بم.. بم، ثم صمتٌ خانق ثم تطفو جثة فوق الدماء
ما اسم من يحصد في العصر الشذا؟ ما اسم من يقتل بعد «الحاء باء»[1]؟

وفي قصيدته (رحلة حول قدم)[2] يعود إلى قضية الشعر والإرهاب، متكئًا هذه المرة على رموز فرعونية:

لكن ماذا أفعل؟
يا قُرصٍ الشّمس الزّاهي ماذا أفعل؟
يا نقشاً هيروغليفيا.. ماذا أفعل؟
فالحارس مشدود الكتفين
مشقوق الظلفين
مولود من فرعون
موجود بين محاره
مرسوم بالألوان بكل مغاره
يبدو في «منْفٍ» أو في «سقّاره»
نقشاً، أو تمثالاً، أو إضباره
أمّا مَنْ قد سُموا بشرا ـ فلقد صاروا من غير مراره ـ
أبداً تلقاهم قد بدأوا من رجل الحارس
حتى إن شموا أظفاره
عادوا لمواصلة الرّحلات المختاره
بغناء ممتقع وجداره!

وفي قصيدة (الموت الجديد) يرسم لنا لوحة قاتمة لمجتمعات يسوقها إرهاب إرهاب النظم الشمولية، كما يساق القطيع... حين يفقد الإنسان إرادته الفردية

---

(١) قصيدة (القتل الليلة) ص ٧٨ من ديوان «الجرح الأخير».
(٢) ص ٨١ ما بعدها من المرجع السابق.

الحـرة، ولا يستطيـع تحقيق وجوده الـذَّاتي، في ظل إرهـاب الشعارات المـزيفة التي تفرضها قلة مستبـدة، على شعـوب لا تملك إرادتها، حـين يغيب عن المجتمع وجـه ملاك الحُب المضيء، وتدمدم أشباح الحقـد والكراهيـة، ويحرم الإنسـان من إشراقة الحياة في أعماقه ويساق مع القطيع، وحتى حين يمـوت. . محظور عليـه أن يموت في سبيل ما تؤمن به ذاتهُ الواعية، بل في سبيل ما تفرضه شعارات القطيع المغلوب على أمره، هذا ما تقدمه لنا قصيدة (الموت الجديد) حيث يقول الشاعر:

لمَّا صرنا لا نمتلكه

ـــ هذا الملك المعزول الناعس

هذا النور المترقرق من وجه لملاك حارس

هذا الورد المضموم على سر عابس

فرداً فرداً من بين نعوش من معدن

ونعوش أخرى من فكر ذابل

وقصيد ممتقع قاحل

. . لما أصبحنا لا نمتلك النعش الواحد

والقبر الواحد

أصبحنا نلقاه في مجموعات ضخمه

في قاعات التوقيف، وفي طابور الأسئلة الجهمه

في عين المخبر، في كف الشرطي، وتبليغ من أصدق من تعرف

من طفل، أو زوج، أو معشوق، أو مما يعرف بالطابور الخامس.

لا يوجد في هذا الليل القارس

مَنْ قد يتدلىً منتحراً من سقف في الغرف الفخمه

بل يوجد صف لا يدري أحد طوله

صف يتخطى مرتجفا هذا العالم في الليل الدامس

فإذا ما غاب يرى صف آخر

من غير رثاء من شاعر

من غير دفاع عن فارس[1]!

إن «عبده بدوي» في هذا الديـوان، يعيش ـ كما عـاش في دواوينه السـابقة ـ قضايا الحرية.. قضايا الإنسان المظلوم في إفـريقيا وبـيروت والقدس، مـدافعاً عن إنسـانيتـه الإنسـان التي يحـاول اغتيـالها عصر الإرهـاب والـرعب والإنسـان الآلي والتفجيرات النووية، يعيش هذه القضايا لأنه يرى فيها وجوده.. وحيـاته.. يـرى فيها قريته المصرية المضـطهدة.. وأمـه وأباه.. وأهله من الفـلاحين البسـطاء. ولا يراها من شعارات الحزب، أو الطبقة، أو النظام..

أمَّـا عبده بـدوي (التشكيل) فلعـل أخطر أداة تشكيليـة استخدمهـا باقتـدار وروعة هي: اتكاؤه في التعبير على الرموز والصور الروحية التي استوحاها من تـراث الكتب المقدسة وبخاصة: رموز وصور القرآن الكريم، وهي صور ورموز استـطاع الشاعر حين اختار لها مساقها الفني السليم في إطار بنـائه التشكيـلي، بحيث تنسجم وتلتحم مـع بقية الأدوات التشكيليـة الأخـرى في بنـائـه الفني.. أقـول: استـطاع الشاعر أن يركز في هذه الرموز الدينيـة، وبخاصـة رموز القـرآن الكريم، شحنـات شعـورية قـوية، وإيحـاءات تصويـرية رائعـة، بحيث نستطيـع أن نقول: إن الـرمز الديني الواحـد في بعض رموزه، يمكن أن يفجـر لدى المتلقي طـاقات شعـورية قـد تعجز عنها قصائد وقصائد، بل لقد تحولت بعض رموزه اوخـرى من الشعر العـربي القديم إلى «قناع» صرَخ الشاعر من ورائه بالكثـير مما ينبغي أن يقـال.. والكثير ممـا يُخْشى أن يقال.. ولنتأمل روعة تضمين بيت امريء القيس:

إذا ما بكى من خـلفها انصـرفت لهُ   بشق وتـحـتي شـقـهـا لـم يحول

وذلك في هذا الكـايكايـتر الذي ينـزف ألمًا وسخـرية من المهـانة العـربية التي تتلقاها بعض الأنظمة على أيدي حكام (الموساد) وذلك في قوله مخاطباً امرأ القيس:

أنميل بشق ـ في يوم السبت العاهر ـ
والشق الآخر نعطيه للطفل المخدوع العربي ـ كما أوصيت ـ

(١) المرجع السابق ـ ص ٨٥.

وعبـده بدوي حـين يقدم في هـذا الديـوان، نماذج رائعـة من التوظيف الفني للرموز القرآنية يريد أن يقول لشعراء هذا العصر، الـذين أغرق بعضهم شـاعريتـه وأغرق معه القاريء العربي في متاهات الرموز الإغريقية وغيرها، وحاصر شاعـريته في إطـارها[1] يـريد أن يقـول: إنَّ الـتراث القـرآني، وهـو تـراث مـرتبط بـالأرض والتاريخ، ومرتبط بأعمق مافي أعماقنا من أقداس الـروح والوجـدان. .هـذا الـتراث غنيٌّ أيضاً بأقوى الإيحاءات التي يمكن أن تخصب رؤيتنا الفنية المعـاصرة، وأن بحثنا عن الجديد وعشقنـا لروعـة الكشف والارتياد والمغـامرة، يمكن أن يتعـانق مع هـذه الرموز الروحية. . ومن قبل (عبده بدوي) وجد (جيته) الألماني في رموز قصة (سورة يوسف) أجمل الرموز حين عزف ألحـان (الديـوان الشرقي للمؤلف الغربي). . ومن بَعْد (جيته) أجاد (توفيق الحكيم) استلهام الرموز القرآنيـة في مجال (الـدراما) حـين قـدم لنا مسرحيتـه (أهل الكهف) وفي شعـرنا المعـاصر تبرز أيضـا في هذا المجـال، الشاعرة الكبيرة (نازك الملائكة) وبخاصة في ديوانها «للصلاة والثورة»[2]، وأنا أعني هنـا: توظيف الـرموز الـدينية تـوظيفا فنيـا، بحيث يصبح الـرمز الـديني جزءاً من النسيج الفني للقصيدة، وخيطاً متلاحماً منسجماً مع الخيوط الأخرى، لا مجرد قـطعة (ديكور) شاذة مقحمة على البناء الفني للقصيدة. كـما هو الحـال في كثير من الـرموز الإغريقية المفتعلة في كثير من القصائد العربية المعاصرة، وقـد ناقش الشـاعر النـاقد الدكتور عبده بدوي هذه القضية (قضية الرموز الإغريقية والمسيحية) قبل ذلك، في بعض دراسـاته في الستينـات، كما نـاقشها بـاستفاضـة وعمق في كتـابـه «في الشعـر والشعراء» ونادى باتكاء الشعـر المعاصر عـلى الرمـوز الإسلاميـة، حين تسـاءل عن السر في اتجـاه كثير من شعـراء الشعر الحـر إلى رموز تمت إلى قـوميات قـديمـة يـراد إحياؤها من جديد ووضعها في مواجهة تيار الأصالة العربية. . تسـاءل عبده بـدوي قائلا: «هل يعجز القرآن عن أن يعطينـا رموزاً للخصب وانسجـام الحياة، وبهجـة النَّفس والإسراء والبعث والـطوفـان والحصـار، والحـزن في يعقـوب، والجـمال في

---

(١) انظر في ظاهرة تفشي الرموز الإغريقية والمسيحية في هذه الفترة، كتابي: «في الشعر والشعراء» للدكتور عبده بدوي ـ ص ٤٢ وما بعدها، و حوار مع الشعر الحر» للدكتور سعد دعبيس ص ٩٠ وما بعدها.

(٢) انظر نماذج من الرموز الاسلامية في قصيدة «سبت التحريـر» ص ١٧١ وما بعـدها من ديـوان للصلاة والثورة ـ وقصيدة «للصلاة والثورة» ص ١٦٢ من الديوان نفسه.

يـوسف، والرغبـة في إمرأة العـزيز، والشـذوذ في قـوم لـوط والتـطلع في إبـراهيم، والفرح بالحق في محمد، والمحنة في الولد بالذبح، أو الإلقاء في الماء، أو تطلع العاقر حتى بعـد أن جاوزت سن اليـأس. . ثم هـل يمتنـع بعض هـذا عن أن يـدخـل في «التركيبة الشعرية المعاصرة» مادام الشاعر لن يغلط أو يحاول الإقناع»(١).

وكان لكاتب هذه السطور إسهاما في مناقشة هذه القضية في كتاب (حوار مـع الشعـر الحر) في وقت كـان يراد فيـه لأتباع (اليـوت) من الشعـراء المعـاصرين، أن يتوجوا أمراء للشعر العربي المعاصر، على الرغم من أنهم كانوا يهـاجمون أي اقـتراب من الرموز الاسلامية. . برغم رجعيتها وقلت: «ومرة أخرى نسـأل إذا كان سـلامة موسى الكاتب المعروف بتقدميته وحُبه للجديد، قـد هاجم الـرافعي لربـطه الأدب بالدين الإسلامي، فلماذا لم يهاجم تلاميذه الآن، عملية إغراق الشعـر الحر في بحـر الرموز المسيحية؟ حيث تحول الشعر الحر إلى جوميتافيـزيقي نشم فيه رائحـة البخور والكهانة الجديدة؟ ولماذا نظروا بعين الرضـا والارتياح، وانهالت مقـالات الإعجاب والتمجيد على مَن أغرقوا الشعر في غيبية (اليوت) برغم رجعيتها المتطرفة. ومعاداتها للحضارة الصناعية التي هي في رأيهم أعظم انتصار تقدمي حققه الإنسان في القـرن العشرين؟»(٢).

ويخطىء من يظن أن عبده بدوي، قـد اقتصر على رمـوز التراث العـربي، أو الـرموز الـدينية في القـرآن والإنجيل والتـوراة. . إن ثقافتـه الموسـوعية العميقـة قد أتـاحت له أن يسبـح في بحار الـتراث العالمي كله، فهنـاك أيضـاً بجـانب الـرمـوز السـابقـة، رمـوز من الشعـر الإنجليـزي، كـرمـز (شيلوك) في إحـدى مسرحيـات (شكسبير):

مَنْ قال بأن النجمة ذات الأضلاع السته

ـ آه من تلك النجمة ـ

لن تلمع من فوق الخيمة في الصحراء

لن تبرق فوق الأسرار الزوجية في المدن العصماء

---

(١) في الشعر والشعراء ـ ص ٤٣.

(٢) حوار مع الشعر الحر ـ دكتور سعد دعبيس ص ٩٥.

ما دُمْنَا قطَّعنا اللحم العربي على السندان، وساومنا الجزار، ولم ـ
. . نأبَهْ للدمعِ المسفوك
ما دُمْنَا قد مكَّنَّا مِنْ لحمِ حي «شيلوك»[1]

وهناك أيضا رموز من الشعر الروسي، في قصيدته (أمام تمثال بوشكين)[2] بل إننا نجد أحياناً في القصيدة الواحدة، الرموز القرآنية، متجاورة مع الرموز العربية، والرموز الأمريكية والروسية.

ماذا لو أمشي في السُّوق الملآن.
وأقول «جناساً» مبتسما من بعد «طباق» غضبان
وأبدِّل لوني كالحرباء بكل مكان
وأراني أحمل أكثر من وجْهٍ في كل أوان
هذا وَجْهٌ في حجم الدولار
هذا وجه في حجم الروبل
هذا وجْهٌ «بالسِّعر التشجيعي»

ماذا لو نادمتُ الإنسان الظالم في كل الأزمان؟
ماذا لو مالأت «الحجاج» بما يجري مذعورا في الشريان؟
ورقصت لكي يتضاحك منه البطن الملآن
وضربنا جمجمة بالأخرى في الليل السكران
وسخرنا من صوت الإنسان المحروم الظمآن[3]

إن ظاهرة استيحاء الرموز القرآنية التي أخذت تمثل تياراً في الشعر العربي المعاصر، والتي يمثل دور الريادة فيها الشاعرة (نازك الملائكة) والشاعر الدكتور عبده بدوي في ديوانيهما «للصلاة والثورة» و «الجرح الأخير». . إن هذه الظاهرة تمثل

---

(١) ديوان الجرح الأخير ـ من قصيدة (الأقمار والموت في بيروت) ص ٤٣.
(٢) المرجع السابق ص ٥٠.
(٣) المرجع نفسه من قصيدة «موقف» ص ٧٠.

خطوة من الخطوات الهامة في طريقنا لبناء نظرية عربية للشعر العربي المعاصر، وتأصيل الدراسات الأدبية، والنقد الأدبي العربي، والخروج من مرحلة انعدام الوزن، وفقدان الوجود الخاص، وضياع الهوية في متاهات التصور الأوربي، إلى مرحلة البحث عن الذّات، والانطلاق من رؤيتنا الخاصة، وعيوننا نحن.. لاعيون الآخرين[١].. فما كُنَّا مطالبين أبداً بأن نلهث في بداية النهضة الحديثة وفي نظرية الشعر الأوربي التي تتخذ من «فن الشعر» لأرسطو، إنجيلها المقدس، وتتخذ من آلهة الإغريق الوثنية، وصراعاتها في «الأولمب» أدواتها التشكيلية، ولسنا مطالبين الآن، بأن نبني نظرية الشعر العربية المعاصرة، على نظرية الشعر الأوربية المعاصرة التي تقوم على الرفض الشامل، وتغريب العالم وتمزيقه، ورفض التراث، ورفض أدوات الترابط والتواصل، وتحويل لغة الشعر إلى ما يقرب من هذيان المحمومين والسكارى..

إننا في أمة عربية مطحونة ضائعة، تعاني غيبوبة مُزمنة، مخدرة بألف مخدر ومخدر فلنكُنْ مآذن يقظتها.. وفي عالمٍ أصبح جزراً منعزلة يطحنها رُعبُ القنابل النووية ورعب الإيدز.. ورعب الترف والانتحار.. ورعب فقدان المعنى.. وفقدان الانتماء إلى الأوطان.. وفقدان الانتماء إلى المجتمع.. وإلى الأسرة.. بل وفقدان الانتماء إلى السَّماء.. فقدان الانتماء إلى ما هو ثابت.. رعب التغيير المستمر يطاردنا، فكل لحظة يُلغىٰ ما قبلها وما بعدها.. ولا يبقى أيُّ أمل في غد نرجوه.. الآن الرفض الشامل أفقد الناس إيمانهم بلحظة استقرار، ينشدون فيها لحْنَ حُب، ويخضوضرون فيها مع الطبيعة وينسابون فيها مع النهر، ويحلون فيها مع القمر، ويبتهلون فيها إلى السماء.

فلتكُنْ رؤيتنا العربية المعاصرة للشعر، منطلقة من بناء هذا العالم المتصدع.. من إعادة الانسجام إلى أشلائه المتناثرة.. وإلى أشلاء الشخصية الانسانية التي بَقَرَها (فرويد) حين جاء بنظريته في (اللاشعور) ليكمل مأساة التمزق النفسي لإنسان القرن العشرين، ويكشف عن أحشاء النفس الإنسانية المظلمة التي ينكرها

---

(١) انظر: مقدمة كتاب (حوار مع قضايا الشعر المعاصر) للدكتور سعد دعبيس.

الوعي بذوقه ونظامه معا، ويقول لنا: هذه حقيقتكم أيها الناس.. فلا تتجاهلوها[1] نعم.. وتحاول أجهزة (الموساد) الآن الإجهاز على ما تبقى من الشخصية الإنسانية عن طريق نشر «الهيروين» و(الأيدز) وأسطورة اسرائيل التي لا تقهر.

ونحن.. غربان نتعب في آفاقها... ونلهث وراء سراب البنيوية.. والعبثية.. والسيزيفية والغموض الخوائي.. والألغاز والأحاجي.. والقصيدة البياض.. والإلكترونية.. وثرثرة العقل الباطن.. وأبطال القرن العشرين.. أطفال ثورة الحجارة.. يلعنون الشعر والشعراء...

وأخيراً.. فحسب ديوان «الجرح الأخير» أن يفجِّر هذه القضايا.. وحَسْبُه أن يعرى زيف كثير من الشعراء العرب المعاصرين، من كهنة (اليوت) وسَدَنة (نظرية الشعر الأوربي).. وحسبه أن يقدم لنا، بمقدمته وشعره، خطوات جادة لبناء نظرية عربية جديدة للشعر العربي المعاصر تنطلق من رؤية عربية.. لا من بقايا رؤية أوربية مشوَّهة..

وحسب عبده بدوي، ودواوينه السابقة.. وديوانه هذا، أن يكون شاهد صدق على عصره..

---

(١) انظر دراسة للدكتور نظمى لوقا، بعنوان «عصرنا بين المعقول واللامعقول» بمجلة «الفكر المعاصر» عدد ابريل ١٩٦٥م.

كبار العلماء وفوات الأوان

د. أحمد فوزي الهيب
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة الكويت

في كل قطر عربي، وفي كل مدينة عربية من المحيط إلى الخليج ثلة من كبار علماء أمتنا الذين أثروا ـ ولما يزالون ـ الحيوات الفكرية والأدبية والعلمية بنتاجهم الأصيل الخصب في جيمع المجالات العلمية والأدبية على مدى عقود طويلة من السنوات من غير كلل ولا ملل. ونجد أن نتاجهم العظيم يزداد عمقاً وأصالة وسمواً وإبداعاً وكثرة، فكأن النوم لا يعرف إلى عيونهم سبيلا، ولا يرى النضوب إلى منابعهم طريقاً.

ويزداد طلاب العلم لهم حباً وتقديراً وترقبا لما يصدر لهم من كتب وأبحاث وخواطر وآثار، لأنهم يجدون في نتاجهم الطيب مذاقاً سائغاً أصيلاً نادراً ذا نكهة خاصة لا يجدونه في غير صوامعهم، ولعل هذا آت من أنه يتسم بسمة الموسوعية والشمول مع سمة العمق والدقة مع غير ذلك مما يضيق الحديث عنه هنا.

وكم يصاب المرء بالألم والمرارة يعصران فؤاده عندما تحمل الأنباء إليه نعي أحد هؤلاء العظماء، فيشارك ـ إن استطاع ـ في جنازته، ويودعه إلى مثواه الأخير، ويرى من وراء دموعه وأحزانه أن التراب الذي ينهال على جثمانه لم يواره فقط، وإنما وارى معه كنزاً نادراً فريداً من الأفكار والمشاريع والعلوم وغير ذلك مما لا يقدر بثمن، ويدرك حينئذ الخسارة والفاجعة والمرارة على حقيقتها، فيتألم ويبكي ويغضب ويندم، ولكن ولات ساعة مندم.

ويأتي الناس من كل حدب وصوب ليؤبنوا الفقيد، ويتحدثوا عنه وعن أعماله الجليلة وصفاته وآثاره وذكرياتهم معه وغير ذلك. إنهم يحاولون أن يكرموه ليكفروا عن أخطائهم أو أخطاء غيرهم، لأنهم لم يكرموه ولم يفيدوا منه في أثناء حياته. وينفضّ الناس عقب هذا التأبين بعد أن يتفقوا على أن يطلقوا اسم الفقيد على شارع أو مدرسة أو قاعة محاضرات في جامعة أو غير ذلك. ومهما يكن من أمر فأية فائدة جليلة حقيقية تجنيها الأمة أو يجنيها الفقيد من هذا التأبين.

وأما بالنسبة إلى مسودات كتب هذا الفقيد، وإلى مشاريعه العلمية، وإلى حواشيه وملاحظاته التي كتبها على هوامش كتبه الخاصة، وإلى أفكاره التي نضجت، أو التي اقتربت من النضج، ولكن الوقت لم يسعفه لإعلانها أو اتمامها، وإلى غير ذلك من الكنوز العظيمة التي لا تقدر بثمن، فيواريها الضياع كما واراه التراب، وربما لا يعرف عنها أحد شيئا.

وأما مكتبته القيمة التي أمضى عشرات السنين وهو يجمع مصادرها المخطوطة والمطبوعة ومراجعها النادرة من المشارق والمغارب حتى غدت كنزا ثميناً لا نظير له، ففي أغلب الأحيان تتلاشى وينتهبها تجار الكتب بأرخص الأثمان ليجمعوا من ورائها ثروة ضخمة بعد أن تتبعثر في مكتبة هذا وذاك، وهنا وهناك، الأمر الذي يفقدها كثيراً من قيمتها، وشتان بين قيمتها وهي مجتمعة، وقيمتها وهي متفرقة شذر مذر. وفي أندر الأحيان تعرف هذه المكتبة طريقها إلى مكتبة عامة تابعة لجامعة أو وزارة أو غير ذلك. وفي هذه الحالة، وهي أحسن الحالات المعروفة إلى الآن، تكون الفائدة منها أقل من المتوقع، إذ إن قليلاً من الناس من يستطيع الاهتداء إليها، أو التمكن من الإفادة منها لسبب أو لآخر.

ونتساءل أخيراً وبأعلى صوتنا: كم خسرت أمتنا في هذا المجال؟ أما آن لها أن تنتبه من الغفلة التي تغط فيها لتتلافى هذا التقصير المريع، وتنقذ ما يجب انقاذه، وتسابق الموت وتسبقه إلى أولئك الباقين من عظمائنا، لتفيد منهم وتؤمن لهم الخلود الحقيقي الذي لا يتحقق باطلاق أسمائهم على مدرسة أو شارع أو غير ذلك؟ لأن في هذا تكريما حقيقا لهم، بل فيه التكريم الحقيقي لهم، ولأن فيه أيضا طريقاً أصيلاً لتقدم الأمة ولتواصل أجيالها، فيبدأ كل جيل من حيث انتهى الجيل السابق له.

ويبقى السؤال الأكبر: كيف نستطيع أن نفيد من هؤلاء العظماء، من بقايا السلف الأصيل؟

الحقيقة أن هناك أكثر من طريق لذلك، ولعل من المفيد أن أطرح مشروعا لطريق من هذه الطرق بايجاز، وهو:

- أن يؤمن لكل واحد من هؤلاء العظام الحياة الكريمة الهادئة الآمنة المريحة بما تحمل هذه الكلمات من معان في أي قطر عربي يعيش فيه، سواء أكان هذا القطر مسقط رأسه أم لا.
- أن يحاط كل منهم بواحد أو أكثر من أساتذة الجامعة ومن هم بمستواهم العلمي، وتتناسب اختصاصهم مع الجوانب المعرفية لهذا العظيم الذي يحيطون به.
- أن يقوم كل أكاديمي من المجموعة السابقة مجموعة من الباحثين، يؤلفون فريق عمل متجانساً.
- أن يجتمع قادة فرق العمل مع العالم الذي يحيطون به مرة كل فترة، ليعطيهم المشاريع التي ستنفذها فرق العمل التي يشرفون عليها، وليعرضوا عليه ما تم منها ويفيدوا من توجيهاته وآرائه.
- يوجّه قادة الفرق أعضاء فرقهم، ويشرفون عليهم بصورة مباشرة، ويكونون على اتصال وثيق مستمر معهم، وفي الوقت نفسه يكونون صلة بينهم وبين العالم.
- أن تخصص ميزانية مالية مناسبة تغطي تكلفة هذا المشروع من أوله إلى آخره.
- تخصص هيئة متخصصة ذات مستوى راق للاشراف على ذلك.

ومن الجدير بالذكر أنه ينبغي أن تعامل الأعمال والجهود التي يقوم بها قادة الفرق وأعضاء فرقهم معاملة الأبحاث والكتب والمشاريع الأكاديمية، ليفيدوا منها في مسيرتهم الأكاديمية وفي ترقياتهم وفي غير ذلك، وأن تسجل أسماؤهم على الكتب والأبحاث والمشاريع التي يشرفون عليها مع اسم العالم بما يتناسب مع ما قاموا به من عمل، وأن تكون لهم مكافآت مجزية تتناسب مع جهودهم في ذلك. ولقد أشرتُ إلى ذلك حتى يكون المشروع عمليا قابلاً للتنفيذ، فلا يغْمط فيه حق لأحد، ولا يغطي ضياء أحد على أحد، وأن يُعطى كل ذي حق حقه، الأمر الذي يجعل

الأكاديميين وغيرهم لا يبتعدون عنه، فلن يستطيع أحد غيرهم القيام بأعبائه الثقيلة.

بما تقدم تستطيع الأمة أن تحقق مكاسب حقيقية عدة وعلى أكثر من مستوى، ومن هذه المكاسب:

- يكرم هؤلاء العظام في حياتهم تكريماً حقيقياً نافعاً مادياً ومعنوياً، وهذا لا يتناقض مع تكريمهم بعد وفاتهم.
- تفيد الأمة إفادة كاملة وشاملة دقيقة من علوم الأسلاف.
- يفيد أعضاء فرق العمل وقادتهم من خلال عملهم مع الأسلاف إفادة عظمى تمكنهم، أو تمكن بعضهم من متابعة الطريق وحمل الراية في المستقبل.

وهناك فوائد كثيرة كبيرة ذات آثار إيجابية في تقدم الأمة وقوتها.

وأخيرا أكرر ندائي بأعلى صوتي:

اغتنموا هؤلاء العظماء (أطال الله بقاءهم) قبل فوات الأوان.

القسم الثاني في اللغة

يحرره :

أ.د. أحمد مختار عمر

أ.د. عبدالعال سالم

أ.د. عبد الحميد طلب

د. سعد مصلوح

د. مصطفى النحاس

د. حسن محسن

أ.د. محمد بدوي المختون

البرفيسور ديفيد كريستال

ترجمة : د. يحيى أحمد

د. توفيق الفيل

أفعل التفضيل بين قواعد النحو وواقع الاستعمال

أ. د. أحمد مختار عمر - قسم اللغة العربية
جامعة الكويت

يعرّف أفعل التفضيل بأنه صفة على وزن «أفعل» أو «فُعْلَى» تدل على زيادة وجود الصفة في شخص أو شيء إما مطلقاً أو بالنظر إلى غيره.

كيفية صياغته:

هناك وسائل ثلاث لصياغة أفعل التفضيل وهي:

أ ــ صياغة «أفعل» من الفعل مباشرة مثل:

﴿ياقوم أَرَهطِي أعزُّ عليكم من الله﴾ (قرآن)

﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ (قرآن)

﴿ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا﴾ (قرآن)

ب ــ صياغة «أفعل» من فعل مساعد والإتيان بالمصدر الصريح بعده من الوصف المراد تفضيله منصوبا على التمييز مثل:

﴿فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ (قرآن).

﴿فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً﴾ (قرآن).

﴿والذين آمنوا أشدُّ حباً لله﴾ (قرآن).

﴿ذلك خيرٌ وأحسَن تأويلاً﴾ (قرآن).

﴿أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ (قرآن).

جـ ــ صياغة «أفعل» من فعل مساعد والإتيان بالمصدر المؤول بعده من الوصف المراد تفضيله مثل:

﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ (قرآن).

﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ (قرآن).

﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أَحَقُّ أن يُتّبع﴾ (قرآن).

﴿ذلك أدنى أن يُعْرفن فلا يؤذين﴾ (قرآن).

﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ (قرآن).

﴿ذلكم أقسط عندالله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ (قرآن).

وقد قال صاحب البحر في الآية الأخيرة: «وقُدر: أدنى لأن لا ترتابوا»، أو «أدنى إلى أن لا ترتابوا»، أو: «أدنى من أن لا ترتابوا»، ثم حذف حرف الجر فبقي منصوبا أو مجرورا على الخلاف[1]».

وتتعدد أنواع الأحداث التي يراد أخذ التفضيل منها لتأخذ أربعة أشكال:

١ ــ فنوع يؤخذ أفعل التفضيل منه بأي وسيلة من الوسائل الثلاث حسب ما يتطلبه المقام.

٢ ــ ونوع يؤخذ أفعل التفضيل منه بالوسيلتين الثانية والثالثة.

٣ ــ ونوع يؤخذ أفعل التفضيل منه بالوسيلة الثالثة فقط.

٤ ــ ونوع لا يؤخذ أفعل التفضيل منه مطلقاً.

والمشهور أن النوع الأول يتحقق في الأحداث التي تتوافر فيها الشروط الآتية:

أ ــ أن يكون فعلاً ـ متصرفاً ـ قابلاً للتفاوت أو التفاضل.

ب ــ أن يكون الفعل ثلاثيا ـ مجرداً ـ تاماً ـ ليس الوصف منه على أفعل فعلاء[2].

ج ــ أن يكون الفعل مبنيا للمعلوم ـ مثبتاً.

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٥٢.

(٢) قالوا في الأخير: لأن الصفة المشبهة تبني من هذه الأفعال على وزن «أفعل»، فلو بنى التفضيل منها لالتبس بها.

أما النوع الرابع فيتحقق في الأحداث التي تختل فيها الشروط الثلاثة في (أ).
وأما النوع الثاني فيتحقق في الأحداث التي تختل فيها الشروط الأربعة في (ب).
وأما النوع الثالث فيتحقق في الأحداث التي يختل فيها الشرطان الواردان في (ج).

ومع ذلك فقد اختلت هذه الشروط في كلام العرب حتى قال الأستاذ محمد بهجة الأثري في بحث له ألقاه أمام مجمع اللغة العربية بالقاهرة: «إنني علقت من هذه الأمثلة الناقضة للقاعدة المذكورة في (تذكرتي) في اللغة زهاء مائة مثال خالفت كلها شروط هذه القاعدة(٣)».

فما اختل فيه واحد من شروط المجموعة (أ):

* الاشتقاق من وصف لا فعل له أو من اسم جامد مثل: هو أقمن به (من قَمِنٌ بكذا) وما أذرع فلانة [التعجب كالتفضيل]، (من قولهم: امرأة ذَرَاع)، وقالوا: ألصُّ من شظاظ، كما قالوا: «أحنك الشاتين»، و«أحنك البعيرين» [من الحَنَك] وكذلك قالوا: «فلان آبلُ من فلان»، وهو «آبل الناس كلهم» [من الإبل]. ومن الأمثلة التي ذكرها الأستاذ محمد بهجة الأثري عن العرب: أبلد، وأتيس، وأفلس.
* الاشتقاق من فعل جامد، فقد سمع: «ماأعساه»، و«أعْسِ بِه» بمعنى «ما أحقه».
* أما الاشتقاق مما لا يقبل التفاوت والمفاضلة فلا يمكن - إذا سلمنا بوجوده - أن يكون قد سمع منه التفضيل. ومع ذلك فإن ما مثّلوا به يمكن أن يقع فيه تفاوت كفعل «الموت»(٤)، أوليس من الممكن أن يقال: «ما أشنع ميتته»، و«ما أيسر ما فاضت روحه إلى بارئها»، و«مات فلان أسوأ ميتة»؟

---

(٣) في أصول اللغة١ / ١٢٧.
(٤) في معجم النحو (مادة اسم تفضيل) مثّل بطلوع الشمس وغروبها. ولكن أليس من الممكن أن يقال: ما أسرع غروب الشمس، أو يقال: الشمس أسرع غروبا في الشتاء عنها في الصيف..؟

ومما اختل فيه واحد من شروط المجموعة (ب):

* الاشتقاق من الفعل الثلاثي المزيد، وقد وردت له أمثلة كثيرة حتى جوّزه الأخفش مطلقا، وجوزه بعضهم من وزن «أفعل» فقط. ومما سمع في هذا: أشبه وأفسد وأتقن وأخطأ وأصوب وأسنّ وأولى (للمعروف) وأعطى (للدرهم)، وما أظلم (الليل)، وما أقفر (المكان)، وما أملأ (القربة)، وما أتقاه.
* الاشتقاق من الفعل الناقص، وبه قال الكوفيون الذين حكوا «ما أَكْوَنَ زيدا قائماً». أما التفضيل والتعجب بالواسطة فجائز إما مع المصدر الصريح: «ما أقسى كونك جاهلا» أو المصدر المؤول «ما أجمل أن تكون متفوقا».
* الاشتقاق مما وصفه على أفعل فعلاء، وقد وردت له أمثلة كثيرة منها قوله تعالى: **﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾**. فإذا كانت الأولى صفة من العمى، فالثانية تفضيل، أي أشد عمى بدلالة المعطوف وهو «أضل سبيلا». والتفضيل هنا شيء يقتضيه الجزاء والعقاب. ولا يعكر على هذا الفهم قول بعضهم إنه من عمى القلب، ومنه يقال ما أعماه، كما يقال ما أحمقه، لأن عمى القلب يأتي الوصف منه على أفعل ومؤنثه فعلاء. ولكثرة أمثلته جوزه بعضهم في العاهات «ما أعوره» وبعضهم في الألوان «ما أحمره» وبعضهم في السواد والبياض فقط. وقد ورد في حديث صفة جهنم: «أسود من القار»، وجاء في حديث صفة الحوض: «ماؤه أبيض من اللبن» وجاء عليه قول المتنبي:

لأَنتْ أسودُ في عيني من الظُّلم.

ومما اختل فيه شرط البناء للمعلوم في المجموعة (ج) قولهم:

ما أَجَنَّهُ، وما أشغله، وما أخضره، وهو أخصر من غيره، وما أزهاه، وهو أزهى من ديك، وأشغل من ذات النحيين، وأشهر من غيره، وأعني بحاجتك. ولكثرة ما جاء من هذا النوع أجازه بعضهم عند أمن اللبس، وأجازه بعض آخر مما كان ملازم البناء للمجهول.

فلا عجب ـ بعد هذا ـ أن يصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قراره

بالتخفف من معظم هذا الشروط استنادا إلى:

١ ــ اختلاف النحاة في بعض هذه الشروط.

٢ ــ كثرة ما ورد عن العرب مناقضا لهذه الشروط.

٣ ــ قرار المجمع بتكملة فروع مادة لغوية لم تذكر قيمتها، مما يسمح بصوغ أفعل التفضيل مما لا فعل له.

٤ ــ التوسع في استخدام المصدر الصناعي الذي سيفتح بابا للتفضيل والتعجب من الأسماء الجامدة مثل: «يعيش حياة أكثر بهيمية»، ومن الصفات مثل التفضيل: «أكثر أهمية»، واسم المفعول: «أظهر محسوبية»، واسم الفاعل: «أشد فاعلية». وقد أخذ الصبان في حاشيته على شرح الأشموني بهذا الاتجاه فقال: «والمتجه عندي أنه يتعجب منه بزيادة ياء المصدرية أو ما في معناها فيقال ما أشد حماريته أو ما أشد كونه حمارا فاحفظه»[٥].

التفضيل باستخدام فعل مساعد مع توافر الشروط:

كثيرا ما يتعلق الغرض بوصف زائد على مجرد التفضيل، ولذا يعدل المتكلم عن الصيغة الأولى للتفضيل ويختار الصيغة الثانية. ويتجلى هذا الاختيار في الأمثلة القرآنية الآتية:

١ ــ ﴿ثم قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُ قسوة﴾.

٢ ــ ﴿لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾.

٣ ــ ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً﴾.

٤ ــ ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشا﴾.

٥ ــ ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾.

٦ ــ ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾.

٧ ــ ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا قل الله أسرع مكراً﴾.

٨ ــ ﴿فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا﴾.

---

(٥) حاشية الصبان على الأشموني ٣ / ٢٣، ٢٤.

ففي الأمثلة الخمسة الأولى التي استخدم فيها «أشد» كان يمكن التفضيل من القسوة والعداوة والقوة والبطش والرهبة دون مساعد. ولكن اختارت الآيات هذا الأسلوب لتحقيق غرضين:

١ ـ استخدام أسلوب التمييز الذي يفيد الايضاح بعد الإبهام، وهو أوقع في النفس.

٢ ـ وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة، وقسوة قلوبهم أشد، وهذا أدل على فرط القسوة من التفضيل المباشر[٦]. ومثل هذا يقال في بقية الأمثلة.

أما في بقية الأمثلة فلم يتعلق الغرض بالحدث الواقع تمييزا وحده، وإنما تعلق به وبالصفة التي تبين نوع الحدث أو درجته ورتبته في قائمة الاحتمالات. فأفضلية الحكم لا تعبر بمفردها عن المراد، إذ المراد أحسنية الحكم، وكذلك في المثال السابع إذ المراد أسرعية المكر. أما المثال الثامن فالأفضلية فيه عكسية لأنها جاءت في جانب السلب لا الإيجاب ولذلك لم يكن هناك بد من استخدام الصفة الكاشفة التي تتعلق بسلب الأفضلية وهي الأضعفية.

أفعل التفضيل بين الإطلاق والنسبية:

يقتضي التفضيل استحضار مفضًل عليه في الذهن سواء ذكر في الجملة أو لم يذكر. فإذا كان التفضيل بالنسبة لكل ما عدا المفضًل فهو التفضيل المطلق أو التفضيل التام، ويسمى درجة التفضيل العليا. وإذا كان بالنسبة لشيء معين محدد فهو التفضيل النسبي أو الإضافي، ويسمى درجة المقارنة.

ويدخل في التفضيل المطلق:

١ ـ أفعل التفضيل المحلًى بأل مثل قوله تعالى:

* ﴿وكلًّا وعد الله الحسنى﴾، قال المفسرون: الحسنى: الجنة.

---

(٦) الكشاف ١ / ٧٧.

* ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾.
* ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. ولا ينفي التفضيل المطلق الوعد بالزيادة، لأن الأول بحسب ما يتصوره الإنسان وما يحيط به علمه، وأما الزيادة فشيء مدَّخر لهم يوم القيامة حيث تعمر الجنة بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولهذا قال المفسرون في الزيادة بأن المراد منها: النظر إلى وجه الله الكريم أو قبول الشفاعة، أو الهدايا التي لم يروا مثلها قط..
* ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾، قال المفسرون: أي الملة الحسنى وهي ملة الإسلام.
* ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾.
* ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾، وهو الطبقة التي في قعر جهنم ولا يسفلها شيء.
* ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، قال المفسرون: معناه: أعلى من أن يقاس به أو يعتبر بغيره.
* ﴿وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يومَ الحجّ الأكبر أنَّ الله بريءٌ من المشركين ورسولُه﴾. قال المفسرون: هو العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع وحجت معه فيه الأمم. وقيل المراد به يوم عرفة، أو يوم النحر، يو الجمع بين الحج والعمرة.

ويجب في هذا النوع المطابقة بين اسم التفضيل وموصوفه في العدد والجنس كما يجب إخلاؤه من «من» والمفضل عليه[7] مثل: «الفزع الأكبر»، «البطشة الكبرى». ولم يرد في القرآن الكريم ما يخالف هاتين القاعدتين، ومع ذلك يلاحظ.

أ ــ أن الصيغ المذكّرة وردت في القرآن أكثر من الصيغ المؤنثة (١٩ : ١٢ حسب إحصاء الشيخ عضيمة).

ب ــ أن هناك صفات ورد منها المذكر والمؤنث، وصفات ورد منها المذكر فقط، وصفات ورد منها المؤنث فقط.

---

(٧) إذا كان هذا الإخلاء واجبا، فهل ينسحب على تعبير مثل: «هو الأفضل بالنسبة لطلاب فرقته»؟

فمن الأول: الآخَر والأخرى.
الأول والأولى.
الأكبر والكبرى.

ومن الثاني: الأخسر، والأعز، والأذل، والأرذل، والأوفى، والأشقى، والأقدم، والأقرب، والأكرم، والأتقى، والأولى، والأيمن.

ومن الثالث: الحسنى، والسُّوءى، والمثلى، والوثقى، والوسطى.

ويثير النوع الثاني أكثر من مشكلة لغوية:

١ ـ إذا كانت المطابقة في الجنس ضرورية فهل سمع عن العرب تأنيث كل «أفعل»؟ وما حكم مالم يسمع تأنيثه؟

أما أنّ العرب أنثوا كل «أفعل» أو حتى كثيرا من «أفعل» فهو ما ينفيه السماع.

وقد رأينا مثلا أن الخُسرى والعُزّى والذلى والرُّذلي.. الخ لم ترد في القرآن ولم تنقل عن العرب. بل أكثر من هذا فإن كلمة «أشد» من أكثر الوسائط ترددا في القرآن الكريم إن لم تكن أكثرها على الإطلاق (وردت ٣١ مرة كما يظهر من إحصاء المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ومع ذلك لم يرد لها مؤنث لا في القرآن ولا في لغة العرب.

فما حكم مالم يسمع تأنيثه عن العرب؟
في التصريح: لابد من ملاحظة السماع.
وفي كفاية المستوفي: لا يُستغنى في... التأنيث عن السماع، فإن الأشرف والأظرف لم يقل فيهما... الشُّرْفَى... والظُّرفى كما قيل في الأفضل والأطول.. وكذلك الأكرم والأمجد... لم يسمع فيهما الكرْمى والمُجدى[٨].

ولكن في شرحي الكافية والشافية للرضى أن مؤنث أفعل على فُعلى قياس.

---

(٨) في أصول اللغة ١ / ١٥٢.

٢ ــ وحتى لو أخذنا بمبدأ القياس وأطلقنا القاعدة من أجل التيسير كما اتجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة فهل سيقبل الذوق أن نقول شُدَّى (من أشد) وكُثرى (من أكثر) وقُلي (من أقل) وضُعفى (من أضعف) وسُرعى (من أسرع) وكذلك: عُزَّى وذُلى ورُذلي وشُقيا وحُرصي وحُكْمَي وكُرمي وغيرها مما ورد مذكره في القرآن الكريم فقط، فما بالك بما ورد جميعه في لغة العرب؟

ولعل هذا المأزق، مأزق المطابقة في التأنيث، وعدم إلف «فُعْلَى» للتفضيل ثأنيثاً لأفعل كان السبب في ظهور تعبيرات حديثة خرجت على مبدأ المطابقة واستخدمت «الأفعل» وصفاً للمؤنث، حتى فيما سمع فيه التأنيث، ومع ذلك:

القضية الأخطر.
الدولة الأولى بالرعاية.
الوجبة الأطيب.
هي الأصدق قولاً والأضمن تنفيذاً.
لماذا لا نواجه الأخطار الأكبر.
الدولتان الأعظم.
لتحقيق الحياة الأفضل.
المصيبة الأعظم عدم استفادة المرء من أخطائه.
ضحّى بالقيمة الأدنى ليظفر بالقيمة الأعلى.

وآخر ما قرأته عنوان استطلاع ورد في مجلة العربي (أغسطس ١٩٨٨) وهو: «التوسعة الأضخم في التاريخ: الحَرَمان الشريفان يسعان جميع المسلمين».

فما الحل؟

أ ــ هل يكون في تقدير «مِنْ» ومفضل عليه ـ رغم مخالفته للقاعدة المشهورة ـ محاكاة لقول الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزةُ للكاثر

وحذف «من» والمفضل عليه كثير في لغة العرب كقوله تعالى: «ذلك أزكى لكم وأطهر».

ب ــ أو هل يكون في اعتبار «ال» موصولاً اسمياً (أو حرفياً على خلاف) كتلك

الموجودة في اسم الفاعل (جاء الضارب) أو الصفة المشبهة (جاء الكريم)، ويكون تقدير الجمل السابقة: القضية التي هي أخطر ـ الدولة التي هي أولى بالرعاية ـ الوجبة التي هي أطيب؟

جـ ـ أو هل يكون في تغيير تركيب العبارات ليصبح:

أخطر القضايا.

أولى الدول بالرعاية.

أطيب الوجبات... إلخ؟

د ـ أو هل يكون في القول بقياسية تأنيث «أفعل» ونفرض ذلك حتى يصبح مقبولاً في الذوق فنقول:

القضية الخُطْرَى.

الدولة الأولى بالرعاية.

الوجبة الطِّيبَى؟[٩].

وبدون محاولة الحل سيظل الناس يرددون: «الأخطار الأكبر»، مع أن مؤنث الأكبر مسموع وشائع، و«الدولتان الأعظم»، مع أن «العُظْميان» قريبة إلى الذهن، و«الحياة الأفضل» مع أن «الفضلى» مقبولة ذوقاً وسماعاً...

٣ ـ وهناك مشكلة أخرى تتعلق بجمع «الأفعل» على «الأفاعل» فمنهم من قصره على السماع، ومنهم من جعله قياساً. ومما سمع من ذلك وورد في القرن الكريم كلمة «أكابر»: **﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾**، وأراذل: **﴿إلا الذين هم أراذلنا﴾**.

أما جمعه جمع مذكر سالماً فكثير، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾** وقوله: **﴿إلا أساطير الأولين﴾**، وقوله: **﴿لاجَرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾**، وقوله: **﴿أولئك في الأذلّين﴾**، وقوله: **﴿واتبعك الأرذلون﴾**، وقوله: **﴿فجعلناهم الأسفلين﴾**، وقوله: **﴿وأنتم الأعلَوْن﴾**، وغير ذلك.

---

(٩) بل إن مما سمع ليمجه الذوق، ومن ذلك ما رواه ابن جني في المحتسب (٢ / ٢٩٩) من أن العرب تقول: الخُوري والشرَّى في تأنيث الأخير والأشرّ.

أما جمع «فُعْلَى» جمعاً سالماً فهو قياسي وإن لم يرد في القرآن الكريم، وورد جمعه جمع تكسير في لفظين هما: «العُلَى» في آيتين: ﴿ممن خلق الأرض والسموات العُلَى﴾ و﴿أولئك لهم الدرجاتُ العُلَى﴾، و﴿الكُبَر﴾ في آية واحدة هي ﴿إنها لإحدى الكُبَر﴾(١٠).

٢ ـ ما حذف منه «مِنْ» والمفضل عليه:

وهذا النوع في القرآن كثير غالب. فقد جاء حذفهما فيه ما يقرب من مائتين وخمسين مرة على التفصيل الآتي:

أ ـ أكثر الحذف في القرآن كان أفعل التفضيل فيه خبرا للمبتدأ:

﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾.

﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾.

﴿فالله أحق أن تخشوه﴾.

ب ـ أو خبراً لناسخ:

﴿وكانوا أحقَّ بها﴾.

﴿لكان خيراً لهم﴾.

﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

جـ ـ أو مفعولاً ثانياً:

﴿وجعلناكم أكثر نفيرا﴾.

﴿تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا﴾.

د ـ أو غير ذلك:

﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

﴿فآمنوا خيرا لكم﴾.

ومما يدل على دخول هذا النوع في التفضيل المطلق ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾ حيث قالوا: المراد: أزكى من كل شيء نافع.

---

(١٠) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٧ / ١٤٤ وما بعدها.

ولاشك أن في حذف «مِنْ» والمفضل عليه إشارة إلى قصد التعميم وعدم التقييد بمفضل عليه معين، وذلك أقرب إلى الإطلاق من ناحية، وأدعى لأن تذهب فيه النفس كل مذهب من ناحية أخرى[11].

وهذا النوع من التفضيل يأخذ حكم أصله وهو إلزام «أفعل» فيه الإفراد والتذكير.

٣ ـ أفعل التفضيل المضاف إلى معرفة:

إذا لم تقصد التفضيل على ما أضيف إليه وحده، بل عليه وعلى كل ما سواه، والإضافة حينئذ تكون للتخصيص.

ويأخذ في هذه الحالة حكم المحلى «بأل» فتجب فيه المطابقة مثل:

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

﴿يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين﴾.

﴿وأنت خير الراحمين﴾.

﴿والله خير الرازقين﴾.

وكذلك قولهم: «الناقص والأشجّ أعدلا بني مروان» (الناقص هو: يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان. سمي بذلك لنقصه أرزاق الجند، والأشج هو: عمر بن عبدالعزيز لشجّة أصابته).

وقولهم: «محمد صلى الله عليه وسلم أفضل قريش».

ولكون الإضافة في هذا النوع لمجرد التخصيص جازت إضافة «أفعل» فيه إلى ما ليس هو بعضه (بخلاف المنوي فيه معنى «من» فإنه لا يكون إلا بعض ما أضيف إليه). فلذلك يجوز «زيد أحسن أخوته»، لأن المقصود: الأحسن من بينهم».

---

(١١) وقد يكون الحذف للحفاظ على بديع نظم القرآن كقوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾، أو إيجازاً للعلم به، وذلك مطلب من مطالب البلاغة القرآنية.

أما التفضيل النسبي فيدخل فيه:

١ ـ أفعل التفضيل المضاف إلى معرفة إذا قصدت به التفضيل على ما أضيف إليه وحده (على معنى «مِنْ»)، مثل قوله تعالى:

* ﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة﴾.
* ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.
* ﴿غُلبت الرومُ في أدنى الأرض﴾.
* ﴿ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر﴾.
* ﴿لتجدن أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾.
* ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾.
* ﴿ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب﴾.
* ﴿أدخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب﴾.

فأحرصية اليهود على الحياة (في الآية الأولى) لا تنفي أحرصية غيرهم بنفس الدرجة. واتباع الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت لأحسن القول (في الآية الثانية) لا ينفي وجود نفس الصفة في غيرهم.

وغلبة الروم في أدنى الأرض (في الآية الثالثة) لا تعني عدم وجود أراض أخرى يمكن أن توصف بشدة الدنو.

وهكذا....

ويتصف هذا النوع من التفضيل بما يأتي:

١ ـ إضافة «أفعل» فيه إلى ما هو بعضه[١٢]. ، ولذلك منع الحريري أن يقال: «زيد أفضل إخوته» لأن زيدا ليس داخلاً في جملة إخوته، ألا ترى أنه لو قيل لك من إخوة زيد لعددتهم دونه. فلما خرج عن أن يكون داخلاً فيهم امتنع أن يقال: «زيد أفضل إخوته»، كما لا يقال: «زيد أفضل النساء» لتميزه من جنسهن وخروجه عن أن يعد في جملتهن. فتصحيح هذا الكلام أن يقال:

---

(١٢) همع الهوامع ٥ / ١١٣.

«زيد أفضل الإخوة»، أو «زيد أفضل بني أبيه» لأنه حينئذ يدخل في الجملة التي أضيف إليها[١٣].

ب ـ جواز المطابقة وعدم المطابقة (الإفراد والتذكير) في أفعل التفضيل. فمن المطابقة قوله تعالى: ﴿إلّا الذين هم أراذلنا﴾، ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾، ﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ وقراءة: ﴿غلبت الروم في أداني الأرض﴾. ومن عدم المطابقة قوله تعالى: ﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة﴾. وقد اجتمع الاستعمالان في قوله ﷺ ﴿ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني منازل يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقا، الموطّأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون﴾.

٢ ـ أفعل التفضيل المضاف إلى نكرة[١٤]:

ويلزم في هذه الحالة ثلاثة أشياء:

أ ـ لزوم «أفعل» الإفراد والتذكير كما في قوله تعالى:

﴿في أحسن تقويم﴾.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

﴿وللآخرة أكبر درجات﴾.

﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾.

ب ـ كونه من جنسه، فلا يقال «زيد أفضل امرأة»، لأن «أفعل» بعض ما يضاف إليه.

جـ ـ وجوب مطابقة المضاف إليه لما قبله إذا كان المضاف إليه جامداً (زيد أفضل رجل[١٥]، هند أفضل امرأة، المحمدان أفضل رجلين..) أما إذا كان

---

(١٣) دقائق العربية ص ٧٢.

(١٤) قال الصبان: والمضاف للنكرة بمنزلة المجرد في التنكير.

(١٥) قال الصبان: أصله: زيد أفضل من كل رجل، فحذف «من كل» اختصارا، وأضيف «أفعل» إلى «رجل».

المضاف إليه مشتقاً فلا تجب المطابقة. وقد جاء عليه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ فالتقدير: أول من كفر به (أو على تأويل: أول فريق كافر، وفريق جمع في المعنى مفرد في اللفظ، أو على تأويل: لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة أي كسا كل واحد منا)، وقول الشاعر:

وإذا همو طعموا فألأم طاعم وإذا همو جاعوا فشر جياع

٣ ــ أفعل التفضيل المجرد من «أل» ومن الإضافة:

ويلزمه في هذه الحالة شيئان:

أ ــ أن يلتزم الإفراد والتذكير.

ب ــ أن تكون معه «مِنْ» جارة للمفضل عليه (ولو تقديراً).

ومثاله في القرآن الكريم:

﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسنَ منها﴾.

﴿والفتنة أشدُّ من القتل﴾.

﴿إذا قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا﴾.

﴿لَشَهادتنا أحقُّ من شهادتهما﴾.

﴿وما نريهم من آيةٍ إلا هي أكبر من أختها﴾.

أفعل التفضيل على غير بابه:

يأتي أفعل التفضيل على غير بابه، أي غير مقصود به الزيادة أو معنى المقارنة. وهو في هذه الحالة يُحمل إما على «التفضيل المطلق» إن احتملت العبارة ذلك أو على الصفة المشبهة.

ومثل هذا النوع تجب فيه مطابقة أفعل التفضيل لموصوفه، لأن كلا من المحلًّى بأل، والصفة المشبهة يطابق موصوفه.

ويمكن أن يحمل على هذا النوع الأمثلة الآتية:

* **﴿وبعولتهن أحقُّ بردهن﴾**، فغير الزوج لا حق له.

* ﴿ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركة﴾، إذ لا يجوز نكاح المشركة فهو على غير بابه.
* ﴿أذلك خير أم شجرة الزقوم﴾، إذ لا شركة في الخيرية بينهما.
* ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، إذ لا تفاوت عند الله بين النشأتين: الإبداء والإعادة.

ويمكن أن يكون التفضيل على بابه، ويكون الكلام قد سيق على حسب معتقد البشر، وما يعطيهم النظر في المشاهدة من أن الإعادة أهون من البداءة عادة.

وخُرِّج على هذا قولهم: ﴿يوسف أحسن إخوته﴾، لأنه يحمل إما على معنى «الأحسن من بينهم» أو «حَسَنهم».

كما خرج عليه قول أبي نواس:

كأنَّ صغرى وكبرى من فقاقعها　　حصباء درٍّ على أرض من الذهب[16]

فأنث لتجرده من معنى التفضيل.

ويقول الدكتور إبراهيم السامرائي: «وعلى هذا كانت صفاته ـ سبحانه ـ صفات خاصة لا يشركه في جوهرها وقدرها وجلالها صفات المخلوقين. فما جاء من ذلك على «أفعل» لا يمكن أن يفيد التفضيل، بل ينصرف إلى الكمال المطلق في مفهوم أي من تلك الصفات. ألا ترى أن قول المؤذن (الله أكبر) من هذا الكمال المطلق، فالله كبير ليس بعد كبره شيء»[17].

وقد يستخدم أفعل التفضيل دون وجود صفة مشتركة بين الطرفين، فلا يراد به حينئذ التفضيل ولكن الإشارة إلى أن شيئاً زاد في صفة نفسه على آخر في صفته كقولهم: «الصيف أحرّ من الشتاء»، أي الصيف أبلغ في حره من الشتاء في برده. وكقولهم: «العسل أحلى من الخل»، قال الصبان: «المعنى في المثال: «أن للعسل

---

(١٦) يمكن أن يخرج على وجه آخر، وهو عدم اعتبار «من» تفضيلية، وإنما هي حرف جر كالذي في قولك «كلمة من محمد»، واسم التفضيل هنا في حكم المضاف إلى المعرفة (انظر التراكيب اللغوية ـ هادي نهر ص ٩٧).

(١٧) من أساليب القرآن ص ٨٢.

حلاوة، وأن تلك الحلاوة زائدة، وأن زيادتها أكثر من زيادة حموضة الخل». وقد يأتي هذا النوع للتهكم، كما يقال: «هو أعلم من الحمار».

إعمال أفعل التفضيل:

* **يرفع** التفضيل الضمير المستتر مثل: «ذلك أزكى لهم».
* ويرفع الضمير البارز أو الاسم الظاهر في لغة قليلة، حكى سيبويه: مررت برجل أكرمَ منه أبوه.
* ويطرد رفعه الاسم الظاهر فيما يسمى «بمسألة الكحل» وضابطها «أن يحل محل الفعل - وأن يسبقه نفي - وأن يكون مرفوعه أجنبياً مفضلاً على نفسه باعتبارين». ومثالها: «ما رأيت رجلاً أحسن في عينه **الكحلُ** منه في عين زيد» والمعنى: ما رأيت رجلاً يحسن.. كحسنه في عين زيد. ومعنى تفضيله على نفسه باعتبارين أن الكحل في عين زيد أحسن من الكحل في عين رجل آخر.

وجاء عليه الحديث: «ما من أيام أحبَّ إلى الله فيها الصوم من أيام العشر». ولم يقع في القرآن الكريم تعبير يشبه هذا.

* أما بخصوص النصب فلا ينصب المفعول به، أما ما ورد ظاهره ذلك فمؤول، ومنه قوله تعالى: **﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ فـ «من» في محل نصب مفعول به لفعل محذوف يدل عليه «أعلم»، والتقدير: يعلم من يضل.**
وأما قوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ففي «حيث» إعرابان:

أ ــ أنها مفعول به على التوسع (لفعل محذوف).

ب ــ أنها ظرف مكان، وضمنّ «أعلم» معنى ما يتعدى إلى الظرف، أي هو نافذ العلم في الموضع الذي يجعل فيه رسالته[18].

* ويتعدى أفعل التفضيل من فعل يتعدى بحرف الجر - يتعدى بنفس الحرف كذلك. ولذا قدروا حرف الجر في قوله تعالى: **﴿وأدنى ألا ترتابو﴾**، وقوله:

---

(١٨) البحر المحيط ٤ / ٢١٦، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٧ / ١٤١.

﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾[19]، وظهر حرف الجر في مثل قوله تعالى: ﴿أولئك شرٌ مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾، وقوله: ﴿ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾.

* وإذا عدّى التفضيل «أحبّ» بإلى اختلف معناه عنه إذا عدى باللام. فإلى تدخل على ما هو فاعل معنى، واللام على ما هو مفعول به معنى. وبهذا يظهر الفرق بين قولنا: المؤمن أحبُّ لله من نفسه ـ والمؤمن أحب إلى الله من غيره. فالأولى (يحب الله أكثر) والثانية: (يحبه الله أكثر، أو أكثر محبوبية إلى الله).

مسائل متنوعة:

١ ـ هناك آيات اشتملت على تفضيل قرئت بأكثر من وجه، وقد يختلف الإعراب أو المعنى تبعاً لذلك، ومنها:

* ﴿فالله خيرٌ حافظا﴾ خيرٌ حِفْظا/ خيرٌ حافظٍ/ خير الحافظين[20].

قال في البحر[21]: وانتصب «حافظاً» و«حفظاً» على التمييز كقولك: لله دره فارسا.. وأجاز الزمخشري أن يكون «حافظاً» حالاً، وليس بجيد لأن فيه تقييد «خير» بهذه الحال. وقراءة «حافظٍ» تعني أن الله تعالى متصف بالحفظ وزيادته على كل حافظ.

* ﴿تحسَبُهم جميعاً وقلوبُهُم شَتّى﴾ شَتًّى / أشتُّ[22].

قال في البحر: شتّى بألف التأنيث ومعناها متفرقة (لاحظ أنه فسرها بالصفة) ومن قرأها شتًّى جعل ألفها للإلحاق[23]. أما قراءة أشتُّ فتعني: أشد تفرقا، ومن كلام العرب: شتّى توء وب الحَلَبة[24].

---

(١٩) البحر المحيط ٣ / ١٦٦.

(٢٠) معجم القراءات القرآنية ٣ / ١٧٩، ١٨٠.

(٢١) البحر المحيط ٥ / ٣٢٢.

(٢٢) معجم القراءات القرآنية ٧ / ١١٨.

(٢٣) أي لإلحاقها بكلمة أخرى رباعية الأصول مثل «جعفر». ومع ألف الإلحاق يقبل الاسم التنوين.

(٢٤) البحر المحيط ٨ / ٢٤٩.

* ﴿فطال عليهم الأَمَدُ﴾/ الأَمَدُّ[٢٥].

قـال في البحر[٢٦]: الأمـد أي انتظار الفتـح، أو انتظار القيـامة، أو أمـد الحياة وغاية الزمان. أما الأمدُّ: فهو الزمان الأطول.

* ﴿أولئك هم خيرُ البريّة﴾/خِيار البرية[٢٧].

ذكر ابن جني[٢٨] أن «خيار» قد تكون:

أ - جمع «خَيْر» التي أصلها «أخير» ومثله جمع «أَبْخَل» على بِخال.

ب - جمع خَيِّر، ومثله جمع كَيِّس على كياس.

جـ - جمع «خَيْر» الذي هو ضد الشر.

* ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾/ حَسَناً/ حُسْنَى[٢٩].

جاء في البحر[٣٠] والخصائص[٣١] ما خلاصته:

أ - تعرب حُسْناً مفعـولاً به. وأصلهـا صفة لمفعـول محذوف أي قـولوا للنـاس كلاماً حُسْناً (إما على الوصف بالمصدر أو على أن حُسْناً صفـة كالحُلو والمُرّ). أو تنصب على المصدر من المعنى، لأن المعنى: وليحسنْ قولُكم حُسْناً.

ب - من قرأ حَسَناً فهو صفة لمصدر محذوف أي قولوا لناس قولاً حسنا.

جـ - وأما من قرأ حُسْنَى فقد دار نقاش حول هذه القراءة:

١ - فمنهم من خطأها، ونقـل ذلك عن سيبـويه لأن «فُعْـلَى» لا تستعمل إلا بـالألف واللام أو مضـافـة إلى معـرفـة، تقـول هي الفُضْـلى، أو هي فُضْـلى النساء.

٢ - ومنهم من خَرَّجها عـلى أن «حُسْنَى» مصدر كـالبشرى والعقبي والرُّجعي أو أنهـا صفـة لموصـوف محذوف أي: وقـولوا للنـاس كلمـةً حسنى أو مقـالـةً

---

(٢٥) معجم القراءات القرآنية ٧ / ٨٧.

(٢٦) البحر المحيط ٨ / ٢٢٣.

(٢٧) معجم القراءات القرآنية ٨ / ٢٠٨.

(٢٨) المحتسب ٢ / ٣٦٩.

(٢٩) معجم القراءات القرآنية١ / ٨٠.

(٣٠) ١ / ٢٨٥.

(٣١) ٣ / ٣٠١.

حسنى. وفي الوصف بها وجهان، أحدهما أن تكون باقية على أنها للتفضيل، واستعمالها بغير ألف ولام ولا إضافة لمعرفة نادر، والآخر ألا تكون للتفضيل فتكون بمعنى «حَسَنَة»، أي قولوا للناس مقالة حسنة.

٢ ـ لفظا آخَر وأُخَر

أصل «آخَر» أَفْعَل، من أَخَّر أي تأخّر، فمعناه أشد تأخراً، ثم صار بمعنى «مغاير»، ممنوع من الصرف للوصف ووزن الفعل، جمعه «آخَرون» و«أُخَر».
ومؤنثه «أخرى» جمعها «أُخريات» و«أُخَرُ» كذلك.

ومن هذا يتبين أن «أُخَر» تصلح جمعاً لآخَر ولأُخرى كليهما، وفي القرآن الكريم:
﴿فعدةٌ من أيام أُخَر﴾.
﴿منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأُخَرُ متشابهات﴾.
﴿وسبعُ سنبلات خُضْر وأُخَرُ يابسات﴾.

وقد قيل في سبب منعها الصرف أقوال:

١ ـ لأن مفردها لا ينصرف، وهو أُخْرى وآخَر. وكذلك كل جمع على فُعَل لا ينصرف إذا كان مفرده لا ينصرف.

٢ ـ لأن أصل «أفعل» للتفضيل ألاّ يجمع ولا يؤنث مادام نكرة، فإن أدخلت عليه الألف واللام أو أضفته ثَنَّيت وجمعت وأنَّثت، تقول: مررت بالرجل الأفضل، وبالرجال الأفضلين، وبالمرأة الفضلى.. وبأفضلهم وبفضلاهن. وليس كذلك «أُخَر» لأنه يؤنث ويجمع بغير ألف ولام وبغير إضافة، تقول مررت برجل آخَر وبرجال أُخَر وبنسوة أُخَر. فلما جاء معدولاً (عن الأُخَر) وهو صفة منع الصرف[٣٢].

٣ ـ وفسر الأشموني «العدل» تفسيراً آخر فقال: والتحقيق أنه معدول عما كان

---

(٣٢) تاج العروس ـ أخر.

يستحقه من لفظ الواحد المذكر [عن آخَر]، لأن حقه أن يستغني فيه بأفعل عن فُعَل لتجرده من «أل» كما يستغنى بأكبر عن «كُبَر» في قولهم: رأيتها مع نساء أكبر منها سناً(٣٣).

تنبيه:

قد تأتي «أُخَر» جمعاً لأخرى بمعنى «آخِرة» فتصرف لانتفاء العدل لأن مذكرها «آخِر» بالكسر (على وزن فاعل) فليس من باب التفضيل، ودليله قوله تعالى: ﴿وأن عليه النشأة الأُخْرَى﴾ مع قوله: ﴿ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾، والمعنى واحد.

٣ ــ لفظا «خير» و«شر»:

وردت كلمة «خير» (في حالاتها الإعرابية الثلاث) في القرآن الكريم ١٧٦ مرة ومقابلتها كلمة «شر» ٢٩ مرة أي بنسبة ٦ : ١ تقريباً.

وقد ورد اللفظان في القرآن الكريم في استعمالات ثلاث:

أ ــ اسم تفضيل يلزم حالة واحدة، ولا يطابق جنساً ولا عدداً [وإن كان قد سُمع في غير القرآن: شرَّى].

* **﴿ما ننسخْ من آية أو نُنْسها نأت بخير منها أو مثلها﴾.**
* **﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.**
* **﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل﴾.**
* **﴿فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً﴾.**

ب ــ صفة مشبهة (ومثلها فَخْم، وضَخْم) مؤنثها بالتاء (ولم يرد أيها مفردا مؤنثا في القرآن)، جمع الأول: أَخْيار وخيار، والثاني: أَشْرار وشِرار:

* **﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾.**

---

(٣٣) شرح الصبان على الأشموني ٣ / ٢٣٩.

* ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾.
* ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾.
* ﴿ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم﴾.
* ﴿فيهنَّ خيراتٌ حسان﴾.

قال اللغويون: جمع خَيْرَة، وهي الفاضلة، والمعنى أنهن خيرات الأخلاق حسان الخَلْق.

* ﴿ وإنهم عندنا لَمِن المصطفَيْنَ الأخيار﴾.

جـ ـ اسمان جامدان يطلق أولهما على كلِ شيء يرغب فيه لفائدته، وثانيهما على كل شيء فاسد سيء، جمعهما خُيور وشرور، وفي القرآن الكريم:

* ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾.
* ﴿بيدك الخير. إنك على كل شيء قدير﴾.
* ﴿ولا تنقصوا المكيال إني أراكم بخير﴾.
* ﴿ولو يعجّل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم﴾.
* ﴿وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض﴾.

وقد جمع التفضيل والاسم الجامد قوله تعالى:

﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾.

وقد جاء «خير» و «شر» في التفضيل في جميع القرآن بدون الهمزة، (وقال ابن جني: إن الإتمام من الأصول المرفوضة)، ما عدا قراءة شاذة هي: «سيعلمون غدا من الكذاب الأشرّ»[٣٤]. قال أبو حيان: «وإتمام خير وشرّ في أفعل التفضيل قليل»[٣٥].

وقال الجوهري: «لا يقال الأَشَرّ إلا في لغة رديئة» وقال الألوسي: «هو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل»[٣٦]، وذكر ابن الأنباري أن العرب تقول هو أخير

(٣٤) معجم القراءات القرآنية ٧ / ٣٧.
(٣٥) البحر المحيط ٨ / ١٨٠.
(٣٦) روح المعاني ٢٧ / ٨٩.

وهو أشَرّ، ومنه قول رؤبة:

بلال خيرُ الناس وابنُ الأَخْيَر.

وقال أبو حاتم: «لاتكاد العرب تتكلم بالأخير والأشرّ إلا في ضرورة الشعر».

٤ ــ لفظ أوّل:

استعمل لفظ «أوّل» استعمال أفعل التفضيل، وقد ورد منه في القرآن الكريم بصيغة المذكر أمثلة كثيرة منها:

* ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾.
* ﴿إنّ أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾.
* ﴿وأنا أول المسلمين﴾.

وبصيغة المؤنث أمثلة أخرى منها:

* ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾.
* ﴿وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى﴾.
* ﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا﴾.

وقد اختلف في جذرة فقال بعضهم: «أول»، وقال بعضهم «وول».

وعلى الأول يكون أصل «أفعل»: أأول ثم أبدلت الهمزة الثانية واوا، وأدغمت في الواو الأخرى. وذكر الجوهري أن جذره «وأل» وأن أصله «أوأل»، أبدلت الهمزة واوا ثم أدغمت. وقد اختار ابن بري الرأي الثاني قائلا: «الصحيح فيها أنها أفعل من (وول).. وهذا مذهب سيبويه وأصحابه».

وقد دخل اللفظ في تعبيرات كثيرة صُرف في بعضها ومنع الصرف في بعض ثان وقطع عن الإضافة فبني في بعض ثالث.

١ ــ فمن الصرف: ما رأيته له أولا ولا آخرا (أي قديما ولا حديثا)، قال الخليل: جعله اسماً فنكر وصرف.

٢ ــ ومن منع الصرف: لقيته عاما أَوَّلَ ـ مررت برجلٍ أَوَّلَ.

٣ ــ ومن البناء: أبدأ بهذا أَوَّلُ (كقولك: ابدأ بهذا قبلُ).

وأكثر ما جاء لفظ «أول» غير متبوع بـ «من»، ومن القليل قولهم: هذا رجل أوَّلُ منك[٣٧].

٥ ــ الفرق بين الآخِر والآخَر:

بين الآخِر بكسر الخاء والآخَر بفتحها:

١ ــ أن الآخر بالكسر خلاف الأول، قال تعالى: **﴿هو الأول والآخِر﴾**، أما الآخَر بالفتح، فهو بمعنى الواحد المغاير، قال تعالى: **﴿فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر﴾**.

٢ ــ أن مكسور الخاء مؤنثه آخرة، يقال جمادي الآخِرة بمعنى المتأخرة، لا الأخرى بمعنى الواحدة المغايرة، وكذا يقال شهر ربيع الآخِر بكسر الخاء، لا بفتحها الذي هو بمعنى الواحد المغاير، وجمعه أواخر وآخِرون، قال تعالى: **﴿وتركنا عليه في الآخِرين﴾**.
أما مفتوح الخاء فمؤنثه أخرى، قال تعالى: **﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾** وجمعه آخَرون، قال تعالى: **﴿وآخَرونَ مُرجَون لأمر الله﴾**، وجمع أُخْرى أخريات وأُخَر، قال تعالى: **﴿فعدة من أيام أخر﴾**.

٣ ــ أن مكسور الخاء وزنه فاعل، أما مفتوحها فوزنه أفعل.

٤ ــ أن مكسور الخاء مصروف، وكذا مؤنثه، أما مفتوحها فممنوع من الصرف للوصفية ووزن أفعل، قال تعالى: **﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾**، ومؤنثه ممنوع من الصرف لألف التأنيث المقصورة، قال تعالى: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾**، وكذا أُخَر الذي هو جمع أخرى ممنوع من الصرف للوصفية والعدل، قال تعالى: **﴿هن أم الكتاب وآخر متشابهات﴾**.

٥ ــ أن مكسور الخاء ومؤنثه يدلان على الانتهاء، ولهذا لا يصح العطف عليهما،

---

(٣٧) اللسان ـ وأل.

فلا يقال: «خرج آخر الطلاب، ثم محمد»، ولا «خرجت آخرة الطالبات، ثم عائشة»، أما مفتوح الخاء ومؤنثة فلا يدلان على الانتهاء، ولذا يجوز العطف عليهما، فيقال: مررت بعلي ورجل آخر، ثم محمد، ومررت بخديجة وفتاة أخرى، ثم عائشة[٣٨].

٦ ـ تعبيرات تفضيلية شائعة:

أ ـ يشيع في لغة العصر الحديث تعبيرات لم ترد في أساليب التفضيل التي سمعت عن العرب مثل:

١ ـ الفقر أحد أعظم المآسي في العالم المعاصر.

٢ ـ أوزاكا ثاني أغلى عاصمة في العالم.

٣ ـ أفريقيا ثاني أكبر القارات بعد آسيا.

٤ ـ فاطمة من أذكى الطالبات.

٥ ـ الأعجب من ذلك أن الأمر كذا..

٦ ـ ورد هذا الخبر في صحيفة كبرى.

٧ ـ أسامة أصغر إخوته.

ولست أرى غضاضة في قبول هذه التعبيرات، رغم تخطئة بعض المعاصرين لبعضها.

أما التعبير الأول فقد خطأه الدكتور إبراهيم السامرائي وذكر أن صوابه: الفقر إحدى عظميات المآسي[٣٩].

وفي رأيي أنه يجوز تذكير «أحد» لتذكير «أعظم» ويجوز تأنيثه لتأنيث «المآسي». كما أن «أفعل» لإضافته إلى معرفة يجوز فيه المطابقة وعدمها.

أما التعبير الثالث فيرى أن الأفضل فيه أن يقال: أفريقيا أكبر القارات بعد آسيا» ولا داعي لكلمة «ثاني» رغم ضرورتها في التعبير رقم (٢).

---

(٣٨) أزاهير الفصحى ص ٨٨، ٨٩.

(٣٩) من أساليب القرآن ص ٩٠.

أما التعبير الخامس فقد خطأه الدكتور محمد أبو الفتوح شريف[٤٠] وقبله الدكتور هادي نهر[٤١] قائلا: «ولا مبرر لهذا المنع الذي لا نرى له وجها من العقل والطبع، ولاسيما أن إجازته لا تثير في بنيان اللغة ما يأباه» وحمله على قول الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

وأما التعبير السادس فقد خطأه الدكتور محمود أبو الفتوح شريف[٤٢] بحجة أن اسم التفضيل يجب أن يظل مفردا مذكرا مادام مجردا من «ال» والإضافة. ولكن تخريجِ العبارة سهل على معنى الصفة المشبهة (وانظر تخريج قراءة: وقولوا للناس حُسْنَى).

وقد سبق تصحيح تعبير مماثل للتعبير الحديث: «أسامة أصغر أخوته» (أفعل التفضيل المضاف إلى معرفة) ولهذا فلا وجه لتخطئة الدكتور محمد أبو الفتوح شريف له[٤٣].

ب ـ من كلامهم المشهور «زيد أعقل من أن يكذب». وظاهره تفضيل زيد في العقل على الكذب. وقد وجه بما يأتي:

١ ـ تأويل «أن» والفعل بمصدر، ثم تأويل المصدر بالوصف.

٢ ـ تضمين «أفعل» معنى «أبعد»، فمعنى المثال: «زيد أبعد الناس من الكذب لفضله على غيره». فـ «من» هذه ليست الجارة للمفضل عليه بل متعلقة بأفعل لتضمنه معنى أبعد. والمفضل عليه متروك أبدا في مثل ذلك لقصد التعميم[٤٤].

---

(٤٠) من الأخطاء الشائعة ص ٤٥.

(٤١) التراكيب اللغوية ص ٩٠.

(٤٢) من الأخطاء الشائعة ص ٤٥.

(٤٣) السابق ص ٥٨.

(٤٤) حاشية الصبان على الأشموني ٣ / ٥٠.

٧ ـ اجتماع التفضيل والاستفهام:

ونتعرض في ذلك لمسائل ثلاث:

أ ـ وقوع أفعل التفضيل خبرا عن «من» الاستفهامية، وقد ورد في بضعه، وعشرين موضعا من القرآن منها:

* ﴿ومَن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾.
* ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾.
* ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾.
* ﴿ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾.

قال المفسرون (تعليقا على الآيات الثلاث الأخيرة وما أشبهها): وهو نفي للأظلمية. ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية. وعلى هذا لايكون في تكرير «ومن أظلم» تناقض لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية. وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر، وصار المعنى لا أحد أظلم ممن منع، ومن افترى، وممن ذُكر، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر، كما أنك إذا قلت: لا أحد أفقه من زيد وعمرو وبكر لا يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر، بل نفى أن يكون أحد أفقه منهم.. وجميع هذه الآيات تتحدث عن الكفار فهم متساوون في الأظلمية وإن اختلفت طرقها.

ب ـ وقوع أفعل التفضيل في حيز الاستفهام بالهمزة. فإن أريد الاستفهام عن المفضل عليه وجب التقديم مثل: أمِن محمد أنت أفضل؟ لأن المسئول عنه بالهمزة هو ما يليها. وإن أريد الاستفهام عن المفضل وجب التأخير مثل: أأنت أفضل من محمد؟ ليليها المسئول عنه.

جـ ـ مجيء المفضل عليه اسم استفهام مجرورا «بمن»، فيجب «لِمن» ومجرورها الصدارة مثل: مِمّن أنت أفضل؟ من أيهم أنت أكرم؟

وقد جاء التقييد بـ «من» في أبيات الألفية وتبعه شراحها. ولست أجد مبررا لتقييد حرف الجر بـ «مِنْ» لأنك من الممكن أن تقول: لأيهم أنت أميل؟ إلى أيهم أنت أقرب؟ (وإن لم تكن الأمثلة من نوع جرّ المفضل عليه).

٨ ــ توجيهات اعرابية:

* ﴿أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾

اختار بعضهم أن تكون «أحصى» فعلاً ماضياً، و «ما» مصدرية، و «أمدا» مفعولا به واختار بعض آخر أن تكون «أفعل تفضيل»، و «أمدا» تمييزا.

من فضّل الفعلية بنى رأيه على كون «أحصى» لو اعتبرت تفضيلاً لكانت مشتقة من غير الثلاثي، وهذا النوع شاذ لا يصح حمل القرآن عليه.

ومن فضل الاسمية بنى رأيه على كثرة ما ورد من تفضيل من الرباعي مثل: ما أعطاه، وما أولاه للمعروف، وأعدى من الجرب، وهو أضيع لما سواها. وظاهر كلام سيبويه قياسية ذلك.

* ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾.

في البحر[٤٥]: وجوزوا في إعراب (أشد) وجوها اضطروا إليها، لاعتقادهم أن (ذكراً)، بعد أشد تمييز بعد أفعل التفضيل، فلا يمكن إقراره تمييزا إلا بهذه التقادير التي قدّروها، وجه إشكال كونه تمييزاً أن أفعل التفضيل إذا انتصب ما بعده فإنه يكون غير الذي قبله، تقول «زيد أحسن وجهاً» لأن الوجه ليس زيداً، فإذا كان من جنس ما قبله انخفض، نحو: زيد أفضلُ رجلٍ، فعلى هذا يكون التركيب في مثل: اضرب زيداً كضرب عمر وخالد أو أشد ضربٍ، بالجر لا بالنصب، لأن المعنى أن يفعل التفضيل جنس ما قبله. فجوزوا إذا ذاك النصب على وجوه:

أحدها أن يكون معطوفاً على موضع الكاف في كذكركم لأنها عندهم نعت لمصدر محذوف، أي ذكراً كذكركم آباءكم أو أشد، وجعلوا الذكر ذكراً على جهة المجاز كما قالوا: شعر شاعر، قاله أبو علي وابن جني.

الثاني: أن يكون معطوفاً على «آبائكم» قاله الزمخشري.. وهو كلام قلق..

الثالث: أنه منصوب بإضمار فعل الكون، والكلام محمول على المعنى، التقدير: أو

(٤٥) ٢ / ١٠٣ - ١٠٤.

كـونوا أشـد ذكراً لـه منكم لآبائكم. قـاله أبـو البقاء، وهـذا أسهـل من حمله عـلى المجاز. .

وجوزوا البحر في (أشد) على وجهين:

أحدهما: أن يكون معطوفاً على «ذكركم»، قاله الزجاج وابن عطية وغيرهما، فيكون التقدير: أو كذكر أشد ذكراً. .

الثاني: أن يكون معـطوفاً عـلى الضمير المجـرور في «كذكـركم»، وفيه العـطف على الضمير المجرور من غيره إعادة الجار.

وعقب أبـو حيان بعـد ذلك قـائلا: فهـذه خمسة وجـوه من الإعـراب كلهـا ضعيف. . والذي نراه أن يكون (أشد) منصوباً على الحال، وهو نعت لقوله (ذكراً) لو تأخر. فلما تقدم انتصب على الحال كقولهم:

لمية موحشاً طلل

فلو تأخر لكـان: لمية طلل مـوحش، وكذلـك لو تـأخر هـذا لكان: أو ذكـراً أشدّ.

*** ﴿كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾.**

فيها إعرابات:

أ ـــ «جعلنا» بمعنى صيّرنا، ومفعولها الأول «أكابر»، و «في كل قرية» المفعـول الثاني و «أكابر» على هذا مضاف إلى «مجرميها».

ب ـــ ومنهم من أعرب «مجرميها» بدلا من «أكابر».

جـ ـــ ومنهم من أعرب «مجرميها» مفعولا أول و «أكابر» مفعولا ثانيا.

د ـــ ومنهم من قدر المفعول الثاني وهو «فسّاقاً».

وقد اعترض أبو حيان على الرأيين الثاني والثالث بأنـه يلزم على أي منهـما جمع أفعـل التفضيل في غـير الحالتـين المسموح بهـما وهما: التحليـة بأل أو الإضـافـة إلى معرفة(٤٦).

---

(٤٦) البحر المحيط ٤ / ٢١٥.

قائمة المراجع

(١) أزاهير الفصحى في دقائق اللغة ـ عباس أبو السعود ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان.

(٣) التراكيب اللغوية ـ هادي نهر بغداد ١٩٨٧ .

(٤) حاشية الصبان على الأشموني ـ الحلبي بمصر.

(٥) الخصائص لابن جنى ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٢ .

(٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ـ محمد عبدالخالق عضيمة ـ السعادة بالقاهرة.

(٧) دقائق العربية ـ الأمير أمين آل ناصر الدين ـ مكتبة لبنان ١٩٦٨ .

(٨) روح المعاني للألوسي.

(٩) في أصول اللغة ـ محمد خلف الله أحمد ومحمد شوقي أمين ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٩ .

(١٠) الكشاف للزمخشري.

(١١) لسان العرب لابن منظور.

(١٢) المحتسب لابن جنى ـ تحقيق على النجدي وعبدالفتاح شلبي .

(١٣) معجم القراءات القرآنية ـ أحمد مختار عمر وعبدالعال سالم ـ ط ثانية الكويت ١٩٨٨ .

(١٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبدالباقي .

(١٥) معجم النحو ـ عبدالغني الدقر ـ دمشق ١٩٧٥ .

(١٦) من الأخطاء الشائعة ـ محمد أبو الفتوح شريف.

(١٧) من أساليب القرآن ـ ابراهيم السامرائي ـ دار الفرقان ـ ط أولى ١٩٨٣ .

(١٨) همع الهوامع للسيوطي ـ تحقيق عبدالعال سالم.

أوائل المؤلفات في النحو العربي وأثرها في كتاب سيبويه

بقلم : أ.د. عبدالعال سالم مكرم
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

قضية نشأة النحو العربي احتدم حولها النقاش منذ عهد مبكر، فالناظر لكتب الطبقات تروعه كثرة الاختلافات حول هذه النشأة.

فقائل يقول: إن النحو العربي نشأ على يد عليّ ـ كرم الله وجهه ـ فقد سمع أعرابياً يقرأ: ﴿**لا يأكله إلا الخاطئين**﴾[1] مكان: ﴿**إلا الخاطئون**﴾ فوضع النحو[2].

وآخر يقول: إن هذه النشأة تمت على يد أبي الأسود الدؤلي، فهو الذي ألحّ على زياد أمير البصرة بأن يأذن له «أن يضع للعرب ما يعرفون به كلامهم»[3]. وهناك روايات تبين أن أول من وضع النحو هو عبدالرحمن بن هرمز[4]. كما أن هناك رواية تثبت أن أول من وضع النحو هو نصر بن عاصم[5].

---

(١) الحاقة / ٣٧.
(٢) نزهة الألباء / ٧.
(٣) المصدر السابق / ١٢.
(٤) المصدر نفسه والصفحة.
(٥) المصدر نفسه والصفحة.

وتتضارب الروايات مرة أخرى إذ نرى أن بعضها ينصّ على أن عمر بن الخطاب هو الذي تم وضع النحو على يده وفي خلافته. قالوا: «قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ، فأقرأه رجل سورة براءة. فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسولِه» بجرّ «رسوله» فقال الأعرابي: أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريئ من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني، فأقرأني هذا سورة (براءة) فقال: ﴿**أن الله بريء من المشركين ورسولِه**﴾، فقلت: أو قد بريء الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر - رضي الله عنه -: ليس هكذا يا أعرابي فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسولُه (بالرفع) فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم، فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أباالأسود أن يضع النحو[1].

ويرجح ابن النديم في (الفهرست) أن أباالأسود هو الذي وضع النحو، ووضع بعض مصطلحاته الأولى، ويستدل ابن النديم على ذلك بما رواه محمد بن إسحاق أنه كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له: محمد بن الحسين جماعة للكتب.. له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة كبيرة من الكتب العربية في النحو، واللغة والأدب، والكتب القديمة.

قال محمد بن إسحاق، فلقيت هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده خائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطراً كبيراً، ورأيت فيه ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: «هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الأسود - رحمة الله عليه - بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي، وتحته: هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر، وما كان

---

(١) المصدر نفسه / ٨، ٩.

فيه، فما سمعنا له خبراً»[1].

وإذا اتجهنا إلى المستشرقين لنقف على رأيهم في هذه القضية فماذا نجد؟ نجدهم ينكرون نسبة النحو إلى أبي الأسود، وعلى رأس هؤلاء المنكرين المستشرق (فون كريمر) إذ يقول: «إن تسرب الفساد إلى اللغة العربية كان هو السبب في ضرورة وضع قواعد النحو لإنقاذ اللغة العربية، رواية لا يعوّل عليها إطلاقاً، ولا أساس لها فالنحو العربي من وضع الأجانب من الآراميين والفرس، وقد أوجدته الحاجة التي أحس بها هؤلاء الأجانب، لتعلم الكتابة العربية وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية»[2].

ولا أريد أن أستطرد في هذه القضية لأنني أفردتها ببحث مستقل نشر في مجلة كلية الآداب، العدد العاشر ١٩٧٦م. ولكن الذي أريد أن أصل إليه هنا هو أن القرآن الكريم هو السبب الأول في نشأة النحو العربي وتدوينه، لأن اختلاط العجم بالعرب لو استمر فترة طويلة من دون القاعدة التي تحمي اللغة، والأسلوب الذي يصون التركيب، لضاعت اللغة وبضياعها يضيع كتاب الله. ولكن الله تكفل بحفظ قرآنه، فهيأ لأبي الأسود ورجاله أسباب وضع النحو العربي وتدوينه ليكون المنار الذي يهدي، والنور الذي يرشد، ولا أدل على ذلك من هذا الانحراف الذي بدأ يعلن عن نفسه، وإن كان قليلاً جداً في عهد الرسول ﷺ، فعن أبي الدرداء قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً قرأ فلحن قال: أرشدوا أخاكم[3]، وفي رواية سجلها ابن جني في الخصائص: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»[4].

وعلى أن العلم باللغة كانت جذوره ممتدة قبل الأسود، ففي الرواية التي قدمتها قبل ذلك، والتي تنسب نشأة النحو إلى عمر بن الخطاب، وأنه أمر أباالأسود أن يضع النحو، وردت هذه الجملة: «ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة».

---

(١) الفهرست / ٦١ ـ المطبعة الرحمانية.

(٢) الحضارة الإسلامية لفون كريمة، تعريب مصطفى بدر / ٩٠ ـ دار الفكر العربي.

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١٥١/١.

(٤) الخصائص ٨/٢.

ولماذا اتجهت الروايات إلى أبي الأسود لتنسب النحو إليه، إن لم يكن ذا دراية واسعة بعلم العربية؟ ولماذا لم تتجه هذه الروايات إلى رجل آخر في طبقته ـ رغم كثرة الرجال ـ لتنسب إليه ما نسبته إلى أبي الأسود؟

الحق الذي يقال: أن أبا الأسود حلقة في سلسلة المعرفة اللغوية، ولا يمكن لأبي الأسود أن يحصل على هذه المعرفة اللغوية، من دون أن يتعلمها من غيره، ولأنه برز في مجالها، وزاد نشاطه في حقلها نسب إليه نشأة أضخم علم شغل الناس قروناً طويلة، وما زال يشغلهم إلى وقتنا الحاضر.

على أن معظم الروايات تجمع على أن أبا الأسود قام بعمل خطير وكبير معا حيث نقط المصحف تنقيط إعراب، وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذي ذكره الرواة يدل على وضوح ظواهر الإعراب في ذهن أبي الأسود حينما قال للكاتب: «خذ المصحف، وصبغاً يخالف المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، فإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركة غنّة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره»[1].

إن نظرة واحدة إلى هذا النص تشير في وضوح إلى أن أول من تكلم عن حركات الإعراب والتنوين هو أبوالأسود، وما النحو في مظاهره العديدة، وقضاياه المتشعبة إلا هذه الحركات التي تتناول معظم أبواب النحو: المرفوعات، والمنصوبات، والمجرورات، ويجمل بنا قبل أن ننهي الحديث عن نشأة النحو العربي أن نشير إلى أن الحركة النحوية في هذا العهد بفضل أبي الأسود كانت نقطة الانطلاق، وبداية الطريق لمن جاء بعده. فعلى يد تلاميذه تشابكت فروعه، ونمت أصوله، ومن أشهر هؤلاء التلاميذ عبدالرحمن بن هرمز، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل، وقد استطاع هؤلاء التلاميذ أن يحملوا الراية بعد أبي الأسود في مجال النحو العربي مما كان له أثر كبير في نمو النحو العربي على تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم. حتى سلمت الراية لعميد النحو العربي في

---

(١) نزهة الألباء / ١٢.

عصره، وهو سيبويه الذي انتفع بجهود سابقيه وارتشف من منهل ما تركه هؤلاء العلماء الذين ظهروا قبله، فألف كتابه العظيم الذي أعجز من قبله، وعزّ على من بعده.

وكان كتاب سيبويه مصدر حيرة بالنسبة للمستشرقين والباحثين، إذ كيف يلد كتاب سيبويه عملاقاً من دون أن يسبق بمراحل نموّ وتطور تؤدي إلى ولادته ولاية طبيعية:

وقد أشار إلى هذه الحيرة ما ذكره الأستاذ (ت ـ دي يلور ـ في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) حيث يقول: «ويحيط الغموض بأول نشوء دراسته (يعني النحو) فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدنا عملاً ناضجاً، ومجهوداً عظيماً حتى أن المتأخرين قالوا: أنه لابد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء مثل قانون ابن سينا في الطب»[١].

وقد لفتت هذه الظاهرة نظري إلى أن أدرس تاريخ النحو قبل سيبويه في كتابي:

(الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي)[٢] فرأيت أن سيبويه اغترف من بحر من سبقه وأن عمله في هذا الكتاب عمل جهاز الاستقبال الذي استقبل كل التيارات النحوية التي بدأت من عهد أبي الأسود وانتهت إلى عهد سيبويه، حقاً إنه نظم ما استقبل، ونسقّ ما وصل إليه في أبواب قامت على فهم دقيق، وتناسق عجيب، واستيعاب لأساليب العربية وتراكيبها.

وظل كتاب سيبويه يؤدي رسالة النحو واللغة والصرف إلى يومنا هذا على الرغم من الامتداد الزمني الطويل، وهو امتداد كان من الممكن أن يعبث بهذا الكتاب ويضيع كما ضاع غيره، ولكنه مع ذلك ظل جديداً نابضاً بالحياة، وهو بحق يعتبر أول كتاب تراثي منظم في أبوابه وفصوله، في مسائله وقضاياه، وما زالت الدراسة النحوية واللغوية تدور حول محوره، وتسبح في فلكه، لأنه كتاب خالد.

---

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية، ترجمة د. محمد عبدالهادي أولي ريدة / ٥٤، ٥٥.

(٢) طبع طبعة أولى بالكويت في مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، وتقوم حاليا مؤسسة الرسالة ببيروت بطبعه مرة ثانية.

على أنه من الحق أن نؤكد أن الفضل الأول في تأليف كتاب سيبويه يرجع إلى الرعيل الأول الذي سبقه، لأن هذا الرعيل مهّد الأسباب لظهور هذا الكتاب على هذا النحو ببنائه المتكامل، وتمتد الطريق أمام سيبويه ليصل إلى الغاية من هذا العلم.

ولله در الزبيدي في طبقاته حيث أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: «فكان أول من أصّل ذلك، وأعمل فكره فيه أبوالأسود ظالم بن عمرو الدّؤلي، ونصر بن عاصم، وعبدالرحمن بن هرمز، فوضعوا للنحو أبواباً، وأصلوا له أصولاً، فذكروا عوامل الرفع والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول، والتعجب، والمضاف.

وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السبق، وشرف التقدم، ثم أصّل ما أصّلوه من ذلك التّالون لهم، والآخذون عنهم، فكان لكل واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول، ومدّ من القياس، وفتّق من المعاني وأوضح من الدلائل، وبين من العلل»[1].

وقد أثمرت هذه الجهود وأينعت، وحان قطافها، وتم ذلك القطاف على يد سيبويه في كتابه العظيم.

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن كتاب سيبويه ليس هو أول كتاب في النحو، فقد سبق سيبويه علماء كانت لهم جهود تأليفية، دونوا من خلالها ما وصلوا إليه من قواعد نحوية. وأول عمل تدويني للنحو العربي قبل كتاب سيبويه كان على يد أبي الأسود وتلميذه نصر بن عاصم المتوفى تسع وثمانين، وقيل: سنة تسعين[2].

ومعنى ذلك أنه من رجالات القرن الأول حيث توفي قبيل نهاية هذا القرن ومن دون شك فهو تلميذ أبي الأسود الدؤلي، وقد وصفه السيوطي في (البغية) بأنه من قدماء التابعين[3]. ولهذا فإن بعض الرواة نسب إليه أنه أول من وضع العربية[4].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين / ٢١، ٢٢.
(٢) معجم الأدباء ١٩/ ٢٢٤.
(٣) بغية الوعاة ٢/ ٣١٣.
(٤) طبقات النحويين واللغويين / ٢٧.

وتلمذته لأبي الأسود ليست استنتاجاً مني، لأن الرواة نصّوا على أن نصر بن عاصم عرض القرآن على أبي الأسود[1].

ويزيد (ياقوت): أن نصر بن عاصم كان «يسند إلي أبي الأسود الدؤلي في القرآن والنحو»[2].

١ ـ كتاب نصر بن عاصم في النحو أو العربية:

لنصر بن عاصم كتاب في العربية، والمراد بها النحو، فمصطلح: (العربية) كان يطلق في كثير من الأحيان على المسائل النحوية، وظل مصطلح عربية على امتداد التاريخ حتى عصرنا الحاضر يعني اللغة العربية بفروعها المختلفة.

وكتاب نصر بن عاصم في العربية أشار إليه ياقوت في معجمه إذ يقول «وله كتاب في العربية»[3]. والسيوطي في (البغية) ينقل نص (ياقوت) في أن له كتاباً في العربية[4].

ويبدو أن فكرة وضع كتاب في النحو العربي في وقت مبكر كانت تراود أباالأسود الدؤلي أستاذ نصر بن عاصم. ولكنه لم يستطع ذلك في بادىء الأمر إلى أن استفحل اللحّن، وكثر التحريف، وتعدد الخطأ فوضع مبادىء عامة في كتيب فيه جمل من العربية تشكل خطوطا أولية عريضة في هذا العلم.

يتحدث أبوالقاسم الزجاجي عن هذه الخطوط العريضة في أصول النحو التي ابتكرها أبوالأسود، فيقول: إنه لما سمع كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب أنكر ما يأتون به من اللحن لمشافهتهم الحاضرة وأبناء العجم».. إلى أن يقول: «وهم أن يضع كتاباً يجمع فيه أصول العربية، فمنعه من ذلك (زياد) وقال: لا نؤمن أن يتكل الناس عليه، ويتركوا اللغة وأخذ الفصاحة من أفواه العرب، إلى أن نشأ اللحن، وكثر وقبح، فأمره أن يفعل ما كان نهاه عنه، فوضع كتاباً فيه جمل العربية، ثم قال

---

(١) مفتاح السعادة ٢/٢٤.
(٢) معجم الأدباء ٢٢٤/١٩.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) البغية ٣١٣/٢.

لهم: انحوا هذا النحو أي اقصدوه، والنحو: القصد، فسميّ لذلك نحواً»[1] ويبدو أن كتاب نصر بن عاصم امتداد لكتاب أبي الأسود، ومرحلة متطورة عنه لأنه ليس من المنطق أن يتوقف نصر عند الجمل العربية، والأصول النحوية التي وضعها أبوالأسود، فمن شأن العلم أن يتطور، ومن شأن الأصول أن تتفرع، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن كتاب نصر بن عاصم في العربية أغزر مادة، وأكثر تفريعاً وأعظم استيعاباً للأصول النحوية من كتاب أبي الأسود الدؤلي.

والذي نهدف إليه من الحديث عن تأليف هذين الكتابين هو أن تقرر أن الحركة التأليفية لتدوين النحو العربي بدأت في القرن الأول الهجري وهي حركة مبكرة بالنسبة إلى الحركات الأخرى في المجالات العلميّة المختلفة.

٢ ـ كتاب الهمز لابن أبي إسحاق:

ابن أبي إسحاق: هو عبدالله بن أبي إسحاق مولى آل الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ وهو ابن ٨٨ سنة.[2]

قال عنه ابن الأنباري: «كان قيّماً بالعربيّة، والقراءة إماماً فيها»[3] وقال عنه أبو الطيب: «وكان يقال له «عبدالله أعلم أهل البصرة وأعقلهم»[4].

ووصفه القفطي فقال: «المقرئي النحوي العلامة في علم العربيّة»[5].

وكتاب الهمز في صميم اللغة، وعالم العربية في هذاالعصر هو من يملك اللغة في يمينه، والنحو في يساره، ذلك، لأن الدراسات النحوية واللغوية في هذه الفترة من التاريخ كانت مختلطة، فلا لغة إلا بالنحو، ولا نحو إلا باللغة ومن هنا صحّ لعبداللطيف البغدادي أن يقرر هذه العلاقة القوية بين اللغة والنحو في قوله:

---

(١) الايضاح في علل النحو / ٨٩.

(٢) الإنباه ٢: ١٠٧، ١٠٨.

(٣) نزهة الألبا/١٢.

(٤) مراتب النحويين/ ١٢.

(٥) الإنباه ٤/١٠٤.

«اعلم أن اللغـوي شأنـه أن ينقل مـا نطقت بـه العرب، ولا يتعـدّاه، وأمّـا النحـويّ فشأنـه أن يتصرّف فيها ينقله اللغـوي، ويقيس عليـه، ومثـالهـا المحـدّث والفقيه فشأن المحدّث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقّاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله، ويقيس عليه الأمثال والأشياء»[1].

وفي هـذا العهد كـان المتصدرون لـوضع الأصـول النحويـة ومقـاييسهـا هم اللغويّون الذين كان لهم فضل جمعها، ومن هنا اختلطت المسائل اللغوية والنحويـة على يدهم ممّا جعل هذا الاختلاط من أوضح مظاهر هذه الحركة.

ومن المصـادر التراثيـة التي نصّت عـلى أن لابن أبي إسحـاق كتـابـاً في الهمـز كتـاب: (المزهـر)، قال السيّـوطي في المزهـر: وتكلّم في الهمز حتى عمـل كتابـاً مما أملاه»[2].

ويـظهـر أن ابن أبي إسحـاق كـان عـلى علم عـظيم بهـذا الهمـز ممـا جعـل أباعمرو بن العـلاء يقول عنـه: «ما نـاظرني أحـد قط إلا غلبته وقـطعته إلا ابن أبي إسحاق فإنه ناظرني في مجلس بلال بن أبي بـردة في الهمز، فقـطعني، فجعلت إقبالي على الهمز حتى ما كنت دونه»[3].

٣ ـ كتابا «الإكمال» و«الجامع» لعيسى بن عمر.

عيسى بن عمر الثقفيّ من أهل البصرة وهـو غير عيسى بن عمـر الهمذاني من أهل الكوفة[4].

وصفه ياقوت فقال عنه: «عالم بالنحو والعـربيّة والقـراءة مشهور بـذلك[5]. وذكر السيوطي في (البغية) أنه مات سنة ١٤٩هـ[6].

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٧٧.
(٢) المزهر ٢/٣٩٨.
(٣) مجالس العلماء للزجاجي /٢٤٣.
(٤) أخبار النحويين البصريين/ ٢٥.
(٥) معجم الأدباء ٦/١٤٦.
(٦) البغية ٢/٢٣٨.

وممّا تميّز به عيسى بن عمر عن علماء عصره حبه للتأليف، وولعه بالتدوين وقد سيطر هذا الحب على قلبه منذ شبابه، ولا أدلّ على ذلك من قوله في تعبيره عن هـذا الحب: «كنت وأنا شابّ أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائي» أي وسطي[1].

ومعنى هذا النص يشير في وضوح إلى أن قعوده بالليل ليكتب يدل على أنـه في هذه الحالة كان يعاني التأليف، ويعانيه بجهد لا يعرف الكلل حتى يشعـر أن وسطه قد انقطع من كثرة الكتابة.

ولهذا أميل إلى تصديق الروايات التي تقول عنه: «إن له نيفاً وسبعين مصنفاً، ذهبت كلها»[2].

ومن هذه الكتب كتابان ورد ذكرهما في كثير من المراجع العـربية وهمـا: كتاب «الإكمال» و«الجامع» وكلاهما في النحو:

ولنا أن نتساءل: لماذا لم يتحدث الرّواة عن موضوعات هـذه الكتب وأسمائهـا ولم دار الحديث حول هذين الكتابين فقط؟

سؤال خـطر في نفس، ولم أجد الإجـابة عنـه إلا في (شذرات الـذهب) لابن العماد الحنبليّ، فقد قال ما نصّه: «وصنف سبعاً وسبعين كتاباً في النحو، ولم يبق منها سوى (الجامع) و(الإكمال)، لأنها كانت احترقت إلا هذين»[3].

وهكـذا وضحت مشكلة ذهاب هـذه الكتب بهذه الـروايـة التي تشـير إلى أن الحريق قد التهمها، ولم يبق منها إلا هذان الكتابان.

ويبدو أن شهرة عيسى بن عمر في تأليف النحـو وتدوينـه كانت شهـرة واسعة دعت سيبويه إلى أن يرحل إليه ويلقاه لـلانتفاع بمصنفـاته، والإفـادة منها في تـأليف كتابة عمدة النحو، ولكنه فوجيء بذهاب مصنفاته، فعـاد من رحلته، ومعـه كتاب (الجامع) الذي رآه الخليل مـع سيبويـه فأعجب به.

---

(١) طبقات النحويين واللغويين/ ٤٢.

(٢) بغية الوعاة ٢/٢٣٨.

(٣) شذرات الذهب ١/٢٢٤، ٢٢٥.

يتحدّث ابن العماد الحنبليّ عن رحلة سيبويه إلى عيسى بن عمر، فيقول:

«وكان سيبويه رحل إليه، وعاد ومعه (الجامع)، فسأله الخليل عن عيسى فأخبره وأراه (الجامع) فقال الخليل:

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدثه عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

ويظهر من رواية القفطي في (الإنباه) أن هذين الكتابين كبيران حيث يقول: «ومنها تصنيفان كبيران: أحدهما (الإكمال) والآخر (الجامع).

وينفي القفطي نسبة كتاب سيبويه إلى سيبويه في إشارة خفيّة ذكيّة إذ يقول: «إن الجامع هو كتاب سيبويه، زاد فيه، وحشاه، وسأل مشايخه عن مسائل أشكلت عليه، فذكرت له فأضافها، وأنه لما أحضره إلى الخليل بن أحمد ليقرأه عليه عرفه الخليل، فإشار إلى (الجامع) بما يشار به إلى الحاضر، وهي لفظة (هذا)[1].

ومعنى هذا النص عند التحليل أن كتاب سيبويه ما هو إلا كتاب (الجامع) الذي ألفه عيسى بن عمر، وليس لسيبويه فضل في كتابه اللهم إلاّ الحواشي التي زادها، وأجوبة المسائل التي أشكلت عليه فأضافها إلى الجامع.

لا أدري مدى صدق هذه الرواية التي قدمها لنا القفطي في (الإنباه)، وإن الناظر لكتاب سيبويه يجد أنه كتاب سابق لعصره في حسن تبويبه، وجمال تقسيمه، وتلاحم موضوعاته، وتسلسل قضاياه في أسلوب دقيق، وإتقان عجيب، وفكر مبدع، فهل كان كتاب الجامع على هذا المستوى من الدقة، وهو المستوى الذي لم يختلف أحد من العلماء والمؤرخين أدنى اختلاف في أنه من صنع سيبويه وحده، ومن نتاج عقله المبدع؟

تلك قضية تحتاج إلى دراسة أوسع لا يتّسع لها مجال هذا البحث، بيد أننا نقول: إن تسمية كتاب عيسى بن عمر بـ (الجامع) تسمية لها دلالتها، ومن دلالتها أن الكتاب ليس سرداً أو حشداً لمسائل النحو من غير نظام، ولكنه عرض للنحو من خلال الترتيب والتنظيم، وفي ضوء التبويب والتقسيم.

---

(١) إنباه الرواة ٢/ ٣٧٥.

ومن هنا صحّت رواية محمد بن سلام الجمحيّ حينما قال: «إن عيسى بن عمر وضع كتابه على الأكثر، وبوّبه وهذّبه، وسمّى ما شذّ عن الأكثر لغات»[1].

ولهذا النص دلالة عظيمة على أن عيسى بن عمر لم يكن جامعاً فقط، وإنما صاحب منهج في هذا الجمع وفي هذا التأليف، ومن أبرز منهجه التبويب والتهذيب، وبناء القواعد على ما كثر من كلام العرب، وهي خطة علميّة أستطيع أن أؤكد أن سيبويه أفاد منها في كتابه، وسار على نهجها في تبويبه وتقسيماته.

وعلى هذا الأساس فرواية القفطي في أن كتاب سيبويه هو كتاب (الجامع) وأن لسيبويه في هذا الكتاب فضل الحواشي التي أضافها، وسرد المشكلات وأجوبتها التي توقّف فيها رواية تحتمل أن تكون مقبولة.

أقول: إن معنى هذا النص يدلّ على منطقية عيسى بن عمر في كتابه حيثما استطاع أن يحصل على مجموعة من القواعد المطردة على أساس الأكثر والأعم في كلام العرب وأنه بهذا الوضع أقام بناء القواعد التي انتفع بها من عاصره ومن جاء بعده، أما مجموعة الأساليب القليلة التي لا تندرج تحت هذه القواعد فقد سمّاها لغات ورماها بالشذوذ، لأنها خرجت عن اطراد القاعدة التي استخرجها واستنبطها من الكثير الغالب. في كلام العرب.

والدليل على ذلك ما قاله أحد العلماء لعيسى: «أخبرني عن هذا الذي وضعته في كتابك، أيدخل فيه كلام العرب كله، قال: لا، قلت: فمن تكلم خلافك واحتذى ما كانت العرب تتكلم به تراه مخطئاً؟ قال: لا، قلت: فما ينفع كتابك؟».

وهكذا كان عيسى بن عمر بمؤلفاته التي نخصّ منها كتابي: «الجامع» و«الإكمال» مرحلة متطورة في الدراسات النحوية، وأن سيبويه سواء أخذ كتاب الجامع وزاد عليه، أو لم يأخذه فمما لاشك فيه أن سيبويه انتفع انتفاعاً عظيماً في كتابه بالجامع لعيسى بن عمر من حيث التنسيق والتبويب، ومن حيث التنظيم والترتيب، ومن حيث المنهج والأسلوب، وبخاصة في البناء على الأكثر، ووصف ما قلّ على أنه لغات شاذة تحفظ ولا يقاس عليها.

---

(١) الإنباه ٢/ ٢٧٥.

٤ ـ كتب أبي عمرو بن العلاء

أبو عمر بن العلاء شيخ الرواة بدون منازع، وقد اختلف العلماء في اسمه، فمنهم من يقول: اسمه زبّان، ومنهم من يقول: اسمه أبو عمرو. وهذا الخلاف في رأيي يرجع إلى أن كثيراً من رجالات العلم والسياسة والحكم كانوا يحتفظون بالاسم بجانب الكنية ولا أدلّ على ذلك من أنّ أبا عمر نفسه ذكر أن اسمه: (زبان) حينما عاتب الفرزدق على هجائه، ثم ذكر أبو عمرو اسمه في مجال الكنية حينما سأله الأصمعي: ما اسمك؟ فقال: أبو عمرو: وفي كلتا الإجابتين إشارة إلى أنه يسمى بهاتين التسميتين[١].

وينتهي نسب أبي عمرو إلى اليأس بن مضر بن معدّ بن عدنان[٢]، وهو بهذه النسبة عربيٌ قح يلتقي نسبه بنسب الرسول ﷺ عند إلياس بن مضر.

وقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ولد بمكّة سنة ثمان أو خمس وستين[٣].

هذا، وكانت وفاة أبي عمرو في طريق الشام سنة أربع وخمسية ومائة[٤].

وقد أسهم أبو عمرو في التأليف النحوي واللغوي، لأن أبا عمرو كان جهاز استقبال كبير لمعارف عصره في مجال اللغة والشعر، والأدب، والقراءات، والنحو، ومن الصعوبة بمكان أن تحتفظ الذاكرة بهذا كله، لذلك نستطيع أن نقول: إن أبا عمرو كان يكتب ليعاود ما يكتبه فيعينه على حفظ ما يريد من مسائل العلم نحواً ولغةً وأدباً، وشعراً، وقرآناً، وتفسيراً[٥].

ولا أدل على ذلك مما رواه شعبة، فقد روى: «كنت أجتمع أنا وأبو عمر بن العلاء عند أبي نوفل بن أبي عقرب، فأسأله من الحديث خاصّة، ويسأله أبو عمر،

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.
(٢) انظر كتابي: الحلقة المفقودة في مناقشة نسب أبي عمرو واسمه وكنيته/ ١٨٧، ١٨٨.
(٣) معجم الأدباء ١١/١٥٦.
(٤) المصدر السابق/ ١٥٩.
(٥) طبقات النحويين/ ٤.

عن الشعر واللغة خاصّة، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمر، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه[1].

ولاشك أن الكتابة طريق التأليف، لأن المؤلف يرجع أثناء تأليفه إلى ما يكتب في المادة التي يريد التأليف فيها، ليستدل، ويبحث، ويناقش ويوازن، ويدقق إلى أن يبلغ ما يريد من تأليفه.

ولكثرة مؤلفاته قال عنه الرّواة: «كانت دفاتره ملء بيته إلى السقف قم تنّسك فأحرقها»[2].

على أن هذا التراث الذي التهمته النيران لم يذهب كله، فقد بقيت منه بقية انتفع بها العلماء الذين جاءوا من بعده: «فأبوا العباس ثعلب كان يروي عن أبي بجدة كتب أبي زيد، وعن الأثرم كتب أبي عبيدة، وعن أبي نصر كتب الأصمعّي، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه»[3].

ومن انتفع بكتب أبي عمرو يحيى بن المبارك اليزيدي اللغوي النحوي، فابن خلكان في كتابه: الوفيات) يذكر أن أبا حمدون الطبيب قال: شهدت بن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف مجلد عن أبي عمرو بن العلاء خاصة[4] وقد حدد أستاذنا المرحوم عبدالسلام هارون المجلد بعشر ورقات، فيكون ما كتبه اليزيدي عن أبي عمرو عشرة آلاف ورقة[5].

من هذه النصوص نستطيع أن نقول: إن أبا عمرو أسهم في التأليف النحوي واللغوي قبل أن يلد كتاب سيبويه، وإن رجلاً دفاتره كانت ملء بيته إلى السقف لهو رجل عاش للعلم، وقدم للأجيال اللاحقة ما يُنير لها الطريق، ويدفعها إلى التطور العقلي، والنمو الفكريّ.

---

(١) المزهر ٢/٣٠٤.

(٢) المعجم الأدباء ١١/١٦٠.

(٣) المزهر ٢/٤١٢، ٤١٣.

(٤) نقلاً عن تحقيق النصوص للأستاذ عبدالسلام هارون / ٢٢.

(٥) المرجع نفسه والصفحة.

والناظر إلى كتاب سيبويه يرى أنه انتفع بعلم أبي عمرو انتفاعاً عظيماً، وأفاد منه فوائد متعددة.

وطرق الأخذ عن أبي عمرو في كتاب سيبويه متنوعة، فتارة بنقل مسائله النحوية المنسوبة إلى أبي عمرو عن طريق يونس، وما أكثر عباراته في الكتاب حول هذا الأخذ، وهي عبارات تتكرر كثيراً حيث يعقب على كل ما ينسبه إلى أبي عمرو بقوله: «وهو قول أبي عمرو - حدثنا يونس عن أبي عمرو»[1].

وهناك آراء نسبها سيبويه إلى أبي عمرو مباشرة، وليست عن طريق يونس وفي رأيي أن المسائل النحوية التي نسبت إلى أبي عمرو مباشرة هي آراء لأبي عمرو أخذت من كتبه، ومما يقوي هذا الرأي ما ذكره السيوطي في (المزهر) عند حديثه عن أبي عبيد القاسم بن سلام إذ قال) «وسمع من الفراء، والأمدي، والأحمر، وأبي عمرو - وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع، إنما هو من الكتب»[2].

ولا نستطيع في هذه المساحة الضيقة من البحث أن نجمع، أونشير إلى تلك المسائل النحوية أو اللغوية التي أخذت عن أبي عمرو بطريق مباشر، وإنما نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١ ـ «كان أبو عمرو لا يصرف سبأ، يجعله اسماً للقبيلة»[3].
٢ ـ «وكان أبو عمرو يقرأ: خاشعاً أبصارهم»[4].
٣ ـ قال أبو عمرو: يا ويلٌ لك، ويا ويخ لك»[4].

وهكذا أثر أبو عمرو بمؤلفاته وعلمه في كتاب سيبويه الذي يعتبر الأساس النحوي العظيم لكل النحويين.

---

(١) انظلا مثلاً: سيبويه ١/٤٠٢، ٤٠٥، ٢/٩٦، ١١٣، ٣٨٧ الخ.
(٢) المزهر ٢/٤١٢.
(٣) الفلم ٤٣، المعارج ٤٤، وانظر سيبويه ٢/٤٣.
(٤) سيبويه ٢/٢١٨، ٢١٩.

٥ ـ كتاب القياس ليونس بن حبيب

يونس بن حبيب علم من أعلام النحو واللغة قبل سيبويه، وهو من تلامذة أبي عمرو بن العلاء الذين شربوا من منهله، وارتشفوا من معينة. وقد ذكر الرواة أن يونس توفي في سنة ثلاث وثمانين ومائة، وعاش ثماني وثمانين سنة، ولم يكن له هم في حياته إلا أن يعيش في رحاب العلم ليقطف من ثماره، وقد أشار إلى ذلك ابن النديم في الفهرست حيث قال: «ولم تكن له همة إلا طلب العلم، ومحادثة الرجال»(١).

وكان ليونس حلقة انضم إليها كبار اللغويين والنحويين فيما بعد أمثال الكسائي والفراء، ومروان بن سعيد.

ومن الطرائف التي رواها الفراء وهو في حلقة يونس ما رواه الحريري في (درّة الغوّاص) حيث قال: «حكى الفراء قال: قال أعرابي، ونحن في حلقة يونس بن حبيب بالبصرة: أين مسكنك؟ فقلت الكوفة، فقال لي: يا سبحان الله ! هذه بنو أسد بين ظهرانيكم، وأنت تطلب اللغة بالبصرة. قال: [أي الفراء] فاستفدت من كلامه فائدتين: إحداهما: أنه قال: «هذه»، ولم يقل: «هؤلاء»، لأنه أشار إلى القبيلة فأنث، والثانية أنه قال: «ظهرانَيْكم» بفتح النون، ولم يقله بكسرها»(٢) على أية حال كانت نحن لا ننكر أن هذه الحلقة كانت مدرسة يدوّن تلاميذها كل ما تلقوه عن يونس، وكل ما صدر في هذه الحلقة من محاورات ومناقشات، وإذا كان تلاميذ يونس يسجلون عن شيخهم في دفاترهم مادار من مسائل لغوية أو نحوية في هذه الحلقة مما أسهم فيها بعد بدراسات نحوية ولغوية استقبلها سيبويه في كتابه، وبني عليها أصولاً وفروعاً، ومسائل وقضايا، فهل أسهم يونسُ نفسه في مؤلف نحوي نسب إليه، كما نسب إلى أبي عمرو شيخه مؤلفات ملأت بيته حتى السقف، وكما نسب إلى عيسى بن عمر الذي احترقت كتبه، ولم يبق منها إلا كتاباً: «الجامع» و(الإكمال) كما أشرنا من قبل؟

---

(١) الفهرست ١/٣٣.

(٢) درّة الغوّاص/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

يجيب عن هذا التساؤل (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الأدب العربي) حيث ذكر أن ليونس كتاب: (القياس في النحو)[1].

وقد أنكر نسبة هذا الكتاب ليونس الدكتور حسين نصار حيث علق على الخبر الذي ساقه (بروكلمان) بقوله: «ولكنه لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في هذا القول، ولم أعثر على من أشار إلى ذلك، واعتقد أن التأليف في القياس في عصر يونس غريب وغير متوقع، فقد تنبه الناس إلى القياس، وأكثروا من التحدث عنه في الجيل الثاني ليونس، أي جيل تلاميذه بعدما وقع الخلاف بين العلماء في البصرة والكوفة، وأخذ الناس يحسون أن كلاً من الفريقين يختلف عن الآخر في منحاه ونهجه»[2].

وفي هذا التعليق نظر، لأن شيوخ يونس أمثال: عبدالله بن أبي إسحاق، وأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر قد تكلموا في القياس، ونظروا إليه حينما أسسوا القواعد وبنوا الأصول، فعبدالله بن أبي إسحاق يذكر الرّواة والمؤرخون عنه: أنه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو»[3].

وقد قال الزبيدي عن عبدالله بن أبي إسحاق: إنه «أول من بعج النحو، ومدّ القياس وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس في النحو»[4].

وأوضح دليل على أن يونس كان ينحو نحو من سبقه في القياس ما ذكره ابن سلّام إذ يقول: «قلت أنا ليونس: هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئاً قال: نعم قلت له: هل يقول أحد الصويق ـ يعني ـ السويق؟ قال: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد إلى هذا، عليك بباب من النحو يطرد وينقاس[5].

وقد لمح هذا الاتجاه القياسي ليونس الأستاذ الدكتور شوقي ضيف إذ يقول: «وبذلك غدا يونس في نحوه وما وضعه من أقيسة أمة وحدة، وتنبه إلى ذلك

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ١٣٠.
(٢) يونس بن حبيب للدكتور حسين نصار/ ٦٣.
(٣) نزهة الألبا/ ١٢.
(٤) طبقات النحويين واللغويين/ ٣٢.
(٥) المصدر نفسه والصفحة.

القدماء، فقالوا: كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرد بها»[1].

وبعد، لسنا في جاجة بعد هذه النصوص التي قدمناها إلى القول بإنكار تأليف يونس لكتاب القياس، لأن حركة القياس مبكرة كما قلت، ولأن النصوص النحوية التي نسبها سيبويه إلى يونس تثبت في وضوح أن ممارسة القياس كانت من منهج يونس وشيوخه . .

٦ ـ كتاب الجمل للخليل بن أحمد

الخليل بن أحمد صاحب العريتة والعروض، وهو أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها، وكان آية في الذكاء، وكان الناس يقولون: «لم يكن في العربيّة بعد الصحابة أذكى منه». وقال عنه النضر بن شميل: «أقام الخليل في خص بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال». هذا وقد توفي الخليل سنة ١٧٥هـ[2].

وقد وفق الله الأخ الفاضل الدكتور فخر الدين قباوة لتحقيق كتاب (الجمل) للخليل بن أحمد[3].

وقد وصف المحقق هذا الكتاب بقوله: «إنه كتاب صغير الحجم، . . يحمل بين دفتيه ألواناً من العلم متميّزة، ولمحات من الفكر قديمة مستجدّة، ونماذج من النظرات النحوية واللغوية والبيانية تقتضي الاهتمام والتدقيق والتحرير. . .

وهو يقدّم عدداً وفيراً من المصطلحات في الإعراب والصرف والأدوات، بعضه غريب كل الغرابة، لا تجد صدى في الكتب القديمة والمتأخرة والمعاصرة، وبعضه الآخر حمل في التاريخ دلالات انقرضت أو خالفت ما عرفه النحو في مذاهبه، واتجاهاته، ورجالاته.

---

(١) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف/ ٢٨.

(٢) البغية ١/٥٥٧ ـ ٥٥٨.

(٣) نشرته مؤسسة الرسالة بيروت.

وهـو يروي عشرات من الشـواهد الشعـرية في مسـائـل الإعـراب، ومعـاني الحـروف، لا نجد لهـا موئـلاً، أو لروايتهـا مصـداقـاً في مصـادر النحـو والشعـر، ومـراجعها المعـروفة أو لا نستـطيع تحقيق نسبهـا، أو تحديـد أصحابهـا من الشعراء والرجّاز»[1].

ويبدو أن المحقق من خلال هذا الوصف غـير مطمئن إلى نسبـة هذا الكتـاب للخليـل، أو بعبارة أخـرى هناك سحب من الشـك تخيم عـلى نسبـة هـذا الكتـاب للخليل.

ولهذا، فإننا ما نكاد نمضي في قراءة مقـدمة المحقق حتى نفـاجأ بـالمحقق يعلن رأيـة في صراحة بقـوله: «الحق أن حيـاة هذا الكتـاب يشوبهـا الغمـوض والأهمـال والتوهين، فأنت ترى من المؤرخين القدماء والمعاصرين إزوراراً عنه، واستخفافـاً به حتى لتلقاهم غالباً ما يغفلون ذكره أو الإشارة إليه، فإذا اضطرتهم طبيعة مصنفـاتهم إلى التعرض له أحاطوه بالطعن في النسب»[2].

ومن المؤرخـين الذين نسبـوا هذا الكتـاب للخليل السيـوطي في (البغيـة)[3] وياقوت في (معجم الأدباء)[4].

وفي ترجمة أحمـد بن الحسين المعـروف بـ (ابن شقير) المتـوفي في صفر ٣١٧هـ ينكر ياقوت في صراحة ووضـوح نسبة هـذا الكتاب للخليـل، وينسبه لابن شقـير. يقول ياقوت: «قرأت في كتاب ابن مَسْعَدة: أن الكتـاب الذي ينسب إلى الخليـل، ويسمى: (الجمـل) من تصانيف ابن شقـير هذا. قـال: يقـول فيـه: النصب عـلى أربعين وجهاً»[5].

وفي رأيي أن هذا الكتاب نسبته إلى الخليل لا تستريح إليها النفس للأسبـاب التالية:

---

(١) الجمل في النحو: مقدمة المحقق ٥ ـ ٦.
(٢) المرجع نفسه/ ٨.
(٣) البغية ١/ ٥٦٠.
(٤) ١١/ ٧٤.
(٥) معجم الأدباء ٣/ ١١.

١ ـ اختلاف الرواة والعلماء في اسم الكتاب، وهذا الاختلاف ذكره المحقق في مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب حيث ذكر أنه توجد من هذا الكتاب نسخة في مكتبة بشير أغا باستانبول تحت اسم: (جمل الإعراب).

وبروكلمان يذكر في كتابه: (تاريخ الأدب العربي) باسم: (كتاب فيه جملة آلات العرب) ومحمد محسن الطهراني (المتوفى ١٣٨٩) يزعم أن اسمه (النفط والشكل).

٢ ـ الاختلاف في المؤلف من حيث الاسم والكنية. فالكتاب الذي تحتفظ مكتبة بشير أغا باستانبول تنسبه إلى الإمام أبي عبدالله الخليل بن أحمد مع أن كنية الخليل هي: أبو عبدالرحمن.

والحرّ العامليّ مؤلف كتاب: تذكرة المتبحرين في ترجمة سائر العلماء والمتأخرين ينسبه إلى الخليل بن الغازي القزويني المتوفى ١٠٨٩هـ.

والدكتور رمضان ششن حينما نعرض لنوادر المخطوطات العربية في تركيا «وقف كما يقول المحقق ـ أمام نسخة بشير أغا من كتاب (الجمل) حائراً في تحقيق اسم مؤلفها، ورأي أخيراً أنه الخليل بن أحمد أبو عبدالله المتوفى سنة ٣٧٩هـ وزعم أن المسائل المتفرقة التي ألحقها بها الناسخ من كتب مختلفة. هي جزء متمم للكتاب وهي للخليل هذا أيضاً».

٣ ـ ويشير المحقق إلى أن سعد أحمد سعد أعدّ رسالة للماجستير في كلية اللغة العربية بالأزهر سنة ١٤٠٠هـ قام فيها بتحقيق الجمل جزم أن مصنف الكتاب هو ابن شقير، لأن بعض المصطلحات والتوجيهات فيه هي للكوفيين، ولا يعقل أن ينقل الخليل عنهم»[(١)].

وفي رأيي بعد هذه الأدلّة التي ذكرتها ملخصة من عرض المحقق لهذا الكتاب في مقدمته من ناحية توثيق الكتاب، وتوثيق المؤلف معاً، في رأيي أن كتاباً يحمل في نفسه، وفي اسمه وفي اسم مؤلفه الشك لا يمكن أن ينسب إلى الخليل بن أحمد مع أن الخليل كان أستاذ سيبويه، ومعظم ما في الكتاب من آراء الخليل، وإذا كان

(١) ملخص من مقدمة المحقق.

سيبويه يعلم أن للخليل كتاباً، فلماذا يتلقى عن الخليل النحو بسؤاله المشهور المتكرر في كل صفحات الكتاب: «وسألت الخليل» «وسألته» لماذا هذا المجهود الجبار الذي بذله سيبويه في مجال التلقي عن الخليل مادامت آراء الخليل مسجلة في كتاب، ومقيدة في مؤلف، ومحضورة في مصنف.

ولهذا كان أبو بكر الزبيديّ اللغوي على صواب كبير حينما نفى عن الخليل التأليف في النحو اكتفاء بما قدّمه لسيبويه من هذا العلم الغزير الذي بلغ فيه الخليل الغاية، وتجاوز الحدّ.

قال الزبيدي: «وهو الذي بسط النحو، ومدّ أطنابه، وسبّب علله، وفتّق معانيه، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً، أو يرسم منه رسماً، نزاهة بنفسه، وترفّعاً بقدره، إذْ كان قد تقدّم إلى القول عليه، والتأليف فيه، فكره أن يكون لمن تقدّمه تالياً، وعلى نظر من سبقه محتذياً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، ولقّنه من دقائق نظره، ونتائج فكره، ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه، وتقلّده، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخّر بعده»[1].

وقبل أن نترك هذه النقطة من البحث أشير إلى أن هناك كتباً نحوية أخرى نسبت إلى الخليل، شك في نسبتها إليه العلماء اللغويون والرّواة، فقد ذكروا أن له كتاب (العوامل) الذي ينص القفطي على أنه ليس للخليل بل هو متحول عليه[2].

وهناك كتاب آخر نص ياقوت في معجم عليه، وبيّن أنه يسمّى كتاب (الشواهد)[3] ولا ندري هل كتاب الشواهد هذا: أهو في شواهد اللغة أو في شواهد النحو أو في كليهما؟

وفي رأيي أن كتاب (الشواهد) من المحتمل أن يكون للخليل، لأنه كان على صلة في البادية بالأعراب بنقل مما أخذ عنهم، وهذا النقل لهذه الشواهد يصعب أن

---

(١) المزهر ١/ ٨٠.
(٢) الإنباه ١/ ٣٤٦.
(٣) معجم الأدباء ١١/ ٧٤.

تسجّله الذاكرة على صفحاتها، لأن كلام العرب وأشعارها في هذه الفترة سجلها أساتذة الخليل على قراطيس خوفاً من تفلّتها من الذاكرة، يدل على ذلك أن عيسى بن عمر كان يسجل الشعر، ويؤلف الكتب مع أنه سبق الخليل تاريخياً.

قال أبو عبيدة: قال عيسى: كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائي، أي وسطي»[١].

٧ ـ الفيصل لأبي جعفر الرؤاسي:

أوائل المصنفات في النحو الكوفيّ:

هذه الجولة التي قمت بها في محيط أوائل المصنفات في النحو البصريّ المتمثل في رجاله العظام الذين أسسوا النحو العربي ابتداء من أبي الأسود وانتهاء بيونس بين حبيب ـ وجهت قلمي نحو جولة أخرى في البحث عن أوائل المصنفات في النحو الكوفي قبل أن يطالعنا سيبون بكتابه الذي استقرت على صفحاته قواعد النحو بكل فروعها، وبهذا الكتاب اكتمل البناء ووضعت الأصول.

ومعظم المؤرخين يقررون أن الجذور الأولى للنحو الكوفي ظهرت على يد أبي جعفر الرؤاسي شيخ الكوفيين.

وأبو جعفر الرؤاسي ترجم له بن النديم في (الفهرست) بقوله: «قرأت بخط أبي الطّيب أخي الشافعي قال: اسم الرؤاسي: محمد بن أبي سارة، ويكنى أبا جعفر[٢].

والفيروز ابادي في (البلغة) وذكره باسم: حازم أبي الرؤاسي[٣] وبهذا الاسم سماه السيّوطي في (البغية)[٤]. وفي حرف الميم من البغية ذكره السيوطي باسم:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين/ ٤٢.
(٢) الفهرست /٦٤.
(٣) البلغة / ٤٩.
(٤) البغية ١ / ٨٣.

محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي النيلي وفي (طبقات النحويين) ذكره الزبيديّ بكنيته فقط، فقال: هذا أبو جعفر وأغفل اسمه[1] .

والناظر إلى هذه المصادر يجد أن معظمها متفق على أن اسمه: محمد بن الحسن ابن أبي سارة، وانفرد بتسميته حازماً السيوطي في رواية من رواياته ولعل السيوطي نقل هذه التسمية عن الفيروزابادي في (البلغة). هذا وقد أغفلت معظم كتب الطبقات سنة وفاته غير أن ياقوت في معجمه ذكر أنه توفي في خلافة الرشيد[2].

ومن أهم الشيوخ الذين تلقىّ عنهم عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء وكلاهما من رؤوس علماء البصرة المعدودين.

ومن أشهر تلاميذه الكسائي والفراء كما نصت على ذلك كتب الطبقات التي ترجمت له، ولا أريد أن أكرر القول في أن أبا جعفر الرؤاسي هو المؤسس الأول للمذهب الكوفي، لأن هذه القضية تناولتها في كتابي (الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي) الذي تقوم بطبعه طبعة ثانية مؤسسة الرسالة ببيروت حيث قررت إضافة النحو الكوفي إليه بعد أن كان مقصورا في طبقته الأولى على النحو البصري فقط أقول: لا أريد أن أكرر القول في هذه القضية، لأن رجلاً كأبي جعفر يأخذ النحو عن ابن عمرو، وعيسى بن عمر، ويدخل البصرة مرتين، ويأخذ عن أهلها فإنّ هذا يدل على أنه استقى منهم ـ وأفاد من نحوهم، وكوّن له منهجاً خاصاً في دراسته النحوية ـ جدير بأن يكون بحق المؤسس الأول لهذا المذهب الكوفي.

ومما يدلل على منزلة الرؤاسي في الدراسة النحوية أن له كتاباً مشهوراً هو كتاب الفيصل:

كتاب الفيصل

قال ياقوت في معجمه عنه: «إن ثعلب زعم أن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو أبو جعفر الرؤاسي»[3].

---

(١) طبقات النحوية / ١٢٥.
(٢) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٣) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢.

ويبدو أن هذا الكتاب كان موضع تقدير عند الكوفيين، وهو الذي أشار إليه ثعلب بقوله: «وكان له كتاب معروف عندهم يقدمونه[1]».

على أن المبرّد لم يكن على علم تام بهذا الكتاب، فلم يره، وإنما سمع عنه يدل على ذلك قوله: «وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو، فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا، فلم يلتفت إليه، ولم يجرؤ على إظهاره لما سمع كلامهم[2]». وإنكار المبّرد لكتاب (الفيصل) ليس دليلاً واضحاً على أن الرؤاسي لم يؤلف هذا الكتاب، لأن المبرد بنفسه ذكر أنه سمع عنه، ولم يره، وعدم الرؤيا ليس دليلاً على عدم الوجود، ولأن ابن النديم في (الفهرست) قرّر أن هذا الكتاب رواه جماعة[3]».

ويروي محمد بن اسحاق في الكتاب الذي ألفه في سنة ٣٧٧هـ رواية تقول: «كتاب الفيصل رواه جماعة، وهو يروي إلى اليوم»[4].

علاقة الخليل بكتاب (الفيصل)

وضّح هذه العلاقة ابن النديم في (الفهرست) فذكر فيما ذكر أن أبا جعفر الرؤاس قال: «بعث إلي الخليل يطلب كتابي، فبعثت به إليه فقرأه ووضع كتابه»[5].

وفي كتابي الحلقة المفقودة ناقشت الدكتورة الزميلة الفاضلة خديجة الحديثي التي أنكرت كل الانكار أن يكون الخليل قد أفاد من كتاب (الفيصل) مع تسلميها بوجوده وإنما الذي أفاده الخليل من أبي جعفر الرؤاسي هو كتاب آخر للرؤاسي لغوي لانحوي، والرواية التي ذكرها ابن النديم لم تحدّد بالذات كتاب (الفيصل) ولم تقل: «إنه كتاب الفيصل كما لم تنص على أنه قال: «كتاب في النحو مثلا» ومعنى

(١) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢.
(٢) المصريفة / ١٢٣.
(٣) الفهرست / ٦٤.
(٤) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٥.
(٥) الفهرست / ٦٤.

هـذا إنه قـد يكون للرؤاسي كتـاب في النحو هـو (الفيصل) إلا أن لـه كتباً نحـويـة أخرى، وأن الخليل أخذ عنه أحد كتبه، ووضع عليه كتـابه (العـين) ولم يذكـر أحد أن للخليل كتاباً معروفاً في النحو، فالنص على كتابه [أي في رواية ابن النديم] يعني (العـين) فيـما أذهب إليـه، ومعنى أن الخليـل هـو المستفيـد[1]. وكـانت منـاقشتي للدكتورة الفاضلة في كتابي الحلقة المفقودة تقوم على ما يأتي:

أولاً: قضية تأليف الخليل (العين) ما زالت قضيته غـامضة في التـاريخ، فكثير من الرواة ينكرون نسبة كتاب (العين) للخليل بأدلة متعددة لا يستوعبها هذا البحث.
ثانياً: لو فرض أن الخليل أفاد من المؤلفات اللغويـة للرؤاسي من حقنا أن نتسـاءل: ما المؤلفات اللغوية التي ألفها الرؤاسي؟
مؤلفاته التي نسبهـا إليه الـرؤاة والتي سنسردها بعـد قليل - إن شـاء الله - ليس فيها كتـاب ينسب إلى اللغة إلا كتـاب (التصغير) الـذي نصت عليه المصـادر المتعـددة. فكيف تفترض إذاً الدكتورة خديجة أن له كتباً في اللغة أفاد منها.

ثالثاً: تنفي الدكتورة خديجة أن يكون للخليل كتاب معروف في النحـو حينما نصت على ذلك بقـوله: «ولم يـذكر أن للخليـل كتابـاً معروفـاً في النحو»[2] وفـات الزميلة الفاضلة أن كثيراً من المصادر التاريخية التي ترجمت للخليل نصت على أن له كتاباً في النحو هو (الجمل).

ومناقشتي لنسبة هذا الكتاب للخليل وميلي إلى نفي هذه النسبة عنـه فيما سبق عند تعرضي للحديث عن الجمل، ليس معنـاه أن الأدلة قـاطعة في هـذا النفي وإنما هو مجرّد احتـمال، واجتهاد خـاص، تؤيده القـرائن، وتعاضـده الدلائـل هذا وقـد ذكرت كتب الطبقات التي ترجمت للرؤاسي أن له كتباً أخرى وهي:

٢ ـ كتاب الجمع والإفراد.
نص على نسبة هذا الكتاب إلى أبي جعفـر الرؤاسي «الـزبيدي» في طبقـاته[3]

(١) المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي / ١٥٩.
(٢) المدارس النحوية / ١٥٩.
(٣) طبقات النحويين واللغويين / ١٢٥.

ولم يرد ذكر هذا الكتاب في معجم الأدباء لياقوت مع أنه نص على أن له كتباً أخرى وهي :

٣ ــ كتاب (معاني القرآن).

٤ ــ كتاب (التصغير).

٥ ــ كتاب (الوقف والابتداء الكبير).

٦ ــ كتاب (الوقف والابتداء الصغير)[١].

هذا وقد أثبت له ابن النديم في (الفهرست)، وابن الأنباري في (نزهة الألبّاء) كتاب (التصغير) وكتاب (معاني القرآن) وذكر أنه يروي إلى اليوم كما أثبتا له أيضا كتابي (الوقف والابتداء الكبير)، وكتاب (الوقف والابتداء الصغير)[٢]. وهناك كتاب لم يرد ذكره في المصادر السابقة، ذكر في (شرح الفصيح) لأبي هلال العسكري، وهو:

٧ ــ كتاب النوادر: فقد نقل عنه: «قدرت على الشيء أقدر»[٣].

٨ ــ مؤلفات الكسائي النحويّة

علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان الإمام أبو الحسن الكسائي.

من أهل الكوفة، واستوطن بغداد، وسميّ الكسائي، لأنه أحرم في كساء وقيل لغير ذلك.

ويروي السيوطيّ في (البغية) عن الخطيب قوله : إن الكسائي « تعلّم النحو على كِبَرَ ، وسببه أنه جاء إلى قوم وقد أعيا ، فقال : قد عييت ، فقالوا له : تجالسنا وأنت تلحن ! ، قال : وكيف لحنت ؟ » قالوا : إن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل : عييت ، وإن أردت من التعب فقل : أعييت . فأنف من هذه الكلمة ، وقام من فوره ، وسأل عمّن يعلم النحو ، فأرشد إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفذ ما عنده ، ثم خرج إلى البصرة . فلقي الخليل وجلس في حلقته ، فقال له رجل من الأعراب :

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٥.

(٢) الفهرست / ٦٤، ونزهة الألباء / ٥٥.

(٣) انظر ابن درستويه / ١٨١ للأستاذ عبدالله الجبوري. مطبعة العاني ببغداد.

تركت أسد الكوفة وتميماً وعندهما الفصاحة ، وجئت إلى البصرة ! فقال للخليل من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج ورجع ، وقد أنفد خمس عشرة قنّينة حِبْراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ فقدم البصرة ، فوجد الخليل قد مات ، وفي موضعه يونس ، فجرت بينهما مسائل أقرّ له فيها يونس ، وصدّره في موضعه »[1].

ومات الكسائي بالرّي هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكانا خرجا مع الرشيد فقال : دفنت الفقه والنحو في يوم واحد ، وذلك سنة اثنتين أو ثلاث وقيل تسع وثمانين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وتسعين[2].

هذا وقد أسهم الكسائي بمؤلفات عديدة نذكر منها المؤلفات النحوية الآتية :

العَدد ـ المصادر ـ مختصر في النحو[3]:

وهذه المؤلفات المنسوبة للكسائي تجعلنا نشك في رئاسته للمدرسة الكوفية لأنها مؤلفات في موضوعات معينة من النحو لا تستوعب كل مسائلة ، ولا تتناول جميع قضاياه .

وكتابه (المختصر في النحو) اسمه يدل على معناه ، ليس فيه من التقريع والتعليل والتحليل والشواهد ما يتفق مع هذا الاختصار .

ولا أدري كيف تكون هذه المؤلفات الكسائية مؤهلة الكسائي ليكون عميد المدرسة الكوفية كما يقرّر أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، لأن منافسه الآخر وهو أبو جعفر الروّاسي لا يستحق هذه العمادة لأنه مطروح العلم وليس بشيء[4].

ويبدو أن أستاذنا اعتمد على رواية أبي حاتم في التقليل من شأن الرؤاسي فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه «كان بالكوفة نحويّ يقال له : أبو جعفر الرؤاسيّ وهو مطروح العلم ليس بشيء»[5].

---

(١) البغية ٢/١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) البغية/ ٢/١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) المصدر السابق والصفحة .

(٤) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف/ ١٥٤ .

(٥) معجم الأدباء ١٨/١٢٥ .

ومن العجب أن هذه الرواية التي اعتمد عليها أستاذنا انفرد بها ياقوت في معجمه ولم أجدها في أي مصدر من المصادر التي ترجمت للرؤاسيّ ، وهي في نظري رواية منشؤها التعصب للبصريين . ونقد من لمع من الكوفيين ، وقد أشرت فيما قبل إلى رواية المبّرد بصدد هذا الكتاب الذي سمع عنه ولم يره وهو كتاب (الفيْصل) .

ورواية كرواية أبي حاتم تقلل من شأن رجل له مكانته في النحو العربي لا تقبل في مجال العلم ، لأنها رواية شخص واحد ، لا يشاركه أحد فيها من رجالات عصره ويضيف أستاذنا دليلاً واقعيّاً في نظره وهو على حدّ قوله : « إنه لم يدل في النحو بآراء ذات قيمة بدليل أن اسمه لم يرد في كتب النحاة التالية لعصره »[1] .

وفي رأيي أن ما ذكره أستاذنا الفاضل لا تسلّم به ، لأن لأبي جعفر الروّاسي آراء نحوية دارت في كتب النحاة الذين جاءوا بعده[2] . وقد أشرت في الهامش إلى بعض المصادر النحوية التي سجلت على صفحاتها آراء نحوية لأبي جعفر الرؤاسي ومالي أذهب وقد ذكر الروّاة أن كل ما في كتاب سيبويه : وقال الكوفيّ كذا فإنما عني بالرؤاسيّ هذا »[3] .

وقال ابن درستويه : « زعم جماعة من البصريين أن الكوفيّ الذي ذكره الأخفش في آخر المسائل ويردّ عليه هو الرؤاسي »[4] .

لهذا فإني استريح إلى رأي الأستاذ أحمد أمين في تحرّجه أن يجعل الكسائي المؤسس الأول للنحو الكوفي ، وقال كلمة منصفة بهذا الصدد خلاصتها : أن مؤسس مدرسة الكوفة ، ليس الرؤاسيّ وحده ، ولا الكسائي وحده ولا الفرّاء وحده ، وإنما قام التأسيس بجهود هؤلاء الرجال الثلاثة معاً بدون تفرقة بين جهد وجهد ، فالكل كانوا كوفيين ، وبتعاونهم وجهودهم في الدراسات النحوية تأسست مدرسة الكوفة ، يقول ما نصه :

---

(١) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف/ ١٥٤ .

(٢) انظر القرطبي ٢٣٦/٦ ، وهمع الهوامع ٩١/٤ ، ٢٧/٥ ، وكتاب المذكر والمؤنث ١٢٣ ـ ١٢٤ ، وخزانة الأدب للبغدادي ٥٥١/٣ .. الخ .

(٣) البغية ٨٢/١ ـ ٨٣ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

« ونشأت بالكوفة مدرسة على رأسها أبو جعفر الرؤاسيّ ، وتلميذاه الكسائي والفرّاء » . . إلى أن يقول : « وبدأت في ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة ، ثم بدأ الخلاف بين الرؤاسيّ في الكوفة والخليل في البصرة ، ثم اشتدّ بين الكسائي وسيبويه في البصرة »[1] .

مؤلفات أخرى للكسائي :

وللكسائي مؤلفات أخرى غير ما ذكرنا سابقاً ، ولكنها ليست في صميم النحو وإن كان النحو مادّة حيّة فيها ، من هذه المصنفات :

أ ــ كتاب معاني القرآن :

ذكر هذا المصنف الخطيب (في تاريخ بغداد) فقد نقل عن أبي عمرو والدوري أنه قال : « قرأت هذا الكتاب في مسجد الورَاقين ببغداد على أبي مِسْحل ، وعلى الطوال ، وعلى سلمة وجماعة .

قال الدوري : قال أبو مسحل : لو قرىء هذا الكتاب عدّة مرّات لاحتاج من يقرؤه أن يقرأه »[2] .

هذا وقد نصّ ياقوت في معجمه أن أن الطبري أفاد من كتاب (معاني القرآن) للكسائي لأن مافي كتاب تفسير الطبري من « مجموع الكلام والمعاني من كتاب علي بن حمزة الكسائي ، ومن كتاب يحيى بن زياد الفرّاء ، ومن كتاب أبي الحسن الأخفش ومن كتاب أبي عليّ قطرب وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه ، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون في المعاني ، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه ، وربمَا لم يسمّهم إذا ذكر شيئاً من كلامهم »[3] .

وهذا النص يشير في وضوح أن الكسائي أول من ألفَ في « معاني القرآن » بعد أستاذه أبي جعفر الرؤاسي الذّي له كتاب بهذا الاسم[4]، ولا شك أن كتب معاني

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٩٤ .
(٢) تاريخ بغداد ١١/٤١١ .
(٣) معجم الأدباء ١٨/٦٥ .
(٤) البغية ١/٨٣ .

القرآن لا تخلو منها الدراسات النحوية واللغوية بل لا أبالـغ إذا قلت : إن السمّة البارزة لهذه الكتب تتمثل في هذه الدراسات .

ويبدو أن كتب الكسائي كانت محور دراسة وبحث بين المتعلمين والدارسين ، فقد ذكروا أن سلمة بن عاصم وهو من تلاميذ مدرسة الكوفة طلب من خلف الأحمر أن يقرأ عليه كتاب (العدّد)[١]، وقد أشرنا من قبل أن كتاب (معاني القرآن) كان يدرّس في مسجد الورّاقين ببغداد على يد أبي مسحل والطوال وسلمة وجماعة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الكسائي كان له كتاب نحويّ شقّ طريقه إلى الأندلس على يد « جوديّ بن عثمان العبسيّ الذي كان يؤدب أولاد الخلفاء بالعربيّة وقد رحل إلى المشرق ، وأخذ عن الرياشيّ والفرّاء ، والكسائي ، وأدخل كتابه إلى الأندلس ، وتوفي سنة ١٩٨هـ »[٢].

وعلى الرغم من أن الكسائي نسب إليه المحدثون أنه إمام مدرسة الكوفة ، وأن هذه المدرسة يعتبر المؤسس الأول لها فإن بعض اللغويين يتهمونه بأنه أفسـد النحو العربيّ لأنه « صار إلى بغداد فلقي أعراب الحطيميّة فأخـذ عنهم الفساد من الخـطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله »[٣]. وأنه ضعيف في النحو فقد « قال أبو العباس : « حدثني سلمة قال : قال الفراء : مات الكسائي وهو لا يحسن حدّ نِعمْ وبئس ، ولا حد أن المفتوحة ولا حدّ الحكاية »[٤].

وبعد ، فهذه أوائل المصنفات التي ظهرت في حقل النحو العربيّ قبل كتاب سيبويه سواء أكانت بصريّة أو كوفيّة ، كل ما أريد أن أصل إليه هو أن هذه المؤلفات كان لها أثر كبير في تطوّر الدراسات النحوية من ناحية ، سواء كان لها أثر آخر في صناعة كتـاب سيبويـه الذي استقبـل صاحبـه هذا الفيض من الـدراسات، ونسّقـه بعقله ونظمه بفكره، وبوّبه بحكمته، وفصّله بذكائه، وكان بحق أول كتاب نحويّ خلدَه التاريخ، تستقبله الأجيـال جيلاً بعـد جيل، وزمنـا بعد زمن، وهـو ثابت البنيـان،

(١) الأبناه ٢/٥٦ .
(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/٣٣٢ .
(٣) معجم الأدباء ١٣/١٨٣ .
(٤) المصدر نفسه/ ١٨٣ .

قويّ الأركان، يطل بوجهه في كل قضـايا اللغـة والنحو بحيث من ابتعـد عن معينه ضل، ومن شرب من غير مورده ظمىء، وسنخصه بالحديث في إيجاز إيماناً منا بأن هذا الكتاب أخذ حقه من الدراسة والبحث، وسنكتفي فقط بالخطوط العـريضة في مجاله، لأن مسيرة النحو قبله ألقت رحالها في ميدانه، واستقر بها النوّى.

٩ ــ كتاب سيبويه

لا نستطيع أن نترجم لسيبويه في هذا البحث الذي يتناول النقاط الرئيسة في حقل أوائل المصنفات أو المؤلفات ، لأن سيبويه كان موضع دراسة وبحث في ظلال كتابه الخالد عبر القرون .

وقد أشبع القول فيه أستاذنا المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون في مقدّمة تحقيقه لكتاب سيبويه كما أفرد سيبويه بمصنف خاص أستاذنا المرحوم الأستاذ علي النجدي في كتابه : (سيبويه إمام النحاة)[(١)]، فضلاً عن المصادر الأساسية التي تولت التعريف به ، وهي مصادر الطبقات، لهذا، فإني أكتفي فقط بذكر الخطوط العريضة عن سيبويه وكتابه .

أما سيبويه فهو : عمرو بن عثمان بن قَنْبر إمام البصـريين ، وحـامل لـواء النحو ، وذكر السيّوطي في (البغية) أن « أصله من البيضاء من أرض فارس ، نشأ بالبصرة وأخذ عن الخليل ويونس ، وأبي الخطاب الأخفش ، وعيسى بن عمر »[(٢)].

ولمنزله سيبويه عند أستاذة الخليـل ذكر بعض النحـويين أنـه قال: كنت عنـد الخليل، فأقبل سيبويه، فقال: مرحباً بزائر لا يمل، قال: وما سمعت الخليل يقـولها لغـيره»[(٣)] ولا شك أن هـذا يدل عـلى منزليـة سيبويـه في نفس أستـاذه، ويكفي أن يخصه أستاذه بهذه المقولـة التي صدرت من نـابغة زمـانه، وفـريد عصره الخليـل بن أحمد.

وبعد المناظرة الظالمة بينه وبين الكسائي ، وهي المناظرة التي دارت رحاها في

(١) نشر بالقاهرة بالمطبعة العثمانية نشر عالم الكتب ، وطبع عدة طبعات .

(٢) البغية ٢ / ٢٢٩ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

مجلس يحيى البرمكي حينما ذهب سيبويه إلى بغداد في مسألة مشهورة في التاريخ وهي المسألة الزّنبوريّة.

أقول : بعد هذه المناظرة مات سيبويه متأثراً بجراحه النفسية ، وهو في سن الشباب فقد مات بالبيضاء ، وقيل بشيراز سنة ثمانين ومائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة[1] على قول من الأقوال التي ذكرت في تاريخ وفاته ، ومكان الوفاة ، وأما الكتاب فها نحن نطرق باب الحديث عنه :

كتاب سيبويه :

قال عنه يونس فيما حكاه أبو عبيدة : أنه « قيل ليونس بعد موت سيبويه : إن سيبويه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ! جيئوني بكتابه ، فلما رآه ، قال : يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني »[2].

وقال الأزهريّ عن الكتاب : « كان سيبويه علّامة ، حسن التصنيف ؛ . . وما علمت أحداً سمع منه كتابه هذا ، لأنه احتضر ، وقد نظرت في كتابه ، فرأيت فيه علماً جمّاً ».

« وكان المبرّد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : هل ركبت البحر ! تعظيما واستصعاباً لما فيه »[4].

وأنشد فيه الزمخشري شعراً فقال :

ألا صلّى الإله صلاة صدق   على عمرو بن عثمان بن قنبرْ
فإن كتابه لم يغن عنه   بنو قلم ولا أبناء مِنْبرْ[5]

---

(١) البغية ٢ / ٢٣٠ .
(٢) المصدر نفسه/ ٢٢٩ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .
(٤) المصدر نفسه والصفحة .
(٥) المصدر نفسه/ ٢٣٠ .

ويروي الزبيديّ في طبقاته ، أن تلميذه أبا الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة يقول : « وكنت أسأل سيبويه عمّا أشكل عليّ منه ، فإن تصعَّب عليّ الشيء منه قرأته عليه »[1].

على أن سيبويه كان حريصاً كل الحرص على أن يراجع ما يكتب ، ويعرض على علماء عصره ما يعن له من آراء ، وما يستقبل من شواهد ، وما يبنى من قواعد حتى إنه لا يأنف من أن يسأل تلميذه الأخفش ليراجع ما كتب .

قال الأخفش : « كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرضه عليّ وهو يرى أني أعلم منه ـ وكان أعلم مني ـ وأنا اليوم أعلم منه »[2]. ويشيد الأستاذ عبدالسلام هارون في مقدمة تحقيقه بخلق سيبويه العلميّ فيقول : « وهذا النص ينبئنا عن تواضع سيبويه ، وحرصه على المشاورة في العلم ، ويدّلنا كذلك أن الأخفش شهد مولد الكتاب ، ونشأته »[3].

وعن كتاب سيبويه تحدّث الجاحظ مبيّناً فضله ، مقدّراً علمه فقال : « أردت الخروج إلى محمد بن عبدالملك ، ففكرت في شيء أهديه له ، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له : أردت أن أهدي لك شيئاً ، ففكرت ، فإذا كل شيء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء ، قال : والله ما أهديت إليّ شيئاً أحبّ إليّ منه »[4].

موقف الكوفيين من الكتاب :

على الرغم من بصرية سيبويه ، فإن الكتاب تتلمذ عليه رؤساء الكوفة ونهلوا من مورده ، وشربوا من معينه .

فالكسائي الذي تنسب إليه عمادة مدرسة الكوفة يروي ثعلب رواية تدل في وضوح على انتفاع مناظره بهذا الكتاب ، يتحدث عن ذلك محمد بن عبدالملك

---

(١) انباه الروّاة ٢/٣٦ .
(٢) طبقات اللغويين للزبيدي/ ٦٧ .
(٣) كتاب سيبويه/ ١٥ من مقدمة التحقيق .
(٤) معجم الأدباء ١٦/١٢٣ .

التاريخيّ فيما رواه عن ثعلب عن محمد بن سلام قال : « حدثني الأخفش أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائي في جمعة ، فوهب له سبعين ديناراً . قال : وكان الكسائي يقول لي : هذا الحرْف لم أسمعه فاكتبه لي فأفعل ، قال : وكان الأخفش يؤدّب ولد الكسائيّ »[١].

والفرّاء شرب من مورد كتاب سيبويه كأستاذه الكسائي ، فقد حدّث ثعلب يوماً في مجلسه فقال : « ومات الفرّاء ، وتحت رأسه كتاب سيبويه »[٢] ومن هنا صحّ للجاحظ أن يعدّد مفاخر أهل البصرة على أهل الكوفة فقال : « هؤلاء يأتونكم بفلان وفلان ، وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه ، وجحدتم فضله »[٣].

***

اسم الكتاب :

لا أدري لِمَ لم يسمّ سيبويه كتابه ، وترك التسمية لمن جاء بعده ؟ ولو نظرنا إلى المؤلفات النحوية التي صنفها العلماء قبل سيبويه لوجدنا هؤلاء العلماء وضعوا لمؤلفاتهم أسماء ، وسجلوا لها عنوانات فأبو جعفر الرؤاسي سمّى كتابه النحوي الذي تحدثنا عنه فيما سبق : « الفيصل » وعيسى بن عمر سمّى كتابْيه : الجامع والإكمال ، والخليل ـ إن صح الكتاب له ـ سمّى كتابه : (الجمل) .

وللإجابة عن هذا التساؤل يرجح أستاذنا علي النجدي « أن سيبويه كان على نيّة العودة إلى الكتاب ، لأن لديه منه بقيّة ، ولا يزال في نفسه منه شيء فأرجأ تسميته ، ولم يشأ أن يضعها له حتى يفرغ منه ويبلغ ما يريد»[٤]. وأدلة الترجيح في نظر أستاذنا نلخصها فيما يلي :

أن يونس مع أنه من شيوخه لم يعلم نبأ الكتاب إلاّ عرضاً وبعد وفاة سيبويه وذكر الخبر الذي أوردته آنفاً حينما قال يونس : « جيئوني بكتابه فلما رآه قال : يجب أن يكون

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) سيبويه إمام النحاة/ ١٢٨ .

صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني » .

ـ أن الكتاب ليس له مقدمة ولا خاتمة :

ـ أنه قد جاء في الخبر الذي روى عنه يونس أنه قيل له : إن سيبويه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل .

وقد حلل أستاذنا هذا الخبر ليستدل به على أن سيبويه ترك كتابه جزازات منفصلة لأنه يبعد أن يجتمع مثل هذا السفر الضخم في مجلد واحد وبنقل أستاذنا في هامش كتابه[1] تعليقاً نقله عن وفيات الأعيان ٥/٢٣١ يحدّد فيه أن المجلد كان عند القدماء عشر ورقات .

لهذه الأسباب مجتمعة لم يضع سيبويه لكتابه أسما أو يقترح له عنواناً وترك ذلك لمن جاء من بعده .

والذين جاءوا من بعده لم يضعوا اسماً مناسباً أو عنواناً ملائماً غير تسميته بالكتاب ، فإذا أطلق الكتاب كان المراد به كتاب سيبويه ومن هنا قال ابن الأنباريّ : « كان يقال بالبصرة : « قرأ فلان الكتاب » فيعلم أنه كتاب سيبويه ، وقرأ نصف الكتاب ، فلا يشك أنه كتاب سيبويه »[2] .

مصادر الكتاب ومن أين استقاها ؟

نستطيع أن نقرّر في ضوء قراءة كتاب سيبويه ودراسته أن المصادر التي استقى منها النحو وسجلها في كتابه هي ما يلي :

أ ـ قدامى النحويين ، ونذكر من هؤلاء القدامى الذين تقرأ أسماءهم ، ونقف على آرائهم في كتاب سيبويه :

١ ـ **عبدالله بن أبي إسحاق** : وابن أبي إسحاق سبق الحديث عنه عند التعرّض لكتبه ، وقد أفاد سيبويه من آراء ابن أبي إسحاق في كتابه في عدة مواضع .

---

(١) ص ١٢٩ .

(٢) نزهة الألباء/ ٦٣ .

ويعترف أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى بأنّ ابن أبي اسحاق هو أول نحوي ورد ذكره في كتاب سيبويه ، ولذلك يقول : « تتبعنا أقدم عالم نسب إليه رأي نحويّ في هذه الكتب . وكان أول هذه الكتب كتاب سيبويه » ويذكر أستاذنا أن عبدالله بن أبي اسحاق تكرر ذكره في كتاب سيبويه ٦ مرات »[١].

وفي موضع آخر من بحثه يقول : « أما عبدالله بن أبي اسحاق الحضرميّ وهو من الطبقة الثالثة فهو أقدم في رأينا من ينسب إليه رأي نحويّ »[٢].

٢ ــ **عيسى بن عمر** : ومن النحويين القدماء الذين أخذ عنهم عيسى بن عمر ، فقد كانت آراء عيسى بن عمر في كتاب سيبويه متنوعة ، سيقت في عبارات مختلفة . فمن هذه العبارات أو التعبيرات ما يأتي :

ــ التعبير بقوله : « وكان عيسى يقول أو يقرأ »[٣].
ــ التعبير بقوله : « وزعم عيسى »[٤].
ــ التعبير بقوله : « حدثنا »[٥].

٣ ــ **أبو عمرو بن العلاء**: تعدّد نقل سيبويه عن أبي عمرو في الكتاب مما يشير في وضوح إلى أن أبا عمرو أسهم بطريق غير مباشر في صنع هذا الكتاب .

وقد تعدّدت طرق الأخذ عن أبي عمرو إلاّ أن نقل معظم النصوص التي نسبها سيبويه إلى أبي عمرو أخذها من يونس بن حبيب أستاذه المباشر وجاءت صور الأخذ عن يونس بعبارات مختلفة بيانها على الوجه التالي :

ــ مسائل منسوبة إلى أبي عمرو وتحدّث بها يونس مع سيبويه[٦].

---

(١) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة مجلد ١٠ جزء ٢ ـ ديسمبر ١٩٤٨ ص ٧١ وانظر هذه المواضع الستة في كتابي : الحلقة المفقودة من ١٢٣ ـ ١٢٥ .
(٢) المرجع نفسه/ ٧٣ .
(٣) سيبويه ١/٣٩٨ ، ٢/٢٥٢ ، ٣/١٤٣ .
(٤) سيبويه ١/١٦٩ ، ١/٧ ، ٢/٦٥ ، ٦٦ .
(٥) ٢/٣٠٩ ، ٣/٥٤٥ .
(٦) سيبويه ١/٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٢/٩٦ ، ٢/١١٣ .

ـ مسائل منسوبة إلى أبي عمرو بعبارة : « زعم يونس أن أبا عمرو قال »[1].
ـ مسائل منسوبة إلى أبي عمرو بعبارة : « أخبرناه يونس عن أبي عمرو »[2].
ـ مسائل منسوبة إلى أبي عمرو من غير أن تقيد بسماع أو تسند إلى يونس وأرجحّ أنها مأخوذة من كتبه لأنها منسوبة إلى أبي عمرو بطريق مباشر ويقويّ هذا الترجيح ما ذكره السيّوطيّ في المزهر عند حديثه عن أبي عبيد القاسم بن سلام إذ قال : « وسمع من الفراء ، والأمدي ، والأحمر ، وأبي عمرو ـ وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع إنما هو من الكتب »[3] وينطبق ذلك أيضاً على سيبويه فأكثر ما حكاه عن أبي عمرو من غير سماع إنما هو من الكتب »[4].

ب ـ أساتذته المباشرون :

وإلى جانب هؤلاء النحويين القدامى أخذ يونس عن أساتذته المباشرين ونذكر منهم :

١ ـ يونس بن حبيب :

لا شك أن يونس بن حبيب كان شيخا لسيبويه ، أخذ عنه ، وجلس إليه وقلت آنفاً : إن يونس كان همزة الوصل بين أبي عمرو وسيبويه ـ وإلى جانب هذه الوساطة ـ بينه وبين أبي عمرو فإن سيبويه أخذ عن يونس مباشرة كما يأخذ التلميذ عن الأستاذ .

والحقيقة التي لا مراء فيها أن يونس كان ركناً من أركان كتاب سيبويه ولعل كثرة النقل عن يونس تشير إلى حقيقة مؤداها ثقة سيبويه بيونس تلك الثقة التي دعته إلى أن ينقل أبواباً برمّتها ، فيضعها في كتابه ، قال الشيخ محمد الطنطاوي مشيراً إلى هذه الحقيقة ما نصه :

« وكثر نقله عن يونس حتى نقل عنه أبواباً برمّتها ، فقد نقل عنه فصلين من التصغير فقال : « وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب ، وما أذكره لك في الباب الذي

---

(١) ٤١٧/١ ، ٣٨٧/٢ ، ١٨٤/٢ ، ١٨٥ .
(٢) سيبويه ١٦١/٢ .
(٣) المزهر ٤١٢/٢ .
(٤) أنظر سيبويه ٣٩٣/٢ ـ ٢٥٣/٣ ، ٤٣/٢ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ، ٢١٨/٢ ـ ٢١٩ ، ١٨٥ ـ ١٨٦ .

يليه قول يونس » لأنه كان يطمئن إليه ، فكثيراً ما كان يسأله للتثبّت عمّا سمعه من غيره »[1] .

وقد اختلفت العبارات التي تشير إلى هذا الأخذ ، فمرة ينسب إلى يونس الحديث فيقول : حدثنا ، ومرّة ثانية ينسب إليه الأخبار ، فيقول : أخبرنا ومرّة ثالثة ينسب إليه الزعم ، فيقول : زعم ، ومرة رابعة يوجه إليه أسئلة فيقول : « وسألته »[2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أستاذنا المرحوم علي النجدي تتبع المرات التي أخذ فيها سيبويه عن يونس فوجدها ٢٠٠ مرة[3] .

٢ ـ الخليل بن أحمد :

من أبرز شيوخ سيبويه الخليل بن أحمد، وقد قدمت فيما سبق أن الخليل كان يجالسه ويطيل الجلوس، وقال عنه عبارته المشهورة: مرحباً بالزائر الذي لا يملّ، ولم يقل هذه العبارة ـ كما يقول اللغويون ـ لأحد غيره مما يدلّ على علو كعبه في نظر أستاذه .

ولطول الصحبة التي لا تمل تلقى سيبويه عن أستاذه الخليل معظم ما في الكتاب، قال السيرافيّ: «دعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكل ما قاله سيبويه: «وسألته» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل»[4] .

وقد تكرر ذكر الخليل في كتاب سيبويه ٥٢٣ مرة[5] .

---

(١) نشأة النحو/ ٦٨ .

(٢) انظر كتابي الحلقة المفقودة/ ٣٨٤ فقد تناولت هذه الموضوعات بأمثله من كتاب سيبويه لا داعي لتكرارها مرة أخرى.

(٣) سيبويه إمام النحاة/ ١٠٢ .

(٤) أخبار النحويين البصريين / ٣١.

(٥) أنظر سيبويه إمام النحاة / ١٠٢ .

ومكانة الخليل في اللغة والنحو هي التي دعت سيبويه إلى أن يطيل صحبته وينتفع بعلمه، ويشرب من معينه، ويغوص في بحره، فالخليل أبو عبدالرحمن بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة[١]،كان آية في الذكاء، وكان الناس يقولون: لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه»[٢].

ومن أدب سيبويه مع أستاذه الخليل أنه: «إذا روى عن الخليل، وبدا له أن يبدي رأيا بعد رأيه قال: وقال غيره ولم يصرح باسمه إجلالاً لشيخه أن يذكر اسمه مع اسمه في مجال الرأي وحديث المعرفة»[٣].

والمثال الواضح لهذه الحقيقة قول سيبويه:

«وسألت الخليل عن قوله:

ألا رجلاً جزاه الله خيراً يدل على محصلة تبيتُ

فزعم أنه ليس على التمني، ولكنه بمنزلة قول الرجل: فهلَّا خيراً من ذلك كأنه قال: ألا ترونني رجلاً جزاه الله خيراً.

وأما يونس فزعم أنه نوّن مضطراً، وزعم أن قوله: «لا نسب اليوم ولا خلة» على الاضطرار، وأما غيره فوجهه على ما ذكرت لك، والذي قال مذهب»[٤].

هؤلاء النحاة القدامى الذين أخذ عنهم سيبويه بواسطة، والنحاة الأساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه مباشرة بدون واسطة كانوا من المصادر التي اعتمد عليها سيبويه في تأليف كتابه.

وهناك رواية ساقها ابن النديم في الفهرست أرى من الضروري أن أعرضها للمناقشة في هذا الموقف، لأنها تتعلق بمصادر النحو في كتاب سيبويه وقبل أن نعلق على هذه الرواية نذكرها كما وردت في كتاب الفهرست:

---

(١) بغية الوعاة ١/٥٦١.

(٢) المصدر نفسه / ٥٥٨.

(٣) سيبويه إمام النحاة / ٩٢.

(٤) سيبويه ٢/٣٠٨.

قال ابن النديم: «قرأت بخط أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنساناً منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل»[1].

وقد لفتت هذه الرواية نظر أستاذنا علي النجدي. فأنكرها من أساسها مبيناً أنها رواية كاذبة، وقصة خاطئة، ونسيج مزوّر، وبنى أستاذنا هذا الإنكار على الخصومة المذهبية بين البصريين والكوفيين، فالرواية من صنع ثعلب وهو إمام من أئمتهم، وركن من أركانهم.

قال أستاذنا ما نصه معلقاً على هذه الرواية: «ونلاحظ أن صاحب الخبر هو ثعلب، يردّه الرواة إليه ولا نعرفه لغيره، وهو من نحاة الكوفة ونلاحظ كذلك أننا إذا أخرجنا سيبويه من عدة أعضاء هذه الشركة بقي منهم واحد وأربعون، ورقم الأربعين من الأرقام التي تشيع قديماً وحديثاً في الخرافات ذات الأعداد، ثم مَن هؤلاء الأربعون أو الأحد والأربعون؟ أما يعرفهم ثعلب أو يعرف بعضهم؟ وماله لا يذكر أسماءهم أو أسماء من يعرف منهم، فتتضح الحقيقة، ويكون الناس على بينة من الأمر»..

إلى أن يقول: «فأنت من حيث نظرت إلى هذه القصة لا ترى إلا شكاً وغمطاً، وما أراك ملوماً ولا متحيراً إذا عددتها مثلاً من أمثلة المنافسة والعصبية في الصناعة»[2].

وعلى حين يرى أستاذنا النجدي خرافة هذه الرواية، وأنها كاذبة يرى أستاذنا المرحوم عبدالسلام هارون غير ذلك، ويرى أن رواية الفهرست تعني عظم قذر الكتاب وخطورته في ميدان الحقل اللغوي والنحوي، وأنه حصيلة جهود سبقت، وآراء تقدمت، وأفكار تتابعت، وأن سيبويه انتفع بكل هذه الجهود التي يمثلها العدد الكثير الذي أفاد منه سيبويه، يقول أستاذنا هارون ما نصه:

«وليس يعني هذا النص إلا أن سيبويه انتفع بجهود النحويين قبله الذين بلغ تعدادهم هذا القدر.

---

(١) الفهرست / ٥١.

(٢) سيبويه إمام النحاة / ١٣٣ ـ ١٣٥.

وهـذا النص الذي قـد يشعر بتنقص سيبـويـه إنمـا يعـبّر عن حقيقـة علميـة حتمية. وهي أن كتاب سيبويه إنما هو لقـاح جهود النحـاة الذين سبقوه، إذ لا يعقل أن يبتدىء سيبويـه هذا العلم المتكـامل من تلك الجهـود الأصيلة التي رسمت كثيراً من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله»[1].

وفي رأيي بعد مقارنة هذين التعليقـين أن تعليق أستاذنـا عبدالسـلام هارون أقرب إلى الصواب من تعليق أستاذنا علي النجدي.

إنه ليس من طبائع الأشياء أن يقوم سيبويه وحده بهذا العبء النحوي الـذي تنوء به الجبال، والممثل في الكتاب.

وقد لفت نظري أن هذا الكتاب العملاق لا يمكن أن يلد عملاقـاً، لأن سُنَّة الحياة في كل موجوداتها أن تبدأ هـذه الموجـودات صغيرة ثم تنمـو شيئاً فشيئـاً وتكبر حيناً بعد حين حتى تستغلظ وتستوي على سوقها، فكتاب سيبويه سبقته جهود جبارة ابتداء من أبي الأسود وانتهاء بالخليل ومن أجل ذلك عشت في الحقل النحـوي لهذه الفترة من التاريخ متتبعاً رجال اللغة والنحو، مستقصياً آثـارهـم، باحثـاً عن آرائهم حتى وفقت بحمـد الله تعالى في تـأليف كتاب خـاص بهذه الفـترة، سميتـه «الحلقـة المفقودة في تاريخ النحو العربي».[2]

هذه ناحية وناحية أخرى وهي: ما الذي يحمـل ثعلب على الكـذب والافتراء على كتاب تم ميـلاده، وكمل وجـوده، في رأيي أن الفخر بـالكتاب كـان وراء هذه الرواية إن صدق صدورها عن ثعلب، وتفسيرها في باب الافتخـار بالكتـاب أحسن في باب الظن من تفسيرها في باب الخصومة والكذب والتنافس وفضلاً عن ذلك فإن ثعلباً وصفه المؤرخون اللغويون بأنه ثقة[3] ومما يدل على الثقة فيه أنه كان لا يفتي إلا بعلم، وإذا سئل عن شيء لا يعرفه قال: لا أدري. وهذا لا شك خلق العالم الثبت الذي تعنيه الحقيقة العلمية أكثر مما تعنيه الحظوظ النفسيّة.

---

(١) كتاب سيبويه، مقدمة التحقيق / ٢٤.

(٢) طبع بمؤسسة الوحدة للنشر في الكويت طبعة أولى، ويطبع الآن طبعة ثانية في دار الرسـالة ببـيروت في نسخة محققة مزيدة.

(٣) البغية ٣٩٧/١.

وخير مثال نؤيد به هذا القول ما ذكره أبو عمر الزاهد حيث قال: «سئل ثعلب عن شيء فقال: لا أدري، فقيل له: أتقول: لا أدري، وإليك تضرب أكباد الإبل من كل بلد؟ فقال: لو كان لأمّك بعدد مالا أدري بعر لاستغنت»[1].

جـ ـ المؤلفات التي ظهرت قبل سيبويه:

الطريق الثالث لمصادر الكتاب هو الاقتباس أو الاعتماد على بعض المؤلفات التي ظهرت قبله.

وقد بينت فيما سبق أن السيوطي في (المزهر) ذكر عند حديثه عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه «سمع من الفراء والآمدي والأحمر وأبي عمرو بن العلاء، وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع إنما هو من الكتب»[2].

واضح إذاً من هذا النص أنه إلى جانب طريقة الأخذ بالسماع توجد طريقة أخرى وهي الأخذ من الكتب في حالة فقدان السماع وسيبويه سار على هذا الدرب، ونسج على هذا المنوال، فإلى جانب المصادر العلمية المتمثلة في النحويين القدماء، وأساتذته المعاصرين كان يعتمد على النقل من المؤلفات السابقة، وإن لم يشر إليها، وبخاصة كتب عيسى بن عمر.

والأخذ عن عيسى بن عمر قضية تناولتها بالتفصيل في كتابي «الحلقة المفقودة» ونجمل في هذا الموضع القول حباً في الاختصار، وإيثاراً للايجاز، لأنها قضية متفرعة أخذت من حجم كتابي الحلقة المفقودة حيزاً كبيراً.

ـ هل سيبويه أخذ عن عيسى بن عمر وتتلمذ عليه؟

معظم المصادر التاريخية تثبت هذه الحقيقة.

وعلى الرغم من إيماني بهذه الحقيقة فإن هناك سحبا من الشك حول هذا

---

(١) البغية ٣٩٧/١.

(٢) المزهر ٤١٢/٢.

الأخذ، تحتاج إلى ضوء كاشف يضع النقاط على الحروف، أو بعبارة أخرى يضع يدنا على الحقيقة البلقاء.

وقد قام في ذهني أن أبحث عن المدة الزمنية التي انتفع فيها سيبويه بأستاذه عيسى، لنعرف إلى أي مدى تأثر به، وأفاد منه؟

ولما رجعت إلى سنوات الوفاة التي حددتها كتب الطبقات لعيسى وسيبويه راعني أمر لم يتنبه إليه أحد من الباحثين قديماً أو حديثاً فيما أعلم اللهم إلا ياقوت الحموي في معجم الأدباء، أقول ذلك لأني كنت أعتقد أنني لم أسبق بهذا الرأي، فسرعان ما تبدد هذا الفخر حينما علمت أن ياقوتاً راعه ما راعني من هذه القضية.

ولبيان ذلك أقول: معظم الرواة يحدّدون وفاة عيسى في سنة ١٤٩ هـ ووفاة سيبويه في سنة ١٨٠ هـ.

وفي رواية أن عمره إذ ذاك ٣٢ سنة، وفي رواية أخرى أنه مات، وقد نيف على الأربعين.

فعلى الرواية التي تنص على أنه مات وعمره ٣٢ سنة نستطيع أن نقول:

إنها مستحيلة، لأن عمر سيبويه حينما مات عيسى على هذه الرواية كان عاماً واحداً ومن البديهي السكوت عن التعليق عليها.

ويميل ياقوت في معجم الأدباء إلى الرواية الثانية التي تنص على أنه مات وقد نيف على الأربعين، والنيف: هو كل ما زاد على العقد حتى يبلغ العقد الثاني، أي أنه من الممكن أن تكون سنه عند وفاة عيسى ١٢ عاماً تقريباً ولنترك ياقوت ليعرض علينا رأيه في هذه القضية، قال ما نصه:

«قال المرزباني»: مات بشيراز، وسنه ثمانين ومائة، وذكر الخطيب أن عمره كان اثنتين وثلاثين سنة، ويقال إنه نيف على الأربعين سنة وهو الصحيح، لأنه روى عن عيسى بن عمر، وعيسى بن عمر مات سنة تسع وأربعين ومائة، فمن وفاة عيسى إلى وفاة سيبويه إحدى وثلاثون سنة، وما يكون قد أخذ عنه إلّا وهو يعقل، ولا يعقل حتى يكون بالغاً، والله أعلم»[1].

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١١٥.

والذي أميل إليه، لأنه يريح عقلي، ويطمئن نفسي هو ما ذكره معظم الرواة من أن سيبويه مات سنة ١٨٠هـ، كما أنني استريح أيضاً إلى الرّواية التي استراح إليها ياقوت، وهي أنه قد مات، وقد نيف على الأربعين سنة لأن عمره إذ ذاك يكون اثنتي عشرة سنة تقريباً، عند وفاة عيسى أو تزيد، وهو عمر يتيح إليه أن يجلس في مجالس العلماء، ويستمع إليهم، ويأخذ عنهم، وبخاصة إذا علمنا أنه رحل إلى بغداد ليناظر شيخاً من شيوخها، وهو الكسائي ولن يرحل إلا إذا كان قديراً على المهمّة التي ندب من أجلها»[١].

بعد هذا العرض في تحقيق سن سيبويه عندما رحل إلى عيسى بن عمر للأخذ عنه.

أقول: إنه أخذ عن عيسى في سن مبكرة، وحمل عنه كتابه (الجامع) الذي لم تؤهله سنه الصغيرة لفهمه، فكان يقرؤه على أستاذه الخليل ليبين له غموضه، ويكشف له عن عويصه، ولا أدلّ على ذلك من رواية القفطي إذ يقول: «وإنه لـمّا أحضره (أي الجامع) إلى الخليل بن أحمد ليقرأه عليه عرفه الخليل»[٢].

وبالإضافة إلى ما سبق فإن تعبير سيبويه في الكتاب بقوله:

«وكان عيسى يقول، أو يقرأ يشير إلى ما أفاده سيبويه من كتاب عيسى بن عمر، لأن تسجيل قول عيسى في بعض القضايا النحوية، أو تسجيل قراءة له في مجال القراءات القرآنية يدل على أن سيبويه استقى هذه النصوص من كتابه وأبرز إشارة إلى هذا هو التعبير بـ«كان» التي تدلّ على الماضي، ولو أخذ عيسى هذه النصوص منه مشافهة أو تلقاها واسطة لما عبّر عنها بقوله: «وكان عيسى»[٣].

هذه هي مجمل المصادر التي تكوّن في ضوئها كتاب سيبويه.

مادة الكتاب:

أما مادته فقد تعرّض لها بالتحليل والدراسة أستاذنا على النجدي بقوله:

(١) انظر كتاب الحلقة المفقودة للباحث ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) إنباه الرواة ٢/٢٧٥.
(٣) انظر سيبويه ١/٣٩٨، ٢/٢٠٢.

«والكتاب يشترع العربية، في طورها الجديد، ويقيم المعالم التي تهدي إلى حقيقتها، وتعين على حمايتها، وينفي الزيف عنها حتى لا يطغي عليها، ويغير من خصائصها في الحاضر أو في المستقبل القريب أو البعيد، فلذلك فهو دراسة واسعة في النحو والصرف، أي في أساليب العربيّة، وبنية مفرداتها، ويعتمد في مادّته على:

أ ــ عبارات مرويّة، وغير مروية.

ب ــ مفردات عربيّة وأخرى أعجمية.

جـ ــ مسائل مفترضة قيست على نظائر لها في اللغة.

د ــ شواهد من القرآن وأخرى من الشعر والرجز»[1].

أسـلوبـه:

وأما أسلوبه، فقد وصفه ابن كيسان بأن فيه شيئاً من الغموض بالنسبة لأهل غير زمانه، أما أهل زمانه فإنه بالنسبة لهم واضح في ألفاظه، وسهل في معانيه.

يقول البغداديّ في الخزانة: «وقال ابن كيسان: نظرنا في كتاب سيبويه فوجدناه في الموضع الذي يستحقّه، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح، لأنه كتاب أُلِّف في زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ، فاختصر على مذاهبهم.

قال أبو جعفر: ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى غير ما قال ابن كيسان قال: عمل سيبويه كتابه على لغة العرب، وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيّناً مشروحاً، وجعل فيه مشتبهاً، ليكون لمن استنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن».

ويميل أبي جعفر إلى رأي علي بن سليمان مبيّناً أن «هذا الذي قاله عليّ بن سليمان حسن، لأنه بهذا يشرف قدر العالم، وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة، واستنباط المعرفة، ولو كان كله بيّناً لاستوى في علمه جميع من سمعه، فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشيء بالتّدبّر، ولذلك لا يملّ، لأنه يزداد في تدبّره علماً وفهماً»[2].

---

(١) سيبويه أيام النحاة/ ١٤٢.

(٢) الخزانة ١/٣٧١ - ٣٧٢ تحقيق هارون.

على أن الكتاب اشتمل على بعض العبارات الغامضة التي وقف جهابذة النحو أمامها حيارى، لا يستطيعون كشف غموضها، وتوضيح مبهمها، ومن هذه العبارات الغامضة ما ذكره المازني حيث يقول: «سألت الأخفش عن حرف رواه سيبويه عن الخليل في «باب من الابتداء يضمر فيه ما بني على الابتداء» وهو قوله: «ما أغفله عنك شيئاً، أي دع الشّكّ» ما معناه؟

قال الأخفش: أنا منذ ولدت أسأل عن هذا.

وقال المازني: سألت الأصمعيّ، وأبا زيد، وأبا مالك عنه، فقالوا: ما ندري ما هو؟

فقال السيرافي: لم يفسّر هذا الحرف فيما مضى إلى أن مات المبرّد. وفسّره أبو إسحاق الزجاج بعد ذلك فقال: معناه على كلام تقدّم، كأن قائلاً قال: ليس «زيدٌ بغافل، فقال المجيب: بل ما أغفله عنك، انظر شيئاً، أي تفقد أمرك، فاحتج به على الحذف» يريد حذف (انظر) الناصب شيئاً»[1].

* * *

تلمذة كبار النحويين على سيبويه من طريق كتابه:

ولقيمة الكتاب ومكانته في نفوس كبار النحويين المعاصرين، والذين جاءوا من بعدهم أقبلوا عليه دارسين وباحثين، ليشربوا من معينه الفياض وينهلوا من علمه الغزير.

فمن المعاصرين لسيبويه الذين تتلمذوا على كتابه:

١ ـ الكسائي: أبو الحسن عليّ بن حمزة إمام مدرسة الكوفة، والمتوفى سنة ١٨٣هـ يخبرنا عن هذه التلمذة أبو الطيب اللغوي فيقول في رواية مسلسلة: أخبرنا أبو نصر الباهليّ قال: حمل الكسائيُّ إلى أبي الحسن الأخفش خمسين ديناراً، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرًّا»[2].

---

(١) تأويل مشكل القرآن/ ٦٥.

(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي/ ٧٤.

ويؤكد هذا الأخذ السيرافي في روايته التي نقلها سلمة حيث قال: «حدثني الأخفش، قال جاء الكسائيّ إلى البصرة، فسألني أن أقرأ عليه، أو أقرئه كتاب سيبويه، ففعلت فوجّه إلى خمسين ديناراً»[١].

٢ ــ أبو نواس: أبو علي الحسن بن هانىء الشاعر المتوفى ١٩٨هـ ومع أنه اشتهر بالشعر، لكن كان له في اللغة باع طويل، يدلّ على ذلك ما قاله الجاحظ عنه: «ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس»[٢].

ومما يدل على أنه تتلمذ على كتاب سيبويه وانتفع به ما ذكره ابن الأنباري في (نزهة الألباء) أنه نظر في نحو سيبويه[٣].

٣ ــ أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ. فقد قرأ كتاب سيبويه، وانتفع به. وصاحبه مصاحبة الصديق حتى لا يستطيع الفكاك منه فقد قالوا: «مات الفراء وتحت رأسه كتاب سيبويه»[٤].

٤ ــ أبو زيد الأنصاري: محمد بن يزيد سعيد بن أوس الأنصاريّ من الخزرج وكان يقال له زيد النحوي. توفي سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل أربع عشرة وقيل ست عشرة بالبصرة[٥].

ويروي أبو الطيب: أن المازني قال: «كُلّ ما في كتاب سيبويه مِنْ قوله: أخبرنا الثقة، وسمعت من أثق به فهو عن أبي زيد»[٦]. وعلى الرغم من أن سيبويه أخذ عن أبي زيد، فإن أبا زيد نفسه قرأ الكتاب ونظر فيه، يدلّ على ذلك ما أخبر به الجرميّ قال: «نظر أبو زيد في كتاب سيبويه، فقال: قد أكثر هذا الغلام الحكاية إن كان سمع، فقلت له: قد روى عنك شيئاً كثيراً، فَهَلْ صدق فيه؟ قال: نعم،

---

(١) أخبار النحويين البصريين/ ٤٠.
(٢) نزهو الألبا ٢/٧٧.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) مراتب النحويين/ ٨٧.
(٥) بغية الوعاة ١/٥٨٢.
(٦) مراتب النحويين/ ٨٦.

فقلت: فصدّقه فيما روى عن غيرك»[1]، هذا وقد عمر أبو زيد طويلاً فقد توفي عن ٩٣ سنة بالبصرة[2]. أمّا قراء الكتاب والمنتفعون به من الطبقة التالية لطبقة سيبويه كثيرون نذكر منهم ما يلي:

١ ـ الجرميّ: صالح بن إسحاق أبو عمر الجَرميّ المتوفى ٢٢٥هـ.
والجرميّ كما يقول السيّوطي في (البغية): «انتهى إليه علم النحو في زمانه»[3] والجرميّ «قرأ كتاب سيبويه على الأخفش، ولم يلق سيبويه»[4] ويبدو أن هذه القراءة كانت قراءة تدبّر ونقد، فقد ذكر السيوطي في (البغية) أن من مؤلفاته كتاب (غريب سيبويه)[5].

٢ ـ أبو حاتم السجستاني: سهل بن محمد المتوفى سنة ٢٥٠ أو ٢٥٥، وقيل: غير ذلك[6].
قال أبو العباس عنه: «وسمعته يقول: «قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين»[7].

٣ ـ المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس المتوفى ٢٨٦ هـ. وقد تتلمذ المبرّد على سيبويه من طريق كتابه. قال الزبيديّ: «كان أبو العباس لا يقرىء أحداً كتاب سيبويه حتى يقرأه على إبراهيم [ابن السري الزجاج] ويصحح به كتابه، فكان ذلك أول رياسة أبي إسحق.

وقرأ أبو العباس ثلث كتاب سيبويه على الجرمي، وتوفي الجرمي فابتدأ قراءته على المازني»[8].

---

(١) المصدر نفسه/ ٧٦.
(٢) البغية ١/٥٨٣.
(٣) البغية ٢/٨.
(٤) أخبار النحويين البصريين/ ٥٦.
(٥) البغية ٢/٩.
(٦) البغية ١/٦٠٦.
(٧) أخبار النحويين البصريين/ ٧٠.
(٨) طبقات النحويين واللغويين/ ١١٠.

٤ ـ محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالإفشين القرطبي المتوفى ٣٠٩هـ. رحل إلى المشرق، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية»[1].

٥ ـ أبو الطيب عبدالواحد اللغوي المتوفي سنة ٣٥١هـ صاحب كتاب (مراتب النحويين) قال: «وقد رأيت أنا أجزاء كثيرة من كتاب سيبويه خمسين مرة»[2].

٦ ـ من أشهر العلماء المتأخرين الذين صاحبوا كتاب سيبويه مصاحبة جادة، حيث عاشوا في محرابه: الحسن بن عبدالله بن المرزبان القاضي أبو سعيد السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ هـ. فقد شرح السيرافي كتاب سيبويه شرحاً لم يسبق إلى مثله وحسده عليه أبو علي الفارسي وغيره من معاصريه»[3].

محاولة سرقة كتاب سيبويه:

قصة لطيفة ساقها ابن الأنباري في ترجمة أبي الحسن الأخفش، وهي تدور حول محاولة الأخفش سرقة كتاب سيبويه، وأدعائه له، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة هذا الكتاب بين علماء عصره مما دفع أبو الحسن الأخفش أن يحقد على سيبويه، ويعمل جاهدا على أن ينتزع الفضل منه، ويبدو أن هذا الادعاء لو تم ما عرف أحد ذلك، لأن سيبويه لم يقرأ هذا الكتاب عليه أحد من العلماء، وما قرأه سيبويه على أحد مما شجّع الأخفش أن يظهر الكتاب باسمه، ولكن حال بينه وبين ذلك وقوف عالمين من علماء عصره ـ أمام هذه الرغبة الجامحة، وهما المازني والجرميّ، ويذلا جهدهما في أن يبقى الكتاب لصاحبه لا ينازعه فيه منازع.

والقصة بتمامها كما وردت في (نزهة الألباء) هي أن الطريق إلى كتاب سيبويه هو الأخفش، «لأنا لم نعلم أحداً قرأ على سيبويه، وما قرأه سيبويه على أحد، وإنما لما توفي سيبويه قريء الكتاب على أبي الحسن الأخفش وكان ممن قرأه عليه أبو عمر الجرميّ، وأبو عثمان المازني، ويقال: إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه

(١) البغية ٢٥٢/١.
(٢) مراتب النحويين/ ٨٨.
(٣) البغية ٥٠٨/١.

لا نظير له في حسنه وصحته، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنه كل الاستحسان، فيقال: إن أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني ـ وكانا رفيقين ـ توهّما أن أبا الحسن الأخفش قد همّ أن يدعى الكتاب لنفسه، فقال أحدهما للآخر: كيف السبيل إلى إظهار الكتاب، ومنع الأخفش من ادعائه؟ فقال له: نقرؤه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه، وأشعنا أنه لسيبويه، فلا يمكنه أن يدعيه. وكان أبو عمر الجرميّ موسراً وأبو عثمان المازني معسراً، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش، وبذل له شيئاً من المال على أنه يقرئه وأبا عثمان المازني الكتاب، فأجاب إلى ذلك، وشرعا في القراءة عليه، وأخذا الكتاب عنه، وأظهرا أنه لسيبويه، وأشاعا ذلك، فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعى الكتاب، فكانا السبب في إظهار أنه لسيبويه، ولم يسند كتاب إليه إلا بطريق الأخفش، فإن كل الطرق تسند إليه»[1].

شواهد الكتاب الشعرية:

شواهد سيبويه من الشعر العربي قال عنها البغدادي في خزانته ما نصه: «كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف.. وقد خرج كتابه إلى الناس، والعلماء كثير، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيده، ونظر فيه وفتش فما ظعن أحد من المتقدمين عليه، ولا أدّعى أنه أتى بشعر منكر»[2] وقد قمت بدراسة حول شواهد سيبويه من شعر المعلقات في كتاب سميته: «شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان العقد»[3]، وقد ظهر لي من خلال هذه الدراسة اهتزاز رواية البغدادي في الخزانة عن شواهد سيبويه، لأنه تبين لي بعد الدراسة والبحث أن شواهد المعلقات، وهي ما هي في مجال التوثيق والرواية لم يثبت معظمها في مجال النقد، فكيف بالشواهد الأخرى من الشعر الجاهلي ومن غيره.

وبعد، فلعلي بهذه الدراسة أثرت الطريق للباحثين والدارسين في تطور الحركة النحوية منذ عصر أبي الأسود الدؤلي إلى عصر سيبويه في ضوء المؤلفات أو المصنفات التي كانت بحق على درجة كبيرة من التطور النحوي، وقد تجمعت طرقها المختلفة، وشعابها المتعددة في كتاب سيبويه الخالد.

---

(١) نزهة الألباء/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١/ ٨.

(٣) طبع ونشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت/ ١٩٨٨.

المصادر والمراجع

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي، تحقيق طه محمد الزيني طبع مصطفى الحلبي ـ القاهرة.
(٢) أنباء الرواه للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل ـ طبع دار الكتب المصرية.
(٣) الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك ـ طبع دار النفائس ـ بيروت.
(٤) بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل طبع عيسى البابي الحلبي.
(٥) البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز ابادي، تحقيق محمد المصري طبع جامعة دمشق.
(٦) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ـ دار المعارف بمصر.
(٧) تاريخ آداب العرب للرافعي ـ مطبعة الاستقامة.
(٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ مطبعة السعادة.
(٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ (ت ـ دي ـ بور) ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريدة.
(١٠) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة. تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.
(١١) تحقيق النصوص للأستاذ عبدالسلام هارون ـ مؤسسة الحلبي ـ القاهرة.
(١٢) تفسير القرطبي. دار الكتب المصرية.
(١٣) الجمل للخليل بن أحمد، تحقيق فخر الدين قباوة ـ. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
(١٤) الحضارة الإسلامية لفون كريمر، تعريب مصطفى بدر ـ دار الفكر العربي.
(١٥) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي د. عبدالعال سالم مكرم ـ مؤسسة الوحدة بالكويت.
(١٦) خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون طبع لخانجي.
(٢٠) الخصائص لابن جني، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ـ طبع دار الكتب المصرية.
(٢١) ابن درستويه لعبدالله الجبوري ـ مطبعة العاني ـ بغداد.
(٢٢) درّة الغوّاص للحريري ـ مكتبة المثنى ببغداد.
(٢٣) سيبويه إمام النحاة لعلي النجدي ـ عالم الكتب بمصر.
(٢٤) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
(٢٥) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل ـ القاهرة.
(٢٦) الفهرست لابن النديم ـ المطبعة الرحمانية بمصر.
(٢٧) كتاب سيبويه، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون ـ مكتبة الخانجي بمصر.
(٢٨) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين بن حسام الهندي مطبعة دائرة المعارف بالهند.
(٢٩) مجالس العلماء للزجاجي، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون ـ وزارة الإرشاد بالكويت.
(٣٠) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر.
(٣١) المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي ـ طبع جامعة بغداد.
(٣٢) المذكر والمؤنث لابن الأنباري، تحقيق طارق عبدعون الجنابي ـ دار البيان العربي ـ السعودية.
(٣٣) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل، مطبعة مصر.
(٣٤) المزهر للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل، طبع عيسى البابي الحلبي.
(٣٥) معجم الأدباء لياقوت ـ دار المستشرق ـ بيروت ـ لبنان.
(٣٦) مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ـ دائرة المعارف النظامية ـ الهند.

(٣٧) نزهة الألباء لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة.
(٣٨) نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوي ـ طبع مصر.
(٣٩) همم الهوامع للسيوطي الجزء الأول، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، ود. عبدالعال سالم مكرم، وبقية الأجزاء بتحقيق الثاني دار البحوث العلمية ـ الكويت، ودار الرسالة ـ بيروت.
(٤٠) يونس للدكتور حسين نصار طبع وزارة الثقافة بمصر.

بين غريب اللغة وغريب القرآن والحديث

أ. د. عبدالحميد السيد طِلِب
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

الغريب في اللغة كالغريب في القرآن الكريم، وهو ما يجد الإنسان معاناة أو صعوبة في فهمه، ويحتاج إلى من يفسر له هذا اللفظ، ويذلل له صعوبته، وتزول بذلك معاناته.

ومرجع ذلك في اللغة هو أن اللغة التي نقرأها اليوم لم تنشأ ـ كما يظن بعض الناس ـ مستوية اللفظ والفهم موحدة بين العرب جميعاً، فنحن نعلم أن العرب كانوا يعيشون متفرقين في شبه الجزيرة العربية، وليسوا على درجة واحدة من الرقي والحضارة والمعارف والثقافات، ولكلٍّ بيئته الخاصة بمعارفها ومشاهدها، كما أن درجة اختلاط العربي بأخيه العربي، أو بجاره الأجنبي تختلف من شخص إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.

واللغة العربية ـ لاشك ـ مرت بمراحل تبعا لهذا الاختلاف في البيئة ككل اللغات، وسارت في عدة أطوار حتى وجدناها آخر الأمر على الصورة التي نعرفها الآن.

ولقد ولَّد هذا الاختلاف في جملته ما أطلق عليه: (المترادفات)[1] ومظهر هذا

---

(١) لقد عرف الإمام فخر الدين المترادف بقوله: هو الألفاظ الدالة على شيء واحد باعتبار واحد (انظر المزهر للسيوطي ١/٤٠٢).

الترادف ملموس بين القبائل، فإحداها تستعمل اسماً لشيء معهود عندها، بينما نجد قبيلة أخرى تستعمل له اسماً آخر، وهكذا رابعة وخامسة إلخ. فقد قالوا إن العرب أطلقت على العسل ثمانين اسماً، وعلى السيف خمسين اسماً أو مائة اسم حتى إن كثيراً من العلماء قد اتخذوا المترادفات مادة لتأليفهم اللغوي، ومن ذلك ما ذكره السيوطي من أن صاحب القاموس قد ألف كتابا سماه: «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف»[1].

وهذا الترادف في اللغة هو الذي منحها سعة، وأعطاها ثروة في الألفاظ، وخاصة تلك التي تطلق على أشياء تقع تحت حواس العربي، وأمام بصره كالجمل والفرس والسيف، وكانت هذه السعة من المميزات التي يثيرها المتحمسون للعربية وفضلها»[2].

ومما وسع دائرة الترادف في اللغة، وكشف عن مكنونه، وأظهر كثيراً مما كان خافياً منه انتشار الإسلام، فقد وفد إلى مكة والمدينة جموع كثيرة من أجل الإسلام أو من أجل معرفة حقيقته، وكانت الوفود من قبائل شتى من أطراف الجزيرة، ولكل قبيلة معارفها وأسماؤها ومرئياتها في بيئتها، فاختلطت بغيرها وسمعت وأسمعت وتحدثت، فَعُلِمَ ما أطلقته على الأشياء من أسماءٍ لم تكن معروفةً لدى غيرها، كما ضَمَّتْ هي إلى معارفها أسماءً لأشياء تعرفها وتطلق عليها أسماءً أخرى، فزوَّد ذلك ميدان الترادف بأكثَرَ مما فعلت الأسواقُ الأدبية في الجاهلية ورحلات الشتاء والصيف، والتنقل للمرعى وطلب الكلأ وطلب الجوار والمصاهرة بين القبائل، وحروب الجاهلية، وما فيها من غلبة وأسرى ومفاوضات وصلح وديات.

وفيما سبق الإسلام من اختلاط، أو جاء معه وبعد ظهوره من وفود واستطلاع كانت اللغة هي المحكّ بين المتحدثين، فأفرز ذلك الكثيرَ من مفردات اللغة الداخلَ تحت اسم المترادفات. ولا أدل على هذا مما ذكرته الروايات من أن أبا هريرة لما قدم من (دوس) عام خيبر لقى النبي ﷺ، وقد حدث أن وقعت السكين

---

(١) المزهر ١/٤٠٧ وضحى الإسلام ٢/٢٤٥.
(٢) رواية اللغة للدكتور الشلقاني ٣٢٥.

من الرسول، فقال لأبي هريـرة: ناولني السكـين، فالتفت أبـو هريـرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد من قول الرسول، فكرر له القول ثانيـة وثالثـة، وهو يفعـل كذلـك، ثم قال: «آلمدية تريد؟» وأشار إليها، فقيل له: نعم، فقال: «أوتُسَمَّىٰ عندكم سِكّيناً؟ ثم قـال: «والله لم أكن سمعتها إلا يـومئذ»[١] فـالمترادفـات هنا (المـديـة والسكـين) جاءت عن طريق الوضع في اللغة عند كل قبيلة وليس بينهما تباين.

آراء علماء اللغة في الترادف

وقف علماء اللغة أمام المترادفات موقفين متباينين تماماً، ففريق: قال بـه وأقام الحجة على وجوده ومظهره، وفريق أنكره، وقال: إنه لا يوجد ترادف في اللغة.

علماء مؤيدون لظاهرة الترادف:

ومن الذين قالوا بالترادف وأكدوا وجوده العالم اللغوي الكبير (قُطْرُب) الذي اعترف به وذكر بعضاً من أسبابه حيث يقول:

«إنمـا أوقعت العرب اللفـظين على المعنى الـواحد ليـدلـوا عـلى اتسـاعهم في الكلام»[٢]، ومنهم التاج السبكي حيث يقول في شرح المنهاج:

«ذهب بعض الناس إلى إنكار المـترادف في اللغة العـربية، وزَعْمِ أن كـلَّ ما يُظَنّ من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات كما في (الإنسـان والبشر) فإن الأول موضوع له باعتبار (النّسيان)، أو باعتبار أنه (يؤنس)، والثاني باعتبـار أنه بـادي (البشرة)، وكذا (الخَندريس والعَقـار) فـإن الأول بـاعتبـار (العتق)، والثـاني باعتبار (عقر) الدَّنِّ لشدتها.

وتكلف لأكثرِ المترادفات بمثل هذا المقال العجيب»[٣].

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/٣٨٦ تحقيق الأستاذ الطناحي وانظر رواية اللغة للدكتـور الشلقاني ٣٢٧.

(٢) الأضداد: لابن الأنباري ٧.

(٣) المزهر ١/٤٠٣.

ومن المؤيدين للقول بوجود المترادفات تبعاً للغات القبائل (ابنُ جِنّي) حيث يقول:

«وما اجتمعتْ فيه لغتان أو ثلاث أكثر من أن يحاط به، فإذا ورد شيء من ذلك - كأن يجتمع في لغة رجلٍ واحدٍ لغتان فصيحتان - فينبغي أن تتأمل حال كلامه، فإن كانت اللفظتان في كلامه متساويتين في الاستعمال: كَثْرتهما واحدة، فإنّ أَخْلقَ الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت في ذلك المعنى على ذَيْنكَ اللفظين، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان شعرها، وسعة تصرف أقوالها.

وقد يجوز أن تكون لغته في الأصل إحداهما، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى، وطال بها عهده، وكثر استعماله لها، فلحقت - لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى»[1].

فابن جنيّ هنا يؤيد القول بوجود المترادفات في اللغة، ويُرْجِع وجودها إمّا إلى لغات القبائل، فكل قبيلة وضعت مفردها الدال على المسمى، وأما إلى نفس القبيلة أو شاعرها أو أديبها استجابة منه للحاجة إلى المفرد الثاني في أوزان شعره وتصرف قوله.

ونراه يؤيد رأيه الذي ذهب إليه في مكان آخر من كتابه (الخصائص) في نفس الباب (الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فأكثر)[2] فيحاول أن يدل القارىء أو السامع على أيِّ المفردين هو الأصل؟ وأيهما يكون مستفاداً من قبيلة أخرى؟، فيقول:

«وإن كانت إحدى اللفظتين أكثرَ في كلامه من صاحبتها، فأخْلقُ الحالين به في ذلك أن تكون القليلة في الاستعمال هي المفادة[3]، والكَثِيرَتُه هي الأولى الأصلية»[4].

---

(١) الخصائص ١/٣٧٢.
(٢) المرجع السابق ١/٣٧٠.
(٣) يريد بذلك اللغة الوافدة على المتحدث مرادفة للغته أو مفرده.
(٤) الخصائص ١/٣٧٢.

ويصر ابن جني على وجود المترادفات في اللغة ولو كانت لقبيلة واحدة كما سبق في حديثه، ومع ذلك ـ ومع إيمانه بالمترادفات ـ يرى أنها إذا كثرت فإنما تكون لقبائل متعددة في الغالب، ويقول في هذا:

«وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة، فسمعت في لغة إنسان واحد، فإن أحْرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفاً منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتوطأ في المعنى الواحد على ذلك كله.

هذا غالب الأمر، وإن كان الآخر في وجه من القياس جائزاً»[1].

ثم نراه في نفس الباب يُرَجِّحُ أن تكون المفردات واردة من عدة قبائل إذا ما كانت كثيرة متزاحمة كما سبقت الإشارة إلى أسماء العسل والسيف والفرس وغير ذلك فيقول:

«وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغاتٍ لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هنا»[2].

ويعقب ابن جني على رأيه في ذلك، فيقول:

«ورويت عن الأصمعي قال: اختلف رجلان في (الصقر)، فقال أحدهما: الصّقر (بالصاد)، وقال الآخر: السّقر (بالسين) فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو (الزُّقر). أفلا ترى كل واحد من الثلاثة: كيف أفاد في هذه الحال إلى لغته لغتين أُخرَيَيْن معها؟، وهكذا تتداخل اللغات»[3].

ومن مؤيدي الترادف في اللغة (الآمدي)، فقد سفه أحلام القائلين بإنكار الترادف في اللغة ووصفهم في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) بالخروج عما تعارف الناس عليه، ورد على حججهم، فقال:

---

(١) المرجع السابق ١/٢٧٣.
(٢) المرجع السابق ١/٣٧٤.
(٣) الخصائص ١/٣٧٤.

«ذهب شذوذ من الناس إلى امتناع وقوع الترادف في اللغة مصيراً منهم إلى أن الأصل عند تعدد الأسماء: تعدد المسميات، واختصاص كل اسم بمسمى غير مسمى الآخر»[1].

ويعقب على هذا بأنه لا يمتنع عقلياً أن يضع شخص واحد لفظين على مسمى واحد[2]، ثم يتفق الكل عليه، أو أن إحدى القبيلتين تضع اسماً، بينما تضع قبيلة أخرى لهذا الشيء المسمى اسماً آخر من غير معرفة كل من القبيلتين بما وضعته الأخرى»[3].

ويرى الآمدي في هذا الموضوع من كتابه أن «الدليل على وقوع الترادف في اللغة ما نقل عن العرب من قولهم: الصهلب والشوذب من أسماء الطويل، والبهتر والبحتر من أسماء القصير»[4].

ومن مؤيدي وجود الترادف في اللغة ابن خالويه، فقد كان كثيراً ما يفخر بأنه يحفظ لهذا المسمى أو ذاك خمسين اسماً أو أكثر وكانت له مع أبي علي الفارسي مجادلات في مجلس سيف الدولة الحمداني، حيث فخر ابن خالويه بأنه يحفظ للسيف خمسين اسماً، وكان ذلك في حضور جمع كبير من أهل اللغة في المجلس، فأنكر عليه أبو علي هذا قائلاً: إنه لا يحفظ له إلا اسماً واحداً هو السيف[5].

ومن القائلين بالترادف من العلماء المحدثين الأستاذ الكبير أحمد أمين رحمه الله في كتابه (ضحى الإسلام) حيث تحدث عن هذه الظاهرة ووقوعها كثيراً في لغتنا العربية، كما تحدث عن فوائدها ومضارها على اللغة، فذكر أن من فوائدها أنها تمكن الشعراء من نظم شعرهم وإطالة قصائدهم مع التزام حرف الروي والقافية، ولولا وجود هذه المترادفات لما استطاعوا ذلك، وهذا ما يفرق بين شاعر متمكن من

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣٢، ٣٣.

(٢) وهو بذلك يؤيد رأي ابن جني السابق ذكره، وانظر المزهر ١/٤٠٥، ٤٠٦.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٣٢، ٣٣، ورواية اللغة للدكتور الشلقاني ٣٢٩.

(٤) المرجعين السابقين.

(٥) المزهر ١/٤٠٥.

ناصية اللغة عالم بمفرداتها وغريبها ومتواترها، فينوّع القول ويجيد، وشاعر آخر قلّت حصيلته من ذلك، فقصر في القول، ولهثت أنفاسه بعد أبيات قليلة.

ومن الفوائد التي أشار إليها الأستاذ أحمد أمين للمترادفات ـ وإن كان ذلك مرتبطاً بالفائدة الأولى ـ أن المترادفات كانت أداة جيدة لبلاغة الكتاب وفصاحة الفصحاء فتباروا في ذلك وأظهروا قدرتهم على تملك الأداة الطيعة لإظهار ذلك في كتابتهم ورسائلهم وتصنيفاتهم.

أما عن مضارها، فقد تحدث الأستاذ أحمد أمين عن أمرين هامين في اللغة:

أولهما: أن المترادفات قد ضَخَّمت اللغة ضخامة فاقت الحد، وهذا حق، فقد وقف أبناؤها أمام هذا السيل الجارف من المفردات المترادفة عاجزين خائفين، وهذا ما حدا بكثير منهم إلى العزوف عن دراستها، واعتبارها لغة صعبة متراكبة، وخاصة في طور التعليم، أو في طور تكوين الشخصية الأدبية.

ثانيهما: أن اللغة العربية ـ بهذه المترادفات ـ قد خالفت اللغات الأخرى التي يقبل عليها الطلاب والمتعلمون، لأن هذا الأمر قد جعل الإلمام بالعربية شيئاً مستحيلاً[(١)].

والأستاذ أحمد أمين على حق فيما قرره، فالمترادفات حقيقة واقعة غير منكورة، وبرغم ما ذكره لها من فوائد كبيرة في بناء اللغة، فإن ما ذكره هنا من المضار أيضاً حقيقة واقعة، والقائمون على التعليم في مراحله المختلفة من المدرسة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية يلحظون كم يعاني المتعلمون من كثرة المترادفات ووقوفهم أحياناً عاجزين عن فهم لفظ أو ألفاظ منها، فإذا ذهبوا إلى المصادر اللغوية وجدوها مرادفات لألفاظ أخرى يعرفونها تمام المعرفة.

وممن يؤيد ظاهرة (الترادف) في اللغة من علمائها المحدثين الأستاذ الدكتور عبدالحميد الشلقاني صاحب (رواية اللغة) حيث يرى أنه ظاهرة طبيعية في المجتمع وخاصة في مجتمع الجزيرة العربية، فيقول:

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٤٥.

«ولكن تصورنا للغة على ما نلمسه من واقع العامية التي نتحدث بها، وهي كلغة تتمتع بكل المقومات المشتركة في جميع اللغات لا يؤيد هذا الرأي الذي يراه ابن الأعرابي وكثير غيره في إنكار الترادف.

ففي المجتمعات التي تحققت لها ظروف خاصة من يقول: (الطماطم والقوطة) و(القرع والكوسة) و(الصحن والطبق)، وكل زوجين منها يعني شيئاً واحداً لا فارق فيه ولا تباين، فإذا أخذنا في مذاكرة هذه الظروف وجدنا ما يماثلها عند العرب كأن ينتقل نفر من أهل القاهرة يعيشون فترة الصيف في الاسكندرية، ويزيد عددهم في حي من الأحياء، يشترون (القوطة والكوسة) من بائع (والطماطم والقرع) دون أن يتشبث واحد من الوافدين أو المقيمين بلهجته الخاصة، إما للكياسة في الضيافة أو البراعة في التجارة، أو التماساً للمشاركة الوجدانية أو غير ذلك من أسباب، وفي مثل هذا الظرف يتحقق الترادف بمعنى إزدواج الاسم أو تعدده لمسمى واحد.

وإذا حصل هذا في مجتمع مستقر كمجتمعنا فإننا نتوقع أن يحصل أكثر منه في مجتمع يرتحل للنجعة، ويدور في الأسواق، ويحج إلى مكة، وفي كل هذه الأماكن تجود الغلبة الكلامية، وتنفق سوق اللغة أكثر مما في أيديهم من بضاعة وتجارة.

ثم كان الإسلام، وقد اجتمع هؤلاء الناس من كل فج في وفود تأتي مستكشفة أمر هذا الدين، وفي جموع تلتقي لتدافع عنه وتبشر به، وتذهب في سعيها غازية إلى أقاصي البلاد وفي ديار غير ديارها، كل أولئك مما يحقق التبادل اللغوي ويخلق الترادف[1]».

ويعلق الدكتور الشلقاني على حادثة سقوط السكين في مجلس رسول الله ﷺ وكان أبو هريرة وافداً عليه عام خيبر، وما دار بينهما مما يفيد أن قريشاً كانت تعرف (السّكين) بينما قبيلة أبي هريرة ماكانت تعرف هذا الاسم، وإنما كانت تسميها (المدية) فيقول:

«وهنا تتحقق المناسبة لتجتمع كلمتان لمسمى واحد عند أبي هريرة لا فرق

---

(١) رواية اللغة ٣٢٥، ٣٢٦.

فيهما ولا تباين بينهما، فـ (السكين) القرشية التي سمع اسمها لأول مرة هي (المدية) التي التقطها والتي تعرف عند الأزديين بهذا لاسم»[١].

علماء ينكرون الترادف:

ومن علماء اللغة من أنكر الترادف في لغتنا العربية، ويرى أن الأمثلة الكثيرة التي جاءت على ألسنة العرب، وعنون لها بعض العلماء باسم (المترادفات) لم تكن كذلك، بل إن الناطقين بها ما كانوا يقصدون هذا، وإنما كانوا يقصدون الشيء وصفته أو الشيء وما يقترب منه معنى، كما يقولون إن الناظر في أسماء السيف أو العسل أو الفرس لا يجد ترادفاً بين ما أطلقوه على هذه الأشياء، بل هناك اسم واحد لكل مسمى[٢]، وما ذكر معه مما سمى بالمترادفات يشير إلى صفة في العسل أو السيف أو الفرس، أو يشير إلى خصوصية فيه، فالعسل مثلا غير: الشَّوبِ والضَّربِ والذَّوْبِ الخ مما جاء من صفات العسل[٣].

وكان ابن الأعرابي من المنكرين لظاهرة الترادف في اللغة، وقد تأثر في ذلك بثعلب، وقال بما قال به، وهو: أنَّ «كلَّ حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه[٤].

وأنكر ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس) الترادف في كتابه الذي ألفه باسم (فقه اللغة العربية وسنن العرب وكلامها) وكان مقتديا بشيخه (أبي العباس ثعلب) أمام مدرسة الكوفة في ذلك العصر، ونقل السيوطي في كتابه (المزهر)[٥] عبارته، حيث يقول ابن فارس: «يسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهندِ والحُسامِ، والذي نقوله في هذا: إن الاسم واحدوهو (السيف) وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها، فمعناها غيرُ الأخرى، وقد

---

(١) رواية اللغة ٣٢٧.

(٢) المزهر ١/٤٠٨، ٤١٠.

(٣) أنظر لسان العرب في المواد: شوب ـ ضرب ـ ذوب، وغيرها من المواد التي اشتملت على ما ذكر للعسل من صفات ظن أنها مترادفات.

(٤) أنظر الأضداد لابن الأنباري ٧.

(٥) المزهر ١/٤٠٣، ٤٠٤.

خالف في ذلك قوم، فزعموا أنها وان اختلفت ألفاظها فإنها ترجع إلى معنى واحد، وذلك قولنا: سيف وعضب وحسام».

وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع قالوا: (ففي (قَعَد) معنى ليس في (جَلَس)، وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمدَ بن يحيى ثعلب[1]» ومضى ابن فارس في طرح رأيه وأدلته على ذلك.

ويبدو أن كلا من ابن الاعرابي وابن فارس قد تأثرا بإمام مدرسة الكوفة (أحمد بن يحيى ثعلب) وقد ذكرا ذلك صراحة في حديثهما ورأيهما.

ومن المنكرين للترادف أبو علي الفارسي، وكان يقف لابن خالويه في مجالس سيف الدولة ويعارضه، ومما عارضه فيه: ظاهرة الترادف، فقد ذكر السيوطي بعض ما دار بينهما في هذا الصدد فقال:

«وقال العلامة عز الدين بن جماعة في شرح جمع الجوامع: حكى الشيخ القاضي أبو بكر العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم (ابن خالويه) فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسما، فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا إسما واحدا، وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة[2].

وممن أنكروا الترادف أبو هلال العسكري صاحب كتاب (الفروق اللغوية)، وقد قال برأي ثعلب وابن الاعرابي وأبي علي الفارس، وأثبت رأيه في كتابه وهو يتحدث عن هذه القضية فقال:

«إن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة،

---

(١) أنظر المزهر ١/٤٠٤ وفقه اللغة لابن فارس ٦٦، ٦٧، ورواية اللغة للدكتور الشلقاني ٣٢٨، ٣٢٩.
(٢) المزهر ١/٤٠٥.

فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلا لا يُحْتاج إليه[1]». ثم مضى في حديثه عن الفروق الدقيقة بين ما قال عنه الفريق الآخر إنه (مترادفات) وبنى كتابه (الفروق اللغوية) على أساس بيان تلك الفروق بين الكلمات التي استعملها العرب على شيء واحد، ولكنه كما يقول الدكتور الشلقاني: « بعد أن استفرغ جهده كان أمامه من الكلمات مالم يستطع أن يوضح فيها تباينا[2]، فقال:

«فإذا اعتُبِرَت هذه المعاني وما شاكلها في الكلمتين، ولم يَتَبَيَّنَّ لك الفرق بين معنييهما، فاعلم أنهما من لغتين مثل (القدر) بالبصرية، و (البُرْمة) بالمكية[3]».

ويعقب الدكتور الشلقاني على عبارة أبي هلال العسكري الأخيرة التي تظهر عجزه أمام بعض الكلمات التي تطلق على الشيء الواحد بلفظين أو أكثر فيقول:

«وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى أن أباهلال العسكري ـ وهو ينكر الترادف أساسا ـ لا يعتبر اللفظ المنقول من لغةٍ أو لهجةٍ أخرى محققا للترادف[5]».

وإذا كان الأمر كذلك فإن أبا هلال العسكري يتحدث عن شيء آخر غير قضية الترادف اعترافاً أو انكاراً، لأنه بهذا يبني انكاره للترادف على أساس وجود كل الألفاظ الدالة على الشيء الواحد في لغة واحدة أو لهجة واحدة، وأن ماجاء من لغات أو لهجات أخرى فقد سكت عن بيان الفروق فيه لأنه استعصى عليه.

وحقيقة الأمر أن المؤيدين للقول بوجود الترادف في اللغة إنما بنوا تلك الظاهرة على أساس ما جاء في اللغات أو اللهجات التي تندرج تحت اللغة العربية، وهذا هو الأعم الأكثر، أما ما مثلوا له من المترادفات تقع من قائل واحد أو شاعر واحد مثلا فذلك جائز، ولكنه قليل نادر، ولا يقع إلا لغرض في نفس القائل، هكذا قال المؤيدون، وضربوا الأمثال على ذلك، ومنها أنه لا يعقل أن يطلق الشخص الواحد أو حتى القبيلة الواحدة على الشيء الواحد خمسين اسما، أو ثمانين أو أكثر أو أقل، فهذا مما لا يقبله عقل ولا يقول به عاقل.

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ط) القدس سنة ١٣٥٣ هـ.
(٢) رواية اللغة ٣٢٩.
(٣) الفروق اللغوية ١١.
(٤) رواية اللغة ٣٢٩.

وعلى هذا فأبو هلال العسكري يتحدث في وادٍ غير الوادي الذي يتحدث فيه أصحاب الرأي القائل بالمترادفات.

وفي هذا المقام نرى الأصفهاني يقول: «وينبغي أن يُحْمل كلام من منع على منعه في لغة واحدة، فأما في لغتين فلا ينكره عاقل[1]».

وهذا الذي ذهب إليه الأصفهاني يَدْحَضُ ما ذهب إليه أبو هلال من إنكار الترادف إذا كان من لغتين أو من لهجتين، كما يشير إلى ضعف قول من قال بالترادف منسوباً لقائل واحد أو قبيلة واحدة.

وفي الفوائد التي ذكرها السيوطي في المزهر في هذا المجال قوله: «قال أهل الأصول: لوقوع الألفاظ المترادفة سببان:

أحدهما: أن يكون من واضِعَيْن، وهو الأكثر، بأن تضع إحدى القبيلتين إحدى الاسمين، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان ويخفي الواضعان، ويلتبس وضعُ أحدهما بوضع الآخر، وهذا مبني على كون اللغات اصطلاحية؛ والثاني أن يكون من واضح واحد، وهو الأقل[2].

طريق وسط :

ورأينا من العلماء من ذهب إلى التوفيق بين أصحاب الرأيين المتباينين: المؤيد والمنكرِ للمترادفات، فوضع تبريرا لكلا الرأيين، وهو الشيخ العلامة عز الدين بن جماعة حيث يقول السيوطي:

«وقال الشيخ عز الدين: والحاصل أن من جعلها مترادفة ينظر إلى اتحاد دلالتها على الذات، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنىً، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات[3]».

---

(١) المزهر ١/٤٠٥.
(٢) المرجع السابق ١/٤٠٥، ٤٠٦.
(٣) المزهر ١/٤٠٥.

ثم انتقل إلى القول بأن فريقا من المتأخرين قال: «ينبغي أن يكون هذا قِسْماً آخر، وسماه (المتكافئة)، قال: وأسماء الله تعالى وأسماء رسول الله ﷺ من هذا النوع، فإنك إن قلت: إن الله (غفور، رحيم، قدير) تطلقها دالة على الموصوف بهذه الصفات[1]».

وعقد الدكتور عبدالحميد الشَّلَقَاني فصلا في كتابه (رواية اللغة) تحت عنوان (المترادف والمشترك)، وقد أفدت منه كثيرا، وقد ذكر في اختصار مفيد رأي الفريقين في ظاهرة الترادف، ثم عقب على ذلك بتحليل عميق ووجهة نظر يمكن أن تكون نقطة انطلاق لدارس المترادفات، حيث يقول متمسكا برأيه المؤيد للمترادفات.

«ومبلغ القول بعد هذه الدراسة التي تناولت حجج المؤيدين والمنكرين هو تأكيد القول بالترادف إذا أمكن اطلاق اسمين أو أكثر على مسمى واحد من غير تباين بينهما دون اعتبار إلى تطور سابق كانت فيه اللفظة متباينة عن أختها أو منقولة من لهجة أخرى، إذ العبرة بحالية الخاصية، فمن الممكن أن تكون الألفاظ ترادفت وضعاً أو نقلاً من لهجات، أو معربةً عن لغة أخرى، بحيث تحقَّق لها أن يسيرَ الاسمان أو الأسماء على توازٍ وقدرٍ مشتركٍ، وعلى هذا فمن الممكن أن تعد من المترادفات ما كان متباينا في وقت من الأوقات، ثم عملت الظروف اللغوية على زوال الفروق بينهما، فـ (اللّبُ والعقلُ) كان يراهما أبوهلال في كتاب الفروق اللغوية متباينَيْنِ دون أن يستطيع الاشارة الى وجه التباين بينهما. فإن لم نستطيع بدورنا أن ندرك الفرق بينهما، ورأيناهما يُسْتعملان بمعنى واحدٍ فأولى بنا أن نعدهما مترادفين، إذ ليس من الصحيح أن نتعلق باللغة حيث كانت، ونتوقف عن فهمها حيث تسير، وخاصة في موضوع يُنْمِيه التطور[2]».

الترادف والغريب:

وسواء قلنا بالترادف فسلمنا بأن العرب في لهجاتها ولغاتها وقبائلها قد نطقت

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رواية اللغة ٣٣٠.

بما قال به المؤيدون لظاهرة الترادف من أسماء متعـددة للشيء الواحد، تراوحت بـين اثنين إلى ألوف كما قالـوا، أو قلنا بـرأي من أراد أن يجعل تلك الأسـماء التي أطلقت على المسمى الواحد أنها من قبيل الصفات، وأنكر ظاهرة المترادفات، فإن ما توصلنا إليه في هذا لا يُمَكِّننا من القول بـأن العربيَّ كـان عالمـا بكل هـذه المترادفـات أو هذه الصفـات، بل هـو يعرف مفردات منها، ويخفي عليـه الكثيرُ الكثـيرُ من معـاني تلك الأسـماء إذا ما صـادفته في اللغـة نثراً أو شعـراً أو في القرآن الكـريم، مما يجعـل من الصعب عليه أن يجتهد رأيه ليعرف المعنى، فاحتاج إلى من يفسر له ما غمض عليـه أو ما صعب أو شق من مفردات اللغة ومفردات القرآن الكريم، وهـذا ما أُطْلِق عليـه (غريب اللغة) و (غريب القرآن).

وهكذا ظهرت إلى الوجود مصنفـات في المفردات أو غـريب اللغة، ويـدخل فيها المعاجم اللغوية، كـما ظهرت إلى الـوجود مصنفـات أخرى تحت أسـماء (غريب القرآن) أو (تفسير غريب القرآن) أو (تفسير مشكل القرآن)، أو (معاني القـرآن) أو (معاني القرآن وإعرابه).

والذي حدا بهؤلاء العلماء من لغويين ومفسرين إلى ذلـك يرجـع معظمـه إلى الترادف في اللغة، وصعوبة فهم بعض مفرداتها، وعـدم الإحاطـة بكل معـاني تلك المفردات من لدن الشخص الواحد، فكان لزاماً عليهم أن يصنفوا في ذلك، ليعرف القـارىء أو المطلع عـلى كتاب الله معنى مـا شقَّ عليه، أو وجـد في فهمه مُعـانـاةً أو صعوبة.

ثانيا: المشترك في اللغة:

واللغة العربية غنية بالمشترك اللغوي، وهو «اللفظ الواحد الدال على معنيـين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل اللغة».(١)

والمشترك اللفظي في العربية موجود ثابت لا ينكره إلا منازع، وفي عربيتنا كثير من الألفاظ التي تطلق على عدة معان سواء أكان بين هذه المعاني صلة أم لا، ويـرى

---

(١) المزهر ١/٣٦٩.

بعض العلماء أن المشترك اللفظي الحقيقي هو ما يكون المعنيان فيه متباينين تحت لفظ واحد، وهذا رأي ابن دَرَسْتويه، وتبعه في ذلك أستاذي الدكتور ابراهيم أنيس رحمه الله حين يقول: «ذلك لأن المشترك اللفظي الحقيقي إنما يكون حين لا نلمح أي صلة بين المعنيين» وضرب مثلا لذلك بكلمة (الأرض) وهي الكرة الأرضية، وهي أيضا الزكام[1]، وكأن يقال لنا: إن (الخال: أخو الأم والشامة في الوجه ـ والأكمة الصغيرة[2]، وكانت أكثر ألفاظ المشترك اللفظي كلمة (العَيْن) كما ذكر ذلك ابن درستويه وابن المُعَلَّى والفارابي والتبريزي والسيوطي[3].

أما ما جاء في ظاهرة من المشترك اللفظي، وكان بين المعنيين أو المعاني اتصال بصورة ما، فإن الدكتور ابراهيم أنيس يعتبره من باب المجاز مقتديا في ذلك برأي ابن درستويه الذي أنكر معظم الألفاظ التي عدت من المشترك اللفظي فكلمة (الهلال) مثلا تعبر عن:

(هلال السماء ـ حديدة الصيد التي تشبه شكل الهلال ـ وقُلامة الظفر التي تشبه في شكلها الهلال أيضا ـ وهلال الفعل وهو يشبه في شكله الهلال)[4].

كل ذلك لا يعتبر من المشترك اللفظي لأن المعنى واحد في كل هذا وقد لعب المجاز دوره في كل هذه الاستعمالات[5].

وقد صنف الأقدمون كثيراً من الكتب في المشترك اللغوي ومن هؤلاء: أبومحمد يحيى بن المبارك اليزيدي، والأصمعي وأبوعبيد القاسم بن سلام وأبوالعميثل الأعرابي، وكُراع النمل، وأقدم كتاب وصلنا من مصنفات هؤلاء كتاب الأجناس لأبي عبيد ٢٢٤ هـ ثم كتاب أبي العميثل ٢٤٠ هـ وهو بعنوان (كتاب ما

---

(١) والأرض النفضية والرعدة، وأسفل قوائم الدابة، ومصدر (أرض) من الأرضة أنظر المزهر ١/٣٧١.

(٢)،دلالة الألفاظ (٢١٠).

(٣)،أنظر المزهر ١/٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥.

(٤) المزهر ١/٣٧٢.

(٥) من قضايا اللغة والنحو للدكتور أحمد مختار عمر ص ٢٨ وقد عقد الدكتور مختار فصلا كاملا حول هذا الموضوع وموضوع الأضداد في كتابه المشار إليه عرف فيه المشترك اللغوي وأنواعه ورأى العلماء القدامى والمحدثين فيه فارجع إليه من ص ١٢ ـ ٤٦.

اتفق لفظه واختلف معناه) ثم كتاب المبرد (ما اتفق لفظه واختلف معناه) وهو يختص بما في القرآن الكريم، وكتاب كراع النمل وهو بعنوان (المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه) وكتاب الأصمعي وهو بعنوان (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه)[1] أما كتاب اليزيدي (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه) فقد ذكره صاحب الفهرست ٧٥ (ط) الرحمانية.

وانتقل التصنيف في المشترك اللغوي في اللغة إلى التأليف في المشترك اللغوي في التفسير ومعاني القرآن، ولكنه جاء بأسماءٍ مختلفة منها:

الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي.

والتصاريف ليحيى بن سلام.

وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد.

ونزهة الأعين النواظر لابن الجَوزي.

الوجوه والنظائر للدامغاني.

تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي.

وكثير غير هذا.

ولا شك أن المشترك اللغوي هو الذي أدى إلى ظهور هذه الكتب في اللغة وفي التفسير لما يجده القارىء للغة أو للقرآن الكريم من صعوبة في فهم المعنى المراد للكلمة في مواضعها، وقد أنقذته هذه المصنفات من حَيْرته أمام الاستعمالات الكثيرة للكلمة الواحدة فاهتدى بضوئها إلى المراد من ايرادها لغة أو قرآنا.

الأضداد:

ولو أمعنا النظر في ألفاظ جاءت في العربية تحمل معنى وضده أطلق عليها اسم (الأضداد).

لوجدناها نوعا من المشترك اللفظي الذي سبق الحديث عنه ولكن في صورة خاصة فكلمة (الجَوْن) مثلا تطلق على الأسود والأبيض، وكلمة (الجلل) تطلق

(١) أنظر من قضايا اللغة والنحو ١٢ ـ ١٦.

العظيم القليل، وكلمة (الرَّهو) للارتفاع والانحدار، و(المقوي): للقوي والضعيف، و(القرء): للحيض والطهر.

وتأكيدا لهذا نرى المبرد في كتابه (ما اتفق لفظه واختلف معناه) يعتبره كذلك ففي أول كتابه هذا يقول:

«من كلام العرب»:

١ ـ اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين.

٢ ـ واختلاف اللفظين والمعنى واحد.

٣ ـ واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين.

فالأول وهو ما أشار إليه بقوله (اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين) فإن ذلك هو طبيعة الألفاظ التي تتكون منها الجمل والعبارات، ولذا مثل له المبرد بكلمات: (ذهب ـ جاء / قام ـ قعد / ـ رَحْل ـ فرس / ـ يد ـ رِجْل).

الثاني: وهو اختلاف اللفظين والمعنى واحد فهو (المترادفات) التي قدمنا الحديث عنها، ومثل لها بقوله (حسبت وظننت) و (قعدت وجلست) و (ذراع وساعد).

وأما الثالث: هو (اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين) فيشير به إلى المشترك اللغوي، ومثل له بالفعل: وَجَد: بمعنى وجدان الضالة والحصول عليها.

بمعنى الموجدة.

بمعنى عَلِمَ.

وكذلك مثل بالفعل:

ضَرَبَ: بمعنى وقع عليه الضرب والأذى.

بمعنى ضرب المثل.

بمعنى الضرب في الأرض أي السير فيها والتجول حتى ابتعد عن مكانه الأول.

وكذلك مثل لهذا بلفظ:

العَيْن: عين المال.

العين المبصرة.

المال الحاضر.

عين السحاب الآتي من القبلة.

حقيقة الشيء.

عين الميزان[1].

ويعقب المبرد بعد ذكر هذه أمثلة المشترك اللغوي فيقول «وهذا الضرب كثير جدا».

وجعل المبرد (الأضداد) من قبيل المشترك اللغوي حيث نراه بعد أن يذكر الأمثلة المختلفة للمشترك اللغوي، ويعتبره كثيرا جدا في اللغة يقول:

«ومنه ما يقع على شيئين متضادين كقولهم»:

جَلَل للكبير والصغير وللعظيم أيضا.

والجَوْن للأسود والأبيض وهو في الأسود أكثر.

والمقوي للقوي والضعيف.

والرّجاء للرغبة والخوف[2].

ثم يعقب على هذا بقوله «وهو أيضا كثير»[3].

ونرى نفس التقسيم عند ابن فارس، وهو يكاد يتطابق مع تقسيم المبرد، وقد أفرد له ابن فارس في كتابه (فقه اللغة) بابا أسماه: (باب أجناس الكلام في الاتفاق والافتراق) وذكر فيه ما ذهب إليه المبرد من تقسيمات وزاد عليها:

اختلاف اللفظين وتقارب المعنيين كقولنا: مَدَحه: إذا كان حيا وأَبَّنَهُ: إذا كان ميتا.

وتقارب اللفظين واختلاف المعنيين كقولنا: حَرِجَ: إذا وقع في الحرج وتحرَّج: إذا تباعد من الحرج، ومثلها: أَثِمَ وتأثَّم، وفَزِع وفُزِّعَ.

---

(١) ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد للمبرد ص: ٢، ٣ والمزهر للسيوطي ١/٣٨٨.

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ٣ ـ ٨ (ط) المكتبة السلفية. ١٣٥٠ هـ مصر.

(٣) المزهر للسيوطي ١/٣٨٨.

وتقارب اللفظين والمعنيين: كالحَزْنِ والحَزْمِ والخَضْم والقَضْم[1].

كذلك عقد أبوعبيد القاسم بن سلام في كتابه: «الغريب المصنف» باباً، أطلق عليه «باب الأضداد» وقد ذكر فيه، أمثلة كثيرة مشابهة لما ذكرناه هنا[2].

وممن ألف في الأضداد تأليفاً مستقلا:

قطرب ٢٠٦ هـ.

الأصمعي ٢١٦ هـ.

ابن السكيت ٢٤٤ هـ.

وأبوحاتم ٢٥٥ هـ.

ابن الأنباري ٣٢٨ هـ.

أبوالطيب ٣٥١ هـ.

ابن الدهان ٥٦٩ هـ.

الصاغاني ٦٥٠ هـ.

وقد حققت هذه الكتب جميعا ونشرت في مصر والكويت وبيروت والنجف ودمشق[3].

والذي يعنينا في ميدان الغريب في اللغة وفي القرآن الكريم هو أن نعرف أن الأضداد في اللغة من قبيل المشترك اللغوي كما ذهب إليه كثيرٌ من علماء اللغة القدامى ،وأن العربي كان بحاجة ماسة للكشف عن هذا المشترك اللغوي ومعرفة المعاني المختلفة التي تقع تحته،سواء أحدث بينها تضاد أم لم يحدث. وكذلك نستطيع القول بأن المصنف في غريب القرآن أو معانيه أو أوجهه ونظائره لا يمكن إلا أن يكون عالما باللغة ومفرداتها، خبيراً بمترادفاتها ومشتركها وأضدادها، فألفاظ القرآن الكريم سَهُلَتْ أو صَعُبَتْ هي ألفاظ العربية بكل مقوماتها، وعلماء اللغة ـ بما قدموا من تصنيفات في هذا المجال ـ أعانوا على فهم غريب القرآن ومتشابهه ومشكله، وفتحوا أما المفسرين أبوابا واسعة دخلوا منها إلى علوم القرآن.

---

(١) المرجع السابق ٣٨٩/١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أنظر ما ذكره عن الأضداد ومؤلفاته الدكتور أحمد مختار في كتابه: من قضايا اللغة والنحو ٣٦ ـ ٤٦.

بين غريب القرآن وغريب الحديث

حافظ المسلمون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ محافظة لم يحظ بها كتاب سماوي سابق أو شرعة سماوية سالفة، فتخصص جمع من المسلمين في كتابة القرآن الكريم وتلقيه شفاها عن رسول الله ﷺ الذي ما كان ينطق عن الهوى، ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية، واستشهد كثير من الحفّاظ فيها خاف المسلمون على القرآن الكريم، وهو دستورهم وأصل دينهم، وفيه شرعتهم ومنهاجهم، فَهُرِعُوا إلى الخلفاء الراشدين وأولهم أبوبكر الصديق وطالبوه بجمع القرآن من الألواح ومقابلتها بما في الصدور وكتابة ذلك كله في مصحف حسب العرضة التي تمت بين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وجبريل عليه السلام.

وأسهم الخلفاء الراشدون جميعا في هذا العمل الجليل، ووَحَّد عثمان المسلمين على مصحف واحد خالٍ من الاشارات إلى لهجات القبائل أو طريقة أدائها أو إلى الفواتح والعشور، وكتب مصحفه هذا بالقراءة التي جاءت بلهجة قريش، وهي التي كانت غالبة في الجزيرة العربية.

ولقد رأى المسلمون أن أول ما يجب عليهم نحو القرآن هو ضبطه وصونه من التحريف واللحن، بعد أن دخلت الإسلام الأعداد الكبيرة من غير ذوي اللسان العربي إلى الإسلام، وهؤلاء كان لابد لهم من معايشة العرب وأداء فرائض الدين وقراءة القرآن ومعرفة معانيه، وكل ذلك يوجب على علماء المسلمين من العرب الفاهمين لأسرار العربية المتّصفين بالحس القوي المرهف والسليقة العربية المستقيمة أن يسارعوا إلى محاربة اللحن والتصحيف الذي شاع في ذلك الوقت، فرأينا منهم من أسهم بنقط القرآن نقط اعراب كأبي الأسود الدؤلي، وقد قال لكاتبه العبارة المشهورة: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة من أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فإذا اتبعت ذلك شيئا من غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين، ففعل ذلك[1]. وكان هذا بمدادٍ مخالفٍ لما كتب به المصحف.

---

(١) إنباء الرواة ١/٥،٦.

ويعتبر هذا ـ أول تفكير في وضع قواعد النحو، وتَلَقَّفَ تلاميذ أبي الأسود بعض فكر أستاذهم، فاستغلوه عندما اشتد اللحن أيام الحجاج في زمن عبدالملك بن مروان، فطلب منهم أن يجدوا طريقة لمحاربة اللحن، فمازال الناس يلحنون في القرآن على الرغم من نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود، فوضعوا نقط الإعجام، والمراد به: النقط الذي يُزِيل العجمة عن الكلمة وحروفها، وبخاصة أن كثيراً من الحروف في العربية متشابهة الرسم والشكل: مثلثة ومثناة، من المثلثات: الباء والتاء والثاء وأيضاً: الجيم والحاء والخاء، ومن المثناة شكلاً: الدال والذال ـ والراء والزاي ـ والسين والشين والصاد والضاد ـ والطاء والظاء ـ والعين والغين ـ والفاء والقاف[1].

فقاموا أولا بنقط الحروف المتشابهة الكثيرة الدوران، وقد قام بذلك: نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، ثم رأى الناس أن اللحن أيضا مازال موجوداً على ألسنة الناس، فقام يحيى بن يعمر. وقيل: ومعه الحسن البصري بنقط الحروف المتشابهة الأخرى التي لم تكن قد نقطت في المرة الأولى[2]. وتلك الرواية تُغْفِلُ ذكرَ نصر بن عاصم.

ومن عناية المسلمين بالقرآن الكريم أن تخصصت طائفة منهم بحفظه وإجادته وأطلق عليها طبقة الحفّاظ، وهذه الطبقة كانت مع الرسول في المدينة، وبقي كثير منهم بعده فيها أيضا.

وأشهر هؤلاء عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأُبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وأبو الدرداء الأنصاري وأبو موسى الأشعري، وعن هؤلاء أخذ جماعة من الصحابة والتابعين في البلاد الإسلامية سواء في ذلك المدينة ومكة والشام والكوفة والبصرة.

وتخصصت طائفة منهم بإقراء القرآن لمن يريد، وهذه الطبقة عرفت بطبقة القرّاء، وشملت عددا كبيراً من الصحابة والتابعين، وقد استشهد كثير من الطبقتين

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ٢٧٦.

(٢) تاريخ النحو وأصوله القسم الأول ص ٣٩ وتاريخ القرآن للزنجاني ٦٧ وفيات الأعيان ١/١٢٥ وفي التحديد ٣/٥٦.

في غـزوات الرسول وفي الغزوات الخـارجية ضـد الفرس والـروم، وكان من بينهم أشهر القراء في المدينة.

ولما ازدهرت الحياة الإسلامية والاجتماعية في كل من البصرة والكـوفة، ذهب كثير من الطائفتـين من صحابـة رسول الله وتـابعيهم إلى هاتـين المدينتـين، وكوّنـوا مجتمعا دينيا كبيرا وبخاصـة في الكوفـة حيث اجتمع فيهـا: علقمة بن قيس النخعي والأسـود بن يزيـد النخعي ومسروق ابن الأجـدع الهمـداني وعُمـر بن شُـرَحْبِيـل، والحـارث بن قيس وعمـر بن ميمـون وأبـوعبـدالـرحمن السُّلمي وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وعامر بن شرحبيل الشعبي[1].

وبجانب هاتين الطبقتين نشأت طبقة ثالثة وبخاصة في الكوفـة اعتنت بمعرفـة وجوه قراءاته وإعرابه وتفسيره وتأويله ونواحي إعجازه ومعرفـة ناسخـة ومنسوخـه، وهكذا نشأت حول القرآن علوم كثيرة اعتنت بالنواحي التي ذكرناها، كما اعتنت بما ترتب على تفسيره من قيام علوم شرعية أولها الفقه الإسلامي والفتوى[2].

غريب القرآن

وإلى جانب ما تقدم اهتم علماء العربيـة بتفسير الغـريب في القرآن وشرح مـا يصعب من معـاني ألفاظـه، وقد كـان في بادىء الأمـر قليلا ثم كـثر، ولعله سار في نفس الطريق التي سار فيها تصحيح اللحن ومحاربته، فقد كان اللحن قليلا ثم شاع ـ كما قلنا ـ بسبب اختـلاط العرب بـإخوانهم من غـير ذوي اللسان العـربي الـذين دخلوا في دين الله أفواجا.

فـالمسلمون الأوائـل كانـوا على سليقـة عربيـة مستقيمة ورثـوهـا عن آبـائهم وأجدادهم، والقرآن الكريم نزل بلسانهم كما قال الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مبينٍ﴾[3] فلم يكونوا في حـاجة إلى تفسـير غريب، ولم يصعب عليهم منـه إلا القلَيل النـادر الذي

(١) المرجع السابق ١١٦ (تاريخ النحو).
(٢) المرجع السابق الخطط للقزويني ١٤٢.
(٣) آية ١٩٥ من سورة الشعراء.

كـان باستـطاعتهم أن يفهموا المـراد منه بسيـاق الآية وبـالحس العربي، والـرسـول الكريم كان بين ظَهْرانَيْهِمْ، ومعه صحابته الفصحاء البلغاء، والرجوع إلى الرسول الكريم وصحابته لم يكن أمراً يَشُقُّ عليهم، ولكن الرسول الكريم صلوات الله عليه قبض، وكذلك صحابته، ومع مرور الزمن ودخول اللسان غير العـربي إلى الإسلام وجدت الغرابة بين القرآن وقارئـه شيئا فشيئـا، وساعـد على ذلَـك بُعْدُ العَـرب عن السليقة بسبب الاختلاط وفسـاد الألسنة، فكـان لا بد لهم من شرح غـريب القرآن وتفسير ما يشق عليهم فهمه، ويقول ابن الأثير في مقدمة كتابه النهاية:

«واستمر عصره ﷺ إلى حين وفـاته عـلى هذا السنن المستقيم، وجـاء العصر الثاني، وهو عصر الصحابة جاريا على هذا النمط سالكا هذا المنهج، فكـان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروسا، لا يتداخلُه الخلل، ولا يتطرق إليه الـزلل، إلى أن فتحت الأمصـار وخـالط العـرب غـير جنسهم من الـروم والفـرس والحبش والنبط وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بـلادهم، فاختلطت الفـرق، وأمتزجت الألسن، وتداخلت اللغات، ونشأ بينهم الأولاد (أي الـذين ولدوا من غـير العرب ونشأوا مع أولادهم) فتعلموا من اللسان العربي مالا بدّ لهم في الخطاب منه، وحفظوا من اللغة مالا غنى لهم في المحاورة عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليـه، وأهملوه لقلة الرغبة في البـاعث عليه، وتمـادت الأيام والحـالة هـذه على مـا فيها من التماسك والثبـات، واستمرت عـلى سنن من الاستقامـة والصلاح، إلى أن انقـرض عصر الصحابة والشـأن قـريب، والقـائم بواجب هـذا الأمر لقلتـه غريب، وجـاء التـابعون لهم بـإحسان، فسلكـوا سبيلهم، لكنهم قلّوا في الإتقـان عـددا، واقتفـوا هـديهم، وإن كانـوا مدّوا في البيـان يداً، فـلما انقضى زمـانهم ـ عـلى إحسـانهم ـ إلا واللسان العربي قد استحال أعجميا أو كاد، فلا ترى المستقل به، والمحافظ عليه إلا الآحاد[1].

ولعـل الحـالـة التي وصـل إليهـا اللسـان العـربي جعلت من الحتم أن يؤلف العالمون بأسرار العربية في تفسير «غريب القرآن الكريم».

---

(١) مقدمة النهاية لابن الأثـير ١/٥ تحقيق د. محمود الـطناحي، وانـظر مقدمـة تحقيق: الغريبي لـه أيضا ٨/١.

والغريب من ألفاظ القرآن هو ما شق على المرء إدراك معناه بمجرد سماعه، أو هو مالا يستطيع فَهْمَه إلاّ بعد فكر وجهد، وقد وجدنا من قدامى[1] العلماء من عرّف (الغريب) فقال:

«الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيدُ عن الوطن المنقطعُ عن الأهل.

والغريب من الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: أنه يراد به أنه بعيدُ المعنى غامِضُهُ، لا يتناوله الفهم إلا عن بُعْدٍ ومعاناة فكر.

والوجه الآخر: أن يراد به كلامُ من بَعُدَتْ به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها»[2] ويوضح الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) معنى الغريب في القرآن الكريم، وكان له فيه رأي خاص فيقول: «في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها (بالغرائب)، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن مُنزَّهٌ عن هذا جميعه، وإنما اللفظة العربية ها هنا هي التي تكون خشنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلُها وسائرُ الناس»[3].

وتفسير الغريب وإزالة غامضه ـ كما قدمنا ـ أمر واجب لفهم المعنى المراد من سوق الآية الكريمة أو سرد القصة في القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم ليس ألفاظا تتلى أو أساليب تحفظ دون معنى، ولا قيمة لتلاوة لا يعرف التالي معنى ما ينطق به فيها، ثم القرآن الكريم إنما جاء لِتُعْرَف أحكامه، وتستخلص أصول الدين منه من أمور فقهية كالحدود والقضاء والحقوق والقَوَد والميراث والوصية والزكاة والعبادات، كل ذلك بجوار الموعظة والحث على مكارم الأخلاق وذكر أخبار الماضين والعبرة التي تؤخذ من تاريخهم، وغيرُ ذلك كثير، فكيف يتأتى لنا أن نأخذ

---

(١) هو أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابي البُسْتي وبُسْت (بضم الباء): مدينة بخراسان (لسان / بست).
(٢) كشف الظنون ص ١٢٠٣، وانظر مقدمة الغريبين للدكتور الطناحي ص ٩.
(٣) إعجاز القرآن للرافعي ٧٤.

كل هذا إذا كانت بعضُ ألفاظ القرآن غامضةً على أفهامنا أو غـريبةً عـلى آذاننا، أو نجدُ معاناةً أو صعوبةً في فهمها؟.

الغريب في عهد الرسول:

ولم يكن غريب القرآن وتفسيره أمرا طارئا أيام التابعين ومن جاء بعدهم، بل كان في عهد النبي ﷺ ألفاظ من القرآن الكـريم تحتاج إلى تفسـير وتوضيـح، وكان الرسول ﷺ إذا سئل عنها أجاب بما يوضحها ويفسرها ويزيـل غموضهـا، وما كـان ينطق عن هوى، وإنما عَلَّـمَهُ الله هذا ففعل[1].

من أجـل ذلك كله كـان تفسير الغـريب حتما، وعـلى من يستطيـع القيام بـه فريضة، لأنـه نوع من التعليم يحتمـه الدين عـلى أولي العلم والراسخين فيه، ليؤدوا أمانة الله إلى عباده المسلمين، ليستطيعوا فهم كتابهم الكريم، ويتعرفوا عـلى ما فيـه من أحكام وغيرها.

وقد حث الرسول ﷺ على هذا الأمر وهو تفسير غريب القرآن وبيـان ما فيـه من معاني الألفاظ، وقد أشار إلى ذلك السيوطي في كتابه «الإتقـان في علوم القرآن» حيث يقـول: «وينبغى الاعتناء بـه، فقد أخـرج البيهقي من حـديث أبي هـريـرة. مرفوعا: (أعربوا القرآن والتمسـوا غرائبـه)[2]، ثم قال: «وأخـرج من حديث ابن عمر مرفوعا: (مَنْ قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قـرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات)»[3].

وعلق السيوطي على الحديثين، قـال: «المراد بـإعرابـه معرفـة معاني ألفـاظه، وليس المراد به الإعـراب المصطلح عليـه عند النحـاة، وهو مـا يقابـل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها»[4].

---

(١) انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٥ تحقي جميل الشطي دمشق ١٩٣٦م.

(٢) الاتقان ٢/٣ ت أبو الفضل إبراهيم ومقدمة الطبري ١/٢٣.

(٣) المرجع السابق (الاتقان).

(٤) المرجع السابق وانظر أيضا مقدمة تحقيق الغريبين للدكتور الطناحي ص ٩.

ولا شك أن ما علق به السيوطي على الحديثين الداعيين إلى تفسير الغريب من أن المراد بـ «إعراب القرآن» هنا هو تفسير معاني ألفاظه، وفهم المراد منه هو التفسير الذي يجب أن يؤخذ به فالإعراب بمعناه الاصطلاحي لم يكن معروفا في ذلك الوقت وإن كان منطوقا به سليقة، كما أن فقد الإعراب بمعناه الاصطلاحي في الحديث الثاني لا يصبح مسلما به من قبل الرسول ﷺ، لأنه أمر مرفوض تماما، ولنزول القرآن بلغة العرب، وفيها من اللهجات ما يعرفه كل العرب وفيها ما يعْرفه بعضهم ويغيب عن البعض الآخر، نظرا لاختلاف هذه اللهجات تبعا للأسماء ومسمياتها ولمظاهر البيئة ومرائي الطبيعة، ومجيءِ كثير من مفردات هذه القبائل في القرآن الكريم، ولم يكن كل الناس يعلمونها كما ذكرنا، فهذا يجعل من المحتم على العلماء أن يتعرضوا لبيان معنى هذه المفردات وهذا هو أول الطريق إلى معرفة معاني الغريب.

ولم يكن الأمر مقصورا على عامة الناس دون خاصتهم في الإسلام، فهؤلاء هم الصحابة وهم العربُ العَرْباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا شيئاً، فقد أخرج أبو عبيد في الفضائل عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله ﴿وفاكِهَةً وأباً﴾[1]، فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله مالا أعلم. وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وفاكِهَةً وأباً﴾، فقال: هذه (الفاكهة) عرفناها فما (الأبّ)؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إنِ هذا لهو الكلف يا عمر. وأخرج عن طريق مجاهد عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمٰوات﴾[2]، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، يقول: أنا ابتدأتُها. وأخرج ابن جريج عن سعيد ابن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿وحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾[3]، فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا. وأخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لا، والله لا أدري ما (حَنَاناً).

---

(١) سورة عبس آية ٣١.

(٢) سورة الأنعام آية ١٤، وإبراهيم ١٠، وفاطر ١٠، والزمر ٤٦، والشورى ١١.

(٣) سورة مريم آية ١٣.

وأخرج الفيرابي: حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعا: غِسْلِين[1]، وحَناناً، ووّاه[2]. والرَّقِيم[3].

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا افتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَومِنَا بِالحَقِّ﴾[4]، حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تَعَالَ أُفَاتِحْك، أي أُخَاصِمْك، وأخرج عن طريق مجاهد عن ابن عباس،قال: ما أدري ما (الغِسْلِين) ولكني أظنه الزَّقُّوم[5].

رجال الغريب

تُعتبر معرفةُ غريب القرآن ضرورةً لمن أراد أن يتصدى لتفسير القرآن، وأول ما يحتاجه المفسر من أدواتِ التفسير وعدتِه معرفتُهُ بعلم اللغة: أسماء وأفعالا وحروفا.

أما الحروف فقد تكلم النحاة عن معانيها وأفردوها بأبواب خاصة بها، وبعضهم أفرد لها كتبا، وأما معاني الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة، وأكبر كتبها:

كتاب ابن السِّيد والتهذيب للأزهري والمحكم لابن سيدة والصحاح للجوهري والبارع للفارابي وغير ذلك، وقد اعتنى بموضوعات الأفعال: ابن القوطية وابن الظريف والسرقسطي وابن القَطّاع وغيرهم، فإذا عدنا إلى النوع الأول من التفسير وهو تفسير غريب القرآن، وجدنا أنه مما لا شك فيه أن ما تركه لنا ابن عباس رضي الله عنه وأصحابه في تفسير غريب القرآن يعتبر من أجمع ما أثر في هذا النوع من التفسير، وهو ثابت بالأسانيد الصحيحة[6]، كما أن ابن عباس كان إماماً

(١) سورة الحاقة من الآية ٣٦.
(٢) سورة التوبة من الآية ١١٤.
(٣) سورة الكهف الآية ٩.
(٤) سورة الأعراف آية ٨٩.
(٥) الاتقان للسيوطي ١١٣/١ (ط) مكتبة الثقافة بيروت.
(٦) انظر الاتقان ١١٤/١.

في اللغة، عالما بها، حافظا لشعرها ونثرها، خبيرا بأساليبها وتعبيراتها: وقد أثر عنه قوله: «الشعر ديوان العرب، فإذا خَفِيَ علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»[1]، وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب[2].

وكل هذا يدل دلالة واضحة على أن المفسر لا بد أن يكون عالما باللغة قبل أن يتصدى لتفسير القرآن الكريم.

التصنيف في الغريب:

كان ابن عباس أول من تحدث في الغريب ـ كما ذكرنا ـ فكانت له اليد السابقة في ظهور هذا النوع من التفسير والاستشهاد عليه بالشعر، وقد تناول ألفاظ القرآن ففسر غريبها في ترتيب لم يخرج بها عن ترتيبها في آياتها وسورها، وهناك من السور مالم يتناوله لأنه لم ير فيه غريبا يَشُقُّ فهمه على الناس في ذلك الوقت، وقد ذكر السيوطي غريب ابن عباس كاملا في الإتقان «في روايتين تكمل ثانيتهما أولاهما»[3].

ولم يقف التأليف في تفسير الغريب عند ابن عباس رضي الله عنه، فكما قلنا إن التصنيف فيه قد ازداد وكثر مع تقدم الزمن واضطراب اللسان العربي كما قال ابن الأثير فيما نقلناه عنه، ولذا يقول السيوطي في هذا:

«أفرده بالتأليف خلائق لا يُحْصَوْنَ، منهم: أبو عبيدة[4]، وأبو عُمَرَ الزاهد، وابن دُرَيْد، ومن أشهرها كتاب العزيزي[5] فقد أقام في تأليفه خمسَ عشرةَ سنة

---

(١) المرجع السابق ١/١١٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الاتقان ١/١١٤ ـ ١١٩.
(٤) في كتابه (مجاز القرآن).
(٥) تفسير غريب القرآن للسجستاني (ابن عزيز).

يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري ،ولعل عبارة السيوطي المتقدمة التي أشارت إلى معنى الإعراب والتماس الغرائب في قول الرسول الكريم ﷺ :

«أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» تجمع بين ما ألف باسم : «إعراب القرآن» وما ألف باسم «معاني القرآن» و«مجاز القرآن» ، ولو رجعنا إلى «مجاز القرآن» لأبي عبيدة لوجدناه يردد التفسير بعد ذكر اللفظ ، فتارة يقول : مجازه كذا ، وتارة يقول : معناه كذا ، وثالثة يقول : تفسيره ، ورابعه يقول : غريبه كذا ، وأحيانا يذكر كلمات تدل على هذا مثل : التأويل والتخريج والتقدير ، وعبارة السيوطي التي ذكرت ، وما نقله فيها عن ابن الصلاح في إتقانه ، وعن البرهان للزركشي تعطينا كل ذلك .

وقد أشار الأستاذ المحقق لكتاب (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة «السيد أحمد صقر» في مقدمته إلى أن كل كتب (المعاني) المعروفة للفراء والزجاج والأخفش وابن الأنباري وغيرهم مما يحمل هذا الاسم المراد بها المصنفات في معاني القرآن أي غريب القرآن ، كما أشار إلى ذلك أيضا الدكتور فؤاد سزكين في مقدمة تحقيقه لكتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة[1] .

مناهج المؤلفين في ترتيب الغريب :

وقد اختلف المصنفون في غريب القرآن ومعانيه ومجازه ، فمنهم من رتب غريبه بحسب السور القرآنية مع المحافظة على الغريب ترتيبا في آيات كل سورة ، وهؤلاء عدد كبير كما أثر عن ابن عباس والفراء والأخفش وأبو عبيدة وابن قتيبية . وغيرهم .

ومنهم من رتب غريبه معجميا دون نظر إلى الأصول والزوائد كمحمد بن عزيز السجستاني ، مع المحافظة على الترتيب في السورة ، ولكنه استعمل ترتيبا غريبا داخليا وهو حركة الحرف الأول من الكلمة : مفتوحة ـ مضمومة ـ مكسورة ، وقد انفرد بهذا الترتيب .

---

(١) انظر مقدمة المحقق لكتاب تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ج) وكذا مقدمة تحقيق مجاز القرآن لأبي عبيدة .

ومنهم من رتبه معجميا ولكن بحسب حروف الهجاء ودون نظر إلى الترتيب بين السور، واتخذ الأصل المجرد أساسا لهذا الترتيب وذلك كالراغب الأصفهاني في مفرداته وابن حيان في تحفة الأريب، وكلاهما لم ينظر إلى حركة الحرف الأول في الكلمة، وأبي عبيد الهروي في الغريبين.

ومن أحسنها المفردات للراغب(١).

ولأبي حيان في ذلك تأليف مختصر في كراسين، قال ابن الصلاح: وحيث رأيت في كتب التفسير: قال أهل المعاني، فالمراد مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج والفراء الأخفش وابن الأنباري(٢).

وكان أول من ألف في الغريب كما تقول الروايات بعد ابن عباس أَبانُ بنُ تغلب بنِ رباح الحريري البكري أبو سعيد المتوفى سنة ١٤١ هـ فتذكر له كتابا في الغريب وإن لم يصلنا حتى الآن، ولكنه ما يكاد يذكر في كتب الطبقات حتى يذكر كتابه هذا، وعنه يقول ياقوت في معجمه: كان قارئا فقيها لغويا إماما ثقة عظيم المنزلة جليل القدر، روى عن علي بن الحسين «أبي جعفر وأبي عبدالله» عليهم السلام، وسمع من العرب، وصنف (غريب القرآن) وغيره(٣).

ويرى كثير من علماء التفسير واللغة أن أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٦٠هـ هو أول من صنف في غريب القرآن، ويذكرون كتابه (مجاز القرآن) الذي أشرنا إليه فيما سبق.

وسنجد أن دراسة الغريب والتصنيف فيه قد تتابعت على مر القرون الهجرية، واعتنى به خلق كثير كما أشارت إلى ذلك عبارة السيوطي فيما سبق(٤)،

---

(١) يقصد الراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ وكتابه المفردات، حققه الأستاذ محمد سيد كيلاني.

(٢) الاتقان ١/١١٣.

(٣) معجم الأدباء ١/١٠٨، وبغية الوعاة ١/٤٠٤، وانظر ما ذكر عنه في هذا الكتاب ص.

(٤) وقد ذكرت الكتب الأمهات عددا كبيرا من مصنفي الغريب على اختلاف في الترتيب بينهم، ونجد ذلك على سبيل المثال في: البرهان للزركشي ١/٢٩٢ والفهرست لابن النديم ٥٢ وفهرست ابن خير ٦٧ والإتقان للسيوطي في أول الجزء الثاني منه، وكشف الظنون ص ١٢٠٣، والمعجم العربي للدكتور حسين نصار ١/٤١.

ويعتبر القرنان الثالث والرابع الهجريان من أزهى العصور الإسلامية في التأليف في الغريب القرآنيّ وتصنيفه.

ولم يقف الأمر في التأليف في هذا الفن عندما حمل عنوانا بلفظ (غريب القرآن) أو تفسير غريب القرآن. بل وجدناه قد أخذ أسماء أخرى مثل: معاني القرآن، ومجاز القرآن، وإعراب القرآن، ووظيفة هذه المصنفات لم تخرج عما أريد من تفسير (غريب القرآن) فكلها تخدم غرضا واحدا هو شرح الكلمة القرآنية أو اللفظ القرآني الذي يراه المصنف غريبا أو غامضا ولو بعض الشيء على بعض الناس، ولا سيما عندما تأخر الزمن بالمسلمين وبعدوا عن السليقة وعن زمن الرسول ﷺ وصحابته ثم تابعيهم، فعمل العلماء على إثبات هذا الشرح، واستدلوا على صحة ما ذهبوا إليه من معنى بصحيح كلام العرب وفي مقدمته الشعر العربي.

ولو طال بنا الحديث فسنجد كل ذلك مفصلا عند الحديث عن منهج كل عالم من علماء الغريب، كما سنجد أوجه الاتفاق والخلاف بين تلك المناهج من حيث الإيجاز والاستطراد والاستشهاد الشعري والتحليل النحوي والصرفي واللغوي، والتأثر بالغير في هذا التأليف إلى غير ذلك من مظاهر مناهجهم وتخطيطهم لمصنفاتهم.

غريب الحديث

اهتم علماء المسلمين بالحديث الشريف اهتماما كبيرا جاء بعد اهتمامهم بالقرآن الكريم الذي ذكرناه، لعلمهم أنه أحد ركنين أساسيين قام عليهما الإسلام: كتاب الله وسنة رسوله، لذا كان الاهتمام به كبيرا واضحا، سار في نفس الطريق التي سلكها المسلمون في جمع القرآن والاهتمام بعلومه: جمعه وضبطه وناسخه ومنسوخه وإعرابه ووجوه قراءاته إلى آخر ما ذكرناه سابقا.

فقد رأينا فريقا من المسلمين الأوائل قام بروايته وإتقانه، والتمييز بين صحيحه وضعيفه، والتأكد من معرفة علله وإسناده وأحوال رجاله وصفاتهم، وقد

أطلق على عملهم هذا فيما بعد (علم مصطلح الحديث)[1].

وكما اهتم علماء التفسير بغريب القرآن وبيان معانيه اهتم أيضا المشتغلون بالحديث وروايته وإسناده إلى جانب ذلك بتفسير غريب الحديث، وشرح معاني ألفاظه الصعبة التي تحتاج إلى تفسير وبيان، وبخاصة بعد أن بعد الزمن بهم عن رسول الله وصحابته وتابعيهم وسليقة اللسان العربي، فقد كان الناس في الماضي إذا استشكل عليهم شيء منه ذهبوا إلى الرسول أو صحابته ومن بعد ذلك التابعين، أما بعد ذلك فكان لا بد أن يقوم العلماء بشرح غامض الحديث، وبيان غريبه، لا سيما بعد أن كثرت الفتوح ودخل إلى الإسلام خلق كثير من غير أصحاب اللسان العربي، وكثر اللحن في اللغة، فأصبحت الحاجة إلى هذا النوع من التصنيف قوية ماسة.

ومن أشهر من ألف في «غريب الحديث» النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٣هـ[2]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ، وقد ذكرت كتب التراجم والطبقات أن لأبي عبيدة كتابا في غريب الحديث هو كتاب «الأمثال في غريب الحديث» وذكرته مرة باسم «غريب الحديث»[3].

وابن قتيبة سنة ٢٧٦هـ وقد ذكرت له المصادر أيضا كتابا باسم «غريب الحديث»: وهو مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق[4]، كما أن له كتابا آخر باسم إصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام[5]، وأبو عبيد القاسم بن سلام أيضا له إسهام كبير في غريب الحديث وله كتاب بهذا الاسم مطبوع، وهو الذي استدرك عليه ابن قتيبة وألف كتابه المشار إليه وهو «إصلاح الغلط في غريب الحديث» وأبو بكر بن الأنباري[6]، وكثير غير هؤلاء، ولمحمود بن

(١) انظر تصدير تحقيق الغريبين للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم رحمه الله ص ٥.
(٢) انباه الرواة ٣٥٢/٣.
(٣) ذكره بروكلمان ١٤٥/٢ من بين مفقودات أبي عبيدة نقلها عن مقدمة النهاية لابن الأثير.
(٤) يوجد هذا المخطوط تحت اسم: دمشق عمومية ٧١ (ظاهرية ٦٢) ٣٤.
(٥) حقق الكتاب الأخير الأستاذ عبدالله الجبوري وقامت بطبعه: دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٩٨٣م.
(٦) بروكلمان ٢١٦/٢ في الحديث عن أبي بكر محمد بن القاسم بن الأنباري سنة ٣٢٨هـ.

عمر جار الله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ كتاب في غريب الحديث يسمى «الفائق في غريب الحديث»[1] وابن الأثير سنة ٦٠٦هـ في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»[2].

وكان لكل عالم منهم طريقته في تأليف غريبه، ولسنا بصدد تفصيل مناهج هؤلاء العلماء في تأليفهم «غريب الحديث» لأن المقام لا يحتمله.

وسار التأليف في غريب الحديث وغريب القرآن مسيرته كل على حدة حتى وصل الزمن إلى العالم الجليل أبي عبيد أحمد بن محمد بن محمد المعروف بأبي عبيد الهروي، وكانت نظرة الرجل واسعة واطلاعه جما، ورأى هذا البحر الخضم من المؤلفات في الغريب بنوعيه ورأى أنه إن أسهم في أحدهما فلن يأتي بجديد في باب غريب القرآن أو باب غريب الحديث، وبذكائه رأى أن يجمع بين الغريبين في كتاب واحد وفي ترتيب لم يسبق إليه، وهو الترتيب المعجمي المشترك بينهما في كلمة واحدة[3].

وقد انتشر هذا الكتاب بين العلماء والباحثين كما لم يشتهر كتاب آخر من كتب الغريب، واحتضنه علماء العلوم القرآنية والأحاديث النبوية في عصره وبعده[4].

وكان هذا الاتجاه في تفسير الغريب بحسب ترتيبه معجميا أساسا لتأليف كتب كثيرة بعد ذلك مرتبة نفس الترتيب، ومن أشهر من فعل هذا الراغب الأصفهاني في «مفرداته» وأبو حيان في «تحفته».

---

(١) طبع هذا الكتاب في حيدر أباد ١٣٢٤هـ، ثم نشر بتحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم (ط) دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥م.

(٢) طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٢هـ وكان قد طبع بالقاهرة أيضا بالمطبعة العثمانية ١٣١١هـ.

(٣) انظر ما كتب عن ترتيبه ومنهجه في مكانه من كتابنا (غريب القرآن).

(٤) حقق الجزء الأول من هذا الكتاب المحقق الكبير الأستاذ الدكتور محمود الطناحي وقت أن كان يعمل في معهد المخطوطات بالقاهرة وجاء تحقيقه موثقا متقنا وأرجو أن يوفقه الله لتحقيق بقية الأجزاء وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وقد أنهى المحقق من الجزء الأول من مخطوط الكتاب حتى نهاية كتاب الجيم فقط أما الجزء الثاني فيبدأ بكتاب السين وأما الجزء الثالث فيبدأ بكتاب القاف وينتهي بكتاب الياء.

ومع هذا فإننا لا نستطيع الجزم بأنه لم يتأثـر في هذا الـترتيب المشترك بمـا فعله ابن عزيز السجستاني سنة ٣٣٠هـ في «تفسـير غريب القـرآن» الذي رتبـه على هـذا النحو، وما نعتقد أن عالما مثل الهروي اطلع على كل كتب الغريب السابقة ولم يطلع على كتاب ابن عزيز السجستاني الذي طبقت شهرته الآفاق، وفي الحقيقة هناك فرق بينهما من ناحية المحتوى، فكتـاب السجستاني كـان مخصصا لتفسـير غريب القـرآن فقط، وأما كتاب الهروي فكان يجمع غريب القرآن والحديث معا، كما أنه ليس من السهـل أن نهمل العمليـة العقليـة التي قـام بهـا الهـروي في هـذا الجمـع والـترتيب المعجمي، فهي عملية عقلية صعبـة، تحتاج إلى سعـة اطلاع وكـامل تبصر وواسـع فكر.

لذلك كله اتخذه علماء الحديث مرجعا هاما لهم، وحاول بعضهم التأليف فيما استدرك عليه مما فاته من غريب الحـديث، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصـل من شهرة بين العلماء والباحثين. وقد تأثر بهـذا النهج من العلماء البـارزين في غريب الحـديث «ابن الأثير» في كتابه «النهاية في غريب الحـديث والأثر»[1]، ولـذا وجدنـاه قد كتب تقريظاً مـطولا في مقدمـة كتابـه (النهايـة) تحدث فيـه عن صاحب الغـريبين وعلمـه وفضله ومنهجه، ووازن بينه وبين غيره، كما تأثر به أيضـا في غريب الحـديث الإمام أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، فقد ألف كتابه «الفائق» في غريب الحديث، وقد ذكره أيضا ابن الأثير في مقدمة النهاية، فقال عن الإمـام الزمخشري: «فصنف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسماه (الفـائق) وقد صـادف هذا الاسم مسمى، وكشف من غريب الحديث كل مُعَمًّى، ورتبه على وضع اختاره مُقَفًّى على حـروف المعجم، ولكن في العثور عـلى الحديث منـه كلفة ومشقـة، وإن كانت دون غـيره من متقدم الكتب، لأنـه جمع في التقفيـة بين إيـراد الحديث مسروداً جميعـه أو أكثره أو أقله، ثم شرح ما فيـه من غريب، فيجيء شرح كـل كلمة غـريبة يشتمـل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم، فترد الكلمة في غير حرفها، وإذا تطلَّبها الإنسان تعب حتى يجدها، فكان كتـاب الهروي أقـرب متناولا وأسهـل مأخذا، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها، وكان النفع به أتم والفائدة منه أعم»[2].

---

(١) حققها أيضا الأستاذ الطناحي.

(٢) مقدمة النهاية جـ١ /٨، ٩ بتحقيق الأستاذ الدكتور محمود الطناحي.

ورأينا من علماء الغريب من تأثر به في الجمع بين الغريبين من أمثال الحافظ أبي موسى المديني حيث ألف كتابه المعروف: «المغيث في غريب القرآن والحديث»[1].

(١) المرجع السابق ١/٢٢، وانظر مقدمة النهاية لابن الأثير ١/٨، ٩.

العربيـــة :
من نحو « الجملة » إلى نحو « النص »

د. سعد مصـــلوح
كلية التربية الأساسية بالكويت

١ ــ ٠ : الفاتحــة :

يشير عنوان هذا البحث ، ابتداءً ، إلى أن النمط التقليدي السائد في دراسة النحو العربي وتدريسه بمدارسنا وجامعاتنا ليس هو الممكن الوحيد، على ما يعتقـده الكثيرون بادي النظر ، بل إنه ـ فيما نرى ـ ليس إلا واقعاً علميا يمكننا ، بل إن علينا ، أن نتجاوزه إلى واقع علمي جديد . لقد استنفد هذا النحو أغراضه ، واستهلك نفسه ـ أو استهلكه أصحابه ـ درساً وتدريساً بعد أن انضجه أسلافنا حتى احترق ، وولجنا به نحن إلى نفق مظلم يستحيل معه أن نضيف إليه جديدا إلا بإدراك هذه الحقيقة .

ثمة ، إذن ، نمطان من النحو ، أما أولهما فنشير إليه في العنوان بمصطلح نحو الجمـلة » sentence grammar ، وإليه ينتمي النحو العربي بصورته المعروفة .و«نحو الجمـلة » هو طراز من التحليل النحوي يقيد معالجته بحدود « الجملة » (أو « القول المفيد فائدة يحسن السكوت عليها ») ، ويرى فيها أكبر وحدة لغوية يطمح إلى تحليلها وتقعيدها ، على خلاف بين المدارس اللسانية في مفهوم التقعيد نفسه : أهو تصور تنظيمي يقترحه الباحث ، مسقطاً إياه على المادة اللغوية أم هو كشف واستكناه لنظام باطن ومستكن بالفعل وراء ظاهرات السلوك اللغوي[١]؟ و«نحو الجملة » حين يعتبر

---

(١) يرجع الخلاف حول هـذه المسألـة إلى الخمسينات؛ إذ تشكلت بـإزائه مـدرستان أطلق عـلى إحداهـما God's truth linguistics ويفترض اتباعها أن اللساني إنما يكتشف بحثه نـظاماً حقيقيـاً قائـماً في اللغة،

قواعدها منتهى همه ومبلغ علمه لا يقر للنص بكينونة متميزة توجب معالجة تركيبه معالجة نحوية تستجيب لمقتضيات بنيته ، وتكون مؤهلة لتشخيصها ووصفها . وبهذا يقع النص خارج مجال الدرس النحوي . ويبدأ التحليل النحوي باجتزاء الجمل ، وعزلها تقريبا عن سياقها في النص أو الخطاب ، ويصبح السلوك اللغوي مجرد تحقيق لانهائي لعدد من نماذج الجملة ، وما على النحوي إلا الكشف عن هذه النماذج وتحديد قوانينها الحاكمة على مكوناتها التركيبية ليصير الكلام جميعه قيد الضبط . أما النص فليس إلا سلسلة من الجمل ؛ كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها ، وهو مجرد حاصل جمع للجمل - أو لنماذج الجمل - الداخلة في تشكيله .

ولعل فيما سبق توضيحا بمفهوم المخالفة لما يراد بمصطلح « نحو النص » الذي ورد في العنوان قسيما لنحو الجملة . إن « نحو النص » text grammar الذي نريده وندعو إليه هو نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة ، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة ، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة intra sentential constituents . وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدرجيّ ، يبدأ من علاقات ما بين الجمل intersentential relations ، ثم الفقرة paragraph ، ثم النص text (أو الخطاب discourse) بتمامه .

١ ـ ١ : ولقد سيطر « نحو الجملة » على صياغة القواعد في جميع لغات العالم المعروفة في القديم والحديث إلى يومنا هذا بتأثير من التقاليد الراسخة التي أرساها النحو اليوناني حين ارتبطت الجملة في النحو بالحكم المنطقي . ولم يبدأ الاتجاه إلى « نحو النص » في أن يفرض وجوده إلا مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن ، حين نشر

= وأن عدم كفاءة القاعدة مرجعه أصلاً إلى سوء الملاحظة أو نقصانها . أما المدرسة الأخرى فتسمى Hocus - Pocus Linguistics وترى في التقعيد النحوي إسقاطاً لنظام أو رؤية عقلية من الباحث على مادة اللغة . وترجع عدم كفاءة القاعدة فيها إلى خلل في المنطق الداخلي للرؤية المقترحة .

تراجع هاتان المادتان في:

David Crystal, «A Dictionary of Lnguistics and Phonetics, 2nd ed., 1986, Blackwell.

وانظر أيضاً مقدمة ارنست بولجرام لكتابه An Introdiction to the Spectrography of Sepeech الترجمة العربية لكاتب هذا البحث، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٨ . والعنوان العربي للترجمة هو «مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام».

زيليج هاريس Zellig Harris دراستين اكتسبتا أهمية منهْجية في تاريخ اللسانيات الحديثة تحت عنوان تحليل الخطاب "Discourse Analysis" ؛ إذ إنه بهاتين الدراستين « لم يكن أول لساني حديث يعتبر الخطاب موضوعا شرعيا للدرس اللساني فحسب ، بل إنه جاوز ذلك إلى تحقيق قضاياه التي ضمنها براجه بتقديم أول تحليل منهجي لنصوص بعينها . وقد خرج بذلك على تقليد أرساه بلومفيلد يقضي بأن « التعبير اللغوي المستقل بالإفادة» ،أو الجملة ،هو ما يهتم به اللساني. أما النص فليس إلا «مظهراً من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد »[٢]، وكانت جهود هاريس موضع دراسة ونقد من بعض علماء اللسان على اختلاف أجيالهم مثل كينيث لي بايك K.L. Pike وتيون . أ . فان دايك Teyon A. Van Dijk ، وتتابعت الأعمال في مجال « نحو النص » ، أو ما سميّ باللسانيات النصّية Textual Linguistics ، وكان من بين أعلامها هارتمان Hartmann وجليسون Gleason ، وهارفج Harweg وشميدت Schmidt[٣].

وما بنا في هذه الفاتحة أن نستقصي القول في عرض هذه الجهود وتقويمها ، وإن كنا سنعود إليها بالمراجعة في المراحل القادمة من البحث ؛ لكي نستظهر ما يمكن الإفادة به في صياغة إطار نظري عربي لنحو النص . وحسبنا هنا أن نستدل بهذه الإشارة على أن نحو النص لم يكن إلا أفقاً من آفاق الدرس اللساني تجاهله علماء اللسان منذ أقدم عصور التفكير اللساني إلى بدايات العقود الثلاثة الأخيرة ، وأن النقلة الجوهرية لم تتحقق له إلا في العقد الماضي على وجه التحديد . ويدل لذلك قول هندريكس Hendrics في دراسة نشرها عام ١٩٦٧ « إن نحو النص لم يوجد بعد ، وأن المحاولات الهادفة إلى تحقيق نظرة نافذة واضحة إلى تراكيب « ماوراء الجملة » لم تبذل إلا حديثا »[٤].

وإذن ، فليس النحو العربي بِدْعاً في خضوعه المطلق لفكرة نحو الجملة . ومن ثم فإن الإلحاح على ضرورة إنجاز هذه النقلة المنهجية في دراسة النص العربي هو بريء

---

(٢) Teuon, A. Van Dijk, «Some Aspects of Text Grammar» A Study in the oritical Linguistics and Poetics, «Mouton, The Hegue - Paris, 1972, p. 26.

(٣) ibid, pp. 26-31.

(٤) ibid, p. 1.

كل البراءة من شبهة الزراية على التراث النحوي العربي أو الإدلال على الأسلاف ، وإنما هو ثمرة إجلال لهم ، واعتراف بعظمة جهودهم ، ورغبة صادقة ـ إن شاء الله ـ في أن نعالج قضايا لغتنا في هذا العصر بمثل الجدية التي عالجها بها الأسلاف في عصرهم . إن مكمن الخطر في قضية النحو العربي يتجاوز انعدام التحليل النحوي للنصوص إلى عدم إحساس الحاجة إليه أصلا، مع أننا نيط بهذه النقلة تحقيق المرجوِّ من الخروج بالنحو العربي مما نحسبه أزمة آخذة بخناقة، كابحة لدوره الفاعل في دراسة العربية ونتاجها وإبداعاتها الأدبية، حين ارتبط بغاية ضئيلة نحيفة لا تليق بجلاله وثرائه، ونعني بها عصمة اللسان من الزلل؛ وليته قد وُفِّق إلى القيام بها على النحو المأمول.

ونود هنا أن نشير إلى أن الدعوة إلى « نحو النص » قد ترددت في عملين سابقين لكاتب هذه الدراسة حاول فيهما بيان أهمية « نحو النص » والآمال المعقودة عليه في دراسة العربية وفقه نصوصها ؛ فقد بين المؤلف في كتاب « الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية » كيف استطاعت اللسانيات الحديثة « أن تنتقل بوسائلها المنهجية من العمل في إطار « نحو الجملة » sentence grammar ـ وهو النحو الذي يعتبر الجملة أكبر وحدة في التحليل اللغوي ـ إلى محاولة ترسيخ نمط جديد من التحليل اصطلح على تسميته « نحو النص » text grammar وهو النمط الذي يعتبر النص كله وحدة التحليل » . ورأينا ثمة أن دراسة الأدب العربي ماتزال « بعيدة كل البعد عن الإفادة من إنجازات الدرس اللغوي المعاصر في هذه السبيل »[٥] . أما الإشارة الثانية فكانت في معرض استظهار كاتب هذا البحث لوجوه الافتراق بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ؛ إذ عدد من بين أظهر هذه الفروق اعتماد البلاغة العربية على نحو الجملة بما هي نظر في بلاغة الشاهد والمثال ، على حين انفتحت أمام الأسلوبيات اللسانية آفاق من البحث لا تحدها حدود بتقدم طرق البحث في اللسانيات النصية؛ « حيث يجري تطوير وسائل التحليل اللغوي وإرهافها ورفع كفاءتها لتكون قادرة على معالجة العلاقات النحوية فيما وراء الجملة ، وعلى وصف الخواص الأسلوبية التي تحقق الاستمرارية البنيوية للنص structural continuity ، ووسائل الربط والسبك الشكلية

---

(٥) مصلوح: «الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية»، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ص ١٤، ١٥.

والمضمونية cohesion. وثمة طرز أخرى لتحليل النص تمد اهتماماتها لتشمل ماهو أوسع مما سلف ذكره بمناقشة النص في سياق الإبلاغ الأدبي poetic communication من حيث إنتاجه production والاستقبال reception ، والعوامل الأدبية الاجتماعية sociopoetic والنفسانية psycho poetic التي تؤثر في النص أو الخطاب »[٦]. ولقد مرت على الإشارة الأولى سنوات تقارب العشر ، وكان المرجوُّ أن يكون فيها ما يحفز همة الباحثين إلى ارتياد هذا الأفق الممتد بلا نهاية . ولعل في تجديد الذكرى ما ينبه إلى ضرورة هذا المطلب العلمي الشريف . وما هذا البحث ـ وما سيتلوه بإذن الله ـ إلا محاولة من كاتبه لإيلاف الباحثين ، وإيناس وحشتهم في سبيل عَزَّ السالكوها.

١ ـ ٢ : على أنه لا مندوحة لنا عن تعرف الأسباب التي استيقظت أنظار علماء اللسان المحدثين إلى فكرة « نحو النص » بعد أن قنعوا طويلا ، كما قنع أسلافهم ، منذ نحو الهنود واليونان بحصر مهمة النحو في الكشف عن قواعد الجملة ؛ فلعل في تعرف هذه الأسباب ما يعين على استبانة المقاصد من تأسيس نحو النص ، بوصفه نوعاً من المقاربة اللسانية لا يحسن اللجوء إليه إلا إذا تحقق به من الفوائد مالا يتحقق بغيره .

ويأتي في مقدمة الأسباب ما اعترى الدرس اللساني مع مطالع القرن العشرين من عزوف عن المعالجة الفيلولوجية للغة النصوص القديمة المدونة ، ومن التفات عنها إلى الوظيفة الاجتماعية للغة ، وإلى الدور التواصلي الذي هو جوهر وظيفة اللغة في العمليات الاجتماعية . وقد تبع ذلك قيام اللسانيات بدور الرائد لكثير من العلوم الإنسانية؛ مما ألقى عليها تبعات منهجية كبيرة. ومن هناك أدرك علماء اللسان أن اجتزاء الجمل يحيل اللغة الحية الطازجة فتاتا وتفاريق من الجمل المصنوعة المجففة أو المجمدة. وهي الصبغة الغالبة على الشواهد النحوية والبلاغية والأدبية، لا في نحو العربية وحدها، بل في سائر أنحاء اللغات المحصورة في إطار الجملة.

ويتصل بما سبق تلك العلاقة الوثيقة التي ربطت ما بين اللسانيات والدرس الأدبي منذ عقود ثلاثة في أوربا وترددت أصداؤها في الدراسات العربية منذ أمد ليس

---

(٦) مصلوح: «مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية»، بحث قدم إلى ندوة «قراءة جديدة لتراثنا النقدي» جدة، ١٩٨٨، ص ص ٥٤ ـ ٥٥.

بالبعيد . والحق أن مدرستين من أشهر المدارس اللسانية الحديثة هما البنيوية السلوكية structural behaviorism والتوليدية التحويلية قد اتفقتا ـ بالرغم من الاختلافات الأساسية بينهما في الفلسفة والمنهج ـ على إعراضهما أول الأمر عن الإسهام في دراسة النص الأدبي ، وكان ذلك منهما بسبب وقوفهما عند حدود نحو الجملة . ولكن سرعان ما تغير الأمر، والتفتت المدرستان عن التزامهما الصارم بحدود الدراسة الشكلية لمباني الجمل . وبرز من بين علمائهما من تمرد على هذا التقليد الضاغط ، فلم يعد النص أو الخطاب في نظرة « بايك » تتابعا مسلسلا من الجمل، ولكنه « مبنى فريد قائم برأسه sui generis »(٧)، وأوجب أن يتسع مفهوم النحو ليصبح مكونا من مكونات نظرية شاملة تفسر السلوك الإنساني . كذلك أنكر بايك على اللسانيين انصرافهم عن دراسة النص الأدبي لصالح نقاد الأدب، مع ما للمعالجة اللسانية من أهمية خاصة في تقديم الأساس الموضوعي للأحكام النقدية .

١ ــ ٣ : والغاية من هذه الدراسة هي تحسس الطريق إلى إطار نظري لدراسة النص العربي . وتشتمل الدراسة على ثلاثة مباحث نعالج في أولها العلة الغائية لنحو النص ، وفي الثاني ماهيته . أما الثالث فهو تقويم للنحو العربي من الوجهة النصية لنحدد أظهر خصائصه التي تقعد به عن استشراف هذا الأفق الجديد ، والكيفية التي يمكن بها تجاوز هذه المعوقات ؛ لنخرج بالنحو العربي من دائرة « قل ولا تقل » إلى آفاق الدراسات النصية التي أصبحت مهوى عقول المشتغلين بعلوم الإنسان عامة ، والمشتغلين بدراسة النص الأدبي على الخصوص .

١ ــ ٤ : هذا ؛ ولئن كانت هذه الدراسة تفتتح القول في نمط من النحو لا سابق عهد للعربية به فإنه يلزم أن يكون لها ـ بإذن الله ـ بَعْدٌ وما بَعْد البَعْد . وما كنت مستطيعا أن أُخرج زبدة السقاء في أول المخض . وأحسب أن في ذلك عذرا كافيا من وجوه نقص ما منها في هذا المقام بُدّ ، ومن مسائل ما تزال في حاجة إلى فضل تأمل وإنعام نظر ؛ فعسى أن تنضج الروية فطير الآراء ، وأن أستدرك في لاحق بعض ما فرط مني في سابق . ومن الله سبحانه العون ، وبه التوفيق .

---

(٧) Van Dijk, op. cit, p. 28

٢ ـ نحو النص : مبحث في العلة الغائية :

٢ ـ ١ : ما الغاية من الدرس النحوي ؟ ـ سؤال تختلف عليه الإجابة بين الأنحاء التقليدية والدرس اللساني الحديث . لقد وضعت الأنحاء التقليدية الغاية المعيارية نصب عينها ، فدارت أكثر تعريفاتها ـ ومن بينها النحو العربي ـ على أنه علم يعرف به الصواب والخطأ، وتتحقق به السلامة للكلام كتابة وقراءة . وتبدو هذه الغاية في أشد التعريفات تزمتا عند نحاة العرب عند من يحصر مهمة النحو في « البحث عن أواخر الكلم إعرابا وبناء »، أو في « التغيرات التي تصيب ذوات الكلم وأواخرها بالنسبة إلى لغة العرب » . أما الغاية المعيارية من النحو العربي فقد نص عليها ابن جني (ت ٣٩٢هـ) حين قال في تتمة تعريفه للنحو : « فيلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذ بعضهم عنها رُدّ به إليها »[٨].

لذلك كانت الصلة الجامعة بين « نحو الجملة » والأنحاء التقليدية لها ما يسوغها ، وكان الارتباط بينهما قائما على وجه الحتم واللزوم ؛ إذ إن إجادة تركيب الجملة والمعرفة بقوانينها كافية في سبيل تحقيق هذه الغاية المبتغاة بما لا حاجة معه إلى مزيد . أما المناهج والمدارس اللسانية الحديثة فقد تورطت في أول أمرها في مفارقة منطقية كادت تبلغ مبلغ التناقض المنهجي . وبيان ذلك أن الغاية المعيارية فيها قد تراجعت لتشغل حيزا محددا من اللسانيات التطبيقية . وبرزت معها استراتيجية للدرس اللساني تفارق الغاية المبتغاة في الأنحاء التقليدية من وجوه كثيرة أهمها : الاتجاه إلى التنظيمية والتعميم واستكشاف الجوهر الثابت في كل ظاهرة من خلال معالجة التفصيلات والمتغيرات . وقد أدى ذلك إلى اعتبار الظاهرة اللسانية في ذاتها وفهم قوانينها وجوامع السنن الحاكمة عليها هي غاية الغايات في البحث اللساني . وهكذا اختلفت رؤية العلماء للعالم « فلم يعد العالم خليطا عشوائيا من التفاصيل ولكنه نظام (أي كُلّ منظم) . . وإن اكتمال معرفتنا بالعالم يوجب علينا أن نبحث عن البنية

---

(٨) ابن جني الخصائص: القاهرة، ١٩٥٢، ١/ ٣٤. وانظر أيضاً:
عبدالوارث مبروك سعيد: في إصلاح النحو العربي: دراسة نقدية، دار القلم، الكويت، ص ص ١ ـ ٥.

في مقابل التفتيت atomism . ولقد كان من أبرز مكاسب هذا الاتجاه ازدهار دراسة اللهجات (أو اللغات الحية المنطوقة) على ما سبق أن بيَّنا[٩] .

نعود هنا إلى إبراز المفارقة المنطقية التي ميزت الاتجاهات اللسانية الحديثة حين تمسكت بنحو الجملة ، واتجهت في الوقت نفسه إلى تعزيز دراسة الاستعمال الحي للغة والتركيز على دورها التواصلي ووظيفتها الاجتماعية ، ومع ما ارتبط بذلك من اعتبار فهم ظاهرة اللغة وفض مغاليقها هو غاية الغايات في الدرس اللساني . إن الفهم الحق للظاهرة اللسانية يوجب دراسة اللغة دراسة نصية وليس اجتزاء الجمل والبحث عن نماذجها وتهميش دراسة المعنى كما ظهر في اللسانيات البلومفيلدية أول أمرها . ومن ثم كان التمرد على نحو الجملة والاتجاه إلى نحو النص أمراً متوقعا ، واتجاها أكثر اتساقا مع الطبيعة العلمية للدرس اللساني الحديث . إن دراسة النصوص هي دراسة للمادة الطبيعية التي توصلنا إلى فهم أمثل لظاهرة اللغة ؛ لأن الناس لا تنطق حين تنطق ، ولا تكتب حين تكتب ـ جملا أو تتابعا من الجمل ، ولكنها تعبر في الموقف اللغوي الحي من خلال حوار معقد متعدد الأطراف مع الآخرين . ويكثر في هذه الحال تصادم الاستراتيجيات والمصالح وتعقد المقامات . ومثل ذلك نراه في حدث الكتابة حيث تتعقد العلاقات بين مكونات الصياغة اللغوية وترتد أعجازها على صدورها ، وتتشابك العلاقات في نسيج معقد بين الشكل والمضمون على نحو يصبح فيه رد الأمر كله إلى الجمل أو نماذج الجمل تجاهلا للظاهرة المدروسة ، وردًا لها إلى بساطة مصطنعة تخل بجوهرها ، وتفضي إلى عزل السياقات المقالية والمقامية والأطر الثقافية واعتبارها أمراً قائماً خارج النحو وطارئاً عليه .

٢ ـ ٢ : كل أولئك أفضى بكثير من اللسانيين إلى تغيير تصورهم حول المجال الطبيعي للنحو natural domain of grammar . وكان من بين من عبروا عن هذه الفكرة أوضح عبارة جيرالد ساندرز Gerald sanders في بحث يحمل العنوان السابق . وفيه يرى ضرورة أن يمتد نطاق الوصف النحوي الكفء إلى ما وراء الجمل ؛ فليست الجمل وتراكيبها هي المجال الطبيعي للنحو . وَقُل مثل ذلك في التراكيب الصوتية والصرفية والنظمية syntax إذا أُخِذت كل منها بمعزل في شكل

---

(٩) انظر Milka Ivič, «Trends Linguistics Mouton», 1970, pp. 69-71

صوتيمات وكلمات وعبارات إلى آخر هذه الوحدات اللغوية »[10]. ويؤكد ساندرز أن الشيء الذي يَسُوغ له وحده أن يشكل المجال الطبيعي للنحو هو منظومات لا نهاية لها من أنواع الخطاب. ويتفق ساندرز مع جوزيف جريمز Joseph Grimes في أن « أي نحو للجملة لا يمكن أن يكون له جدوى إلا إذا كان جزءاً من نحو الخطاب »[11].

لقد كانت دراسة الخطاب أو النص واقعة منذ أمد طويل في نطاق علوم أخرى تتجاذبها كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والدراسات الأدبية. ولكن النصوص مادة لغوية بالضرورة، ولذلك أحسَّ المشتغلون بهذه التخصصات حاجة ماسة إلى خدمة المعالجة المنضبطة التي تؤديها اللسانيات الحديثة على خير وجه. أما اللسانيون فقد استيقنوا أهمية هذه الأنواع المتميزة من النصوص ذات الصلة الوثيقة بالكينونة الإنسانية، ورأوا أن خروجها من دائرة معالجتهم إنما يعزلهم عن طائفة من أظهر تجليات الفعل اللغوي هم في أمس الحاجة إليها لفهم نظرية اللغة. وزاد من اقتناعهم هذا ما أحاط بمناهج الدراسات الأخرى من خطر الانطباعية، والبعد عن التحليل المنضبط مما أصابها بأدواء قاتلة سواء على المستوى النظري أو التطبيقي، حتى إن من اللسانيين من يرى « أن الجانب الأعظم من الدرس الأدبي التقليدي، أو النقد الأدبي يمكن اعتباره واقعاً في مرحلة ما قبل التنظير إن لم نعتبره نقيضا للتنظير، ومن ثم يمكن أن يوصف بأنه تراث غير علمي »[12].

وإذا كانت هذه هي الحال التي آلت إليها دراسة النص الأدبي في الغرب، فإن واقع الدراسات النقدية في العربية هو فيما نحسب أوغل في القتامة وأبعد عن مواصفات العلم ومواضعاته، فقد غرف في السطحية التاريخية، واتجه بكليته إلى المعالجة المضمونية، وأصبح النص الأدبي وصيفة لكل علم، مما جعل الحاجة إلى تضافر العلوم اللسانية والنقدية على دراسة النص الأدبي دراسة علمية أشد إلحاحا[13]. وإذ التقت

---

(١٠) Van Dijk, op. cit, p. 21

(١١) Wilbur Pickering, «A Framework for Discourse Analysis», Summer Institute of Linguistics», Publication No. 64, 1980, P.5.

(١٢) Van Dijk, op. cit., p. 169

(١٣) عالج كاتب هذا البحث هذه المسألة بتفصيل في: «الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية»، ص ص ١٥ – ١٨. وأيضاً في محاضرة بعنوان: «المنهج اللغوي في النقد الحديث»، محاضرات نادي جدة الأدبي، المجلد الأول.

تطلعات المشتغلين بعلوم اللسان وبغيرها من علوم الإنسان على ضرورة التوفر على دراسة « النص » أو « الخطاب » = وآنس علماء اللسان في أنفسهم أنهم ربما كانوا أبرز المؤهلين للإسهام بنصيب متميز في هذا المجال - اتسع مفهوم الدرس اللساني لما يسمى بمصطلح لويس هيالمسليف Louis Hjelmslev « اللسانيات الموسعة extended linguistics التي هي في مذهبه « النظرية الخاصة بجميع التجليات الفعلية أو الممكنة للغة الطبيعية »[١٤]، وفي قلب هذه النظرية تقع البوطيقا أو دراسة فن القول poetics . وقد نشأ عن ذلك أن جميع المدارس اللسانية - حتى ما أبدى منها في بواكير نشأته عزوفا عن دراسة النص عامة والنص الأدبي خاصة - قد شهد تحولا كيفيا في هذا الاتجاه . ورأينا نماذج لتكييف الوصفية الأمريكية والنحو التوليدي التحويلي ونحو هاليداي (أو ما يعرف بمدرسة فيرث الجديدة) لمتطلبات نحو النص . لقد فطن المشتغلون بعلوم اللسان إلى أن اللغة ليست مجرد نماذج وأنماط للجمل ولكنها مرآة وأداة وسلاح ، ومن ثم فإن الفهم الحق لنظريتها لا يمكن أن تتحقق باجتزاء الجمل من السلوك القولي في شموله وتكامله ، والتزام حدود نحو الجملة .

لعل ما قدمنا من أدلة عملية على ضرورة نحو النص للعلوم الإنسانية المتجاذبة الاختصاص كاف في البرهان على أهمية الخدمة المنهجية التي تقدمها اللسانيات لتلك العلوم . بيد أن أهمية نحو النص للنظرية اللسانية ولصياغة قواعد اللغات ليست دون ما ذكرناه بحال ؛ فلقد أثبتت الخبرة العملية للسانيين المعاصرين تميز نحو النص على نحو الجملة حتى في إطار الغرض القريب؛ وهو الوصف النحوي الخالص للغة ما . وقد تضافرت تقريرات اللسانيين من أمثال بايك وهارتمان وجليسون وساندرز ولونجاكر Longacre وفان دايك وغيرهم على أن نحو النص بالنسبة لأي لغة بعينها هو أكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من النحو المحصور في حدود الجملة . يقول لونجاكر :

« في عملٍ سابق ، كان يُنْظر إلى تحليل الخطاب على أنه اختيار متاح أمام الدارس لأي لغة من اللغات ، شريطة أن يتوافر له الاهتمام بهذا النوع من التحليل ، وأن تكون لديه بداية طيبة في دراسة البنية على المستويات الدنيا (مستوى الكلمة ،

---

(١٤) Van Dijk, op. cit, 26

العبارة ، الجملة الصغرى . . .) . غير أنه في ورشة العمل الأولى رأينا أن أي عمل يتم على المستويات الدنيا من التحليل يفتقد رحابة الأفق ، ويواجه ألوانا من الإحباط لا مفر منها مالم نتناول المستويات العليا ، ولا سيما الخطاب والفقرة بالدرس التحليلي »[١٥].

وحاصل هذه التقريرات أن كثيرا مما وصف بالشذوذ في قواعد اللغة يمكن أن نجد له تفسيرا مقنعا في نحو النص ، كما أن كثيرا من الظواهر التي تستعصي على الوصف في اللسانيات المعاصرة يمكن أن تعالج أو تصاغ بطريقة أفضل إذا وصفت من جهة العلاقات القائمة بين الجمل في نص يتصف بالتماسك . لذلك كله أصبح نحو النص عند كثير من اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختيارا[١٦].

إن سؤالنا الآن : ترى هل آن الأوان لتقتحم العربية ونحوها عقبة نحو النص ، ويكسر النحو حصارا ضربته حوله الغاية المعيارية الضيقة ، والقواعد المحفوظة ، والشواهد التي نتعبد بتلاوتها وترديدها ؟ ؛ فبهذه النقلة وحدها ـ يمكن ـ في رأينا ـ أن يكون للنحو دوره الفاعل في دراسة كافة تجليات الإبداع في العربية .

٣ ـ مبحث في الماهية

٣ ـ ١ : ذكرنا أن تصور «نحو النص» لا وجود له في العربية ونحوها، بل إننا لا نكاد نجد لدى الباحثين إحساس الحاجة إليه أصلا . ذلك على الرغم من عراقة إسهامنا في التراث اللساني الإنساني، مما يشهد به كل من تصدوا لتأريخ اللسانيات على اختلاف أجناسهم .

لذلك لم يكن بد من أن يتخذ حديثنا عن ماهية نحو النص طابعاً براجمياً يستقي محدداته من جهود علماء غربيين استفرغوا وسعهم في صياغة هذا التصور وتمحيصه ومناقشة مشكلاته وأطره النظرية، واستخدامه في معالجة نصوص بعينها في لغات قديمة وحديثة على نحو نستبين به غناءه وجدواه .

---

(١٥) Pickering, op. cit, pp. 4 - 5.

(١٦) Van Dijk, op. cit, p. 7.

غير أن هذا الحديث البرامجي لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا إذا امتحن بطريقتين:

أولاهما: محاكمته إلى التراث النحوي العربي أو عرض التراث النحوي عليه بغية تقويم هذا التراث، وتشخيص العوائق المانعة فيه عن مسايرة فكرة نحو النص وخدمتها، ولتأصيل الإطار النظري لنحو النص العربي حتى لا يسقط على نصوص العربية من سماء غير سمائها، ولا تستنبت بذوره في أرض رافضة. ولا يكون ذلك إلا بتحديد المسافة الفاصلة بين التصورين واستظهار وجوه الاتفاق والافتراق.

وأما الامتحان الثاني لماهية نحو النص فإنما يكون بممارسة تطبيقه على قدر صالح من النصوص. وبذلك يمكن سبره ومعاودة النظر فيه لإحكامه وتجويده، وتحقيق الاقتناع بجدواه في دراسة العربية وفقه نصوصها.

وقد أمحضنا هذا المبحث والذي يليه من هذه الدراسة لبيان ماهية نحو النص، وعرضه على المحك الأول لتحديد ما بينه وبين النحو العربي من مشكلات ومعوقات تنشأ من تباين الخصائص. أما صياغة الإطار النظري العربي وامتحانه تطبيقياً فسنأتي إليه إن شاء الله في دراسات لاحقة. وهذا التدرج في عرض القضية لا مندوحة عنه، إذ هو تدرج يمليه المنطق: أعني مصلحة الباحث في الإبانة عن فكرته بما يخدمها، ومصلحة القارىء في تلقيها واستيعابها ومناقشة مسلماته المركوزة في عقله من خلالها، ومصلحة الفكرة نفسها في التشكل على نحو تستثمر به جهد الكاتب والقارىء جميعا، وتستفيد به من كل أوجه الاعتراض والنقد.

٣ ـ ٢ : سنبدأ أولا بالتمييز بين ثلاثة تصورات مختلفة تتجاذب مصطلح النحو في أكثر الدراسات اللسانية التقليدية والحديثة، ومن بينها النحو العربي(١٧). ونحن نحاول ببيانها تحرير مصطلح «نحو النص» تحريرا يزيل عنه اللبس، فذلك مما لا يتم الواجب إلا به.

١ ـ **التصور الأول:** يراد فيه بالنحو أصالة علم تراكيب الجمل Syntax. وقد يتسع التصور ليشمل تبعا مسائل صرفية أو صوتية متفرقة شديدة العُلْقة ببيان تراكيب الجمل.

---

(١٧) انظر تلخيصاً لتدرج المفهوم بين الخصوص والعموم في: عبدالوارث: المرجع السابق ذكره، ١ ـ ٧.

٢ ــ **التصور الثاني**: يعني بمصطلح النحو مفهوماً أعم من سابقه، إذ يراد كل ما يتصل بقواعد اللغة بمستوياتها الصوتية والصرفية وتراكيب الجمل والدلالة، على خلاف بين بعض المدارس في اندراج الصوتيات الفوناتيكية ضمن هذا الإطار.

٣ ــ **التصور الثالث**: يعتضد فيه مفهوم النحو الشامل السابق بيانه بالمقاميات Pragmatis[١٨]، فبالإضافة إلى وصف المباني والمعاني الوظيفية للغة يعني الباحث بتشخيص المقام وربطه بالاستعمال اللغوي. وقد أنتج اعتضاد المقام بالمقال ما سمي في التراث العربي بعلم المعاني خاصة (وعلوم البلاغة عامة). وتضرب جذور هذا النوع من النحو بجذورها في كتاب سيبويه. وصارت قسماته أكثر تحديداً لدى عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) والسكاكي (ت. ٦٢٦ هـ).

٣ - ٣ : تلكم التصورات الثلاثة تتفاوت في درجة وفائها بأشراط النحو الكامل. والتصور الأول هو أقلها على الإطلاق في هذا الباب. والثالث هو أرقاها وأقربها إلى الكمال. بيد أنها جميعا تقع دون المراد، لأنها تدور جميعها في فلك «الجملة» لا تتجاوزها إلى ما وراءها. وجميعها يجسد الحاجة إلى نوع أرقى من النحو، هو في جوهره نحو مقامي، ولكنه ذو جهاز تحليلي مركب قادر على أن يصف التركيب اللغوي للنص أو الخطاب. ويمثل إطاره النظري بحسب التعريف الذي نرتضيه «تحصيلا لجميع العوامل المسهمة في تشكيل المعنى الكلي Abstraction الذي يجري تصويره واستثارته من خلال خطاب أو نص منطوق أو مدون، أياً ما كان حجمه[١٩]».

ولا بد لهذا الإطار النظري من أن يكون قادراً على التوصل إلى هذه العوامل وتمييزها ووصفها.

---

(١٨) كلمة «مقاميات» ترجمة أحسبها موفقة للمصطلح Pregmatics وقد قرأتها في:
نبيل علي: «اللغة العربية والحاسوب (دراسة بحثية)»، تعريب، الكويت، ١٩٨٨.

(١٩) Pickering, op. cit, P. 8

ولن يستطيع الإطار النظري لوصف البنية الكلية للنص تلبية هذه المطالب جميعها إلا إذا توافر له خصائص وأشراط أهمها:

١ ــ أن يتخلى عن الغاية القريبة التي تنحصر فيها مهمة الأنحاء التقليدية وهي إصلاح المنطق، أو العصمة من الخطأ في النطق والكتابة، وأن يتجاوز ذلك إلى التشخيص والوصف الوظيفيين لتراكيب اللغة.

٢ ــ أن يكون قادرا على وصف البنية التركيبية (القواعدية) للنص فيها وراء الجملة (أي على مستوى الفقرة والنص).

٣ ــ أن يتوافر لهذا الوصف القواعدي منظومة تحليلية تتصف بخاصية الهرمية Heierarch. أي تبدأ بالمكونات الصغرى ثم تتدرج في درجة التركيب (الصوتيمات، الكلمات، العبارة، الجملة الصغرى، الجملة، الفقرة، النص). وجميع المكونات من مستوى ما قبل الجملة داخل على وجه التدرج الهرمي في نحو الجملة. أما الفقرة فهي الوحدة الصغرى الداخلة في تشكيل النص.

٤ ــ أن يكون ذا جهاز تحليلي قادر على تشخيص خاصية التماسك في النص.

٥ ــ أن يشتمل الجهاز التحليلي على وسائل قادرة على وصف البعد المضموني الشأني (أو البؤري) Thematic[٢٠]. وبهذا الشرط يمكن تحقيق الوصف المضموني للنص بطريقة منضبطة بعيدة عن متاهات التأثرية والانطباعية من جهة، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالبنية القواعدية وسائر العوامل الأخرى المسهمة في تشكيل النص من جهة أخرى.

٦ ــ أن يتضمن من الوسائل ما يمكن به تشخيص الخصائص الأسلوبية للنص. وإضافتنا الخصائص الأسلوبية إلى النص تعني عدم اشتغال الباحث بتشخيص الخصائص الأسلوبية الفردية المائزة لأسلوب منشىء بعينه، فلهذا الأمر في نحو النص طرق أخرى في حاجة إلى فضل بيان، ونرجو أن نفرد له بحثاً قائماً برأسه

---

(٢٠) المعنى الشأني ترجمة أحسبها موفقة لمصطلح Thematic meaning وقد وردت في تمام حسان: «الأصول»، الدار البيضاء، ١٩٨١، ص ٣٨٥.

إن شاء الله. [٢١].

٧ ــ أن يشتمل على وسائل لتشخيص الغايات الاستراتيجية للنص. ومن ثم لا يدرس المقام مرتبطا بالجمل المعزولة على نحو ما نرى في علم المعاني. وإنما يتسع التحليل المقامي ليشمل النص في تركيبه المعقد.

٨ ــ أن يُعتبر فيه أثر نوع الوسيلة التي يصاغ فيها النص أو الخطاب على تشكيل المعنى الكلي. وتعني بنوع الوسيلة هنا ما إذا كانت سمعية أم بصرية أم مركبة منهما.

٩ ــ أن تعتبر فيه العوامل الراجعة إلى الإطار الثقافي واللغوي بمفهومه الواسع.

وجامع هذه الخصائص أمور خمسة:

أولها: استبدال الغاية التشخيصية الوصفية بالغاية المعيارية.

ثانيها: استبدال المعالجة النظامية Systematic بالمعالجة الذرية التفتيتية Atomic.

ثالثها: هرمية العلاقة بين مستويات التحليل اللساني والمكونات التركيبية للنص.

رابعها: التخلي عن ثنائية الشكل والمضمون في التحليل لا بإهدارهما، أو بإعلاء شأن أي منهما على حساب الآخر. بل باعتبارهما جميعا، وإعمال الضوابط التحليلية الكاشفة عن آليات العلاقة بينهما أو الكيفية التي يسهم بها كل منهما في تشكيل الآخر.

خامسها: شمول الاعتبارات الأسلوبية والمقامية والثقافية، واعتبارها جزءا من الجهاز التحليلي الذي يجري إعماله في دراسة النص.

ويستبين لنا مما تقدم فرق ما بين نحو الجملة ـ الذي سيطر دون منازع وما يزال على تاريخ التقعيد اللساني، ولم يبدأ سلطانه في التحلحل إلا منذ عقود ثلاثة على ما بينا ـ ونحوِ النص، ذلك المجال الذي نسعى إلى إرتياده وصياغة إطار نظري

---

(٢١) انظر للتمييز بين المفهومين:
مصلوح: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية» ص ص ٥٧ ـ ٥٨.

مقترح له وامتحان هذا الإطار بإعماله في تحليل نصوص العربية.

٣ ـ ٤ : ثمة قضية أخرى في تحديد ماهية نحو النص يحتاج الكلام فيها إلى شيء من التفصيل. وتتعلق تلك القضية بموقع «نحو النص» من النظرية اللسانية. ولدينا بصدد هذا ثلاثة أسئلة:

هل يمكن التوصل إلى نظرية في «نحو النص» تكون صادقة بالكلية على التحليل النحوي لأي نص في أي لسان؟

أم أن نظرية «نحو النص» أسيرة للخصوصية التركيبية للغة المتعينة؟ وبذلك فإن صلاحية إطار نظري منه للغة ما ليس ضماناً لصلاحيته للتحليل النصي في غيرها من اللغات؟

أم أن دائرة الخصوصية تضيق إلى حد يكون فيه لكل نَصٍّ نحوه الخاص الذي لا يشركه فيه غيره؟ وبذا يكون «نحو النص» تصورا أسلوبيا لا لسانيا بالمفهوم الأعم، أي أن صلاحية الإطار لنصٍّ ما ليس ضمانا لصلاحيته لغيره من النصوص في اللغة نفسها.

أما بالنسبة للإجابة عن السؤال الأول فإن الشوط ما زال بعيداً دون الوصول إلى نظرية في «نحو النص» تكون صادقة بالكلية على أي نص في أي لسان. وأما بالنسبة للسؤالين الآخرين فمن الضرورة بمكان التمييز بين التصورين المنهجيين التاليين:

الأول: ما يمكن تسميته نظام النص (الخطاب) Text Systems (Discourse). ونعني به ـ تبعا لتعريف بيكرنج Wilbur Pickering «مجموعة التوقعات التي يشترك فيها الأفراد في جماعة لغوية معينة»[٢٢]. وتتمثل هذه التوقعات في قوائم من التشكلات المحتملة التي يتيحها نظام اللغة، ومن هذه القوائم تتشكل الخصائص النحوية للنصوص في لغة بعينها. (وهو بهذا تصور عام).

الثاني: ما يمكن تسميته «بنية النص» (الخطاب) Text Structure (Discourse) وهي حاصل شبكة العلاقات الناتجة من تضافر نظم النص بمستوياتها المختلفة

(٢٢) Pickering, op. cit. p. 10

لتشكل بنية نصٍّ ما. (وهو بهذا تصور خاص). وكلا هـذين التصورين واقـع تحت التصور الأعم «نحو النص». ويبدو من هذا التعريف الإجرائيّ السـابق أن التصور الأول يعالج الخصوصية التركيبية للغة بعينها في مجال النص، على حين يلبي التصور الثاني الحاجة إلى تشخيص البنية النحوية لنص بعينه. ومن الطبيعي أن يختلف اتجاه الباحثين في المعالجة من حيث البدء بالخاص للتوصـل إلى العام، أو البـدء من العام للتوصل إلى الخاص، ففي لغة كالإنجليزية، تعتبر بنيتها موفورة الحظ بما أتيح لها من دراسة مفصلة شاركت في إنجازها المدارس اللسانية التقليدية والحديثة جميعها، تكون مهمة الباحث أيسر حين يبدأ حركته من العام في اتجاه الخاص. أما العربية فيبدو لنا أن مهمة الباحث حيالها أكثر تعقيداً، إذ إن عليه أولا أن ينجز إطارا نظريـا إجرائيـا يخضعه للتجريب ويمتحنه بالتطبيق. ولا مفر من أن يكـابد هـذا الإطار وجـوهاً من النقص لا يمكن توقعها ابتداء. ثم إن عليه ثانيا أن يعود إلى إطاره النظري بالتنقيـح والتعديل كلما اتسعت دائـرة التطبيق، ليستكشف بـذلك أوفق صيغـة ممكنة للنُّـظم الداخلة في تشكيل نحو النص العربي. ومـا أصعبها من مهمـة ولكن شرف المطلب يغري بالمحاولة، ويحفز إلى الدراسة الصابرة التي لا يستقل بها فرد أو أفراد.

٣ ـ ٥ ـ والآن. ماذا عن النحو العربي، وعن تشخيص المسافة الفاصلة بينـه وبين النموذج المبتغى لنحو النص؟ أتراه ممكنا أن تستثمر مقولاته وتحليلاته ومسـائله في تشكيل الإطار النظري المقترح بما يمكّننا من تـأصيل هـذا الإطار حتى لا يبـدو في مسار الثقافة العربية خلقاً غريباً؟ أم أن علينا أن نضرب عن التراث النحوي صفحاً بـادئين في سبيـل تحقيق غايتنـا من نقطة المفـاصلة المنهجية بـين مـوروثنـا ومـا يـراد استحداثه من طرق التحليل النحوي.

في المبحث التالي من هذه الدراسة محاولة لمقاربة هذه الأسئلة والإجابة عنها.

٤ ـ النحو العربي بين «الجملية» و «النصية»

٤ ـ ١ : ثمة معياران ضابطان يحكمان موقفنا من هذه القضية ومن كل قضيـة علمية يكون التراث اللساني العربي طرفاً فيها. أما أولهما فحقيقة تغيب عن كثير من أهل النظر على بداهتها، وهي أن النحو العربي ليس هو اللغة العربية، وأن فرق مـا

بينها هو الفرق بين ظاهرة موضوعة للدراسة وعلم يحاول به العلماء دراسة الظاهرة والكشف عن قوانينها بإعمال مناهج ومقولات علمية معينة. إن اللغة «ظاهرة من ظواهر الإجتماع البشري. أما تقعيدها والتماس الضبط لنظمها فهو الأمر الذي يتطلب منهجاً. والمنهج هو رؤية علمية يطرحها الباحث ليتحقق باستخدامها الضبط والتفسير والتقعيد»[٢٣]. وينشأ عن ذلك ضرورة وجوب التمييز بين «اللغة» و «النحو»، وبين حداثة المنهج أو قدمه والمادة اللغوية المدروسة، ذلك أن القدم والحداثة في المنهج شيء واللغة الحية الفصحى شيء آخر. وقد تعالج مراحل متقدمة من اللغة بمنهج حديث،وقد تعالج مراحل متأخرة من أطوارها بمنهج قديم»[٢٣]. وعلى ذلك فإن أي محاولة لإصلاح النحو العربي أو استبدال نحو آخر به لا يمكن أن تعني هدماً للعربية بقرآنها وتراثها وتاريخها العريق. إن استحداث المجهر بدلا من العين المجردة في فحص الأشياء على سبيل المثال لم يغير من طبيعة المرئيات ولكنه كشف لنا عن خصائص وعلاقات كانت خارجة على سلطان الملاحظة والتسجيل. ومن ثم كان على الباحث أن يرجع البصر كرتين ليعيد تقويم الظاهرة المدروسة ويصوغ قوانينها من جديد.

أما الضابط الثاني فيتمثل في حقيقة تفرض نفسها فرضا على جميع المعاصرين المشتغلين بقضايا اللسانيات العربية، وهي أنهم لا يبدأون ـ وما ينبغي لهم أن يبدأوا ـ من نقطة الصفر المنهجي. أن البدء من الصفر المنهجيّ في هذا المقام يعني إهدار أربعة عشر قرنا من النتاج اللساني المتميز، الذي هو إنجاز قوم من أعلم الناس بفقه العربية وأسرار تراكيبها وذخائر تراثها. وما يكون لنا ـ إذا كنا حقاً من أولي الألباب ـ أن نلوي رؤوسنا إعراضاً عن كنوز هي عمر هذه الأمة، ومركب جوهري من مركبات ثقافتها.

ولا يغيب عن البال أن هذين الضابطين إنما يعملان في اتجاهين متضادين، فأولهما يغري بالبحث عن الجديد، ويفتح أمام الباحث آفاقاً من الدرس لا تحدها

---

(٢٣) انظر دراسة نقدية لكتاب عبدالصبور شاهين: «المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية جديدة في الصرف العربي» قام بها كاتب البحث ونشرت في: «المجلة العربية للدراسات اللغوية»، الخرطوم، مج٢، ع ٢، ص ٨٩.

حدود. أما الثاني فيردنا رداً إلى منطلقات وفروض ومعالجات زخر بها تراثنا اللساني، وربما تمثل قيدا على حركتنا في طلب الجديد. ومن هنا تشكلت لدى كاتب هذا البحث عقيدة منهجية عبّر عنها في أكثر من دراسة سابقة تقوم على أن القيمة الحقيقية لأي فكرة جديدة هي بمقدار ما تحل من مشكلة،أو تكشف من أفق، أو تسهم في صياغة فهمنا لما لدينا على نحو أكثر انضباطا وتماسكا وجدوى. ونحن في استثمارنا للجديد إنما نستثمره دون شعور بحساسية مرضية؛ فهو تراث إنساني شاركنا، كما شارك غيرنا، في صنعه وصياغته على مرّ التاريخ.

ويُفضي بنا البيان المتقدم إلى أن ما تدعو إليه هذه الدراسة باسم «نحو النص» لا يمكن أن يعد نسخاً للنحو العربي، كما أنه لابد مرة أخرى من تأكيد انفكاك الجهة بين النحو ـ سواء أكان نحواً جملياً أو نصيّاً ـ واللغة نفسها، وأن أي منهج أو تصور علمي ـ قديما كان أو حادثاً ـ إنما تتحدد قيمته بمقدار مساعدته لنا على الفقه بالظاهرة اللسانية وتجلياتها المتنوعة التي تهتم لها اللسانيات وسائر العلوم الإنسانية.

٤ ـ ٢ : من هنا لم يكن عجبا للناس منذ قديم أن يحس العلماء الحاجة إلى معاودة النظر في النحو منذ ابن مضاء القرطبي (ت. ٥٩٢) إلى يوم الناس هذا. بيد أن جميع المحاولات التي بذلت لمراجعة النحو تحت أسماء وألقاب مختلفة مثل إصلاح النحو وإحيائه وتحريره ونقده وتهذيبه وتيسيره، وكذلك ما جاء منها نعتاً لصورة جديدة من صور النحو يهدف الباحث إلى صياغتها ودعوة الناس إليها مثل النحو «الجديد» و «المعقول» و «الواضح» و «المصفى»» كل أولئك كانت وجهته إلى التقعيد، لجعله أكثر ملاءمة للوفاء بغايته الأصيلة، وهي تقويم اللسان أو إصلاح المنطق أو توقي اللحن[٢٤]. وقليلة جدا هي المحاولات التي اجتوت الغاية التعليمية، واتسع أفقها المنهجي ليعالج مسائل العلم المتصلة بوظيفة النحو البحثية وغاياته الأكاديمية. ويقف في الصدارة من هذه المحاولات كتاب أستاذنا تمام حسان: «العربية: معناها ومبناها»[٢٥]. وهو كتاب له ما بعده، أو هكذا كان

---

(٢٤) انظر عرضاً نقدياً لهذه المحاولات في: عبدالوارث، المرجع السابق ذكره، الباب الثاني في «إصلاح النحو في العصر الحديث».

(٢٥) صدر عن الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢، وانظر عرضاً له في عبدالوارث، المرجع السابق، ص ص ١٧٥ ـ ١٨٤.

يبعي. إذ هو جهد بصير يباين في جوهره جميع ما سبقه من جهود. ويجمعه بهذه الجهود أنه ما يزال مثلها واقعا في حيز نحو الجملة. بيد أنه مؤهل ـ ولا سيما بنظريته في القرائن النحوية والتعليق ـ لأن يكون منطلقا رصينا موفقا لارتياد آفاق جديدة يكون فيها النحو قطب الطرق التحليلية في «دراسة النص». ولنا إلى الكتاب من هذه الوجهة عودة في قابل إن شاء الله.

أما الآن فنعود إلى السؤالات التي طرحناها في خاتمة المبحث السابق حول النحو العربي وتقويمه من الوجهة النّصية، لنتعرف مدى قدرة مقولاته وتحليلاته وقواعده من تلبية هذا المطلب.

٤ ـ ٣ : حين نحاكم النحو العربي إلى الخصائص التي يتطلبها نحو النص سنلحظ اشتماله على كثير من المعوقات المنهجية التي تجعل من استخدامه في التحليل النحوي للنصوص، على ما هو عليه، مهمة يندر مثيلها في الصعوبة. وذلك لأمور أهمها:

أولا: أن النحو العربي موضوع لتحليل الشاهد والمثال. والشواهد النحوية (أو الجمل المجتزأة أو المصنوعة أحيانا) هي موضوع الدراسة فيه، بل إن قدرا لا بأس به من شواهده أخبار آحاد، أو بقايا لهجات عربية قديمة اختلط بعضها ببعض، فأدخلت الضيم على القواعد، ووسعت دائرة الشذوذ والجواز[٢٦]، أو هي مصنوعة صنعاً للتمثيل أو للتدريب. وليس بنادر ـ لذلك ـ أن يشتمل النحو على قواعد مصنوعة مثل «الوقف بالنقل»[٢٧] أو تشتمل الألفية على نظم للتمرينات النحوية في بعض الأبيات[٢٨].

---

(٢٦) من المصطلحات السائرة في «المصنفات النحوية: «وشَذَّ..» و«قليل»، و«قد روى...»، و«غير مطرد»، ولا يجوز إلا «في الضرورة»، أو «اضطراراً» و«لغة»، و«قد يحذف أو ينصب..» ولعلنا إذا قمنا بإحصاء للشواهد التي انطبقت عليها هذه الألقاب لوجدناها تضم الجمهرة الغالبة منها.

(٢٧) لكاتب هذه الدراسة بحث بعنوان «رأي في الوقف بالنقل».
حاول فيه إثبات رأيه في كون الوقف بالنقل قاعدة مصنوعة، وقد نشر في حوليات كلية دار العلوم، ع١١، ١٩٨٢، ص ص ٦٥ ـ ٧١.

(٢٨) انظر شرح ابن عقيل بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة عشرة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص ص ٢/٣٩٨ ـ ٤٠٤. باب «الإخبار بالذي والألف واللام»؛ يقول =

ثانياً: أن السمة التشريعية ذات الطابع التعليمي المعياري غلبت على النحو فَحدَّت من قدرته على التحليل الخالص للظواهر اللغوية بعيداً عن مبحث الصواب والخطأ إلا قليلا مما اشتملت عليه كتب أصول النحو التي تأثرت في نشأتها وتطورها بعلوم الشريعة ولا سيما بأصول الفقه ومصطلح الحديث[٢٩].

ثالثا: أن النحو العربي بتأثير من وقف الاحتجاج عند منتصف القرن الثاني الهجري على رأي الجمهور استبعد مطلقاً فكرة التغير اللغوي، وعد النحاة أي مظهر من مظاهر التغير الحادثة محض لحن ينبغي البراءة منه والتجافي عنه. وهذا الموقف من التغير اللغوي نقطة افتراق بين النحو العربي واللسانيات الحديثة، ذلك أنها ـ في الأعم الغالب ـ تعترف بإمكان دراسة اللغة دراسة تزامنية Synchronic أو تعاقبية Diachronic. وفكرة الزمانية سواء في شكلها التزامني أو التعاقبي من التصورات المنهجية الهامة لصياغة «نحو النص» أما النحو العربي فهو نحو لا زماني Achronic. . ولهذا الموقف نظائره أيضا في مجال النقد والبلاغة في الثقافة العربية[٣٠]. ونشير هنا إلى أن العربية المعاصرة ـ لا سيما عربية الصحافة ـ قد عرفت بتأثير الترجمة عن اللغات الأوربية، ما نسميه «الجملة ـ النص». وهو مظهر من مظاهر التغير النحوي في العربية يفرض علينا ضرورة اتباع طريقة في التحليل النحوي قادرة على مسايرته وتشخيصه. وقد أشرنا بشيء من التفصيل إلى حقيقة التغير اللغوي وضرورة اعتبارها عند دراسة العربية في دراسة أخرى[٣١].

رابعاً: أن اعتبار المقام في قواعد النحو يشغل حيزاً هامشياً، أو أن النحو ـ بعبارة أخرى ـ لا يربط تمايز التراكيب بتمايز المقامات. وقد ظل هذا هو الطابع

= ابن عقيل: «هذا الباب وضعه النحويون لامتحان الطالب وتدريبه، كما وضعوا باب التمرين في التصريف لذلك».

(٢٩) أورد الحافظ السيوطي في المزهر فصولاً كثيرة عن وضع اللغة وروايتها، ومراتب النقل، وشروط الأخذ والتحمل. وقد استعمل في كل ذلك مصطلحات الأصول ومصطلح الحديث انظر: الجزء الأول من «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» بتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة بدون تاريخ.

(٣٠) انظر: بحث المؤلف المقدم إلى ندوة جدة (سبقت الإشارة إليه)، ص ٥٣.

(٣١) انظر «اللهجات العربية وعلاقتها بالفصحى» محاضرة ألقاها المؤلف في الموسم الثقافي لكلية التربية الأساسية ١٩٨٧ / ١٩٨٨، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

الغالب على كتب النحو منذ اتخذت صورتها المستقرة في القرن الرابع الهجري. غير أن كتب المقدمين من النحاة ولا سيما كتاب سيبويه حفلت بملاحظ هامة أعانت فيما بعد على اجتماع تياري البحث النحوي والدرس البلاغي ليتشكل منهما ما عرف فيما بعد بعلم المعاني[٣٢]. وهو نوع من النحو المقامي كان للإمام عبدالقاهر (ت. ٤٧١ هـ) والزمخشري (ت. ٥٣٨ هـ) والسكاكي (ت. ٦٢٦ هـ) اليد الطولى في صبغه بالصبغة المنهجية المتماسكة. ولذلك نحسبه واجباً على من يريد تأثيل «نحو النص» في العربية أن يولي وجهه شطر صيغ النحو المقامي في البلاغة العربية، فهي أوثق صور النحو القديم عروة بنحو النص.

تلكم المعوقات المنهجية الأربعة، على أهميتها واتصالها بسبب قوي بما نحن بصدد الحديث عنه، ليست هي أكثر العوامل تثبيطا في العلاقة بين موروثنا النحوي و«نحو النص». ذلك أن ثمة معوقات أخرى تتجاوز ترسيخ المفارقة بينهما إلى ماهو أشد وطئاً وأدهى عاقبة؛ إذ إنها تخل بكفاءة النحو العربي حتى من جهة قيامه بتحليل جيد للجملة بَلْهَ النص، ويتمثل هذا النوع الأخير في افتقاد النحو العربي لخاصيتي النظامية والهرمية الواجب توافرهما في نحو الجملة الكفء إذا أريد له أن يكون جزءا مكونا في نحو نص كفء. وهاتان الخاصيتان هما موضوع الحديث في الفقرتين التاليتين.

٤ ـ ٤ : كان إسهام اللسانين المسلمين في جميع المجالات البحثية اللسانية من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية وبلاغية إسهاماً عظيما. غير أن الشمول لم ينف عن هذه الجهود افتقادها لخاصية النظامية Systemaization؛ فاستقلت كتب المعاجم وفقه اللغة والنقد والبلاغة بالمبحث الدلالي في الأعم الغالب. وأما المباحث الصوتية فقد تخللت كتب النحول الشامل، أو جاءت فيها على غير نسق معلل، وعولجت بعض مشكلاتها في كتب القراءات وكتب الموسيقا وبعض مباحث البديع، ونادراً ما اختصت بها كتب قائمة برأسها. وكذلك كان شأنهم في البحث الصرفي.

---

(٣٢) يرى الشيخ أحمد مصطفى المراغي أن سيبويه هو واضح علمي المعاني والبيان وقد أورد هذا الرأي واحتج له في كتابه: «تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالها»، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٤٣ وما بعدها.

وكذلك كان شأنهم في المبحث الصرفي.

وهكـذا جاءت معـالجة الـظواهر اللسـانية في الـتراث مفرقـة أشتاتـا حتى إن الظاهرة الـواحدة لتعـالج في علوم مختلفـة، أو تعالـج في العلم الواحـد تحت أبواب متفرقة. وبذا يصبح التماسها في مواطنها والكشف عن العلاقة النظامية بين مكوناتها أمراً غير يسير المنال. ويمكن القول في غير ما جنوح إلى المبـالغة ـ إن الـتراث اللساني العـربي قد تضمن معـالجة علميـة متميزة لجمهـرة من مسائـل الأصـوات والصرف والنحو والدلالة، ولكنه أبداً لم يعرف فكرة المستوى التحليـلي الذي ينتـظم مفردات المسائل ويفسر علاقاتها النظامية فيما بينها، ويعالج علاقـات المستوى الـواحد بغـيره من المستويات التي تقع دونه أو فوقه في سلم العلاقات الوظيفية.

ويكاد كتاب «مفتاح العلوم» للإمـام السكاكي يكـون نسيج وحـده في الجمع بين جميع مستويات البحث اللساني جمعا على وجه التدرج واللزوم، بادئا بالصوتيات ومثنيا ببناء الكلمة، فالنحو المقامي، مقررا تضافـر هذه المسـتويات في تشكيـل علم الأدب. وفي ضـوء الغايـة المبتغاة من نحـو النص، وهي تحديدا، إمداد الـدراسات النصيـة بوصف وتشخيص منضبـطين لبنية النص النحـويـة ـ أمكن أن نقـدر هـذا الإنجـاز المتميز حق قـدره، وأن نضعه في حـاق موضعـه من سياق الفكـر اللسـاني العربي.

٤ ـ ٥ : افتقد النحو العربي ـ على ما أسلفنا بيانه ـ خاصية النظامية المنهجيـة التي تعترف للغة بمستويات تحليليـة ينهض لدراستهـا علم من علوم اللسان، فكـان من الطبيعي أن تغيب عنه فكـرة تحديـد العلاقـة بين هـذه المستويـات؛ إذ لا وجود عنده أصلا لمفهوم المستوى.

بيد أن ثمة وجها آخر من وجـوه القصور المنهجي يضـاف إلى ما سبق وينشـأ بالضرورة عنه؛ ألا وهو افتقاد المنظومة التحليلية داخل المستوى الواحـد. وقد تجـلى كلا وجهي القصور في مظاهر مختلفة نورد منها ما يلي:

أولا: يعجز العقل عنـد استعراض تـرتيب الأبواب والمسـائل النحـو في أكثر مصنفات النحو عن استظهار الحكمة في تتابعها على هذا النحو المخصوص.

وقـد تجلت هذه الخـاصية في «الكتـاب» أقدم مـوسـوعـات النحـو العـربي، واستمرت في سائر المصنفات النحوية التي جاءت بعده، وثبتت في ألفيـة ابن مالـك ثم في شروحها. وثمة أمثلة لذلك تُعجِز الإحصاء. ولكننا نتوقف بمـزيد من التـأمل عند الترتيب المعتمد في الألفية.

فلعل من أوضح الشواهد على انتفاء علاقة اللزوم في هذا الترتيب أن معـظم قضايا الصرف شغلت مـوقعا متـأخرا في أبيـات الألفية مـع أن حق مباني الكلم أن تتقدم مباني الجمـل ومن أمثلة ذلك (ومـرجعنا هـو شرح ابن عقيل بتحقيق الشيـخ محمد محيي الدين عبدالحميد):

قواعد اتصال نوني التوكيد بالفعل المضارع (٢/٣٠٨ - ٣١٩):

بنية مالا ينصرف (٢/٣٢٠ - ٣٣٥).
التأنيث (٢/٤٢٩ - ٣٣٥).
صيغ جمع التكسير (٢/٤٥٢ - ٤٧٦).
التصغير (٢/٤٧٧ - ٤٨٩).
النسب (٢/٤٩٠ - ٥٠٧).
التصريف (٢/٥٢٩ - ٥٤٧).
الإبدال (٢/٥٤٨ - ٥٨٥).

والناظم يعمد إلى مبحثين صوتيـين فيفصل بـأولهما وهـو الإمالـة بين مبحثـين صرفيين (٢/٥٢٠ - ٥٢٨)، ثم يختم بالثاني (وهو الإدغام) أبيات الألفية.

وليس المشكل هنا في تأخير مـا حقه التقـديم فحسب، بل في تفـريق مباحث صرفية كثيرة عـلى نحو يهـدر تضافـر المسائـل التي تنتمي إلى مستوى تحليـلي واحد، فنجد كثيرا من قضايا الصرف في بداية الألفية مثل أنواع الكلم وعلامـات كل نـوع (١/١٥ - ٢٥) وبيان المعتل من الأسـماء والنكرة والمعـرفة (١/٨٦ - ١٨٧) ونجـده يؤخر الحديث عن أبنية المصادر (٢/١٢٣ - ١٣٢) وأبنية أسـماء الفاعلين والمفعولـين (٢/١٣٤ - ١٣٨).

ونلحظ أيضا هنا تقديم مباحث الإعراب على مباحث مباني الكلم (الصَّرف)

في المسألة الواحدة؛ فيعالج إعراب مالا ينصرف (١/٧٧) في موضع متقدم جدا على حين يؤخر بيان ما لا ينصرف من الأسماء إلى الثلث الأخير من الألفية (٢/٣٢٠ ـ ٣٣٥). ونجده يقدم القول في إعمال أسماء الفاعلين والمفعولين (٢/١٠٦ ـ ١٢٢) على القول في مباني أسماء الفاعلين والمفعولين (٢/١٣٤ ـ ١٣٩) ونلحظ هنا أيضا تقطيع مسألة إعراب الفعل المضارع. بإيرادها في مواضع متفرقة هي إعراب الأفعال الخمسة (١/٧٨)، وإعراب المعتل من الأفعال (١/٨٤)، وإعراب الفعل المقترن بعوامل النصب والجزم والعاري منها (٢/٣٤١ ـ ٣٩٨).

من الأمور التي تبدو واضحة في الألفية تمييع مفهوم الجملة نفسها التي نذر النحو العربي نفسه لمعالجة قواعدها؛ فالجملة الإسمية تعالج تحت باب الابتداء ثم تحت نواسخ الابتداء باباً بعد باب. أما الجملة الفعلية فقد كانت أسوأ حظا إذ توزعتها مباحث الفعل، وإعرابه، وتغير صورته بإسناده للفاعل أو للمفعول، وأبنيته الصرفية، وأحكام تأنيثه وتذكيره، وباب الفاعل، والمفاعيل على اختلافها؛ كل ذلك دون اعتراف للجملة الفعلية بكينونة خاصة تسوغ علاج هذه المسائل في ارتباطها، وجمع مباحثها، والنظر فيها لوصف علاقاتها التركيبية وصفا يبرأ من هذا التشتيت والتفتيت.

ثمة مثال آخر على قضية تمييع مفهوم الجملة نجده في معالجة الناظم جملة الشرط تحت «جزم الفعل المضارع»، على الرغم من أن جانبا كبيرا من قواعدها لا صلة له بجزم الفعل المضارع من قريب أو بعيد. وواضح أن إهدار أحقية الجملة الشرطية. بمعالجة تؤكد خصوصيتها ـ وهو ما استدركه صاحب مغني اللبيب وقد أحسن في ذلك ـ إنما مرده إلى سيطرة فكرة العامل والإعراب على التفكير النحوي، فمتى اتحد العمل الإعرابي أو تشابه كان ذلك مسوغا كافيا للجمع بين المتنافرات في باب واحد .أو إذا كان الأمر عكس ذلك جرى قتل المسألة الواحدة وتفريق دمها بين أكثر من باب وفي أكثر من موضع. هكذا ضمت «ليس» و«المشبهات بها» إلى باب «كان»، وصنفت حروف العطف إلى حروف تشّترك في اللفظ والحكم، وحروف تَشّترك في اللفظ دون الحكم، وقرنت «لا» النافية للوحدة بأخوات كان، ولا النافية للجنس بباب إن. وكانت محصلة ذلك اختفاء التقعيد للنُظُم من النحو العربي اختفاء يكاد يكون تاما؛ فلست بواجد وصفا نحويا جامعا لنظام النفي بوصفه نظاما

وإن وجدت معالجة لأدواته متفرقة بحسب عملها الإعرابي، ولست بواجد شيئا مثل ذلك عن نظام الاستفهام أو نظام الأزمنة النحوية، وقد استدرك على النحاة ذلك، وأحسن،شيخنا تمام حسان في كتابه الفذ «العربية معناها ومبناها».

نأتي الآن إلى إبراز مظهر من أهم مظاهر إهدار الطابع الهرمي للمنظومة التحليلية داخل إطار الجملة؛ فبالإضافة إلى تمييع إنّية الجملة، واختفاء قواعد النُّظُم نلحظ أن المكونات التركيبية الصغرى (أو ما نسميه العبارات ترجمة للمصطلح Phrases) قد جاء مفرقاً أو مصنفا بحسب الأثر الإعرابي. كذلك كان الشأن مع عطف النسق وعطف البيان والبدل والنعت والمفاعيل والحال والتمييز والعدد وغير ذلك دون أن تسلك جميعها في علاقة تركيبية نظامية ذات طابع هرمي في إطار الجملة. ولم تحظ الجمل الصغرى (وهي ما نستعمله مصطلحا موازيا لمصطلح Clause) بمعالجة توضح العلاقة النظامية الهرمية بينها وبين المكونات التي هي دونها، أو بينها وبين المكون الأكبر الذي يحتويهما جميعا وهو الجملة.

إن جميع ما سقناه من ظواهر جعلت من مصنفات النحاة جمعا اتفاقيا يضم مسائل النحو في تتابع يخذل جميع التوقعات؛ إذ إنه لا أساس واضحا للتتابع من ضرورة أو احتمال منهجي. إنه تتابع يهدر مفهوم المنظومة التحليلية ومفهوم العلاقة النظامية بين مكونات التركيب داخل الجملة، وبين المقولات الصرفية والنحوية كل الإهدار. أترانا على حق حين نقرر أن النحو العربي بصورته المستقرة لا يفي بالمراد حتى في إطار «نحو الجملة» بَلْهَ «النص». حيث إن الموالية المنهجية في نحو الجملة هي: الكلمة (الصرفيم)، العبارة (Phrase)، الجملة الصغرى (Clause)، الجملة. كما أن المتوالية المنهجية في نحو النص تبدأ من الجحملة لتتحقق على الوجه التالي: الجملة، ما بين الجمل، الفقرة ما بين الفقرات، النص.

وحاصل القول أن النحو العربي هو أبعد شيء من أن يكون نحوا «جمليا» موفقا، بله أن يكون صالحا بصورته هذه لأن يكون نحوت «نصيبا».

على أن بارقة أمل في عون من مصادر التراث لتحقيق ما نحن بسبيله من صياغة إطار نظري عربي لنحو النص، إنما يقدحها زناد الإمام أبي يعقوب يوسف بن محمد علي السكاكي في صيغته التي قدمها في «مفتاح العلوم». ولقد سبق

أن استظهرنا في بحث سابق أن صيغة السكاكي هي أوفق الصيغ للدخول في حـوار منهجي مع الأسلوبيات اللسانية. وها نحن أولاء، نقرر أيضا هنا أنها أوفق الصيـغ التي يمكن الاستعانة بها في صياغة «نحو النص» العربي، لما لها في هذا المقام من مزية لم تتفق لغيرها، ومن إحكام يزكيهـا لتكون الإطـار المرجعي في العـربية إذا مـا أردنا لنحو النص العربي تأثيلا وتأصيلا. ولهذا الموضوع من الأهمية ما يجعله حقيقا ببحث خاص، نقدم فيه «قراءة جديدة لنظرية السكاكي: محاولـة في تأصيـل «نحو النص» العربي»

كاد وأخواتها
نموذج للعلاقة بين الدلالة والمعنى النحوي

د. مصطفى النحاس
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

ملخص

الربط بين النحو والمعنى الدلالي من الأمور التي يمكن ملاحظتها قديماً وحديثاً. وتمثل «كاد وأخواتها» نموذجاً للعلاقة بين الدلالة والمعنى النحوي؛ سواء من الناحية التصريفية أو التركيبية. وتقوم هذه الأدوات بتحديدات زمنية معيّنة تشير إلى الجهات المختلفة؛ مما يضفي عليها طابعاً دلالياً خاصاً تختلف فيه عن «كان وأخواتها» ثم إن لخبرها خصائص يجعلها تتفاعل معه، وتكوّن عنصراً فعلياً مركّباً لا نجده في سائر النواسخ. وتدلّ البقايا التركيبية لبعض هذه الأفعال على تطوّر في استعمالاتها، أدّى بها في النهاية إلى أن تصبح أدوات.. إضافة إلى ما يمتاز به بعضها الآخر من تفرّد في الاستعمال.. مع ربط ذلك كله ببعض النماذج اللغوية في القديم والحديث.

مدخل

من الأمور التي أكد عليها علماء اللغة في العصر الحديث: الربط بين التركيب والدلالة، وذلك بعد أن توقف الوصفيون أمام مستويات التحليل اللغوي عند الشكل الظاهري، دون تعمق في الدراسة أو البحث.

ولقد بذل التحويليون منذ تشومسكي (١٩٥٧) حتى الآن مجهودات كبيرة من أجل أن يردوا للدلالة اعتبارها بين مستويات التحليل اللغوي، وعقد تشومسكي نفسه فصلاً في كتابه (Syntactic Structures) عن «التركيب والدلالة» أكد فيه على الصلة بين النحو والدلالة، وأن الجمل النحوية عنده هي التي لها معنى دلالي.

والحقيقة أن الربط بين النحو والمعنى بصفة عامة من الأمور التي يمكن ملاحظتها في المراحل الباكرة من الدرس النحوي، حتى إن سيبويه يعقد باباً في الصفحات الأولى من كتابه (١ / ٢٥) عن «الاستقامة من الكلام والإحالة» يربط فيه ربطاً مباشراً بين المستويين النحوي والدلالي.

وقوله في شرح المحال «أن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غداً» - يتوارد أو يكاد يتوارد على وجه التطابق مع تلك الجملة (أتيتك غداً) عند بيرلنج (Burling). لقد «ناقش بيرلنج موضوع العلاقة بين النحو والمعنى في كتابه (Man's Many Voices) فوقف إلى الجملة: ذهب غداً (He went Tomorrow) إذ رأى فيها مثالاً على خطأ من نوع ما، وتساءل عن أصل الخطأ فيها: أنجم عن خرقها لقاعدة نحوية أم لقاعدة دلالية، وتراءى له أنه يمكن القول: إنها تخرق القاعدتين معاً، وقدّر أننا نستطيع أن نقيم قاعدتين: نحوية ودلالية تفسّر كل منهما وجه الخطأ في تلك الجملة؛ فنحن نستطيع القول على سبيل المثال: إن (غداً) تشير إلى أحداث تقع في حيّز المستقبل، على حين تشير صيغ الفعل الماضي، كما هو الحال في (ذهب) إلى الزمن الماضي، وليس المستقبل والماضي في اختيارنا التجريبي خارج نطاق اللغة - بمتواقعين. غير أننا نستطيع القول أيضاً: إن في الإنجليزية طائفة من الظروف بينها (غداً) لا تواقع الأفعال الماضية على أسس توزيعيّة[1]. ووجد بيرلنج في كلٍّ من هذين الملحظين وجهاً في التفسير». (الموسى: ١٠٢).

---

(١) التوزيع منهج في التحليل اللغوي اتخذته مدرسة «بلومفيلد» أو مدرسة «ييل»، إحدى مدارس النظر اللغوي في أمريكا، وكان محور اهتمامها توزيع الوحدات اللغوية بطريقة الاستبدال. وتتمثل هذه الطريقة في استبدال وحدة لغوية بأخرى في تعيين القسم الذي تنتسب إليه من أقسام الكلام.
ووفقا لذلك فإن (الرجل) و(البرنامج) ينتسبان إلى (الاسم) من جهة أنهما يستويان في أنهما يمكن أن يقعا موقعا واحدا، كما في: =

وإذا كان النحاة قد ربطوا بين الإعراب والمعنى النحوي، كما ربطوا بين النحو والمعنى الدلالي، فإن اللغويين العرب قد أدركوا ذلك، وربطوا أيضاً بين المستوى النحوي والمستوى الدلالي في التركيب، يقول ثعلب: «والفراء حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع، واستحق التقدمة، وذلك كقوله: مات زيد، فلو عاملت المعنى لوجب أن تقول: مات زيداً: لأن الله هو الذي أماته. ولكنك عاملت اللفظ، فأردت: سكنت حركات زيد» (الزُّبيدي: ١٣١).

والمقصود بالألفاظ هنا: الشكل النحوي، أو الجملة نحوياً، فمات زيد، تفيد قيام زيد بالفعل؛ أي إنه هو الفاعل. أما من الناحية الدلالية فإن هذا الفاعل هو مفعول به؛ لأنه لم يقم بالفعل دلالياً، ولذلك قالوا في تفسير الجملة: سكنت حركات زيد.

وإذا أنعمنا النظر في باب «كاد وأخواتها» وهو الباب موضوع البحث، سنرى حرص النحاة على الربط بين المعنى الدلالي لأفعال هذا الباب والمعنى النحوي.

تقول: عسى زيد أن يخرج، بمعنى قارب زيد الخروج «ثم تغيّر معنى الكلام عن ذلك الأصل بإفادة» عسى «لإنشاء الطمع، كما كان أصل (ما أحسن زيدا): شيء جعله حسنا، ثم تغير عنه بإفادة إنشاء التعجب.

=

الرجل		
ذلك	}	خيّب ظني
البرنامج		

وقد يكون (الرجل) و(البرنامج) ينتسبان إلى (الاسم) عند التصنيف لدخول (أل) عليهما، أو لوقوعهما بعد (أل)، أو لأننا نقول:

	الرجل	
في	}	إثارة
	البرنامج	

فيدخل عليهما حرف الجر..

وقد وقف النحويون العرب على هذا المبدأ في حقيقته، وذلك في غير وجه؛ أخذوا به في تمييز أقسام الكلمة، ومعروف أن الاسم عندهم يتعين بدخول (أل) أو بوقوعه بعد (أل) كما يتعين بدخول (يا) ودخول حروف الجر.. ومعروف أن الفعل عندهم يتعين بدخول (قد) ودخول (لم)... الخ. (الموسى: ٣٢ ـ ٣٤).

كذا قالوا أصل معنى (عسى أن يخرج زيد): قرب أن يخرج زيد؛ أي خروج زيد، فهو [أي الفعل عسى] في الاستعمال الأول [عسى زيد أن يخرج] كالفعل المتعدي، وفي الثاني [عسى أن يخرج زيد] كاللازم» (الرضى ٢/٣٠٢، ٣٠٣).

ويعلّق الرضى قائلا (٢/٣٠٣): «وفيه نظر؛ إذْ لم يثبت في «عسى» معنى المقاربة؛ لا وضعا ولا استعمالا. . . . . . . لأن «عسى» بمعنى: يتوقع، فمعنى: عسى زيد أن يقوم؛ أي يتوقع ويرجى قيامه».

ومن هنا قال الكوفيون: إن (أن يفعل) ليست خبرا لعسى، وإنما المصدر المؤول في محل رفع بدلا مما قبله بدل اشتمال، كقوله تعالى (٦٠/٨):

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم﴾

أي: لا ينهاكم الله عن أن تبرّوهم. (الرضى ٢/٣٠٣).

ويكون التركيب في جملة: عسى زيد أن يقوم، مكوّنا من:

فعل + فاعل + بدل

هكذا يدور الربط بين الدلالة والمعنى النحوي في سائر أفعال الباب، وسيتضح ذلك أكثر من خلال عرضنا للخصائص الدلالية والتصريفية والتركيبية لـ «كاد» وأخواتها، واستخداماتها في القديم والحديث.

أفعال المقاربة:

يطلق النحاة على الأفعال:

كاد وكرب وأخذ وجعل وطفق وأوشك وعسى وحرى واخلولق -

أفعال المقاربة، وليست جميعها للمقاربة، ولكن هذا الإطلاق من باب التغليب (الصبان ١/٢٥٨) كما سنرى.

ولهذه الأفعال خصائص تصريفيّة وتركيبية ودلالية معينة.

١ - فمن حيث الدلالة:

تنقسم هذه الأفعال إلى ثلاثة أقسام:

أ ــ أفعال مقاربة، وهي التي تدلّ على أن الفعل قد قارب الحدوث أو الحصول لكنه لم يحدث، وأشهرها: «كاد»، و«كرب» بفتح الراء وكسرها، والفتح أصح، و«أوشك».

وأغربها:

«أَوْلَى» و«هَلْهَل» و«أَلَمَّ»[1]، ومن شواهدها:

فَعَادى بين هادِيَتَيْن منها وأَوْلَى أن يزيد على ثلاث[2]

(الرضى ٢/٣٠٤).

وطئنا بلاد المعتدين فهَلْهَلَتْ نفوسُهم قبل الإماتة تزهق

(السيوطي ٢/١٣٢)

«لولا أنه شيء قضاه الله لألمَّ أن يذهب بصره» (حديث). (السيوطي ٢/١٣٢)

فمعنى هذه الأفعال في تلك الشواهد:

«كاد يزيد على ثلاث»

«كادت نفوسهم تزهق»

«كاد يذهب بصره»

ب ــ أفعال شروع، وهي التي تدّل على أن الفعل قد شرع فيه، ومنها:

---

(١) ينظر: الرضى ٢/٣٠٤، والسيوطي ٢/١٣٢.

(٢) البيت لامرىء القيس، كما ذكر الرضى (٢/٣٠٤)، والمراد: الموالاة بين الصيدين، يصرّع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والضمير في «منها» يعود على الهاديات في قوله: «كأن دماء الهاديات بنحره» والهاديات: أوائل الوحش.

هذا، وقد ذكر محقق الهمع أن قائل البيت مجهول، وروى البيت هكذا:

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

(ينظر الهمع ٢/١٣٢)

«جعل» نحو قول الشاعر:

وقد جعلتُ إذا ما قمت يُثقلني ثوبي فأنهض نَهْضَ الشارب الثّمل

(السيوطي ٢/١٣٢)

و«طفق» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أشهر، قال تعالى (١٢٠/١٢١):

﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة﴾

و«أخذ»:

فأخذت أسأل والرسوم تجيبني إلاّ اعتبارَ إجابة وسؤال

(السيوطي ٢/١٣٢)

و«علق»:

أراك علقْتَ تظلم مَن أجَرْنا وظُلم الجار إذلال المجير

(السيوطي ٢/١٣٣)

و«أنشأ»:

لما تبينّ مَيْل الكاشحين لكم أنشأْتُ أُعرب عما كان مكنونا

(السيوطي ٢/١٣٣)

و«هب»:

هَبَبْتُ ألوم القلب في طاعة الهوى فلَجَّ كأني كنت باللوم مُغْريا

(السيوطي ٢/١٣٣)

و«قام»، نحو: قام بكر ينشد (الصبان ١/٢٦٣)، وقد جاءت بمعنى الشروع في قوله تعالى (٧٢/١٩):

﴿وأنه لمّا قام عبدالله يدعوه﴾.

جـ ـ أفعال ترجّ، وهي الدالة على الرجاء والطمع في حدوث الفعل، ومنها:

عسى، وحرَى، واخلولق، نحو:

قوله تعالى (١٧/٨):

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾

وقول الشاعر:

إن يقل هنّ من بني عبد شمس فحرَى أن يكون ذاك وكانا[1]

(السيوطي ٢/١٣٣)

وتقول:

اخلولقت السماء أن تمطر

هذا، وقد ذكر السيوطي في الهمع (٢/١٣١) أكثر من عشرين فعلاً زيادة على ما ورد في هذا الباب، مثل: قرّب وقارب، وأشرف وشارف، وأقبل وتهيّأ وانبرى، إلخ... مما يدلّ على قرب وقوع الفعل، أو الشروع فيه.

الزمن (Tense) وتعبيرات الجهة (Aspect) في هذه الأفعال:

تقوم هذه الأفعال بتحديدات زمنية معيّنة في أفعال الجمل التي تدخل عليها؛ فالمقاربة تضفي على الفعل الأساسي[2] في الجملة جهة الحالية لو كان قد وقع. والرجاء يضفي على الفعل الأساسي دلالة الاستقبال، وهكذا...

وعلى سبيل المثال لو أخذنا الجمل:

كان محمد يضحك.

أخذ محمد يضحك.

عسى محمد أن يضحك.

لكان معنى الجملة الأولى: أنه قارب الضحك، لكنه لم يضحك.

ولكان معنى الجملة الثانية : أنه يضحك الآن ؛ لأنه كان قد شرع يضحك وقت أن قيلت .

---

(١) وقد يستعمل «حرى» بكسر الراء، ومعناه: صار حريا، أي جديرا، ويقال أيضا: هو حرًى أن يفعل، بفتح الراء والتنوين على أنه مصدر بمعنى الوصف. كما يقال: هو حَرِيّ كعليّ، أو حَرٍ كعَمٍ. (الرضى ٢/٣٠٤).

(٢) يقصد بالفعل الأساسي: خبر هذه الأفعال؛ لأنه لا يكون إلا مضارعا؛ سواء اقترن بأن أو تجرّد منها. وسيأتي توضيح ذلك.

أما الجملة الثالثة : فتَتَرجّى حدوث ضحك محمد في المستقبل ، ولذلك لابّد معها من (أنْ) التي تفيد الغائية .

« ولو أردنا إكمال الصورة من حيث التعبير عن الجهة الزمنية في العنصر الفعلي في الجملة الاسمية لقلنا : إن جملة : محمد ضحك تعبر عن الضحك في الوقت الحاضر ، وجملة : كان محمد ضاحكا تفيد الضحك في الزمن الماضي .

ومن هنا تشبه مجموعة أفعال المقاربة مجموعة كان وأخواتها ؛ فالأولى بأقسامها الثلاثة تعطينا اللون الزمني المعين في جملة المبتدأ والخبر ، كما أن (كان) تعطينا اللون الزمني الماضي مطلقا ومقيدا . وكأن أفعال المجموعتين تقوم بدور تكاملي بهذا الاعتبار » (شرف الدين : ٤٤٦ ، ٤٤٧) .

يقول ابن يعيش (٧/١١٥ ، ١١٩) : « إنها (أي هذه الأفعال) محمولة على باب كان . . . والجامع بينهما دخولهما على المبتدأ والخبر ، وإفادة المعنى في الخبر ؛ فكان وأخواتها إنما دخلت لإفادة معنى الزمان في الخبر ، كما أن هذه الأفعال دخلت لإفادة معنى القرب في الخبر » .

وابن يعيش هنا يطلق معنى القرب على هذه الأفعال من باب التغليب ؛ فمن هذه الأفعال ماهو للشروع في الفعل ، ومنها ماهو لترجّي الفعل ، ومنها ماهو لمقاربة الفعل ، كما تقدم .

وقد واجه ابن الحاجب من قبل نقدا قويا عندما عرّف هذه الأفعال بأنها « ما وُضع لدنّو الخبر رجاءً أو حصولاً أو أخْذاً فيه » (الرضى ٢/٣٠١) لأن نصب هذه المصادر (رجاءً ، حصولاً ، أخْذاً) « على التمييز في الظاهر ، وهو تمييز عن نسبة ، فيكون فاعلا للدنّو » (الرضى ٢/٣٠١) ويكون المعنى : لدنّو رجاء الخبر ، أو لدنّو حصوله ، أو لدنّو الأخذ فيه ، وذلك فيه خبط ، كما يقول الرضى .

والواقع أن هذه الأفعال لها دلالة على الزمن في حدّ ذاتها ، ولكن دلالتها على الزمن لا تظهر إلا حين توضع في جملة ذات أفعال مضارعة ، فهي دلالة تركيبية ـ إذن ـ لا تظهر إلاّ في السياق . ومن هنا أشبهت الأدوات التي تفعل الصنيع نفسه مع الأفعال ، كالسين وسوف .

ولعلّ هذا يوضح سبب اقتصار العرب على صيغة الماضي لهذه الأفعال ، ذلك أنهم قصدوا إلى أن يصفوا الحدث قبيل حدوثه مباشرة ، والتعبير عن مقاربة حدوثه الوشيكة ، حتى ليظن القارىء أو المستمع أن الفعل قد حدث فعلا . أو التعبير عن الحدث الذي يحدث في الحاضر ، لكنه كان قد بدأ منذ لحظات ؛ ولذا نجد هذه الأفعال الماضية ترد دائما كي تقرر هذه الحال بالنسبة لأفعال مضارعة[1]، فهي تشبه الأفعال المساعدة في اللغة الإنجليزية ، لأنها تساعد المضارع على الاتصاف بالدلالة الزمنية المعينة .

ويمكن تصنيف هذه الأفعال من حيث معناها ، على الوجه الآتي :

الفعل	معناه	
	الزمن	الجهة
كاد	متصرف	المقاربة
كرب	ماض فقط	المقاربة
أوشك	متصرف	المقاربة
أخذ	ماض فقط	الشروع
جعل	ماض فقط	الشروع
طفق	ماض فقط	الشروع
عسى	ماض فقط	الرجاء
اخلولق	ماض فقط	الترقّب

أما صورها التركيبية فتتكون من :

١ ــ كاد + الاسم + الفعل المضارع = الدلالة على قرب وقوع الفعل، لكنه لم يقع.

٢ ــ طفق + الاسم + الفعل المضارع = الدلالة على الحال وإن كان الفعل قد بدأ منذ لحظات .

(١) ينظر: الجرجاني ص ٨٠.

٣ ـ عسى + الاسم + أن + الفعل المضارع = الدلالة على المستقبل .

هكذا نرى أن أفعال المقاربة بأنوعها الثلاثة (المقاربة ، الشروع ، الرجاء) تعدّ من أدوات الجهة ؛ بمعنى أنها تحمل دلالات زمنية متعدّدة ، أو قد تدل على جهات زمنية متنوعة ، فيلجأ إلى إحدى الطرق اللغوية لتحديد جهة من الجهات .

دخول أدوات النفي على كاد :

إذا اقترنت « كاد » بالأداة (لم) أو (ما) أفادت نفي الماضي المقارب :
لم يكد يفعل
ما كاد يفعل .

وقد أشار إلى ذلك صاحب دلائل الإعجاز ، فقال :

« فإن الذي يقتضيه اللفظ إذا قيل : (لم يكد يفعل) و (ما كاد يفعل) ـ أن يكون المراد : أن الفعل لم يكن من أصله ، ولا قارب أن يكون . . . ولا ظنّ أنه يكون . . . وكيف بالشك في ذلك ، وقد علمنا أن (كاد) موضوع لأن يدّل على شدة قرب الفعل من الوقوع ، وعلى أنه قد شارف الوجود » (الجرجاني : ٢٧٢) .

وقد قال المفسرون في تفسير قوله تعالى (٢٤/ ٤٠) : ﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراه** ﴾ : « لم يرها ولم يكد ، فبدءوا فنفوا الرؤية ، ثم عطفوا (لم يكد) عليه ؛ ليعلموك أن ليس سبيل (لم يكد) هٰهنا سبيل (ما كادوا) في قوله تعالى (٢/ ٧١) : ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ في أنـه نفى معقّب على إثبات ، وأن ليس المعنى على أن رؤية كانت من بعد أن كادت لا تكون ، ولكن المعنى على أن رؤيتها لا تقارب أن تكون ، فضلا عن أن تكون » (الجرجاني : ٢٧٣) .

ويبدو أن هذا الأصل في استعمال أسلوب النفي (لم يكد يفعل) قد تطوّر في العرف ، فأصبح يقال : (لم يكد يفعل ، وما كاد يفعل) في فِعْل قد فُعِل ، علـى معنى : أنه لم يُفْعل إلاّ بعد الجهد ، وبعد أن كاد بعيدا في الظن أن يفعله ، كقوله تعالى (٢/ ٧١) : ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون**﴾ .

ومن نماذج ذلك في اللغة المعاصرة :

ـ « فما كاد الفتى يخرج إلى المسجد ذلك اليوم حتى نهضتْ إلى جمر وضعته في إناء ، وأخذتْ تُلقي فيه ضروبا من البخور » (حسين ١ /٨٣) .

ـ « لم يكد يذكر أن صاحبته كانت هيفاء إذا أقبلتْ حتى استدرك أمره وقوّم رأيه ، فذكر أنها عجزاء إذا أدبرتْ » (حسين ٢ /٥٨) .

ـ « ولم يكد صاحبا الفتى يريان هذا الشعر حتى أخذهما ما يشبه الصاعقة » (حسين ١٨/٣) .

ـ « فإذا تكلم لم يكد يبين » (حسين ٢ /٩) .

ولعلّ هذا التطور الجديد في استعمال (لم يكد يفعل) هو الذي أوقع « ذا الرمة » في شراك « ابن شُبرمة » حين أنكر منه قوله :

إذا غيّر النأي المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حبّ ميّة يبرح[1]

وناداه : ياغيلان ، أراه قد برح !

فقد زعم « ابن شبرمة » أن الهوى قد برح ، ووقع لذي الرمة مثل هذا الزعم ، فاستبدل بالبيت السابق :

إذا غيّر النأي المحبين لم أجد ... رسيس الهوى من حبّ ميّة يبرح

يقول عبدالقاهر (ص ٢٧٢ : ٢٧٣) :

« وليس الأمر كالذي ظناه . . . ذلك أن المعنى في بيت ذي الرمة ، على أن الهوى من رسوخه في القلب وثبوته فيه وغلبته على طباعه ، بحيث لا يتوهم عليه البراح ، وأن ذلك لا يقارب أن يكون ، فضلا عن أن يكون » .

كما شاعت في اللغة المعاصرة الصورة التركيبية (لا يكاد يفعل) لنفي الماضي

---

(١) البيت لذى الرمة، وهو شاعر أموي مشهور (ت: ١١٧هـ) ورسيس الهوى: أوّله. ينظر: الجرجاني ص ٢٧٢، والصبان ١/٢٦٨.

المقارب أيضا ، نحو :

« لا يكادون ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ، ولا يكادون يستأنفونه . . حتى . . » (حسين ١/١٢٢) .

« ولكن الليل لا يكاد يتقدم حتى يتفرق عنه رفاقه جميعا » (حسين ٣/٨٤) .

« ولكنه لا يكاد يبلغ « باريس » حتى يصرف عن الرسالة صرفا عنيفا » (حسين ٣/١٣٦) .

وهذا التركيب له جذوره في اللغة المتوارثة ، قال تعالى : ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾ (٤/٧٨) .

﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ (٤٣/٥٢) .

ولعل السبب في شيوع الصور التركيبية (لم يكد يفعل ، وما كاد يفعل ، ولا يكاد يفعل) في الكتابات الأدبية ـ مناسبتها للأحداث القصصية والرواية الأدبية بصفة عامة ؛ لأنها تقرّبها إلى الحاضر ، وتبعثها في صورة حيّة متجدّدة .

٢ ـ ومن حيث التصريف :

يلاحظ أن هذه الأفعال من حيث الخصائص التصريفية تعدّ جامدة ، فهي ملازمة للمضي لا تتصرف ، وقد علّل ابن جني ذلك بأنه لما قصد بها المبالغة في القرب أخرجت عن بابها ، وهو التصرّف . وكذلك كل فعل يراد به المبالغة كنعم وبئس وفعل التعجب . (السيوطي ٢/١٣٥) .

وعلّله ابن يَسْعون[1] بالاستغناء بلزوم المضارع خبرها ، فلم يبنوا منها مستقبلا .

وتعليل ابن جني بأنها قصد بها المبالغة في القرب لا يطرّد في جميعها ؛ لأن أفعال

---

(١) يوسف بن يبقى بن يوسف بن يسعون. من مؤلفاته: «المصباح في شرح ما أعتم من شواهد الإيضاح» توفي ٥٤٠هـ (السيوطي ١/٢٦٣).

المقاربة ما هي إلا قسم واحد من أقسامها الثلاثة ، فالمبالغة في القرب لا تتحقق في القسمين الآخرين : الشروع والرجاء .

وقد استثنى النحاة من هذا الجمود : كاد ، وأوشك ، فسمع فيهما المضارع .

قال تعالى (٢٤ / ٣٥) : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ .

وقال الشاعر :

يوشك من فرّ من منيته في بعض غرّاته يوافقها[١]

بل إن « المضارع في « أوشك » أشهر من الماضي ، حتى زعم الأصمعي أنه لا يستعمل ماضيها » (السيوطي ٢ / ١٣٥) .

وسمع اسم الفاعل من أوشك ، قال الشاعر :

فموشكة أرضنا أن تعودا خلاف الأنيس وحوشا يبابا[٢]

وذكر السيوطي في الهمع (٢ / ١٣٦) ما حكاه الجوهري وقطرب وابن مالك والجرجاني . . في بعض التصريفات لهذه الأفعال . فقد حكى الجوهري مضارع (طفق) وحكى قطرب مصدر كاد كَيْدا وكَيْدودة . . . وحكى ابن مالك اسم الفاعل من كاد ، وأنشد :

أموت أسى يوم الرّجام وإنني يقينا لرهن بالذي أنا كائد[٣]

أي بالموت الذي كدت آتيه .

وحكى الجرجاني المضارع واسم الفاعل من « عسى » . وحكى الكسائي مضارع « جعل » . وحكى أبو حيان الأمر وأفعل التفضيل من « أوشك » وأنشد :

حتى إذا قبضت أولى أظافره منها وأوشك ما لم يخشه يقع

(السيوطي ٢ / ١٣٦)

---

(١) لأمية بن أبي الصلت، وهو من شواهد سيبويه (السيوطي ٢ / ١٣٥).
(٢) لأبي سهم الهذلي، وهو من شواهد ابن عقيل والأشموني (السيوطي ٢ / ١٣٥).
(٣) لكثيّر عزّه، وهو من شواهد الأشموني، وابن عقيل، وأوضح المسالك. (السيوطي ٢ / ١٣٦).

بـأوشـك مـنــه أن يســاور قــرنــه إذا شال عن خفض العوالي الأسـافلُ

(السيوطي ٢ /١٣٦)

وحكى قوم اسم الفاعل من « كرب »

« فروايات النحويين الثقات لهذه البقايا التصريفيّة دليل على أن هذه الكلمات التي لازمت الجمود على صيغة الماضي الآن كانت تستعمل استعمال الأفعال المتصرفة قبل أن يصل بها سيرها التطوري إلى هذه الصورة الأخيرة » (شرف الدين : ٤٤٩) .

ويبدو أن هذه الأفعال كانت قد مرت بخط تطوري يتجه بها إلى أن تصبح أدوات « ولمّا دلّت على قرب الفعل الواقع في خبرها جرت مجرى الحروف لدلالتها على معنى في غيرها ، فجمدت لذلك » (ابن يعيش ٧/١١٧) .

٣ ــ ومن حيث التركيب :

تدخل « كاد وأخواتها » على جملة اسمية ، خبرها فعل مضارع :

أ ــ واجب التجريد من (أَنْ) مع « هَلْهَل » وأفعال الشروع ؛ أما أفعال الشروع فلأنها للأخذ في الفعل ، فخبرها في المعنى حال ، و « أَنْ » تخلّص المضارع للاستقبال . وأما « هَلْهَل » فإنما لزم تجريد خبره من « أَنْ » مع أنه بمعنى « كاد » لا بمعنى طفق ؛ لأن المبالغة في القرب فيه أكثر ، ومثل هذا التركيب يدل على المبالغة كزلزل وصرصر ، فكأنّه ـ للمبالغة في القرب ـ لاحِقٌ بالأفعال الدالة على الشروع ، فاستعمل خبره بغير « أَنْ » نحو : هلهلت أقوم (الرضى ٢ /٣٠٥) ويقال : هلهلت أدركه ؛ بمعنى : كدت أدركه .

ب ــ وواجب الاقتران بـ (أَنْ) مع « أَوْلَى » وأفعال الرجاء ؛ لأن الرجاء من مخلّصات الاستقبال ، فناسبه « أَنْ » كما تقدم .

جـ ــ ويجوز الوجهان ، التجرّد والاقتران ، مع الأفعال الباقية .

والأعراف ـ كما يقول السيوطي (٢/١٣٩) ـ في « عسى » و « أوشك »

الإثبات ، قال تعالى (٢/٢١٦) : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم ﴾ .

وقال سبحانه (٥/٥٢) : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ .

وقال الشاعر :

ولو سُئل الناسُ الترابَ لأوشكوا　　إذا قيل هاتوا أن يَمَلّوا ويَمْنعوا [١]

ومن الحذف ؛ أي حذف « أنْ » مع « عسى وأوشك » ، قول هدبة بن خشرم :

عسى الكرب الذي أمسيتُ فيه　　يكون وراءه فرج قريب [٢]

وقول آخر (وقد سبق) :

يوشك من فرّ من منيته　　في بعض غرّاته يوافقها

قال أبو حيان : وزعم الزجاجي أن « قارب » مما الأجود فيه أن يستعمل بـ « أنْ » وردّ عليه وعلى من أدخلها في أفعال المقاربة بأنها لا تستعمل إلّا بـ « أنْ » وليست من هذا الباب ، لأنها ليست داخلة على المبتدأ والخبر ، بدليل مجيء مفعولها اسما في فصيح الكلام ، تقول : قارب زيد القيامَ . ولأن الحدث (القيام) لا يخبر به عن الجثة (زيد) ، لا يقال : زيد القيام [٣] .

صـور أخرى :

ذكر النحويون صورا تركيبية أخرى نادرة لبعض أفعال هذا الباب ، غير الصورتين المشهورتين :

---

(١) قائله مجهول، وهو من شواهد ابن عقيل، والأشموني، وأوضح المسالك واللسان (وشك). المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٢) قائله مجهول، وهو من شواهي سيبويه، والإيضاح، وابن عقيل، والمغنى، والخزانة، والأشموني، المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٣) ينظر: السيوطي (٢/١٤٠)، والرضى (٢/٣٠٢).

(كاد + اسم + فعل مضارع)
أو (عسى + اسم + أن + فعل مضارع)

ومن هذه الصور النادرة :

١ ــ دخول الباء في خبر « أوشك » ، كما في قول القائل :

أعاذلُ توشكين بأن ترَيْني صريعا لا أزور ولا أُزار

(السيوطي ٢/١٤١)

٢ ــ دخول السين في خبر « عسى » ، عوضا من « أنْ » كقوله :

عسى طيّئٌ من طيّئ بعد هذه ستُطفئ غُلّاتِ الكُلى والجوانحِ [(١)]

٣ ــ مجيء خبر « عسى » و « كاد » اسما مفردا ، قال :

أكْثَرْتَ في العَذْل مُلحاً دائما لا تَلْحَني إني عَسِيتُ صائما [(٢)]

وقال :

فأُبْتُ إلى فَهْم وماكدتُ آيبا وكم مثْلِها فارقتُها وهي تُصْفِر [(٣)]

يقول السيوطي (٢/١٤١) تعقيبا على هذين البيتين :

« وهذا تنبيه على الأصل لئلا يُجهل »

ومن أمثالهم :

عسى الغوير أبؤسا [(٤)].

---

(١) لقسام بن رواحة، وهو من شواهد المغني، والخزانة (السيوطي ٢/١٤١).

(٢) قائله مجهول، وهو من شواهد ابن عقيل، والمغنى، والخزانة، والأشموني. المصدر السابق

(٣) لتأبط شرّا، وهو من شواهد الإنصاف، وابن عقيل، وأوضح المسالك، والخزانة، والأشموني. المصدر السابق.

(٤) للزباء، كما ذكر الرضى (٢/٣٠٢)، وأبؤس في المثل: المقصود به: الداهية، وليس جمع بُؤس. قال ابن بري: الصحيح أن الأبؤس جمع بَأس، لأن باب «فَعْل» أن يجمع في القلة على أفعل، نحو: كعب وأكعب. . وباب «فُعْل» أن يجمع في القلة على أفعال، نحو: قفل وأقفال. . (اللسان).

والمراد : عسى الغوير أن ييأس .

قال الرضى (٣٠٣/٣) : « وأما عسيت صائما ، وعسى الغوير أبؤسا ـ فشاذان ، على تضمينها معنى (كان) . وقال بعضهم : التقدير : عسى الغوير أن يكون أبؤسا ، وعسيت أن أكون صائما . وجاز حذف أنْ مع الفعل ، مع كونها حرفا مصدريا ؛ لقوة الدلالة ، وذلك لكثرة وقوع (أنْ) بعد مرفوع عسى ، فهو كحذف المصدر وإبقاء معموله » .

ويقدّر الكوفيون (أنْ » في الكلام إن لم تكن مذكورة ، حتى يمكن إعراب الفعل المضارع فاعلا أو بدلا ، كما سيأتي .

٤ ـ استعمال « عسى » استعمال « لعلّ » :

يلاحظ في اللغة المعاصرة دخول « عسى » على ضمير النصب ، فيقال :

« عساك بخير » ، وفي التهنئة بالعيد في منطقة الخليج يقال : « عساكم من عوّاده » وفي هذه الحالة تعامل « عسى » معاملة « لعلّ » . ولهذا الاستعمال جذوره في اللغة المتوارثة ، فكما حُملت « لعلّ » على « عسى » في إدخال (أنْ) في خبرها ، نحو الحديث : « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض » ـ حُملت « عسى » على « لعلّ » في العمل ؛ بشرط أن يكون اسمها ضمير نصب ، كقول صخر بن الجعديّ الخضري [1] :

فقلت عساها نار كأس وعلّها تَشَكّىَ فآتى نحوها فأعودها

(الأمير ١٣٤/١)

فالشاعر هنا يترجى أن يصيب محبوبتَه (وهي كأس) مرضٌ : ليكون ذلك وسيلة إلى عيادته إياها .

وكقول عمران بن حطان الخارجي ، وكان سنيًا ، فتزوج من امرأة من الخوارج ، فقيل له فيها ، فقال أردّها عن مذهبها ، فغلبت هي عليه ، وأضلّته عن

---

(١) هكذا نسبة الأمير في حاشيته على المغني (٣٤١/١)، وفي شرح التصريح للأزهري (٢١٣/١): صخر بن العود الحصري، وفي الدرر (١١٠/١): صخر بن جعد الخضري.

مذهب أهل السنة :

ولـي نـفس تـنـازعـنـي إذا مـا أقـول لـهـا لـعـلي أوعـسـانـي

(الأزهري ١/٢١٣ ، والأشموني ١/٢٦٧)

فـ « عسى » حرف ترجّ ، مثل لعلّ ، و « ها » في البيت الأول : اسمها في محل نصب ، و « نار » : خبرها .

و « ياء المتكلم » في البيت الثاني هي الاسم ، والخبر محذوف . ومن ذلك قول رؤبة :

تـقـول بـنـتي قـد أَنَـى أَنَـاكـا يـا أبـتـا عـلّك أو عـسـاكـا

(الأزهري ١/٢١٣ ، والأشموني ١/٢٦٧)

فالكاف في « عساك » في محل نصب ، والخبر محذوف .

ومعين البيت : تقول ابنتي قد حان وقت رحيلك إلى من تلتمس منه مالاً تنفقه ، ولعلك إن سافرت أصبْتَ ما تحتاج إليه .

« ومذهب السير افي أنها (أي عسى) حينئذ حرف كـ « لعلّ » » (السيوطي ٢/١٤٦)

٥ ــ مجيء خبر « جعل » جملة اسمية ، كقوله :

وقـد جـعلتْ قَـلوصُ بني سُهَـيـل مـن الأكـوار مَـرْتَعُـهـا قـريبُ[١]

٦ ــ إسناد « عسى » إلى ضمير الشأن ، حكى غلام ثعلب[٢] :

عسى زيد قائم

« والاستعمال الأخير لعسى يشبه ما عليه بعض النواسخ الأخرى (مثل :

---

(١) قائله مجهول، وهو من شواهد المغنى، والخزانة، وروايتها: قلوص بني زياد. (السيوطي ٢/١٤١، والرضى ٢/٣٠٧).

(٢) محمد بن عبدالواحد الزاهد المطرز، أبو عمر، غلام ثعلب. بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي ٢/٢١٨. (السيوطي ٢/١٤٢).

كان ، ليس) من دخولها على ضمير الشأن أحيانا ، وذكر الجملة بعده مرفوعة الطرفين .

بين « كاد » و « كان »

ألحق النحويون جملة « كاد » بجملة « كان » في العمل ، فذهبوا إلى أن خبرها في محل نصب ، ودليلهم على ذلك وجود بعض البقايا اللغوية التي تثبت مجيء خبرها مفردا منصوبا ، كما تقدم قبل قليل .

ويرى الرضى أن استعمال أفعال الشروع ـ وهي طفق وأخذ وأنشأ وأقبل وقرّب وهبّ وعلق وجعل ـ استعمال كان ، أولى من كاد وأخواتها ؛ لأن أخبارها حاصلة المضمون كأخبار كان ، بخلاف خبر كاد . وكان أصل استعمالها أن يقال : طفق زيد في الفعل ، وأخذ في الفعل ، وجعل الفعل ، من قوله تعالى : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ ، أي أوجد ، وكذا أنشأ الفعل ، وأقبل على الفعل ، وقرّب الفعل ، وهبّ في الفعل ، من قولهم : « هبّ البعير في سيره ، إذا نشط فيه . فاستعملت استعمال كان لتضمينها معناه » (الرضى ٢/٣٠٥) .

وعند الموازنة بين الجملتين (جملة كاد، وجملة كان) يلاحظ :

١ ــ أن النسبة بين جزأي الجملة الرئيسين في كل من الجملتين هي تلك التي بين المبتدأ والخبر، فكل من الجملتين ـ إذن ـ اسمية . وهي من الجمل التي تتغير فيها الحالة الإعرابية للمسند، مع بقاء النسبة كما كانت عليه .

٢ ــ أن الحدث في كلا الجملتين موجود في الخبر، غير أن جانب الفعلية في جملة «كاد» أقوى منه في جملة «كان»، ذلك أن انحصار كون الخبر مع «كاد» وأخواتها فعلا مضارعا يقويّ جانب الفعلية في هذه الجملة، فالجملة تبدأ بفعلٍ، وتنتهي بفعل، والفعلان يتداخلان لإعطاء مدلول فعلي معين حدَثاً وزمَناً .

ولعل هذا كان في ذهن النحويين حين ذهبوا إلى أنه «يتعين في خبر هذا الباب

أن يعود منه ضمير على الاسم، فلا يجوز رفعه الظاهر، لا أجنبياً ولا سببياً[1]، فلا يقال:

طفق زيد يتحدث أخوه.

أنشأ عمرو ينشد ابنه.

لأنها إنما جاءت لتدل على أن فاعلها قد تلبس بهذا الفعل، وشرع فيه لا غيره» (السيوطي ٢/١٤٣، والرضى ٢/٣٠٤).

«والموازنة بين الجملتين:

أنشأ عمرو ينشد.

أنشأ عمرو ينشد ابنه.

تقول لنا: إن فاعل الجملة الأولى هو «عمرو» في علاقته بأنشأ وينشد معا. أما فاعل الجملة الثانية فهو «عمرو» بالنسبة لأنشأ، و«ابنه» بالنسبة لينشد.

وكأن النحويين بهذا الشرط يريدون أن يجعلوا «كاد» والفعل الذي يحدده ويخصصه وحدة دلالية واحدة مترابطة أو متداخلة لها فاعل واحد» (شرف الدين: ٤٥٣).

«وإنما لزم الفعل في الخبر، لأنه لما مُنع لفظ المضارع، واجْتَزأ عنه بلفظ الماضي عوض المضارع في الخبر» (ابن يعيش ٧/١١٨، ١١٩).

---

(١) أما قول ذي الرّمة:

وأسقيه حتى كاد مما أبثّه ... تكلمني أحجاره وملاعبه

وقول أبي حية النمري (واسمه: المشمر بن الربيع):

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ... ثوبي، فأنهض نهض الشارب الثمل

فأحجاره وثوبي بدلان من اسمي كاد وجعل؛ الأول بدل بعض.. والثاني بدل اشتمال. لا فاعلان ليثقلني وتكلمني، والتقدير: جعل ثوبي يثقلني، وكادت أحجاره تكلمني، فعاد الضمير على البدل؛ لأنه المقصود بالحكم. (الصبان ١/٢٦٣، ٢٦٤).

ويجوز في المضارع بعد عسى خاصة أن يَرْفع السببي، كقول الفرزدق:

وماذا عسى الحجاج يبلغ جَهْدُه ... إذا نحن جاوزنا حفير زياد

روى بنصب جهده ورفعه. ولا يجوز أن يرفع ظاهرا غير سببي، أما قول الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيتُ فيه ... يكون وراءه فرج قريب

فإن في «يكون» ضمير الاسم، والجملة بعده: (وراءه فرج قريب) خبر يكون. (الصبان ١/٢٦٤).

٣ ــ أن «كان» إذا جاءت تامة تكتفي بمرفوعها، أما «كاد» فقد تُسند بعض أفعالها إلى المرفوع، أو «أَنْ والفعل» فيغني عن الخبر، ويكون «أَنْ والفعل» سادة مسد الجزأين، قال تعالى (٢/ ٢١٦ ، ١٧/ ٧٩):

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾

﴿عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محمودا﴾

وقال الشاعر:

سيوشك أن تُنيخ إلى كريم ينالك بالندى قبل السؤال[١]

وتقول:

اخلولق أن تمطر السماء.

فإن تقدم ـ والحال هذه ـ اسم ظاهر، نحو:

زيد عسى أن يخرج ـ

جاز جعل الفعل مسندا إلى «أن يفعل» كما تقدم، وجعله مسندا إلى ضمير الاسم السابق، و «أن يفعل» الخبر.

فعلى الأول: يجرّد الفعل من علامة التثنية والجمع والتأنيث، نحو:

الزيدان عسى أن يقوما

والزيدون عسى أن يقوموا

وهند عسى أن تقوم

والهندات عسى أن يقمن

وعلى الثاني: يلحق به العلامات، فيقال:

الزيدان عسيا أن يقوما

والزيدون عسوا أن يقوموا

والهندان عستا أن تقوما

والهندات عسين أن يقمن

---

(١) ينسب إلى كثيّر عزّة (السيوطي ٢/ ١٤٥).

والتجريد أجود.

وقال أبو حيان: «وقفت من قديم على نقل، وهو أن التجريد لغة قوم من العرب، والإلحاق لغة الآخرين. .» (السيوطي ٢/١٤٥).

ويكون تركيب الجملة على اللغة الأولى:
مبتدأ + فعل + فاعل (المصدر المؤول)
وعلى اللغة الثانية:
مبتدأ + فعل + اسم + خبر
والمعنى على التركيب الأول يؤول إلى: زيد عسى قيامه.

ولا يكون مَعَنا في هذه الحال اسم مرفوع بعد «عسى» يعرب اسما لها، بل يكون مَعَنا «أن يفعل»، وهو بلاشك عنصر فعلي تداخل مع «عسى» وكوّنا معا جملة فعلية.

ويدل على قوة الفعلية في هذا الباب أن النحويين اختلفوا في إعراب «أنْ والفعل» مع هذه الأفعال:

فذهب بعضهم إلى أنها خبر، وردّ عليه بأن المصدر (أنْ + الفعل) لا يخبر به عن الجثة.

وذهب آخرون إلى أنه مفعول، فمعنى: عسى زيد أن يخرج:
قارب زيد الخروج

وذلك لأن «المقترن» «بأنْ» مشبه بالمفعول، وليس بخبر كخبر كان، حتى يلزم كون الحدث خبرا عن الجثة» (الرضى ٢/٣٠٢).

ويرى الكوفيون أن «أنْ يفعل» في محل رفع بدلاً مما قبله بدل اشتمال، كقوله تعالى (٦٠/٨):

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ـ أن تبرّوهم﴾.

أي لا ينهاكم الله عن أن تبرّوهم.

«فمعنى:
عسى زيد أن يقوم
أي: يتوقع ويرجى قيامه.

وإنما غلب فيه بدل الاشتمال؛ لأن فيه إجمالا ثم تفصيلا.. وفي إبهام الشيء ثم تفسيره وقع عظيم لذلك الشيء في النفس» (الرضى ٢/٣٠٣).

«وإذا عرفنا أن البدل هو المقصود بالحكم بلا واسطة، أدركنا أن الذهن العربي - بناء على تخريج الكوفيين - كان يتكلم بهذه التراكيب، وهو يقصد إلى أن يكون الفعل الناسخ والمضارع بعده وحدة واحدة، وكأن الاسم المرفوع إنما جاء وسطا لإضفاء شكل تركيبي شرعي على الجملة؛ إذ قد عهدنا الجملة في اللغة؛ إن بدأت بفعل يجيء بعد هذا الفعل اسم مرفوع، فالاسم المرفوع هو تحقيق لهذا النمط، كما أنه تمهيد لتعلّق الفعل المضارع بالفعل الناسخ.

والقول بالبدلية قول قريب، يقوّيه أن «عسى» قد تُتبع بـ «أنْ والفعل» مباشرة، كما في نحو:

«وعسى أن تكرهوا شيئاً...»

فلا يكون هناك خلاف بين النحويين أنَّ «أنْ والفعل» فاعل لعسى... إما على طريق البدل حال ذكر اسم مرفوع، أو مباشرة في حال عدم وجود اسم مرفوع. فالتركيب في النهاية ينحلّ إلى:

فعل + فاعل

وفي هذا تقوية وتزكية لجانب الفعلية في الجملة (شرف الدين: ٤٥٦).

ومما يرجح أن هذه الأفعال عنصر في مركب فعلي ما نجده في قوله تعالى (٩/١١٧):

﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾

حيث يتصل الفعل المضارع «يزيغ» بالفعل «كاد». والنحويون يقدرون هنا ضمير الشأن بعد «كاد» حتى يحافظوا على النمط المألوف لهذه الأفعال:

كاد + اسم مرفوع + فعل مضارع

ولهذا يقول ابن الحاجب: وقولك: كاد يقوم زيد، يحتمل التنازع فتعمل أيهما شئت، ويحتمل إضمار الشأن في «كاد». ومثله: ليس خَلَقَ الله مثله. وليس بمشهور إضمار الشأن من أفعال المقاربة إلا في «كاد»، ومن الأفعال الناقصة إلا في «كان» و «ليس» (الرضى ٢/٣٠٣، ٣٠٤).

ويبدو أن تقدير ضمير الشأن يعود إلى «الحالة الاستعمالية المبكرة التي كانت عليها النواسخ جميعا؛ من دخولها على ضمير شأن يخبر عنه إما بجملة اسمية أو فعلية. لكن العربية في تطوّرها رأت أن تتخفف من ضمير الشأن، فتبع هذا دخول النواسخ على الأسماء مباشرة. . . » (شرف الدين: ٤٥٧).

وأيّا ما كان التقدير فإن العنصر الفعلي في مثل هذه الجملة هو:

كاد + الفعل المضارع

وهو عنصر مركب، يمثل المضارع فيه جانب الحدث، وتمثل «كاد» فيه عنصر الزمن، والجانبان مكوّنان للفعلية.

ولنتأمل قول سيبويه (٣/١٦٠) عن أفعال هذا الباب:

«جعل يقول لا تذكر الاسم ههنا؛ فالفعل ههنا بمنزلة الفعل في «كان» إذا قلت: كان يقول وهو في موضع اسم منصوب بمنزلته ثَمّ، وهو ثَمّ خبر، كما أنه ههُنا خبر، إلا أنك لا تستعمل الاسم. فأخلصوا هذه الحروف للأفعال، كما خلصت حروف الاستفهام للأفعال، نحو هلاّ وألاَ».

المراجـــع

(١) الأزهري (الشيخ خالد بن عبدالله الأزهري):
شرح التصريح على التوضيح ـ القاهرة د. ت.
(٢) الأمير (الشيخ محمد الأمير):
حاشية الأمير على مغنى اللبيب ـ القاهرة د.ت.
(٣) ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن ت ٥٧٧هـ).
(٤) الجرجاني (عبدالقاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ):
دلائل الإعجاز، تعليق محمد عبدالمنعم خفاجي ـ القاهرة ١٩٦٩م.
(٥) حسان (دكتور تمام حسان):
اللغة العربية؛ معناها ومبناها ـ القاهرة ١٩٧٣.
(٦) حسين (دكتور طه حسين):
الأيام جـ١، القاهرة ٥١ د. ت.
الأيام جـ٢، القاهرة ط ٢٣ د. ت.
الأيام جـ٣، القاهرة ط ٢ د. ت.
(٧) الرضى (محمد بن الحسن ت ٦٨٦هـ):
شرح الكافية ـ بيروت ١٩٨٢.
(٨) الزّبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٧٩هـ).
طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٧٣م.
(٩) سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر ت ١٨٠هـ):
كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ـ القاهرة ١٩٦٦م.
(١٠) السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١هـ):
همع الهوامع جـ٢، تحقيق وشرح الدكتور عبدالعال سالم ـ الكويت ١٩٧٥م.
(١١) شرف الدين (دكتور محمود عبدالسلام شرف الدين):
الإعراف والتركيب بين الشكل والنسبة ـ القاهرة ١٩٨٤م.
(١٢) الشنقيطي (أحمد الشنقيطي):
الدرر اللوامع على همع الهوامع ـ القاهرة د. ت.
(١٣) الصبان (محمد بن علي الصبان):
حاشية الصبان على الأشموني ـ القاهرة د. ت.
(١٤) الموسى (دكتور نهاد الموسى):
نظرية النحو العربي ـ بيروت ١٩٨٠م.
(١٥) ابن يعيش (أبو البقاء يعيش بن علي ت ٦٤٣هـ):
شرح المفصل ـ القاهرة د. ت.

ابن الأنباري ومنهجه في دراسة القصائد السبع الطوال

د. حسن محسن
كلية التربية الأساسية ـ الكويت

(١)

حظي النص الأدبي بعناية كبيرة من المتأدبين والعلماء العرب، منذ بدأت حركة التأليف الأدبي في تاريخ العربية، وكان ذلك بعد أن لاحظ هؤلاء ما آلت إليه اللغة العربية من ضعف وتشويه بسبب العجمة الوافدة، وتم ذلك في إطار اتجاه عام نحو تأليف كثير من العلوم، ووضع كثير من القواعد للحفاظ على العربية، ومواكبة الازدهار الثقافي العالمي.

وفي سبيل البحث عن مدخل إلى موضوع دراستنا، أو إلى عالم ابن الأنباري في دراسته نص المعلقات السبع، نستطيع القول إن نصوص المعلقات تقع في دراستها داخل دائرتين؛ الأولى هي حركة التأليف عن العلماء العرب، وازدهار النهضة العلمية والثقافية، والثانية هي دراسة النص الأدبي شعراً ونثراً لدى المتأدبين من العرب.

في الدائرة الأولى يدلنا التراث العربي على نهضة علمية وثقافية، مازلنا نحاول سبر أغوارها واستكناه مظاهرها، قام بها علماء مجتهدون، وكان لكل عالم منهجه في دراسته وبحثه. وأطلق بعض المؤرخين[١] على مجموعة العلوم التي ينتمي إليها الأدب: (العلوم اللسانية)، وهي الأدب والتاريخ والعروض والنحو واللغة والبلاغة،

(١) الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى عناني في كتابهما (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه).

وفصّل القول في فنون كل علم وكتبه وعلمائه[٢]. وتختلف العلوم اللسانية هنا بعض الاختلاف عن العلوم الكتابية، أو العلوم التي جعلها القلقشندي (ت٨٢١هـ) أدوات ضرورية لصناعة الكتابة، وتشمل اللغة المعجمية والنحو والصرف والبلاغة والقرآن والحديث والخطب والشعر والأمثال والأنساب والمفاخرات والمنافرات وأيام الحروب وأوابد العرب وعاداتهم والتاريخ ومعرفة خزائن الكتب وأنواع العلوم[٣]. أما الأدب لديه ـ أي القلقشندي ـ فهو الأصل الأول في العلوم المتداولة بين العلماء، وفيه عشرة علوم هي علم اللغة وعلم التصريف وعلم النحو وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع وعلم العروض وعلم القوافي وعلم قوانين الخط وعلم قوانين القراءة[٤].

وتقول كتب الدراسات الأدبية إن حركة التأليف الأدبي عند العرب قديماً كان لها رواد في التأليف الأدبي غير المتخصص، وحينما استحصد عودها تنوعت وتعمق فيها جانب التخصص. وتضم هذه الدراسة من رواد التأليف الأدبي غير المتخصص المفضل الضبّي (ت١٧٥هـ) وهو من الرواد الأوائل في رواية الشعر والأدب، وأوثق من روى شعر الأوائل، والنضر بن شميّل التميمي المازني (ت٢٠٤هـ) وكان صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ) وكان عالما في الأنساب، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) وقد ألف في الأدب واللغة والنحو، وعبدالملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ) وكان حافظة تمكن من العلم وفهم الشعر، والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) وكان أديباً راوية وعالماً مؤرخاً، وأبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥هـ) وكان راوية وذا علم[٥].

وفي باب التأليف الأدبي المتخصص هناك كتب التأليف الأدبي المنهجي،

---

(٢) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه. الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى عناني ص ٢٢١ ـ ٢٣٢ ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٨.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. جـ١ ص ١٤٨ ـ ٤٦٧ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣.

(٤) صبح الأعشى جـ١ ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

(٥) مناهج التأليف عند العلماء العرب ـ قسم الأدب د. مصطفى الشكعة ص ٩٧ ـ ١٥٧ ط٣ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩.

وكتب الأمـالي، وكتب طبقات الشعـراء، وكتب الاختيارات، وكتب الحـماسـات، وكتب التراجم.

فمن كتب التـأليف الأدبي المنهجي: البيان والتبيـين للجاحظ (ت ٢٢٥هـ)، وأدب الكـاتب لابن قتيبة الـدينوري (ت ٢٧٦هـ)، والكـامـل لأبي العبـاس المـبرد (ت ٢٨٦هـ)، وأخبار أبي تمام لأبي بكـر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، وثـمار القلوب لأبي منصـور الثعـالبي (ت ٤٢٩هـ)، والعقـد الفـريـد لابن عبـدربـه (ت ٣٢٨هـ)، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ).

ومن كتب الأمـالي؛ أمالي أبي عبـدالله محمد بن العبـاس بن محمد اليـزيـدي (ت ٣١٣هـ)، وأمالي الشريف المرتضي (ت ٤٣٦هـ).

ومن كتب طبقـات الشعراء؛ طبـقـات الشـعـراء لابن سـلام الجـمحـي (ت ٢٣٢هـ)، والشعـر والشعراء لابن قتيبـة (ت ٢٧٦هـ)، ومعجم الشعـراء لأبي عبدالله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ).

ومن كتب الاختيـارات الشعريـة؛ المعلقات، وأهم شروحهـا شرح أبي بكـر الأنبـاري (ت ٣٢٨هـ) وشرح الحسين بن أحمـد الزوزني (ت٤٨٦هـ) وشرح يحيى ابن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، والمفضليات للمفضل الضبي (ت١٧٥هـ).

ومن كتب الحماسات؛ حماسة أبي تمـام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ)، وحماسة البحتري أبي عبادة الوليد عبيد الطائي (ت٢٨٤هـ).

ومن كتب التراجم؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثـابت (ت ٤٦٣هـ)، ومعجم الأدبـاء لياقـوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ووفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الـزمـان لشمس الـدين أحمـد بن محمـد بن إبـراهيم بن خلكـان (ت ٦٨١هـ)[٦].

---

(٦) فصّل القول في هـذا التوزيـع كتاب مناهج التـأليف عند العلماء العرب ـ قسم الأدب. د. مصطفى الشكعـة. الباب الـرابع ص ١٥٩ ـ ٢٨٥ والبـاب الخامس ص ٢٨٧ ـ ٣٣٥ والسـادس ص ٣٣٧ ـ ٣٩٩ والسابع ص ٤٠١ ـ ٤٦٤. والثامن ص ٤٦٥ ـ ٥٣٣ والتاسع ص ٥٣٥ ـ ٦٠٩، وانظر في ذلـك أيضا: تاريخ آداب اللغة العربية. جرجي زيدان، تعليق د. شـوقي ضيف جـ٢ ص ٣٢٥ ـ ٣٣٦. دار الهلال ـ القاهرة (د. ت).

وقـد اتسعت دائرة التـأليف الأدبي لتشمل الأنـدلس التي عرفت في تـاريخهـا طائفة من أعظم مفكريهـا وأدبائهـا وشعرائهـا، أمثال ابن حـزم،وابن حيان، وابن زيدون، وابن عبدربه، وابن خاقان، وغيرهم.

ومن أهم هـذه الكتب وأشهرهـا كتاب قـلائد العقيـان للفتـح بن محمـد بن عبـدالله بن خاقـان (ت ٥٣٣هـ)، ومطمـح الأنفس ومسرح التـأنس في ملح أهـل الأندلس لابن خاقان أيضاً، وكتاب الذخيرة لعلي بن بسـام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، وكتاب المطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية أبو حفص عمر بن الحسن بن عـلي المـولود في بلنسيـة سنة ٥٤٧هـ والمتـوفى في القاهرة والمـدفـون بسفـح المقـطم سنـة ٦٣٣هـ، وكتاب المغرب في حلي المغرب، الذي ألفه ستة من أهل الأندلس بالموارثة عـلى مدى مـائة وخمس وعشرة سنـة، وهـم أبـو محمـد الحجـاري، وعبـدالملك بن سعيـد، وأحمد بن عبـدالملك، ومحمـد بن عبـدالملك، ومـوسى بن محمد، وعـلي بن موسى؛ وتوفي الأخير في تونس سنة ٦٨٥هـ[٧].

وفي الدائرة الثانية نقف عند منهج دراسة النص الأدبي في ذلك التراث الذي أنتجتـه حركـة التأليف. ودراسـة النص الأدبي كانت تعني فهمـه وتـوجيـه معنـاه، وتحقيق هذين أمر يترتب عليه تحقيق التواصل الجيد بين المبدع والمتلقي، لذا كـانت العناية منذ القديم بهذا النص، وكان المنهج العلمي الواضح.

ومن العلماء الذين عنوا بتطبيق منهج محدد في مجال دراسة النص الأدبي شعراً ونثـراً، ثلاثـة أجلاء أبـدعوا خـلال القرنـين الثالث والـرابع من الهجـرة، وهـم أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) وأبو بكر الأنبـاري (ت ٣٢٨هـ) وأبو الفـرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، ويجمع بينهم زمن متقارب، ومنهج ذو أبعاد متشابهة.

---

(٧) انظر في حركة التأليف بالأندلس ما يلي:

* في الأدب الأندلسي. د. جودت الركابي ص ٥٥ ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
* تاريخ الأدب الأندلسي. د. إحسان عباس ص ٦٦ ـ ٧٣ ط٢ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩.
* الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٢٨٢ ـ ٢٩١ ط٥ دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
* مناهج التأليف عند العلماء العرب ـ قسم الأدب. د. مصطفى الشكعة ص ٦٢٣ ـ ٦٤٤، ٦٤٧ ـ ٦٤٨، ٦٥٢، ٦٧١.
* المغرب في حلى المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف ص: هـ ـ ز، جـ١ دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

(٢)

يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في مقدمة كتابه (الكامل في اللغة والأدب): «هذا كتاب ألفناه بجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة. والنيّة فيه أن نفسرٍ كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً»[٨].

فالمبرد يعرض في مقدمة كتابه منهج التأليف الذي سيأخذ به، فهو قد جمع مادة الكتاب من نصوص الأدب العربي التي تشمل الشعر والنثر، والشعر يضم نماذج مختارة في أغراض متعددة، ويضم النثر ـ إلى جانب بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ـ ألواناً نثرية فنية هي المثل والموعظة والخطبة والرسالة. ثم أخضع هذه النصوص للتحليل التقليدي الذي شاع عند القدماء من أمثاله، فهو يشرح الغريب في اللغة، ويعرض لقضايا النحو والبلاغة، ويشرح المعنى، ويعتمد على روايات كثيرة في تأييد ما يذهب إليه من آراء، ومن أمثلة دراسته تلك:

(قال أبو العباس: قال يزيد بن الصَّقيل العُقَيْلِيّ ـ وكان يسرق الإبل، ثم تاب، وقتل في سبيل الله:

ألا قلْ لأرباب المخائص أهملوا   فقد تاب مما تعلمون يزيدُ

وإن امرأً ينجو من النار بعدما   تزوّد من أعمالها لسعيدُ

وفي هذا الشعر:

إذا ما المنايا أخطأتْك وصادفَتْ   حميمك فاعلمْ أنها ستعود

قوله «ألا قل لأرباب المخائض»، فإن الناقة إذا لَقِحَتْ قيل لها: خَلِفَةٌ، وللجميع مخاضٌ، وهذا جمع على غير واحده، إنما هو بمنزلة امرأة ونساء، ثم جمع

---

(٨) الكامل: أبو العباس المبرد. عارضه بالأصول وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاتة، ص ١ ـ ٢ جـ ١ دار نهضة مصر ـ القاهرة (د. ت).

الجمع فقال: مخائض، كقولك في رسالة: رسائل وكما تقول في قوم: أقوام، فتجمع الاسم الذي هو للجمع، وكذلك أعراب وأعاريب، وأنعامٌ وأناعيم.

وقوله: «أهملوا»: أي اسْرحوا إبلكم، والهَمَلُ ما كان غير محظور، وهو السُّدَى، ويُرْوى في مثل قوله:

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعودُ

عن بعض الصالحين أنه كان يقول إذا ما مات له جارٌ أو حميم: أَوْلى لي! كدت والله أكونُ السوادَ المُخْتَرَمَ)[٩].

(وقال ضابىء بن الحرث البُرْجُمِيّ):

ومن يكُ أمْسَ بالمدينة رحلَهُ فإنيِّ وقيَّاراً بها لغريبُ
وما عاجلاتُ الطيْر تُدْني من الفتى نجاحاً ولاعن ريثهنّ يخيبُ
ورُبّ أُمورٍ لا تضيرُكَ ضَيْرةً ولِلْقلب من مخْشاتهنّ وجيبُ
ولا خير فيمن لا يوَّطنُ نفسه على نائبات الدهر حين تنُوبُ

قوله: فإني وقياراً» أراد: فإني لغريب بها وقياراً، ولو رفع لكان جيداً، نقول: إن زيداً منطلقٌ، وعمراً وعمروٌ، فمن قال عمراً فإنما رده على زيد، ومن قال عمرٌو فله وجهان من الإعراب؛ أحدهما جيد، والآخر جائز، فأما الجيد فأن تحمل عمراً على الموضع، لأنك إذا قلت: إن زيداً منطلق فمعناه زيد منطلق فرددته على الموضع، ومثل هذا لست بقائم ولا قاعداً، والباء زائدة؛ لأن المعنى لست قائماً ولا قاعداً، ويقرأ على وجهين: «إن الله بريءٌ من المشركين ورسولُه» «ورسولَهَ»، والوجه الآخر أن يكون معطوفاً على المضمر في الخبر، فإن قلت إن زيداً منطلق هو وعمرو حسُن العطف؛ لأن المضمر المرفوع إنما يحسن العطف عليه إذا أكّدته، كما قال الله تعالى: «اذهب أنت وربك فقاتلا» و«اسكن أنت وزوجُك الجنة»)[١٠].

---

(٩) الكامل للمبرد ص ١٠٢ ـ ١٠٣ جـ ١
(١٠) الكامل للمبرد ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ جـ ١

ويقول أبو الفرج الأصفهاني في مقدمة كتابه (الأغاني): (هذا كتاب ألفه علي ابن الحسين بن محمد القرشي، الكاتب المعروف بالأصفهاني، وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية، قديمها وحديثها، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره، وصانع لحنه، وطريقته من إيقاعه، وإصبعه الذي ينسب إليها من طريقته، واشتراك إن كان بين المغنين فيه، على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه، ومالا غنىً عن علمه من علل إعرابه، وأعارض شعره التي توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه[11]). ومما قاله عن محتوى الكتاب: (وفقرٍ إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل، وآثار وأخبار، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام، تجمُل بالمتأدبين معرفتُها، وتحتاج الأحداث إلى درايتها)[12] و من أمثلة دراسته الأدبية:

(وأما أبو بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة: إنك تُقْوى: قال وما ذاك؟ قال: قولك:

ألم تر أن طون الدهر يُسْلي ويُنْسى مثل ما نسيتْ جُذامُ

ثم قلت بعده:

وكانوا قومنا فبغوْا علينا فسُقْناهُمْ إلى البلد الشآمِ

ففطن فلم يعد)[13].

(قال ذو الرمة:

وهاجرةٍ من دون ميَّةَ لم تَقِلْ قَلُوصي بها والجُنْدبُ الجَوْنُ يَرْمحُ

بِتَيْهاءَ مِقْفارٍ يكاد ارتكاضُها بآل الضُّحَى والهَجْرُ بالطرف يمْصَحُ

---

(11) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني جـ ١ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر. تقديم الدكتور محمد عبدالقادر حاتم ص ١ القاهرة ١٩٦٣.

(12) الأغاني جـ ١ ص ١ ـ ٢

(13) الأغاني جـ ١١ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ص ١٠ القاهرة ١٩٦٣.

الْهجر: الهَجْرُ ها هنا مرفوع بفعله، كأنه قال: يكاد ارتكاضُها بالآل يمصح بالطرف وهو الهجر. يمصحُ: يذهب الطرف. الهاجرة: تكون وقت الزوال. الجُنْدب: الجرادة. الجَوْن: الأسود. الجَوْن: الأبيض أيضا، وهو من الأضداد. يَرْمحُ: أي ينزو من شدة الحر لا يكاد يستقر على الأرض. المقفار: التي لا أحد فيها ولا ساكن بها، ذكر ذلك أبو نصر عن الأصمعيّ. ارتكاضها: يعني ارتكاض هذه التيهاء، وهو نزوها بالآل. الآل: السراب)[١٤].

هذه النماذج الأدبية وكيفية معالجتها عند أبي العباس المبرد، وأبي الفرج الأصفهاني، تمثل صورة من الصور التي كانت عليها دراسة النص الأدبي في هذه الحقبة، والتي لم يخرج عنها ابن الأنباري إلا بقدر اختصاصه بدراسة المعلقات السبع دون غيرها.

وهذه الاقتباسات التي مرت من كتابيْ الكامل والأغاني تبحث في تفسير النص تفسيراً أدبياً، بالإستعانة بأساليب تحليل النصوص، ومن بين هذه الأساليب، شرح الغريب من مفردات اللغة ومشتقاتها، ويوضح ذلك عند شرح كلمتي «المخائض» و «أهملوا» في أبيات يزيد بن الصقيل العقيلي، مما يقف بالقاريء عند فهم المعنى، وكذلك شرح الكثير من المفردات في أبيات ذي الرمة.

ومنها كذلك توجيه الضبط النحوي، وترجيح وجه به يقوى المعنى على وجه آخر مرجوح، كما في تحليل قول ضابيء بن الحرث البُرْجمي:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيّاراً بها لغريبُ

والوقوف عند وجهي كلمة «قيار» بالنصب والرفع.

وكان ثالث هذه الأساليب نقديا يرتبط بموسيقا الشعر، كما جاء في شعر أبي بشر بن أبي خازم عندما ظهر لنا عيب الإقواء الذي أصاب قافية شعره في كلمتيْ «جذامُ» بالضم، و «الشآمِ» بالكسر.

ولو أنعمنا النظر في جوانب أجزاء الكاتبين لانكشفت لنا وجوه أخرى في

---

(١٤) الأغاني جـ ١٧ تحقيق على محمد البجاوي ـ إعداد لجنة نشر كتاب الأغاني بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٩٨ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠.

الدراسة تتعلق بالتصريف والبلاغة والرواية وقضايا أخرى كثيرة ذات صلة بتوثيق النص الأدبي ونسبته لقائله.

وقد جاء منهج أبي الفرج الأصفهاني شاملا ومستقصيا لتمحيص حقيقة النص، فأعطى اللغة اهتماما كبيرا، وجاء علاجها في عدة مظاهر، الأول اتساع الدائرة اللغوية لتشمل إلى جانب التفسير اللغوي والبلاغي، شرح أسماء المواضع والأماكن، وشرح أسماء البلاد والقرى، وشرح المعاني اللغوية لأسماء الأشخاص من شعراء وغيرهم. والثاني: الاعتماد على عد كبير من علماء اللغة والأدب في تفسير بعض الكلمات، وتأويل بعض الروايات اللغوية، ومن هؤلاء، ابن سلام، واسحاق، والأصمعي، وأبو عبيدة، واليزيديّ، وابن الأعرابي. والثالث: كثرة التفسير اللغوي عند شعراء بعينهم، ومنهم، أبو ذؤيب الهذلي، وعنترة بن شداد، وعمرو بن عقيل بن الحجاج الهجْيميّ، والأعشي، وامرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني. والرابع: الاهتمام بالرواية اللغوية، ومناقشة كثير من الآراء حول بعض قضايا اللغة. والخامس الاستطراد في التحليل اللغوي ليؤكد ما ذهب إليه في تفسير كلمة ما، ويتوسع في تعميم الفائدة. والسادس: تفسير الكلمات غير العربية حينما ترد فيما يعرض له من نصوص(١٥).

كما شمل منهج أبي الفرج الأصفهاني تراجم واسعة، شملت دراسة حياة الشعراء وما يدور حولها من قصص ونوادر، اعتمد أبو الفرج في كتابتها على عدد كبير من الرواة المعروفين، ومن خلالها تم عرض النماذج الكثيرة لشعرهم وشعر غيرهم من أبناء بيئتهم.

(٣)

وأبو بكر(١٦) (٢٧١هـ - ٣٢٨) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن

---

(١٥) معجم الألفاظ المفسرة في كتاب الأغاني. د. حسن محسن ص ٨ - ١١ وزارة الإعلام - الكويت ١٩٨٧.

(١٦) وابن الأنباري من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار، قيل: كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد في القرآن، ولد في الأنبار على الفرات (٢٧١هـ ٨٨٤م) وتوفي في =

الحسن بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة، المعروف بابن الأنباري، حينما ذهب هذا المذهب في دراسة نصوص المعلقات السبع، لم يكن واحداً من هؤلاء المؤلفين فقط، يواكب مناهج شاعت في هذه الحقبة، فقد استقبل حياته العلمية في رعاية أبيه القاسم (ت ٣٠٤هـ)، وروى عنه وتأثر به، وبغيره من الشيوخ والعلماء[١٧]، وهو غير ابنيْ الأنباري اللذيْن عاشا في القرنين الخامس والسادس من الهجرة[١٨].

وقد بلغت السبع الطوال التي شرحها ابن الأنباري[١٩] تسعة وثمانين وخمسمائة بيت من الشعر، وتشمل قصيدة امريء القيس بن حجر و مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ[٢٠]

= بغداد (٣٢٨هـ ٩٤٠م) وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضي بالله، يعلمهم. وله كتب كثيرة منها: الزاهر، وشرح معلقة زهير، وإيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، وعجائب علوم القرآن، والأضداد، وشرح القصائد السبع الطوال. (انظر في ترجمته، الأعلام للزركلي جـ٧ ط ٢ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ـ تحقيق وتعليق عبدالسلام محمد هارون ط ٢ ص ٥ ـ ١٥ (تقديم بقلم المحقق) دار المعارف بمصر ١٩٦٣).

(١٧) انظر مقدمة المحقق في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٥ ـ ٦.

(١٨) الأول هو محمد بن عبدالكريم بن ابراهيم بن عبدالكريم الشيباني، أبو عبدالله سديد الدولة ابن الأنباري، كاتب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد خمسين سنة. كان ذا رأي وتدبير، علت مكانته عند الخلفاء والسلاطين، وكان فاضلا أديبا، بينه وبين الحريري (صاحب المقامات) مراسلات مدونة، وله شعر روي أبياتا منه بعض الرواة، ولد (٤٦٩هـ ١٠٧٦م) وتوفي (٥٥٨هـ ١١٦٣م: . (انظر الأعلام للزركلي جـ٧ ط ٢ ص ٨٤). والثاني هو أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الأنباري، صاحب الإنصاف، وأسرار العربية، ونزهة الألباء، ولد سنة ٥١٣هـ وتوفي سنة ٥٧٧هـ. (شرح القصائد السبع ـ مقدمة التحقيق ص ٥).

(١٩) نسبت بعض الكتب هذا الشرح إلى أبيه القاسم (انظر ص ٩ من مقدمة التحقيق للأستاذ عبدالسلام هارون) وجاء في كتاب الاعلام للزركلي جـ ٦ ط ٣ ص ١٦ في ترجمة والد ابن الأنباري (القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أبو محمد علامة بالأدب والأخبار، من أهل الأنبار، سكن بغداد، له تصانيف، منها شرح المفضليات، ط ٢ قرأه ونقحه ابنه محمد، وخلق الإنسان، والأمثال، وغريب الحديث، وشرح السبع الطوال)، ويؤكد العلامة الكبير شيخ المحققين الأستاذ عبدالسلام هارون أن هذه النسبة خطأ، والصحيح أن الشارح هو ابن الأنباري محمد بن القاسم، وليس الأنباري القاسم بن محمد.

(٢٠) شرح القصائد السبع الطوال ص ١٥.

وقصيدة طرفة بن العبد ومطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ ظللت بها أبكي وأبكي إلى الغدِ[21]

وقصيدة زهير بن أبي سلمى ومطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلمِ بحومانة الدرّاج فالمتثلمِ [22]

وقصيدة عنترة بن شداد ومطلعها:

هل غادر الشعراء من متردّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهمِ [23]

وقصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها:

ألاهبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندر ينا[24]

وقصيدة الحارث بن حلزة ومطلعها:

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواءُ[25]

وقصيدة لبيد بن ربيعة ومطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها بِمِنًى تأبّد غولها فرجامها[26].

وتدخل المعلقات أو (القصائد السبع الطوال) ضمن باب كبير يسميه الدارسون لمؤلفات العرب (الاختيارات الشعرية والحماسات) وتشمل المعلقات والمفضليات والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب، وشعر الهذليين، وحماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وحماسة الخالديْن، وحماسة ابن الشجري، و الحماسة البصرية[27].

---

(٢١) السابق ص ١٣٢ .

(٢٢) السابق ص ٢٣٧ .

(٢٣) السابق ص ٢٩٤ .

(٢٤) السابق ص ٣٧١ .

(٢٥) السابق ص ٤٣٣ .

(٢٦) السابق ص ٥١٧ .

(٢٧) انظر في ذلك بابا تناوله الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه مناهج التأليف عند العلماء العرب ص ٤٦٥ ـ ٥٣٣ .

والكلام عن المعلقات وكتابتها وتعليقها على جدار الكعبة قديم، ويختلف حوله دارسو الأدب العربي، ودوافع الجدل حول هذه القضية كانت بسبب ما هو راسخ من أن العرب قديما لم يعرفوا الكتابة، ويرى الدكتور شوقي ضيف أن في كلام العرب وأشعارهم ما يدل على أنهم عرفوا الكتابة في العصر الجاهلي، وضرب لذلك أمثلة من شعرهم، وروى أخباراً تدل على ذلك، وعلى أنها كانت شائعة في الحواضر كمكة المكرمة[٢٨].

ويؤكد الدكتور ناصر الدين الأسد أن عرب الجاهلية عرفوا الكتابة العربية بالخط الذي عرفه الصحابة رضوان الله عليهم، وقد امتدت معرفتهم بالكتابة في الجاهلية إلى ثلاثة قرون، وكان لديهم معلمون يعلمون القراءة والكتابة وضروباً من العلم[٢٩].

ولكنه لا يوجد دليل مادي على أن الجاهليين اتخذوا من الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم، ربما كتبوا بها بعض القصائد أو القطع، ولكنهم لم يستخدموها لنقل دواوينهم للأجيال التالية، فالكتابة لم تعرف بالشكل الرسمي إلا في العصر الإسلامي، حيث لا كتاب قبل القرآن لا في دين ولا في غيره، وما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة إنما هو من باب الأساطير، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة (المعلقات)، فالشعر الجاهلي اعتمد على الرواية الشفوية التي ظلت متتالية في الإسلام، وكانت الأداة الطيعة لنشره وذيوعه[٣٠].

فالشعر كان يحفظ في صدور الشعراء والرواة، وأصدقاء الشعراء، وبهذا أمكن المحافظة على قدر غير قليل من الشعر العربي، وضاع قدر آخر لأسباب مختلفة كأن تشيخ ذاكرة الشاعر وتقل قدرتها على الحفظ. وحينما شاعت الكتابة بدأ الرواة والمتأدبون يسجلون ما يحفظون، وأول من أقدم على هذا العمل من الرواة حماد بن سابور بن المبارك الذي يعرفه المتأدبون باسم (حماد الرواية) الذي توفي على

---

(٢٨) العصر الجاهلي. د. شوقي ضيف ص ١٣٨ ـ ١٣٩ دار المعارف بمصر ط ١١ ـ القاهرة ١٩٨٦.

(٢٩) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص ٤١ ـ ٥٢ دار المعارف بمصر ط ٣ ـ القاهرة ١٩٦٦.

(٣٠) العصر الجاهلي. د. شوقي ضيف ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

الأرجح سنة ١٥٥هـ، وكـان يحفظ قدراً كبيـراً من الشعر، ويستعين به الكثيـرون ومنهم الملوك والخلفاء ليروي لهم مما يحفظ[٣١].

ويـرى الدكتـور طه حسـين أن الرواة أفسـدو الشعر، وكـانوا وراء كثير من مـظاهر الانتحـال، وحملهم على ذلـك أسباب ذات صلة بـظروف الحياة السيـاسيـة والدينية والفنية للمسلمين، وخص عميد الأدب العربي بالذكر هنا حماد الراوية زعيم أهـل الكوفـة في الـروايـة والحفظ، وخلف الأحمر زعيم أهـل البصرة في الـروايـة والحفظ، وكـان كلا الـرجلين مسرفا عـلى نفسه، ليس لـه حظ من دين و لا خلق، وقد أخذ أهل الكوفة والبصرة عنهما شعـر العرب، وأجمعـوا على أنهما كـانا يحفـظان الشعـر ويرويـانه، وكـانا شـاعرَيْن يجيـدان تقليد الشعـر واتخـذا من النحْـل وسيلة للتكسب[٣٢]. وقد أدى ذلك إلى عدم الاستقرار في الـرواية، بحيث ـ مثـلا ـ يمكن الاطمئنـان إلى القصـائـد التي شرحهـا ابن الأنبـاري، وأنها هي، ولكن درجـة الإطمئنان إلى نسبة القصائد لأصحـابها أمـر مشكوك فيـه، كذلـك لم يقف أحد من الدارسين والنقاد بشكل قاطع عند مشكل مفهوم القصائد الجاهلية المشهورة، وكثرة أسمائها (المعلقات) و (السُّموط) و (المُذْهبات) و (السبع الطوال) و هـل هي خمس أو سبع أو عشر[٣٣].

وبـالـرغم من ذلـك فقـد قـام اللغـويـون والمتـأدبـون منـذ القـرنـين الثـاني الهجـري(الثامن الميـلادي) والثـالث الهجـري (التـاسـع الميـلادي) بصنعـة الشعـر وتحريره، وحظيت هذه القصائد أو (المعلقات) باهتمام كبير، وكتاب « تاريخ التراث العـربي » لفؤاد سزكـين يرصـد بشكل دقيق تتـوافر لـه عناصر الحصر والاستقـراء، جيمـع الكتابـات التي صدرت عن هـذه القصائـد، مع تفصيـل القول في الشروح والـطبقـات والـترجمـات والمختصرات[٣٤]. وكـانت أهم الشروح التي كتبت لهـذه

(٣١) مناهج التأليف عند العلماء العرب. د. مصطفى الشكعة ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٣٢) في الأدب الجاهلي. د. طه حسين ص ١٦٨ ـ ١٧٣ ـ دار المعارف بمصر ١٩٨١.

(٣٣) انـظر تفضيل هـذه القضية: منـاهج التـأليف عند العلماء العـرب د. مصـطفى الشكعـة ص ٤٧٠ ومعلقات العرب. د. بدوي طبانة. ص ١٣ ـ ٢١ ط ٢ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧.

(٣٤) تاريخ التراث العربي ـ فؤاد سزكين ـ المجلد الثاني ـ الشعر جـ ١، ص ٧٠ ـ ٨٥ نقله إلى العـربيـة د. محمود فهمي الحجازي. إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمـام محمد بن سعـود. المملكـة العـربيـة السعودية ١٩٨٣.

القصائد وأجودها هي، شروح: أبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ) والحسين بن أحمد الزوزني (ت ٤٨٦هـ) ويحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ).

(٤)

ويتضح من مؤلفات ابن الأنباري التي بلغت سبعة وعشرين كما رصدها محقق شرح القصائد السبع الطوال[٣٥]، أنه كتب في اللغة والأدب والنحو ومعاني القرآن الكريم، وغريب الحديث، وقراءات القرآن الكريم، وضمائر القرآن، وهاءات القرآن، وهو في كل هذه الفروع كان إماماً، وكان لهذا العلم الموسوعي أثره الكبير في دراسة نصوص القصائد السبع التي أصبحت مجالا لجريان علمه الغزير، فاشتمل تحليله لذلك الشعر على تراجم حياة الشعراء الذين أبدعوه، وعلى التحليل اللغوي وشرح الغريب، وذكر الروايات اللغوية المتعددة، والتحليل النحوي، والروايات النحوية، وشرح المعنى الأدبي للأبيات، والروايات الشعرية، والاستناد إلى آراء كثير من القراء واللغويين والرواة، والوقوف عند كثير من قضايا اللغة، ونسبة الشعر لقائليه.

وفي كل عناصر التحليل هذه يستشهد ابن الأنباري مؤيداً الرأي والرواية بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والمثال، والحكمة؛ موظفا علمه الواسع في خدمة ذلك النص الشعري الجاهلي.

كانت ترجمة حياة الشاعر مقدمة لدراسة شعره ـ وإن كانت تراجم الشعراء قد جاءت بشكل متفاوت من حيث الطول والإيجاز ـ وقد اشتملت الترجمة على حياة الشاعر والروايات المتعددة التي دارت حولها، والقصص والنوادر التي حفلت بها، وذلك في إطار منهج تحليلي شبيه بمنهج دراسة الشعر في كثير من الأحيان.

ففي ترجمة حياة امريء القيس يبدأ ابن الأنباري بذكر اسمه ونسبه، ثم وجوه إعراب اسمه (امرؤ القيس)، ولماذا سمي (آكل المرار)، ثم يستطرد إلى ذكر قصة مقتل أبيه (حجر) ثم (حديث دارة جلجل) وهو الحديث الذي يدور حول

---

(٣٥) مقدمة التحقيق ص ٨ ـ ١١.

مناسبة قصيدته (قفانبك)[٣٦].

وفي حياة طرفة ابن العبد يذكر ابن الأنباري قصة طرفة والمتلمس مع عمرو بن هند، ومقتل طرفة على يد المكعبر عامل عمرو بن هند على عمان والبحرين، وذلك حينما أرسل عمرو بن هند المتلمس وطرفة إليه، ومع كل منهما كتاب مغلق بقطع يدي كل واحد منهما ورجليه ثم دفنه حيا، ودون أن يعلما بهذا التدبير، ثم يذكر ابن الأنباري قصة هجاء طرفة لعمرو بن هند، وهجاء (كُبَيْشة) أخت طرفة لعبد عمرو، وشعر المتلمس في عصيان طرفة إياه وتركه نصيحته[٣٧].

ومن نماذج أسلوب ابن الأنباري التحليلي في عرض ترجمة حياة الشاعر: (وقد كان المتلمس فيما يقال: قال لطرفة حين قرأ كتابه: تعلّمن أن الذي في صحيفتك مثل الذي في صحيفتي. قال طرفة: إن كان اجترأ عليك ما كان ليجترىء عليّ، ولا ليغرّني، ولا ليُقْدم علي! فلما سار المتلمس إلى الشام قال:

من مبلغُ الشعراءِ عن أخويْهمُ ... نبأً فتصدقُهم بذاك الأنْفسُ
أودي الذي علق الصحيفة منهمُ ... ونجا حِذار حبائه المتلمِّسُ
ألقى صحيفته ونحىًّ كُـدْره ... وجْناءُ مجْمرةُ المناسم عِرْمِسُ
عيرانَةُ طبخ الهواجرُ لَحْمَها ... فكأنّ نُقْبَتَها أديمٌ أمْلسُ

العيرانة: المرحة النشيطة، شُبِّهتْ بَعَير الفلاة فيما زعم أبو عبيدة. وقوله (طبخ الهواجر لحمها) أي أضمرتها الهواجر وعصرتْ بدنَها أي شَحْمتها، فانضمت لذلك، والهَوَاجر والهَجِيرُ والهَجْرُ: انتصاف النهار في شدة الحر، والوجْناء: الضخْمةُ العظيمة الصُّلْبة، فكأنها لصلابتها ضربت بمواجن القصّار، الواحدة مَيْجَنَة، وهي مِدَقَّتُهُ، ويقال: الوجْناء: العظيمة الرأس والوجَنات، تُشَبَّه بالفحل، يقال: الوجناء الغليظة، أُخِذتْ من الوَجين من الأرض وهو ما غلظ، وقال ثابت:

(٣٦) شرح القصائد السبع ص ٣ - ١٥.
(٣٧) السابق ١١٥ - ١٣٢.

«مجمرة المناسم» معناه مجتمعة لطيفة، وقال الأصمعي: هي المجتمعة في صلابة وصِغر، وقالوا كلهم: عِظَمُ الأخفاف من الهُجْنة، وليس من صفة النجائب)[٣٨].

ويوجز ابن الأنباري إيجازا شديدا في عرض تراجم زهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، ويذكر أن زهير بن سلمى وأهل بيته كانوا من مُزَيْنة، ويذكر كذلك قصته مع خاله أسعد بن الغدير، وإغارتهم على طَيِّىء، ويذكر مناسبة القصيدة (المعلقة) حيث يمتدح فيها الحارث بن عوف، وهرم بن سنان لدورهما في الصلح بين المتحاربين بسبب مقتل هرم بن ضمضم المزني[٣٩].

وفي ترجمة عنترة يذكر نسبه، وتعيير الناس له بسواده ونسبه، ثم اعتراف أبيه به، وقصة سب رجل من بني عبس له، وذكر تفسيرات لغوية لاسم (عنترة) رواها ابن الأنباري عن (قطرب). وروى ابن الأنباري في مناسبة القصيدة: (فقال عنترة أول ما قال من الشعر يذكر قتل معاوية بن نزّال وغيره، وكان عنترة يومئذ لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين في الحرب، فقال:

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهمِ)[٤٠]

أما عمرو بن كلثوم فهو من بني تغلب بن وائل، وهم من أشد الناس في الجاهلية، وزعم ابن الكلبي أنه سمع أباه يقول: حدثني بعض أصحابي قال: (لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس)، ويذكر ابن الأنباري قصة الصراع والحرب بين تغلب وبكر، وقصة الاستسقاء وتحاكمهما إلى الملك عمرو بن هند، وكان عمرو بن كلثوم ممثلا لتغلب، والحارث بن حلزة ممثلا لبكر، فأنشد الحارث بن حلزة من وراء سبعة ستور ـ لأنه كان أبرص ـ قصيدته:

آذنتنا ببينها أسماء

ثم أنشد عمرو بن كلثوم قصيدته:

---

(٣٨) السابق ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٣٩) السابق ٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(٤٠) السابق ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا[41]

وذكر ابن الأنباري في ترجمة الحارث بن حلزة نسبه إلى بكر بن وائل، ورأي اللغويين في معنى حلزة، ثم قصته مع عمرو بن هند[42] التي أشير إليها في ترجمة عمرو بن كلثوم.

وفي ترجمة لبيد بن ربيعة يذكر ابن الأنباري نسبه، والحديث عن أمه وأبيه، وقصة أبي براء الذي وفد في رهط من بني جعفر على النعمان ومعه لبيد بن ربيعة، وهو يومئذ غلام، وفي هذه الحادثة قال لبيد شعره المشهور في هجاء الربيع:

يا رب هيجا هي خيرٌ من دعهْ

وكان أبو عقيل لبيد بن ربيعة مخضرما، وقال بعض الرواة: لم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدا هو:

الحمد لله إذْ لم يأتني أجلي   حتى لبسْتُ من الإسلامِ سِرْبالا

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

ويروى ابن الأنباري عن عمرو وعائشة رضي الله عنهما وعن الفرزدق وغيرهم أقوالا في شعر لبيد وحكمته، وقد عاش لبيد كما يُروى مائة وثلاثين عاما فقال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ
غلب العزاءُ وكان غير مغلّب   دهرٌ طويلٌ دائمٌ ممدودُ
دهرٌ إذا يأتي عليَّ وليلةٌ   وكلاهما بعد المضاء يعودُ

كما يذكر ابن الأنباري بعض القصص عنه عندما حضرته الوفاة[43].

---

(٤١) السابق ٣٦٩ ـ ٣٧١.
(٤٢) السابق ٤٣١ ـ ٤٣٣.
(٤٣) السابق ٥٠٥ ـ ٥١٧.

وفي الأعم الأغلب يختتم ابن الأنباري شرح القصيدة بإعلان تمامها وعدد أبياتها وحمدالله، وهذا ضرب من التوثيق حفظ للرواية حقها على مدى هذه القرون الطويلة، وهو لون إحصائي ويعد مظهرا من مظاهر الدراسات الحديثة في النقد الأدبي.

في نهاية قصيدة امريء القيس يقول ابن الأنباري: (تمت قصيدة امريء القيس بغريبها، وهي إثنان وثمانون بيتا. الحمد لله على الإتمام، والصلاة على محمد سيد الأنام، وعلى آله الكرام وأصحابه العظام)[٤٤]. وفي تمام قصيدة طرفة بن العبد يقول: (تمت قصيدة طرفة بغريبها وأخبارها وهي مائة بيت وبيتان. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين)[٤٥].

وقصيدة طرفة بن العبد في واقع التحقيق مائة بيت وثلاثة أبيات، وقد علق المحقق بقوله: ويبدو أن ابن الأنباري أسقط من العدد البيت ذا الرقم (١٠١) الذي لم يروه الأصمعي ولا ابن الأعرابي، أو ذا الرقم (٧٨) الذي أنكره أبو جعفر[٤٦].

ومن الجدير بالذكر أن البيت الأول الذي أشار إليه المحقق برقم (١٠١) هو:

وأصفرَ مضْبوحٍ نظرتُ حِوارَهُ   على النّار واستودْعتُه كفَّ مُجْمِدِ[٤٧]

والبيت رقم (٧٨) هو:

وظلمُ ذوي القربى أشد مضاضةً   على النفس من وقع الحسام المهنَّدِ[٤٨]

وفي تمام قصيدة زهير بن أبي سلمى يقول ابن الأنباري: (تمت قصيدة زهير بغريبها وهي تسعة وخمسون بيتا، وتتلوها قصيدة عنترة)[٤٩].

---

(٤٤) السابق ١١٢.
(٤٥) السابق ٢٣١.
(٤٦) انظر هامش التحقيق ص ٢٣١.
(٤٧) شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٢٩.
(٤٨) السابق ٢٠٩.
(٤٩) السابق ٢٩٠.

وفي تمام قصيدة عنترة يقول: (تمت القصيدة وهي تسعة وسبعون بيتا)[٥٠].

وفي تمام قصيدة عمرو بن كلثوم قال: (تمت هذه القصيدة)[٥١].

وقد علق المحقق على ختام ابن الأنباري لقصيدة عمرو بن كلثوم بقوله: (لم يذكر تعدادها في النسختين كما سبق في أخواتها، لكن في «م»[٥٢]: وعدد أبياتها اثنان وتسعون بيتا، فكأنه لم يعترف ببعض الأبيات في التعداد، وهي في إحصائنا أربعة وتسعون بيتا)[٥٣].

وفي ختام قصيدة الحارث بن حلزة يقول: (تمت القصيدة بغريبها وأخبارها ومعانيها)[٥٤]. وعلق المحقق: (بعده في «م»: وهي أربعة وثمانون بيتا)[٥٥].

أما آخر القصائد السبع وهي للبيد فلم يرد فيها شيء سوى كلمة (تمت)[٥٦]. ولكن المحقق علق على هذا الختام قائلا: (بعده في «م»: تمت قصيدة لبيد، وعدد أبياتها ثمانية وثمانون بيتا، وتم بتمامها السبع الجاهليات بغريبها وأخبارها، مما اختصر من شرح أبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، والحمد لله رب العالمين وصلواته على أنبيائه ورسله أجمعين. وافق الفراغ من نسخها يوم الخميس عاشر شوال سنة أربع وستين وستمائة)[٥٧].

---

(٥٠) السابق ٣٦٦.

(٥١) السابق ٤٢٨.

(٥٢) «م» هنا رمز لمختصر شرح المعلقات لابن الأنباري لعالم مجهول، وهو مختصر أمين دقيق، ونسخته أمينة كذلك ودقيقة، وكان لها الفضل في تقويم كثير من نصوص الشرح عند ابن الأنباري، وإلقاء الضوء لتبيانها وجلائها (انظر ص ١٤ من مقدمة التحقيق ـ للأستاذ عبدالسلام هارون).

(٥٣) انظر هامش التحقيق ص ٤٢٨.

(٥٤) شرح القصائد السبع الطوال ص ٥٠١.

(٥٥) انظر هامش التحقيق ص ٥٠١.

(٥٦) شرح القصائد السبع الطوال ص ٥٩٧.

(٥٧) انظر هامش التحقيق ص ٥٩٧.

(٥)

وهـذا نموذج من شرح ابن الأنبـاري، ندلـل به عـلى منهجـه في شرح النص الشعري:

وقــربــةِ أقــوامٍ جَعَلْتُ عـصــامهــا على كــاهــل مني ذلــول مــرحَّــلِ

عِصام القربـة: الحبل الـذي تُحمل بـه، ويضعه الـرّجل عـلى عاتقـه، وعلى صدره. والكاهل: مَوْصل العنق إلى الظهر، وقوله «ذلول مرحّل» معناه قد اعتـدتُ ذلك. يصف نفسه بأنه يخدُم أصحابه، يترجّل بذلك.

والقربة مخفوضة بالواو التي تخلف ربّ، وهي مضـافة إلى الأقـوام، والعصام منصوبة بجعلت، و «على» صلة جعلت، وهي خافضة للكاهل، والذلـول المرحـل نعتان للكاهل.

ووادٍ كجــوف العَيْــر قفــرٍ قــطعتــه به الـذئب يعـوي كـالخليـع المعيَّـلِ

قال أبو بكر: قوله «كالخليع» فيه قولان: أحدهما أن جوف العير لا يُنتفع منـه بشيء، ويعني العير الوحْشيّ. ويروى «وخرق كجوف العير» فالخرق: الذي يتخرّق في الفلاة. وقال هشام بن محمد الكلبي: العـير ها هنـا: رجلٌ من العـمالقة كـان له بنـون ووادٍ خِصْب، وكـان حسن الـطريقـة، فسـافـر بنـوه في بعض أسفـارهم، فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم، فكفر بالله سبحانه وتعالى، وقال: لا أعبد ربا أحـرق بَنيَّ! وأخذ في عبادة الأصنـام فسلط الله عز وجـل على ذلـك الوادي نـارا، والوادي بلغة أهل اليمن يقال له الجوف، فأحرقته فما بقي منه شيء، وهو يُضرب به المثل في كل مالا بقيّـة له. والخليـع: المقامـر، ويقال هـو الذي خلع غِـدَاره فليس يبالي مـا ارتكب، والمعيل: الكثير العيال.

الوادي مخفوض بإضمار رب، والكـاف موضعهـا حفضٌ لأنها نعت للوادي، وهي خافضة للجوف. والذئب مرتفع بما عاد من يعوي، والكاف منصوبة بيعوي، وهي خافضة للخليع، والمُعَيّل نعت له.

فـقلت لــه لـمــا عــوى إن شــأنـنــا قـليــل الغِـنى إن كـنت لـمــا تمــوَّلِ

معناه: إن كنت لمّا تُصبْ من الغنى ما يكفيك، ويروى «طويلُ الغنَى» و «قلت له» معناه فقلت للذئب. «لمًّا عوى»: معناه لما صاح. «إن شأننا قليل الغنى» معناه أنا لا أغني عنك وأنت لا تُغْني عني شيئا. أي أنا أطلب وأنت تطلب، فكلانا لا غنى له. ومن رواه «طويل الغنى» أراد همتي تطول في طلب الغنى.

ولمّا وقتٌ، فيها طرف من الجزاء، وإنَّ كسرت لمجيئها بعد القول، والشأن إسم إن، وقليل خبر إن، والتاء اسم الكون، وما عاد من تموّل خبر الكون، ومعنى لّما تموّل: لمْ تموّلْ.

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزلِ

معناه: إذا نلت شيئا أَفَتُّهُ، وكذلك أنت إذا أصبت شيئا أفتّه، و «من يحترث حرثي وحرثك يهزل» أي من طلب مني ومنك شيئا لم يُدْرك مراده. وقال قوم: معنى البيت: من كانت صناعته وطلبته مثل طلبتي وطلبتك في هذا الموضع مات هُزْلا، لأنهما كانا بواد لانبات به ولا صيْد.

وموضع كلانا، رفع بما عاد من جملة الكلام، وموضع مَن رفع بما في يحترث، ويحترث جزم بمن على معنى الجزاء، والحرث منصوب بيحترث، ويهزل جواب الجزاء.

فهذه الأبيات الأربعة رواها بعض الرواة في قصيدة امريء القيس، وزعم الأصمعي وأبو عبيدة وغيرهما أنها ليست منها[58].

وكان ابن الأنباري قد قال قبل شرح الأبيات الأربعة: وروى بعض الرواة هاهنا أربعة أبيات، وذكر أنها من هذه القصيدة، خالفه فيها سائر الرواة، وزعموا أنها لتأبط شرا[59].

نلاحظ هنا أن هذا النص محكوم في شرح ابن الأنباري بعدد من القضايا المحورية هي: الرواية، والنحو، والانتحال، واللغة، وشرح المعنى الأدبي، وتُعَد

(٥٨) شرح القصائد السبع الطوال ص ٨٠ ـ ٨٢.
(٥٩) السابق ٨٠.

الرواية قاسما مشتركا بين كل القضايا، فهناك روايات مختلفة في التفسير اللغوي والشرح الأدبي ورواية الشعر ونسبته لأصحابه، وتتسع رقعة القضايا التي يعالجها في الشرح عند متابعة بقية أبيات المعلقات.

فالتشبيه ببعض المشبه به يكون مجالا للشرح في معلقة عنترة بن شداد، عندما يقف أمام بيته:

جادت عليه كل بِكرٍ ثَرَّةٍ ... فتركْن كل حديقةٍ كالدِّرْهمِ

ويحلل التشبيه في قوله «الدرهم» ويقول: وقوله: «كالدرهم» معناه أنها امتلأت كلها، فكأن استدارتها بالماء استدارة الدرهم، وليس أنها كقدر الدرهم في السعة. والعرب تشبه الشيء بالشيء ولا تريد به كل ذلك الشيء، إنما تشبهه ببعضه. من ذلك قولهم: «بنو فلان بأرض فلان مثل حَدَقة الجمل» والأرض واسعة، إنما يريدون أنها كثيرة الماء ناعمة العشب مخصبة، ولم يذهبوا إلى سعة العين ولا ضيقها. ويقولون: بنو فلان في مثل حُوَلاء الناقة، وهي هَنَةٌ مثل المِرآة تسقط مع السَّلَى فيها ماءٌ صافٍ[٦٠].

وعند زهير بن أبي سُلْمى يعالج ابن الأنباري ضرورة الشعر في بيته:

فتنتجْ لكم غلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِعْ فَتُفْطِمِ

ويقول: وإنما أراد كأحمر ثمود، فاضطره الشعر إلى عاد، فقال على جهة الغلط، كما قال الأعشى:

فإني وثوبيْ راهب اللُّج والتي ... بناها قصيٌّ وحدَه وابنُ جُرْهُمِ

وقُصيٌّ لم يبن الكعبة، وقال النابغة:

وكلُّ صَمُوتٍ نَثْلةٍ تُبَّعيّةٍ ... ونسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاءَ ذائلِ

أراد ونسج سليمان، وسليمان لم ينسج الدروع وإنما نسجها داود[٦١].

(٦٠) السابق ٣١٢ - ٣١٣. والسَّلَى: غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه، والجمع: أسْلاء.
(٦١) السابق ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٦)

وقد كان التحقيق الذي قام به الأستاذ عبدالسلام هـارون متمماً لـدراسة ابن الأنباري، حيث وضع شيخ المحققين شرح نصوص المعلقات في إطـار منهج جـديد يبرز جميع الركائـز التي اعتمد عليهـا ابن الأنباري في منهجـه، وكأني بهـذا التحقيق أمام منهج أدبي معاصر يشقى به الكثـيرون في دراسة النصـوص الأدبية، معتمـدين على الإحصاء، وتتبع الظواهر اللغوية وعناصر التكرار، لاستخلاص بعض النتائج والأحكام.

والتحقيق هنـا يقـدم شرح ابن الأنبـاري في منهـج يسـير يفتـح البـاب أمـام الباحث ليدرك بغيته، وهذا في إطار فلسفة أوضحها المحقق في أول كتاب عـربي في فن تحقيق النصوص ونشرها، وكان من تأليفه؛ وقد ارتكزت هذه الفلسفة في معالجة النصـوص على: تـرجيـح الـروايـات، وتصحيـح الأخـطاء، ودراسـة علل نشـوء التحريفات اللغوية، والـزيادة والحـذف، والتغيير والتبـديل، والضبط، والتعليق، وبعض المكملات الحديثة التي تشمل: تقديم النص، والعناية بالإخراج الطباعي، وتنظيم الفقار والحـواشي، وصنع الفهـارس الحديثـة، وأنواع الفهـارس وترتيبهـا، وتحري التصحيف والتحريف[٦٢].

وقد حوى التحقيق تقديما وتعليقـا وفهارس ومـراجع اعتمـد عليها في تـوثيق شروط التحقيق؛ في التقديم استقصى المراجع والمصادر التي كتبت عن ابن الأنباري في ترجمة شاملة تحتوي على:

- مولد أبي بكر الأنباري ونشأته.
- تلقيه العلم وأساتذته ومشيخته.
- علمه وآراء العلماء فيه.
- تلاميذه.
- مؤلفاته.

---

(٦٢) تحقيق النصوص ونشرها، الأستاذ بدالسلام هارون ص ٧٢ ـ ١١٠ ط ٤، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٧.

ـ السبع الطوال وآراء الدارسين في مفهوم المعلقات.
ـ شرح ابن الأنباري للسبع الطوال.
ـ نسخ الشرح المعتمدة.
ـ فهارس التحقيق[٦٣].

وكان التعليق استكمالا لما فات ابن الأنباري أو أهمله، وكان أهمه:

١ ـ توضيح الفروق والتحريف والتصحيف في نسخ الشرح المعتمدة التي أشير إليها في التقديم.
٢ ـ شرح المفردات اللغوية التي ظن المحقق أنها في حاجة للشرح، ولم يعرض لها ابن الأنباري.
٣ ـ ذكر رواية الديوان في مقابل أبيات المعلقة الواردة في الشرح، أو الأبيات التي وردت استشهادا لغير أصحاب المعلقات.
٤ ـ الإشارة إلى المصادر والمراجع التي اعتمد عليها ابن الأنباري في شرحه ولكنه لم يذكرها.
٥ ـ ذكر أرقام الآيات القرآنية التي استشهد بها، وأسماء سورها.
٦ ـ نسبة الأبيات التي استشهد بها إلى قائليها، في حالة عدم ذكر النسبة.
٧ ـ تحقيق أسماء بعض الأعلام.
٨ ـ مقارنة شرح ابن الأنباري بغيره من شراح القصائد الجاهلية كالتبريزي والزوزني.
٩ ـ مقارنة الشرح اللغوي الذي أورده ابن الأنباري بشرح المعاجم اللغوية.

فالمحقق الكبير الأستاذ عبدالسلام هارون أضاف إلى جهود الشارح (ابن الأنباري) مالا يمكن تركه أو الاستغناء عنه، وذلك في ظل الدراسات الحديثة، التي لا تعتمد كثيراً على ما كان يفترضه ابن الأنباري ومعاصروه من توهم معرفة المتروك عند كل الناس، فنحن أحوج ما يكون إلى هذا التوثيق لأن العصر غير العصر، والناس غير الناس.

---

(٦٣) مقدمة التحقيق ص ٥ ـ ١٥.

في شرح بيت امريء القيس:

فَقُمْتُ بِها أَمْشِي تَجُرُّ وراءنا — على إِثْرِنا أَذْيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[٦٤]

يقول ابن الأنباري في شرحه: (معناه: قمت بها وقد خاصرتها وأخذت بيدها)[٦٥] ويضيف الأستاذ عبدالسلام هارون معلقا على ما ورد في الشرح فيقول في الحاشية: (في النسختين «حاصرتها» وصوابه بالخاء المعجمة)[٦٦] وهو بذلك يؤكد إنها قد وردت في الشرح بالحاء المهلمة ولكنه جعلها خاء معجمة بناء على تصحيح النسختين اللتين اعتمد عليهما وهما نسخة مكتبية نور عثمانية بتركيا، ورقمها فيها ٤٠٥٢، ونسخة مكتبة أسعد أفندي بتركيا، ورقمها فيها ٢٨١٥[٦٧].

وعندما يشرح ابن الأنباري بيت طرفة:

ويوم حبستُ النفس عند عِراكه — حفاظاً على عَوْراته والتهدُّدِ[٦٨]

ويقف عند كلمة «عراكة» على مشتقات هذه المادة اللغوية قائلا: (ومعناه: رب يوم حبست نفسي عند عراك اليوم، وهو علاجه، يقال اعتركت الإبل على الحوض إذا ازدحمت عليه، ويقال أرسل إبله عراكا، إذا أرسلها على الحوض جميعا، وإذا ازدحم الناس في وِرْدٍ أو حرب قيل: هم في عراكٍ، والمعترك: المزدحم. قال الشاعر:

قذفوا صاحبهم في ورطة — قَذْفَكَ المقلة وسْط المعتركْ[٦٩]

ويقف المحقق بعد ذلك عند الشرح ليضيف إليه مايزيد الأمر وضوحا، ويجيب عن سؤال قد يشغل القاريء، ويوضح في حاشيته أن قائل هذا البيت هو (يزيد بن طعمة الخطمي) ومرجعه في ذلك: «اللسان» مادة «م ق ل»، وشروح

---

(٦٤) شرح القصائد السبع الطوال ٥٣.
(٦٥) السابق ٥٣.
(٦٦) حاشية السابق ٥٣.
(٦٧) مقدمة التحقيق ص ١٤.
(٦٨) شرح القصائد السبع الطوال ٢٢٨.
(٦٩) السابق ٢٢٨.

سقط الزند (١٤٧٢) ويوضح كذلك معنى المقلة فيقول: المقلة بالفتح حصاة القسم توضه في إناء، ثم يسقي كل قدر ما يغمر الحصاة، وذلك عند قلة الماء في السفر في المفاوز[٧٠].

وحينما يورد ابن الأنباري بيت عنترة:

لـمـا رأيت الـقـوم أقبـل جـمعـهـم يتـذامـرون كـررت غيـر مـذمّمِ [٧١]

يعلق المحقق في حاشيته بقوله: قبله عند التبريزي ثلاثة أبيات، وقال التبريزي: ويقع في بعض الروايات هذه الأبيات الثلاثة:

لـمـا سمعت نـداء مُـرَّة قـد عـلا وابـنيْ ربـيعـةَ فـي الغُـبـار الأقـتـمِ

ومـحلِّمٌ يـسـعـوْنَ تـحـت لـوائـهـم والـمـوت تـحـت لـواء آل مـحـلِّم

أيقنـت أنْ سيكـونُ عنـد لـقـائهـم ضـربٌ يُـطِيـرُ عن الفـراخِ الـجُثَّم

قال التبريزي: «مفعول يطير محذوف. والمعنى يطير الهام عن الفراخ الجثم. وإنما شبه ما حول الهام بالفراخ[٧٢].

أما جانب الفهرسة وهو أهم جوانب التحقيق، فإنه يضم تسعة فهارس، هي فهرس القرآن الكريم[٧٣]، وفهرس الحديث[٧٤]، وفهرس الأمثال[٧٥]، وفهرس الأشعار[٧٦]، وفهرس الأرجاز[٧٧]، وفهرس اللغة [٧٨]، وفهرس مسائل العربية[٧٩]، وفهرس الأعلام والقبائل[٨٠]، وفهرس البلدان والمواضع

---

(٧٠) حاشية السابق ٢٢٨.
(٧١) شرح القصائد السبع الطوال ٣٥٨.
(٧٢) حاشية السابق ٣٥٨.
(٧٣) فهارس التحقيق ٦٠١ - ٦٠٧.
(٧٤) السابق ٦٠٨ - ٦٠٩.
(٧٥) السابق ٦١٠ - ٦١١.
(٧٦) السابق ٦١٢ - ٦٢٨.
(٧٧) السابق ٦٢٩ - ٦٣٢.
(٧٨) السابق ٦٣٣ - ٦٧٦.
(٧٩) السابق ٦٧٧ - ٦٨٠.
(٨٠) السابق ٦٨١ - ٧٠٤.

ونحوها[٨١].

وبعد هذه الفهارس يختتم المحقق عمله بإيراد مراجع التحقيق والتعليق[٨٢]، وقد بلغت ١٤٤ مائة وأربعة وأربعين مرجعاً، كانت العنصر الأساسي في مهمة التحقيق، وتكشف عن قيمة التوثيق الذي تمتعت به قراءة ابن الأنباري من جديد في شرح القصائد السبع، وشرح كل ما استغلق، وعما قدم من دراسات حول هذا العمل تسهم في تطوير الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية وخدمتها بشكل كبير.

وتكشف فهارس التحقيق **أولا** عن منهج علمي متكامل اتبعه ابن الأنباري في شرح القصائد السبع، بحيث نراه يستعين بكل علوم العربية لتوضيح النص وتقريبه إلى الفهم، فهو يقدمه للتعليم والفائدة، كما تكشف الفهارس، **ثانيا** عن الأدوات التي استعان بها هذا المنهج في دراسة هذه القصائد، وتأتي هذه الأدوات في ثلاثة محاور:

الأول: ويضم خمسة جوانب كشفت عنها الفهارس، وهو الاستعانة بالنصوص المساعدة لتوضيح النص الأصلي، ويشمل ذلك نصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأمثال، والأشعار، والأرجاز.

الثاني: ويضم جانبين كشفت عنهما الفهارس، وهو لغوي يقف عند بعض القضايا اللغوية التي تحدد المعنى المراد وتوجهه، ويقوم كذلك بشرح المفردات اللغوية.

الثالث: بيان الأعلام والقبائل والبلدان والمواضع ونحوها، وهو محور يكشف عن جوانب كثيرة في فهم النص.

المحور الأول يستخدم كثيرا من النصوص الشعرية والنثرية، لتمحيص حقيقة النص المشروح، ونظرة فاحصة إلى الفهارس التي كشفت عن هذه النصوص

---

(٨١) السابق ٧٠٥ ـ ٧١٠.

(٨٢) مراجع التحقيق والتعليق ٧١١ ـ ٧١٦.

تجعلنا ندرك بيقين مجال توظيفها عند ابن الأنباري، ففي فهرس القرآن الكريم رتت الأستاذ عبدالسلام هارون الآيات هجائيا على نسق المواد اللغوية، التي جاءت الآيات لتؤكد معناها، وهذا ترتيب أوفق من الترتيب المتبع في فهارس القرآن الكريم، الذي يرتب السور والآيات كما وردت في المصحف الشريف، وفي ذلك من الصعوبة وضعف الفائدة، مالا خفاء فيه[٨٣] كما أشار المحقق، ويضع فهرس القرآن الجذر اللغوي، ثم يذكر معه الآية، وأحيانا نجد للجذر اللغووي أكثر من آية استشهد بها، ويدل الفهرس كذلك على أن الآية الواحدة قد ترد في أكثر من موضع للجذر نفسه.

وفي الحديث الشريف جاء الترتيب على النسق الذي ربتبت به آيات القرآن الكريم، وفي الأمثال جاء الترتيب مخالفا ما سبق في القرآن والحديث، حيث رتبت الأمثال هجائيا مجردة من ذكر المواد اللغوية، أو الجذور الدالة على المادة التي جاء المثل شاهدا لها.

أما الأشعار فقد رتبت هجائيا حسب القوافي، ويشمل الفهرس الأشعار التي وردت في الشروح فقط دون الحواشي، ولا يشمل القصائد السبع كذلك، ويكشف الفهرس أن المحقق نص على قائلي الأبيات الذين لم يذكرهم ابن الأنباري، وقد علّم ذلك بكتابتها في الفهرس بين قوسين، وفي فهرس الأرجاز اتبع المحقق ما اتبعه في فهرس الأشعار.

والمحور الثاني ـ وهو محور لغووي يكشف عن المعنى المراد في الأبيات بتوضيح مفرداته ـ نقف عند فهرسين، هما فهرس اللغة وفهرس مسائل العربية، والأول قسمان، قسم يتناول بالترتيب المعجمي ما شرحه ابن الأنباري من ألفاظ شرحا لغويا، فيضع المحقق الجذر اللغوي، ويجري عليه الترتيب الهجائي، ثم يتبع كل جذر بقية مواده اللغوية مراعاة للإيجاز، والقسم الثاني يضم المفردات التي شرحها المحقق في حواشي الكتاب، وقد اتبع فيها منهج القسم الأول.

والفهرس الثاني وهو فهرس مسائل العربية، يضم قضايا اللغة والنحو

(٨٣) انظر هامش فهرس القرآن بشرح القصائد السبع ٦٠١.

والصرف والبلاغة مرتبة هجائيا، وهي قضايا ناقشها ابن الأنباري في شروحه، كالإبدال والالتفات، والنداء، وتاء التأنيث، وهيهات.

والمحور الثالث وهو توثيقي يعتمد على الرواية والتاريخ وتحديد الرأي، ويضم الأعلام والأماكن التي وردت في الشرح واستعان بها ابن الأنباري في تمحيص المعنى وتأصيله، وهذا المحور يقع تحت فهرسين، الأول عن الأعلام والقبائل وقد رتب هجائيا، والثاني عن البلدان والمواضع ونحوها، ورتب هجائيا كذلك.

وبعد دراسة كل هذه الفهارس التي قام بها المحقق واستخراج جملة إحصاءاتها نجد أنها تكشف عن النتائج الواردة في الجدول التالي:

الفهرس	موضوع الفهرس	عدد مرات الورود
القرآن الكريم	المواطن اللغوية التي استشهد فيها بآيات القرآن الكريم	٢٧٥
	الجذور اللغوية لمواطن الاستشهاد	٢٠٣
الحديث الشريف	الاستشهاد بالأحاديث في مواطن لغوية مختلفة	٣٢
	الجذور اللغوية لمواطن الاستشهاد	٣٢
الأمثال	الاستشهاد بالأمثال في مواطن لغوية مختلفة	٥٠
الأشعار	الأبيات الشعرية التي وردت في الشروح	١٠٣٨
	أسماء الشعراء الذين ذكرهم المحقق ولم يذكرهم ابن الأنباري	١٧٩
الأرجاز	أبيات الرجز التي وردت في الشروح	١٦٥
	أسماء الراجزين الذين ذكرهم المحقق ولم يذكرهم ابن الأنباري	٣٥
	ماورد في صلب الكتاب من جذور لغوية	١٥٧٩
اللغة	ماورد في صلب الكتاب من فروع الجذور اللغوية	٣٠٧٤
	ماورد في الحواشي من جذور لغوية	٢٨٨
	ما ورد في الحواشي من فروع لغوية	٣٥٥
المسائل	الجذور	٨١
اللغوية	الفروع	٢٢٢
الأعلام والقبائل	ذكرهم والاستشهاد بآرائهم	٩١٥
البلدان والمواضع	ذكرها في الشروح	٢٧٤

ويكشف هذا الجدول الذي أخذ عند فهارس المحقق عن النتائج التالية:

أولاً: عنى ابن الأنباري بالتحليل اللغوي عناية كبيرة، فقد احتل فهرس اللغة كما هو واضح من الجدول أعلى نسبة في عدد مرات الورود، على مستوى الجذور وعلى مستوى فروعها. فقد بلغ عدد الجذور اللغوية لما شرح من مفردات (١٥٧٩) جذراً، بينما بلغ عدد مفردات هذه الجذور (٣٠٧٤) مفردة، وهذا دال على أن ابن الأنباري كان إمام لغة، رأي أن أهل زمانه في القرنين الثالث والرابع الهجريين ينشدون فهم ما استغلق من مفرداتها. وقد دفعه إلى هذا المنحى اللغوي في منهجه عاملان، الأول مستوى الثقافة اللغوية في ذلك العصر بعد دخول العجمة إلى اللغة العربية، بسبب اختلاط العرب بالأعاجم، وهذا أحد مظاهر الاتجاه العام الذي قصد إلى حماية لغة القرآن الكريم بوضع قواعد العلوم اللسانية كالنحو والصرف والبلاغة. أما العامل الثاني فكان الاتجاه التعليمي الذي شاع في هذه المرحلة من مراحل الثقافة العربية، حيث يأخذ العالم عن الرواة وعن شيوخه، ويقدم لتلاميذه ويعلمهم.

ويكشف عن ذلك المستوى الثقافي اختلاف مستوى التحليل اللغوي من شاعر إلى آخر، وقد ارتبط ذلك بمدى شيوع المفردات اللغوية غير المتداولة كثيرا في كلام معاصري ابن الأنباري، فقد كثر التحليل اللغوي في قصيدة امرىء القيس بشكل يفوق بقية القصائد، يليه في ترتيب تنازلي حسب نسبة التحليل طرفة بن العبد، ثم زهير بن أبي سلمى، ثم عنترة بن شداد، ثم لبيد بن ربيعة، ثم الحارث ابن حلزة، ثم أقلهم جميعا، وهو عمرو بن كلثوم.

وينم هذا الترتيب عن المستويات اللغوية للقصائد نفسها، وعن المستوى اللغوي للعصر، وحاجته إلى منهج تعليمي عند دراسة هذه القصائد، فلو قارنا بين شرح معلقة امرىء القيس، وشرح معلقة عمرو بن كلثوم، للاحظنا فرقا كبيرا في المستوى اللغوي، فشرح معلقة امرىء القيس ـ وهي اثنان وثمانون بيتا ـ يطول إلى ضعف شرح معلقة عمرو بن كلثوم ـ وهي أربعة وتسعون بيتا ـ وهذا الطول في شرح معلقة امرىء القيس ناتج عن المستوى اللغوي للمفردات المستخدمة في بناء الأبيات، فهي من معجم يوغل في الصعوبة، ويضم كثيرا من الألفاظ البعيدة عن

الاستخدام الشائع المألوف في لغة العرب أنذاك، إلى جانب كثرة الأساليب التي تستدعي مناقشة قضايا في النحو واللغة والتصريف، ومن هذه القضايا لغات الاسم المنادي التي وردت عند شرح الاسم المنادي (أفاطم)[٨٤] في قول امريء القيس:

أفـاطمُ مَهْـلاً بَعْضَ هـذا التـدلُّـلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صُرْمى فأجْمِلي[٨٥]

وقضية (رب)[٨٦] و (لاسيما)[٨٧] في قول امريء القيس:

ألا ربَّ يـومٍ لـك منهنَّ صـالـحٍ ولاسيمـا يـومٌ بـدارةِ جُلْجُـلِ[٨٨]

وهذه القضايا تتطلب الاستناد إلى روايات كثير من آراء اللغويين والنحاة، والاستناد كذلك إلى الروايات الشعرية المتعددة، حيث يروى البيت أو جزؤه أحيانا بأكثر من وجه، ولكل وجه توجيه خاص باللغة والمعنى.

ومن مفردات معجم امريء القيس في قصيدته تأتي هذه المجموعة دليلاً على المنحى اللغوي عن ابن الأنباري: (أَنَابيش - بَعَا - مِزَمَّل - ضارِج - مَدَاك - عُنصَل - الغبيط - ثَبِير - العُذَيْب - مَكَاكِيّ - فُلْكة - الذُّيال - خُذْروف - العِياب - بِجاد - الكَنَهْبَل - مُلَاء - الوَنَى - الكديد - مصَام - المُركّل - الذَّيْل - اهتزام +- اللِّبْد - الخليج).

وتأتي الرواية الشعرية دليلاً آخر على تأكيد المنهج اللغوي عند ابن الأنباري، ففي قول امريء القيس:

وإن شـفـائـي عـبـرة مُـهَـرَاقـةً فهـلْ عنـد رسمٍ دارسٍ من مُعَـوَّلِ

يقول ابن الأنباري: ويروى «وإن شفائي عبرة إن سفْحتها» ومعنى سفحتها: صبيتها، قال الله عز وجل ﴿أودماً مسفوحا﴾ وقال الشاعر:

أقـول ونضـوي واقف عنـد رمْسهـا عليك سلام الله والعيْن تسفـحُ[٨٩]

---

(٨٤) شرح القصائد السبع ألطوال ٤٢ - ٤٤.

(٨٥) السابق ٤٢.

(٨٦) السابق ٣٢ - ٣٣.

(٨٧) السابق ٣٣.

(٨٨) السابق ٣٢.

(٨٩) السابق ٢٥ - ٢٦.

وفي قوله:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صُرْمي فأجملي

يروى «وإن كنت قد أزمعت قتلي فأجملي» ويروى كذلك «وإن كنت قد أزمعت هجري»[٩٠].

وفي قوله:

تجاوزتُ أحراسا إليها ومعشرا عليَّ حِراصًا لو يُسِرُّون مقتلي

يروى «يُشرُّون مقتلي» بالشين، أي يُظهرن[٩١].

وفي قوله:

فقالت يمين الله مالَكَ حيلةٌ وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

روى الأصمعي: «وما إن أرى عنك العَمَاية»[٩٢].

وفي قوله:

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جَنْدلِ

يروى: «كأن نجوما علقت في مصامها»[٩٣].

وفي قوله:

فقلت له لما عوى إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تموّل

يروى «طويل الغنى» أراد همتي تطول في طلب الغِنى[٩٤].

---

(٩٠) السابق ٤٢ ـ ٤٤.
(٩١) السابق ٤٩.
(٩٢) السابق ٥٢.
(٩٣) السابق ٧٩.
(٩٤) السابق ٨١.

وفي قوله:

على الـذُّبْـلِ جيَّـاشٌ كـأن اهتـزامـه إذا جـاش فيـه حَمْيُــه غَلْيُ مِـرْجَـلِ

يـروى الأصمعي وأبو عبيـدة: «على العَقْب جيَّـاشٌ» ويـروى «عـلى الضُّمْـر جياش»(٩٥).

وفي قوله:

ورُحْنـا وراح الـطرف يـقصُـرُ دونــه متى مـا تـرقَّ الـعيـنُ فيــه تَـسَهَّـلِ

روى الأصمعي وأبو عبيدة: «ورُحنا وراح الطرف ينفُض رأسه»(٩٦).

وفي قوله:

وألـقى بـصحـراء الـغبـيط بَـعَـاعَـهُ نُـزُول اليمـاني ذي العِيـاب المُحَمَّـلِ

روى الأصمعي: «كصرح اليماني ذي العياب المخوَّل»(٩٧).

ثانيا: وظف ابن الأنباري الشواهد النصية من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال والأشعار والأرجاز، لخدمة الشرح اللغوي، وشرح معاني الأبيات، فهي شواهد تؤكد شروح القصائد السبع، وتؤكد المواد اللغوية التي ترد في شرحها، وقد بلغ عدد مرات ورود هذه الشواهد (١٥٦٠) ستين وخمسمائة وألفا، كان الشعر أكثرها جميعاً، حيث بلغ عدد مرات وروده (١٠٣٨) ثمانيا وثلاثين وألفا، وكان الحديث الشريف أقلها ورودا حيث بلغ (٣٢) اثنين وثلاثين مرة.

في قول امرىء القيس:

وليـل كمـوج البحـر أرْخـى سـدولـه علـيَّ بـأنـواع الـهمـوم لـيبـتـلي

يقول ابن الأنباري في الشرح: وقوله ليبتلي معناه لينظر ما عنده من الصبر والجزع، قال الله عز وجل: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ معناه واختبرناهم

(٩٥) السابق ٨٥.
(٩٦) السابق ٩٨.
(٩٧) السابق ١٠٨.

بـالخصب والجدب، وقـال الله تبارك وتعـالى: ﴿يـوم تبـلى السرائـر﴾ معنـاه تختـبر السرائر، وقال أبو الأسود:

أريـتَ امـرأً كـنـتُ لـم أبْـلُه   أتـاني فقـال اتخـذني خـليـلا[98]

وفي قول طرفة بن العبد:

وإني لأمضـي الهـمّ عنـد احتضـاره   بعـوجاء مـرقـال تـروح وتغتـدي

يقـول ابن الأنباري في شرح كلمـة «الهم» ويقـال: همني الأمـر إذا أذابني من قـولهم: قـد انهمّت الشحمـة في النـار، إذا ذابت، ويقـال لما ذاب من الشحم: الهاموم. قال الراجز:

وانْهمَّ هـامـومُ السـديف الـواري[99]

وفي قول طرفة بن العبد:

فـمـرّتْ كهـاةٌ ذاتُ خيْفٍ جُـلالـةٌ   عـقيـلةُ شيـخٍ كـالـوبيـل يَلَنْـددِ

يقـول ابن الأنباري في شرح كلمـة «الوبيـل»: الوبيـل العصـا، ويقـال هي العصا الطويلة الغليظة، أي قد يبس هذا الشيخ حتى صـار مثل العصـا، والوبيـل أيضا: الحُزْمـة من الحطب، وهي الإبّـالة أيضـا، والإيبالـة، ويقال: «ضِغْثٌ عـلى إيبالة» و «ضغث يزيد على إبالة» أيضا، قال الشاعر:

لـي كـلَّ يـوم مـن ذُؤالـهْ   ضِـغْـثٌ يـزيـد عـلى إبّـالـهْ[100]

وفي قول عنترة بن شداد:

هَـزِجًـا يَـحُـكُّ ذراعـه بـذراعـه   قَـدْحَ المكبِّ على الـزنـاد الأجـذمِ

قال ابن الأنباري في شرح كلمة الأجذم: والأجـذم: المقطوع اليـد، جاءت

(٩٨) السابق ٧٤ ـ ٧٥.

(٩٩) السابق ١٤٩.

(١٠٠) السابق ٢١٩ ـ ٢٢٠.

في الحـديث: «من حفظ القرآن ثم نسيـه، لقى الله تعـالى أجـذم» أي مقـطوع اليد[101].

ويلاحظ هنا قيـام ابن الأنباري بتـوظيف الشواهـد النصية في خـدمة الشرح اللغوي وتوضيح المعنى؛ حيث استعان بالقرآن الكريم، فاستشهد بقولي تعالى (يوم تبلى السرائر) عنـد شرح كلمة «ليبتلي» في بيت امريء القيس، وفي شرح الكلمـة نفسها استعان بالأشعار، واستشهد بقول أبي الأسود:

أَرَيْـتَ امـرأ كـنـت لـم أَبْـلُه أتـانـي فـقـال اتـخـذني خـليـلا

وفي شرح كلمة انهمَّتْ المشتقة من الهمّ عند طرفة استعان بالأرجاز واستشهد بقول الراجز:

وانهمّ هامومُ السديف الواري.

وفي شرح كلمة «الوبيل» ومشتقاتها في بيت طرفة استعان بالأمثال، واستشهد بالمثل «ضغث على إبالة».

وعنـد شرح كلمة «الأجـذم» في بيت عنترة استعـان بالأحـاديث، واستشهـد بقول الرسول ﷺ: «من حفظ القرآن ثم نسيه لقى الله تعالى أجذم».

ثالثا: أظهرت إحصائية فهارس التحقيق أن عدد مـرات ورود الأسماء الخـاصة بالأعلام والقبائل قد بلغ خمس عشرة وتسعمائـة مرة، وحـددت هذه الفهـارس أن شيـوخ ابن الأنباري الذين ورد ذكـرهم في الشرح، واعتمـد عليهم ابن الأنبـاري وروى عنهم وأخذ، بلغ عددهم تسعة وهم:

- أحمد بن محمد الأسدي.
- أحمد بن يحيى ثعلب، أبو العباس.
- أبو شعيب الحرّاني.
- عبدالله بن خلف ـ أبو بكر.

---

(١٠١) السابق ٣١٥.

ـ القاسم بن محمد الأنباري، والد ابن الأنباري.
ـ الكُدَيْمِيّ ـ أبو العباس محمد بن يونس الكُدَيْمِيّ.
ـ محمد بن أحمد بن محمد المقدميّ.
ـ موسى بن محمد الخياط ـ أبو عمران.
ـ موسى بن يحيى الكاتب.

أما الذين روى عنهم أكثر من غيرهم وليسوا شيوخه فهم على وجه التحديد:

ـ أحمد بن عُبْيد بن ناصح، أبوجعفر.
ـ ابن الأعرابي، أبو عبدالله.
ـ الأعشى، أعشى قيس (شاعر روى عنه شعرا في استشهاده).
ـ امرؤ القيس بن حجر الكندي، الملك الضليل.
ـ جرير بن الخطفي، أبو حزرة (شاعر).
ـ ذو الرمة. (شاعر).
ـ زهير بن أبي سلمى (شاعر).
ـ طرفة بن أبي سلمى (شاعر).
ـ طرفة بن العبد (شاعر).
ـ الطوسي، أبو الحسن علي بن عبدالله بن سنان الطوسي، وكان كثير الأخذ عن ابن الأعرابي.
ـ عبدالملك بن قريب الأصمعي.
ـ العجاج (شاعر).
ـ أبو عمرو الشيباني.
ـ عمرو بن المنذر بن ماء السماء.
ـ أبو محمد التوَّزيّ.
ـ محمد بن القاسم الأنباري، أبو بكر.
ـ معمر بن المثنى، أبو عبيدة.
ـ النابغة الذبياني، (شاعر).
ـ يحيى بن زياد الفراء.
ـ يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت.

«من التهذيب اللغوي»

أ.د. محمد بدوي المختون
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

أحمد الله تعالى أن أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فحفظ اللغة العربية وصانها من الخلل وبعد.

فإن اللغة ظاهرة اجتماعية، ترقى برقي الإنسان وتنحط بانحطاطه، بل قد تنتهي كلية، فحينما تسير اللغة سيرها الطبيعي تنمو بعوامل اجتماعية مختلفة وبمواضعات من العلماء كالنحت والاشتقاق والقياس وغير ذلك مما ليس مجاله هنا. وإنما أعمد إلى شق من هذا التطور هو الذي يسير باللغة من ظاهرة التخصيص إلى التعميم، ومن ظاهرة التحديد إلى التشعب والاختلاط والاتساع باللهجات المختلفة والاعتداد بها جملة، وأثر بالاسلام وما جد من العلوم ومصطلحاتها وتطورها سواء كان ذلك في الناحية الدلالية أو اللفظية، أضف إلى ذلك دخول التصحيف والتحريف على مدى عصورها المختلفة، اللذين لا يخلو منهما كتاب علمي، ولكل منهما مدلول خاص.

فالعسكري (ت ٣٨٢هـ) قد ألف في ذلك، ووضع حدا فاصلا بينهما، قال: «شرحت في كتابي هذا الألفاظ والأسماء المشكلة التي تتشابه في صورة الخط فيقع فيها التصحيف، ويدخلها التحريف (التصحيف والتحريف ص٣) كما قال: «فأما قولهم الصحفي والتصحيف فقد قال الخليل: إن الصحفي الذي يروى الخطأ عن

قراءة الصحف باشتباه الحروف. وقال غيره أصل هذا أن قوما كانوا أخذوا العلم عن الصحف من غير أن يلقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير، فيقال غيّره: قد صحفوا أي رووه عن الصحف وهم مصحفون والمصدر التصحيف (ص٩) وإذن فالتحويل الذي ينشأ من تشابه صور الخط يسمى تصحيفا، أما تغيير الياء بالهمزة في نحو: روأت في الأمر وهو من ترويت من الماء بغير همز فهذا تحريف. وأوضح فرق بينهما ما قاله ابن حجر في (شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ص٣٢): «أن كانت المخالفة بتغيير حرف أو حروف مع بقاء صورة الخط في سياق فإن كان ذلك بالنسبة إلى النقط فالمصحف وإن كان بالنسبة إلى الشكل فالمحرف «ذلك لأن حروف العربية تتشابه في الصورة كالباء والتاء والثاء حيث تأخذ رسما واحدا ويفرق بينها بالنقط كما هو معهود في أمثال ذلك من الدال والذال والسين والشين الخ. وقد يطلق التحريف على ما يسمى لحنا وهو يقع في الضبط بالحركات، وقد يقع بتغيير شكل الحروف ورسمها كالدال والراء مما تقاربت صورته، واللام والعين مما تباعدت صورته وللتصحيف والتحريف صور كصيرة (انظر تحقيق النصوص ص ٥٠ ـ٥٤).

ومن هذا الشق الذي أتناوله هنا بالبحث والدراسة: التأثير والتأثر مع اللغات الأخرى مما أبقي أثره فيها حتى رميت لغتنا العربية بالغنى غير المجدي من ناحية، وبالإقفار المزري من ناحية أخرى، في القديم على يد الشعوبيين، وفي العصر الحديث على يد أصحاب الكيد من أعدائها.

ولقد تحدث علماء العربية عن أصلها ونشأتها وواضعها على أقوال منها: أنه الله سبحانه وهو مذهب ارتضاه ابن فارس في الصاجي ففيه باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟ (ط. السلفية ص٥) وهو كذلك رأى أبي علي الفارسي ومعاصريه كابن درستويه، وهو رأي الأشعري وأتباعه وابن فورك واعظ أصبهان. أو الواضع البشر وهو مذهب أبي هاشم ومن تبعه من المعتزلة فهي عنده اصطلاح من الواضح. أو كان الابتداء من الله وما بعده اصطلاح. أو عكس ذلك كما هو مذهب الاسفراييني. وثالثها أقرب إلى العقل والتمشي مع سنة الطبيعة. أو أن الألفاظ دلت بطبيعتها وذواتها على المعاني، وهو مذهب عباد الصيمري. وقديما قال سقراط بالعلاقة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني، مما عقد له ابن جني «باب في إمساس

الألفاظ أشباه المعاني (الخصائص ٢/١٥٢، ١٥٣) فما بعدها، قال فيه: «فكأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة فقالوا صرّ، وفي صوت البازي تقطيعا فقالوا صَرْصَرَ والمصادر التي على فَعَلان تأتي للاضطراب والحركة كالغليان قابلوا بتوالي حركات الأمثال توالي حركات الأفعال. والمصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرار كالقلقة ونحوها، وتكرير العين نحو بشّر، جعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى. والخضم لأكل الرطب والقضم لأكل اليابس، اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس فهناك فروق ضاعت مع مرور الزمن وأصبح للعوام لحن وللخواص لحن. أما ابن جني فقد ذهب إلى محاكاة اللغة أصوات الطبيعة والمسموعات من دوى الريح وخرير الماء. . . وقد حار في ذلك لما يرى فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة مما يدعو إلى التوقيف إلى آخر ما ذهب إليه، وقديما قال أفلاطون بالتوقيف.

وقد بنوا على هذه الآراء آثارا عملية في هذه اللغة، فهل وجدت دفعة واحدة أو مجزأة، وتطورت أو لم تتطور، وهل يجوز الاشتقاق فيها أو لا يجوز. والقلب هل يمنع مطلقا كما هو مذهب التوقيف. وقديما رتب ابن درستويه القول بإبطال القلب والزيادة والترادف والأضداد على القول بأنها الهام وتوقيف، وكذلك الذين ينفون الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى قالوا بوقوع الأضداد في اللغة، وغيرهم عكس ذلك.

هذا وهي بوصفها لغة سامية كانت أقرب إلى الأصل الذي تشعبت عنه الساميات لأسباب معلومة، إلا أنها لم تقف جامدة على مر العصور فقد طرأت عليها عوامل غيرت من معالمها ووسعت دائرتها من ناحية، وجعلتها ثابتة من ناحية أخرى. . . ولذا قسمت إلى عصور سياسية من جاهلية وإسلامية وفروعهما حسب تطورها، وقسمها جورجي زيدان إلى ثمانية أدوار: ثلاثة منها ترجع إلى الزمن والخمسة الباقية إلى الألفاظ نفسها، مع مراعاة تداخل العصور، كما أن الكسب اللغوي ضئيل إلى جانب خسائر من نواح أخرى، مع ملاحظة أن الزمان واتساعه أرفع من المكان في مرتبة التجديد، فالخلاف بين جيلين في مكان واحد أوضح منه بين جيل واحد في مكانين مختلفين.

إذن ما مظاهر اللغة المتطورة؟ نجد ذلـك في دخول الأعجمي فيهـا، والتغيير في الألفاظ وفي الدلالة، أو التضييق فيها أو التعميم، مـع سعتها بعـوامل النمـو من مثل القلب والنحت والإبدال وما إلى ذلك.

فتـطورها ـ لأنها ظـاهرة اجتـماعية ككـل ظواهـر المجتمع ـ كـان بالاحتكـاك باللغات الأخرى والاستعارة منها إذ اللغة انعكـاس للضمير البشري، فتـطورت في حدَّي التطور بالنقص والكمال النسبيين، ولم يكن ذلك إلا مظهرا من مـظاهر تـطور الجماعة فالعرب لم ينعزلوا انعزالا كاملا إذ تعامل تجار مكة مع الآراميـين في دمشق، ومـع الفرس في الحـيرة والمدائن، ومـع سبأ وحمـير في اليمن. وكـانت الآراميـة أهم لغـات النصرانية التي اعتنقهـا بعض قبـائل العرب، وكـانت الحبشيـة من اللغـات النصرانية أيضا، ونقشا النمارة في الحرة شرقي جبـل الدروز تـأثر خـطه بخط نبطي وقد حكى القرآن عن قريش رحلاتهم إلى الشـام شمالا وإلى العـراق ومصر وجنوبـا إلى اليمن وشرقـا إلى خليـج فـارس ومـا وراءه وغـربـا إلى بـلاد الحبشـة، ويكفينـا الاجتماع حول الكعبة وفيهم الهندي والفارسي والأنباطي واليمني والحبشي والمصري بالاضافة إلى جاليات اليهود والنصارى، فاستعـارت العربيـة وأعارت واقتبست من لغة الفرس أكـثر من غيرهـا، ودخلتها مصـطلحات في أغـراض متعددة كـالديـوان والمرزبان والفرسخ، وألفاظ دينية كالجناح والدين والمجوس، والنـيروز والصولجـان والمسك والديبـاج والاستبرق والابـريسم وإبليس والقرطـاس، والقرآن صـوّر ذلك كله (انظر اللغات في القرآن رواية اسماعيل بن عمرو وانظر رسالة مـا ورد في القرآن من لغات القبائل لأبي القاسم بن سلام بهامش الجلالين. طبع الحلبي).

وعن أثـر الإسـلام في تـطورهـا حـدّث ولا حَـرَج، إذ وسعهـا بمـا جـدّ من مصـطلحات اسـلامية كـالفاسق والمنـافق والصلاة والـزكاة والحج مما صـار حقائق شرعية، كما هذبها بموت ألفاظ جاهلية بموت معانيها ومدلـولاتها كـالمربـاع والنشيطة والفضـول (انظر كتـاب الزينـة لأبي حاتم) واستـدعت العلوم العربيـة والاسلاميـة مصطلحات كالسجود والركوع والايلاء والظهار والتعزيـز والاباق، وأخـرى لغويـة كـالنحو والعـروض والإعراب والـرفع والنصب والخفض والمجـاز إلى غير ذلـك مما اقتضتـه الدواوين ورسـوم الملك كالكتـابة والحجـاجة والإمـارة والحسبـة والجبـايـة والخـراج والتوقيـع الخ. وقـد غـير الـرسـول ﷺ كلمات مستقبحـة إلى أخـرى من

أضـدادها. أمـا اللهجات فيكفي في تشعبهـا نص الفارابي في صـدر ديوان الأدب.
قال ابن فارس: «. . . وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة العربية فهذا غلط لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ (الصاحبي ص ١٢ وما بعدها).

وممن فخر بسعتها أبو حيان التوحيدي في مقايساته مقايسة ٨٨ ثم ذهب ابن فارس يذكر الاستعارة والتمثيل في القرآن وأنه لا يمكن نقله إلى لغة أخرى ـ وكذلك فعل ابن قتيبة في مشكله ـ ثم ضرب ابن فارس الأمثلة المختلفة لما اختصت به لغة العرب من قلبهم الحروف عن جهاتها، وتركهم الجمع بين الساكنين والادغام والترادف وبعض التعبيرات الخاصة بهم مما عده علماء العرب ميزات وخصائص للعربية، في حين عدّه الطاعنون عليهم من عيوب اللغة، فانتهز الشعوبيون ذلك، فعابوا فيها القلب والترادف والأضداد وما إلى ذلك. وتكثر علماء العربية بذلك كالسجستاني والصاغاني فهما يثبتان الأضداد جميعها حذار أن يقال أهملا شيئا مما أثبته السابقون عليهما. وقريب من ذلك ما قاله ابن الأنباري (أضداده ص ١١) وقد رأى البطليوسي أن القول بإبطال الأضداد كلام لا يصح أن يتشاغل به، وهذه نزعة جمود منه بها قد حرمنا من مناقشة تراث لغوي ضخم، لو نقله على عهدة قائلة لأفدنا منه الكثير، وكرر هذه النغمة عندما ناقش ابن جنبي في اختيار العرب القضم لأكل اليابس والخضم لأكل الرطب. قال «فإذا كان الأمر على هذا السبيل كان التشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة فيه (الاقتضاب ص ١٥٨ ، ١٥٩) وهذا يظهر نزعته في التكثر بالأضداد وعدم الفروق والجمود ومحاربة الجديد والاعتراض دون اقامة الدليل إلا جوابه التقليدي السلبي «ولا يصح التشاغل به».

كما كان لاختلاف الأقطار التي تتكلم العربية والمذاهب الكلامية أثرهما فيها، فالأندلسيون يسمون النرجس البهار واسمه في اللغة العبهر، والزمخشري المعتزلي يرى أن جعل بمعنى خلق وأرادها بهذا المعنى في خطبة كشافة، وجعلوها بمعنى بين لا بمعنى فعل في قول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا على ثبت من أمرهم حيث يمّموا

وجعل الزمخشري «لن» للنفي مع التأبيد والتوكيد توصلا إلى نفي رؤية الله تعالى (انظر التاج «لن»).

وارتضى المعتزلة قراءة «أنا كل شيء خلقناه بقدر» بالرفع في كل لإفادة الخصوص تمشيا مع مذهبهم في خلق الأفعال، دون قراءة النصب المفيدة للعموم وكذلك ارتضوا قراءة «من شر ما خلق» بالتنوين بغير إضافة لنفيهم خلق الله الشر المرتبطة بقضية الصلاح والأصلح.

وهجرت على مر الأيام ألفاظ ورفضت أصول لبعض الكلمات مما زاد اللغة تعقيداً، فقد كان بعض النحاة يرى أن الكلمة تروي على ما هي عليه فذلك أيسر من الرجوع إلى الأصل كقول الشاعر: * أري عيني مالم تر أياه * فرأى الزجاج أنه رده إلى أصله، ورأى المازني أن يروي بغير همز تخفيفاً: ما لم ترياه. لأن الزحاف عنده أيسر من الرجوع إلى أصل الكلمة، إذا استعمل الأصل المرفوض عندهم ضرورة في نحو: فإنه أهل لأن يؤكرما - وصاليات ككما يؤثفين - وبلال خير الناس وابن الأخير - وعلى هذا الأصل المرفوض وجه ابن جنى قراءة «من الكذاب الأشر» بتشديد الراء. وأماتت العرب ماضي يدع ويذر، ولم تستعمل المصدر من يذر بالشيء وعسى وليس، واستغنوا عنه بأن والفعل، كما أميت الثلاثي من اكلأزّ.

وإذن فقد قامت القواعد وأصلت بعيدة عن الأصل اللغوي، ودارت الفصاحة عندهم على كثرة الاستعمال فقعّدوا على الموجود دون المفقود، مع أن المفقود قد يكون هو الأفصح، ولذا رأي ابن درستويه أن الفصاحة ليست في كثرة الاستعمال وإنما الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس فالعرب قد تستغني بفصيح عن فصيح آخر.

كما كانت هناك عوامل بلاغية كالمجاز الذي لم يفرق العرب بينه وبين الحقيقة التي تتبادر إلى الذهن من أول وهلة. وهناك روايات تشير إلى الخلط بين الحقيقة والمجاز خاصة عند خفاء القرينة. ونشأت أساليب تنوسي أصلها وكانت في مناسبات خاصة كرفع عقيرته بالغناء، وكذلك ما ارتبط بعادات قديمة كقولهم للمعرس: بانٍ وقد بنى بأهله ومثل ذلك كلمات الراوية والوغى والقحبة والنجو والغائط والظعينة مما يدخل في باب التأريخ اللغوي للألفاظ، وهو سلسلة نفتقدها

في العربية ونحن أمام ذلك بين أمرين: أما العلم بأصلها أو الجهل بـه، فمما نعلمـه مبدأ الكناية من قول الجعدي:

أكنى بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكتتم

وعندما تقدم عمر ألا يشبب رجل بامرأة كنى حميد عنها بالسرحة في قوله:

أبي الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العضاة تروق

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح مأخوذ عليّ طريق

وانظر مات حتف أنفه، وأسقط في يده، وهم كأسنان المشط، ويكني عن السؤال بالزوار عند البرامكة. وهكذا بشيء من الصبر نعرف تاريخ هذه الكلمات والتعابير والأساليب ونقف على السر فيما عد شاذا لمنها مما جعل اللغة في حاجة إلى تهذيب، فالعلماء فريقان: منهم من يأخذ اللغة على ظاهرها ومنهم من يراعي تطورها فعلى كل باحث أو متكلم بها مراعاة ما سبق من قول حتى لا يخلط و لايغلط.

كما كان للنادرة والمثل أثرها فقد عدت فيها الضرائر كضرائر الشعر فألحقا به من ذلك (انظر الكنايات للثعالبي ص ٤٢، ٤٣ ودّرة الغواص للحريري ص ٨٣)، قال المرزوقي في شرحه للفصيح: «المثل جملة مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر ما لا يستجاز في سائر الكلام» كما قال: «من شرط المَثَل ألا يغيير عما يقع في الأصل عليه (المزهر. صبيح ١ / ٢٨٨، ٢٨٩) كما وقع فيها الازدواج الذي قد يغير مبنى الكلمة إلى مبنى كلمة أخرى قد تضادها في المعنى لأجل المجاورة والمحافظة على الموازنة وأمثلته كثيرة جدا.

وهناك عدة عوامل ترجع إلى طبيعة اللغة ذاتها ووسيلة توارثها من نحو:

أ ـ طبيعة الحروف: التي تتشابه فيها الرسوم مما كان مدعاة للتصحيف والتحريف، يضاف إلى ذلك اختراع الشكل كان نقطا، فاختلطت سمل

وشمـل فقالـوا سمل بـين القوم أصلح بينهم، وسمـل بنيهم أفسد فـوقعـوا في الأضداد وهذا كثـير جدا. وسمت وشمت: فلما استـد ساعـده رماني ـ وروي اشتـد ساعـده، والسطرنـج والشطرنـج، ويستبيلهـا ويشتبيلهـا، وتصـطحب وتصطخب، وتعتز وتعتر ـ وأنك لابن بالصيف تامر ـ وتامُرْ، وساعد عـلى ذلك أن العرب كانت تحمل على الألفاظ لصحة المعاني مع ما عرف عنهم من العناية بالألفاظ كذلك. أضف إلى ذلك قرب مخـارج الحروف أحيـانا وكـرههم للنقط والشكـل، جاء في الـرسالـة العذراء لابن المـدبر: «إيـاك والنقط والشكـل في كتـابك، ألا أن تمـرّ بالحـرف المعضل الـذي تعلم أن المكتوب إليـه يعجـز عن استخراجه، فلأن يشكل على الحرف أحب إلي من أن يعاب بالنقط والاعجام» وقال المأمون لكتابه:

إياكم والشونيز في كتبكم ـ يعني النقط والاعجام ـ» قال ابن هانيء:

لم تـرض بـالإعجـام حين كـتبتـه حـتى شكـلت عـليـه بـالاعـراب

وكانوا يعتقدون أن نقط الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه.

ب ـ الفـروق: فقد فـرقت العرب بـين المعاني بـالحركـات، فَضُحَكَة بـالتحريـك للفاعل أي الكثير الضحك وهي بتسكين الحاء للمفعـول أي الذي يضحـك الناس منه كثيرا وكذلك سُبَبَه وسُبّـه، وحمل بـالكسر للمنفصل وحمـل بالفتـح للمتصل. وفرقوا بين المشترك بالمصادر فبغى الشر، إذا طلبه بغية إذا ظلم بغيا بالفتح. وبغى الضالة بُغاية بالضّم، وانظر مصادر وجد من الوجود والوجدان والجدة والوجـد، وقنع يقنـع قناعـة، وقنع قنـوعا بمعنيـين متضاديـين: رضى وسأل. وفرقوا بالجموع لاختلاف المعنى، فالشجن بمعنى الحزن جمعه أشجان، وبمعنى الحاجة جمعه شجون، قال الشاعر:

ذكـرتك حين استـأمن الوحش والتقت رفـاق من الآفـاق شتى شجـونـهـا

وقال آخر:

أنـرى الزمـان كمـا عهـدت بـوصلكم يـومـا يـجـود لتـنقـضي أشجـاني

وقالوا الحديث ذو شجون: أي فنون وأغراض. وحزِن قام بـه الحزن وحَـزَنه

الأمر: جعله يحزن.

جـ ــ اختصار الكلمة والاحجاف بها: اختصرت العرب الكلمة: قلنا لها قفي قالت قاف ـ من وُرْق الحمى ـ لم أسمع بها صوت ياسين ـ أي انسان. وفي الحديث: كفى بالسيف شا، وحينئذ الآن. بل ان ابن عباس ذهب إلى أن الحروف المقطعة في أوائل السور إنما هي اختصار لأسماء الله تعالى اختصرت من رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك.

د ــ **الاشتقاق**: اشتقت العرب من الجوامد: مهرجونا كل يوم، نيروزنا كل يوم. تحجّر الطين. رآه ضرب رئته، وظهره وبطنه. وعصاه ضربه بالعصا، وساطه ضربه بالسوط، وسافه بالسيف، و أماه السكين سقاه الماء. جلس القوم أتوا المجلس،والمنجد الذي أتى نجدا ـ إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس ـ أي ائت نجدا ـ فغوري أو اجلسي، ثم انتهى بصري وأصبح جالسا، أي أتى السحاب نجدا.

تطور الدلالة: تلك دراسة حديثة بدأها بريل أواخر القرن التاسع عشر واقتصر في دراسته على الجانب الذاتي للألفاظ وأغفلت العوامل الاجتماعية والخارجية ويبدأ يدخل هذا الميدان متخصصون كعلماء النفس والطبيعة والمشتغلون بالصحافة. فالشتاء أرجعه جورجي زيدان في الأصل السامي في الدلالة على الشرب أو الري أو الصبّ، فهي كذلك في العبرانية والسريانية. وكتب في أصل دلالته للحفر في الحجر أو الخشب. والملح من ملح أو ملأ أي نبع الماء ومرء أصل دلالتها في الساميات القوة ومنها إلى الرياسة ثم إلى الانسان وتدل على الرب فقط في السريانية، والبعل أصل دلالته السيد أو الرب، كما أرجح ألفاظ الترادف والأضداد والمشترك إلى تفرع ألفاظ ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل.

هذا وقد أرجع الدكتور وافي العوامل المؤثرة في الدلالة إلى مبلغ وضوح دلالة الكلمة في الذهن وإلى عوامل تتعلق بأصوات الكلمة وأخرى تتعلق بالقواعد، وذكر الدكتور أنيس من عوامل التطور: الاستعجال وسوء الفهم وبلى الألفاظ والحاجة ودوافعها، كما ذكر أعراض التطور الدلالي من تخصيص الدلالة أو تعميمها أو رقيها وانحطاطها أو تغير مجال استعمالها لأسباب ذكرها (دلالة الألفاظ ص ١١٨،

١٩٠) وانظر: (اللغة والمجتمع ص ٨٨، ١٩) فمن أبرز مظاهرها العموم والخصوص، فكثيرا ما انتقل اللفظ من الكل إلى الجزء، أو من الصفة إلى الموصوف. فاللحم في العربية معناه في السامية الطعام عامة فخصصته العرب في دلالته على أهم أصناف الأطعمة عندهم وهو اللحم وصار في السريانية يدل على الخبز. والأصل في طبخ الدلالة على الذبح، واللفظان متشابهان فتحول معناهما في العربية إلى معالجة اللحم للطعام واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها لفظا. وكلمة أحلبت معناها أعانت، قال المرزوقي: وأصله الإعانة في الحلب خاصة، ثم استعمل في الاعانات قال: وقد يكون الشيء مختصا في الأصل ثم يصير في العرف عاما، كما يكون عاما في الأصل ثم يصير مختصا. والدابة في الأصل لكل ما يدب على الأرض، ثم خص بما لا يعقل، وهكذا تبادل الخصوص والعموم التأثير والتأثر.

هذا هو الوجه العام لتاريخ اللغة وما أثر فيها من عوامل.

تهذيب اللغة

مادامت اللغة متطورة بخضوعها للمجتمع لأنها ظاهرة من ظواهره فهي بحاجة إلى التهذيب والاصلاح. فاليونانيون تناولوا لغتهم بالاصلاح على يد سقراط حينما أفقدها السوفساطئيون معانيها بسفسطتهم كما وضع للانجليزية ـ حديثا ـ قواعد وحدودا وأسسا، وأظهر من ذلك كله ماحدث في فرنسا في صدر القرن السابع عشر: «إذ عنوا بتوضيح معاني الكلمات وتحديد مدلولاتها، وبتفريق ما اختلف معناه حتى كاد يغم عليهم أمره، وبتخصيص الجمل بتعابير مستقلة بعد أن كاد بعضها يكون مشتركا، لتستعمل الجملة الواحدة في معان مختلفة من غير تفريق بينها، وحصروا كثيرا من المترادفات في معان مختلفة بحيث أصبح لكل لفظ منها معنى خاص ذلك ما قاله لا نصون مدير دار المعلمين العليا في كتابه تاريخ الأدب الفرنسي. الطبعة الثامنة عشرة (مجلة المجمع العلمي المجلد ٨ ص ٦٠٣ من السنة الثامنة).

هذا ماحدث في اللغات الأخرى، فماذا حدث في اللغة العربية؟

لقد تكلم المرحوم أمين الخولي عن التطور فيها بأنه الجذر العميق للمنهج العلمي اللغوي وأنه يقتضي عملا جبارا، وعرض لقضايا تطورية، وكان حديثه فيها عاما أشبه مايكون بما يسمى اليوم «التخطيط» ونفى أن تكون معاهدنا الجامعية منها وغير الجامعية قد اتجه إلى شيء من أمر هذا التطور اللغوي، كما رأي أن علم الوضع لا جدوى للمشتغلين به اليوم، وأنحى باللائمة على الذين نقلوا عن الغرب أن العربية مرت بأربع مراحل مما يسمى «تهذيب اللغة أو تنقيحها» هذه المراحل هي:

١ ــ ما عمله يعرب بن قحطان.

٢ ــ ما عمله اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام لما أصهر إلى جرهم.

٣ ــ ما عملته قريش لمكانها من الجزيرة في الحرم وانتخابها الأمثل من لغات العرب التي تفد عليها، وبهذه اللغة المهذبة نزل القرآن الكريم.

٤ ــ ما عمله اللغويون في جمع اللغة وقصرها على ما أثر عمن اختار الجمع عنهم من خلّص العرب ومن لا يجاورون الأمم الأعجمية (محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية طبع سنة ١٩٥٨ ص ٤١، ٤٢، ٥٢، ٥٣، ٧٦، ٧٧، ٨٩).

وقد ارتفعت لغة قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ـ وهي قلب الهمزة في بعض كلامهم عينا يقولون أنّ في عنّ، وقد جاءت في:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ... ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وعن كشكشة ربيعة أو أسد ـ وهي إبدال الكاف شينا مثل عليش في عليك، أو الحاق الكاف بالشين عليكش، وعن كسكسة هوازن ونسبت إلى ربيعة وهي وصل كاف بالسين مثل عليكس. وعن تلتلة بهراء، وهي كسر حرف المضارعة كيعلمون، وعن تضجع قيس وهو الامالة والخفض، وعن عجرفيّة ضبّة، والعجرفية التضجع في الكلام (المجالس: تحقيق هارون القسم الأول من ذخائر العرب ص ١٠٠)، ومثل هذه اللغات المذمومة التكلع والغمغمة والطمطمانية والفراتية، والوهم والوكر إلى غير ذلك من اللغات.

وجاء جامعو اللغة فوجدوا أنفسهم أمام لغة موحدة هي لغة قريش ولهجتها،

ولهجات أقوام آخرين يحيطون بها، فجمعوا كل ما سمعوه ولم يفرقوا بين لهجة وأخرى أو قبيلة وقبيلة، فكان من التهذيب أنهم آثروا اللهجات التي هي أشد احتفاظا بخالص اللغة لعدم مخالطتها الأجانب أو لصفاء لهجتها وتميز لغتها قال أبو نصر الفارابي في مقدمة ديوان الأدب «كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس. والذين عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. . . (انظر المزهر. صبيح ١/١٢٨).

فذاك نوع من التهذيب، يعتبر هذه اللهجة ولا يعتبر تلك لأسباب موضوعية، ومع هذه الخطوة حدث ما سردناه في تاريخها، فهب العلماء يؤلفون في التصحيف والتحريف كالعسكري ت ٣٨٢هـ وكذلك صنع الدار قطني ت ٣٨٥هـ في تصحيف المحدثين ومثل كتاب التنبيهات على أغاليط الرواة لعلي بن حمزة البصري ت ٣٧٥ وتراه في مجلة معهد المخطوطات، وفي نشرى النظم الفصيح لابن أبي الحديد، وكتاب الفروق للعسكري ومثل الكتب التي حاربت اللحن، كلحن العامة للكسائي، ولأبي نصر الباهلي ت ٢٣١هـ وألف في لحن الخواص كدرة الغواص للحريري، والجواليقي، وابن قتيبة في أدب الكاتب من تقويم اليد وتقويم اللسان وغير ذلك من الكتب التي حاربت اللحن ولذا قيل عن الفصيح:

كتاب الفصيح كتاب عجيب	يقال لقاريه ما أبلغه
عليك أخيّى به إنه	لباب اللباب وصفو اللغة

وكذلك كتب تثقيف اللسان، ولعل الأزهري لحظ شيئا من ذلك عندما سمى مجموعه «التهذيب». فقد عد كتاب الفصيح أساس مقاييس الصواب اللغوي حتى قال فيه يوهان فك: «. . . يحتوي في ترتيب واضح وأسلوب مختصر على طائفة كثيرة من قوالب اللغة الفصحى التي كانت تهددها إذ ذاك قوالب أقل منها فصاحة، أو قوالب من لغة العامة (العربية. مترجم. ص ١٤١) وقد هذبه واختصره الهروي في «تهذيب الفصيح» وقال الأخفش الصغير علي بن سليمان في أصل الفصيح:

أقمت أربعين سنة أغلط العلماء من كتاب الفصيح (انظر موطئة الفصيح، ورقة ١٦ مخطوط).

ووجدت كتب في المؤتلف والمختلف من أسماء الرجال، كما فعل الدارقطني ت ٢٨٥هـ وأحمد بن علي بن الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ وابن ماكولا ت ٤٨٧هـ وابن نقطة الحنبلي ت ٦٢٩هـ والذهبي ت ٧٤٨هـ في «المشتبه» ومثله ما ذكره السيوطي في البغية في أواخرها ونبه عليه.

ومن ذلك ما جاء في أسماء الشعراء الذي ألفه فيه الحسن بن بشر الأمدي ت ٣٠٧ ومن ذلك مافي أسماء القبائل وفيها ألف محمد بن حبيب ت ٢٤٥ وهذا قُلٌّ من كُثْر.

كان ذلك كله لبنات في صرح التهذيب اللغوي، من محاربة للحن والخطأ وبيان الفروق إلى غير ذلك مما سبق. ولكن عالما واحدا فطن لهذا التهذيب كل الفطنة وهو ابن درستويه، فقد تكلم عما سبق وعن غير ما سبق من خلال تصحيحه للفصيح ـ الذي حققته وحبس بالمجلس الأعلى ما يقرب من خمس عشرة سنة إلى اليوم ـ قابعا في جنبات أروقته. مما أوضح حال اللغة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، مع اعتبار ميزتين هامتين في آرائه هما:

١ ــ تهذيب اللغة الذي لحظه الأزهري في تسمية معجمه.
٢ ــ تطورها واعتبارها كائنا حيا لها تاريخ يعتريه ما يعتري تاريخ الأحياء من ضعف وقوة وحياة وفناء.

كما اعتبر ذلك «فشر» في معجمه الكبير الذي هو أمل الجميع. اكتمل لديه التهذيب إذ عاش قرابة قرن من الزمان مشتغلا بالعلوم العربية والاسلامية، مشاركا في شتى العلوم الدينية واللغوية والنحوية والتاريخية، ورفع راية الرواية، وأعلن حدود الفصاحة، فكان من كتبه اتفاق الألفاظ والمعاني، فأدلج وأدلج استدل بهما على أن المثال لايكون دليلا على الوقت، وإنما هو بمنزلة الإبكار والابتكار والتبكير والبكور في أنه كله العمل بكرة ولا يتغير الوقت بتغير هذه الأمثلة وإن اختلفت معانيها، ومثل الاصباح والاصطباح والتصبح فكلها تفيد العمل في الصبح (تصحيح الفصيح، خط ١/٨٥) وقال أيضا « . . . فإنما تدخل هذه التاء في الفعل

والمصدر لمعان معلومة محدودة عند أهل النحويين فتكون طورا بمنزلة الفعل وطورا بمنزلة أفعل وطورا بمنزلة فعل المشدد ونحو ذلك مما يطول شرحه لا لشيء من الأوقات وتقديمها وتأخيرها، وقد استقصينا ذلك من غير هذا الكتاب بحجج كثيرة من الشعر وغيره (السابق ١/٩٩).

وكتابه فعلت وأفعلت باختلاف المعنى، قال في الباب الخامس: «وهذا الباب عنده - يعني ثعلبا - وعند أهل اللغة أجمعين من باب ما اتفق لفظه واختلف معناه وذلك غلط منهم لأن البناءين إذا اختلفا فقد اختلف اللفظان وإن اتفقت الحروف، وإنما المتفق في اللفظ ما اتفق في البناء، وفي الحروف، فإذا اتفق البناء إن في الكلمة والحروف ثم جاء المعنيين مختلفين لم يكن بد من رجوعهما إلى معنى واحد يشتركان فيه فيصيران متفقي اللفظ والمعنى. . .» (السابق ١/٧٣) وكتابة علل الاشتقاق، قال فيه: «. . . كما فرق بالسين والتاء في قولهم استدنت بين مسألة الدين وبين أخذت بدين حين قلت دنت وأدّنت والأصل واحد. ووجوه هذه الكلمة كثيرة والاشتقاق يردها إلى شيء واحد. . .» (السابق ١/١٠٥).

وكتابة إبدال تعاقب الحروف، الذي تكلم عنه في الباب الثامن المترجم بباب ما يقال بحروف الخفض قال فيه: «فمن ذلك قوله سخرت منه وهزئت به. ومن مذهبه ومذاهب كثير من أهل اللغة أن حروف الجر تتعاقب فيقع كل واحد منهما في مكان الآخر بمعنى واحد، وهذا إبطال حقيقة اللغة وإفساد الحكمة فيها وضد ما يوجبه العقل والقياس، وكل من كان على مذهبهم من أهل التحصيل والمعرفة ينكرون ذلك فإنكار مؤلف هذا الكتاب ماعليه العامة واعتقاده واعتقاد أصحابه دليل على فساد مذهبهم، وقد بينا هذا على الاستقصاء في كتابنا في الرواية التي وضعناها وفي إبطال تعاقب الحروف» (السابق ١/١٢٥) وكتابة إبطال الأضداد الذي أشارت إليه كتب التراجم قال: «. . . وقد زعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا وأنه من الأضداد، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا في إبطال الأضداد وليس هذا موضع ذكره، ثم ذكره مرة أخرى عندما عرض للبيت:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصاً نَبَلا

قال: «وقد بينا من تفسير هذا الشعر وغيره من كتاب ابطال الأضداد مالا

يصلح ذكره ههنا (السابق ١/٢٣٩ ، ٢/٨٠ ، ٨٥) وكتابه فعل وأفعل لم تذكره كتب التراجم ولكنه أحال عليه مرارا في تصحيح الفصيح عند تناول اللفظ «جلا» ولفظة . . طل» قال: «. . . والعامة تقول: أطل دمه بألف، وزعم أهل اللغة أن القولين جميعا جائزان بمعنى واحد، وقد بينا الصحيح من ذلك بحججه من كتاب فعل وأفعل» (السابق ١/٦١). وقد نقل عنه المزهر العبارة التالية: «. . . أو يشبه الفعل بفعل آخر متعد على غير لفظه فيجري مجراه لاتفاقهما في المعنى كقوله حبست الدابة وحبست مالا على المساكين. وقد استقصينا شرح ذلك كله في كتاب فعلت وأفعلت بحججه ورواية أقاويل العلماء فيه، وذكر علله والقياس فيه. . .» (المزهر تحقيق أبي الفضل ١/٣٨٤ - ٣٨٦).

وكتابه الرد على من قال بالزوائد وقال: يكون في الكلام حرف زائد. جاء في البرهان للزركشي: النوع العشرون: معرفة الأحكام التي للكلمة من جهة إفرادها وتركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو. . . والثالث تجنب لفظ الزائد في كتاب الله تعالى أو التكرار ولا يجوز إطلاقه إلا بتأويل كقولهم الباء زائدة ونحوه، مرادهم أن الكلام لا يختل معناه بحذفها لأنه لا فائدة فيه أصلا، فإن ذلك لا يحتمل من متكلم فضلا عن كلام الحكيم. وقال ابن الخشاب في المعتمد: اختلف في هذه المسألة، فذهب الأكثرون إلى جواز إطلاق الزائد في القرآن نظرا إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم وهو كثير، لأن الزيادة بازاء الحذف، هذا للاختصار والتخفيف، وهذا للتوكيد والتوطئة. ومنهم من لا يرى الزيادة في شيء من الكلام ويقول هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها فلا أقضي عليها بالزيادة. ونقله عن ابن درستويه. قال: والتحقيق أنه أن أريد بالزيادة اثبات معنى لا حاجة إليه فباطل لأنه عبث فتعين أن إلينا به حاجة، لكن الحاجات إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد، فليست الحاجة إلى اللفظ الذي زيد عندها ولا زيادة كالحاجة إلى الألفاظ التي رأوها في ذلك عليه، وبه يرتفع الخلاف، وكثير من القدماء يسمى الزائد صلة، وبعضهم يسميه مقحما، ويقع ذلك في عبارة مستوية (البرهان ١/٣٠٥ تحقيق أبي الفضل) وقد نقل السيوطي رأي ابن درستويه فيها مع كلام الزركشي في الاتقان دون نسبة إلى قائله.

وكتاب الكتاب الذي هو في الخط والهجاء قال فيه: خطان لا يقاسان، خط

المصحف لأنه سنة وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه» وقال فيه: «. . . وسميناه كتاب الكتاب إذا كان قصدنا فيه لما يكتب من نهج وقراءة دون غيره، ولأن الهجاء يلحق غير المكتوب أيضا وأن الخط قد يكون تصويرا ونقشا، ولم ننسبه إلى الكتابة لأنها صناعة الكاتب، وهي تجمع أسبابا غير الكتابة، ووجدنا كتاب الله جل ذكره لا يقاس هجاؤه ولا يخالف خطه ولكن يتلقى بالقبول على ما أودع المصحف، ورأينا العروض إنما هو إحصاء ما لفظ به من ساكن ومتحرك، ليس يلحقه غلط ولا فيه اختلاف بين أحد، فلم نعرض لذكرهما في كتابنا هذا».

فكانت آراؤه كلها تخضع لنظرية التهذيب اللغوي أو إن شئت فقل مبدأ التنقية اللغوية ثم للتطور البناء اللغوي من ناحية أخرى.

الترادف

خاصة من خصائص العربية كان لها أوفر نصيب في الافتخار بسمعتها وغناها في الألفاظ ذاهبين إلى أنه يساعد الناثر على السجع والشاعر على إقامة الوزن، ولولاه ما استطاع هذا ولا ذاك أن يصل إلى بغيته، واستدلوا بذلك على هجر واصل بن عطاء الراء في كلامه، وهذا تبرير لما وجد فللحية مائتا اسم منها: الشجاع وللأسد خمسمائة إسم وصفة، والقائلون به جماعة من العلماء منهم ابن خالويه وقطرب الذي قال: إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم كما زاحفوا في أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام أوسع عندهم وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب، وقد جرت مناظرة بين ابن خالويه وأبي علي في أسماء السيوف فرد أبو علي عليه بقوله: هذه كلها صفات، ومن القائلين بعدمه منهم ابن الأعرابي القائل: كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله. كما قال: والأسماء كلها لعلة خصت العرب ما خصت منها من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله (الأضداد للأنباري ص ٧).

أما ابن فارس فقال في باب الأسماء كيف تقع على المسميات: «ويسمى

الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام، والـذي نقولـه في هذا أن الاسم واحد وهو السيف وما بعدها من الألقاب صفات. ومذهبنا أن كل صفـة فيها معنى الأخرى وقد خالف في ذلك قوم فـزعموا أنها وان اختلفت ألفـاظها فـإنها ترجع إلى معنى واحد وذلك قولنا سيف وعضب وحسام. وقال آخـرون: ليس فيها اسم ولا صفة الا معناه غير معنى الآخر، قالوا: وكـذلك الأفعـال نحو مضى وذهب وانـطلق، وقعد وجلس ورقـد ونام وهجـع. قالـوا ففي قعـد معنى ليس في جلس وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول وهو مذهب شيخنا أبي العبـاس أحمد بن يحيى ثعلب.. ألا ترى أنا نقول قام ثم قعـد.. ثم نقول كـان مضطجعـاً فجلس فيكون القعود عن قيام والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لأن الجلس المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجري الباب كله، وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جـاز أن يعبر عن الشيء بـالشيء، فإنـا نقول إنمـا عبر عنـه من بـاب المشكلة ولسنـا نقول: إن اللفظين مختلفان فيلزمنا ما قالـوه وإنما نقـول إن في كل واحـدة منهما معنى ليس في الأخرى (الصاحبي ٦٥، ٦٦).

فهذا نوع من التهذيب، بل إن القائلين بالترادف أشاروا إلى بعض الفروق، ففي المقابسات «اعرف حقائق الأمور.. فإن الحق واحـد ولا تستفزك الأسـماء وإن اختلفت فتقـول مات غـير نام وفنى غـير بلى.. فـإن السرور هـو الفـرح والغمّ هـو الهمّ.. ولكن بـدرجة ودرجـة وهيئة وهيئـة ومكان ومكـان وزمان وزمـان ومغرض ومعرض (مقابسة ٦٢).

وأصحاب النظر والتهذيب من أهل اللغة لا يرون الـترادف أمراً طبيعيـا فيها بالوضع قصده الواضع، بل يرونه أثر التطـور اللغوي، اذ يـرجع هـذا الترادف إلى أمور يجب اعتبارها حيثما نطلق لفظتين معا على معنى واحد، من هذه الاعتبارات».

١ ــ الاشتقاق كما في أسماء الخمر والنسب (انظر التاج: تبع).

٢ ــ واللغات واختلافها فالبل هو المباح بلغة حمير وفتن لغة الحجـاز وأفتن لغة نجـد والمدية في لغة دوس والسكين في لغة الحجاز.

٣ ــ والتعـريب كطريق وسراط، والبحـر واليم، والفـرصـاد والتـوت، والصرفـان والرصاص.

٤ ــ والتكرار فالعرب تميل للتأكيد في كلامها ولكنها تكره التكـرار فتحول من أجـل

ذلك بعض حروف الكلمة إلى حروفة أخرى كالاتباع الذي ألف فيه ابن فارس «الاتباع والمزاوجة» وانتقده السيوطي فيما سماه «الالماع في الاتباع»، وتظهر قيمته في قول أعرابي حينما سئل ما تريدون بقولكم فلان كرلر: حرف نتدبه كلامنا أي نؤكده به.
٥ ــ ومنها التعميم والتخصيص كالعوم والسباحة.
٦ ــ والازدواج فاستعمال الثلاثي رباعيا للمشاكلة.
٧ ــ والقلب كجذب وجبذ. كل هذا كثّر الألفاظ اللغوية.

فلما رأى العلماء طغيان الخلط في اللغة نشطوا في تأليف كتب للفروق كما فعل أبو هلال العسكري ت ٣٩٥، والرماني كذلك، والأصمعي، ولغيره فرائد اللغة في الفروق والمنطوقة لمعرفة الفروق، كما جعل ثعلب في فصيحة بابا للفروق. وقال المبرد: إذا قلت أدخلته جاز أن تدخله وأنت معه، وجاز ألا تكون معه. ودخلت به إخبار بأن الدخول لك وهو معك بسببك. . وقال العسكري: وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد، وإلى هذا ذهب المحققّون من العلماء، وإليه أشار المبرد عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ المائدة ٤٨ فعطف شرعة على منهاج لأن الشرعة لأول الشيء والمنهاج لمعظمه ومتسعه، واستدل على ذلك بقولهم شرع فلان في كذا اذا ابتدأه وأنهج البلى في الثوب اذا اتسع فيه، ثم عرض لما يعرف به الفرق بين هذه المعاني وأشباهها وجعلها كثيرة منها: اختلاف ما يستعمل عليه اللفظان، ومنها اعتبار صفة المعنيين وما يئول اليه المعنيان، واعتبار الحرف التي تعدى بها الأفعال، واعتبار النقيض والاشتقاق، وما توجه صيغة اللفظ من الفرق بينه وبين ما يقاربه، واعتبار حقيقة اللفظين أو أحدهما في أصل اللغة (انظر الفروق اللغوية للعسكري ص ٧ ـ ١٩) في التمثيل لذلك.

هذه هي موجبات ابطال الترادف عند أبي هلال واظهار الفروق، فإذا انتقلنا إلى ابن درستويه وجدناه يرجع أسباب الترادف إلى اللغات واختلاف الاشتقاق وأصل المادة والمجاز والتخصيص والتعميم إلى غير ذلك. فعن اللغات واختلاف الاشتقاق وأصل المادة عالجها في الكلام عن رعد وأرعد فقال لا يكون فعل وأفعل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناء واحد الا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من النحويين

واللغويين وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها ولم يعرف السامعون تلك العلة فيه والفروق فظنوا أنهما بمعنى واحد وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم، فإن كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطئوا عليهم في تأويلهم ما لايجوز في الحكمة وليس يجيء شيء من هذا الباب الا على لغتين متباينتين كما بيّنا، أو يكون على معنيين مختلفين أو تشبيه شيء بشيء على ما شرحناه في كتابنا الذي ألفناه في افتراق معنى فعل وأفعل، ومن هنا يجب أن يتعرف ذلك، وكذلك وقفت الدابة ووقفت وقفا للمساكين ووقفت انا، لا يجوز أن يكون الفعل اللازم من هذا النحو والمجاوز على لفظ واحد في النظر والقياس لما في ذلك من الإلباس، وليس إدخال الإلباس في الكلام من الحكمة والصواب، وواضع اللغة عز وجل حكيم عليم، وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز وضع لفظ واحد للأدلة على معنيين مختلفين، أو أحدهما ضد للآخر لما كان في ذلك إبانة، بل تعمية وتغطية، ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل كما يجيء فعل وأفعل، فيتوهم من لا يعرف العلل أنها لمعنيين مختلفين وان اتفق اللفظان، فالسماع في ذلك صحيح عن العرب والتأويل عليهم خطأ، وإنما يجيء ذلك في لغتين متباينتين، أو لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك عن السامع فتأول فيه الخطأ، وذلك أن الفعل الذي لا يتعدى فاعله إذا احتيج إلى تعديته لم يجز تعديته على لفظه الذي هو عليه حتى يغير إلى لفظ آخر بأن يزاد في أوله الهمزة التي تدخل لنقل الفعل. وبأن يوصل به حرف جر بعد تمامه. ليستدل السامع على اختلاف المعنيين، إلا أنه ربما كثر استعمال بعض هذا الباب في كلام العرب حتى يحاولوا تخفيفه فيحذفوا حرف الجر منه كقولهم كلته ووزنته، أي كلت له ووزنت له. فيعرف ذلك بطول العادة وكثرة الاستعمال وينوب المفعول وإعرابه فيه عن الجار المحذوف. أو يشبه الفعل بفعل آخر متعد على غير لفظه فيجري مجراه لاتفاقهما في المعنى كقولهم حبست الدابلة وحبست مالا على المساكين وكذلك قوله حونني الأمر وأحزنني. (تصحيح الفصيح ١/٣٤ ـ ٣٧٦ والمزهر ط. ٣٨٤ ـ ٣٨٦).

١ ــ **وقال في تأكيده الفكرة:** «ولا يجوز أن يكون لفظان مختلفان لمعنى واحد الا أن

يجيء أحدهما في لغة قوم والآخر في لغة غيرهم، كما يجيء في لغة العرب والعجم، أو في لغة رومية ولغة هندية (تصحيح الفصيح ١/٥٥) ثم راح يضرب الأمثلة من الميدان العملي بعدما بين الأسس العامة فتناول رعد وبرق وسقى والاشراق والشروق وأرجع إلى اللغات شرع في أشرع الرمح. وفرق كذلك بالفاعل فكل طعام فيه حلاوة أو مرارة يقال فيه قد حلا يحلو وقد مرّ يمرّ، وكل ما كان من دهر أو عيش أو أمر يشتد ويلين ولا طعم له فإنه يقال فيه أحلى يحلى وأمرّ يمرّ (المزهر ٢/١٨٩) وكذلك جعل التعريب وسيلة لذلك».

٢ ـ طبيعة الحروف والحركات: لقد خصص ابن درستويه كلّ حرف بمعنى وكل حركة بمعنى نحو قدّ وقط وخضم وقضم، وقال عن الكسر والضم: «وقد يلازمون أحد الوجهين للفرق بين المعاني في بعض ما يجوز فيه الوجهان: كنفر ينفر بالضم من النفار والاشمئزاز وهو ينفر بالكسر من نفر الحجاج من عرفات. (انظر السابق ١/٣٧، ٢/٦٣).

٣ ـ الاشتقاق فهو يعتبر أملي وأملّ مختلفين لفظا ومعنى (السابق ١/٣١، ٣٢).

٤ ـ الخصوص والعموم فلقُي الرجل من اللقوة فهو ملقو، ومعناه أعوجّ وجهه والتوى شدقه إلى أحد جانبي عنقه وهو ضرب من الفالج الا أن الفالج في البدن كله وهذا في الوجه خاصة (السابق ١/٨١) والاذن عنده فيما كان ممنوعا والأمر فيما لم يكن محظورا، وحمدته قريب من شكرته إلا أن الشكر جزاء على ما يسدى إليك والحمد قد يكون على ما لم يُسد اليك، وليس بمجازاة وإنما على ما وجدت فيه من الفضل والخير، كما فرق بين الظل والفيء، كما جعل بين طُلّ وأهدر فرقا فالاهدار الاباحة من سلطان أو غيره وبين نقه وبرأ.

هذه بعض الطرق التي عالجها ابن درستويه في إبطال الترادف أو ساعدته على قوله بذلك، وكانت آراؤه في التهذيب اللغوي متكاملة أساسها أن اللغة إلهام ولا يجوز على الحكيم أن يغفل وجه الحكمة في اختلاف الألفاظ، وكذلك نزعته دائما إلى أبعاد اللبس عن اللغة فالفعل اللازم والفعل المتعدي لا يكونان بمعنى واحد، بل ذلك عنده محال، إذ لا يجوز ذلك في النظر والقياس لما فيه من الالباس. فانظر المعاجم لترى الفروق واضحة بين الألفاظ. وهناك مبدأ عام أصبح مقررا بالاستقصاء هو أن البدل والمبدل منه لغات. قال أبو الطيب: ليس المراد بالإبدال

أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هي لغات مختلفة لمعان يتقارب فيها اللفظان لمعنى واحد حتى لا تختلفا الا في حرف واحد (البلغة ٦٧) وتعاقب السين والصاد ليس على اطلاقه بل ذلك مشروط بشروط (انظر التاج : اللوز، وأول باب الزاي منه ومادة علن وخلف).

فالذين قالوا بإنكاره هم أهل النظر والقياس والقائلون بالتطور اللغوي والمفتشون عن الألفاظ والمتفقهون في اللغة الذين عرفوا أسرارها ومذاهب العرب في كلامها. .

القلب

خاصة كذلك وألف فيه ابن السكيت والأصمعي وابن فارس الشدياق «سر الليال في القلب والابدال» وعدوه عاملا من عوامل سعة اللغة واختلاف اللهجات، وكانوا على حياله على آراء مختلفة من حيث نشأته وجوازه، فأهل اللغة يعتبرون ما جاء من ذلك مقلوبا ويعدونه من لغة واحدة وتابعهم في ذلك النحويون من الكوفيين، وعلى ذلك فالتقديم والتأخير جاءا لعارض في النطق بسبب الخفة والثقل. أما البصريون فلا يرون القلب واقعا الا اذا قصر أحد اللفظين عن صاحبه تصرّفا فالأقل تصرفا مقلوب عن كامل التصرف كشاكي السلاح وشائك، وجرف هار وهائر فهو من قبيل الوضع الواحد عندهم. أما اذا تساوى اللفظان في التصرف كجبذ وجذب فليس بقلب عندهم وإنما هما لغتان من وضعين مختلفين ويعد كل من الفعلين قائما بنفسه، فاضمحل لغة الكلابيين في اضمحل. ولكن قلة التصرف لا تقوم دليلا على الفرعية اذ اتت أفعال أميت اسم فاعلها ومفعولها ككاد وليس فليست قلة التصرف مقياسا للمقلوب.

وقد تناوله البطليوسي في الاقتضاب (ص ٢٣٤ - ٢٣٩) وذكر من مقاييسه وجود المادة المستعملة لأحد اللفظين دون الآخر، أو وجود صيغة الجمع مخالفة صيغة المفرد تقديما وتأخيرا، أو في شرح بانت سعاد ما يحدد موقف البيانيين والنحويين منه عند تناوله بيت كعب بن زهير:

كأن أوْب ذراعيها اذا عرقت وقد تلفع بالقور العساقيل

فمن النحويين من خصه بالضرورة وزعم أنه غني عن التأويل، ومنهم من خصه بالضرورة وشرط التأويل، ومنهم من أجاز في الكلام محتجا بقوله تعالى **﴿ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة﴾** القصص ٧٦، وبقولهم أدخلت القلنسوة في رأسي. وأما البيانيون فاختلفوا في كونه مقبولا في الكلام الفصيح فقبله قوم مطلقا، وقبله بعضهم أن تضمن اعتبارا لطيفاً ومثلوا لذلك كله. وكان موقف ابن درستويه صاحب التهذيب منه أنه لغات حينما تحدث عن القلب في الكلمة فقال: «فأما البطيخ ففاكهة معروفة.. على بناء فعيل وهي عربية محضة، وفيها لغة أخرى وهي الطبيخ وليست على القلب كما يزعم اللغويون، وقد بيَّنا الحجة في ذلك في إبطال القلب ففي الحديث كان نبي الله ﷺ يأكل الطبيخ بالرطب كأنه مشتق من الطبخ، والبطخ من معنى آخر، وذلك أنه يقال لمكانه الذي زرع فيه المبطخة وجمعها المباطخ مثل المقاثي والمقثاة (تصحيح الفصيح ١/٢٥٣ والمزهر ١/٢٨٥) ويطالعنا القاموس بأن جبذ لغة في جذب، وهذه أشهر ألفاظ الباب. وقول ابن مقبل:

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية على سعابيب ماء الضالة اللجز

أراد اللزج فقلبه، وإن كان صواب القافية النون، وفي المحكم أن آن لغة في أنّ وليس مقلوبا عنه. (انظر الخصائص ١/٤٦٧ طبع الهلال). وقال بعض النحويين أن اسم عيسى ويسوع واحد، قلب الأول عن الثاني بنقل العين إلى أول الكلمة، أما انتقال العرب من عيسو إلى عيسى فهو على طريق التشبيه باسم موسى. وجاء فيها قلب على رأي الخليل، على رأي غيره ليس فيها قلب، وطأمن من طمأن هل فيها قلب أو زيادة؟.. والوكع في الرجل أن يميل إبهامها مع الأصابع حتى يرى أصلها خارجا والكوع في الكف أن تعوج من قبل الكوع والوكع رأس الزند الذي يلي الابهام (الاقتضاب ٣٠)، والفحيح مقلوب الحفيف، حفّت الحية كان لجلدها حفيف، وإذا قلت فحت أردت أن صوتها كان من فمها لامن جلدها، ومن أشكاله أيضا القلب الإعرابي الذي يخرج على المفاعلة كما في قراءة «فتلقى آدم من ربه كلمات».

الأضــداد

هذه الخاصة اهتم بها العلماء إذ أن قلب معنى الكلمـة إلى الضد يبعـدها عـما يقصده الواضح بالوضع ولأنها كثرت ألفاظها في اللغةكـثرة جعلت ما سينيـون يقول إن العربية لغة التضاد وليست لغة الضاد، ولذا كثرت المؤلفات فيها أيضا بين متكثر منها وبين مقل وغالبها يجري على سنن واحد من الاتساع في ألفاظها ونقل الخـالفين عن السالفين، تنـاولها الأصمعي والسجستـاني وابن السكيت والصاغـاني وأبو بكـر ابن الأنبـاري ت ٣٢٨هـ وابن درستويـه ت ٣٤٧هـ وأبو الـطيب ت ٣٥١هـ وابن الدهان ت ٥٦٩هـ في «الغنية» والخليجي في «الكأس المروق على الدورق». وهناك كثير ممن عالجها في فصول كدائرة المعـارف الاسلاميـة والمخصص لابن سيده الجـزء الثـاني عشر، ومعالم الكتـابة ومغـانم الاصابـة لابن شيت القرشي من علماء القـرن السادس، ومجلة المجمع اللغـوي، والغريب المصنف لأبي عبيـدة. وغيرهـا نحو مـا اتفق واختلف معناه للمبرد. واليزيدي والتوزي وغيرهم، ومن غرام بعضهم بها من جعل لفظ الضد نفسه من بين الأضداد وحتى سموا خطأ كتاب المحاسن والمساويء للجاحظ باسم المحاسن والأضداد.

١ ــ **قطرب**: أشار إلى أن بعضها جاء عن طريق اللغات قـال «ومن الأضداد أيضـا السامد فهو بلغة طيء الحزين، وبلغة أهل اليمن اللاهي، وليس ذلك دائما، فلم يعرض لأن السدفة لغة أو هي اختلاط الضوء بالظلمـة، كما لم يعـرض لما في المُفرح من التصحيف والتحريف ولكن قـال أن خفي وأخفى لغتان والأولى لغة يمانية بمعنى أظهر. ولم يعن بذكر شيء من أسبابها أو طـرق أبطالهـا إلا نادرا كاللغات والرجاء بمعنى المبالاة وهي حجازية في كنانة وقضاعة ومضر، وهذيـل يقـولون لم أرج يـريدون لم أبـال. وكإشـارته إلى اختـلاف المصادر كـالقنـاعـة والقنوع، وكنصه على أن الشجاع ليس من الأضـداد وقال: قـال أبو محمـد ما سمعناه في الضعف شيئا، وكقوله قال أبو محمـد: كل مـا انجلى من شيء فهـو صريم كالليل ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل. وفي لفظ الحرف قـال أنها شبهت بحرف الجبل واقتصر على أحد المعنيين قال قـال أبو محمـد: المشب الثور لاغير. وقد ظهر الأحساس واضحا عنده في إبطال الأضـداد وبلغ ذروته واتضحت ايجابيته عند قوله تعالى ﴿مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ «قال تفسيرها فما

دونها وقال لا يجوز عندي: يريد فما دونها وهو قول الكلبي فما دونها، وأما قول ابن عباس فما فوقها الذباب فوق البعوضة، وهو الذي يستحسن. وذلك داخل في باب النسبية. وبلغت عدة الألفاظ الضدية عنده ٢١٨ لفظا فهو أول من توسع فيها من المثبتين لها، كما قال بالترادف سابقا وعلل لوجوده وبين فائدته ولم يعرض لابطاله إلا عرضا في أحرف قليلة من طريق اللغات أو اختلاف المصادر أو الأخذ بالمأثور من التفسير أو تفريع المعنى من أصل واحد كما يقلّ فيه النقل عن غيره وعلة ذلك واضحة لأنه لم يسبق بها.

٢ ـ **أما الأصمعي**: فبلغت عنده (١٠٥)، وهذا حد من ألفاظها بعض الشيء وكان سبيله أن يذكر المتضاد من القرآن غالبا لأنه كان شديد الحساسية نحو ألفاظ القرآن الكريم فهاله وقوع الضد فيه وإنما عرض للمعاني وفسرها دون أن يوضح أسباب الأضداد أو أبطالها إلا لماما، وذلك ـ في رأيي ـ راجع عنده وعند من سبقه إلى عدم نضج علم البلاغة وخاصة الكلام عن المجاز، واستطرد إلى بعض الألفاظ الخارجة عن الضدية كلفظ «المولى» الذي هو من المشترك واعتمد كثيرا على أقوال أبي عبيدة وابن الأعرابي والشيباني والكلابي، واستشهد بالحديث وبالشعر كثيرا جدا، فقد ذكر إثني عشر شاهدا مع الاستطراد أحيانا، ولم يستشهد مع ذلك على شام. وإنما يعني بالرواية واللغات والتفاؤل أو التطير، قال في (نهل): وابل نهال عطاش يتطيرون بها من العطش ويقولون هذه إبل ناهلة. ثم قال: وأصل المفازة مهلكة فتفاء لوا بالسلامة والفوز كقولهم للملدوغ سليم والسليم المعافى. وقال «المقوّر» في لغة الهلاليين السمين وفي لغة غيرهم المهزول ويقال لمقت الشيء ألمقه لمقا إذا كتبته في لغة عقيل وسائر العرب يقولون لمقته محوته. (الأضداد، نشر هفنز ص ٢٠، ٣٧، ٤٠، ٤٤، ٦٢، ١٢ ـ ١٤) فقد توسع في المعاني والاستطراد والاستشهاد والرواية، وإن كان الخطوة الثانية من الأضداد التي تفتح لدى أصحابها الوعي اللغوي سنة التطور في الحياة، إلا أنه لم يبين هدفه من كتابه.

٣ ـ **وأما ابن السكيت**: المتوفي سنة ٢٤٢هـ ـ على خلاف ـ فقد عالج ٩٤ لفظا وهو يعد رواية ثانية لكتاب الأصمعي كما هو رأي ناشره. والنظرة الفاحصة ترد ذلك الرأي والمبالغة لأن ابن السكيت تصرف في بعض الشواهد، ونقصت

ألفاظ الأضداد أحد عشر لفظا عما في كتاب الأصمعي، ومن يقارن المواد في كليهما يدرك الفرق بينهما، نعم سار على ترتيبها عند الأصمعي، إلا أنه في بعض المواد ذكر مالم يذكره الأصمعي، فقد قال في (شيح): والمشايح الجاد في لغة هذيل، وقد شايحت جددت، وفي لغة أهل نجد المشايح الحاذر وقد شايحت حاذرت . . وفي سجد قال: الساجد المغني وفي لغة طيىء المنتصب، ويذكر روايات غير روايات الأصمعي في قول عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحي خرت عن الأحفاض نمنع من يلينا

ثم ينص على الروايات الأخرى مع العلم بأن الأصمعي هو المشهور بالرواية فليس كتابه نسخة من كتاب الأصمعي، غاية مافي الأمر أنه يمثل نزعة المحافظين في الأضداد بالنسبة إلى نزعة أبي حاتم المتحررة المتصرفة، فدعنا نجول مع أبي حاتم في أضداده ورياضة الممتعة وهو المعاصر لابن السكيت.

٤ ـ يعتبر كتاب أبي حاتم السجستاني المتوفي سنة ٢٤٨ ـ على خلاف ـ خطوة جديدة في بحث الأضداد إذا انتفع بما قاله الأصمعي وأبو عبيدة من قبله أيما انتفاع، ولذا نجده لا يسلم بكل ألفاظها وإن بلغت عنده ١٧٠ لفظا فهي تقارب ماعند الأصمعي وأقل بكثير مما عند قطرب، فهو يخطيء العلماء ويجهلهم بالرواية، وقد انتقل من النظرة الفردية إلى النظرة التعميمية مما يجمع كثيرا من ألفاظ الأضداد تحت ناحية معينة، من اللغات والإدغام والظروف التي أحاطت باللفظ وخاصة النفسية منها، كما عرض لكثير من المقلوب ومن الأفعال وأزمانها. وقضية الزمن في العربية أثارت كما نعلم في القديم والحديث كثيراً من الخلاف (انظر أسرار اللغة ٩٧ ـ ١٠١) وبعد هذه المشاهد العامة أخذ في عرض كتابه ليتجلى صدق ما أقول وفوق ما سبق من نظريات هي رهينة بالأمثلة التي أوردها، إذ بعتد مقدمته التي أشار فيها إلى الأضداد والمقلوب وخاصة في القرآن قال: وزعم قوم أن بعض العرب يجعل الضدّ مثل الند ويقال هو يضادني في ذلك المعنى ولا أعرف أنا ذلك. وفي (رجا) ردد كلام الأصمعي وجهل أبا عبيدة بلطف حينا وبعنف حينا آخر فقال في (خاف): وكان أبو عبيدة يقول خاف من الخوف ومن اليقين وكان يقول في ﴿فإن خفتم

ألا تعدلوا﴾ يريد أيقنتم ولا علم لي بهذا لأنه قرآن فإنما نحكيه عن رب العالمين ولا ندري لعله ليس كما يظن (أضداده ص ٨٨) وفي (ارتاب) قال: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم﴾ أي شككتم ويكون أيقنتم ولا علم لي بهذا، ولا أعرف فيه إلا شككتم، ثم اشتد عليه عند (عسعس) فقال: زعموا من ابن عباس رضي الله عنه قال عسعس أدبر والله أعلم قال أبو حاتم: قد تقلد أبو عبيدة أمرا عظيما ولا أظن ههنا معنى أكثر من الأسوداد، عسعس أظلم وأسود في جميع ما ذكر وكل شيء من ذا الباب في القرآن فتفسيره يُتقى، ومالم يكن في القرآن فأيسر خطبا (السابق ٧٧، ٩٨).

ومن تعميماته جمعه بين كريّ وعزيم وتبيع وضنين وظنين وما على وزن فَعول، ومن كليانه العامة وتجميعه الألفاظ قوله في (نهل): قال الأصمعي الناهل الشارب فإنما قيل للعطشان ناهل على التفاؤل. يقال للمفازة المهلكة على التفاؤل ويقال للعطشان ريان وللملدوغ سليم أي سيسلم ونحو ذلك. (السابق ٩٩) وكذلك فعل في لفظ عقوق.. وعاب على العلماء تفسيرهم الألفاظ على الضدية فقال في (هوى): وأنشد أبو زيد أيضا في صفة دلو مرتفعه مترعة: والدلو في إتراعها عجلى الهوى - وأنشدنيه الكلابيون قال أبو حاتم: يمكن أن يكون يعني إذا انقطعت وهي مترعة مملوءة (السابق ١٠١) وهاجم الشعراء وأبا عبيدة قال في (أسر): «وقال أبو عبيدة أسررت الشيء أخفيته وأظهرته أيضا وكان يقول في هذه الآية ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ يونس ٥٤ أظهروها ولا أثق بقوله في هذا والله أعلم. وقد زعموا أيضا أن الفرزدق قال:

فلما رأى الحجاج جرد سيفه ... أسر الحروري الذي كان أضمرا

ولا أثق أيضا بقول الفرزدق في القرآن ولا أدري لعله قال - الذي كان أظهرا - أي كتم ما كان عليه والفرزدق كثير التخليط في شعره وليس في قول نظيريه جرير والأخطل شيء من ذلك فلا أثق به في القرآن فلعله تبع الأصمعي في ذلك قال في (سجر) وقال بعضهم المسجور الفارغ بلغني ذلك ولا أدري ما الصواب، ولا أقول في البحر المسجور شيئا، ولا (إذا البحار سجرت) لأنه قرآن فأنا أثق به. وجعل قول جارية بالحجاز: إن حوضكم لمسجور الفارغ على التفاؤل (السابق

١٢٧) وقال عن سمد: وحكوا عن ابن مروان قال السامد الحزين في كلام طيىء، واللاهي في كلام اليمن، وأما الذي في القرآن فلا علم لي به، واختلفوا فيه عن الصحابة وغيرهم، وروى عن علي كرم الله وجهه: مالي أراكم سامين، والله أعلم بذلك. وقال في (أنهم يوزعون) لا علم لي بهذا وهو قرآن فلا أقدم عليه (السابق ١٥).

كما لجأ إلى القول بالاستهزاء في (بيضة البلد (ص ١١٧) كما لجأ إلى التصريف في مفتعل ومفتعل من المعتل العين ومن المضاعف كما في معتد ونحوه. وكذلك للاشتقاق قال «ومما ليس من ذا الباب وإن تقارب اللفظان رجل مودٍها لك ومؤدتام السلاح ويقال للسلاح الأداة ومنه قيل المؤدى إلا أن الواو مهموزة ومن الأول غير مهموزة (ص ١٢٢، ١٢٣) فاشتبه اللفظان عن طريق تخفيف الهمزة.

وأنحى باللائمة على النحويين الذين تعسفوا في التأويل فعدوا بعض الألفاظ بتعسفهم هذا من الأضداد قال: «وقال قوم سوى الشيء غيره وسواه هو هو. وقال قوم بل سوى تكون زيادة أحيانا كقول أبي النجم: كالشمس لم تعد سوى ذرورها - يريد لم تعد ذرورها وأنشد أبوزيد:

أتانا فلم نعدل سواه بغيره رسول أتى من عند ذي العرش هاديا

يعني النبي ﷺ. والمعنى فلم نعدل بغيره. وقال الأخفش ولم نعدل سواه يعني سواه فالهاء ترجع إلى سواه، وهذا من احتيال النحويين وكلام العرب على غير ذلك (ص ١٢٣) وقال في معنى قبل وبعد في تفسير بعد بمعنى قبل: وقد قالوا غير هذا التفسير (ص ١٤٦). أما من حيث صلة الفعل بالزمن فإنه قال: «اتسعت العرب فجعلوا فَعَلَ في مواضع لما لم ينقطع بعد ولما لم يكن بعد. وجعلوا يفعل وأخواتها لما قد كان.. وقالوا في يفعل لما لم يقع (ص ١٣١).

وهكذا لم يدع أبوحاتم مخرجا من الأضداد الا سلكه كما فعل عند تصدق، وقال عند غفر: وهذه الورقة لا أعرف بعضها (ص ١٤٧) ثم قال: وقد ذكر بعض أصحابنا حروفاً لا علم لي بها أتقال أم لا. أثاب.. (ص ١٤٨) كما عرض للقلب وأمثلته عند كلامه عن (ناء) وهنا أراه قد سرد ألفاظ الأضداد سرداً ولكنه شككنا عن اللفظ جعد في بعض ألفاظ المقلوب، وأخرج من ذلك بأن أباحاتم أثار كثيرا

من الشكوك حول ألفاظ الأضداد كما رأيت، فهذا لغة وهذا خطأ وهذا لا يتكلم فيه وأنه لا يعرفه، وهكذا مما سبق مفصلا. وقال الصاغاني في نهاية كتابه: «وفيه كلمات ليست عندي من الأضداد ولكني قفوت فيها آثار من سبقني إلى جمعها مثل ابن الأنباري وغيره حذار أن يقال أهمل شيئا مما أثبتوه». وابن الأنباري قد ذكر كثيرا مما يخرج الألفاظ من الهندية مبينا وجه ذكره فيها. فكثرة ألفاظ الأضداد جاءت في ابراز المعرفة فيذكرها هذا أو ذاك وهو غير مؤمن بكثير منها.

وتوج ذلك كله ابن درستويه الذي له تأليف في إبطال الأضداد، فله نظرة تخالف من سبقه اليها، كما يخالف معاصريه كذلك إذا ذهب إلى إنكارها جميعها وابطالها إلا ما ندر منها لعلل، بل قد منع الاشتراك اللفظي بصفة عامة، والذي تعد الأضداد فرعا منه، إلا بقرينة معينة قال في معرض حركة عين الماضي والمستقبل: «. . . ليخالف الماضي المستقبل في البناء ويعتدلا في الخفة والثقل كاعتدال الباب الأول كما خالفه في المعنى، فيعلم كل واحد منهما بما يخصه من الأبنية، لأن اللفظ الواحد لا يدل على معنيين مختلفين حتى تضامّه علاقة لكل واحد منهما، فإن لم تكنْ فيه علامة أشكل وألبس على المخاطب وليس من الحكمة وضع الأدلة المشكلة إلا أن تدفع إلى ذلك ضرورة، أو علة بنية، ولا يجيء في الكلام غير ذلك إلا ما شذّ وقلّ على غير القياس والأصل». فالمشترك عنده لا يجيء في اللغة إلا مع قرينة مميزة، أو لضرورة أو لعلة صرفية أو شاذا قليلا مخالفاً القياس والأصل. فإذا كان ذلك مقام المشترك عنده خارجاً عن الحكمة عارياً عنها، فما بالك بوقوع الضد في اللفظ!

وإذا سألت عن الوسائل التي عالجها ابن درستويه في ذلك، والتي كانت أمنية الدكتور وافي في كتابه «فقه اللغة» لأن كتابه في ابطال الأضداد قد ضاع. ذلك أنه عالج في تصحيح الفصيح كثيرا من ألفاظ الأضداد صراحة أو ضمنا، فهناك شذرات من آرائه فيها بدراستها يظهر أنه عالجها من خلال المجاز، والرأي، وتخطئة العلماء، واختلاف فعل وأفعل، والعلل الصرفية والأوزان، والنسبية، والاشتقاق، والتصحيف والتحريف، وتعاقب الحروف، والتعدي واللزوم، كما عالج الفرق بالحركة أو بالحرف أو بالصيغة باسهاب.

فقد استغل المجاز إذ يرى أن بعض الأضداد قد نشأ عن طريق تناسي المجاز وتبادر الحقيقة دونه حتى يظن من لا يعرف ذلك أنه حقيقة شأن الذي يتناول اللغة الراهنة الكائنة لا الحية المتطورة، ومعلوم أن ذلك عند عدم القرينة، قال ابن درستويه: والعامة تقول: أكلنا ملة وثعلب قد أنكر ذلك وله في العربية مخرج صحيح لأنه يجوز تسمية المملّ بالملّة على الاتساع، ويجوز أن يحذف المضاف ويقام المضاف اليه مقامه فيقال أكلنا ملة أي خبز ملة (تصحيح الفصيح ٢/٣٨ خ) وعندما عرض للفظ المقامة استطرد إلى معنى الفعل قام وأنه أحيانا لا يراد منه القيام على الأرجل قال: «.. ومن هذا قيل فلان قائم بالحق إذا نصر الحق وإن كان جالسا، وقائم بأمر أهله وقائم بما أسند اليه ولا يراد في شيء من ذلك القيام على القدمين وإنما يعني به حسن العهد.. ولذلك قيل دينار قائم أي وازن وقيل للزوال قد قام قائم الظهيرة، وقيل للملك هو قائم بالملك أي حافظ له وهو كثير لا يحصى..

ولكن الاستعارات والتشبيهات التي بها تكمل الفصاحة والبلاغة والاكتفاء بالمجاز والاشارة فعل ذلك (السابق ١/٢٩١) فإذا علمت أنهم عدوا لفظ (قام وملة) من الأضداد أدركت كيف أبطل فيها الضدية عن طريق المجاز بالحذف وغيره وعلى ذلك تخرج ألفاظ كثيرة من الأضداد نحو خائف، العائذ، العاصم، الفاري، الكأس، الحفض، الظعينة، الراوية، توسد حَرْف، الطب، الدخلل، اللحن، البكر، العاقل والجاهل أو، حافل، الإشرار، إرة، بلهاء، الصلاة، الثغب، دهور، فاطم، مخوض، الأعور، المجمر، اليتيم، الرجاء، الإهماد (وأنظر أضداد الأنباري) وحسبك أن تراجع مادتي البسل وبيضة البلد في الأضداد لأبي الطيب لتعرف رأيه في أمثلة أخرى من هذا النوع.

واعتماده على الرأي وتخطئة العلماء وحسن التفسير سبيل سلكها ابن درستويه إلى الإبطال وهي اعتماد أحد المعنيين المتضادين للفظ دون الآخر، فاللفظ (زكن) بمعنى علم وبمعنى خمّن قال: «وأما قوله زكنت منه كذا وكذا فمعناه حزرت وخمنت وأهل اللغة يقولون معناه علمت ويستشهدون عليه ببيت قعنب بن أم صاحب:

ولن يراجع قلبي حبهم أبدا زكنت منهم على مثل الذي زكنوا

وليس في هذا البيت دليل على تفسيرهم إياه، وإنما معناه خمنت على مثل

الذي خمنوا عليه من سوء الظن وحزرت منهم على مثل ما حزروه. ويروى زكنت من بغضهم مثل الذي زكنوا وليس معناه علمت أيضا إنما معناه أضمرت من بغضهم مثل ما أضمروا من بغضي والعرب تقول فلان صاحب أزكان وليس يعنون صاحب علم ولكن صاحب حزر. . (السابق ١ / ٣٠) (وانظر التاج زكن). وقال ابن دريد: التزكين الظنون التي تقع في النفوس. . . » واستشهد على ذلك بالشعر.

وفي قوله تعالى: **﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾**، قال: وقد زعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا وأنه من الأضداد وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا في إبطال الأضداد وليس هذا موضع ذكره (السابق ١ / ١٣٩) فقد تحدّث عن القائلين بالضدّ فيها بلفظ زعموا الذي هو مطيّة الكذب. فقد رتبوا على هذا الزعم القول بأنه من الأضداد. وخطّأ العلماء بالحجة والدليل في لفظ النبل قال: وهو مأخوذ من النبل وهي الحجارة وفي الحديث «أعدوا النبل» يعني حجارة الاستنجاء وهي العظام منها عندنا واحدتها نبيلة، وبعضهم يروي: «أعدوا النُّبل» بضم النون ويجعل واحدتها نبلة، والدليل على أنها العظام أن الجيفة تسمى باسمها لانتفاخ الجيفة وعظم بدنها وأن البعير عظيم. وقد خص بالتنبل. . . وزعم أبوعبيد أن النبل في حديث الاستنجاء الحجارة الصغار وأنه من الأضداد أيضا واحتج بقول الشاعر:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أُورث ذَوْدا شصائصا نَبَلا

وهذا غلط من كل من قال به، لأن الحجارة الصغار لا يمكن الاستنجاء بها، لأن الصغير يعجز عن القبض على بعضها والاستنجاء ببعضها، وأصغر ما يستنجى به أن يكون مقداره ما يتمكن القابض عليه بثلاث أصابع ويستنجى منه ثلاث مرات بثلاث قرن، والا لطخ يده وجسده، فإذا كان هكذا لم يجز أن يكون صغيرا وإن كان في الحجارة أكبر منه، والبيت الذي احتج به أبوعبيد شاهد للعظم لا للصغر، وذلك أنه إنما عني بالنبل فيه المسان من الإبل الكبار الأجسام المهازيل وذلك أن الشصائص جمع الشصوص وهي المهزولة التي لا لبن لها، لا أولاد الإبل ولا صغارها ولا تسمّى صغار الإبل ولا أولادها شصائص، والإبل المهازيل وإن قل لحمها فألواحها وخلقها عظام وقد بينا من تفسير هذا الشعر وغيره في كتاب ابطال الأضداد مالا يصلح ذكره هنا (السابق ٢ / ٧٩، ٨٠).

ويجعل اللفظ ويلمه مركبة من وي بمعنى أعجبه، ولأمه، وبهذا يخرجها من الضدية فسواء كانت للمدح أو للذم فالتعجب من كليهما حاصل، أما غيره فيجعلها من ويل وأمه ويجعلها من الأضداد، وهناك تفسيرات أخرى لهذا التعبير عدا هذا الأساس الأخير إذ لا يراد حقيقة اللفظ. وأوضح قيمة الاعتبارات النسبية في أحصن قال: وقوله قد أحصنت معناه قد عفت وحفظت فرجها كما قال الله عز وجل **﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾** التحريم ١٢، فجعل الفعل لها فهي محصنة بالكسر مثل أحصنت فهي محصنة، ويقال هي محصنة بفتح الصاد إذا أردت أن زوجها أن وليها أحصنها ومنه قول الله عز وجل **﴿والمحصنات من النساء﴾** النساء ٢٤ وقوله: **﴿والذين يرمون المحصنات﴾** النور ٤، فتراه هنا يوجه الفتح والكسر للفاعل وللمفعول في هذا اللفظ وكثيرا ما فعل ذلك في تصحيحه للفصيح. كما أنه في لفظ نبل جعل الأدلة كلها متضافرة في ابطاله من تخطئة للعلماء واستعمال العقل في الدليل وتفسير الشعر تفسيرا يبعد الضدية وذكر الروايات وغيرها، والإحالة على كتابه في ابطال الأضداد.

وعلى هذا الأساس يسقط من ألفاظها: الحميم، الخنذيذ، أشده، بِنْ، برح، قعد، مرحبا إلى جانب ما سبق من التناول. وهناك أسس أخرى كاختلاف الرواية وتخصيص بعضهم ما هو للتعميم مثل الطرب فهو خفة تلحق الإنسان من حزن أو فرح، والمأتم وهو اجتماع النساء في حزن كن أو سرور، والجون. وكالاختلاف في المسائل النحوية كما في «شام». وبعد ما فرق بين قسط وأقسط قال: «والذين لا يعلمون قياس النحو ولا يميزون بين دخول هذه الألف وخروجها وما يحدث بذلك من المعنى فيهما يظنون أن هذا من الأضداد، وذلك أنه عندهم لفظ واحد واقع على الشيء وضده ولا يدرون أن دخول الألف يخرج الكلمة عن لفظها بغير ألف ويجعل لها مثالا على حدته فنصير الكلمتان بمنزلة العدل والجور في اختلاف اللفظين والمعنيين (تصحيح الفصيح ١/٩٣، ٩٤) وكذلك فعل في ترب وأترب، تربت لزقت بالتراب كما في الحديث وهذا كله بمعنى الانفعال كأنه قد أترب وترّب فتَرِب، وأما قوله أترب إذا استغنى فمعناه أصاب من الغنى بكثرة التراب، فلما كان بمعنى أيسر وأكثر وأصاب بني على أفعل بالألف ولثقل الفعل (السابق ١/١١٣) وأفاض في ذلك فتناول نشد وأنشد وخفر وأخفر وصفد وأصفد.. مع قياش كل بما

هـو في معناه، وملح وأملح ودلـوت الدلـو وأدليتهـا (السـابق ١/ ١٠٠، ١/ ١٠٨، ١/ ١٠٥) فوضح بذلك القاعدة العامة وشرحها في الجزئيـات وعلى ذلـك يخرج من ألفاظها خفى وأخفى وروى وأروى وثل وأثل إلى جانب الألفاظ المشروحة فهي على قياسها.

النسب والعلل الصرفيـة والأوزان: كما في قـول الأعشى: يـا عجبا للميت الناشر ـ أي المنشور والمعنى على النسب يشترك في الفـاعل والمفعـول، وقد سبق أنـه ليس من الحكمـة وضع الأدلـة المشكلة إلا أن يدفـع إلى ذلك ضرورة أو علة بنيـة. قـال وقد يقـال أيضا للمكـتري الكرى عـلى فعيل لأن الفـاعل والمفعـول متكاريـان ومفاعلان وفعيل في معنى ذلك كثير. ويقال للمكاري الكرى أيضـا على فعيـل وهو الأجير والمستأجر قال الراجز:

إن الـكـريّ والأجـيـر والـعـمـل   مشـتـركـون فـي العـنـاء والعـمـل

وقد لعب الإدغام دوره في الضـدية في قـول الشاعـر: برّديـه تصاديـه سخيتا وأصله بل رديه، ومثل ذلك معتد ومزدان ومختار مما نشأ عن علل صرفية، تلك التي نبـه عليها ابن درسنـويه في حـديثه عن منـع الاشتراك اللفـظي عامـة، ولا شك أن ابن درسنـوية وهـو النحوي أدرك أثـر هذا الإدغـام وتلك العلل الصرفيـة في هيئة الكلمـة وبنيتها ولـذا فهو يلجـأ إلى التأويـل كمعنى النسب وغيره وكتحـديـد المعنى الصحيح، وبذلك يبطل ما على فعيل وفعول للفاعل والمفعول.

الاشتقاق: جعل اللغـويين استـأصل الله شـأفته من الأضـداد وخفته العـامة وليس معناه على هذا مراد العرب، ولو أرادت ذلك لكان دعاء للمريض وغيره وإنما أرادوا الدعاء عليه لا له وذلك أن الشأفة.. بثرة تكون في أسفل القدم.. فكأنـه دُعيَ بأن يؤتى عـلى جميعه حتى يـذهب أسفل قـدمه (السـابق ١ / ٣٢٣). وقال: «... منـه قولهم الماء مشفوه أي مطلوب بالشفاه وهذا ماء مشفـوه أي يكثر الشراب أو السقـاة على شربه، وذلك إذا قلّ من كثرة من يرده، وطعام مشفوه مثله (السابق ١ / ٣٥٢) فانظر كيف عدّ اللفظ مشفوه من الأضداد. وهو يجعل كل مادة أصلا برأسها وتبعـه في ذلك الفاسي في موطئه الفصيح. وعلى أساس من هذا يخرج القانـع والمستخفي، الذفر، ظاهريّ، المؤدي، الجديد وغير ذلك من الأضداد.

وقد لعبت الحركات دورها: في وقوع الأضداد فقد روي قوله ﷺ : «إياكم والمغمضات من الذنوب» بالوجهين المغمضات بالكسر وهي الذنوب الكبيرة والمغمضات بالفتح وهي الذنوب الصغيرة، فاختلاف هيئة الكلمة يوجب اختلاف المعنى. قال ابن درستويه عن قنع: «وأما قوله قنِع الرجل قناعة بكسر النون في الماضي فمعناه رضي بحظّه وصبر على ضرّه، واسم فاعله قنِع بكسر النون بغير ألف، وقنوع على فَعول في المبالغة. وأما قوله قنَع بفتح النون قنوعا فمعناه سأل وتعرض وطلب واسم فاعله قانع ومنه قول الله عز وجل ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ والمستقبل منهما جميعا يقنَع بفتح النون، فالأول يجري مستقبله على ماضيه على الأصل والثاني يفتح مستقبله لحرف الحلق وأصله غير ذلك ومصدر الثاني القنوع على فعول، كما قال الشمّاخ:

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

وبذلك تخرج الألفاظ: المفرح، السرف، سعل، الذفر (السابق ١ / ٧٥ وانظر أضداد الأنباري في هذه الألفاظ).

والفعل شكر ونظائره يجعله النحاة متعديا بنفسه أو بحرف الجر وجعله ابن درستويه متعديا إلى واحد بنفسه وإلى آخر بوساطة حرف الجرّ. والذي حمله على ذلك أمران هامان عنده أولهما قوله بإبطال الأضداد فالتعدي قوة واللزوم ضعف فكيف يجتمع الضدان في شيء واحد في حالة واحدة وهذا ما لايقول به بل يبطله، وثانيهما انكاره الزيادة في الكلام فلا يذهب القائلين بأن الأصل تعديه بنفسه وحرف الجر زائد كما ورد في الهمع ولذا جعله متعديا إلى مفعولين. وكذلك هو دائما يرد الأشياء إلى أصولها وقائل بالتطور اللغوي والتهذيب (انظر السابق ١ / ١٢٥، ١٢٦).

فهذه مدرسة قامت بتهذيب اللغة كان منها بل ربما على رأسها ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦هـ قال: «ومن ذلك أن يسمىّ المتضادان باسم واحد والأصل واحد فيقال للصبح صريم قال الله سبحانه وتعالى ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي سوداء كالليل لأن الليل ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل. وللظلمة سدفة وللضوء سدفة

وأصل السدفة السترة فكأن الظلام إذا أقبل ستر للضوء ستر للظلام. وللمستغيث صارخ وللمغيث صارخ لأن المستغيث يصرخ في استغاثته والمغيث يصرخ باجابته. ولليقين ظنّ وللشك ظنّ لأن في الظن طرفا من اليقين...».

وهكذا في نص طويل تناول كثيرا من الأضداد (انظر القرطبي للكناني ص ٢٧ ـ ٣٠) فأوضح ابن قتيبة بهذا بعض الأسس العامة لأبطال الأضداد وأسبابها إذا رجعها إلى اعتبارات مجازية وإلى التطير والتفاؤل والمبالغة في الوصف، والاستهزاء والاشتراك في الأصل، ونسبيّة بين السيئين. وفي كتاب المسائل والأجوبة، عالج كثيرا منها، فسميّ الحيض قرءا والطهر قرءا لأن كل واحد منهما يأتي لوقت معلوم وكل ما أتاك فقد أتاك لقرئه قال الهذلي:

كرهت العقر عقربني شليل إذا هبت لقارئها الرياح

أي لوقتها في الشتاء. كما عرض للخصوص والعموم وكتابه بعد ذلك يقوم على المجاز والتوسع فيه. وأما المبرد فبعدما عالج بعض الأضداد في كتابه «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد» تطلب القرينة قال.. كل من آثر أن يقول ما يحتمل معنيين فواجب عليه أن يضع على ما يقصد له دليلا لأن الكلام وضع للفائدة والبيان». وكان سبيله لإبطال الأضداد التأويل والمشاكلة وأكثرية اللفظ في معنى دون الآخر وقيام القرينة.

وشبيه الفرّاء في «معاني القرآن» قال: «بعته اشتريته وهذه اللغة في تميم وربيعة، سمعت أبا ثروان يقول لرجل: بع لي تمرا بدرهم يريد اشتر لي وأنشدني بعض ربيعة:

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له ظهر موعد

على معنى لم تشتر له بتاتا وهو الزاد. وقال في قوله تعالى ﴿بعوضة فما فوقها﴾ قال فالذي فوقها يريد أكبر منها وهو العنكبوت والذباب ولو جعلت في مثل الكلام «فما فوقها تريد أصغر منها لجاز ولست أستحسنه» (١ /٢٠ وانظر ١ / ٦١، ٩٩ / ١٣٢).

أما أبو الطيب (ت ٣٨١) وهو المعاصر لابن درستويه مع التسامح فتأتي أهمية

كتابه من أنه عقد فصلا في آخره للإبطال في الصيغ والادغام والمجاز وللمجاورة والقلب فضلا عن أنه روى عمن أبطل الأضداد في مقدمته قال: «ونرى من سبقنا إلى هذا الكتاب قد أدخل فيه ما ليس منه مما نحن ذاكرو صدرا منه في آخره بعد الفراغ من المقصد فيه» وقد أسقط كثيرا منها على عكس رغبته في المقدمة التي ذكر فيها قوله « هذا كتاب الأضداد في كلام العرب تحرينا في تأليفه بعد ما سبق من كتب السلف في معناه إحكام تصنيفه واحسان ترصيفه والزيادة على ما ذكر فيه والغاء ما خلط من غيره فيه لتقوى منه القائلين به ويضعف قول النافعين له، «فالمأتم النساء في وليمة أو مناحة أو غيرهما بعد أن يكن مجتمعات فليست عنده من الأضداد قال أبو حاتم الذي نصّ على المزال عن جهته من الأضداد: وسواء شواب أو عجائز أو مختلفات وأنشد:

سبتــة أنـاة من ربيعــة عـامــر نئوم الضحى في مأتم أي مأتم

فهذا لا يدل على فرح أو غمّ.

والمأتم من العام الذي خصصه اللغويون وساعد على ذلك استعمال الكتاب والشعراء له على مر العصور والبسل الحرام وعده تاج العروس من الأضداد، فبمعنى الحلال قول عبدالله بن همام السلولي:

أينقــذ مـازدتم وتمحي زيــادتي دمى ان أجيزت هذه لكم بسل

وقال أبو الطيب عن (بيضة البلد) إذا ذمّوه أو مدحوه المراد بذلك انفراده قال أبو حاتم يعني قول الراعي:

تأبي قضاعة أن تعرف لكم نسبا ـ البيت قاله على وجه الهزء قال وإن كان كذلك فلا يقال إلا في المدح خاصة. وقال من يمنع الأضداد: إنما بيضة البلد كل شيء مشتهر بشيء خيرا كان أو شرا وهذا الاسم يقع على الشهرة فقط ـ (أضداده ص ٢٢ ـ ٢٤) فالأصل الانفراد والشهرة وتفرع عن ذلك المعنيان وانظر التاج.
وقال عن الحرف: «وقال قوم من أهل اللغة الحرف من النوق الضخمة مشبهة بحرف الجبل، والحرف من النوق أيضا الضامرة مشبه بالحرف من حروف الكتابة وجمع الحرف من النوق أحراف (السابق ص ٩٠).

وتوسع في اللفظ ترب وأن ظاهره الشتم ومعناه التنبيه. ومما أبطله أبو الطيب طبقا لقاعدة عامة قوله: « هذا آخر الأضداد على الحقيقة، وقد أدخل علماؤنا المتقدمون فيها أشياء ليست منها نحن نذكر أبوابا لئلا يظن ظان أنا غفلنا عنها: باب يستوي فيه لفظ الفاعل والمفعول.. (ص ٣٣١ ـ ٣٧٤) وباب آخر يستويان فيه لادغام عينه في لامه.. (٣٧٥ ـ ٣٨٢) وباب لما جاء مسمى باسم غيره لما كان من سببه فأدخله من كان قبلنا في الأضداد قال: قال الأصمعي الحفض البعير الذي يحمل متاع البيت ثم يقال للمتاع الذي عليه الحفض.. (٣٨٣ ـ ٣٩٣) وباب لما تكلّمت به العرب مقلوب المعنى مزالا عن جهته فخلط بالأضداد وليس منها... (٣٩٣ ـ ٤٠١) وهكذا مضى في إبطال الأضداد شوطا أبعده من سابقيه وقرّبه من ابن درستويه الذي يعتبر من معاصريه وان كان قد ذكر من ألفاظها ٣٣٥ لفظا.

والقالي تلميذ ابن درستويه في البارع وفي المقصور والممدود أبطل كثيرا منها، فالرهوة عنده ليست من الأضداد لأنها شبه التل بصرف النظر عن مكانها في سهل أو جبل. وقال أهل الحجاز يسمّون الثمام الجليل وقد يقتصر على ذكر معنى واحد للمتضاد إلا أنه جعل الرواية سبيلا من سبل ابطال الأضداد (انظر البارع ص ١١، ٩، ٨٠، ٩٣، ٣٥٧ ونصّ على اللغات وانظر المقصور والممدود ٤٩٩، ٢٠٧، ٢١٠، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٤، ٤٧١ على سبيل المثال). والذفر حدة الريح من طيب أو نتن. والشرى رذال المال وخياره قال أبو علي أصل الشري الكثرة والانتشار وهنا اعتبر الأصل ودلّل على معنى الكلمة ومشتقاتها واستشهد لذلك. فاعتمد في ذلك ـ كما اعتمد أستاذه ـ على أسس متشابهة بينهما في اللغات والرواية والأصل وتخطئه العلماء ومذاهب العرب في كلامها والاقتصار على الخصوص لا العموم والبعد عن القلب وغيره ذلك بأمثلته وحججه. ومن ذلك يتضح أن القالي أفرغ جهده في ابطال الأضداد وقد استثنى أستاذه منها ألفاظا نادرة العلل. والحق أن الباحث عند تعرضه لأبطال الأضداد لا يسعه أن يخلط بين تفسير الضدّ وبين إبطاله لما لذلك من علاقة تماما كالطبيب حينما يعرف سر المرض يمكنه أن يتغلب عليه ويبطله، ففهم نشأة الأضداد وأسبابها وتفسيرها كل ذلك يعين إلى حد كبير نجاح انب درستويه وتلميذه القالي من بعده في إبطال الأضداد.

وهناك كتب معاني الشعر على تسلسل أصحابها عالجت الأضداد ولا غرو

فهي وثيقة الصلة بذلك لأنها تبحث في الأبيات المشكلة المعاني، وكلها تدور حول المشكل الذي يحتمل أكثر من تفسير فالاشناندي يعقب على الضد بقوله زعموا، أو هو من الأضداد عندهم، أو يفسر ألفاظه تفسيراً واحداً بمعنى واحد كما فعل في «مشيح» أو يعلل لها كما فعل عند قوله عن الشمس جونة: وتلك حقيقة فالبصر يعني إذا أحد النظر إلى الشمس وكما فعل في معنى ضئيلة، فذلك يفسر لنا بعض ما ورد من تصغير التعظيم، ولعل تصغير التعظيم يرجع في الحقيقة إلى حالة نفسية كما في قولهم دويهية وذلك ليهونها المرء على نفسه، ولكن الأشناندي مع ذلك كله كان يقف أمام الأضداد مبهوتا. والحقيقة أنه ليس هناك تصغير تعظيم فكل ماجاء منه يرجع إلى التحقير، والاصلاح المعهود ترادف التصغير والتحقير يؤيد ذلك، وقد حذّر ابراهيم ابن المدبر في الرسالة العذراء ص ٦، ١٩، ١٣، ٨٩، ٩٠ من استعمال التصغير في موضع التعظيم. وقال الجاحظ: «ورب اسم إذا صغرته كان أملا للصدر كقولك أبو عبيدالله هو أكبر في الأسماع من أبي عبدالله. وربما كان التصغير خلقة وبنية لا يتغير كالحميّا والسكّيت (الحيوان ١ / ٣٣٦ بتحقيق هارون).

والمثبت لذلك الكوفيون فقد زادوا هذا الغرض وخرجه البصريون على التقليل لأن الداهية إذا عظمت قلت مدتها، والحية إذا كبرت صغر جسمها واشتد سمها (شرح التصريح ٢ / ٣١٩) وقالوا عن جبيل: أنه طويل في السماء قليل العرض فصغر لهذا وهو أشق لصعوده (شرح شواهد المغنى ١٣٧) وعلى ذلك فالتصغير على حقيقته، وكان سبيل البصريين التأويل، ولذا تناوله المعافي بن زكرياء وقال إنما أريد به أنه إذا كان الصغير منه يبلغ هذا المبلغ ويؤثر هذا الأثر فالكبير أعظم وأبلغ وهذا التناقض بين شكل الكلمة «تصغير» ومعناها «تكبير» دعا المعافي إلى استخراج مذهب له فيها قال: فالدويهية صغيرة جرت أمرا كبيرا (المجلس الرابع).

وكتاب البطليوسي «الانصاف في التنبيه» على الأسباب التي أوجبت الاختلات بين المسلمين في آرائهم بصرف النظر عن موضوعه عالج كثيرا من الأضداد وأبرز أسباب ذلك وانظر التاج في المواد الآتية، وتبين مسلكه في تناولها فإنه

يؤيد ما نحن بصدده من أبطال الأضداد في: الردان، الرون، سدف، شدف، هوى، حرف، ورى، نما، قوى، قتا، زعم، نجز، رسّ. الفأل، دحا، فزع، ضعف، صدق، كل، نوى، وغيرها. وانظر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/٢٤٣، ١٧/٦١، ١٩/٢٢٨، ٢٣٦، ٢٣٧، ١٧/٢١٩، ١/٣٧٥، ٣٧٦، ١٨/٣٠٣، ٨/٣٥٢، ١١/١٨٢، ١٨٥، ١٢/٦٤ في الآيات التي ورد فيها لفظ من الأضداد نحو: «عسعس» «فظلتم تفكهون» «الذين يظنون أنهم ملا قوربّهم» «وإني ظننت أني ملاقٍ حسابية» «ما لكن لا ترجون لله وقارا» «وأسروا الندامة» «وإن الساعة آتية أكاد أخفيها» «وأطعموا القانع والمعترّ».

فالقول بالضد فيها رأى أناس لم يدركوا سر هذه الآيات فاعتمدوا على القول بأن أحد معنيي اللفظ غير معروف، أو هو على سبيل قطع الكلام والابتداء بغيره، أو على سبيل السلب أو ولا أضداد أو أن في الكلام حذفا.

فعمل هؤلاء السابقين جميعا كان ضرورة اقتضاها تهذيب اللغة وتنقيتها، فالأضداد خروج عن العرف المألوف وعن مقاييس الصواب، خاصة في القرآن فهي باب أدخل على العربية الطعن من الشعوبيين، وهي باب من أبواب لحن العوام والخواصّ في المعاني على السواء، قال ابن درستويه «اللغة موضوعة للإبانة والمشترك تعميمه ولكن قد جاء منه النادر لعلل، فيتوهم من لا يعرف العلل أن اللفظ وضع لمعنيين والسماع في ذلك صحيح عن العرب. . وإنما يجيء ذلك من لغتين أو لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفى ذلك على السامع فتأوّلة فيه الخطأ. (تصحيح الفصيح ١/٣٥) فكتابه في ابطال الأضداد لم يصلنا إلا أن هذا النص وما سبقه من نصوص له يقفنا على منهجه في ابطالها، وحقّ له أن يبطلها خاصة اذا وردت في كتاب الله تعالى».

وكان دافعه إلى ذلك أمران:

١ ــ قوله بين اللغة توقيف من الله تعالى فيجب أن ينزّه عن التضاد حيث لا يخلو من الحكمة.

٢ ــ أخذه على عاتقه تهذيب اللغة كما ارتأى ذلك ناشر كتابه «كتاب الكتاب» في مقدمة له بالفرنسية. فكلا هذين دافع أساسي يدعمهما أمر آخر هو عنايته بتو

جيه الكتاب ونقد النثر، اذ يشترط في الكتاب معرفته باللغة وخاصة الأضداد. وقد حذر ابن المدبر في الرسالة العذراء من استعمالها واستعمال ما جاء خاصّا بالقرآن وقد رأى «رد الاسلوب» أن ما ذكر من ألفاظ الأضداد تعوذه الشواهد القوية في غالبها وأنه لا يجوز الاعتماد في اثبات التضادّ على موضع اللفظة من الكلم دون الاعتماد على الأصل اللغوي لها، ورأى اخراج الحروف والأفعال وصيغها الدالة على زمانين مما اعتبر من الأضداد لوجود معان أخرى لها. وما يضاف إليها لاشتراك المحلية والحالية كالكأس وما على لفظ فاعل ومفعول وألفاظ التهكم والاستهزاء والتفاؤل، وأضاف الجارم تساهل العلماء في تكثير معنى اللفظ والتطورات الصرفية وألفاظ المجاز، والمشترك (مجلة المجمع م ٢= ص ٢٢٨ فما بعده). وقد عقد ابن سيده في المخصص ١٣/٢٥٨ ـ ٢٦٠ كتابا للأضداد قال: . . . أما القسم الثالث وهو اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فينبغي ألّا يكون قصدا في الوضع ولا أصلا، ولكنه من لغات تداخلت، أو تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الأصل، قال: وكان أحد شيوخنا ينكر الأضداد التي حكاها أهل اللغة وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده (انظر الأصول للخضري ١٧٤ ـ ١٧٦).

وقد علّل لها جيز بأن يكون أحد المعنيين لمعنى ثالث في لغة كجلل اذ يرجع هذا اللفظ في العبريّة إلى معنى دحرج ولا يخفى أن الشيء المدحرج قد يكون ثقيلا كالحجر أو خفيفا صغيراً كالغبار، وعدم قابلية التأثيرات والانفعالات للضبط المحدود كذفر للرائحة الطيبة والمنتنة، وتداخل الأحداث فما هو آخر أم رقد يكون أولاً لغيره كسر الشهر أوائله وأواخره والأصل فيه ما يصل بين الشهر السابق والشهر اللاحق والسدفة حالة بين النور والظلمة، والتباس نسبة الفعل إلى الفاعل كباع واشترى فأصلهما المبادلة وهما أمران متلازمات في التبادل. وأجاز منصور فهمي استخدام اللفظ استخداما يؤدي إلى التضاد كهبطنا بالمصعد، والتفاؤل كالمفازة والتهكم وهو نزعة نفسية كما أضاف إلى ذلك بداوة العرب وقلة المحصول اللغوي، ففي ذلك ما يعلل نشأة الأضداد عنده (مجلة المجمع م ٢/٢٢٨).

وفي رأيي أن التضادّ ليس من طبيعة اللغة وإنما هو شيء عارض فيها تطورت به اللغة ومرّت بمراحل حتى صارت اليه ويبرز ذلك كله ما ذكره ابن الأنباري فقد بلغت عنده ٢٩٣ لفظا ووقف من كثير منها موقف المنكر لها في صراحة تامة واستقصى الشواهد وعلل وحلل (ص ٣٥٨، ٣٥٧، ٢ ـ ١١) مهتديا بما سبق أن بيّنه من السياق وأصل المعنى، والنسبة، والتشبيه، . واللغات وتداخلها، والتصحيف والتحريف. فقد جمعت اللغة دون تمييز بين لهجاتها المختلفة مما أدى إلى وقوع الأضداد وحدوثها في العربية كالجون الذي قال عنه قطرب أنه الأسود في لغة قضاعة وفيما يليها الأبيض، وأهل نجد يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح، وأهل الحجاز بعكس ذلك، ولمقت الكتاب كتبته وسائر قيس يقولون لمقته محوته، والسامد في كلام أهل اليمن اللاهي وفي كلام طيىء الحزين وشريت ابتعت ولكنها بمعنى بعت في لغة غاضرة، والسدفة الظلمة عند بني تميم والضوء عند قيس، والحائب في لغة بني أسد القاتل والمعصر في لغة قيس وأسد التي دنت من الحيض وفي لغة الأزد التي ولدت أو تعنّست. وطيىء تقول عينّ للجديد، والمقورّ السمين في لغة الهلاليين وفي لغة غيرهم المهزول والساجد عند طيىء المنتصب وهكذا في ألفاظ كثيرة.

يضاف إلى جل ما سبق أن الجانب المهم في اللغة ليس هو مطابقة الكلمات المنطوقة أو المكتوبة للصور والأفكار الذهنية المعبر عنها، إنما ما تحدثه من أثر في السامع أو القارىء ولذا قال د/ عبد العزيز عبدالمجيد في كتابه (اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها): وعلى هذا فلا يكفي أن يقال إن اللغة وسيلة للتعبير كما لا يكفي أن يقال إنهّا وسيلة لنقل أفكار المتكلم إلى السامع، بل هناك إلى جانب هذا النقل شيء آخر مقصود من وهو استجابة السامع وتلبيته لأثر ما أدركه من كلامك. . وسواء أكانت الحالة العقلية الناجمة من سماع الكلام عند المتكلم تطابق تماما الحالة العقلية التي في ذهن المتكلم أم لا. . . وما يحدث من اختلاف الصورتين راجع إلى اختلاف في خبرات كل منهما، وذاكرته وتخيله ودقة استعماله للكلمات والجمل» (ص ١٦ ـ ٤٠) وأوضح أن الصورة المتخيلة لمدلول الكلمة ليست الا جزءاً فقط من المعنى الدي يقوم في ذهن الفرد عندما يفكر في مدلول الكلمة أو الجملة التي أحدثت هذه الاثارة. ومن أجل ذلك كله ميز العلماء بين أربعة عناصر أساسية تكون معنى الكلمة أو الجملة هي: المدلول عليه، والشعور

الوجداني، والنغم، والقصد، فشعور المتكلم نحو شيء من الأشياء قد يكون حبا ورغبة بينما يكون شعور السامع كراهية ونفورا بحسب التجارب الماضية لكل منهما. والعنصر الرابع هو القصد، فللخطيب والواعظ والداعية المتحدي والهازل قصد خاص من كلامهم. وقال د/ بلا رد: إنه ليس من السهل التمييز بين القصد والنغم، ولكن يتضح الفرق بينهما في حالة مثل التهكم مثلا، فالمتهكم يقول شيئا ويقصد شيئا ضده وهو يتوقع من السامع ألّا يفهم العبارة على ظاهرها، ومن أمثال ذلك قوله تعالى ﴿ذق انك أنت العزيز الكريم﴾ وكذلك طريقة التجاهل عند سقراط مثل لهذا العنصر.

ولقد لعبت السوابق واللواحق دورها في الأضداد، يظهر ذلك في الأفعال: ظاهرة راغ، طلع، غرض، رغب، فانظر لفظ راغ في أضداد الأنباري ص ١٣٢ على سبيل المثال فالغرض الضجر والملال حينما يعدى بمن، وهو بمعنى الشوق إذا عدى بإلى كما قال الشاعر:

اني غرضت إلى تناصف وجهها غرض المحب إلى الحبيب الغائب

وهكذا تكثّر العلماء من ألفاظ الأضداد، إذ كان اتجاههم هو اتجاه الجمع دون نظر أو تمحيص أو تفكير فيما أدى اليها شأن النظرة إلى اللغة الراهنة في كل عصر اللهم الا ما بدا عند أبي حاتم من التجميع حول ظاهرة معينة يفسر على ضوئها جملة ألفاظ من الأضداد وما أثار حول بعضها من الشكوك في القول بها، والا ما كان من ابن الأنباري وأبي الطيب إذ جنحا من الناحية العملية التطبيقية إلى ابطال كثير منها، وكذلك ما كان عند المبرد والفرّاء وابن قتيبة من سعة أفق، وحتى البطليوسي - وهو أعدى أعداء المنكرين لها - قد فسّر كثيرا منها ووضح أسباب ورودها في هذا الباب.

ومجمل القول أني رأيت الذين بحثوا في الأضداد وأسبابها قصّروا في ذلك وأشاروا إلى القليل منها، فأسبابها كثيرة كاللغات واللهجات، والتزيد عند العلماء، والصرف، والضرورة، والعموم، والخلاف النحوي، والغموض، والرواية، والنسبية والتعريب والمجاز والقلب والاشتقاق. وقد استغل مبطلوها من ذلك المجاز، وحسن الرأي، والتفسير وفعل وأفعل، واختلاف معناهما، واللغات،

والقلب، والصرف والنسبية والاشتقاق والتصحيف والتحريف، وتعاقب الحروف، مما شمل جميع الأضداد بالابطال الا النادر منها.

والحقّ - كما سبق أن قللت - اني لم أستطيع التمييز بين أسباب الأضداد وطرق ابطالها بوضوح فلا يسعني الا التسليم بفكرة ابن درستوريه ازاءها فذلك تطور لغوي وليس بأصل الوضع.

فإذا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تنمو وتتطور، فهن التطور يكون في الجانبين فالكسب اللغوي في ناحية يقابله الخسارة في ناحية أخرى، فقد طرأ عليها عوامل تشويه كالتصحيف والتحريف والدخيل واللحن وغير ذلك، مما جعل العلماء يخلطون في جمعهم للغة وفي تفسير معاني ألفاظها، وتبادر الحقيقة عندهم دون المجاز، فحق لهؤلاء الغيورين عليها أن يهذبوها ويحددوا معاني كل لفظة، ويوضحوا أسباب الخلط، ويستدركوا على سابقيهم بالحجة والدليل، وينافحوا عنها ضد من طعن عليها، خاصة وأن القول بالضد قد جاء في آيات قرآنية كثيرة وهذا البحث قُلْ من كُثْر، فالمجال واسع لا تفي به هذه الوريقات، وأرجو أن أكون بما قدمت من قول قد عرضت فكرة مقتضبة عن بعض ما عُدّ من خصائص اللغة وكان في الوقت نفسه من المآخذ عليها، ولذا آثرت أن يكون العنوان «من التهذيب اللغوي» وليس التهذيب كله. وجزى الله الغيورين على اللغة خير الجزاء، ورحم الله أستاذنا (عبدالسلام هارون) فهو سبيل لاثراء العلم حيّا وميتا والذي كان دقيقا في كل ما عرض له من تحقيقات في لسان العرب وغيره وفيما بعث من كتب التراث التي لولاه لما رأت النور فعلى كل من يتناول لفظا بالفهم أن يستحضر في ذهنه كل ما سبق من قول. وهذا جهد المُقِلُ، فإن أصبت فللّه المنّة والفضل والحمد منه وإليه، وإن قصّرت فذلك كان قدري، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

«المخ ودوره في عملية الاتصال اللغوي»*

بقلم: البروفيسور ديفيد كريستال
ترجمة الدكتور: يحيى أحمد
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

يمكن دراسة المخ من زاويتين:

١ ـ من الجانب العصبي ـ الفسيولوجي.
٢ ـ من الجانب اللغوي في عملية الاتصال، أي كونه «مصدر المعلومات».

والجانبان مهمان في معالجة مشاكل الكلام. فحينما تكون هناك مشكلة في استعمال المرء للغة، فإنه من الممكن أن يتجه تشخيصنا في مسارين:

أ ـ المسار الأول مسار لغوي، ولكن التفسير بالدرجة الأولى نفسي، أي يمكن أن نعزو السبب إلى أسباب نفسية كأن نعرف متى يؤثر العجز الذي يحصل لقدرة المخ على العمل في أنماط السلوك واللغة كذلك.

ب ـ المسار الثاني مسار اكلينكي، حيث يأخذ التشخيص بعداً آخر، فنحن هنا نريد أن نعرف ما إذا كانت الإعاقة اللغوية نتيجة لمشكلة عامة كالصعوبة في الفهم أو تخزين المعلومات.

(*) هذا العنوان الذي وضعته أنا يضم القسم الأول والثاني من الفصل الثالث الذي عنوانه The Communication Chain من ص ٦٢ إلى ص ٩٣ من كتاب Introduction to Language Pathology تأليف الأستاذ الدكتور David Crystal ومن منشورات Edward Arnold, London 1980.

إذا أردنـا أن نتوقف وقفـة قصيرة عنـد طبيعة المسـار الأول، فـإننـا نجـد أن النموذج الذي يمثل عملية الاتصال يشكل خير بداية للموضوع. هناك:

أ ــ العمليـات المدخليـة Input Processes أي الطريقـة التي نفهم بها المعلومـات ونخزنها في الذهن ونستجيب لها فسيولوجيا.

ب ــ العمليـات الـوسيـطة Mediating Processes وهي تتعلق بتنـظيم المعلومـات وتعلمها حال استقبالنا لها، وذلك للإستفادة منها في الاستعمال مستقبلا.

جـ ــ العمليات المخرجية Output Processes، وهي الطريقة التي نستخدم بها تلك المعلومات لكي ننمي سلوكنا الاجتماعي والبيولوجي بالقياس إلى مفاهيم مثل أهدافنا وبواعثنا ومهاراتنا.

لقد طور علماء النفس عدة تجارب، وهذه التجارب قـادتهم إلى مفاهيم مثـل قـدرة الـذاكـرة عـلى التعـرف Recognition (حيث يتعلم الشخص مجمـوعـة من الكلمات، ثم تعـرض أمامـه مجموعـة أخرى ويسـأل ما إذا كـان قد رأى أيـا منها في المجموعة الأولى). وكذلك قدرة الذاكرة على التـذكر recall (حيث يتعلم الشخص مجموعة من الكلمات ثم يطلب منه بعـد ذلك أن يقـول ماذا كـانت تلك الكلمات). ومفاهيم أخرى مثل إعادة تعلم بعض الأشياء أو المفاهيم والتجديد Redintegration (أي عملية إعادة صياغة تجربة مررنا بهـا في الماضي إعتـمادا على بعض المبـادرات أو المفاتيح).

إن هذه النظـرة إلى المخ، أي كـونه أداة معـالجة المعلومـات[1] Information-Processing، نظرة قيمة لما نرمي إليه هنا، حيث أنها تسمح لنا بتطوير إطار سلوكي لدراسة الإعاقة السيكـولوجيـة. والإعاقـة السيكولـوجية تتمثـل في اضطرابـات في الانتباه والفهـم والذاكرة الخ . . . وهذه الميادين يمكن تقسيمهـا إلى فروع بـالنظر إلى النمط الحسي المصاب بالإضطراب، وعندئذ تكون عندنا تفـريعات مثـل: الذاكـرة المتعلقـة بـالسمـع Auditory Memory الفهـم المتعلق بـالـرؤيـة Visual Perception،

---

(١) يقصد بمعالجة المعلومات استقبالها وتحليلها وفهمها وخزنها ثم إعادة استعمالها. وهو ما يقوم به المخ كما سيمر بنا.

الانتباه المتعلق بالسمع Auditory Attention وهناك العديد من التجارب النفسية التي صممت لقياس الاختلاف في القدرات في هذه الميادين. إن عوامل مثل الفهم والذاكرة والتعلم تمثل جزءاً كبيرا من قدرة المخ على معالجة المعلومات. وعلى الرغم من أن كل عامل يشكل جزءاً مستقلا بحد ذاته، إلا أنه ينظر إليها مجتمعة على أنها مجموعة متداخلة من العمليات، لها علاقة باكتساب المخ للمعلومات وتنظيمه لها واستخدامه لها.

يتضح لنا من هذا العرض أن المخ أساس المعرفة[٢]. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نزعم أن المعرفة هي الخطوة الأولى في عملية الاتصال. ولكن هذا تبسيط للأمور. فليس من الواضح اطلاقا ـ حسب معلوماتنا الحالية ـ كيف تتشكل المعلومات وكيف تخزن في المخ. كم مستوى من التخزين موجود في المخ؟ وفي أية نقطة يجب أن نسلم باللغة كحقيقة سيكولوجية. وطبقا لإحدى وجهات النظر فنحن «لدينا فكرة» نرغب في توصيلها، وهذه الفكرة توجد أول كل شيء في المخ منفصلة عن اللغة التي نقرر استعمالها في التواصل. وهناك وجهة نظر أخرى تعطى المسألة شكلا لغويا. فهي تذهب إلى أننا نملك «لغة داخلية». وطبقا لوجهة نظر ثالثة فإن هاتين الخطوتين (التفكير واستعمال اللغة) لايمكن الفصل بينهما فصلا حاسما. فعملية التفكير تتطلب اللغة، وتكوين الأفكار في المخ يستدعي أن يكون لها هوية لغوية من نوع ما.

وهناك أدلة على الرأيين، اعتمادا على نوع النشاط الذي نريد التحدث عنه. فمثلا بعض أنواع الاستجابة العاطفية لا تتدخل فيها اللغة: مشاعرنا ونحن نستمع إلى الموسيقى لايمكن ـ كقاعدة عامة ـ أن نصوغها في كلمات. ومن جانب آخر، فإنه ليس بالإمكان عادة أن نخطط مراحل مشكلة من المشكلات (مثلا كيف نسافر من أ إلى ب) بدون أن نصوغ المشكلة لغويا. وفي بعض الأحيان يكون من المجدي أن نتكلم عن المشكلة، أو أن نكتبها قبل أن تتضح فكرتنا.

ونحن نستطيع أن نرى توظيف الاحتمالين في عملية اكتساب الأطفال للغة:

---

(٢) المعرفة مصطلح سيكولوجي يشمل العديد من العمليات التي يقوم بها العقل مثل الفهم والتذكر والانتباه والتخيل وحل المشكلات والتفكير وتثمين المواقف.

فمن جانب هناك كما لا يخفى الكثير من الحالات التي يعرف فيها الطفل حتما ماذا يفعل بشيء من الأشياء بدون أن يكون قادرا على أن يقول ماذا يفعل، أو أن يسمى هذا الشيء، أو أن يفهم لغة الأناس الآخرين عن هذا الشيء. ومن جانب آخر، فإن هناك حالات يكون فيها الطفل قادراً على تنظيم تفكيره وذلك فقط بامتلاكه لغة تستطيع أن تعينه على ذلك (وذلك مثلا حينما يستعمل مصطلحات الألوان للإشارة إلى أشياء في العالم حواليه) وكمثال توضيحي ثالث لهذا الموضوع، هناك الكثير من حالات الإعاقة حيث يعاني المريض من صعوبة في التفكير أو من صوبة في اللغة ولكن ليس من كليهما. كما قد نجد حالات من الإعاقة تشمل الجانبين معا (أي الفكري واللغوي) وبسبب مجالات الاختلاف الكثير، فإنه يفرق عادة بين «التنظيم المعرفي» Cognitive Organisation و «التنظيم اللغـوي» Linguistix Organisation والعلاقة بين هذين التنظيمين مجال بحث مستفيض في الوقت الراهن.

ما يتمخض عن النقاش حول هذا الموضوع هو وجهة النظر التي تذهب إلى إمكانية وجود عدة مستويات عميقة من الترميز Encoding تكون دائرة في المخ بينما يأخذ الاتصال مجراه. وحتى ضمن «مستوى» التنظيم اللغوي فإنه يمكن أن تكون هناك عدة مستويات من الترميز. ولنفكر الآن: كيف يتمثل المستوى الصوتي والمستوى النحوي والمستوى الدلالي في المخ؟ هل يقوم المخ بتوليد المعاني أولا على شكل كلمات ويقوم من ثم بصياغتها في جمل، ويعطيها بعد ذلك شكلا صوتيا؟ أو أن الشكل النحوي يتألف أولا، ثم توضع فيه المفردات بعد ذلك؟ هناك بكل بساطة عدة احتمالات، وهناك كم هائل من البحث يدور حول مدى توفر أدلة يمكن أن تسند هذا النمط أو ذاك من التمثيل اللغوي في المخ. فمثلا، من الواضح أننا لانخطط نطقنا لكي يأخذ شكل كلمة كل لحظة (أي كلمة أثر كلمة A Word at a Time) ولو كان الأمر كذلك فإن «تخطيطنا العقلي» ستعكسه طريقتنا في التردد وفي تنغيمنا للكلام. سيكون هناك توقف بعد كل كلمة، أو على الأقل نفس الكمية من التوقف بعد كل كلمة، مع وجود تغيرات عرضية بسبب التغيرات في انتباهنا، وبسبب التعب وغير ذلك. ولكن الكلام طبعا لا يكون مثل ذلك (أي كلمة كل لحظة). إننا نتوقف ونعطي لكلامنا شكلا بواسطة التنغيم، ولكن هذه الملامح لا يبدو أنها ترتبط بالطريقة التي نستعمل بها الكلمات، ولكنها ترتبط بالطريقة التي

نستعمل بها وحـدات نحويـة أكبر. إننـا نتوقف بـين العبارات وليس خـلالها. ولـو تـوقفنا خـلال العبارة، فـإنه ليس من قبيـل الصدفـة أن نعرف أين سيقـع الوقف: الاحتمال أن الوقف سيقع بين المكونات الرئيسية للجملة (مثلا بين الفعل والفاعل، أو بين الفعل والفاعل والمفعول به). وبتوظيف هذا النوع من المعلومات نستطيع أن نخرج بخلاصة حول كيفية تنظيم المخ لعملية الكلام.

الأسس العصبية للمخ:

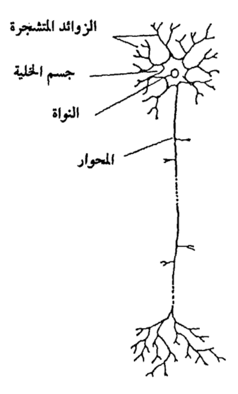
نستـطيع بعـد هذا أن نتكلم عن المـخ ضمن المسار الثـاني الذي أشرنـا اليـه آنفا. إن الأساس المعرفي ـ اللغوي للاتصال ينظمه المـخ. وهناك شيء واضـح وهو أن المعلومـات يجب في النهايـة أن تحول إلى إشـارات قادرة عـلى أن تبث عن طـريق الجهاز العصبي. وهذه عملية تبدأ في المخ وتتعداه فيما بعد. حيث تذهب الإشارات إلى مساراتها فيما بعد، إلى العضـلات وغيرهـا من المتغيرات التي تتحكم في انتـاجنا للكلام وفي سلوكنا اللغوي المتمثل بالكتابـة. ومن المهم لذلـك أن نأخـذ فكرة عـما لدى الجسم الإنساني من جهاز يمكنه من بث المعلومات.

والعلم الـذي يدرس هـذا الجانب يعـرف بـ (علم الأعصاب الفسيـولـوجي Neurophysiology).

الشبكة التي عن طريقها تبث الإشارات تعرف بـ (الجهاز العصبي) Nervous System ولقد قدر أن هذا الجهاز يحتوي على ما يقرب من ١٠ بلايين خلية عصبية. والخلية العصبية تعرف بـ (النيورون) neuron.

ووظيفتها هي أن توصل النبضات الكهربية.

وبنية النيورون يوضحها الشكل التالي:



شكل رقم (١)

كل نيورون يحتوي على جزءين أساسيين: جسم الخلية الذي يحتوي على نواة الخلية ونسيج أو أنسجة متشعبة تعرف عادة بالألياف العصبية. وهذه الألياف تختلف في الطول حيث يبلغ أقصرها أجزاء من المليمترات ويبلغ أطولها قرابة المتر.

وهناك نسيج يحمل النبضات الاشارية من جسم الخلية وهو يعرف بـ (المحوار) Axon. ويمكن التعرف على المحور بأنه لا تتفرغ منه أية أنسجة في طوله. وهناك أنسجة توصل النبضات إلى جسم الخلية، وهذه الأنسجة تعرف بـ (الزوائد المتشجرة) Dendrites.

النبضات المحمولة من جسم الخلية تذهب إلى العضلات فتحملها على التقلص. إذن فالغدد والعضلات أعضاء مؤثِّرة (بكسر الثاء) Effector Organs لأنها تنفذ الاشارات والنبضات المحمولة إليها من المحوار.

أما أعصاب الحس Sensory Nerves فهي تحمل النبضات (أو الإشارات) من الأعصاب الحساسة في الجلد وغيره من الأنسجة Tissues والتي تستجيب لأنواع المؤثرات إلى النيورون.

هناك مجموعة من النيورونات تبث الإشارات من أعصاب الحس المستقبلة إلى المخ. وهناك مجموعة من النيورونات تحمل الإشارات في الاتجاه المعاكس (من المخ إلى الأعصاب والعضلات).

والإشارات تنتقل من نيورون إلى آخر عن طريق سوائل كيميائية. ورحلة الإشارات في النيورونات تختلف في الفترة الزمنية، وهناك عوامل تتحكم في زمن البث منها نوع العصب الحامل للإشارة، محيطها العام، وفوق كل ذلك طبيعة غطائها الحامي Protective Covering. أغلب الألياف مغطاة بمادة شحمية بيضاء اسمها (النخاعين Myelin)، وهذه المادة تشكل غطاء عازلا للألياف. وهذا الغطاء العازل ليس متصلا، حيث أنه ينعقد مع مسافة كل نصف ملليمتر. وهناك أيضا اختلافات في ضخامة (النخاعين). وأهمية ذلك أن حجم النخاعين يؤثر في سرعة ارتحال النبضات الإشارية. فكلما كانت المسافة بين نخاعين وآخر كبيرة كلما كانت سرعة انتقال النبضات أكثر. وكذلك تكون السرعة أكبر حينما يكون حجم النخاعين أكبر.

إن المصطلح «الجهاز العصبي» يطلق ـ إذن ـ على تلك المجموعة المعقدة من ممرات الإشارات في الجسم.

وينقسم الجهاز العصبي المركزي إلى قسمين: الجهاز العصبي المركزي، الجهاز العصبي الهامشي (أنظر الشكل في الصفحة التالية).

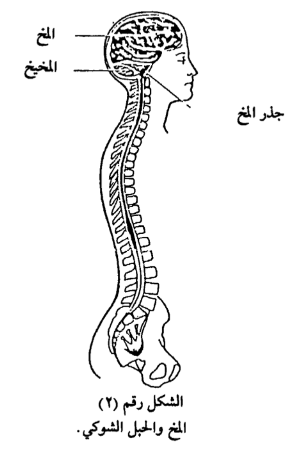
الجهاز العصبي المركزي Central Nervous System

يقع الجهاز العصبي المركزي في المحور العمودي من الجسم، ويتألف من المخ، الحبل الشوكي Spinal Cord الذي يتصل بالمخ، ثم الأغشية وأوعية السوائل والدم المرتبطة بالمخ والحبل الشوكي. والمخ العادي يزن ما بين ١٣٠٠ غرام للاناث و ١٤٠٠ للذكور. ويحتوي المخ على ٥ ملايين خلية عصبية في كل سنتيمتر مكعب،

أي حوالي ٢٥٠٠ مليون خلية اجمالا. أما الحبل الشوكي فطوله ٤٥ سم وهو محفوظ في العمود الفقري. Vertebral Columun.

الجهاز العصبي الفرعي Periphral Nervous System

وكما يدل عليه اسمه، فإن هذا الجهاز يربط الجهاز العصبي المركزي، وهو بذلك يخدم الأجزاء القريبة من سطح الجسم.



الشكل رقم (٢)
المخ والحبل الشوكي.

الأعصاب التي تتفرع من الحبل الشوكي اسمها أعصاب العمود الفقري Spinal Nerves. والواقع أن هناك ٣١ زوجا من أعصاب العمود الفقري وكل زوج يتفرع مع كل فقرة من فقرات العمود. وهناك فئة أو مجموعة أخرى من الأعصاب الهامشية تعتبر أكثر أهمية في دراسة الاتصال من عدة وجوه، وهذه المجموعة اسمها

الأعصاب الجمجمية Cranial Nerves ودورها هو أن تربط المخ مع الرأس والرقبة.

وهناك ١٢ عصباً جمجمياً تخدم الأجزاء التالية:

١ ـ العصب الشمي عصب من الأنف (يخدم حاسة الشم) Olfactory Nerve.

٢ ـ العصب البصري عصب من العين (يخدم حاسة الرؤية) Optic Nerve.

٣ ـ العصب الحركي ـ عيني عصب يخدم عضلات معينة من العين (حاسة الحركة) Oculomotor Nerve.

٤ ـ العصب البَكَريّ عصب يخدم عضلات معينة من العين (حاسة الحركة) Trochlear Nerve.

٥ ـ العصب المثلث التوائم عصب مزدوج الوظيفة يخدم حركة المضغ والحس في منطقة الوجه واللسان Trigeminal Nerve.

٦ ـ العصب المُبْعِد(*) عصب حركي، يخدم عضلات معينة في الوجه Abducent Nerve.

٧ ـ العصب الوجهي عصب متعدد الوظيفة يخدم جميع عضلات الوجه Facial Nerve.

٨ ـ العصب السمعي عصب حسي من الأذن Acoustic Nerve.

٩ ـ العصب اللساني ـ البلعومي عصب متعدد الوظيفة يخدم الحنجرة والجزء الخلفي من اللسان Glossopharyngeal Nerve.

١٠ ـ العصب الحائر عصب متعدد الوظيفة يخدم الحركة في منطقة الحنك والحنجرة والحبال الصوتية والحس وأعضاء الصدر والبطن Vagus Nerve.

١١ ـ العصب الشوكي الثانوي عصب حركي يخدم عضلات معينة في الكتف Spinal Accessory Nerve.

١٢ ـ العصب تحت اللساني عصب حركي يخدم عضلات اللسان Hypoglossal Nerve.

ومن المعلوم أن التلف الذي يصيب الأعصاب (٥) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) و (١٢) تترتب عليه آثار مباشرة على قدراتنا اللغوية. وكذلك الشأن بالنسبة

(*) ترجمة اقترحها مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

للتلف الحاصل للأعصاب التي تتحكم في وظيفة العين، ولكن الضرر يكون في هذه الحالة بشكل غير مباشر.

علينا الآن أن نقدم وصفاً تفصيلياً للمخ. ولكن من المفيد أن نقدم بادىء ذي بدء مصطلحات تمهيدية. لكي نصف أي جزء من أجزاء الجسم الإنساني وصفا تشريحيا، فإنه من المهم أن نستخدم مصطلحات متفق عليها دوليا، وإلا فإنه سيكون هناك غموض في الفهم عن الجزء الذي نتحدث عنه.

ماذا يعني مثلا مصطلح (على الجزء الخلفي) هل هو (خلفي) بالنسبة للملاحظ أو بالنسبة لمخ الشخص؟ لكي نتجنب مثل هذه المشاكل فإنه من المصطلح عليه أن ننظر إلى جسم الإنسان على أنه يمكن تقسيمه إلى خطوط. وهكذا، فإنه يمكن أن نتخيل خطاً عمودياً يقسم الجزء الأمامي من الجسم عن الجزء الخلفي. هذا التقسيم يقسم الجسم إلى جزء أمامي Anterior وإلى جزء قفوي Posterior (خلفي).

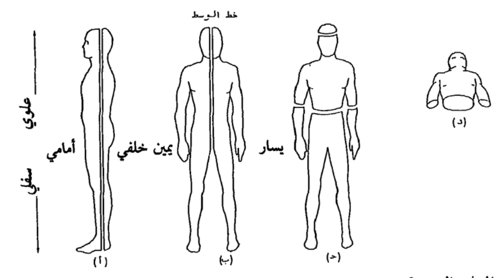
ثانيا، نستطيع أن نتخيل الجسم وقد قسم عموديا إلى جزء أيمن وجزء أيسر والمصطلحات أيمن وأيسر يستعملان من زاوية الجسم الموصوف وليس من زاوية الملاحظ.

ثالثا: نستطيع أن نتخيل خطا يقسم الجسم أفقيا بزوايا قائمة بالنسبة للتقسيم العمودي. وهذا التقسيم يعرف بالبعد الأفقي أو المستعرض transverse axis

رابعا: الأوضاع النسبية على البعد الأفقي يشار إليها باستخدام المصطلحات علوي superior (للجزء العلوي) وسفلي inferiorللجزء السفلي.

خامسا: منظر الجسم من أسفل إلى أعلى يسمى المنظر القاعدي basal view وباستخدام هذه المصطلحات، نستطيع الآن أن نبدأ في التعرف على تلك الأجزاء من المخ التي لها أهمية خاصة في دراسة الإعاقة اللغوية. يجب ـ قبل كل شيء ـ أن نسطر فكرة عامة ألا وهي أن المخ ليس بناء واحدا غير مختلف، ولكنه يحتوي على عدة مناطق تركيبية متمايزة. الجزء الأكبر من المخ اسمه «المخ» cerebrum . وأكثر شيء وضوحا في هيئته هو الكيفية التي ينقسم بها إلى قسمين كبيرين متساويين: شقي

الـدماغ. وتبعـا لذلـك، فهناك شق أيسر left hemisphere وشق أيمن right hemis-phere وسنناقش الوظيفـة المختلفة لكـل شق فيما يـلي: لكـل شق سـطح دائـري جـانبي، (المقصود بـالسطح هنـا المظهـر الخارجي) وسـطح وسيط منبسط، وسطح داخلي يأخذ شكل فصوص غير منتظمة. وتحت الشقـين يوجـد عضو وسيط بحجم الابهـام، وهو جـذر المخ، ووظيفتـه أنه يـربط شقي المخ بـالحبـل الشـوكي. ويمكن وصف المخ على أن له ثلاثة أجزاء: المخ الأوسط: الذي يتفرع منه الشقـان. الجسر the puns والنخـاع المستطيـل medulla oblengata الذي يستمـر منحـدرا فيعـرف بالحبل الشوكي. ويبرز خلف الجسر عضو رئيسي آخر يعرف بالمخيـخ cerebellum وهـو مسئـول عن ضبط وضـع الجسم وتنسيق جميـع الحـركـات بمـا في ذلـك المشي والكلام. وتوجد داخل شقي المخ أنسجة عصبيـة nerve fibres تساعـد في التحكم في الحركة، وفي ترحيل وتحليل المعلومات الحسية.



المحاور التشريحية:

(أ) التاجي (ب) السهمي (جـ) المستعرض (أو الأفقي) (ب) القاعدي.

شكل رقم (٣)

ويتصل شقا الدماغ ببعضهـا داخل المخ بواسـطة حزمـة كثيفة من الأليـاف العصبيـة nerve fibres اسمها الجسم الجـاسيء courpus collosum بواسـطتـه يمكن

بث المعلومات من شق إلى آخر (انظر الأشكال التوضيحية).

هذا عن وصف المخ حين ينظر إليه من أعلى. أما وصفه حينما ننظر إليه جانبيا فأهم ملامحه تلك الفصوص أو الأخاديد: الأخدود الأوسط central sulcus أو أخدود رولاندو fissure of Rolando (نسبة للتشريحي الايطالي لويجي رولاندو ١٧٣٣ - ١٨٣١)، الأخدود الجانبي Lateral sulcus أو أخدود سيلفيوس (نسبة للتشريحي الفلمنكي فرانسوا دي سيلفيوس ١٦١٤ - ١٦٧٢ Francios de la Boe Sylvius هذان الأخدودان ذوا أهمية خاصة لأنهما يستخدمان كأساس تشريحي لتقسيم المخ إلى أربعة أجزاء (أو فصوص) lobes رئيسية. مثل هذه الأجزاء الأربعة، ضمن كل شق، متفق على تصنيفها عالميا. وهذه الفصوص هي:

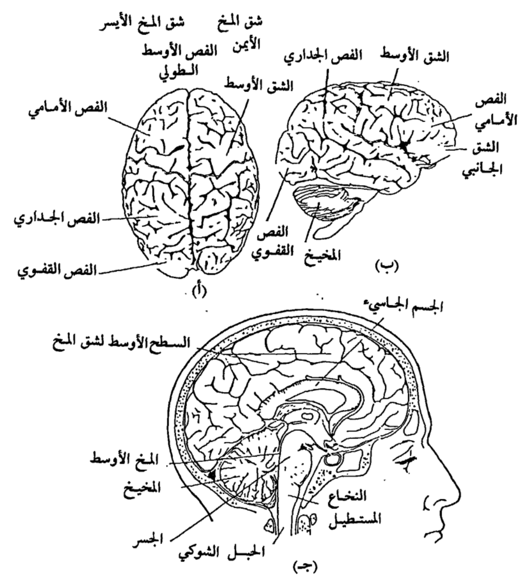
أ ـ **الفص الأمامي:** the frontal lobe يقع في الجزء الأمامي من المخ ابتداء من أخدود سيلفيوس ويمتد حتى أخدود رولاندو. وتخترق الفص الأمامي عدة تلافيف.

ب ـ الفص الصدغي: the temporal lobe يقع في المنطقة التي تحت أخدود سيلفيوس ويمتد خلفا حتى نقطة الاتصال بالفص القفوي ويخترقه أخدودان رئيسيان وثلاثة تلافيف رئيسية.

جـ ـ **الفص الجداري:** the parietal lobe يمتد خلف أخدود رولاندو إلى الفص القفوي. ويخترقه أخدودان رئيسيان وثلاثة تلافيف رئيسية.

د ـ **الفص القفوي:** the occipital lope وهو فص صغير نسبيا ويقع في أقصى الجزء الخلفي من المخ.
(انظر الشكل رقم (٤) في الصفحة التالية).

إن أهمية التعرف على هذه الفصوص تكمن في امكانية ربط وظائف مختلفة بفصوص مختلفة. فمثلا الجزء الأمامي من الفص الأمامي قد ارتبط تقليديا بتطور الشخصية والتفكير التجريدي. والفص القفوي يرتبط بعملية الرؤية. وربما كانت أهم التمييزات الوظيفية هي تلك يمكن تحديدها بالنسبة لأجزاء لحاء الدماغ cortex على جانبي أخدود رولاندو، وذلك لأن التقسيم الطبي والسلوكي بين نمطين من العمليات: الحركية والحسية يكمن هنا.



شكل رقم (٤) (أ) المخ من أعلى (ب) من الزاوية اليمنى الجانبية (جـ) العلاقة بين أبنية المخ.

والواقع أن تقسيم العمليات إلى حركية وحسية كان أحد الاكتشافات المبكرة للدراسات المبكرة للمخ. لقد رأينا أن هناك علاقة محددة بين حركات الجسم الإرادية (يلخصها المصطلح العام نشاطات حركية motor activities وجزء اللحاء الذي يقع مباشرة في المنطقة الأمامية من أخدود رولاندو.

النبضات الكهربائية لجزء معين من هذه المنطقة ستولد حركة منتظمة في جزء معين من الجسم. وقد ظهر أن النشاطات الحركية للجسم تتمثل في هذا الجزء من المخ بشكل مقلوب: فأعلى جزء من المنطقة يتحكم بالساقين، وأدنى جزء يتحكم بالوجه. أما ذلك الجزء من المخ الذي يقع مباشرة خلف أخدود رولاندو، فهو الجزء الذي يتولى استقبال وتفسير الاشارات القادمة incoming stimuli . والمصطلح العام هنا هو الحسي Sensory وهو يشير إلى لحاء الحس sensory Cortex .

وهناك وظائف أخرى مركزية localisations شبيهة بما سبق ذكره قد اقترحت للفصوص الأخرى ولأجزاء المخ. ومن الناحية اللغوية فإنه من المهم أن نلحظ الأجزاء التي اقترحت لتمثيل الكلام، والاستمتاع، والقراءة والكتابة. هذه الوظائف تتمركز بشكل أساسي في أو حوالي نقطة الاتصال ما بين الفصوص الثلاثة: الفص الأمامي والجداري والصدغي. فالأجزاء الأمامية من الفص الجداري هي بالدرجة الأولى أجزاء لها علاقة بعملية الاحساس ويمكن أن ترتبط بأجزاء الكلام والسمع في مستوى أدنى من القشرة. (والأجزاء الأخرى من الفصوص ترتبط بوظائف كلامية لا يهمنا سرد تفاصيلها هنا).

وكنتيجة لهذا الأسلوب من التناول فإن كل فص يمكن أن يقرن بمجموعة نمطية من الاضطرابات، وهذا يزودنا بسياق مهم لدراسة الإعاقة اللغويةInguistic disability . فمثلا المرضى الذين يعانون من اضطرابات في الفص الأمامي، تظهر لديهم أنواع من الصعوبات في الشخصية وفي الذكاء: فمما يدخل تحت العنوان الأول أي اضطراب الشخصية، العدوانية aggeression ، السلوك اللاجتماعي واللامبالاة apathy ويدخل تحت العنوان الثاني أي اضطراب الذكاء، ضعف الذاكرة وضعف القدرة على التعلم والتفكير. وإذا حصل تلف للحاء الحركة (بسبب حادث أو مرض) فسيكون هناك فقدان للحركة الإرادية (ولكن ليس الحركة الذاتية أو اللاإرادية) في الجزء المتأثر من الناحية الجانبية المضادة.

إن أهم المفاهيم التي ينبغي أن نعرفها هنا تلك المفاهيم التي تدخل في تصنيف الشلل:

أ ـ الخذل النصفي وهو الضعف الذي يعتري جانبا واحدا من الجسم ويسمى

hemiparasis (معنى paresis هو الفقدان غير الكامل للقوة العضلية).
ب ـ الشلل النصفي وهو الشلل الذي يصيب جانبا واحدا من الجسم hemiplegia .

جـ ـ الشلل الطرفي وهو الذي يصيب طرفا من الاطراف كاليد والرجل Monople-gia .

د ـ الشلل الرباعي وهو الذي يصيب الأطراف الأربعة quadriplegea .
هـ لكساحة وهو الشلل الذي يصيب الرجلين PARAPLEGIA .

والتلف الذي يحصل للحاء الحاسة في الفص الجداري يتسبب عنه فقدان التمييز Loss of discrimnation : المريض يكون واعيا بالاحساس، كاللمس مثلا، ولكنه لا يكون قادرا على تحديده على جسمه، إنه يشعر بالألم ولكنه غير قادر على تحديد موقعه.

والتلف الذي يحصل في الفص الجداري ـ كما رأيناه ـ سيؤثر على الكلام والذاكرة، وغالبا ما يتأثر الشم والتذوق كذلك.
التلف الذي يحصل للفص القفوي يؤثر بالدرجة الأولى على الرؤية مما ينجم عنه العديد من المشاكل التي يجب أن يعيها الدارس لأمراض الكلام، وذلك اذا ما أراد أن يفهم الصعوبات التي يواجهها المريض في القراءة والكتابة.

وأما فقدان الاحساس في جانب واحد من الجسم hemoanesthesia فإنه يحصل مع الإصابة في مستوى أدنى، في جذع المخ مثلا. ويتسبب عن التلف في مسافة أبعد في الفص الجداري عدم القدرة على التوجه مكانيا، أو عدم القدرة على التعرف على الاشياء عن طريق اللمس astereognosis. وفي بعض الأحوال قد لا يتمكن المريض من التعرف على الطرف المصاب على أنه ينتمي له فيهمله في حالة ارتداء ملابسه مثلا.

والإصابة في الفص الصدغي قد تؤثر، كما مر بنا، في الكلام والذاكرة، والشم والذوق أيضا يتأثران غالبا. واصابات الفص القفوي تؤثر بالدرجة الأولى في الرؤية، الأمر الذي ينجم عنه العديد من المشاكل التي يجب أن يعيها المتخصص بأمراض الكلام وذلك إذا ما اراد أن يفهم الصعوبات التي يواجهها المريض في

القراءة والكتابة وفي فهم الكلام أيضا[1].

والأصناف الرئيسية التي نحتاج إلى معرفتها هي التالية:

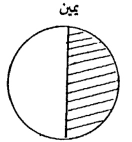
ـ العمى النصفي وهو فقدان البصر في نصف واحد من مجال الرؤية hemianopia. وينقسم إلى عمى نصفي أيمن حيث يكون الجانب الأيمن من مجال الرؤية قد تأثر، وعمى نصفي أيسر وهو تأثر الجانب الأيسر من مجال الرؤية.

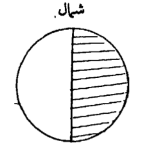
ـ التجانس homonymous وهو تمثل أجزاء العينين.

ـ العتمة scotom وهو فقدان البصر في مركز المجال البصري.

ـ العمى الربعي quadrantic حيث يتأثر ربع الجزء من مجال الرؤية.

وهكذا، وعلى سبيل المثال، فالمريض بالعمى النصفي الأيمن (وهو يعد أكثر الأنماط شيوعا في أمراض الكلام وذلك لارتباطه بالتلف الحاصل للكلام في الشق الأيسر من المخ) سيكون لديه مجال للبصر يمكن توضيحه على النحو التالي؛





سيكون المريض غير قادر على رؤية أي شيء يقع ضمن مجال حقل الرؤية في جانبه الأيمن في كلتا العينين. وأخيرا. فإن هناك صورة مألوفة لتلف اللحاء وهو ميل المريض لأن يتقبل بلطف اعاقته أو أن يهملها أو حتى ينكرها.

(١) الرؤية عامل مهم في تثبيت فهم الكلام. فسؤالنا شخصا أن يسمى ما في صورة من الصور إنما يكون له معنى إذا كان الشخص قادرا على رؤية ذلك الجزء من الصورة الذي تشير اليه. وفي الحالات التي قد لا يستجيب فيها المريض لسؤالك، فإن ذلك يمكن أن يكون اما بسبب عدم قدرته على فهم ما تقوله، أو بسبب عدم قدرته على رؤية ما تشير إليه، وأما أن يكون بالطبع بسبب مزيج من العاملين السابقين.

التراث عبء أم قوة دافعة

د: توفيق الفيل
قسم اللغة العربية ـ جامعة قطر

لعل السؤال الذي آثرنا أن نجيب عليه اليوم. كان نتيجة لما يطرح من أقوال تشكك في التراث العربي، وتدعو إلى نبذه والتخلص منه، والاستعانة في صنع النهضة التي يتمناها هؤلاء وأولئك بما تبدع الانسانية في عالمنا المعاصر وإلى هذا الحد يختلف الدعاة إلى نبذ هذا التراث. فبعضهم يدعونا إلى أن نؤمم وجهنا شطر الغرب حيث تحقق له من الانجازات الحضارية مالم يتحقق للانسانية في عصورها الطويلة. وحيث يكون للانسان السيادة على ما بين يديه من الوسائل. وبعضهم يدعونا أن نؤمم وجوهنا شطر المشرق، لنجد من الانجازات ما يمكنه أن ينازل انجازات الغرب، مع التخلص من سيطرة رأس المال.

وبعبارة أخرى، تختلط المعتقدات السياسية بغيرها عند الفريقين، ولكنهما يتفقان على ضرورة نبذ هذا التراث والتخلص منه إذ هو في نظرهم السبب الأساسي في وقوف الأمة متخلفة يائسة تجتر الماضي وتعيش عليه.

وقبل أن نجيب على هذا السؤال يتعين علينا أن نعرف المقصود بالتراث، لأن ذلك سوف يساعدنا في الوصول إلى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال. فمعرفة حقيقة الشيء خطوة ضرورية في معرفة فائدته ـ ان كانت له فائدة ـ والوقوف على مضاره ـ إن كان له مضار.

والمقصود بالتراث، ما خلفتـه الأجيال التي سبقت الجيـل الحالي من المعـارف والعلوم والفنون والآداب وورثته من المعتقدات والقيم، نتيجة لتجـاربها في مجـالات الحياة المختلفة وخبراتها في التعامل مع المشكلات التي مرت بها. وهـذا التراث يضم خبرات اؤلئك الذين باعد الزمن بيننا وبينهم من الآباء والأجـداد، أو الذين مضـوا عنا من زمن غير طويل.

واذا اعتمدنا هذا التصور للتراث، يكـون موروثنا منه مـا خلفه السـابقون في الفلسفة والدين والأدب والتشريع، والسياسة وأصول الحكم وغـير هـذا وذاك مـن المعـارف. ولقد ورثنـا عن أسلافنـا القدمـاء كمّا هـائلا يكـون بناء معـرفيًّا ضخـما، ورصيدا من التجارب تتنـوع أشكالـه، ويختلف جناه بـاختلاف العصـور التي انبثق عنها، والبيئات التي نشأ فيها.

وليست أمتنا بدعا من الأمم. فلكل أمة موروثها الثقافي والديني والأدبي وكل الأمم أفادت بدرجة أو أخرى من هذا الموروث. حتى وإن كـان عند بعضهـا يشكلّ ألوانا من الخرافات قد لا يقبلها العقل الحديث ولا يرضى بها.

وأي عاقل في زماننا هذا الذي يؤمن بـالعلم والعقل، ولا يقبـل المغيبات التي لا تستند إلى التجربة والواقع، يمكنه أن يقف عند بعض الأساطـير والخرافـات التي جـاءت عن قدامى اليـونانيـين، وتلقفها النـاس في الشرق والغرب، وفتحـوا عليها الأبواب والنوافذ وأفادوا منها إلى مدى غير قريب؟

أي عقل حديث ـ بالمنطق الذي يحكمونه اليوم يمكنه أن يتوقف عند «أوديب» وما أرهص به العراف. وما صنعته الآلهة حين رضخ الأب لنبوءة دفعته إلى أن يقتل ابنه خوفا من مستقبل زعم العراف فيه أن هذا الابن سيقتل أبـاه ويتزوج بـأمه. إلى غير ما تعلمون جميعا في هذه الأسطورة، التي تمهد لسيادة «أوديب» بأحجية فيهـا من السذاجة ما يجعلها تناسب عقل طفـل صغير. لكن هـذه الأحجية تتهـاوى عندهـا الرقاب، ولا يستطيع أن يحل اللغز فيها غير «العبقري» أوديب؟؟

وعـلى الرغم من ذلـك البناء الـذي لا ينـاسب العقـل، ولا يتقبله الأسلوب العلمي نجد الآفاق الرحبة، والميـادين المختلفة التي استـطاع الأدباء والمفكـرون أن يفتحوها من خلال هذه الأسطورة، على نحو نعرفه جميعا.

لقد كان لكل أمة تراثها، والأمة التي لم تجد لها تراثا تستغله وتبني عليه راحت تتلمس تراثا لذوي أرحامها، والأمم الأوربية التي تتخذ منها مثالا حين أرادت أن تقيم حضارتها حاولت أن تجد هذا الامتداد الحضاري عند ذوي أرحامها من اليونان والرومان، وأخذت ما خلفت لهاتين الأمتين أجيالها السابقة. ولم يجدوا حرجا في أن يأخذوا هاتين الحضارتين عن العرب الذين قاموا بدور الوسيط في هذا النقل. والذين كانت لهم اضافاتهم التي لا يستطيع المنصفون جحودها. والأمم الأوربية الحديثة مدينة لما يسمى «عصر الأحياء» وهو العصر الذي توجهت فيه إلى حضارة اليونان والرومان. وأفادت منه. بعد أن عكفت عليه، وأخذت منه العناصر التي مكنتها من السير قدما. حيث أقامت تلك النهضة الزاهرة التي لا تخطئها العين، والتي نحاول محاكاتها والسير على منوالها.

والنهضة التي نعيشها في عصرنا الحديث مدينة لما يسمى «عصر الاحياء» وإن يك ذلك في مجال الأدب. ومؤرخو الأدب حين يحاولون دراسة الأسباب التي أدت إلى ازدهار الأدب في العصر الحديث لا يستطيعون أن يتجاهلوا دور البارودي حين عكف على التراث الشعري في عصوره الزاهرة وأخذ يحاكيها، وينسج على منوالها وعلى الرغم من تلك المحاكاة كانت له إضافاته التي امتد بها من جاء بعده من الشعراء حتى كانت شيئا جديدا يرتبط بالتراث، ويختلف عنه، يلتقي به ويفترق عنه ولسنا في حاجة إلى القول بأنه لولا ماقام به البارودي لكان الأمر على خلاف ما نحن عليه الآن.

نعم:
للأمم الأخرى تراث تعتز به وتفيده منه. تطوره وتبني عليه. تضعه في إطاره الصحيح من وجدانها فلا تبالغ في قدسيته إلى الحد الذي يحجب عنها شمس الحضارة المعاصرة ولا تحقره إلى الحد الذي يجعلها تنظر إليه بازدراء.

إن التأثر بالتراث عن الأمم كلها أمر واقع لا يحتمل الجدل أو المماراة. وقد كان بالفعل عندنا ـ كما هو عند غيرنا ـ قوة دافعة. انتقلت به الأمة من حال الضعف والتخلف والتبعية، إلى حال القوة والتقدم والسيادة.

وإذا كانت الأمم كلها تعتز بتراثها وتفيد منه، وتبنى عليه. فلماذا نحن دون

غيرنا نشكك في قيمة هذا التراث ونجعله المشجب الذي نعلق عليه كل عيوبنا وأخطائنا، ونرد إليه الأسباب في عدم مسايرتنا للأمم الأخرى؟

وأي نوع من التراث هذا الذي نشك في قيمته؟ ومتى بدأ الشك في هذا النوع من التراث أو ذاك؟

إن الهجوم على التراث الذي بدأ في العقود الأولى من هذا القرن، وتوجه به أصحابه إلى أنواع معينة من التراث قد زادت حدته. وأصبح بين ظهرانينا من يجد في هذا التراث قوة تجذب الأمة إلى وراء. وأنه يتعين على هذه الأمة أن تلقي عن كاهلها التمسك به، بل والنظر إليه، إذا أرادت أن تلحق بالأمم الأخرى. وعليها بعد ذلك أن تعب من الثقافات الزاهرة في الشرق والغرب، وإن سارت لبضع سنين مقلدة ومحاكية لهذه الثقافات.

ولقد كان من أوائل الذين دعوا إلى البعد عن حضارة العرب ـ في جانب منه ـ وهو الجانب الذي يعنينا، لأنه يمس الحقل الذي نعايشه، ما ذهب إليه الأستاذ سلامة موسى في كتابه البلاغة العصرية. فقد حمل على بلاغة العرب، ووصفها بأنها بلاغة انفعال، وأنها لا تنمي الفكر، ولا تربي الذوق. ومن ثم يجب اطراحها واستبدالها بغيرها. وإذا حدث هذا سيكون البحث في الكلمات من حيث معانيها، وبيان ما يقع فيه الناس من خلط بين الشيء واسمه، مما يسبب لهم الشقاء، لأنه يبعدهم عن التفكير الناجح، ويؤخر نجاحهم، ويعطل المجتمع عن الرقي. ومن خلال ما ذهب إليه لا يجد سببا لتأخر الأمة، وشقاء الناس غير تمسكها ببلاغة العرب. ولو أنها أطرحتها لانتهت مشكلاتها، وعاشت في رغد المنطق.

أما الدور الذي يراه لبلاغة العرب، فيجب أن يقتصر على التوجيه الاجتماعي ولكن يجدر استعمالها بحذر شديد حتى لا يعود هذا التوجيه دعاية سيئة لأحد المذاهب الضارة.

وعلى الرغم من خلط الباحث بين جانبين من الجوانب الانسانية للغة وهما الجانب النفعي، الذي يستخدم فيه الناس اللغة كأداة اجتماعية، ووسيلة من وسائل الاتصال بين الجماعة فيما بينها، وبينها وبين غيرها من الجماعات واتخاذ هذه اللغة وسيلة جمالية تقيم من خلالها أبنية فنية تحرك بها العواطف والأحاسيس، وتقوم من

خـلال ذلك بـامتاع المتلقي، وتنقيـة نفسه من المشـاعر الضـارة، وتخليصه مما يؤذي نفسه.

فقد قامت بلاغة العرب ـ في زمانها ـ بـالإشارة إلى هـذين الجانبين للغة. ومن يرجع إلى ما كتب القدماء، وينعم النظر فيه، ويلقي من نفسه الأفكـار المعوقـة التي تضع حجابـا على بصيرته. يجـد أن في التراث البـلاغي معالجـات للغة من هـذين الجانبين. كما يجد اهتماما واضحا بجانب المنطق.

وليس يخفي علينا ماكان للعرب في القرن الثاني ومـا تلاه من جهـود في الأخذ بالمنطق الأرسـطي، وماكـان لهم من اهتمام بـه. حتى لقد أرجـع بعض الباحثـين ما أصاب البلاغة العربية من جمود إلى سيطرة المنطق الأرسطى عليها.

وقد أرجع الدكتور طـه حسين تـأثير المنـطق والثقافـة اليونـانية عـلى البلاغـة العربية إلى عبدالله بن المعتز. وفي كتاب البديع. وإن كنا نختلف معه في ذلك. على نحو ما سبق لنا بيانه «طه حسين وقضية التأثير اليـوناني في البـلاغة العـربية. المجلة العربية للعلوم الإنسانية».

التراث المقصود

ومرة أخرى نسأل عن التراث المقصود بهذه الحملة، والتي ماتكاد نارها تخمـد حتى يعود إلى الساحة من يؤجج أوارها، ويعمل جاهدا على اشتعالها.

يضع أحد البـاحثين يـدلنا عـلى نمط من هذا الـتراث. وعلى واحـد من الذين يشنون الحملة عليه. يقول الأستاذ محمد جلال كشك: «ظهر منـذ أعوام. . وبغـير سبب معـروف، نـاقـد أغلب الـظن أنـه مصري. . . مـاركسي التفكـير. عنصري متعصب يحمل حقدا دفينا على تراثنا. ويتعلق بأقدام الفكر الغربي.

الناقد المذكور. بمنـاسبة وغـير مناسبـة. يطعن في وجـودنا الإسـلامي مدعيـا التقدمية. ولو استطاع أن يمحو الاسلام من تاريخنا لفعل. فهو ينكر أن يكون له أثر في ثقـافتنا. . . بـل لا يعتبره مـوجودا في التراث الإنساني. ويمض الكـاتب مبينـا من خلال الأمثلة والشواهد ما يعنيه الناقد بالتراث الذي لا يعتد به، ولا يجد له أثـرا في

مسيرة الإنسانية. فهو يقول: «ومن مصر القبطية، إلى مصر العربية (ولا أقول الاسلامية، لأن الحضارة العربية كانت أعمق من أن يكون الاسلام عنصرها الوحيد، كما أن التجربة العربية مع الاسلام تختلف تماما عن تجارب الأمم الأخرى مع نفس الدين) مصر الفرعونية. مصر القبطية، ومصر العربية الحديثة... هي الحلقات الثلاث الرئيسية في تاريخنا القومي، ومن خلال الامتزاج الحضاري العميق بين هذه الحضارات الثلاث تكونت ملامح النفس المصرية»[1].

وليس يخفي علينا أن التراث الذي يريد أن يطرحه هو تراث الاسلام. ولا يغتر بما يقرره من وجود مرحلة عربية. فسوف نجد غيره يهدم هذا الركن أيضا. وقد سبقت الاشارة إلى ماذهب إليه صاحب البلاغة العصرية وما حمله للبلاغة العربية من وزر التخلف الذي تعاني منه الأمة. وسوف نجد غيره أيضا يعمق هذا الدور. فالأدوار موزعة، وعلى كل ممثل أن يلعب دوره بعناية واتقان.

إن أحدا من هؤلاء لا يستطيع أن يقضي على تراث الأمة كله: عقيدتها، لغتها، تجاربها، تاريخها، لأنه حينئذ لن يجد من يستمع إليه. بل وسيجد كثيرا من الناس يتصدون لما يدعو إليه، فليكن هذا الباحث موكلا بالتراث الاسلامي يحاول ما استطاع، فإذا عجز قام بدوره غيره. واتخذ أسلوبا جديدا.

ويمكننا أن نسأل الباحث... هل يريد أن نتخلى عن تلك المساواة التي قررها الإسلام قولا وفعلا. وحرر بها العبيد والموالي. وجعل منهم قوة حاكمة مسيطرة يجب على من كانوا في الذروة من القبائل أن يستمعوا إليهم، ويرضخوا لأحكامهم. وينفذوا أوامرهم.

أيريدنا أن نتخلص من قيم هذا الدين التي جعلت بلال بن أبي رباح يقف من خالد بن الوليد موقف المحاسب، الذي يقسم عليه ماله. وبعد أن يفرغ من العملية يجد «الخف» فيدفعه إليه. ويقول له أما هذا فهو لك[2]. أي حضارة تلك التي لم يمض عليها غير سنوات. واستطاعت أن تحول القائد العظيم الذي لم يعرف

---

(١) الغزو الفكري ـ ط٢ مكتبة الأمل، الكويت.

(٢) العقاد: عبقرية خالد بن الوليد ١٤٤ ـ نهضة مصر.

الهزيمة إلى إنسان بسيط ينفذ ما قضى به بلال بأمر الخليفة. ولو حدث مثل ذلك قبل سنوات لقامت الحروب وقطعت فيها رقاب السادة قبل الموالي والمستضعفين.

وهل يمكن لأمة أن تجد مثل هـذه الحضارة بـين يديهـا، وقد شكلت الـرجال على نحو جعلهم ينشرون عقيدتهم في طول الأرض وعرضها؟

وهـل يمكن لأمة أن تتخـلى عن الحضـارة التي أعـادت تشكيـل الـرجـال من داخلهم. فرققت قلوب الأقويـاء، وأزالت من نفوسهم العنجهيـة القبلية وجعلتهم يخضعون للحق. كما قوت قلوب الضعفاء والأرقاء، وجعلتهم لا يخضعون إلا لله.

أيريد هؤلاء أن يتخلصوا من تراث يحترم إنسان دون نظر إلى لونه أو جنسه أو معتقداته على نحو ما نجد في تراث الاسلام الذي يخاطب أهل الأديان الأخرى بعد أن يبين لهم منهجه. ويكشف لهم عن تمسكه بموقفـه كتمسكهم بموقفهم لكن ذلـك لن يـدعوه إلى اضـطهادهم أو النيـل منهم. فيأمـر الرسـول أن يقـول لهم «يـا أيهـا الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبـد، ولا أنا عـابد مـا عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين».

وهـل يمكن أن نـطرح حضـارة كحضـارة الإسـلام التي تـدعـو إلى احـترام الكنـائس والبيع. وتجعـل للحرب قيـما ومثلا. فـلا عذر فيهـا ولا تمثيـل بميت، ولا مهاجمة لدار من دور العبادة. ولاقتال لمن لم يقاتل من الشيوخ والأطفال والنساء.

إنها الحضارة التي جعلت أبا بكر يوصي جنده، وهم ينطلقون مبشرين بدينهم فيقول لهم: «لا تقتلوا شيخا ولا صغـيرا ولا امرأة، ولا تهـدموا بيعـة ولا كنسية ولا تقطعوا شجرا» إلى غير ذلك من الوصايا التي لا نجد مثيلا لهـا في زماننـا هذا الـذي يدعى أصحابه أنهم أصحاب حقوق الإنسان.

إن مثل هذه الدعوات التي تطفو عـلى سطح الحيـاة بين حـين وآخر إنمـا هي حلقة من حلقات الحروب العقائدية التي يعرف أصحابهـا يقينا أنـه لا يمكن أن تحل عقيدة أو مبدأ في شعب من الشعـوب، أو أمة من الأمم إلا اذا فـرغتها من عقيـدتها الأولى أو مبدئها الأول، ولهذا تبدأ في تشكيك هذه الأمة فيما لديها.

والذين يلعبون هذا الدور هم من أصحاب العقائد التي يريـدون لها أن تحـل محل الاسلام. انهم بقايا الرماد الذي خلفته الحروب الصليبية في حملاتها المتتـابعة، تلك الحملات التي لم تكتف باحتلال المدن بعد تخريبها بل عمدت إلى القضاء على ثقافة العرب المسلمين وحضارتهم. وليس أدل على ذلك من حرقهم لملايين الكتب سواء في حملاتهم على الشرق، أو في حروبهم في بلاد الأندلس.

وقد يظن البعض أننـا نقصد بـالصليبيين غـير المسلمين، وهـذا غير صحيح فـالذي نقصـده بالصليبيـين هم أولئك الـذين اتخـذوا مـواقف عـدائيـة من الشرق العربي. والذين تعاونوا مع الغزاة سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم فالحمـلات الصليبية لم تكن تفرق في حربها الطائشة بـين مسلم ومسيحي. وإذا كانت الصـدفة قد ألقت في الطريق أمثلة من بين الذين يتخذون العقيدة المسيحية وحاول هؤلاء أن يقللوا من شأن حضارة العرب المسلمين، أو حاولوا أن يفرقوا بين العروبة والإسلام على نحو ما سبق، فإن من بين المسلمين من لعب هذا الدور، ويكفي أن ندلل على ذلك بما زعمه أحدهم من أن سبب انتشار الكولـيرا في البلاد مـا فعله أحد الحجـاج الطيبين حين أحضر معه زجاجة من ماء زمزم، وحـين وجد النـاس يتكالبـون عليها ألقى بها في بئر ماء، وشرب منه الناس فأصابهم الوبـاء القاتـل. وراح ضحية هـذا العمل ثلاثة ملايين.

ومـا ادعاه الكـاتب الذي ينسب إلى الإسـلام، ونشره على النـاس إلا إساءة بالغة للإسلام، وتشكيكا فيه. وهو في نفس الوقت تغطية لما فعله الاحتلال بـالأمة حين أحضر الجنود من أصقاع مختلفة وكانوا يحملون مكروب هذا الوباء اللعين.

واذا كنـا قد وجـدنا بقـايا الصليبيـة. وأصحاب المـذاهب المناوئـة للإسـلام يشككون في حضارته وقيمه. فإن منهم أيضا من يتناول العروبـة ذاتها. وقـد سبقت الإشارة إلى ماذهب إليـه الأستاذ سـلامة مـوسى. ونجد من بينهم من يـزعم أن لغة العرب لا تعرف لفظ الحرية. وأن تاريخ العرب وحكمهم لم يعرف الرجل الحـر إلا بمعنى غير الرقيق. وأننا لم نتعلم الحرية إلا من أوربا».

وهذا الباحث يدعو إلى فتح باب الاجتهاد في مناقشة التراث. وحين يأخذ في ذلك يتهم التاريخ العربي بالزيف والعمالة. ويتهم شعراء العرب بأن ما عنـدهم من

ثقافة وفكر إنما جاءهم عن طريق رهبان الأديرة. وحين يتحدث عن أبي العلاء يزعم أنه نتاج الصراع العقائدي بين المسلمين والصليبيين.

فالمعري ـ في نظره ـ تعلم على راهب مسيحي في أحد الأديرة. وحتى يؤكد هذا الحديث يأتي بأحد أبيات أبي العلاء محرفا. ويتخذ منه حجة دافعة على تلك النظرية.

يقول الأستاذ محمد جلال كشك: «أراد الدكتور لويس عوض أن يطرح حجة دامغة على صدق نظريته. فصدر صحيفة الاهرام التي نشر فيها بحثه ببيت شعر يقول:

صليت جمرة الهجير نهارا ثم باتت تغص بالصلبان

وقال: الصلبان جمع صليب. ومعنى البيت أن حلب صليت جمرة الهجير نهارا. وحين جاء الليل، واحتل الصليبيون المدينة. باتت تغص بالصلبان في رايات الجند وخوذاتهم.

ولو كان البيت على هذه الرواية المحرفة لصدقت مزاعم الكاتب، وصح شرحه، لكن الرواية الصحيحة تقول:

صليت جمرة الهجير نهارا ثم باتت تغص بالصليان

بالياء. وأبو العلاء يتحدث في هذا البيت عن الناقة التي شقيت بالرحلة وتعبت وقت الهجير. وكانت راحتها بالليل حيث نعمت بالصليان، وهو نبات طيب.

وما نحسب الناقد الكبير يخطىء في البيت، ويفهم معناه على نحو ما قدمه من حديث أبي العلاء، بل هو يُلَبِّسهُ على الشاعر بهذا التحريف.

ومن التشكيك في ثقافة العرب ما يزعمه بعضهم من أن كل العبقريات المبدعة أو أكثرها كانت من غير العرب. فقد حاول كثير منهم أن يظهر هذه الأمة عقيما لا فكر لديها ولا إبداع. ومن اليسير أن ندلل على ذلك بدراساتهم للشخصيات. فبشار ترجع عبقريته إلى أصوله الفارسية، وكذلك الأمر في أبي نواس وغيرهما من الشعراء. وقد ساعدهم على ذلك جنوح الشعراء وشططهم في تلك

المفاخرات التي كانوا يفتخرون بها.

ولا يختلف ابن الرومي عن الذين سبقوه. فلولا أصوله الرومية ما كان يشقق المعاني ويتتبعها حتى لا يبقى فيها بقيـة لأحد بعده. وهكذا يتناولون المبدعين وكـأن الحضارة العربية الإسلامية لم تتغلغل في أعماقهم، ولم تصل النخاع منهم.

ولا يقتصر ذلك على الشعر والأدب، بل يعم كل ما لـه قيمة في هـذا التراث فـإذا وجدوا مفكـرا أو فيلسوفـا لم يستطيعـوا تجريـده من فكره أرجعـوا عبقريتـه إلى أصوله.

ومن عجيب الأمور أنني كنت ضمن وفد من الجامعة في زيارة لتركيا. وألقى أحد الأساتذة الأتراك محاضرة تحت عنوان «فلاسفة الأتراك» وإذا به يتحدث عن الفارابي ومولاي جلال الدين. وحين فرغ من محاضرته قلت له: كنت أتصور أن تقدم لنا شيئا عن فلاسفة الأتراك قبل الإسلام أو بعده وأعني بفترة ما قبل الإسلام يوم كانت تركيا جزءاً من الدولة البيزنطية. وما بعد الإسلام تلك الفترة التي خلعت فيها تركيا ثوب الإسلام واختارت العلمانية. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وتحدثت عن بعض فلاسفة الإسلام الذين ساروا على منهج أسلافهم. فكانوا نتاج الحضارة الإسلامية لا الحضارة التركية، والقول بأنهم من الأتراك يجعل الاتحاد السوفيتي يمن علينا بأنه قد حفظ لنا الحديث النبوي الشريف إذ البخاري من مواطنيه.

وفي زماننا هذا كثيرا ما سمعنا من يقول أن البارودي من الأتراك، وهذا من الأمور التي شكلت موهبته؛ فنبغ في الشعر، وقاد تيار التجديد.

وشوقي: ألم تتعال الدعوات مرجعة عبقريته إلى أصول تركية اكتسبها عن أمه التي لم تكن عربية. ولا ندري لماذا كانت العبقرية عند شوقي تنحدر عن أمه وليس عن أبيه.

وإذا أخذنا بهذا الاتجاه الذي يرجع العبقرية إلى الجنس فإن بالإمكان أن يقال ذلك في أديبنا الكبير الأستاذ يحيى حقي، وشاعرنا الكبير عزيز أباظة.

والخلاصة أن الدعوة إلى نبذ التراث. والتشكيك فيه لم تلج إلى الهدف مباشرة، بل أخذت أشكالا مختلفة، وعزفت على أوتار منوعة.

لقد بينا أن التراث المعنى بهذا السؤال يتمثل في أمرين يؤدي كل منهما للآخر، وإن اقتصرت الدعوة مرحلياً إلى التخلي عن أحدهما. وهذان الأمران هما الحضارة الإسلامية. واللغة العربية. وقد رأينا أحد الباحثين يحذف من تاريخنا أربعة عشر قرنا من الاجتهاد في شئون الحياة، ويزعم أن هذه القرون بما أثمرته للحضارة الإنسانية لا يمثل شيئا يمكن الاهتمام به. كما رأينا آخرين يسفهون الثقافة العربية، وينسبون كل شيء فيها إلى غير العرب. والخلاف بين الفريقين خلاف في الشكل فقط. فكل قناة تؤدى إلى الأخرى.

والآن ماذا بشأن هذا السؤال الذي طرح علينا، والذي يقول: «التراث عبء أم هو قوة دافعة»؟

وجوابنا على هذا السؤال. هو أن هذا التراث يكون عبئا على الأمة إذا اتخذت منه صنما تتعبد له، وتخلع عليه من القداسات ما يملأ قلبها بالرهبة إن حاولت أن تتخطاه وتعيش حاضرها بكل ما فيه من جدة وطرافة. نعم يصبح التراث الديني عبئا إذا أغلقنا أبواب الإجتهاد، ووقفنا عندما جاء به الأوائل وغاب عنا تلك المقولة العظيمة التي جاءتنا عن الأسلاف والتي تقول: هم رجال ونحن رجال.

كما يصبح هذا التراث عبئاً إذا لم نتعلم من الشافعي الذي جعل له مذهبا في المدينة، ومذهبا في مصر. وعرف بعبقريته أن البيئات مختلفة والناس مختلفون، وما كان يصلح في المدينة ربما لا يكون صالحاً بنفس المقدار في مصر. ويصبح التراث الديني عبئا اذا اقتصر على مظاهر الأشياء، وتعلق بالتافه من الأمور، وقصر الإصلاح على مالا يصلح دينا ولا دنيا.

يصبح التراث الديني عبئا اذا لم يستوعب حقائق الكون التي اكتشفها العلم وبقي أصحابه يعيشون في مماحكات لفظية. يقطعون الوقت في جدل عقيم، وخلافات بعيدة عن غايات الإسلام وجوهره.

لكن هذا التراث الديني يكون قوة دافعة حين يحث على العمل المبدع الخلاق وحين يجعل هدف المسلم في حياته واضحا، وهو أن يلتمس القوة في الزراعة والصناعة. ويعمل على تطوير الإدارة. ويأخذ بأساليب العلم التي هدى الله إليها الإنسان. ويكون هذا التراث قوة دافعة حين ننظر في أنفسنا ونحاول الكشف عن

جوانبها وما أعطاها الله من قوة تصل بها إلى جوهر الأشياء.

كما يكون هذا التراث قوة حين ننظر في ملكوت السموات والأرض، لا أن نقف مشدوهين أمام العالم وهم بسلطان العالم ينفذون من أقطار السماوات والأرض.

إن أحداً لا يستطيع أن يوقف عجلة الزمن. كما لا يستطيع أن يعيش الماضي بكل تفاصيله وجزئياته. وهو بالتالي لا يستطيع أن ينزع نفسه نهائيا من هذا الماضي ومن هنا تكون إجابتنا على السؤال المطروح عن طريق تعديل صيغته ليقول: كيف نفيد من التراث بحيث يصبح قوة دافعة؟ وهنا نستعير من شيخ الفلاسفة الدكتور زكي نجيب محمود مقولته التي تتلخص في تخليص الناس من الغشاوة التي وضعت على أبصارهم. والتي سدت أمامهم الطريق فلم يعرفوا واقع الدنيا. وهذا يتحقق في تحديث الثقافة التي تزرع في الرؤوس وفي الضمائر، بمعنى أن نزود الإنسان العادي بمجموعات الأفكار والقيم التي تصلح أن تكون له وسائل نجاح في ظروف الحياة الراهنة. ولسنا بذلك نعني، ولا نحن نريد أن نقحم زرعا غريبا على نفوس تعافه وترفضه. بل أن السياسة الثقافية الجديدة من واجبها أن تتلمس في الروح العربية الأصيلة تلك المواضع التي تتقبل الزرع الجديد. ولعل ذلك أن يكون أهم مهمة يضطلع بها، أو يجب أن يضطلع بها رجال الفكر والفن والأدب جميعا: فليكن جمهور الأمة العربية بمثابة كتلة المرمر حين يتولاها فنان النحت ليخرج منها رأسا بشريا في ملامحه حكمة وهدى وتفاؤل، وكما يصنع النحات حين يتصور بخياله ذلك الرأس داخل كتلة المرمر ثم يبدأ بضربات أزميله بناء على ذلك التصور فيزيل الزوائد من كل الجوانب حتى يبرز الرأس المنشود، وتظهر ملامحه كما رآها الفنان.

فالفنان هنا لم يفرض على المرمر ما ليس مرمرا. وإنما ترك الأمر على طبيعته واستخرج من تلك الطبيعة ذاتها ما أراد «وهكذا علينا أن نفعل، نحن رجال الفكر والفن والأدب في الأمة العربية. نستخرج من جوهر العربي بكل ما فيه من أصالة، تلك الصورة الثقافية الجديدة، التي تعينه على أن يعيش في عصره هذا، لا تابعاً كما هي حاله الآن، بل متبوعاً كما كان في عصور مجده الخالد»[1].

---

(١) في تحديث الثقافة العربية ٢٣.

القسم الثالث

في الحديث عن الأستاذ عبدالسلام هارون

يحرره :

أ.د. محمد مهدي علام

أ.د. يوسف حسن نوفل

أ.د. سامي مكي العاني

أ.د. حسين محمد شرف

د. مصطفى حسين

عبدالسلام هارون مجمعياً

أ. د. محمد مهدي علام
مجمع اللغة العربية ـ القاهرة

ولد الأستاذ عبدالسلام محمد هارون بمدينة الإسكندرية في سنة ١٩٠٩، وانتقل إلى القاهرة مع الأسرة التي كانت تنتقل تبعاً لوظائف والده، من الاسكندرية إلى طنطا، ثم إلى القاهرة، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة، ثم دخل المدارس الأولية، ولكنه وجه بعد ذلك إلى الأزهر سنة ١٩٢١ حيث درس العلوم الدينية والعربية. وفي سنة ١٩٢٤ التحق بتجهيزية دار العلوم ونال منها شهادة «البكالوريا» سنة ١٩٢٨، ثم أتم دراسته بدار العلوم العليا، وتخرج منها سنة ١٩٣٢، وعين مدرساً بالتعليم الابتدائي. ثم عين في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية (جامعة فاروق الأول حينئذ) سنة ١٩٤٥ في وظيفة (مدرس أ). وهذه هي المرة الوحيدة في تاريخ الجامعات التي ينقل فيها مدرس من التعليم الابتدائي إلى متوسط السلك الجامعي.

ونقل بعد ذلك أستاذاً مساعداً بكلية دار العلوم سنة ١٩٥٠، ثم عين أستاذاً ورئيساً لقسم النحو بها سنة ١٩٥٩. وفي سنة ١٩٦٦ اختير مع نخبة من أساتذة الجامعات المصرية لإنشاء جامعة الكويت. وتولى تأسيس قسم اللغة العربية وقسم الدراسات العليا بها تحت رئاسته إلى سنة ١٩٧٥. وفي أثناء ذلك اختيرا عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في سنة ١٩٦٩ في المكان الذي خلا بوفاة المرحوم الأستاذ محمد فريد أبوحديد.

وفي سن مبكرة بدأ الأستاذ عبدالسلام هارون نشاطه العلمي، إذ ظهر له تحقيق كتاب «متن أبي شجاع» بضبطه وتصحيحه ومراجعته في سنة ١٩٢٥ وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم ظهر له تحقيق أول جزء من «خزانة الأدب للبغدادي» في سنة ١٩٢٧ أي في التاسعة عشرة من عمره، وهي السنة التي نادى فيها بإنشاء جمعية الشبان المسلمين. ثم أكمل أربعة أجزاء من الخزانة وهو طالب بدار العلوم.

وفي سنة ١٩٤٣ اختاره الدكتور طه حسين ليكون عضواً بلجنة إحياء تراث أبي العلاء المعري، مع الأساتذة مصطفى السقا، وعبدالرحيم محمود، وإبراهيم الإبياري، والدكتور حامد عبدالمجيد وقد أخرجت هذه اللجنة في أول إنتاجها مجلداً ضخماً عنوانه «تعريف القدماء بأبي العلاء»، أعقبته بخمسة مجلدات من شروح ديوان «سقط الزند» للتبريزي، والبطليوسي، والخوارزمي.

وقد حصل على الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية في التحقيق والنشر سنة ١٩٥٠، كما ظفر بجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة ١٩٨١.

ويتوالى إنتاجه العلمي الغزير، بين بحوث ومقالات في المجلات والدوريات العربية، وبين كتب مؤلفة تزيد على ١٢ كتاباً، وكتب محققة مشروحة ومذيلة بالفهارس العلمية تربو على ١١٥ كتاباً. وكلها كتب قيمة من ذخائر الأدب واللغة. ولولا تواضع الأستاذ هارون لذكرناها كلها، ولكننا نكتفي بما رأى هو الإشارة إليه.

وأهم هذه الكتب والبحوث:

١ ــ تحقيق النصوص ونشرها (بحث مبتكر).
٢ ــ الأساليب الإنشائية في النحو العربي.
٣ ــ كتاب الحيوان للجاحظ (٨ مجلدات).
٤ ــ كتاب البيان والتبيين (٤ مجلدات).
٥ ــ رسائل الجاحظ (٤ مجلدات).
٦ ــ البرهان للجاحظ.
٧ ــ مجالس ثعلب (مجلدان).
٨ ــ شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري.

٩ ــ جمهرة أنساب العرب لابن حزم.
١٠ ــ نوادر المخطوطات (مجلدان).
١١ ــ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (٤ مجلدات).
١٢ ــ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦ مجلدات).
١٣ ــ معجم شواهد العربية (مجلدان).
١٤ ــ الاشتقاق لابن دريد (مجلدان).
١٥ ــ تهذيب اللغة للأزهري (مجلدان).
١٦ ــ تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب.
١٧ ــ كتاب سيبويه (٥ مجلدات).
١٨ ــ خزانة الأدب للبغدادي (١٢ مجلداً).

والأستاذ عبدالسلام هارون تعرفه الجامعات العربية أستاذاً زائراً لها، ومناقشاً لكثير من الرسائل التي تربو على ٨٠ رسالة للماجستير والدكتوراه.

نشاطه المجمعي:

منذ اختيار الأستاذ عبدالسلام هارون عضواً بالمجمع وهو يشارك في أعمال لجانه ومجلسه ومؤتمراته، فهو عضو في لجان المجمع التالية: المعجم الكبير، والأصول، والألفاظ والأساليب، وإحياء التراث، ولجنة الأدب. كما أنه عضو في مكاتب المجمع، وهو دائم المشاركة في مناقشات المجلس، ودائم المشاركة في أعمال المؤتمر سواء بالمناقشة أو بالبحوث التي يلقيها.

ومن الكلمات التي ألقاها في المجمع:

١ ــ كلمة في حفل استقباله (مجلة المجمع ج ٢٥/٢٥٢). وقد استقبله يومئذ الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، وقال في استقباله: «وجُماع ما يقال عن الأستاذ عبدالسلام هارون أنه شيخ في إهاب شاب، أو أنه شاب في ملاخ شيخ، فأما أنه شيخ فإن سنوات عمره تنظمه في سلك من يطلق عليهم هذا الوصف، وأما أنه شاب مكتمل الشباب فكل أحواله التي نعرفها عنه تدل

عليه وتؤكده، فهذه الجلادة التي يتحلى بها، وهذا الصبر الذي يلقى به مشاق الأعمال العلمية المضنية، على اختلاف مناحيها وكثرة شعبها، ومضاء عزيمته فيما يضطلع به منها، كل أولئك لا يدع مجالا للتردد في صحة إطلاق هذا الوصف عليه».

٢ ــ كلمة في تأبين الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد (مجلة المجمع ج ١٨٣/٣٢).

٣ ــ كلمة في استقبال الأستاذ الدكتور شوقي ضيف (مجلة المجمع ج ١٤٧/٣٧).

٤ ــ من كناشة النوادر (١) في مؤتمر الدورة ٤٥ (مجلة المجمع ٣٧/٤٥).

٥ ــ من كناشة النوادر (٢) في مؤتمر الدورة ٤٦ (مجمع المجمع ج ٣٧/٤٥).

٦ ــ من كناشة النوادر (٣) في مؤتمر الدورة ٤٩ (تحت الطبع).

٧ ــ كلمة في تأبيه الأستاذ ابراهيم عبدالمجيد اللبان (مجلة المجمع ج ١٤٥/٤٣).

٨ ــ تجربتي في إحياء التراث مؤتمر الدورة ٤٨ (تحت الطبع).

وقد انتخبه مجلس المجمع أميناً عاماً في ٧ من يناير سنة ١٩٨٤، وقد اضطلع بمسئولياته في هذا المنصب بمثل ما عهد فيه من النشاط والدقة والسماحة. ومن ميزاته أنه خير رفيق على الطريق.

عبدالسلام هارون وتحقيق الشعر العربي

أ. د. يوسف حسن نوفل
كلية التربية الأساسية ـ الكويت

تبدأ مسيرة التكوين العلمي للأستاذ عبدالسلام هارون منذ النشأة في كنف أبيه الشيخ محمد هارون وكيل مشيخة علماء الإسكندرية، ووكيل الجامع الأحمدي بطنطا، ورئيس التفتيش القضائي بالقاهرة، وقاضي قضاة السودان، فقد قرأ الابن مؤلف الأب (تلخيص الدورس الأولية في السيرة المحمدية) في جزءين أثناء دراسته، كما قرأ له (دروس في آداب اللغة العربية).

ويحدثنا أنه: «مما استرعى نظري بعدما شددت أني وجدت له تحقيقاً سابقاً لأوان التحقيق، وهو تحقيق (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) لابن أبي الربيع الشيباني»[1].

يضاف إلى هذا التأثير الأبوي، تأثير أخيه الأكبر محمد أبوالفضل الذي قام بصنع حاشية كتاب جدِّه (عنوان الظرف)، وكان للأخ الأكبر هذا مكتبة في المنزل جمع فيها مختارات جيدة من الكتب الأصيلة التي كانت تظهر في ذلك الوقت، وكان يشجعه على قراءتها، ويحمله على حضور مجلسه للمذاكرة مع إخوانه، ويذكر لنا أنه رصد له مكافأة (ساعة جيب) إذا أتم حفظ المعلقات في تلك السن الباكرة مع شيء

(١) كتابي مفكرون في السعودية، دار الأصالة، السعودية، الرياض ص ١٣٨.

من شروحها في نحو ثلاثة أشهر، وهذا فتح أمامه باب الولوع بالأدب واللغة وباب التفكير في التأليف.

ولَّما مات والده كفله عمه، الشيخ أحمد هارون ـ تزوج ابنته صيف ١٩٣٥ ـ والذي كان وكيلا للجامع الأزهر ومديرا للمعاهد الدينية، والذي منحه رعاية تفوق رعاية أبنائه، ووجّهه إلى تجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٤ ثم دار العلوم العليا سنة ١٩٢٨.

ويذكر ممن أثّروا فيه: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، والشنقيطي، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ محمد عبدالمطلب، والشيخ دسوقي جوهري، والدكتور أبوالعلا عفيفي، وهاشم عطية، وزميله عبدالسلام محمد الناظر، والشيخ أحمد محمد شاكر، وأمثالهم.

وفي ذلك كله اتجه عالمنا إلى النص الشعري جامعاً خبرة السابقين والمعاصرين مضيفاً إليهم خبرته وتجاربه على نحو ما سنرى.

وهكذا نجد أنه حين نقف أمام تجربة الأستاذ عبدالسلام هارون في التحقيق في مجال الشعر نجدها ملتحمة بتجربة حياته وبمسيرته الذاتية أيما التحام، ولهذا قد يحسن قبل أن نلتقي بتجربته العلمية والعملية أن نلتقي بموجز عن تجربته الحياتية لعل فيها ما يضيء الطريق.

فمنذ ولد بمدينة الاسكندرية في ١٨ يناير سنة ١٩٠٩، ثم انتقاله مع الأسرة إلى طنطا ثم القاهرة كان تحت رعاية أبيه، فحفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة، ثم التحق بالمدارس الأولية، ثم وُجِّه إلى الأزهر سنة ١٩٢١ حيث التقى بالعلوم الدينية والعربية، ثم التحق بتجهيزية دار العلوم ونال منها شهادة البكالوريا سنة ١٩٢٨، ثم أنهى دراسته بدار العلوم العليا سنة ١٩٣٢.

واستقبل حياة عملية متنوعة، عمل فيها مدرساً بالتعليم الابتدائي، ثم في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٥، ثم في كلية دار العلوم سنة ١٩٥٠ حتى صار أستاذاً ورئيساً لقسم النحو بها سنة ١٩٥٩، وفي سنة ١٩٦٦ كان بين نخبة من أساتذة الجامعات أنشأت جامعة الكويت وتولى رئاسة قسم اللغة العربية

بها حتى سنة ١٩٧٥، وقد أختير عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ خلفا لمحمد فريد أبوحديد.

على أن بوادر نشاطه العلمي كانت قد ظهرت في وقت مبكر من حياته، إذ حقق كتاب «متن أبي شجاع» بضبطه وتصحيحه ومراجعته سنة ١٩٢٥ وهو في السادسة عشرة من عمره، أما في التاسعة عشرة من عمره فقد حقق الجزء الأول من خزانة الأدب[٢] للبغدادي وذلك سنة ١٩٢٨، ثم أكمل أربعة أجزاء منها حال تخرجه في كلية دار العلوم سنة ١٩٣٢.

على أن طريق اتصاله بالتراث ازداد توثقاً حين انضم سنة ١٩٤٣ إلى لجنة إحياء تراث أبي العلاء المعري حين اختاره طه حسين ليكون زميلاً لمصطفى السقا، وعبدالرحيم محمود، وإبراهيم الأبياري، والدكتور حامد عبد المجيد، وقد قامت هذه اللجنة بإخراج باكورة إنتاجها بمجلد ضخم هو: (تعريف القدماء بأبي العلاء)، ثم أعقبته بخمسة مجلدات من شروح ديوان (سقط الزند) للتبريزي، والبطليوسي، والخوارزمي[٣].

وقد أتم تحقيق الحيوان للجاحظ في ثمانية أجزاء (٣٨٩٠ ص) فيما بين ١٩٣٨ - ١٩٤٧، ومجالس ثعلب، وقد نال بها جائزة مجمع اللغة العربية في التحقيق والنشر سنة ١٩٥٠، وجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة ١٩٨١، والجائزة الثانية مناصفة بين الدكتور طه الحاجري، والدكتورة بنت الشاطىء.

أما نشاطه المجمعي فمتعدد متنوع في لجان، وجلسات، ومؤتمرات منها عضوية لجان: المعجم الكبير، والأصول، والألفاظ والأساليب، وإحياء التراث، ولجنة الأدب، ومكتب المجمع، حتى اختير أميناً عاماً للمجمع في ٧ من يناير ١٩٨٤ حتى توفي سنة ١٩٨٨.

---

(٢) دار القلم ٦٦ - ٦٩، والهيئة ٧٣ - ١٩٧٧، والخانجي.

(٣) المجمعيون في خمسين عاما، مهدي علّام، الهيئة ١٩٨٦ ص ١٦٣ وما بعدها، ومطبوعات أعطاني إياها الأستاذ هارون وقت كتابتي عنه.

قال عنه الشيخ محيي الدين في استقباله بالمجمع:

«وجُمّاع ما يقال عن الأستاذ عبدالسلام هارون أنه شيخ في إهاب شاب، أو شاب في ملامح شيخ، فأما أنه شيخ فإن سنوات عمره تنظمه في سلك من يطلق عليهم هذا الوصف»..

وحين نستعرض جهده في تحقيق لغة الشعر سنجد ذلك في أعماله كلها، وذلك إما أن يكون العمل المحقق شعراً، خالصاً، وإما أن يكون نثراً يحتوي كثيراً من الشعر، وبذلك يكون الشعر هو معظم أعمال هارون، وهو غالبيتها سواء ما كان في شكل كتاب مثل:

الحيوان للجاحظ (٨ مجلدات)، والبيان والتبين للجاحظ (٤ مجلدات)، ورسائل الجاحظ (٤ مجلدات)، والبرصان للجاحظ، ومجالس ثعلب، وأنساب العرب لابن حزم، ونوادر المخطوطات (مجلدان)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي (٤ مجلدات)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦ مجلدات)، ومعجم شواهد العربية (مجلدان) والاشتقاق لابن دريد (مجلدان)، وتهذيب اللغة للأزهري (مجلدان)، وتحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب، وكتاب سيبويه (٥ مجلدات)، وخزانة الأدب للبغدادي (١٢ مجلداً).

أو ما كان في شكل مقالات مثل:

من كناشة النوادر في ثلاث حلقات ألقاها في مؤتمر الدورة ٤٥، و٤٦، ونشرت بمجلة المجمع جـ ٤٥/٣٧، وتجربتي في إحياء التراث ألقاها في مؤتمر الدورة ٤٨.

وفي صدارة أعمال الأستاذ عبدالسلام هارون تأتي:

مكتبة الجاحظ:

وهي جانب نثري اهتم فيه الأستاذ هارون بتحقيق الشعر، وتمثل ذلك في كتب التراث التي هي نثرية بطبيعتها لكنها لا تخلو من الشاهد الشعري مثلما نجد في

---

(٤) الحلبي ١٩٣٨ - ١٩٤٧.

مكتبة الجاحظ، وعددها ١٨ مجلداً، وأولها كتاب (الحيوان) في ثمانية مجلدات، وثانيها (البيان والتبين)[٥] في أربعة (١٥٧٧ صفحة)، وثالثتها (الرسائل) في أربعة تضم ٤٥ رسالة وكتابا[٦]، (فالعثمانية)[٧]، (فالبرصان والعرجان) في مجلدين.

والجانب الشعري في هذه المكتبة جدير بالاهتمام والدراسة بوصفه شاهداً شعرياً من ناحية، وبوصفه ينمّ عن ذوق الجاحظ واختياراته ومحفوظه من ناحية ثانية، ذلك الإمام من أئمة البيان العربي - أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) الذي عاش العصر الذهبي للآداب والعلوم في عهد هارون الرشيد، وعهد المأمون، والذي عاصر أعلاماً أمثال: أبي عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٩ هـ)، والمدائني (١٣٥ - ٢٢٥ هـ)، والكلبي (. . . - ٢٠٦ هـ)، والذي أصدر زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً ضاع معظمها، واتسم تأليفه بالابتكار والطرافة والدعابة والفكاهة، وقد كان له ورّاقون يكتبون عنه وله، وهو أول واضع لكتاب عربي عن الحيوان، وإن سُبق بمحاولات عن بعض الحيوانات وبخاصة الإبل والخيل لبعض الكتاب العرب، ومن ناحية ثالثة يمثل الجانب الشعري جهداً من جهود الأستاذ هارون مع النص الشعري، وبخاصة في مجال المكتبة الجاحظية تلك المكتبة التي اهتم بها هذا المحقق في باكورة حياته بمقالات متفرقة ينبغي أن نشير إليها، وأن تأخذ حقها من الاهتمام، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل[٨]، هذه المقالات هي:

- مكتبة الجاحظ المنشور بصحيفة دار العلوم بالقاهرة ابريل ١٩٤٣.
- حول كتاب الحيوان - رد على الأب أنستاس الكرملي - المقتطف نوفمبر ١٩٤٤.
- الجاحظ والمعلمون - الكتاب أغسطس ١٩٤٦.
- حول كتاب الحيوان - رد على الأب أنستاس الكرملي - الثقافة ١٠٤، ١١٠، ١١٦، ١٢٥.

---

(٥) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١.

(٦) السنة المحمدية ٨١٩٦٤

(٧) دار الكتاب العربي ١٩٥٥ في ٣٨٦ ص.،

(٨) مجلة قافلة الزيت نوفمبر ١٩٨١ ص ٤٢، وكتابي مفكرون في السعودية ص ١٣٨.

ـ تبسيط كتاب الحيوان: تهذيب كتاب الحيوان ـ مطبعة الرسالة ١٩٥٧ ـ مجلد واحد في ٣٠٧ ص.

الحيوان

صدّر المحقق كتابه بما يظهر تأثره بالجاحظ بياناً فقال في المطلع: «عمر الله باليقين قلبك، وأفاض عليك من الخير، وعقد بيننا وبينك سبباً من الرضا، وحبّب إلينا كما حبب إليك الحق، وأمتع عينيك وقلبك بما سيطالعك من عجب الجاحظ»(٩).

ويمضي في مقدمة مطولة مبينا صورة عن بيان الجاحظ، وتآليفه، وعصره، ومنهجه، وقيمة كتبه، وذيوعها، ودور كتابه الحيوان ومنزلته، ومصادر الجاحظ المتنوعة بين الشعر وغيره، وهي:

القرآن الكريم، والحديث الشريف، الشعر العربي وبخاصة البدوي منه، وكتاب الحيوان لأرسطو، وجهود المعتزلة وعلماء الكلام، وخبرة الجاحظ الشخصية، ويبين المحقق أن الجاحظ لم يقتصر على الحيوان وما يمتّ إليه بسبب. بل الكتاب معلمة كبرى مصورة لثقافة العصر العباسي بما حواه من معارف متنوعة، وشعر عربي، وأمثال، وفكاهة.

وأول عهد المحقق بالكتاب كان منذ سنة ١٣٥٣ هـ حين كان يقرأ أو يدوّن تصحيحاته، ثم شرح يقارن بين النسخ المخطوطة والمصورة بتشجيع من الشيخ أحمد محمد شاكر.

وقد أضاف للكتاب ترتيبه ترتيباً حديثا دون اخلال بوضعه الأول، واضعاً عناوين إضافية ذات أقواس خاصة تمييزا لها عما وضعه الجاحظ. وفوق التحقيق والضبط نراه يهتم بالنص الشعري معنىً ولغةً، وشرحاً، وضبطاً، وإحالة إلى المصادر، من ديوان ومختارات، وغيرها، وقد يذكر توجيهات اللغويين كما نراه في

---

(٩) ص ٣ ط ٣ جـ١.

(١٠) جـ٧ هـ ٢٠٩.

التعليق على قول كعب بن زهير:

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... يرى ويسمع ما لو يسمع الفيل

حيث يذكر توجيه ابن هشام لإعراب هذا البيت في شرح: بانت سعاد[١٠]. وبخاصة أن الشعر ينتشر انتشاراً كبيراً في هذه الموسوعة مما جعله يصنع فهرساً للأشعار والأرجاز[١١].

البيان والتبين[١٢]

وقد أشار في مقدمته إلى أنه: «أسْير كتب أبي عثمان، وأكثرها تداولاً، وأعظمها نفعاً وفائدة، فيه تخرج كثير من الأدباء، واستقامت ألسنتهم على الطريقة المثلى».

وفي هذا إشارة إلى النص الشعري الذي دعاه إلى صنع فهرس للأشعار والأرجاز[١٣] على نحو ما صنع في الحيوان.

نوادر المخطوطات

وفي صدارة ما حققه الأستاذ هارون مجموعة نوادر المخطوطات التي اشتملت على ٢٥ كتاباً ورسالة، وفيها من النص الشعري ما فيها مما يكشف عن جهده في هذا المجال.

الجانب النظري والنص الشعري

وقد وجّه الأستاذ هارون جهداً نظرياً نحو النص الشعري، سواء أكان في مقالاته، أم في كتابه (تحقيق النصوص ونشرها) الذي ظهرت طبعته سنة ١٣٧٤ هـ واضعاً القواعد نحو:

ترجيح رواية على أخرى، وتصحيح الأخطاء والتعريفات، وضبط

(١١) ٧/ ٥٢٨ و٢٧٥.

(١٢) لجنة التأليف ١٩٥١.

(١٣) جـ ٤ ص ١٢٢ وما بعدها.

النصوص، والتعليق عليها، والمكملات الحديثة التي تلحق بالكتاب، وهو كتاب يعدّ الأول في نوعه في العربية حيث يهتم في فصوله بقضايا مهمة منها:

أصول النصوص: منازل النسخ، وجمعها، وفحصها، ومعالجة النصوص: الروايات، والأخطاء، وتصحيح التحريفات.

وقد كان هذا الكتاب ثمرة لخبرته وتجاربه، وتجارب أساتذة وزملائه، وهو أساس من الأسس النظرية لتحقيق النص الشعري، بما فيها من ضرورة تحقق الصلة الوثيقة مع التراث بفروعه المختلفة نظراً للوشائج المترابطة بين فروعه المختلفة، وبما فيها من صبر، وأمانة، وكيف نرجحّ رواية على أخرى، حتى تخرج النصوص في صورة أقرب ما تكون إلى الصحة.

وفائدة هذا الكتاب ـ بالنسبة للنص الشعري ـ لا تقتصر على جهد الأستاذ هارون في أعماله، تلك الأعمال التي تنطق بمضمونها بطبيعة الحال. بل تتعداها إلى إرساء أسس التحقيق، وضبط النص الشعري لدى المشتغلين بهذا الحقل، وبذلك يمكن جعل هذا الجانب النظري أساساً من أسس خدمة النص الشعري في تراثنا العربي.

تحقيق النصّ الشعري

يأتي في مقدمة ما حققه الأستاذ عبدالسلام هارون في الشعر:

كتب القصيد:

ولقد كانت البداية العلمية لاهتمام الأستاذ عبدالسلام هارون مع الأستاذ أحمد محمد شاكر بنشر نفائس الشعر في العصور الأولى وما بعدها متمثلة في سلسلة (ديوان العرب ـ مجموعات من عيون الشعر العربي) التي تضم أربعة كتب هي (كتب القصيد):

«المفضليات» للمفضل[١٤] بن محمدبن يَعْلَى بن عامر بن سالم الضبي الكوفي

---

(١٤) انظر ترجمته في: الفهرست لابن النديم، وتاريخ بغداد للخطيب ١٣/١٢١ ـ ١٢، والأنساب للمّعاني ٣٦١، ونزهة الألباء لابن الأنباري ٦٧ ـ ٦٩، وميزان الاعتدال للذهبي ٣/١٩٥، ومعجم الأدباء لياقوت ٧/١٧١ ـ ١٧٣، وطبقات القرّاء لابن الجزري، ٢/٣٠٧، ولسان الميزان لابن =

اللغـوي (ت ١٧٨). وتضم ١٣٠ قصيدة عـدة أبيـاتهـا ٢٧٢٧ بيتـاً، وذلـك سنـة ١٩٤٢. و «الأصمعيـات»[١٥] لأبي سعيـد عبـدالملك بن قُـريْب بن عبـدالملك الأصمعي وتضم ٩٢ قصيدة عدة أبياتها ١٤٣٩ بيتاً، وذلك سنة ١٩٥٥. و «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي وتضم ٤٩ قصيدة عدة أبياتها ٢٦٨١ بيتـاً و «مختارات ابن الشجـري» المسـماة «مختـارات شعـراء العـرب» وتضم ٦٥ قصيدة عدة أبياتها ١٣١٠ بيتا.

أي أن جملة هـذه القصائـد في (كتب القصيد) هـذه بلغ ٣٣٦ قصيدة، وكـما يذكر المحققان[١٦]:

«لم يكرَّر منها بين كتاب وآخـر إلا ٣٠ قصيدة، وفي هـذا التكرار فـائدة، من زيادة أو اختلاف رواية أو نحو ذلك، وعدد أبياتها ٨١٥٧، وقـد يزيـد هذا العـدد بعد التحقيق والتصحيح، وشعراؤها ١٥٥ شـاعراً، كلهم ممن كـان في الجاهليـة أو صدر الإسلام، ومن شعـرهـم أكثر شـواهد العـربية، في الغـريب والبلاغـة والنحو والتصريف».

وفي ذلك ما يكشف عن أهمية هذه الكتب في مجال الشعر العربي، وأهمية دور التحقيق في هذا المجال.

= حجر ٨١/٦، وبغية الوعاة للسيوطي ٣٩٦.

ومن شراح المفضليات أبو محمد الأنباري، وابن النحاس، والمرزوقي، والتبريزي، والميداني.

(١٥) لم تطبع الأصمعيات قبل هذا التحقيق الا مرة واحدة في مدينـة ليبزج بـألمانيـا ١٩٠٢ بتصحيح وليم ابن الورد وقد اعتمدنا على الطبعة الثانيـة، دار المعارف ١٩٦٤ وقـد ظهرت الـطبعة الأولى متـأخرة عشر سنـوات وذلك سنـة ١٩٥٥. انظر تـرجمة الأصمعي في: التـاريـخ الصغـير للبخـاري ٢٣٤ - ٢٣٥، والجرح والتعديل لابن ابي حاتم ٢ - ٣٦٣، وأخبـار النحويـين والبصريين للسيرافي ٦٥٩٨ - ٦٧، وإنبـاه الـرواة للقفـطي، ١٩٧/٢ - ٢٠٥، والأنسـاب للسمعـاني ١٥١ - ٥٢ب، وجمهـرة الأنساب لابن حزم ٢٣٤، ووفيـات الأعيان ٢٨٨/١ - ٢٩٠، والـوافي بالـوفيات جـ ٦م٢ ٣٥٤ - ٤٥٩، والمعـارف لابن قتيبة ٢٣٦ - ٢٣٧، وتـاريخ ابن الأثـير ٢٢٠/٥، وتاريـخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٢١٦)... الخ.

(١٦) ص ٦ في مقدمة المفضليات في طبعتها الأولى سنة ١٩٤٢ - مايو، ١٣٦١هـ ربيع الآخر، وقد رجعنا للطبعة السادسة. بيروت.

وقد بيّن المحققان منهج التحقيق في مقدمة الجزء الأول من هذه المجموعة أو السلسلة (المفضليات)، وهو منهج جدير بالتأمل، يقولان عن ذلك[١٧]: .

«وقد حاولنا أن نعرض هذا الشعر على القارىء أجمل عرض وأوضحه وأوجزه، فلا نعرض لاختلاف الرواة في الرواية، إلا أن نضطر إلى ذلك اضطراراً، وإنما نعرّف الشاعر إلى القارىء تعريفاً موجزاً كافياً، ثم نذكر جوّ القصيدة وما قيلت فيه من أغراض ومعان وتاريخ، ثم نخرّجها فنذكر ما وصل إليه علمنا من مواضع وجودها، أو وجود أبيات منها، في الكتب الأصول المعتمدة، وقد رأينا أن كثيراً من هذا الشعر أو أكثره، مستشهد به في لسان العرب، وفي معجم البلدان، فوجدنا أن لو نصصنا على موضع كل بيت منه فيهما لطال الأمر جداً، فتركنا النصّ على ذلك، لكي يكون سهلاً على القارىء أن يجد ما يريد في هذين الكتابين المرتّبين على الحروف.

ثم نفسّر كل بيت بشرح ما فيه من الغريب شرحاً بيّناً، لا إخلال ولا إطناب. وإن كان في معنى البيت خفاء لا يكفي في بيانه شرحُ الغريب، فسّرنا معناه تفسيراً وسطاً، لا يتجاوز ما يجب لإيضاحه، مراعين في ذلك حال القارىء المتوسط».

وقد حرص التحقيق على أن يذكر للقصائد أرقاماً متتابعة في كل كتاب من الكتب الأربعة، وعلى وضع رقم لكل بيت مساعدةً للإحصاء، والفهرسة، وجعل في الفهرس الرقم الأول للقصيدة والثاني للبيت.

وتعامل الأستاذ عبدالسلام هارون مع النص الشعري لا تعسّف فيه ولا تصنع، ولا افتعال ولا تكلف، فهو أمين في الرجوع إلى مصادر شرح النص وتفسيره، وهذا ما تكشف عنه مقدمة المفضليات[١٨]:

«عُنينا باختيار أجود الأقوال وأصحها وأنقاها لفظاً، وأبلغها عبارة، مما نقل أبومحمد الأنباري في شرحه إياها عن الأئمة من شيوخه وتميزهم، وحرصنا في هذا على إثبات لفظه، محافظةً على قيمته التاريخية، وما حوى من دقة التعبير، وفصاحة

(١٧) نفسه.

(١٨) ط ٦ ص ٦، ٧

القول، وجزل الكلام، إلا أن يكون ما قاله خطأً فنتجاوزه إلى الصواب أو مقصراً فنلجأ إلى البيان، وإلا ما أهمل شرحه، مما كان في عصره معروفاً، فصار في عصرنا غريباً».

الترجمة

ويحرص التحقيق على ذكر ترجمة الشاعر، وقد لا يجد المحقق ترجمة له، عند ذلك يشير مثل إشارته إلى الشاعر أبي الفضل الكناني:

«لم نجد له ترجمة ولا ذكراً في غير هذا الموضع» ولا يكتفي بعرض الترجمة الموجزة فحسب. بل يتحرى الدقة في نسبة النص لصاحبه أولاً، ثم يميّز بين الأشخاص المتشابهين، فيدفع اللبس، وينحيّ التوهم، وذلك كما رأينا في ترجمة شاعر الأصمعية رقم ٢٢ : سَعْيَة بن العُرَيْض اليهودي، إذ ينبه إلى وجود شبيه باسمه وهو ابن ابن أخيه؛ سعية بن العريض السموأل بن العريض بن عادياء «كان مسلماً وعمر طويلا ومات في آخر خلافة معاوية، ولهذا يخالف المحقق ما ذكره الحافظ بن حجر في (الإصابة) من خلط بين الشخصين، ويؤيد ما ذهب إليه صاحب الأغاني من صواب، كما يصوّب نسبته إلى تيماء لا إلى خيبر، ثم يورد طائفة من الخلط في هذا الاسم: سعية ـ شعبة ـ سعيد ـ سعنة.

وتسعف هنا الدقة اللغوية، والأمانة العلمية مع المراجع كما هو واضح.

الدقة اللغوية

وفيما حققه الأستاذ عبدالسلام هارون نجد الدقة اللغوية في تحقيق النص الشعري، فها هو يضع تعليقات إضافية للأصمعيات يشير فيها إلى تحري الدقة اللغوية، مثل إشارته إلى ضبط كلمة «بشُرْبة» التي وردت بالضم في أصل الأصمعيات وفي القاموس، لكن اللسان يفتح الشين.

كذلك جملة «فانعق بشاتك» التي وردت هكذا في الأصمعيات ولم يجد المحقق للبيت مرجعا لذا رأى أن الوجه «فانعق بشائك» بالجمع.

كذلك كلمة «ينقض» في الأصمعية ٢٣ بالمعجمة لا المهملة استناداً إلى المصادر.

وفي هامش الأصمعية رقم ٢ نجد تعليقاً على كلمة الموسّق من البيت:

إذا قلت تزهاه الرياح دناله ... ربابٌ له مثل النعام الموسّق

«لم نجد وزن التفعيل من الوسق، والوسق: التحميل أو الطرد والسوق، فلعله اشتقاق من أحدهما».

وقد يواجه اللغة الشعرية بأمانة علمية لا تقطع عنه الشك، من ذلك تعليقه على البيت الرابع والثلاثين من الأصمعية الثانية وعلى كلمة «شقاً» من قول الشاعر خفاف بن ندبة:

أسال شقاً يعلو العِضاة غشاؤه ... يصفق في قيعانها كل مصْفق

يقول[19]:

«يبدو لنا أنه اسم مكان بعينه، ولعله واد سال فيه الماء».

فلا يجد بأساً من استخدام كلمة «لعل»، كما يستخدم كلمة «الظاهر» في هامش آخر[20].

وإن غابت الملاحظات العروضية في ثنايا التحقيق، من ذلك ما نلاحظه من خلل موسيقي في هذا البيت من الأصمعية ١٥، الذي ورد دون ملاحظة على هذا الخلل في الشطر الثاني مع أن المحقق علّق على كلمة لنفسه:

فإن يك غثاً أو سميناً فإنني ... سأجعل عينيه لنفسه مقنعا

غير أن من الدقة اللغوية التي لا تنكر تنبّه التحقيق للكلمة المحذوفة، والاهتداء إليها بحسّ لغوي، مثلما نرى في كلمة «الرقى» التي كانت محذوفة من الشنقيطية وموضعها كان بياضاً، وقد ذكرها المحققان:

يعقد في الجيد عليه الرقى ... من خيفة الأنفس والحاسد

جو النص:

وفي كل نصّ نجد الحرص على ذكر ما تدور حوله القصيدة - بإيجاز - بالإحاطة المختصرة بموضوعها ومعانيها يتساوى في ذلك النصّ الطويل أو القصير.

---

(١٩) الأصمعيات هـ البيت ٣٤ من الأصمعية،

(٢٠) الأصمعية ٣.

وقد لا يجد البعض عظيم جدوى في التعريف بجو النص انطلاقاً من النص، أو استناداً للمصادر لكن جدوى ذلك تتضح من اكتشاف تجزيء النصّ إلى نصين، ثم إلى نسبة النص لغير صاحبه، كما حدث للأصمعية ٢٥، وتاليتها: الأصمعية ٢٦، والأولى نسبها الأصمعي حقاً لكعب بن سعد الغنوي، وكما يقول المحققان: «لعل الأصمعي أخطأ أو وهم» حين نسب الجزء الثاني لشاعر مجهول هو: عُرَيْفَة بن مَسافع العبْسي، وهذا الاسم المجهول ضبط هكذا في الشنقيطية، وبالعين المهملة بغير ضبط في الأوربية، ولم يجد المحققان له ترجمةً ولا ذكراً إلا خبراً في الاشتقاق لابن دريد. ولهذا رأى المحققان ـ بحق ـ أن الأصمعيّتين نص واحد، وقصيدة واحدة للشاعر الأول، وأن قسمها الثاني سبق قسمها الأول، من متابعة جو النص، ثم يذكر المحققان في التخريج قول الأصمعي عنها:

«ليس في الدنيا مثلها»، وقول العسكري «قالوا: ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد التي يرثي فيها أخاه».

كما يذكر المحققان أنهما لم يجدا أحداً قسمها لشاعرين إلا الأصمعي، بل إن القسم المنسوب للمجهول أوله مشهور ومنسوب لكعب في أكثر الروايات وهو:

تقول سليمى ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الشرابَ طبيب

وحقاً ما ساقاه المحققان من حجج تستند للمصادر أولاً، ثم إلى سياق النص وحركة المعنى فيه حيث يبدأ الشاعر ـ في رثاء أخيه ـ في محاورة سليمى في أسباب حزنه، ثم ينتقل إلى خبر أخيه. والحق أن آخر الجزء الموجه لسليمى بدأ الشاعر فيه الحديث عن أخيه، ثم أكمله في الجزء الآخر، فالمعنى يؤيد ذلك حقاً، إضافة إلى موسيقى النص ـ فيما نرى ـ من بحر الطويل، ورويّ الباء المضمومة المردفة بالواو والياء.

تشابه الشعراء والأبيات

وفي تحقيق النص الشعري نجد الإشارة إلى ما يوجد بين الشعراء من تشابه، ونسوق لذلك هذه الأمثلة من هوامش الأصمعيات:

عند شرح قول خفاف بن ندبة[٢١]:

يجــرّ بــأكنــاف البحــار إلى المــلأ　　ربــابــاً لــه مــثــل النعــام المـعلق

نجد الإشارة إلى تشابه ذلك مع قول عبدالرحمن بن حسان بن ثابت:

كــأن الــربــاب رويــن الســحــاب　　نــعــام تــعــلق بــالأرجــل

وعند شرح قوله أيضا[٢٢]:

مــتــطلع بــالكــف ينـهض مُقْــدمــاً　　متــتــابــع فــي جــريــه يــعــبــوب

نجد الإشارة إلى قول عبدالمسيح بن عسلة: «إذا أواضع منه مرّ متحيــاً» (في المفضلية رقم ٧٣).

وعند تخريج الأصمعية[٢٣] رقم ١٦ للأجدع بن مالك الهمـداني نجد إشـارة إلى تشابه أبيات مع بعض أبياتها في: معجم البلدان ٢١٢/٣، وفي سيرة ابن هشام ٩٢٤، والمفضلية ٤٤.

وفي القصيـدة ٢ من الأصمعيات نجـد هذا التشـابه بـين البيتين ٣١، و٣٢ دون تعليق من التحقيق، وهو تشابه يبدو في الشطر الثاني من البيتين:

يجــرّ بــأكنــاف البحــار إلى المــلا　　ربــابــاً لــه مــثــل النعــام المـعلق

إذا قلت تــزهــاه الــريــاح دنــا لــه　　ربــابٌ لــه مثــل النعــام المــوسـق

النص بين المفضليات والأصمعيات:

ومن منهج تحقيق النص الشعري ما يتصل بنسبـة الاختيار إلى صـاحبه حيث يـرى المحققان أن المفضليـات ليست كلها من اختيـار المفضَّل الضبي. بـل ليس له فيهـا إلا القليل، وإلا أن قـرأ عليها بعضهـا تلميذه أمـير المؤمنين المهـدي حين وليّ العهد لأبيه أبي جعفر المنصور، ثم قرئت عليه بعـد ذلك ونسبت إليـه، ويريـان أن أصلها سبعون، ثم زيدت عليها زيادات مثل البيت ١٥ من القصيدة ٧٦:

---

(٢١) الأصمعيات ص ٢٦.

(٢٢) نفسه ص ٢٨.

(٢٣) نفسه ص ٦٨.

إذا ما فُتْنَهُ يوما برهنٍ يعزّ عليه لم يرجعْ بحيْن

وعلى هذا فهناك قصائد من الأصمعيات أدخلت في المفضليات. وقد ساعد المحققين على هذا الحكم ما لاحظاه على (مجموع أشعار العرب) جمع المستشرق وليم بن الورد البروسي[٢٤]، ثم ما لاحظاه على النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية بخط العلامة الشنقيطي نقلا عن النسخة المخطوطة المحفوظة بخزانة كبرلي فوجدا مخالفة تامة للنسخة المطبوعة، مما دلّ على أن المطبوعة طبعت عن نسخة سقيمة غير معتمدة، ويذكر المحققان لذلك أمثلة في مقدمة المفضليات[٢٥]، وقوى ذلك هذه العبارة في نسخة الشنقيطي:

«كملت المفضليات وسائر الزيادات ولله الحمد وخالص الشكر، وهذه بقية الأصمعيات التي أُخِلَّت بها المفضليات»[٢٦].

وصدّر المحققان (الأصمعيات)[٢٧] بهذه الجملة تأكيدا لما قام عليه منهجهما في التحقيق ثم قاما بنقد صنيع ابن الورد الذي يتمثل في أمور هي: اعتماده على نسخة سقيمة لا يوثق بها، وقلة تمرسه بلغة العرب، وحريته في التصرف في ترتيبها ترتيباً غير أمين، حيث رتب القصائد على القوافي على حروف المعجم، وحذف منها ١٩ قصيدة بحجة تكرارها في المفضليات، ثم نقض حجته فأثبت أصمعيات على أنها مفضليات وحذف ما حذف منها على نحو ما فصّل المحققان في مقدمتها.

وقد حرص المحققان في معرض الموازنة بين هذين المصدرين وتحريرهما، ونقد مناهج المستشرقين- حرصا على التنبيه على الأصمعية التي ذكرت في المفضليات وذلك منذ الأصمعية رقم ٧١ حتى ٨٩ حتى ذكرت في المفضليات، ثم عقدا مقارنة بين هذه وتلك مع النص على الزيادة والنقص، وقد أشارا إلى أن هذه الأصمعيات جميعها لم ترد في النسخة الأوربية المطبوعة[٢٨].

---

(٢٤) ليبزج ١٩٠٢ ص ٣ - ٧٤.

(٢٥) ص ١٧ وهوامشها.

(٢٦) مقدمة المفضليات ص ٢١ بالبناء للمجهول أي خُلِّلَت بها وأُدْخِلتْ في خلالها.

(٢٧) مقدمة الأصمعيات ص ٦ ط ٢.

(٢٨) انظر هامش الأصمعية رقم ٧١ بالأصمعيات، وانظر المقدمة، ومقدمة المفضليات.

أمـا في الحيوان فقـد حرص الأستـاذ هارون عـلى المقابلة بـين نسـخ الحيـوان المختلفة، ما وافق منها نسخة الساسي، وما خالفت فيه نسخة كوبريلي سائر النسـخ في ترتيبها[٢٩].

سائر النسخ

البيان والتبيّن

ومن الجـدير بـالذكـر الإشارة إلى تنـويه الأستـاذ هـارون إلى أن اسم كتـاب الجاحظ هو (البيان والتبين) وقد حاورته في ذلك في حديث منشور[٣٠]، فأجاب:

«أنا معك في أن المعروف المتداول في اسم هذا الكتاب هو «البيان والتبيين». ولكن طبيعة الأمور ترى أن هذه التسمية لا تتمشى مع المنطق، فإن البيان هو التبيين بعينـه، ونحن نربـأ بـالجـاحظ أن يقـع في مثـل هـذا العيب في تسميـة أشهـر كتبـه وأسْيرها.

والدارس لهذا الكتاب يرى أنه ذو شقين متداخلين:

الشق الأول هو ما اختاره الجاحظ من النصوص والأخبار والخطب والوصايا، وكلام العرب والـزهاد ونحـو ذلك، وهـو ما يعنيـه الجاحظ بكلمة «البيان»، والشق الثاني في هذا الكتـاب نظرات فـاحصة في نقـد نصوصـه، وفي الكلام بصفـة عامـة تسمىً بعد ذلك بفن «النقد» فهذه النظرات وهذه القواعد التي ساقها الجاحظ هو ما عناه بكلمة «التبيّن».

هذا من ناحية، وهناك ناحية أخرى تاريخية وثائقيـة، فإن النسـخ العتيقة من هذا الكتاب ـ وقد أثبتّ صورتها في تقديمي للكتاب ـ تقطع بـأن عنوانـه هو «البيـان والتبيّن» ـ وهذا يجده القارىء بوضوح في مصـورة مخطوطـة كوبـرلي المحفوظـة بدار الكتب المصريـة تحت رقم (٤٣٧٠ أدب)، وتـاريـخ كتـابتهـا هـو سنـة ٦٨٤ هـ، وكذلك نقـرأ هذا العنـوان بوضـوح في مصورة مخطوطة فيض الله، وهي في معهـد المخـطوطات بجـامعة الـدول العربيـة تحت رقم (٨٨٧) وعندي بحمـدالله صـورة أخرى منها، وهذه النسخة مكتوبة بخط أبي عمرو محمد بن يوسف بن محمد حجاج

(٢٩) انظر الفهرس الرابع عشر لهذه المقابلة ـ الحيوان ص ٧ ـ الحلبي ١٩٦٣.
(٣٠) انظر حديثه معي ـ الفيصل ـ العدد ٥١ ـ اكتوبر ١٩٨١،

اللخمي، وقد قرأها وراجعها على الإمام أبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني في سنة ٥٨٧ هـ، وكتب هذا الناسخ أنه وجد في آخر السفر الذي نسخ منه الثلث الثالث من هذا الكتاب ما نصه:

«كتب هذا السفر، وهو مشتمل على جميع كتاب البيان والتبين من نسخة أبي جعفر البغدادي، وهي النسخة الكاملة، فتم بعون الله وتأييده في غرة ربيع الآخر من سنة سبع وأربعين وثلثمائة» أي بعد وفاة الجاحظ بمدة لا تزيد على ٩٢ سنة.

وسأعيد هذه التسمية الصحيحة إلى نصابها في الطبعة الخامسة إن شاء الله».

هذا هو ما صرّح به الأستاذ هارون لي، أُثبته كاملاً، وأضيف إليه أن المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١ هـ بعد الجاحظ (٢٥٥ هـ) بأمدٍ طويل نراه يصدر كتابه (شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي المعروف بكتاب الحماسة) بقوله في جملة الافتتاح (ص ٣):

«الحمدلله خالق الإنسان متميِّزاً بما علمه من التبينّ والبيان» مما يؤكد التسمية المطروحة الآن.

مصادر التحقيق ومراجعه

يأتي الشعر في مقدمة ما يرجع إليه الأستاذ عبدالسلام هارون في تحقيق ما حققه سواء أكان هذا المحقَّق من كتب الشعر والقصيد، أم من الكتب النثرية، ذلك أن الشعر المحقق إما أن يكون مستقلاً أو مفرداً أو يكون ضمن الكتب النثرية شائعاً فيها بشكل واضح، وإذا أحصينا كتب الشعر بالنسبة لغيرها وجدنا أن معظم المصادر من كتب الشعر.

ولهذا نجد مصادر التحقيق ممثلة في:

أ ــ ديوان الشعر:

وهو في ذلك يرجع ـ دون مبالغة ـ إلى معظم دواوين الشعر العربي القديم، ونسوق لذلك مثالاً مما نجده في مصادر تحقيق البيان والتبينّ للجاحظ، حيث نلتقي

بالدواوين التالية لكل من :

الأخطل، أبي الأسود الدؤلي، الأعشى، امرىء القيس، أوس بن حجر، بشر بن أبي حازم، أبي تمام، جران العود، جرير، حاتم الطائي، الحارث الذبياني، حسان بن ثابت، الحطيئة، الحماسة للبحتري، ولأبي تمام، ولابن الشجري، وديوان حميد بن ثور، وهكذا حتى يصل عدد الدواوين إلى ٥٣ ديواناً من بينها ديوان الهزليين، ومثل ذلك ما تراه في سائر ما حقق من كتب النثر.

ب ــ الشروح

وهناك لون آخر من ألوان مصادر النص الشعري وبخاصة شرحه وتفسيره، ومعرفة مضمونه، وهي الشروح مثل:

شرح أبيات الكتاب للشنتمري (بهامش كتاب سيبويه)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، وشرح ديوان المتنبي للعكبري، وشرح القصائد العشر للتبريزي، وغيرها من الشروح.

جـ ــ أمهات المصادر الأدبية

هذا إلى جانب أمهات المصادر مثل: الأغاني، والأمالي، والعمدة، والكامل .. الخ، وقد أشاد بجهد ابن قتيبة (٢١٣ هـ ـ ٢٨٦ هـ) في هذا المجال بما وثّق من نصوص الحيوان، إذ كان الجاحظ قد أجازه برواية بعض كتبه كما يذكر ابن قتيبة(٣١).

د ــ المعاجم، والكتب المتنوعة في اللغة والتاريخ.

شرح ديوان الحماسة لأبي تمام
لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١ هـ)

في مجال تحقيق النص الشعري هناك جانب تعاون فيه الأستاذ عبدالسلام هارون مع غيره، مثلما رأينا في (كتب القصيد)(٣٢) التي تعاون فيها مع الأستاذ أحمد

(٣١) عيون الأخبار ١٩٩/٣، ٢١٦، ٢٤٩.

(٣٢) المفضليات، والأصمعيات، والجمهرة، ومختارات ابن الشجري.

محمد شاكر، ومثل تعاونه في كتب أخرى مع كل من: السقا، والإبياري، وأحمد عبدالغفور عطّار، وعبدالعال سالم.

وهناك جانب يلتبس على البعض فيظن تحقيقه مشتركاً بين الأستاذ هارون وأحمد أمين، ذلكم هو (شرح ديوان الحماسة) الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥١ عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد سمى صانع الشرح هذا الكتاب (شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي المعروف بكتاب الحماسة).

والذي يوقع في اللبس أمور منها وجود اسم أحمد أمين ـ بل سبقه اسم الأستاذ هارون ـ على صفحة الغلاف بعد كلمة (نشره)، ومنها ذلك التصدير الذي استغرق صفحتين وسبعة أسطر بقلم أحمد أمين وفي نهاية قوله:

«وقد اشتركت في إخراجه مع الأستاذ المحقق عبدالسلام هارون والحق يقال أن كان له حظ في نشره أكثر من حظي، فله الشكر على ما بذل من جهد في إخراج الكتاب، وفي نسبة ما ورد في الشرح إلى قائله، والتعريف بأعلام الشعراء وغيرهم، وتصحيح ما حصل فيه من خطأ الناسخ، ووضع فهارسه. . .»[٣٣].

وفي تفصيل ما ذكره أحمد أمين ما يعني أن جهد التحقيق كاملا وقع على عاتق الأستاذ هارون، فما التحقيق إلا هذه الخطوات المذكورة في هذه السطور.

وإذا انتقلنا إلى مقدمة الأستاذ هارون[٣٤] وجدناه يحدثنا بعد الكتاب وصاحبه عن خطوات التحقيق: مصادره، ونسخه المخطوطة وعددها سبع عشرة نسخة، والنسخ المعتمدة في التحقيق وهي أربع، ومنهجه في التحقيق، وما صنعه من فهارس واستدراكات.

وأهم من ذلك كله خاتمة هذا التقديم، ونذكرها كما ذكرنا خاتمة تقديم أحمد أمين لأهمية الخاتمتين علمياً؛ وقد كتبتا في ٣٠ من المحرم ١٣٧١هـ/ ٢١ من أكتوبر ١٩٥١:

---

(٣٣) ٥ ـ المقدمة.

(٣٤) ص ٦ ـ ٢٤.

«وبعد، فإن صاحب الفضل الأكبر في إخراج هذه النشرة الأولى من هذا الكتاب الجليل، هو أستاذنا الكبير «الدكتور أحمد أمين بك»، فهو الذي اقترح أن ينشر هذا الكتاب، لما له ولمؤلفه من خطر، كما أقرّ إخراجه في لجنة التأليف والترجمة والنشر، التي كانت لمصر والعالم العربي بمثابة جامعة علمية عاملة، بما أظهرت للمثقفين من آثار التأليف في الشرق والغرب، وقد اشترك حفظه الله في وضع منهج الإخراج ليبدو الكتاب في هذا الوضع العلمي الحديث، كما تفضل بمراجعة ما صنعت لتحقيق هذا الكتاب مراجعة دقيقة فله من الله ومن العلم خير الجزاء».

وهذه السطور تجيب عن أي تساؤل، وتضع الأمور في نصابها.

وبالرغم من ذلك فإنه بعد مرور ثلاثين عاما على هذا الواقع أدرتُ حواراً علميا صحفيا مع الأستاذ هارون[٣٥] انتهز الرجل فرصة سؤال لي فقال:

«وأُحبُّ - بهذه المناسبة - أن أنبّه على خطأ تاريخي في نسبة تحقيق شرح الحماسة للمرزوقي، والناس يخطئون فيجعلون هذا التحقيق مشتركاً بيني وبين الأستاذ أحمد أمين، وإنما المشترك بيني وبين الأستاذ أحمد أمين هو عملية النشر والأعداد فقط، كما هو ظاهر وبارز ومكتوب على وجه الكتاب، وأما التحقيق فهو خاص بي باعتراف الأستاذ أحمد أمين فيما كتبه بقلمه في الصفحة الخامسة من المقدمة، وقد كان في ذلك أميناً حقاً».

وإذا عدنا لمقدمة الأستاذ هارون وجدناه يذكر رجوعه إلى جهده في تراجم شعراء الحيوان للجاحظ والبيان والتبين له كما أفاد من جهد العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

كما قام الأستاذ هارون بمعارضة الشيخ واقفاً على ما فيها من خلاف، كما قارن هذا الشرح مقارنة تامة بشرح التبريزي (المرزوقي متقدم على التبريزي، وبين وفاتيهما نحو إحدى وثمانين سنة، توفي التبريزي سنة ٥٠٢ هـ، والمرزوقي سنة ٤٢١هـ، وتوفي أبو تمام سنة ٢٣١هـ)، ومن المقارنة لم يترك فائدة الا أثبتها في الحواش وبخاصة ما يتصل برواية المتن، أو تحقيق الأخبار وتوضيحها، أو ما كان

---

(٣٥) انظر الهامش رقم ٣٠ هنا.

فيه تأييد للمرزوقيّ أو طعن عليه.

كما اصطحب شرح مشكل أبيات الحماسة لابن جني وأثبت منه ما كان ضروريا، كذلك كتاب المبهج لابن جني.

وقد حرص هنا على ما حرص عليه في تحقيق الشعر دائماً من:
الترجمة للشعراء، وذكر مراجع الترجمة.. الخ، كما عني عناية خاصة بتعيين أسماء المجهولين من شعراء الحماية الذين عبّر عنهم أبو تمام بقوله: «وقال آخر»، أو بعض شعراء قبيلة ما من قبائل العرب.

والناظر في تعليقات المحقق وهوامشه يرى كيف خدم النص الشعري وأخلص له لغوياً وأدبياً، حتى يمكن القول إن صلب عملية التحقيق لدى الأستاذ هارون كان شعرياً في أساسه، إذ يحتل الشعر المنزلة الأولى فيما بذله من جهد علمي في هذا الديوان وغيره من كتب الشعر. بل في كتب النثر أيضاً التي لم تخل من الشعر بطبيعتها، كما قدمنا.

نموذج من اختلاف التحقيق

من الطريف أن نشير إلى ما وقفنا عليه من اختلاف بين صورتين للتحقيق عند الأستاذ هارون حول بعض تراث الجاحظ، وذلك في عمل طبع مرتين في صورتين متغايرتين، حيث أخرج الأستاذ هارون رسائل الجاحظ، ومن بينها (رسالة الجد والهزل)[٣٦]، ثم أخرج نصوصاً مختارة من رسائل الجاحظ، ووردت هذه الرسالة مختلفة في الطبعتين.

ونجد الاختلاف في الصور التالية:

١ ــ زيادة كلمات في المختارات مثل:
نعم ـ عزائي ـ لك ـ كالانتهاز ـ كل.
وغيرها من الكلمات التي لا توجد في الرسائل الكاملة.

---

(٣٦) الرسائل: رسالة الجد والهزل جـ ١ ص ٢٢٧ وما بعدها، وفي المختارات جـ ٤ ص ٨٣ وما بعدها.

٢ ــ زيادة كلمات في الرسائل الكاملة مثل:
ولو كان لي ـ ومعه من الخرق بقدر الفطر.
وغيرها من الكلمات التي لا توجد في المختارات.

٣ ــ المغايرة بين النسختين مثل:
جملة أبقاك الله في المختارات نجدها في الكاملة: جعلت فداك ذلك في الكاملة ـ ذاك في المختارات.
بيان . . . . ثبات في . .
الجليس المداخل . . الجليس والمداخل في المختارات.
وهكذا ترد أمثال: إحراقها ـ إحراق أهلها، قوة وقوى، يبغى ـ يتقى ـ كأنك ـ فأنك ـ لقد ـ قد، مواساتك ـ مؤانستك ـ بقيت ـ أبقيت ، المنافق ـ للموافق.

وغيرها من الكلمات التي أحصيناها، ونكتفي بما ذكرناه هنا مطمئنين إلى أن الدقة في جانب الرسائل الكاملة لا المختارات.

الفهرسة:

لامراء في جدوى الفهرسة، وشدة فائدتها للمطلّعين، والقرّاء بعامة، والمتخصصين بوجه خاص، وتزاد هذه الفائدة، وتصبح ضرورة حتمية بالنسبة لأولئك المتخصصين، إذ ترشدهم إلى موضوعهم بيسر، وتمكّنهم من مادتهم من أيسر طريق، بل لعلي لا أبالغ إذا قلت إن هذه الفهارس المتنوعة كثيراً ما توحي للباحثين بفكرة أو خاطرة، أو قضية، أو موضوع مما يعدّ تطويراً لحقول البحث، وتنمية لمجالاتها فضلاً عن تحقيق السرعة والسهولة في بلوغ الهدف العلمي.

وقد شهدت الفهرسة جهوداً قديمة وحديثة في هذا الصدد وزادادت أهميتها في العصر الحديث مع تدفق النتاج الأدبي: التراثي والمعاصر تدفقاً كبيراً جعل مهمة الإحاطة به شاقة وعسيرة، ومن هنا باتت أهمية فهرسة النص الأدبي، ويهمنا الآن، النص الشعري، وقبل أن نقف على وجوه إسهام الأستاذ عبدالسلام هارون في هذا المجال نوّد أن نشير إلى أنه طوّر هذا المنهج ووسّع آفاقه بعد أن شهدت الساحة

الأدبية محاولات عامة لدى كل من: عبدالجواد الأصمعي، في كتابة (فهرس أبجدي لكتابي الأمالي، والتنبيه وحواشيهما)[٣٧]، وكرنيكو في (فهرس الشواهد الشعرية لكتاب الأمالي للقالي)[٣٨]، ومحمد سيد كيلاني في (فهارس كتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو)[٣٩]، وعبدالعزيز الميمني في (فهارس سمط اللآلىء والأمثال السائرة)[٤٠].

أي أن الأستاذ عبدالسلام هارون كان قد بدأ الاهتمام بفهرسة الشعر، إلى جانب اهتمامه الأصيل بعملية التحقيق المتكاملة، وهناك محاولات قديمة[٤١]، وأخرى حديثة، فإلى أي حد قامت محاولاته في هذا المجال بدورها المحدَّد لها؟ وإلى أي حدٍّ كانت منزلة محاولته بين محاولات الآخرين السابقة له والمعاصرة على حدٍ سواء؟ منذ بدأ التحقيق سنة ١٩٣٨ وواصل مسيرته محققاً ومؤلفاً مايربو على ١٢٠ عنوانا بين التحقيق والتأليف بلغ عدد صفحاتها ما يربو على ٤٤ ألف صفحة.

ويكفي أن نذكر مثلا في هذا الصدد كتابه (الميسر والأزلام)، وهو كتيب صغير الحجم، لم يتجاوز عدد صفحاته ٩٦ صفحة، وهو حين يخرجه لا يخرجه مجرداً من الفهارس، بل يحرص على أن يضع فيه خمسة فهارس في عدد من صفحات، إيماناً[٤٢] منه بأنه ليس من المستساغ أن نهمل الفهارس، وقد شهدنا المنجزات الفنية في عالم الطباعة، وما نجده من بونٍ شاسع بين حالة الكتاب الآن، وما كانت عليه من قبل، مما يوجب وجود الفهارس الفنية والتحليلية، لاسيما وبعض ما حققه من كتب وقع في مجلدات عديدة، فمنها ما كان عدد مجلداته ثمانية مجلدات، ومنها ما كان ستة، أو أربعة، وهو مما جعله يعني بالفهرسة، ويبذل فيها جهده في الكتاب الصغير والكتاب الكبير على حد سواء.

---

(٣٧) دار الكتب ١٩٢٦.

(٣٨) بدلا من ١٣٢١ هـ.

(٣٩) الحلبي ١٩٥٦.

(٤٠) لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧.

(٤١) الفهرست لابن النديم.

(٤٢) نلخص هنا، وفي جنبات من بحثنا بعض ما صرّح لنا به في حديثنا معه المشار إليه، والمكتوب بخطه، وكتابنا المذكور من قبل.

ونذكر مثلا آخر كتابه (خزانة الأدب للبغدادي) الذي بدأ إظهار ماحققه منه سنة ١٩٣٨ بصدور الجزء الأول، وتوالت أجزاؤه، ليظهر الجزء الأخير منها متضمناً فهارسه الشاملة الوافية المتنوعة.

أما فهارس مكتبة الجاحظ، فهي جديرة بالإشارة والاهتمام، ونأخذ مثلا لها فهارس كتاب (الحيوان)، ذلك الكتاب الذي أحدث ـ وقت ظهوره هو وكتاب مجالس ثعلب، الذي حققه أيضا ـ صدىً هائلاً، وحصل بهما على الجائزة الأولى للتحقيق العلمي سنة ١٩٥٠ من مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

لقد بلغ عدد مجلدات كتاب (الحيوان) ثمانية مجلدات ضمن مكتبة الجاحظ التي بلغت ١٨ مجلداً، يحتل الحيوان منها ثمانية، يليه الكتاب الثاني (البيان والتبيّن) في أربعة مجلدات، (فالرسائل) في أربعة أيضا، (فالعثمانية والبرصان) في مجلدين، وبذلك تكتمل المكتبة الجاحظية في ١٨ مجلداً.

من هنا بانت قضية الفهرسة أمراً مهماً، وها نحن نرى فهارس الحيوان، في صورتها العامة تتضمن:

فهرس أنواع الحيوان ـ فهرس أعلام الحيوان ـ فهرس سائر الأعلام، ومن بينها ما ورد في الشعر، فهرس القبائل والطوائف، فهرس البلدان والمواضع، فهرس الأمثال، ومن بينها ما ورد في الشعر.

وهذه الفهارس الستة مما يقع فيها الشعر، وبذلك يمكن تناولها ضمن الشعر المفهرس عند الأستاذ عبدالسلام هارون، غير أن الفهرس السابع وهو فهرس الأشعار، هو أكثر ما يهمنا ونعني به هنا، ونحن بصدد الحديث عن فهرسة الأشعار عند عالمنا المحقق، وهي قسمان:

الأشعار والأراجيز:

وفي الأشعار نجده يذكر القوافي، والبحور منبِّهاً إلى ما ورد عجزه فقط دالاً عليه بعلامة وعددها ٧٢ عجزاً، وما ورد صدره فقط دالاً عليه بعلامة أيضا، إذ أمكن معرفة قافية، ثم يضع القوافي المتشابهة متتالية، وفيما عدا ذلك فأرقام القوافي متسلسلة بترتيب الصفحات في مجموعاتها المتماثلة. ثم يذكر في نهاية فهرس

الأشعـار أجزاء الأبيـات، تلك التي لا يُدرى أهـي عجـز أم صدر ـ فيـما نتصـور ـ وتتمثل في الأمثلة الخمسة التالية[٤٣]:

- إن السعال هو القحاب
- فإن كانت الجنان جنت فبالحرى
- أوابد الوحش وأحناشها
- أعقبته الجنوب روقا من الأزيب
- أخوها أبوها والنوى لا يضيرها.

وفي متـابعة فهـرس القـوافي والأشعـار يمكن للدارس أن يقف عـلى إحصـاء بحروف الروى، وبالأوزان، وقد رأينا فيها أحصـاه هذا الفهـرس حتى نهاية حـرف الباء أن شيوع البحور جاء على النحو التالي:

الـطويـل ١٧٣، الـوافـر ٧٢، الكـامـل ٤٣، البسيط ٤١، الخفيف ٢٤، المنسرح ١٤، المتقارب ٩، السريع ٧، المـديد والـرمل ولـك منهما ٣، والهـزج ٢، والمجتث ١، ومخلع البسيط ١.

أما المجزوءات فيها أحصيناه حتى نهاية حرف الباء: فهي مجزوء الكامل ١١، ومجزوء الرمل ١.

ثم أتبـع هذا الفهـرس السـابـع بفهـرس ثـامن هـو فهـرس الأرجـاز وعـدد استشهادات الرجز في الحيوان ٤٣٥ استشهاداً.

ثم ينتقـل من فهرس الشـواهد الشعـرية إلى فهـرس اللغة، وبعضـه شعـر، بطبيعة الحال، وبخاصة، كان منها عربيـاً، ثم فهرس الكتب، كتب الجـاحظ وكتب غـيره، ثم فهـرس أيـام العـرب، وفهـرس المعـارف العـامـة، وفهـرس المبـاحث الكلامية.. الخ.

وواضح أن الفهارس المتنوعة، وإن لم تكن للأشعار، فـإنها تتضمن ـ في كثير من الأحيان ـ شواهد شعرية، وبذلك نجد أن هذا الجهد الخـاص بالفهـرسة يخـدم

---

(٤٣) أماكنها على التوالي ١ /٢٤٣، ٦/٤٠٦/ ٧، ٢٤٧/٧، ٢٥٧/٧.

الشعر من قريب أو من بعيد، بشكل مباشر أو غير مباشر.

وما قلناه في السطور الماضية ينطبق على فهارس البيان والتبين[٤٤] وتضمن الفهارس التالية:

فهرس البيان والبلاغة ـ فهرس: الخطب ـ الرسائل ـ الوصايا ـ الأشعار ـ وهو ما يهمنا بشكل مباشر وقريب، وكذلك الأرجاز، ثم فهرس: الأمثال ـ اللغة ـ الأعلام ـ القبائل والأمم والطوائف ـ والبلدان والمواضع ـ أيام العرب ـ الحضارة ـ الكتب ـ المراجع، ويلاحظ أن فهرس الأشعار والأرجاز (من ص ١٢٠ إلى ص ١٨٧) لا يضارعهما أو يفوقهما إلا فهرسا اللغة والأعلام.

وما قلناه بالنسبة لفهارس الحيوان ـ وواضح فارق ما بين الكتابين وفهارسهما نظراً لاختلاف طبيعة كل منهما ـ ما قلناه فيما يتصل بالشعر هو ما يمكن أن يتأمله الباحث هنا، وربما كان للشعر منزلة كبرى في (البيان والتبيُّين) نظراً لاختلاف طبيعة الكتابين، إذ يكون الكتاب الأخير ممثلاً لجانبين هما سرّ تأليفه:

أولهما: أي ما قالته العرب من أدب مبين معظمه وأشهره بلا جدال هو الشعر.

أما الجانب الثاني: فهو تبينّ هذا البيان أي نقده، وحين سألنا الأستاذ عبدالسلام هارون عن هذه التسمية للكتاب أجابنا بما أوجزناه الآن، وسبقت الإشارة إليه.

وظل الأستاذ عبدالسلام هارون يحرص على أن يضيف للفهارس كل جديد، منها ـ على سبيل المثال ـ ما نراه في كل من: المفضليات والأصمعيات، وما نراه في الحيوان.

ففي المفضليات والأصمعيات يورد جملة من الفهارس التي تخدم النص الشعري، أولها فهرس الشعراء، ثم فهرس القوافي والبحور، وهي على النحو التالي:

---

(٤٤) رجعنا للطبعة الثالثة، الخانجي والفهارس جـ٣ ص ١٠٣ وما بعدها.

	البحر									مجزوء
	الطويل	الكامل	البسيط	المتقارب	السريع	الخفيف	الرمل	المنشرح	الوافر	البسيط
المفضليات	٤٥	٢٧	١٨	٩	٤	٣	٣	٣	١٨	١
الأصمعيات	٣٢	٢٣	٦	٤	٢	٤	-	١	١٢	١

كما تضم الأصمعيات من الرجز ١، ومن الهزج ٢، ومن الرجز ٢، ومن مجزوير الكامل ١ وواضح أن الغلبة في المجموعتين البحر الطويل فالكامل فالوافر فالبسيط والمتقارب على تفاوت بنيهما.

ثم يذكر فهرس اللغة بحصر معجم هذه المختارات، وإن لم يذكر فهرس الأصمعيات كلمة «بردان» بضم الباء وهما غديران بنجد، ويوم البردين من أيامهم وهي ص ١٩٤، ثم فهرس الحروف التي لم تذكر بالمعاجم على نحو ما أشار في المقدمة، ثم فهرساً فنيا يضم: الأوصاف، والتشبيهات، والفخر، والمعاني العامة، ثم الأعلام، والقبائل والطوائف، والبلدان والمواضع.

ونتفق مع الأستاذ عبدالسلام هارون في تعليقه على الفهارس الفنية بقوله: (٤٥)

«هذه الفهارس التحليلة المبتكرة، هي في صميم فنون الشعر، إذ ترشد القاريء إلى مواضع المعاني التي بها يتفاضل الشعراء في البلاغة والإبانة، وهي المعاني التي بها يكون الشعر شعرا..» ثم يقول بحق: «ولن تجد لهذه الفهارس مثيلاً في كتاب من قبل».

وهكذا لم يغب عن الأستاذ عبدالسلام هارون، وهو اللغوي البصير، أن يهتم بالفهرسة التي تخدم النص الشعري، وهذا ما كشفت عنه مقدمة الخطوة الأولى من سلسلة (كتب القصيد)، إذ تضمنت مقدمة المفضليات هذا المبدأ الفني:

«ووجدنا فيها نقل أبو محمد[يقصد الأنباري] من التفسير حروفاً فسّرها بمعان لم تذكر في المعاجم، أو حروفاً فاتت المعاجم بتة، فعنينا بالنص على ذلك

(٤٥) انظر تنويهه في مقدمات كتبه.

وأثبتناها في فهرس خاص بها، لأنها فوائد جديدة، تزيد الأدباء ثروة في اللغة، يجب الإشادة بذكرها والتنبيه عليها».

تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب:

حرص الأستاذ عبدالسلام هارون على الكتابة بما يعنّ له من ملاحظات حول هذا المعجم، وظل ينشره تباعا في المجلات الأدبية واللغوية فيما بين سنة ١٩٦٤ و سنة ١٩٧٠[٤٦].

وبحكم ممارسة التحقيق تردّد نظره بين صفحات هذا المعجم فوقف على بعض «الأخطاء والتصحيفات، والتحريفات، والأسقاط الواقعة فيه» وأخذ يقيد تصحيحاته على هوامش نسخته من طبعة بولاق التي نشرت ما بين سنتي ١٣٠٠هـ و ١٣٠٧هـ وهي الطبعة الأولى.

وقد قام بمراجعة ما صنع على النسخة المخطوطة من اللسان المحفوظة بدار الكتب المصرية (٤٦ لغة) تلك التي بقي منها ٢٥ مجلدا من ٢٧ مجلدا، إذ ينقصها الأول والثاني وبدأ الثالث وهو أول الموجود منها جملة (قشب) مع نسخة أخرى برقم (١٥م) هي المجلد الثالث من تجزئة أربعة أجزاء وفي آخرها: ثم الجزء الحادي والعشرون من كتاب لسان العرب بخط مؤلفه».

والحق أن العلامة أحمد تيمور كان قد نشر جزأين صغيرين في تصحيح لسان العرب في مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٤هـ ويقع في ٥٩ صفحة، والآخر في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ ويقع في ٤٨ صفحة، وقد أشار الأستاذ هارون إلى ذلك وإلى اطلاعه على الجزأين، وإسقاطه ما ورد فيهما من تصحيحاته لتبقى له خالصة (المقدمة ٤).

---

(٤٦) هي مجلة المجلة في الأعداد: ديسمبر ١٩٦٤، ويناير، ومارس، ويونيو، واغسطس، ونوفمبر ١٩٦٥، ثم من التحقيق ١٤٣ حتى التحقيق ٥١٣ من سنة ١٩٦٧ إلى مارس ١٩٦٩، بمجلة البيان الكويتية، ثم من التحقيق ٥١٤ بمجلة مجمع اللغة العربية منذ مايو ١٩٧٠. ثم قام بمراجعة ذلك كله ونشره كاملا ضمن مطبوعات جامعة الملك عبدالعزيز ط ١ ١٩٧٩، طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر في ٥٣٩ ص.

ولما صدرت طبعة دار صادر ببيروت من لسان العـرب من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦ في ٦٥ جزءاً لاحظ عليها أخطاء وتحريفات فاقت نسخة بولاق، لذا نراه يـوازن بين هاتين النشرتين.

وقد وضع في هذه التصحيحات «أسسا» ينبغي أن تُسنّ في كل تحقيق، قال: «وكان من دأبي أن أشير إلى علل التحريفات والتصحيفات لأضيف بذلك ضوءاً إلى أضواء أسرة التحقيق فيما هي بسبيله من جهاد لتقويم النصـوص في مختلف ضروبها معتمداً في ذلك على خبرتي الشخصية التي أفدتها من قديم».

وقد مضت التحقيقات والتنبهات مرتبة على أجزاء طبعة بولاق.

ثم ألحق ذلك بمجموعـة من الفهارس التحليليـة هي عن: القرآن الكـريم - الحديث والأثر - الأمثال - الأشعار - الأرجـاز - اللغة - مسـائل العـربية - الأعـلام - القبائل والطوائف ونحوها - البلدان والمواضع.

وهكذا يمكن القول إن الجهد الأكبر من الجهـاد العلمي الذي بـذله العـلامة الأستاذ عبدالسلام هارون كان للشعر وفي الشعر سواء أكـان ذلك بشكـل مباشر أو غير مباشر. . جزاه الله خير الجزاء.

منهج عبدالسلام هارون
في تحقيق النصوص

أ. د سامي مكي العاني
رئيس قسم اللغة العربية ـ الجامعة المستنصرية

كان المرحوم الأستاذ الجليل عبدالسلام هارون، الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي وافته المنية في شهر نيسان عام ١٩٨٨ علَماً سامقاً في الأدب واللغة والبحث والتراث وتحقيق النصوص.

قضى أكثر من ستين عاما يبحث ويكتب ويحقق ويبعث الحياة في كتب التراث العربي الإسلامي.

وكان مبرّزاً في هذه الجوانب كافة، وسأقصر حديثي بهذه المناسبة على جانب واحد من هذه الجوانب المتعددة، وهو جانب تحقيق النصوص ونشرها. لأن الفقيد كان من روّاد هذا الميدان، وأعلامه المعروفين، حيث عرف بالتحقيق وهو في سن مبكرة، إذ ظهر له تحقيق كتاب «سُنن أبي شجاع» بضبطه وتصحيحه ومراجعته في سنة ١٩٢٥ وهو في السادسة عشرة من عمره. ثم ظهر له تحقيق الجزء الأول من «خزانة الأدب» للبغدادي في سنة ١٩٢٨ أي في التاسعة عشرة من عمره، ثم أكمل أربعة أجزاء من الخزانة وهو طالب بدار العلوم.

واختاره الدكتور طه حسين ليكون عضوا بلجنة إحياء تراث أبي العلاء المعري مع نخبة من الأساتذة الأفاضل في سنة ١٩٤٣[١].

ونال الجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمي في المسابقة الأدبية التي نظمها مجمع اللغة العربية المصري سنة ١٩٤٩. كما ظفر بجائزة الملك فيصل العالمية في ١٩٨١.

ومن المعروف أن تحقيق النصوص بعث لتراث الأمة، ونفض لغبار السنين عن وجه تاريخها الناصع، وإحياء لأمجادها، ووصل لحاضرها المشرق بماضيها التليد.

وهو مهمة صعبة كبيرة، وعمل شاق، لا ينهد به إلا من وهبه الله فكرا ثاقبا، وحسًّا مرهفا، وقلبا ذكيا، واطلاعا واسعا، ودأبا مستمرا، وإرادة نافذة وعزيمة ماضية، وصبرا على العمل، وأناة في الحكم.

وقد أدرك ذلك أعلام تراثنا قديما فقال الجاحظ: «ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة، فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من اتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام، فكيف يطيق المعارض[٢].

وقد تأتّى للأستاذ هارون أن يجمع صفات المحقق الثبت بكثرة مراجعاته اللغوية، وضبطه للأعلام، ومعرفته بالمواضع، وألفته الطويلة لأمهات الكتب والمراجع، وحفظه للنصوص، حيث أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة.

وغاية التحقيق عنده هي اخراج الكتاب المخطوط من ظلام الماضي إلى نور هذا الزمن، يستقصي جهده في أن يرتب الكتاب ترتيبا لا يخلّ بوضعه الأول، ولا يعتدي على حق مؤلفه، فلم يبتدع فيه إلا الضبط والترقيم، بعد عرض كلماته على المعجمات[٣].

---

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد (٣٤) ص ٣٢٥.

(٢) الحيوان ١/٧٩.

(٢) انظر مقدمة الحيوان ١/٣٣.

أما خطوات التحقيق التي يجب أن يستوفيها المحقق في رأيه فهي:

١ ـ تحقيق عنوان الكتاب.
٢ ـ تحقيق اسم المؤلف.
٣ ـ تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه.
٤ ـ تحقيق متن الكتاب حتى يظهر ـ بقدر الإمكان ـ مطابقا لنص مؤلفه.

ولم يقتصر تحقيقه على بعث الحياة في لون معين من مخطوطات التراث أو ميدان واحد من الميادين المعرفة. بل جال في أكثر ميادين العلم والمعرفة، حتى أربت كتبه المحققة على (١١٥) كتابا.

وليس من السهل حصرها في هذا المقام، وسأكتفي بذكر أهمها في كل ميدان..

*المعجمات اللغوية:

١ ـ تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب.
٢ ـ تهذيب اللغة للأزهري (مجلدان).
٣ ـ تهذيب الصحاح للزنجاني (٣ مجلدات) بالاشتراك مع أحمد عطار.
٤ ـ الصحاح للجوهري (٦ مجلدات) بالاشتراك مع أحمد عطار.
٥ ـ مقاييس اللغة لابن فارس (٦ مجلدات).

* كتب اللغة:

١ ـ الاشتقاق لابن دريد (مجلدان).
٢ ـ إصلاح المنطق لابن السكيت بالاشتراك مع أحمد محمد شاكر.
٣ ـ أمالي الزجاجي. للزجاجي.

* كتب النحو:

١ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شرح الكافية. للبغدادي (١٢ مجلدا).

٢ ــ الكتاب. لسيبويه (٥ مجلدات).

* كتب الأدب:

١ ــ الأصمعيات للأصمعي بالاشتراك مع أحمد شاكر.
٢ ــ البيان والتبين للجاحظ (٤ مجلدات).
٣ ــ تعريف القدماء بأبي العلاء. بالاشتراك مع لجنة أبي العلاء.
٤ ــ الحيوان. للجاحظ. (٧ مجلدات).
٥ ــ شرح الحماسة. للمرزوقي (٤ مجلدات) بالاشتراك مع أحمد شاكر.
٦ ــ شروح سقط الزند. للمعري (٥ مجلدات) بالاشتراك مع لجنة أبي العلاء.
٧ ــ شرح القصائد السبع الطوال. لابن الأنباري.
٨ ــ مجالس ثعلب. لأحمد بن يحيى ثعلب (مجلدان).
٩ ــ المصون في الأدب. للعسكري.
١٠ ــ المفضليات. للضبي. بالاشتراك مع أحمد شاكر.
١١ ــ المفضليات الخمس. للضبي.
١٢ ــ همزيات أبي تمام.

* كتب التاريخ والأنساب وغيرها:

١ ــ أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها. لابن الأصبغ السلمي.
٢ ــ الأغاني. لأبي الفرج جـ ١٥.
٣ ــ البرصان والعرجان والعميان للجاحظ.
٤ ــ جمهرة أنساب العرب. لابن حزم الأندلسي.
٥ ــ رسائل الجاحظ (٤ مجلدات).
٦ ــ العثمانية للجاحظ.
٧ ــ مجالس العلماء للزجاجي.
٨ ــ نوادر المخطوطات (٨ مجلدات).

٩ ــ وقعة صفين. لنصر بن مزاحم.
١٠ ــ معجم الشواهد العربية (مجلدان) من صنعته.
١١ ــ الألف المختارة من صحيح البخاري. اختارها وشرحها وخرّجها.

إن إحياء هذه الآثار الضخمة عمل كبير أسدى فيه الأستاذ هارون إلى التراث العربي الإسلامي خدمة جليلة لا يعدلها إلا حبّه للتراث ولغة القرآن، وإيمانه الكبير بعمل التحقيق، الذي يعد نبراسا يهتدي به السائرون في طريق بعث التراث، والساهرون على إحيائه.

ويعد الأستاذ هارون أول من وضع كتابا خاصا بمنهج تحقيق النصوص وإن جرت قبله محاولات، إلا أنها لم تتوّج بكتاب، بل كانت مقالات أو فصولا ضمن كتب، مثل مقدمة تحقيق كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، التي وضعتها لجنة من العلماء سنة ١٩٥١، ومقدمة تحقيق كتاب الشفا لابن سينا التي وضعتها لجنة تحقيق الكتاب سنة ١٩٥٣، ومحاضرات المستشرق الألماني الدكتور برجستراسر في (أصول نقد النصوص ونشر الكتب) التي ألقاها على طلبة الماجستير بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٢. ولم تنشر إلّا في سنة ١٩٦٩ بإعداد وتقديم الدكتور البكري. ومقالتي الدكتور محمد مندور عن قواعد نشر النصوص، في مجلة الثقافة المصرية سنة ١٩٤٤.

أما كتاب الأستاذ هارون فهو (تحقيق النصوص ونشرها) الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٤ ضمنّه المحاضرات التي ألقاها على طلبة الماجستير بكلية دار العلوم. وصفه بأنه ثمرة كفاح طويل وجهاد صادق، وتجارب طال عليها المدى، ساعفتها عين طلعة ناظرة إلى ما يصنع صاحبها وما يصنع الناس، فكان له من ذلك ذخراً أمكنه أن يفتشه ويبحث في جنباته، ليرى وجه الحق فيما يرى، وأن يؤلف من ذلك كتابا يعتز به ويغتبط اغتباطا، إذ هو أول كتاب عربي يظهر في عالم الطباعة، معالجا هذا الفن العزيز: فن «تحقيق النصوص ونشرها»[٤].

(٤) مقدمة تحقيق النصوص ص ٧.

وقـد أعاد طبعـه في سنة ١٩٦٥ و كتب عـلى غلافـه (الطبعـة الثانيـة، تمتـاز بإضافات هامة).

وقد أحب الأستاذ هارون أديبنا الجاحظ، وجعل نشر تراثه من همه ووكده.

يقول: إني لم أفارق آثار أبي عثمان الجـاحظ، مذ شـدوت، ولا تزال تلك من همي ووكدي ما بين قراءة فيها تنقيح، وتجلية وتصحيح، حتى أذيع منها بين الناس ما يستطيعه الجهد، ويسمح به الزمان(٥).

وفعـلا انصرف إلى نشر تراث الجـاحظ، وجعله تحت باب مكتبـة الجـاحظ، فحقق ونشر آثاره في سلسلة متتالية، مبتدئا بالحيـوان فالبيـان والتبيين فـالعثمانيـة ثم رسـائل الجـاحظ، وأردف هذه الأربعـة بكتـاب (الـبرصـان والعـرجـان والعميـان والحـولان) الذي نشرتـه وزارة الثقافـة والاعلام في بغـداد عام ١٩٨٢، وهـو آخـر أعماله في تحقيق آثار الجاحظ.

وقد وقع اختياره على تـراث هذا الأديب الكبـير لأنه كـان بحق زعيما للبيـان العـربي، وهو كـذلك من زعـماء المكتبة العـربية، التي كـانت في الصدر المقـدم من مكتبات الدنيا، فيما أسدت للأنسانية والفكر العربي واللسـان العربي من خـير، وما بسطته على ظلام المدنيات المتهافتة من نور(٦).

وحين نستقري نهجه في تحقيق النصوص نجده يتميّز بميزات قد نفتقدها لدى كثير ممن يتصدى للتحقيق في هذه الأيام، ولعل أبرزها:

١ ــ أنه لم يكن يكتفي بنسخة واحدة من المخطوطات التي يحققها، بـل يصرف همه للحصول على أكبر عدد من النسخ، ويرمـز لكل نسخـة بحرف خـاص. ففي الحيوان مثلا اعتمد سبع نسخ من مكتبات متباعدة، وفي البيان والتبيين اعتمد أربع نسخ.

٢ ــ أنه كان يبذل مجهوداً كبيـراً ومضنيا للتـوثيق من عنوان الكتـاب الذي يحققـه، متتبعاً ومدققا وموازناً، ودارساً الكتـاب من الداخـل ومرجحـا، إلى أن يتحقق

---

(٥) رسائل الجاحظ ١/٣.

(٦) من تقديم مكتبة الجاحظ في صدر كتاب الحيوان ١/٣.

ويستيقن مما يثبته على الغلاف، ففي كتاب البرصان والعرجان الذي لم تصل إلينا منه إلا نسخة واحدة، بذل جهدا كبيرا ليصل إلى العنوان الذي يطمئن إليه قلبه، بعد أن جمع كل ما استند إليه من القرائن والدلائل، مستعينا بالمخطوطة الوحيدة (من الخارج والداخل) والعديد من المصادر التي أوردت اسم الكتاب.

وهو يبذل الجهد نفسه لتأكيد نسبة الكتاب الذي يحققه إلى مؤلفه، أو نفي ذلك، كما فعل في نفي نسبة كتاب «تنبيه الملوك والمكايد» إلى الجاحظ من خلال فحصه من الداخل، من حيث الأحداث التاريخية والأسلوب[٧].

٣ ـ ضبط النصوص التي يحققها ضبطا دقيقا يكاد يصل أحيانا إلى كل حرف من حروف الكلمات، وهو جهد لا يتحمله كثير من المحققين.

٤ ـ التوسع في ترجمة الأعلام حيث يجب التوسع لترجيح صيغة اسم أو تاريخ وفاة وما إلى ذلك، فحين ورد اسم عبدالله بن قيس الرقيات مثلا لم يتركه لأنه شاعر معروف، بل دقق في صيغة اسمه، أهو عبدالله أم عبيدالله فكتب في الهامش تحقيقا مسهبا توصل من خلاله إلى صواب عبيدالله وخطأ عبدالله[٨].

٥ ـ الأمانة العلمية، فهو أمين في عمله، صادق في جهده، ملتزم جانب الحق في تحقيقه، يقول: إني التزمت جانب الأمانة، فلم أسقط حرفا، ولم أزد حرفا إلّا أستأذنت القارىء، ولا أبدلت حرفا بآخر إلّا نبّهت القارىء إلى ما صنعت[٩].

وقال في موضع آخر: إن التحقيق نتاج خلقي لا يقوى عليه إلا من وهب خلتين شديدتين، الأمانة والصبر، وهما ما هما[١٠].

---

(٧) انظر تحقيق النصوص/ ص ٣٩.
(٨) انظر الحيوان/ ٢/٦.
(٩) الحيوان: ١/٣٨.
(١٠) الحيوان: ١/٣٨.

٦ ـ كان حين يعيد طبع كتبه المحققة لا يقف عند جهده السابق، بل يضيف إليها الكثير من الفوائد، ففي طبعة الحيوان الثانية يقول: وقد دأبت عند ظهور الجزء الأول من الطبعة الأولى، وذلك من نحو سبعة وعشرين عاما، أن أراجع بين الفينة والأخرى نصوص الكتاب وما يظهر من أجزائه، وأعني بتنقيحه وإصلاح ما يبدو فيه من هنات. .

وأتاحت لي فرصة إخراجي وتحقيقي لكثير من كتب التراث العربي أن تظهر في أثناء ذلك تصحيحات وتعليقات كنت أدونها على جوانب نسختي، انتظارا لليوم الذي أتمكن فيه من إعادة طبع هذه المعلمة الضخمة.

٧ ـ ومن نهجه أنه يذكر طبعات الكتاب السابقة باستقصاء ودقة وتفصيل وإنصاف، لا كما يفعل كثير من المحققين حين يهملون الإشارة إلى جهود السابقين عمداً أو جهلاً. ويفيض في الحديث عن مبررات إعادة تحقيقه.

من ذلك قوله في مقدمة الأصمعيات: ولم تطبع الأصمعيات قبل طبعتنا هذه إلّا مرة واحدة ـ فيما نعلم ـ في مدينة ليبزج بألمانيا سنة ١٩٠٢، وعني بتصحيحها وليم بن ألورد، وليته لم يفعل، فإن الظاهر أنه طبعها عن نسخة سقيمة لا يوثق بها، وزادها تصرفه وقلة تمرسه بلغة العرب سوءا إلى سوء، بل أفسدها افسادا.

واستمر في سرد نقائض الطبعة الأولى لإقناع القارىء بسبب إقدامه على اعادة تحقيق الأصمعيات.

٨ ـ كان في تحقيقه كثير التواضع بعيدا عن التعالي، لا يدعي العصمة ولا يركبه الغرور، مع وفرة تحقيقاته وغزارة كتاباته، ودقة أعماله، وإخلاصه الواضح.

ومن أقواله في ذلك: وأما أنا فلست بمكان من يدعي العصمة، أو يخال السلامة، فليس يكون ذلك إلّا لمن ذهب عن نفسه، وتعلق بالباطل[1].

٩ ـ بذل جهداً كبيراً لتصويب ما كان يقع به الناسخون من أوهام وتصحيف وتحريف. ، وأشار إلى ذلك حيثما وقع في هوامش الصفحات.

---

(١١) الحيوان: ١/٣٨.

ومن المعروف أن الأقدمين فرقوا بين التصحيف والتحريف، فجعلوا التصحيف خاصا بالالتباس في نقط الحروف، والتحريف خاصا بتغيير الحروف ورسمها. وقد خص الأستاذ هارون هاتين الآفتين بحديث ممتع ونافع في كتابه، وفرّق بينهما بكل دقة. إلاّ أنه لم يفعل ذلك وهو يحقق النصوص، فقد يستعمل أحدهما مكان الآخر أحيانا، وهو يسمى أكثر التغيير في الكلمات تحريفا. فتصحيف (تجدك) إلى (نجدك) يسميه تحريفا. وتصحيف (سائغ) إلى (شائع) تحريف أيضاً، وهكذا[١٢].

١٠ ــ مع كثرة ما حقق من النصوص الشعرية، . وأخرجها مضبوطة ودقيقة، مثل الأصمعيات والمفضليات وشرح القصائد السبع الطوال، وشرح الحماسة، وشروح سقط الزند، وغيرها من الكتب الأدبية التي تفيض بالأشعار الاّ انه لم يتجه إلى تحقيق دواوين الشعراء، وترك تلك المهمة لغيره من المحققين، المعروفين.

١١ ــ إن الخطأ في تحقيق النصوص من الأمور المشتركة بين جميع المختصين والاعتراف بهذا الخطأ من شيم الفضلاء، وإن حاول البعض تنزيه أعمالهم من أي نقص أو عيب. وهو ما لايقره المنطق، ولا يتفق مع طبيعة معالجة النصوص القديمة. وقد أكد الأستاذ هارون هذه المسألة حين قال: لا يعدو الأمر، مهما أجهد المحقق نفسه وفكره في إخراج الكتاب، أن تفوته بعض التحقيقات أو التوضيحات، أو يزل فكره أو قلمه زلة تقتضي المعالجة ففي باب الاستدراك والتذييل الذي يلحق غالبا بنهاية الكتاب، مجال واسع لتدارك ما فات محقق الكتاب أو شارحه، أو ما زلّ فيه فكره أو قلمه[١٣].
وقد جسّد هذه الفضيلة في كتبه المحققة، فألحق بكل منها استدراكا وتذييلا من ذلك ما نجده في آخر كل جزء من كتاب الحيوان تحت عنوان (استدراك وتذييل) أو (تذييل واستدارك). فقد يتراءى للمحقق ما لم يره من قبل.

---

(١٢) م.ن: ١/١٧٧ و ٣٠٥.
(١٣) تحقيق النصوص: ٧٨.

١٢ ــ ومن نهجه في التحقيق إثبات النماذج المصورة من صفحات المخطوطة على أن تشمل الأول والأخير، ومن أثناء الكتاب، لاطلاع القارىء على عنوان الكتاب، وطريقة كتابته، وخاتمة الكتاب.

١٣ ــ ومن بهجة صنع الفهارس الكاشفة عن خبايا الكتب المحققة، وما بها من خير كثير، لتعم فائدتها، ويسهل الانتفاع بها. فمثلا في الحيوان صنع ستة عشر فهرسا، أفرد لها مجلدا كبيرا، وكان مبدعا فيها، ومبتكرا لكثير من أبوابها كالفهرس الأول الذي جعل عنوانه «فهرس الحيوان» وقد أشار إلى أن القصد من هذا الفهرس أن يتمكن القارىء من جمع معارف منظمة في كل نوع من أنواع الحيوان مرتبة ترتيبا علميا دقيقا على هذا الوضع:

١ ــ تسمية الحيوان وبيان جنسه وأنواعه وأشباهه.
٢ ــ الكلام في أعضائه وتطوراته وألوانه.
٣ ــ بيان طعامه وشرابه، وسلاحه، وصوته، وصنعته، ونفعه، وضرره.
٤ ــ الكلام في تناسله، وطباعه، وتعليمه، وأمراضه، وعمره.
٥ ــ بيان موطنه، وأثر الطبيعة فيه، وعلاقته بغيره من الحيوان.

وفي كتاب سيبويه صنع ستة عشر فهرسا أيضا.

لقد أدرك أن الفهارس الحديثة من مكملات عملية تحقيق النصوص ونشرها، وبدونها لا يمكن أن تتحقق الفائدة التي يرجوها الباحثون من نشر التراث. فبذل جهودا محمودة في صنع الفهارس الفنية التي زين بها كل كتبه المحققة.

رحم الله العالم الجليل، وأثابه عمّا قدمه من جهد عظيم في خدمة لغة القرآن وتراث الأمة العربية الإسلامية.

الأستاذ عبدالسلام محمد هارون
مع أبنائه من الدارسين

أ.د. حسين محمد شرف
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

شيخ وقور، وعالم جليل، ومجمعيّ أمين، وإمام في التحقيق، وأستاذ مثالي: بطلابه رحيم، وعنهم مدافع، وعلى مصالحهم غيور، تحمُّله الأذى بصدر رحب وقلب كبير من أجلهم لا يعرف حدا، ومواقفه في الدفاع عنهم لا تحصى عدا، ومتابعته الباحثين معه ومع غيره وحفزه إياهم، وتيسير الأمور لهم، وتصديه لكل المعوقات التي تعترض طريقهم لا يفتر ولا يضعف، وتزويده الكثير منهم بمؤلفاته وتحقيقاته معين لا ينضب، وعطاؤه العلمي في حل وترحال لم يتوقف حتى آخر لحظة له في دار الفناء، عطاء لم ولن ينقطع، وصدق رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ في حديث شريف معناه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» والعلم النافع لشيخنا لا تحده حدود. ولا تحول دون وصوله إلى مريدي الانتفاع سدود.

وهذه نماذج معدودة من فيض غير محدود لمواقف هذا العالم الجليل أقدمها، وسوف يعرف الكثير من العاملين في ميدان العمل الجامعي وفي مجمع اللغة العربية المصري ـ من المعيد والأستاذ ـ أنه صاحب هذا الموقف.

قلب كبير، وصدر رحب، ونفس تقية نقية:

يعبر عن ذلك موقف عالمنا الجليل مع طالب تقدم برسالته للحصول على

درجة الماجستير(*)، وكان أستاذنا عضو المناقشة من الكلية.

عقدت جلسة المناقشة في مدرج من مدرجات كلية دار العلوم بالمنيرة، وعَمُر المدرج بالحاضرين، وتوسط الأستاذ المشرف اللجنة، وجلس عن يمينه العضو الخارجي، وعن يساره أستاذنا، وبدأت المناقشة، وأنجز العضو الخارجي مناقشة الطالب في هدوء، وأتى دور أستاذنا وناقش الطالب في حنو أب ووقار عالم موجها ما يريد للطالب بأسلوب هادىء ولسان عف، وقبل أن يجيب الطالب يندفع أخ له يجلس بين الحاضرين بدافع الشفقة غير الواعية، فيثير الضجة في المدرج، ويوجه الكلام الجارح للشيخ الوقور الذي يحتفظ بهدوئه، ويستمر في توجيه ملاحظته، ويمر الموقف، ويتابع أستاذنا توجيه ملاحظاته، ويتابع الأخ الإثارة، ويضطر الأستاذ المشرف إلى المطالبة بضرورة الهدوء في الجلسة، ثم يجد نفسه مضطراً إلى التهديد بوقف المناقشة.

ولكن الأستاذ هارون بقلبه الكبير، وصدره الرحب، ونفسه التقية النَّقية لا يرى لذلك مبرِّراً، ويستمر في مناقشته حتى تصل إلى نهايتها، وتقترح اللجنة منح الطالب النابه درجة الماجستير. وتعود، لتعلن النتيجة، ويعانق الأستاذ هارون الطالب مهنئا ومباركا، ويواصل الطالب عمله في ميدان العمل الجامعي حتى يرقى إلى درجة الأستاذية وهو الآن بها سعيد، وعنها راض.

جزى الله أستاذنا عن موقفه هذا خير ما يجزى به عبدا من عباده الصالحين.

نُصح الأب، وحدب الأستاذ، ومتابعة الرائد الأمين:

ويتمثل ذلك في موقف أستاذي المرحوم عبدالسلام محمد هارون مع طالب من أبنائه يمهد لدراسة الماجستير في قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، ويستمر سنوات في دراسة التمهيد لعدم قناعة أستاذ الفلسفة ـ رحمه الله رحمة

(*) سوف أترك تحديد موضوعات الرسائل العلمية للحصول على الماجستير أو الدكتوراه؛ لأن في ذكرها تعريفا بأصحابها، وقد لا يرضى ذلك البعض، وقد اعتمدت في سرد هذه المواقف على سماع أكثرها من أفواه أصحابها.

واسعة ـ آنذاك ـ بدراسات عليا في الفلسفة الإسلامية دون تمكن في اللغة الفرنسية على الأقل.

وينصح الأستاذ هارون للطالب بالتحويل إلى قسم النحو والصرف، فيقبل النصح، ويقضي سنة الدراسة مع ثلاثة تقدموا لقسم النحو والصرف، ويؤدي الجميع الامتحان، ثم يعلم الطالب بعد ذلك أن إجابته حازت كل إعجاب الأستاذ، وأعطاها الدرجة النهائية، وطلب من لجنة الكنترول معرفة صاحب هذه الإجابة قبل إعلان النتيجة.

ويسجل الطالب معه موضوعه للحصول على درجة الماجستير، وبعد عام من التسجيل تضطر الطالب ظروف ـ خارجة عن إرادته ولمدة خمس سنوات ـ إلى عدم متابعة العمل في موضوعه كما يجب، وبما يرضي الأستاذ الذي يداوم الاتصال بالطالب، ويتابع حثه على إنجاز عمله، ويضع مكتبه في خدمته، وتنكشف الظروف، وينجز الطالب عمله في صورة يرضى عنها شيخه، فيأمره بطبع الرسالة، ويقترح تشكيل اللجنة، ويُناقش الطالب، ثم يسجل رسالته للحصول على الدكتوراه، ويتابع العمل في ميدان العمل العلمي حتى يرقى إلى درجة الأستاذية والفضل لله أولا، ولمتابعة، وحث صاحب القلب الكبير الأستاذ عبدالسلام محمد هارون بعد ذلك.

صلابة في الحق، وتمسك بالعدل، وشدة مع هدوء:

ويتمثل ذلك في موقف أستاذنا مع طالب من أبنائه مهد لدراسة الماجستير في قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، ثم راقه موضع في النحو، فتقدم به إلى شيخه الأستاذ عبدالسلام هارون فوافق على إشرافه عليه، وأخذ الموضوع موافقة قسم النحو والصرف، وموافقة مجلس الكلية ثم الجامعة، وبدأ الطالب العمل في بحثه، ولظروف غير موضوعية أثير موضوع الطالب من جديد، ورأت الكلية إلغاء تسجيل الموضوع بدعوى أنه في النحو والصرف، ودراسة الطالب في تمهيدي الماجستير بقسم الدراسات الأدبية تقتضي أن يسجل موضوعا في نوع هذه الدراسة، ووقف الأستاذ هارون إلى جانب الطالب مطالبا بالإبقاء على التسجيل مع وقوف

بقية أعضاء مجلس الكلية إلى جانب الإلغاء ، ويحتكم الطالب إلى القضاء مستندا إلى تأييد شيخه، ومؤازرته له وكون الحق إلى جانبه، ويبقى التسجيل، ويتابع الطالب عمله في إنجاز موضوعه تحت إشراف أستاذه حتى ينتهي منه، ويوافق الأستاذ المشرف على الطبع، ويقترح تشكيل لجنة المناقشة، وتتم المناقشة، ويحصل الباحث على درجة الماجستير، ثم الدكتوراة، ويتابع عمله في ميدان العمل الجامعي حتى يرقى إلى درجة الأستاذية، والفضل لله أولا وللأستاذ هارون بعد ذلك.

مقاومة الأعراف غير العادلة، والتصدي للتقاليد غير الصحيحة:

ويتمثل ذلك في موقف أستاذنا الكبير مع طالب سجل معه موضوعه للحصول على درجة الدكتوراه بعد زميل له في القسم سبقه إلى التسجيل بعدّة أشهر، وكان التقليد المعمول به في الكلية مراعاة الترتيب الزمني للتسجيل عند المناقشة وإن تأخر من تقدم بالتسجيل في إنجاز عمله عاما أو أكثر من عام عن زميله الذي سجل بعده.

وقد أضير بهذا التقليد غير الموضوعي بعض الدارسين الذين تأخرت مناقشتهم قرابة العام والرسالة منجزة ومطبوعة.

وفي هذا الموقف أنجز الطالب بحثه، وأخذ الموافقة على طبعه في الوقت الذي لم ينجز فيه زميله الذي سبق في التسجيل موضوعه، فرأى الأستاذ هارون أن في تأخير مناقشة الطالب الذي أنجز موضوعه إجحافا غير مقبول، وحدد مهلة مقبولة غير ضارة ينجز فيها الزميل عمله، ومع نهايتها ناقش طالبه، وتغلب الأستاذ الفاضل على تقليد ضار وعُرْف غير مقبول.

جوده العلمي، وعطاؤه الفكري:

ويتمثل ذلك في مواقف الأستاذ هارون من إنتاجه العلمي الذي لم يتوقف إلا مع توقف أنفاسه - رحمه الله رحمة واسعة - فقد كانت أدراج مكتبه في كلية دار العلوم، وأدراج مكتبه بعد ذلك في مجمع اللغة العربية المصري عامرة بكل جديد من إنتاجه العلمي الذي يقدمه إهداء في سماحة نفس ورضا قلب لكل زائر له من طلابه، وقادم عليه من مريديه، ولا يقف الإهداء عند حد الزائرين والقادمين،

وإنما قدم العدد الوفير من إنتاجه لمكتبات الكليات التي عمل بها، وقد حمّلني الكثير من كتبه من مثل: فهارسه على تهذيب اللغة، وتنبيهاته على اللسان، وتقييداته على ابن خلكان إهداء منه لمكتبة كلية دار العلوم، فإذا ما عدت إليه بخطاب الشكر من الكلية قبله بيده، ولسان حاله ينطق في وضوح: إنه ما كان ينتظر بإهدائه شكر إنسان، وإنما قدمه رجاء ثواب خالق الإنسان، ووفاء منه لأم تخرج فيها وعمل بها. طلابها أبناؤه، وأساتذتها هو لهم أخ، وهم له أبناء.

عطف الأبوة وحنو الريادة:

ويتمثل ذلك في مواقف الأستاذ «هارون» من تقديم كل خبرة اكتسبها في مجالات الحياة للعاملين معه والمتصلين به، فيحدثني محرر من محرري مجمع اللغة العربية المصري ونحن نتحدث عن شيخنا بعد انتقاله - رحمه الله - إلى جوار ربه بأنه كان يعرض عليه بعض أعمال المجمع، وتطرق الحديث إلى نشاط المحرر في عمله العلمي، وجلوس المحرر على مكتبه في بيته الساعات الطويلة رغبة منه في إنجاز عمله، وهنا ينصح له شيخه نصيحة الأب بأن عليه أن يقوم من جلسته بعد كل ساعتين أو بعد كل ساعة ونصف، ليتجول فترة من الزمن في غرفته أو داخل الشقة، لأن في هذه الحركة وقاية من علة الدوالي التي تصيب الساق من طول الجلوس.

ويتمثل ذلك - أيضا - في مواقفه من محرري المجمع الذين تحول لوائح الجامعة دون التحاقهم بتمهيدي الماجستير في أقسام يرغبون في الدراسة بها، ويتقدم أستاذنا - رحمه الله - بتزكية هؤلاء المحررين برسائل منه لرؤساء الأقسام مطالبا بتذليل الصعوبات التي تحول دون تحقيق رغباتهم ما أمكن ذلك.

هذه المواقف وغيرها تمثل قطرة بحر فياض في حياة الإنسان الكامل الأستاذ عبدالسلام محمد هارون الذي بدأ عطاءه العلمي بعد العاشرة من عمره بقليل، وتوقف مع آخر أنفاسه فقد عاد من رحلة علمية خارج مصر ليمكث ساعات محدودة يودع فيها أهله، ويودعه أهله، وترجع نفسه إلى ربه، راضية مرضية، فتدخل جنات النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين.

جهود عبدالسلام هارون
في نشر تراث الجاحظ

د. مصطفى حسين
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
جامعة الملك سعود

يمثل العالم الراحل عبدالسلام هارون (١٩٠٩ - ١٩٨٨م) - رحمه الله - الجيل الثاني من المدرسة العربية الحديثة في تحقيق التراث ونشره . فأما الجيل الأول من هذه المدرسة ، فمن رجاله : العلامة أحمد تيمور[١]، وأحمد زكي باشا الملقَّب بشيخ العروبة[٢]، وابن التلاميد التركزي الشنقيطي[٣]، والعالم السَّلفي محب الدين الخطيب[٤]. ويعد أحمد زكي باشا أكثر أعضاء هذه المدرسة الرائدة اتصالاً بالثقافة الأوروبية وبأساليب الأوروبيين في تحقيق التراث ونشره . ومن هنا عدّه عبدالسلام هارون نفسه حلقة الاتصال بين المحققين الأوروبيين والمحققين العرب[٥].

---

(١) هو (أحمد توفيق) بن إسماعيل بن تيمور . ولد بالقاهرة عام ١٨٧١م . وبها توفي عام ١٩٣٠م . له تصحيح لسان العرب ، والقاموس ، وأعلام القرن الرابع عشر .

(٢) ولد أحمد زكي عام ١٨٦٧م ، وتوفي بالقاهرة عام ١٩٣٤م . حقق كتابي الأنساب ، والأصنام للكلبي (ت ٢١٢هـ) ، وقطعة من مسالك الأبصار .

(٣) ابن التلاميد ، هو محمد محمود بن أحمد التركزي الشنقيطي . باحث محقق شاعر . توفي بالقاهرة عام ١٩٠٤م .

(٤) محب الدين الخطيب السورى الأصل . العالم المحقق ، والداعية الإسلامي ، رأس تحرير (أم القرى) بالحجاز ، و (الأزهر) بمصر ، وتوفي بالقاهرة عام ١٩٦٩م .

(٥) هو محمد أمين الخانجي ، عالم بالتراث . دأب على جمع ذخائره مهما كلفه ذلك . ولد بالقاهرة عام ١٨٦٥م ، وبها توفي عام ١٩٠٤م .

أما الجيل الثاني من المحققين العرب ، فإن منهم ـ إلى جانب عبدالسلام هارون ـ أحمد شاكر ، وشقيقه محمود شاكر ، ثم محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي ، وصلاح الدين المنجِّد ، وبهجت الأثري ، وعائشة عبدالرحمن ، وسواهم .

وقد نشأ هارون ـ رحمه الله ـ في بيت علم ، وعناية خاصة بالتراث ، فوالده هو الشيخ محمد هارون[6] ، محقق كتاب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) ، لابن الدَّيتبع الشيباني ، كما توثقت علاقته ببيت (آل شاكر) أقاربه ، وبخاصة العالمان الجليلان : أحمد شاكر ، ومحمود شاكر .

واتصلت الأسباب بين عبدالسلام هارون ، وبين العلامة محب الدين الخطيب منذ كان هارون تلميذاً في القسم التجهيزي بمدرسة دار العلوم ، وشارك الخطيب في تحقيق كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (ت ٢٧٣هـ) ، وكان ذلك في عام ١٩٢٧م[7] .

وفي سنٍ باكرةٍ ـ أيضاً ـ توثقت علاقته بالمؤسسات المعنية بنشر التراث ، وجمع ذخائره من مظانّه المختلفة ، ومن هذه المؤسسات : المكتبة السلفية ، التي أسّسها محب الدين الخطيب ، وفيها نشر هارون الثلث الأول من كتاب (خزانة الأدب) للبغدادي (ت ١٠٩٣هـ) ، وظهر هذا الثلث في أربعة أجزاء ، مع تعليقات للعلاّمة أحمد تيمور ، والعلامة الهندي الكبير عبدالعزيز الميمني الرّاجكوتي[8] ، وكانت للراجكوتي رحلة ـ في كل عام ـ إلى القاهرة ، يلتقي فيها بعلماء التراث ، وينظر في المخطوطات ، ويشارك في نشر بعضها .

ومن المؤسسات التي اتصل بها هارون مطبعة بولاق (المطبعة الأميرية فيما بعد) ، وكان على صلة برئيس المصححين بها : الشيخ محمد عبدالرسول ، يقول هارون عنه : « كان ـ رحمه الله ـ آية في العلم والفضل . . وقد رأيته ، فرأيت فيه رجلاً

---

(٦) أنظر : عبدالسلام هارون ، تحقيق النصوص ونشرها ص ٨٤ .

(٧) أنظر : عبدالسلام هارون في مقالٍ له بعنوان (إحياء التراث وما تم فيه) ، مجلة (المجلة) المصرية ص ٢٣ وما بعدها . عدد رقم ١١٤ يوليو ١٩٦٦م .

(٨) علاّمة الهند الكبير ، ألف (سمط اللآلي) في شرح أمالي القالي ، والاستدراك عليه ، وحقق ـ مع العلاّمة محمود شاكر وغيره ، بعض كتب التراث . لم أعثر له على تاريخ وفاة .

فاضلاً »[٩]. واتصل ـ رحمه الله ـ أيضاً بمؤسس (مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ، التي أنشأها صاحبها عام ١٩٢٨م ، وفيها نشر هارون ـ بتحقيقه ـ كتاب (الحيوان للجاحظ) في سبعة مجلدات ، ونال عنه ـ فيما بعد الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٩م .

ولعل من أبرز المؤسسات أثراً في حياة هارون العلمية ، مؤسسة (مكتبة الخانجي) ، وكان على صلةٍ بمؤسسها المرحوم السيد محمد أمين الخانجي (ت ١٩٢٨م) ، وكان الخانجي ـ على ما يصفه هارون ـ يتميز بالإخلاص للعلم وحده ، إذ لم يكن المال عنده إلا في المرتبة الثانية . ولمس فيه التفاني في نشر التراث العربي ، لا يكاد يعترف بغيره ، كما كان للرجل ـ رحمه الله ـ « ذوق مبكر في منهج نشر الكتب ، وترقيمها ، واختيار الصالح منها للنشر » ، على ما يصف هارون أيضاً[١٠].

وفي مؤسسة الخانجي ، نشر هارون ـ بتحقيقه ـ رسائل الجاحظ (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ، ونوادر المخطوطات في مجلدين وهي خمسة وعشرون كتاباً ورسالة . إلا أن أهم أثر للجاحظ نشره هارون في مكتبة الخانجي ، كان كتاب (البيان والتبيين) . وعن (مكتبة الخانجي) ، صدرت طبعته الأولى عام ١٣٦٧هـ الموافق لعام ١٩٤٨م ، وعنها أيضاً صدرت الطبعة الخامسة في عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م . وهي التي رجعنا إليها في هذه الدراسة .

وليس من وكد هذه الدراسة أن تحصر دُور النشر ، التي اتصل بها عبدالسلام هارون ، وشجعته على نشر التراث ، وحسبنا ما ذكرنا .

لقد كانت العناية بالتراث العربي ، من أبرز الاتجاهات الفكرية التي ميزت هذا الجيل من الرجال ، وكانت ثمة عوامل وفرت له أسباب تلك العناية ، ووصلت ـ بالتراث ـ فكره ووجدانه ، سواء في ذلك : التراث الديني في كتبه ، التي كانت ميسرة آنذاك ، والتراث الأدبي واللغوي ، الذي كان لهذا الجيل قدر وافر من الاطلاع

---

(٩) وأنظر مقاله : تحقيق التراث وما تم فيه ص ٢٣ .

(١٠) وأنظر : عبدالسلام هارون . التراث العربي (وهو كتاب له) ص ١٥ .

عليه ، وتمثله : حفظاً أو قراءةً ، أو روايةً ، وكذلك التراث التاريخي ، الذي ملأ مجالسهم : مذاكرة ومساجلة ، إلى جانب التراث القصصي الشعبي ، كقصص عنترة بن شدّاد ، وألف ليلة وليلة . هذا بالإضافة إلى دواوين فحول الشعراء ، كأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء . ولندع القول للأستاذ عبدالسلام هارون نفسه ، يقول ـ رحمه الله ـ « ولم يكن في جيلنا من لا يحفظ للحريري أكثر من مقامة ، ثم ينظر من بعد ذلك في كامل المبرِّد ، وأمالي القالي ، وفي العِقد الفريد ، وأغاني أبي الفرج . وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث ، نستظهر منها جياد النصوص ، وحِسان الخطب ، وكان بعضنا يحفظ ديوان شعر بأكمله ، أو يستظهر جمهوره »[(١١)].

* * *

تلك إلمامة تاريخية تكشف لنا بعض عوامل التكوين التراثي ، للمحقق الراحل ، وللجيل الذي انتظم في عِقده . وهو أمر لابد من تجليته ، قبل أن نشرع في دراستنا لجهوده المتميزة في نشر آثار الجاحظ .

* * *

كان هارون ـ رحمه الله ـ عاشقاً للتراث ، وهو عشق ينْميه الاستعداد والنحيزة ، كما تنْميه عوامل التكوين ، ولا يفوتنا أن نذكر دار العلوم ، التي تخرج بها الراحل الكريم عام ١٩٣٢م ، فغذّت دراسته بها ذلك الحب العارم للتراث ، الذي انكب على تحقيقه ونشره ، نحواً ولغةً وأدباً ، وتاريخاً ، فضلاً عن جهوده في البحث والنقد والاختصار .

ومن بين ما حقق وشارك به في إحياء التراث تبرز آثار أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥هـ) ، كما يبرز أيضاً ذلك التقدير البالغ ، الذي أولاه عبدالسلام هارون للجاحظ بياناً وفكراً . ففي تقديمه لكتاب (الحيوان) ـ بتحقيقه ـ يستهل التقديم بعبارة يحاكي بها بيان الجاحظ ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « للجاحظ مذهب في البيان ، من سار في أوله ، دفعه الإعجاب إلى أن يحاول السلوك إلى

---

(١١) نفسه ، وأنظر مقاله المتقدم ص ٢٥ .

غايته »[١٢]. إلى أن يقول ـ مؤكدا إعجابه ـ « وقد أبى عليّ فضله إلا أن أجعل صدر تقديمي له في مثل صورة بيانه »[١٣].

بل إنه يصوغ لكتاب (الحيوان) عنوانات تميز مواده الزاخرة الواسعة . جاعلاً لغة هذه العنوانات متسقة مع لغة الجاحظ مقتبساً الكثير منها « اقتباساً من تضاعيف كلامه ، ليكون ـ بذلك ـ التساوق والتناسب »[١٤].

وفي مقدمة تحقيقه (الحيوان) ـ أيضاً ـ يثني على الجاحظ بعبارات الثناء البالغ ، من مثل وصفه بأنه « زعيم للبيان العربي » ، وبأنه « أحد زعماء المكتبة العربية »[١٥].

أما كتاب (البيان والتبيين) ـ بتحقيقه ـ فيهديه إلى صديقه ، وزميل الطلب المرحوم : عبدالسلام الناظر ، ويصوغ عبارة الإهداء لصديقه صياغةً جاحظية ، يرسلها إرسالاً عفوياً ، دون تكلف أو اصطناع ، مؤكداً حبه للبيان الجاحظي ، وتشرب روحه وقلمه بسمته وطريقته .

وكذلك كان نهجه في تقديمه لمجموعة (رسائل الجاحظ) بتحقيقه ، فإن لغته في التقديم تصل إلى درجة رفيعة من الفخامة والتوهج على طريقة الجاحظ .

ولعل من دلائل الإعجاب بالجاحظ ـ أيضاً ـ مقالاً كتبه عبدالسلام هارون بعنوان (مكتبة الجاحظ)[١٦]. وفيه وصف الجاحظ بأنه (زعيم مدرسة أدبية تنتمي إلى الإسهاب) ، وبأنه (زعيم مدرسةٍ دينية)[١٧]، و (حجة ضدّ الشعوبية)[١٨]، كما يورد جمهرة من أقوال القدماء في الثناء على أبي عثمان ، والإشادة بذكائه وغزارة معرفته ، وروعة بيانه ، وقوته في الجدل والمحاجّة ، كما يسعى ـ في مقاله ـ إلى إحصاء

---

(١٢) مقدمة (الحيوان) ، بتحقيقه ص ١ ، وما بعدها .

(١٣) نفسه .

(١٤) نفسه ص ٢ .

(١٥) المقدمة ص ٣ .

(١٦) من مقال له بعنوان (مكتبة الجاحظ) ، صحيفة دار العلوم (القاهرة ، إبريل عام ١٩٤٣م) ص ١٧ .

(١٧) نفسه .

(١٨) نفس المقال .

تصانيفه : ما ضاع منها ، وما بقي ، والوقوف على منهج الجاحظ في التأليف .

* * *

هكذا أحب هارونُ الجاحظ في بيانه وفكره ، وكان حبه له وإعجابه بآثاره جزءاً لا يتجزأ من حبه الغامر للتراث العربي ، الذي وقف حياته على إحياء ذخائره ، في دقة وأمانة ، وصبر وبصر نافذٍ . ولا ينشأ الإعجاب بالتراث ـ لدى محقق مثل عبدالسلام هارون ـ من مجرد ميلٍ غامضٍ ، دفعه إلى خدمة هذا التراث ، وإنما نشأ إعجابه بالتراث من قراءة واعية نافذة له ، سواء في مضمونه وفي لغته ، أو قل (قراءة متذوقة) لهذا التراث ، متفاعلة معه . فعمله لا يقف عند تحرير ظاهر النص وضبطه ، وإنما هو ينهل من هذا المعين ، ويتزود بعطائه ، وهو يقرؤه بوعي وأناة .

من هنا كان تحقيق هارون لكتب اللغة ومصادرها الكبرى قميناً بأن يزوده بهذا الزاد اللغوي الذي يثير إعجاب المتخصصين ، كما كان تحقيقه لكبرى مصادر النحو العربي جديراً بأن يجعله واحداً من كبار علماء النحو في عصرنا ، مما جعله يأخذ طريقه إلى السلك الجامعي ، فيعمل مدرساً بجامعة الإسكندرية ، ثم أستاذاً مساعداً فأستاذاً بكلية دار العلوم ، ورئيساً لقسم النحو والصرف والعروض بها كما ينضم إلى عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فأستاذاً ومؤسساً لجامعة الكويت .

* * *

لم يكن هارون ـ رحمه الله ـ إذن مجرد قارىء للنص بغية تحريره وتقويمه ، وإنما كان ـ كما أسلفنا ـ متذوقاً غائصاً على هذا النص ، باحثاً في مضمونه ، واقفاً على دقائقه ومنهج صاحبه ، وخصائص فكره .

وهذه القاعدة تصدق على عمله في (تراث الجاحظ) صدقها على سائر ما نشر وحقق من ذخائر التراث العربي . وسنرى أن هذه (القراءة المتذوقة) ، والمعايشة لمضمون النص وخصائصه ، كانت دليله الصادق إلى نشر هذا التراث على هذا النحو الدقيق ، الذي أسهم به في تأسيس مدرسة في التحقيق العلمي ، لا تخفى معالمها على الرائي النافذ البصر .

* * *

مع منهجه وخطواته في التحقيق :

١ ـ جمع النسـخ :

وأول هذه الخطوات ، سعيه الدءوب وراء توفير أكبر قدرٍ من النسخ المخطوطة والمطبوعة طبعات غير محققة ، أو طبعاتٍ بحاجة إلى إعادة التحقيق ، وكان هذا السعي الدءوب جزءاً من طموحٍ لا يحد من أجل خدمة التراث العربي، وإخراج اثاره على نحوٍ دقيق .

فقبل تحقيق (الحيوان) ـ أول أثر جاحظيٍ نشره استعان بخمس نسخٍ مخطوطة ، منها أربعٌ بدار الكتب المصرية ، وخامسة بالخزانة التيمورية ، الملحقة بالدار ، ثم نسخة سادسة مطبوعة في المطبعة الحميدية ، فمطبعة التقدم ، واستمر صدورها مابين عامي ١٣٢٣هـ ، و ١٣٢٥هـ ، نشرها الوراق محمد ساسي في سبعة أجزاء ، وهي مجهولة الأصول .

وبعد ما أتمّ عمله في تحقيق الكتاب ـ وهو ماسوف نعود إليه تفصيلاً ـ عثر على نسخة سابعة مخطوطة ، كان معهد المخطوطات بالقاهرة قد جلبها من مكتبة أمبروزيانا بميلانو في إيطاليا ، فسعى جاهداً لاستعارتها ولما كانت هذه النسخة مضطربة مختلّة في ترتيب صفحاتها ، فقد عمل على ترتيبها ، مستعيناً بفهارس الكتاب المحقق ، ثم عمد بعد ذلك ـ رحمه الله ـ إلى معارضتها بالنص المحقق ، وأثبت في مؤخرة الجزء الأول منه أوجه الفروق في القراءة ، ونظمها جميعاً في فهرس دقيق بلغ عدد صفحاته خمساً وثلاثين صفحة .

أما (البيان والتبيين) ، فقد اعتمد في تحقيقه على أربع مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ، بما فيها نسخة بالخزانة التيمورية . ثم رتبها ، حسب الدقة والأهمية ، واتخذ ما أسماها (نسخة كوبريلي) أصلاً . كما اعتمد ـ إلى جانب المخطوطات ـ على نسخ مطبوعة ، آخرها طبعتان بتحقيق حسن السندوبي ، ونشرتا ما بين عامي ١٣٤٥ ، و ١٣٥١ للهجرة ، كما اعتمد على كتابين آخرين ، أحدهما (منتخبات من البيان والتبيين)، والثاني عنوانه (مختار البيان والتبيين)[١٩] .

---

(١٩) البيان والتبيين ، بتحقيقه ١/٢٤ .

أما عمله لتحقيق (خطبة واصل بن عطاء التي جانب فيها حرف الراء) ، فربما أعطانا دليلاً أقوى على جديّة الرجل وإخلاصه لتراث الجاحظ خاصة . فقد كان شغوفاً بتحقيق الخطبة ـ على صغرها ـ وعلى الرغم من أنها كانت منشورة ضمن مجموعة (جمهرة خطب العرب) ، التي جمعها المرحوم أحمد زكي صفوت .

وقد جعله شغفه بتحقيق هذه الخطبة ، دائب البحث عن نسخٍ مخطوطة لها ، في تضاعيف ما جمعه من مخطوطات (البيان والتبيين) . وعندما أوشك على تحقيق (البيان) ، وقف على شريط مصور للكتاب ، عن نسخة مخطوطة ، كان معهد المخطوطات بالقاهرة قد جلبها من مكتبة فيض الله بتركيا ، وكان سروره بالغاً ، حين اكتشف (خطبة واصل) ملحقة بنهاية هذه النسخة الجديدة ، وكان سروره بهذا النص النادر ـ على حد تعبيره ـ « أشد من سروره بتلك النسخة العتيقة من كتاب (البيان والتبيين) » . ومع هذا ، فإنه لم يقنع بهذه النسخة من الخطبة ، وإنما أصرّ على مواصلة البحث ، فاتجه إلى كتاب (مسالك الأبصار) ، لابن فضل الله العُمري (ت ٧٤٨هـ) ، مع أنه مخطوط ، وجعل يقلب صفحاته حتى اهتدى بين تضاعيفه إلى نسخة أخرى من نسخ الخطبة ، فكان ـ بذلك ـ أول ناشرٍ لها نشرةً علمية محققة ، ولم يضنَّ على الخطبة ـ التي جعلها ضمن مجموعة (نوادر المخطوطات) ـ بمقدمة طيبة مستفيضة ، تفوق في حجمها أضعاف حجم النص المحقق ولعله لا يخفى أن واصل بن عطاء صاحب الخطبة ، كان إمام الاعتزال ، وأستاذاً للجاحظ ، وقد احتفل أبو عثمان بذكره ـ في كتبه ـ والإشادة بذكائه ومقدرته على تجنب حرف الراء ـ لا في خطبه ورسائله ـ فحسب ـ وإنما ـ أيضاً ـ في « محاجّة الخصوم ومناقلة الأكْفاء ، ومفاوضة الإخوان »[٢٠] . كما أن حديث الجاحظ عنه وإشارته إلى خطبته الشهيرة ، هو الذي وجّه هارون ـ رحمه الله ـ إلى العناية بالتنقيب الدائب عنها ، وتحقيق نصها .

أما مجموعة (رسائل الجاحظ) ـ وهي سبع عشرة رسالة في مجلدين ـ فقد اعتمد في تحقيقها على مجموعة مخطوطة في مكتبة داماد بتركيا ، كان قد صوّرها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، إلى جانب سبع مجموعاتٍ مطبوعة ، من أهمها مجموعة ساسي ، ومجموعة باول كراوس ، وطه الحاجري »[٢٠]*

(٢٠) وانظر مقدمته في تحقيق (رسائل الجاحظ) .
(٢٠)* نفسه .

٢ ـ قراءة النص وتحقيقه :

أسلفنا الإشارة إلى أن أول نص حققه عبدالسلام هارون ، هو نص كتاب (أدب الكاتب) ، لابن قتيبة ، بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب ، الذي تتلمذ هارون عليه ، وكان ـ بإقراره ـ أستاذه الأول في ذلك المجال التراثي .

ولا شك أن تحقيق نص لابن قتيبة ، قد قربه من عالم الجاحظ ، إذ فضلا عن كون (أدب الكاتب) نصاً أدبياً لغوياً ، فإن بين الجاحظ وابن قتيبة أكثر من رابطة . فكلاهما اشتغل بالأدب ، كما أن الجاحظ قد أجاز ابن قتيبة برواية كتبه ، هذا إلى أن كتب ابن قتيبة[٢١] قد حفظت لنا قدراً من نصوص الجاحظ ، ولهذا اتخذ عبدالسلام هارون من كتب ابن قتيبة مراجع له في تحقيقه لنصوص الجاحظ المختلفة ، وبخاصة (عيون الأخبار) ، الذي انتفع كثيراً بكتابي (الحيوان) ، و (البيان والتبيين) ، ورجع المحقق إليه في مواضع لا تحصى .

أما أول نص جاحظي حققه هارون ـ رحمه الله ـ فهو كتاب الحيوان . ومعنى هذا أنه قد اتصل بأبي عثمان في أكبر ما انتهى إلينا من آثاره ، وأغزرها معرفةً ، وأعقدها مادةً ، وأطرفها موضوعاً . ولهذا كانت معاناته الشاقة في سبيل قراءة النص ، وتحريره ، حتى كاد ينصرف عن المضيّ معه . ولكنّ الأمر المؤكد أنّ هذه البداية الشاقة مع كتاب (الحيوان) ، قد وضعته وجهاً لوجه أمام أكبر تجربة لتحقيق أثر جاحظي ، وأكسبته خبرة دقيقةً بلغة أبي عثمان ، ومنهجه في التفكير والتأليف ، وآفاق ثقافاته الواسعة المنوعة ، وكلها أمور أكسبته الثقة ، وشجعته على المضيّ في سبيل إخراج ما أخرج من آثار الجاحظ على هذا النحو الدقيق ، حتى ليمكن القول : إن عبدالسلام هارون يعد ـ بلا مدافع ـ أكبر محققي العصر خبرة بنصوص الجاحظ : قراءة وتقويماً وشرحاً ، فضلاً عن كونه أكثر المحققين إنتاجاً في مجال تحقيق آثار أبي عثمان .

ولندع له القول يحدثنا عن تجربته مع كتاب (الحيوان) ، يقول ـ رحمه الله : « . . وأذكر أنني ـ قبل تحقيقي لكتاب الحيوان ، هالني تنوع المعارف التي يشملها هذا

(٢١) تحقيق النصوص ، ونشرها ص ٦٠ .

الكتاب ، ووجدت أنني لو خبطت على غير هدى ، لم أتمكن من إقامة نصه على الوجه الذي أبتغي . . »[٢٢].

وانتهى الأمر مع النص المعقّد ، إلى خطةٍ سديدة لا سبيل إلى سلوكها إلا بالصبر والأناة . ويمكن أن نوجز هذه الخطة فيما يلي :

١ ـ أنه قرأ الكتاب ستَّ مرات ، قراءة متدبرة متروية ، كان خلالها يعارض كل مخطوطٍ من مخطوطاته على حِده[٢٣].

٢ ـ ثم عاد ، فقرأه مرةً سابعة ، عمد خلالها إلى تنسيق فقاره وتبويب فصوله ، حتى صار واعياً للكثير مما ورد فيه[٢٤].

٣ ـ رجع إلى كل كتابٍ له علاقة ـ في موضوعه ـ بكتاب الحيوان ، وقيّد في جذاذاته ما يراه معيناً له على التصحيح ، حتى استوت له مادة طيبة من التصحيحات ، والتعليقات في الحواشي[٢٥].

٤ ـ عاد ، فرجع إلى قدرٍ كبير من المصادر الأخرى ، التي أفاد منها ، وإن لم يقتبس عنها[٢٦].

٥ ـ استطاع ـ بعد كل هذه المراحل ـ أن يقف على لغة الجاحظ ، وعاداته التأليفية ، ومصادره ، وطبيعة مادته . وكل هذه مفاتيح هامة ، لابد للمحقق الجادّ أن يمسك بها ، حتى يكتسب عمله السلامة والوثاقة .

ويمكن القول بأن (الخبرة الدقيقة بالجاحظ) كانت أغلى ظفر خرج به ، حتى انعقدت بينه وبين شيخه الجاحظ ـ وهو لقب اختصه به ـ تلك الآصرة الحميمة من الإعجاب والحب، ومن ثم تولد لديه ذلك الشغف الطموح لجمع آثار أبي عثمان، في دأب قمينٍ بالإعجاب .

---

(٢٢) نفسه ص ٦٣ .

(٢٣) نفسه ، وانظر مقدمته لكتاب (الحيوان) ، بتحقيقه .

(٢٤) تحقيق النصوص ونشرها ص ٦٣ .

(٢٥) نفسه .

(٢٦) نفسه .

ولعل ما وقف عليه عبدالسلام هارون من عادات الجاحظ التأليفية ـ مثلاً ـ عادة التكرار ، وقد انتفع بهذه الظاهرة في المقارنة بين نصوص الكتاب وتحقيقها[٢٧] .

وبفضل هذه الأناة في قراءة أعقد نصٍ للجاحظ ، تمكن المحقق من تحريره لتلك النصوص الواردة في تضاعيف الكتاب . ومن هذه النصوص ـ مثلاً ـ نص خطبة من خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي ، ورد في الكتاب محرّفاً على النحو التالي :

« ياأهل الشام ، أنتم الجُبّة والرِّداء » وموضع التحريف في لفظ (الجُبّة) هكذا بالجيم والباء وهو زيٌّ يُلبس .

وقد صحح المحقق العبارة على الوجه التالي :

« . . . أنتم الجُنّة ـ بالجيم المضمومة والنون ـ والرِّداء »[٢٨] .

ومعلوم أن (الجُنّة) هي ما يواري المحارب من السِّلاح ، ويستتر به حمايةً له من الطعن . والكلمة المصحفة على هذا النحو ملبسة موهمة ، لوجود تناسب بين (الجبّة) وبين (الرداء) تجعل القارىء غير البصير لا يتنبه إلى تصحيفها .

كذلك استطاع المحقق ـ رحمه الله ـ أن يخلص نص كتاب (الحيوان) من العبارات المقحمة ، التي يتورط في إثباتها أحياناً ناسخ جاهل ، أو قارىء متعجل ، اعتاد تقييد تعليقاته بشكلٍ يُدخل على النص ما ليس منه . فمن ذلك ـ مثلاً ـ هذه العبارة المقحمة في نسختين من (الحيوان) ، هذا نصها :

« كنت بعجتُ بطن عقرب ـ إذ كنت بمصر ـ فوجدت فيه سبعين عقارب صغار (هكذا ؟!) ، كل واحدة نحو أرزة . حرره أبو بكر السرُّوكني »[٢٩] .

وقد اهتدى المحقق إلى كون العبارة مقحمة دخيلة من عدة أمور :

أولها : أن الجاحظ لم يدخل مصر قطّ .

---

(٢٧) تحقيق النصوص ، ونشرها ص ٣١ .

(٢٨) نفسه ص ٦٩ .

(٢٩) نفسه ص ٧٢ .

ثانيها : طبيعة الأسلوب ، فهي ليست جاريةً على نسق لغة الجاحظ وتعابيره .
ثالثهـا : عبارة : (حرره أبو بكر السروكني) .

ونحن نضيف إلى هذه الأمور الثلاثة أمراً رابعاً ، هو مضمون العبارة ، فهي تنطوي على خرافة ومبالغة ، يستحيل صدورهـا عن عقل الجـاحظ ، الذي رفض الخرافة ، وفيّل ما ورد منها في كتاب أرسطو عن (الحيوان) .

ومن أوضح قراءاته دلالةً على تمرسه بلغة الجاحظ ، رده على بعض ما استدركه عليه الأب (أنستاس الكرْمَلي)[٣٠]، فمن ذلك مثلاً :

أ ــ استدرك عليه الأب الكرْملي هذه القراءة في موضع من كتـاب (الحيوان) ، والقراءة على الوجه التالي :

« وإذا كان ذلك [كذلك] . . » ، بإضافة المحقق اسم الإشارة [كذلك] إلى العبارة ، مع أن الكلام يستقيم بدونها . فيرد هارون على الكرْملي بقوله : « . . ولكن أسلوب الجاحظ يطلب هذه الكلمة . ومن تمرس بأسلوبـه عرف منـه ذلك ، ولكل كاتب لازمات لا تكاد تفارقه . . . فالجاحظ التزم ذلك التعبير في كل موضعٍ ورد فيه . وليس يمكنني إحصاء المواضع جميعاً . ولكني أدُلُّك على بعض مواضع من كتاب الحيوان فحسب . أنظر : ٢/ ٩٧ س ٧ ، س ١٨ ، و ٢/ ٢٠١ س ،٨ ، ٤ و ص ٤٣٤ س ٨ »[٣١].

ب ــ ويستدرك الكرْملي على هارون ـ في تحقيقه الحيوان ـ فيقول : « وفي ص ٣١٤ س ٣ (ولا تستحري) بلا همزة » فيرد عليه هارون بقوله :

« أما أن الهمز هو الأفصح ، فإنه صحيح لا جدال فيه . وأما قولك إن ترك

---

(٣٠) نشرت هذه المقالات في الرد على الكرملي في مجلة (الثقافة) المصرية . الإصدار الأول ، الأعداد رقم ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٥ . تحت عنوان (حول كتاب الحيوان) ، كما نشر هارون ـ رحمه الله ـ رداً أيضاً في (باب المراسلة والمناظرة) من مجلة (المقتطف) عدد نوفمبر عام ١٩٤٤م ، تحت عنوان (حول المجلد الخامس من كتاب الحيوان للجاحظ) .
(٣١) مقالة (حول كتاب الحيوان) . مجلة (الثقافة) عدد ١٠٤ ص ٣٠ .

الهمزة خطأ ، فلا وجه له من الصحة ، إذ أن تخفيف الهمزة في مثل هذا جائز . . . وقد وجدتُ كثيرا أن الجاحظ يميل إلى تسهيل الهمزات في مواضع شتى من كتابه . وهذا أحدها ، وإن أحببت أن تعرف بعض الشواهد على ذلك ، فانظر . . . »[٣٢]. ثم يعدد له بعض هذه المواضع من كتاب (الحيوان) .

جـ ـ يستدرك الكرْملي على هارون قراءة له في موضعٍ من الكتاب ، هي : « لا يستخبر الريح . . » .

يقول الكرْملي : « الصواب ما في اللسان والقاموس والتاج يستمخر » .

ويرد هارون بقوله :

« وأنا لم يفتني أن أنبّه على هذه الرواية في الاستدراكات ٥٢٦ . أما الرواية الأولى ـ التي هي صحيحة أيضاً وليس ثمة ما يضعف من قوة معناها وجزالتها ـ وهي الرواية التي وردت في البيان (٧٢/١) ، والحيوان (٣٤/١ ، ١٣٢/٤) ، فهي رواية الإمام الجاحظ »[٣٣].

وتوقفنا ردود هارون على استدراكات الكرْملي ، على جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي :

١ ـ تمرسه بلغة الجاحظ ، وخبرته الدقيقة بها .

٢ ـ مكّنته هذه الخبرة الدقيقة بلغة أبي عثمان من أن يحسن التعامل مع نصوصه ، وأن يحسن ـ بالتالي ـ تحقيق النص وتحريره ، فيعرف متى يضيف إلى النص ، ومتى ينقص منه ، ومتى يبقى ، دون إضافة أو نقصان .

٣ ـ بصره الواسع باللغة ، وهو ما سوف نكشف عن بعض أبعاده في دراسة مستقلة لاحقة إن شاء الله .

---

(٣٢) نفسه .

(٣٣) نفسه ص ٣٣ .

٤ ــ تقديره للجاحظ ، وثقته بجودة لغته ، مما حدا به إلى مساندته فيما استخدم من هذه اللغة ، فضلاً عن تلقيبه بـ « الإمام الجاحظ » . غير أن هذا التقدير لأبي عثمان لم يصرفه ـ قط ـ عن تعقب أغلاطه ، والتنبيه عليها ، وهذا ما سوف نحاوله في السطور التالية .

ويمكن أن نقسم استدراكات هارون على الجاحظ إلى عدة أقسام ، هي :

١ ــ استدراكات على الجاحظ في الأعلام .
٢ ــ استدراكات على الجاحظ في رواية الأشعار .
٣ ــ استدراكات في الشواهد القرآنية .

* * *

١ ــ ومن أمثلة استدراكاته في الأعلام المثال التالي :

يقول الجاحظ ـ تعليقاً على بيت للحكم الخُضْري : « والمجنون المصروع ، ومجنون بني عامر ، ومجنون بني جَعْدة » .

ويستدرك هارون على الجاحظ بقوله :
جعلهما الجاحظ شخصين ، والمعروف أن المجنون العامري ، هو قيس بن الملوّح بن مزاحم بن قيس . . . » ثم يتعقب سلسلة نسبه بعد ذلك[٣٤] . ويظل المحقق ـ في حواشيه ـ يتعقب الجاحظ في هذا الخطأ . ومن مواضع استدراكاته على الجاحظ أيضاً ، تحريف الجاحظ لأحد الأعلام على النحو التالي :

« قال يونس بن حبيب : ما جاءنا من أحدٍ من روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

وصواب العبارة إنما هو (كما ورد في حاشية المحقق) :
« قال يونس بن حبيب : ما جاءنا من أحدٍ من روائع الكلم ما جاءنا عن البتّي »
والبتي المذكور هو : عثمان البتي ، فلما لم يذكر عثمان ، التبس (البتي) ، فصحفه الجاحظ بـ (النبي) ، ثم جعل مكان لفظ (النبي) (الرسول) ،

---

(٣٤) البيان والتبيين : ٢٢٤/٣ ، وأنظر ٣٨٥/١ ، ٤١/٢ ، ٩٨/٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢/٤ .

وألحق بـه دعـاء الصـلاة . وكـان (البتي) الـذي صحّفـه الجـاحظ من الفصحاء[٣٥] .

* * *

٢ ــ أما استدراكاته على الجاحظ في رواية الأشعار ، فمن أمثلتها :

أعـلمـه الـرمـايـة كـل يـومٍ ... فـلمـا اشتـدّ سـاعـده رمـانـي

وموضع الغلط لفظ (اشتدّ) بالشين المثلثة ، كما هو الشائع ، فيصحّحُه هارون إلى :

أعـلمـه الـرمـايـة كـل يـومٍ ... فـلمـا استـدّ سـاعـده رمـانـي

هكذا بلفظ (استدّ) بالسين المهملة . ثم يعلق على الرواية الصحيحة بقوله : « هذا هو الصواب في رواية البيت ، واستدّ من السّداد ، وهو القصد كما في حواشي (هـ) . وفيما عدا التيمورية ، و (هـ) : « فلما اشتد » تحريف . انظر اللسان (سدد) حيث نبّه على هذا الصواب » . أ. هـ[٣٦] .

قلت ، والبيت رواه الجاحظ منسوباً إلى « معن بن أوس » ورواه غير الجاحظ ـ كما في حاشية هارون ـ منسوباً إلى مالك بن فهْم الأزْديّ ، أو إلى عقيل بن علفه[٣٧] .

هذا ، ويطول الحديث لو حاولنا الاستقصاء لمواضع استدراكات المحقق على الجاحظ في الأعلام ورواية الأشعار .

* * *

٣ ــ أما استدراكات المحقق على الجاحظ في إيراد الشواهد القرآنية ، فهي كثيرة ، نسوق هنا بعضاً منها :

---

(٣٥) وأنظر : تحقيق النصوص ونشرها ص ٦٩ ، وأنظر أيضاً : البيان والتبيين ٢/١٨ ، والاستدراكات الملحقة به في الجزء الرابع . وقد أفاد المحقق ـ في تصحيحه ـ من حاشية قارىء للمخطوطة .

(٣٦) البيان والتبيين : ٣/٢٣١ ، والبيت من قصيدة لمعن بن أوس .

(٣٧) وأنظر الحاشية ٣/٢٣٢ .

● مـا ورد في الجزء الـرابع من (الحيـوان) ص ٧ (فلما أتوا عـلى وادي النمـل) والصواب « حتى إذا أتوا على وادي النمل » .

● وفي ص ١٥٩ منه « على أن لا أقول على الله إلا الحق فأرسِلْ معي بني إسرائيل » . وصواب الآية : ﴿ . . . إلا الحق قـد جئتكم ببينةٍ من ربكم فـأرسل معي بني إسرائيل ﴾ .

وفي ص ١٦٠ من الجزء الرابع من (الحيوان) أيضاً :

﴿ ياموسى أقبل ولا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴾ وصوابها : ﴿ ياموسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴾ .

وفي الجزء الخامس من (الحيوان) ص ٣٢ : ﴿ إني مبتليكم بنهر ﴾ وصوابها : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر . . . ﴾ .

وأضعاف هذه الآيات وردت خطأ في كتب الجاحظ ، فصوبها المحقق في المتن ، ونبه إلى الخطأ في الحواشي . وواضحٌ أن إدراك هذه الأخطاء في إيراد شواهد القرآن الكريم ، ليس مما يستعان فيه بالمعجم المفهرس لآيات القرآن ، ولكنها تتطلب المحقق الحافظ ، الجيّد الحفظ لكتاب الله ، لأنها من الآيات المتشابهة في نظائر لها ، ويكثر ـ بالتالي ـ وقوع اللبس فيها .

* * *

ولعله من المفيد أن ننبّه إلى حقيقة مهمة : وهي أن تصويبات هارون لنصوص الجاحظ ، قد استعـان فيها بتمرسه بهذه النصوص ، كما كررنا القول ، ثم بكثرة ما كان يوفره لنفسه من النسخ المخطوطة والمطبوعة ، ومقابلاته الدقيقة بين تلك النسخ ، ثم نظره فيما يكون على هذه النسخ من التقييدات والحواشي ، وأخذه بالصائب المفيد منها . ثم باطلاعه الواسع على شتى كتب الأدب ، من دواين واختيارات ، وأخبار ، وكتب المعاجم واللغة ، إلى غير ذلك من كتب التاريخ ودواوين السنة ، وكتب التفسير والعقائد ، والأنساب . كما كان يُعنىٰ ـ عند تحقيقـه لنصٍ منَ نصوص الجـاحظ ـ بمعارضته بسـائر النصـوص الجاحظيـة الأخرى . فلا يفـوته ـ عنـد تحقيق (البيان والتبيين) ـ مثلاً ـ أن يقابله بكتاب (الحيوان) ، وكتاب (البخلاء) ، وسائـر ما

خلّف الجاحظ . ولهذا كثيراً ما نجده في الحواشي يتعقب المسألة الواحدة في أكثر من أثر جاحظي ، فضلاً عن تعقبه لها في غير كتب الجاحظ ، التي نقلت عنه ، منبهاً إلى أوجه التشابه أو الاختلاف ، حتى أن الحواشي - في مواضع كثيرة - لتضم مباحث علمية ثرية متسعة ثراء عالم الجاحظ واتساعه وتنوعه(٣٨) .

٢ ـ تخريج النصوص وعزوها :

عني هارون بتخريج النصوص الغزيرة ، التي تزخر بها كتب الجاحظ ، من آياتٍ وأحاديث وأشعارٍ وأمثالٍ وخطب وغير ذلك من نقوله عن المصادر المتنوعة في معارفها . كما عني أيضاً بعزو بعض هذه النصوص الأدبية إلى قائليها . ونحاول ـ هنا ـ تتبع أبعاد تلك العناية .

***

يقول هارون في كتابه (تحقيق النصوص ونشرها) : « واختيار النصوص القرآنية ، لا يكفي فيه أن نرجع إلى المصحف المتداول ، بل لابد فيه من الرجوع إلى كتب القراءات وكتب التفسير ، ففي كتب القراءات يرجع المحقق إلى كتب القراءات السبع ، ثم العشر ، ثم الأربع عشرة ، ثم كتب القراءات الشاذة . وفي كتب التفسير يلجأ إلى تلك التي تعنى عناية خاصة بالقراءات ، كتفسير القرطبي ، وأبي حيان . ولذلك يجدر أن ينسب المحقق كل قراءة تكون مخالفة لقراءة الجمهور »(٣٩) .

وواضحٌ ـ من عبارة هارون ـ وجوب أمد يرجع المحقق إلى كتب القراءات بأنواعها ، وإلى كتب التفسير المعنيّة بالقراءات . . وليس في العبارة ما يحتم عزو الآيات إلى سورها ، وتحديد أرقامها ، كما هو دأب الجمهور الأغلب من المحققين .

---

(٣٨) وأنظر على سبيل المثال : البيان والتبيين ١/ ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ومواضع أخرى لا تستعصى .

(٣٩) تحقيق النصوص ونشرها . ص ٤٩ ، وأنظر إشارته إلى اعادة الجاحظ ـ في إيراد الشواهد القرآنية ـ حيث يترك الواو أو الفاء أو إن ، أو قل أو ما أشبه ذلك من الحروف والكلم (ص ٥١) .

ولهذا فقد لحظنا ـ من استقصاء جميع الآيات القرآنية في كتاب البيان ـ أنه لم يعمد إلا لتخريج نحو خمس آياتٍ فقط .

- قوله تعالى : ﴿ فإن كنت في شكٍ مما أنزلنا إليك فسلْ الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ آية ٩٤/ الأنعام .
- قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعِذْ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ آية ٣٦/ فُصّلت .
- قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٤٠] ٢٤/ الأنعام .
- قوله تعالى : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ آية ٢٦/ الأعراف .
- قوله تعالى : ﴿ إخلع نعليك إنّك بالوادي المقدس طوىً ﴾[٤٠].

كما عزا آيتين اثنتين إلى سورهما ، لورودهما مقتبستين في أبيات من الشعر ، وهما :

قول الله تعالى : ﴿ والتفّت الساق بالساق ﴾ (القيامة ٢٩) .
قول الله تعالى : ﴿ وقيل من راق ﴾ (القيامة ٢٧) .

ولكن . لماذا اقتصر المحقق على تخريج الآيات المتقدمة دون سواها من عشرات الآيات الواردة في البيان وغيره ؟ ثم لماذا أغفل تخريج تلك الكثرة الكاثرة من الآيات ؟

والجواب ، أن الآيات التي عني بنسبتها إلى سورها إما أن تكون موضع خلافٍ بين جمهور القراء ، فحينئذٍ ينسب المحقق كل قراءة ، ثم إنه قد يعزو الآية إلى موضعها من السورة ، وإما يقتصر على ذكر وجوه القراءات ، دون عزو .

أو قد تكون الآية متشابهة لفظاً مع آية سواها ، فيذكر الآية الأخرى ، وينسب كل آية منها إلى سورتها ، أو تكون الآية موضع اقتباس في شعر ، واستشهد بجزءٍ منها .

---

(٤٠) وأنظر حواشي التحقيق في البيان والتبيين ٢٨١/٢ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ١١٠/٣ ، ١٦٨ ، ١٩٥ . أما آيتا سورة القيامة المقتبستان فانظرهما في ٨٥/١ .

هذا ولم يغفل المحقق نسبة القراءات التي جرى خلاف حولها بين جمهور القراء[٤١].

أما إغفاله نسبة الجمهرة الغالبة من الآيات فليس له من تعليل ـ في رأينا ـ إلا أنه لم يشأ أن يزحم حواشي الكتاب من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنه من اليسير معرفة مواضع الآيات عن طريق المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ، علماً بأن ذلك لا تكون له ـ في الغالب ـ علاقة أساسية بالنص المحقق . ومن ثم فقد رأى الاقتصار على ما يستوجب التخريج .

* * *

وقد لوحظ في (البيان والتبيين) ـ مثلاً ـ أن الأحاديث الواردة في أثنائه فوق الحصْر ، حتى أنها تتوالى بشكل واضح في الصفحات المتتالية ، فالجاحظ في الجزء الثاني يورد ـ على التوالي ـ من أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما صار « مستعملاً ومثلاً سائراً » ، ثم لا يعمد المحقق إلى تخريج واحدٍ منها . مع أنه لو فعل لاستطعنا أن نقف على مدى التحري في رواية الحديث لدى الجاحظ . وذلك ـ في رأينا ـ مطلبٌ أساسي ، في مصادر الأدب بعامة ، وفي مؤلفات الجاحظ بخاصة ، لأنه من أئمة أهل الاعتزال ، والجدير بالذكر أن هارون في كتابه (تحقيق النصوص ونشرها) قد أوجب اختبار نصوص الحديث ، بعرضها على مصادرها وتخريجها إن أمكن[٤٢].

أما سائر الشواهد الأدبية ، فقد أولاها المحقق ـ رحمه الله ـ قسطاً موفوراً من العناية . سواء في ذلك الأشعار أم سواها من المنثور : خطباً ورسائل وأمثالاً وسواها .

ولعل السبب في عنايته بالشواهد الأدبية يرجع إلى جملة أسباب ، من بينها غلبة الطابع الأدبي على كتب الجاحظ ، ثم ما قد يجده القارىء من صعوبة الاهتداء إلى مصادر الشواهد الأدبية ، لغزارة هذه الشواهد ـ من جهة ـ ولاتساع مصادرها وتنوعها وكثرتها من جهة أخرى . فإذا كان بوسع القارىء الاهتداء إلى موضع الآية القرآنية من السورة أو إلى مصدر الحديث ، ودرجته ، فليس الأمر كذلك بالنسبة للشاهد الأدبي .

---

(٤١) نفسه .
(٤٢) تحقيق النصوص ونشرها ص ٥٢ .

مع العلم بأن حاجة الباحث الأدبي لمعرفة المصادر الأدبية للشواهد تكون أمسّ وأشد .

وفي سبيل عزو الشواهد إلى قائليها ، أو تصويبها ، أو التنبيه إلى اختلاف رواياتها ، أو الإحالة إلى مصادرها ، فقد رجع المحقق إلى جمهرة منوعة من المصادر ، مثل دواوين الشعراء ، وكتب الاختيارات ، وكتب الأدب والسيرة ، والتاريخ والأخبار .

وعلى ذكر المصادر ، فإن الملاحظ أن المحقق - في تخريج الشواهد الشعرية مثلاً - لا يكتفي بالرجوع إلى الديوان المطبوع ، بل يرجع أحياناً إلى الديوان المخطوط . فمن هذا - على سبيل المثال - بيتان رواهما الجاحظ للأفوه الأودي في كتابه (البيان والتبيين) ، وقد نص المحقق في حاشية رقم (١) من الجزء الأول ، على أنهما (لم يُروَيا في ديوانه المخطوط)[٤٣] . كذلك عني المحقق - عند تخريجه الكثير من الأبيات - بالتنبيه على مالم يرد منها في ديوان الشاعر ، أو في بعض كتب (الاختيارات) ، التي روت للشاعر آثاراً . فمن ذلك - مثلاً - بيت لأوس بن حجر ، رواه الجاحظ في البيان ، وهو :

أم من يكون خطيب القوم إن حَفَلوا لدى الملوكِ أُولي كيدٍ وأقوالِ[٤٤]

وأبيات ثلاثة أخرى لأوس ، وردت في البيان أيضاً ، إلى مواضع أخرى من حواشي التحقيق[٤٥] .

كذلك يعنىٰ - في بعض المواضع - بعزو ما أغفل الجاحظ عزوه من المرويات . فمن ذلك خطبة رواها الجاحظ غفلاً من الإسناد والعزو ، فنصّ المحقق في حاشية (٤) من الجزء الثاني من البيان ، على أنها لأبي حمزة الشاري (ت ١٣٠هـ) ، وأحال إلى (العِقد الفريد - ١٤٨/٤) ، وأشار إلى ورود إسنادها في العقد . وفي مثل ذلك من الفائدة للباحث مالا يخفى ، فبوسع الباحث المتتبع لحواشي كتب الجاحظ ، التي حققها عبدالسلام هارون ، أن يقف - من هذه الحواشي - على مصادر نصوص معينة

---

(٤٣) البيان والتبيين ١٩٨/١ .

(٤٤) البيان والتبيين ١٨٠/١ .

(٤٥) منها - مثلاً - ١٩٨/١ ، ١٠٣/٢ ، ٢٥٧ ، ٩١/٣ ، ١٠٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ومواضع أخرى .

معني بدراستها . هذا فضلاً عن وقوفه على النصوص التي وردت ـ في مؤلفات الجاحظ غفلاً من العزو ـ وعزاها المحقق .

٣ ـ الترجمة للأعـلام :

وما أكثر ما ورد منها في كتب الجاحظ ، فإنه فضلاً عن أعلام الأدباء والعلماء وأهل الملل والديانات ، فإن جمهرة من غير هؤلاء وأولئك يلقـاهم قارىء مؤلفـات الجاحظ ، ينتسبون إلى تلك العوالم الطريفة المنوعة ، التي صنعها الجاحظ من صميم الواقع الإنساني والبشري ، أو من واقع ما حصّله من الثقافات الغزيرة المنوعة .

ففي عالم الجاحظ أسماء بخلاء وحمقى وموسوسين وطفيليين ومغفلين ، وبرصان وعرجان وعميان وحُولان ، ومتغطرسين ، وجهال وأدعياء . فأعلام الجاحظ ـ إذن ـ أسوياء ومرضى ، ظرفاء وثقلاء ، جهال وعلماء . وهذا مورد يتطابق ـ من كل الوجوه ـ مع شخصية الجاحظ وعالمه المثير الفذّ .

فكتاب مثل كتابه (البُرصان والعُرجان والعميان والحولان) ـ وقد حققه هارون ـ ليس من اليسير الاضطلاع بتحقيقه ونشره ، لأنه فضلا عن نَدرة نصوصه ، وما حفل به من إشارات أدبية قد زخر بالكثير من الأعلام المجهولة ، ولولا طول العهد بصحبة هارون بالجاحظ ، ما خرج هذا الكتاب بالصورة التي ظهر بها .

أما (البيان والتبيين) ، فإن غزارة مادته ، واتساع حجمـه ، جعله حافـلاً بأعلام كُثر ، بعضهم شائع متعارف ، والبعض الآخر مجهول أو قليل الشيوع . وقد ترجم هارون لنحو أربعمائة علمٍ منها في الحواشي . ونبه ـ في كثير من المواضع ـ إلى مصـادر الترجمـات كما عني عنـايةً خـاصة بصلة العَلم بـالجاحظ ، إذا كـانت ثمـة صلة[٤٦] .

وتحتل كتب الجاحظ نفسها مكانة واضحة بـين سائـر كتب التراجم والأدب

---

(٤٦) من هؤلاء : إبراهيم بن هانىء أحد معاصري الجاحظ (حاشية تحقيق البيان ١/٩٣) ، واصل بن عطاء (١/١٤) ، وأبو عبيدة (١١/٣٨) ، وكثيرون سواهم .

واللغة والتاريخ ، التي استعان بها المحقق لترجمة الأعلام الواردة في تضاعيف (البيان والتبيين) . بل إن بعض المصادر الأدبية والتاريخية . التي رجع المحقق إليها قد نقلت عن الجاحظ بطريق الرواية ، ثم جاء المحقق ، فسجل لنا في الحواشي تلك النقول[٤٧] .

وإذا كان المترجم له شعر أو نحوه ، في غير كتاب (البيان والتبيين) نبّه المحقق إلى ذلك[٤٨] . وهكذا نجد للجاحظ ـ في حواشي هارون ـ وجوداً وحضوراً يجعل كتبه وثقافته كلاً متماسك العُرى في نسيج تلك الحواشي ، ويتيح لمن يطالع كتاباً من كتبه ـ بتحقيق عبدالسلام هارون ـ أن يلم من عالم الجاحظ بأطراف شتى .

ومع هذا فإن مواضع من الحواشي ، ترد الترجمات فيها غُفلاً من المصادر تماماً كترجمته لابراهيم بن محمد أخي العباس السفاح وكذلك ترجمته للشاعر المخضرم : عبدة بن الطبيب[٤٩] .

ولم يقتصر جهد هارون ـ رحمه الله ـ في أعلام الجاحظ على الترجمة فحسب ، بل كان شديد العناية بضبط العلم على أدق وجه ممكن ، وتصويب ما ورد محرفاً أو مصحفاً في النص ، فعندما يرد ـ مثلاً في نص البيان والتبيين ـ اسم (النَّمر بن تولب الشاعر المخضرم) ، يقول في الحاشية : « النَّمر بكسر الميم ، وصحح ابن دريد الاشتقاق ١١٣ أنه بفتح النون وسكون الميم » وعند ضبطه في النص يضبطه هكذا (النَّمر) بفتح النون ، ويترك الميم دون ضبط[٥٠] . كما يطالعنا في نص البيان أيضاً اسم الشاعر الأموي الهجّاء (الزَّبير الأسدي) ، فيضبطه (الزَّبير) هكذا بفتح الزاي ، ويؤكد الفتح للزاي ، بالنصّ على ذلك في الحاشية . والملاحظ أن هذا العلم مما يسهل الخطأ في ضبطه ، فتضم الزاي بدلاً من فتحها ، على شاكلة (الزُّبير بن العوام) مثلاً ، وولده (عبدالله بن الـزُّبير)[٥١] ، وإذا علمنا أن هذا الشاعر اسمه (عبدالله بن الزَّبير) تأكد لنا احتمال الخطأ فيه .

---

(٤٧) البيان والتبيين ١/٢٠٧ .

(٤٨) نفسه ١/٥٠ حاشية التحقيق ، ١/١٣١ ، ٢٠٥ ومواضع أخرى .

(٤٩) حاشية تحقيق البيان ١/٨٧ ، ١/١٢٢ .

(٥٠) حاشية تحقيق البيان ١/٣ .

(٥١) حاشية تحقيق البيان ١/٢٢٦ .

ونأتي إلى عَلم آخر وقع بالفعل التحريف في اسمه كثيراً ، وهو (مُزبِّد المديني) من مشهوري أصحاب النوادر والفكاهة ، فيحرص المحقق على ضبطه في النص ، ثم يعلق في الحاشية بقوله : « ويقع التحريف في اسمه كثيرا ، فيقال : مزيد بالياء المثناة التحتية . وفي تاج العروس (٣٦١/٢) ، ومزبِّد كمحدِّث ، اسم رجل ، صاحب النوادر . وضبطه عبدالغني وابن ماكولا كمعظم . . وقد رجعت إلى المشتبه للذهبي ص ٤٧٥ فوجدت فيه : وبزاي وبموحدة مكسورة : « مزبد صاحب النوادر » ففي ضبطه أقوال ثلاثة . . » ثم يحيل القارىء ـ بعد هذا المبحث ـ إلى المصادر التي أوردت ذكراً له ، وهي : ثمار القلوب للثعالبي ، والحيوان ، والمقابسات للتوحيدي[٥٢] .

٤ ــ التعريف بالفِرق الكلامية :

من المعروف أن الجاحظ أحد الأدباء المتكلمين ، وهو من أئمة المعتزلة ، وتلميذ نابه لواصل بن عطاء ، وإن لم يتعاصرا ، وقد نقل الكثير من آرائه ، وأخباره ، وأدبه ، وانفرد من بين معاصريه بنقل نص خطبة واصل ، التي جانب فيها حرف الراء ، كما سلفت الإشارة .

من هنا عُدّت آثار الجاحظ مصدراً مهماً من مصادر الاعتزال ، إلى ما حوته هذه الآثار من أخبار الفِرق الأخرى وآرائها ، ومناظراتها ، وذكر أعلامها .

ويبدو أن غزارة المادة الكلامية في كتب الجاحظ ، هو الذي دفع المحقق ـ رحمه الله ـ إلى تأليف كتاب خاص بالفِرق يحمل عنوان (معجم الفِرق الإسلامية) . والكتاب إلى وقت كتابة هذا البحث غير منشور . إلا أنه قد نصّ على هذا المعجم الطريف حقاً في فكرته وموضوعه ، في حاشية من حواشي تحقيقه كتاب (البيان والتبيين) ، حين ترجم لبشر بن المعتمر المعتزلي (ت ٢١٠ هـ) ، صاحب الصحيفة المشهورة ، وأحد أئمة الاعتزال ، فقال : « . . . وانفرد عن أصحابه المعتزلة في بعض مسائل أوردتها في كتابي : معجم الفِرق الإسلامية »[٥٣] .

---

(٥٢) حاشية تحقيق البيان ١٠٢/٢ . وانظر البيان ١٩٢/٢ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢٧٨ ، ٣٤٥ ، ٧٨/٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٩ .

(٥٣) البيان والتبيين (حاشية التحقيق) ٤١/١ . وانظر ٤٦/١ ، ٢٢٨ ، ٢١٣/٢ ، ٢٣/٣ .

كذلك يلقانا اسم هذا المعجم في مواضع شتى من حواشي تحقيقه كتاب (البيان والتبيين) ، ويذكره ـ أيضاً ـ ضمن فهرس المراجع ، في مكانه من حرف (الميم) ، ويقرن هذا بذكر مواطن وروده في حواشي تحقيق الكتاب . ولا شك أن الاضطلاع بتأليف معجم يضطلع بالتعريف بالفِرق الإسلامية ، هو دليل لا يُدفع على الجديّة وعلى النشاط العلمي ، الذي لم يحدّ من تدفقه وعطائه ، اشتغال المحقق بالتحقيق .

من هنا كانت حواشي كتب الجاحظ التي نشرها عبدالسلام هارون ، حافلة بالتعريف بالفِرق الإسلامية ، وبرجالها الأعلام ، بل وبغير الفِرق الإسلامية ، من أهل الديانات ، وأرباب النِّحل المختلفة ، وبغير هؤلاء وأولئك من الطوائف وأصحاب المواقف المختلفة .

وعلى هذا يطالع القارىء ـ في حواشي تحقيق البيان مثلاً ـ تعريفات بفرقة المنصورية من غلاة الشيعة[٥٤]، والضرارية من الجبرية[٥٥]، والشميطية من الشيعة الإمامية[٥٦]، والديصانيّة من المجوس[٥٧]، والإباضية من الشراة[٥٨]، والأزارقة منهم أيضاً ، ثم الهشامية ، وهم من الغالية[٥٩]. هذا إلى فرق أخرى .

مكملات التحقيـــق :

١ ــ الفهـــارس :

يـرى هـارون أن للفهـارس « المقـام الأول من مكمـلات تحقيق النصـوص ونشرها ، وأنه بدونها تكون دراسة الكتب ـ ولاسيما القديمة منها ـ عسيرة كل العسر ،

---

(٥٤) حواشي تحقيق البيان ١/١٧ .
(٥٥) نفسه ١/٢١ .
(٥٦) نفسه ١/٢٣ .
(٥٧) نفسه ١/٢٩ .
(٥٨) نفسه ١/٣٣ .
(٥٩) نفسه ١/٤٦ .

لأن الفهارس تفتش مافي باطن هذه الكتب من خفيات يصعب التهدّي إليها ، كما أنها معيار توزن به صحة نصوصها بمقابلة ما فيها من نظائر ، قد تكشف عن خطأ المحقق أو سهوه »[٦٠] .

الفهارس ـ إذن ـ تخدم المحقق أثناء عمله في الكتاب ، بقدر ما تفيد الباحث ، بعد الانتهاء من تحقيق الكتاب ونشره .

ونضيف إلى ما قرره عبدالسلام هارون ، أن فهارس الكتاب ـ بما في ذلك الكتاب المؤلف ـ هي مفاتيح أبوابه ، وبدونها يظل الكتاب ـ محققاً أو مؤلفاً ـ أشبه ما يكون بالبيت المغلق ، لا تكفي قراءة قارئه لاكتشاف أدق دهاليزه . وعلى هذا ، فإن المحقق الواعي هو (قارىء يقظ ذكي) ، لا يقف عمله عند تحقيق النص وتعليق حواشيه ، بل هو ينفض أمام القارىء أسرار الكتاب ، ويأخذ بيده إلى تفاصيله وجزئياته .

وقد افتن هارون ـ رحمه الله ـ في عمل فهارس ما حقق من كتب ، ومنها كتب الجاحظ على وجه الخصوص . ويبدو أنه قد خصها أكثر من غيرها بأنماطٍ بديعة من الفهارس . والدليل على ذلك أن أكثر الأمثلة والشواهد التحقيقية آلتي ساقها في كتابه (تحقيق النصوص ونشرها) ، مأخوذة من كتب الجاحظ ، وبخاصة كتاباه : الحيوان ، والبيان والتبيين .

ففي كتاب (الحيوان) ، صنع الرجل ـ رحمه الله ـ اثنى عشر فهرساً مفصلاً لأجناس الحيوان ، ومثله لأعلام الحيوان ـ وهو أمر طريف حقاً ـ ومثله لأعلام الناس ، عدا فهارس القبائل والطوائف ، ثم البلدان ، والأمثال ، والشعر والأرجاز ، واللغة ، والكتب ، وأيام العرب ، ثم المعارف العامة . وقد استغرق فهرس أجناس الحيوان ـ وحدها ـ مائة صفحة ـ وظهر هذا الفهرس ، كما يلحظ قراء الكتاب ، مرتباً ترتيباً علمياً دقيقاً على هذا الوضع : تسمية الحيوان ، وبيان جنسه وأنواعه وأشباهه ، والكلام في أعضائه ، وتطوراته وألوانه وبيان طعامه وشرابه

(٦٠) تحقيق النصوص ونشرها ص ٩٢ .

وسلاحه وصوته وصنعته ، ونفعه وضرره ، والكلام في تناسله ، وطباعـه وتعليمه وأمراضه وعمره ، وبيان موطنه[٦١] ، وأثر الطبيعة فيه ، وعلاقته بغيره من الحيوان . وعلى هذا النحو ، صار بوسع الباحثين من ذوي الاختصاص بهذا الحقل ، أن يضعوا أيديهم على مادة كل جنس من الحيوان ، وما يتعلق به ، منظمةً ومفصلةً ، ومرتبةً على نحوٍ بلغ الغاية .

أما فهرس المعارف العامة ـ وهو لا يقل عن سابقه طرافة ، فيقع في نحو مائة صفحة ، ويشمل المعارف ، التي لا تندرج تحت أيٍ من الموضوعات والمواد ، التي شملتها عناوين الفهارس السابقة .

* * *

ويأتي عمل هارون ـ رحمه الله ـ في البيان والتبيين ، كشفاً دقيقاً واعياً عن أدق محتويات هذا المصدر الهام ، من مصادر الأدب والنقد والبلاغة والأخبار ، والفِرق والنحل . فإنه فضلاً عن فهارس الأعلام والفِرق والقبائـل والطوائف ، واللغـة ، والآثار الشعرية والنثرية . فقد صنـع فهرسـاً مفصلاً للبيـان والبلاغـة ، وافتنّ في الكشف عن عناصر هذه المادة في أساسياتها ، وفي تفاصيلها وجزئياتها . ومن المواد التي أقام هذا الفهرس عليها : الأدب ـ الازدواج ـ الإطناب ـ الإيجاز ـ البـديع ـ البلاغة ـ الخطابة ـ الشعر والشعراء ـ الفصاحة ـ القصص ـ اللُثغة ـ اللحن ، إلى غير ذلك من المواد ، التي جمع الفهرس شتيتها ، وأبرز الغامض الغائص منهـا ، ويسّر للباحثين ، على مختلف وجهاتهم ، أمر الوقوف عليها . وهي ـ كما نرى ـ تحتاج إلى المحقق القـارىء ، في بصر ونفـاذ ووعي . ولا شك أن عمـل هـارون في كتـاب (البيان) ، كان له أثره في اكتشاف هذا المعلم الجاحظي الهام ، ويسر جهود الباحثين الأكاديميين على وجه الخصوص ، فضلا عن تقريب صورة الجاحظ إلى قرائه المعجبين بفنه وفكره .

ولعل من أطرف فهارس المحقق لكتاب البيان : فهرس الحضارة . وهو فهرس يضم الشتيت المفـرق من مواد الحضـارة في ثنايـا (البيان والتبيـين) . ومن مواده

---

(٦١) نفسه ص ٩٢ ، وانظر فهـارس كتاب (الحيـوان) ـ بتحقيق هارون ـ حيث شملت الجـزء الثامن بأكمله ، بالإضافة إلى فهارس مفصلة لكل جزءٍ على حده .

الطريفة : الأسنان وشدّها بالذهب ، والتعليم ، والحرب ، والخلفاء ، والزواج ، والـزيّ ، والسلاح ، والعصـا ، والمخاصـر ، والعمامـة ، والقناع ، والـطفـل ، والنساء ، إلى غير ذلك . وقد بلغ عدد مواد هذا الفهرس وحده نحواً من ستٍ وستين مادة ، يندرج تحت كل مادة أساسية منها ، مواد أخرى فرعية ، تصعد بهذا العدد إلى أضعافٍ مضاعفة . ولا يخفى أن هذا الفهرس كشف عن بعد فكري طريف في كتب الجاحظ ، فضلاً عما يقدمه للمختصين بالبحث الحضاري من تيسير .

* * *

أما فهرس اللغة ـ سواء في البيان أم في الحيوان وغيرهما ، فهو يصلح أن يكون هيكلاً لمعجم لغوي يخدم نصوص الجاحظ ولو تمكن قارىء صبور من دمج (فهارس اللغة) في كل آثار الجاحظ ، مرتبة بدقة ، ثم شفع كل مادة بشروح لألفاظها ، آخذاً هذه الشروح من حواشي هارون ، ومن نصوص الجاحظ المختلفة ، نقول : لو تم ذلك ، لاستوى لقراء الجاحظ معجم شامل للغة في آثاره . وهو عمل نرجو أن يقيض له من ينهض به . وسوف يكون مثل هذا المعجم خطوة على الطريق ، لمعاجم مماثلة لأمثال : ابن قتيبة والمبرد ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبي حيان التوحيدي وسواهم من الأدباء ، ثم تنتهي هذه المعاجم إلى معجم شاملٍ موسع ، يكشف لنا عن ذخائر العـربية في سيـاق الاستعمال ، والـواقع الحيّ . ويـوفقنـا عـلى دلالات ألفـاظهـا وتراكيبها ، في تطورها عبر العصور .

وبالنسبة لآثار الجاحظ التي حققها هارون ، فإن الطريق ممهد ، سواء بالنسبة لفهارس اللغة ، أم بـالنسبة للحـواشي التي تسجل إضـافة علميـة حية لنصـوص الجاحظ ، دون أدنى مساسٍ بها .

بقي القول بأن (فهرس اللغة) في كتاب البيان ـ مثلاً ـ قد قسـمه المحقق إلى قسمين رئيسيين :

الأول : ما فسّره الجاحظ من اللغة العربية ، ثم الفارسية .
الثاني : ما فسره محقق الكتاب ، وألحق به أيضاً ما فسره من اللغة الفارسية .

هذا وقد عني المحقق عند ذكره مراجع التحقيق والشرح ، وهي خاتمة الفهارس

في البيان والتبيين ، بفهرسة هـذه المراجـع ، فإنـه فضلاً عن تـرتيبها الـدقيق على العناوين ، قرنها بمواضع ذكرها في حواشي التحقيق ، على امتداد صفحات الكتاب وأجزائه .

أما عدد صفحات فهارس البيان ، فقد بلغت قريباً من مائتين وثلاثين صفحة ، خلت من فهرس للآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث النبوية ، على غزارة الشواهد القرآنية والحديثية في الكتاب .

٢ ــ مقدمات المحــقق :

تعد مقدمة الكتاب التي يصنعها محققه ، كشفاً هاماً عن قيمة الكتاب ، فمع الإقرار التام بضرورة أن تتضمن المقدمة وصفاً للخطيات ، وتـرتيباً لهـا في الوثـاقة والأهمية ، ومنهج المحقق ، فإن الذي لا ينبغي أن يخفى ، ضرورة أن يعنىٰ المحقق بدراسة الكتاب في مادته ومنهجه ومصادره وأهميته ، مع الترجمة لمؤلفه .

وقد سلفت إشارات إلى عمل هارون في مقدماته لآثار الجاحظ التي حققها ، ودللنا على بعض ما سقناه منها على شدة إعجاب المحقق ـ رحمه الله ـ بالجـاحظ ، وتذوقه لبيانه ، وتقديره لثقافاته الواسعة ، والتفاته إلى خصائص منهجه في التأليف ، ثم تأثره في مقدماته بأسلوب الجاحظ .

ونضيف ـ هنا ـ أن مقدماته لما حقق من نصوص الجاحظ لم تكن من قبيل الفراغ من مهمة ثقيلة ، جرت بها تقاليد النشر والتحقيق ، ولكنها كانت رؤيـا تستكشف النص ، وتقف بقارئه على أبعاده المختلفة ، وتضعه موضع المقارنة بـإزاء غيره من النصوص المناظرة ، كاشفاً عن وجوهٍ شتى من التقابل والتناظر . ثم هو ـ قبل ذلك كله ـ يوقف قارىء النص على محاوره الأساسية ، التي تدل على سيطرة وجودة تصور .

في تقديمه لكتاب (البيان والتبيين) ـ مثلاً ـ يحصر مباحث الكتاب في عشرة موضوعات ، هي : البيان والبلاغة ـ القواعد البلاغية ـ القول في مذهب الوسط ـ الخطابة ـ الشعر ـ الأسجاع ـ نماذج من الوصايا والرسائل ـ طائفة من كلام النسّاك والقصاص وأخبارهم ـ عرض لبعض كلام النوكى والحمقى ونوادرهم ـ ضروب من

الاختيارات البلاغية ، ثم يتتبع كل مبحث من هذه المباحث العشرة بالدرس المركز الرصين .

هذا إلى عنايته بالكشف عن أثر (البيان والتبيين) ، فيما جاء بعده من مصادر الأدب الأخرى ، مثل : عيون الأخبار لابن قتيبة ، الذي زخر بالنقول الوفيرة من كتب الجاحظ ، واستعان به المحقق في عمله في تراث الجاحظ ، وبخاصة ، الحيوان والبيان ، كما أسلفنا القول . كما يشير إلى مصادر أدبية أخرى كان لكتاب البيان أثر فيها ، كالعقد الفريد ، والصناعتين ، وزهر الآداب ، والعمدة ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، ولباب الآداب . كما يلفت انتباه قارىء (البيان والتبيين) ، إلى أن هذا الكتاب قد ألفه أبو عثمان بعد كتاب (الحيوان) ، وأن البيان لم يظهر إلا بعد عام ٢٣٣ للهجرة .

* * *

إلا أن المحقق في مقدمته ـ على كثرة ما يذكر ـ لا يتعرض بأدنى عبارة لعنوان الكتاب :

هل هو : البيان والتبيين ، هكذا بيائين مثناتين تحتيتين ؟

هل هو : البيان والتبيُّن ، بياء واحدة مثناة تحتية ؟

ونقول : إن هذا الأمر ـ على شكليته ـ كان حرياً من المحقق ـ يرحمه الله ـ ببعض النظر ، ولو لم تسعفه القرائن بالرأي القاطع . فتحقيق عنوان كتابٍ ما هو جزء من الكتاب ومن عمل ناشره أيضاً . وقد فعل ذلك في تقديمه لكتاب (البُرصان والعُرجان والحُولان) .

والسبب في إثارة هذا الأمر ، ما ورد في نص البيان ، وفي حواشي محققِه ، مما يثير الشك ، ويستوجب النظر . فالجاحظ نفسه ـ في مقدمة الجزء الثاني ـ قد أورد العنوان هكذا : بلفظ (التبيُّن) بمثناة تحتيه واحدة ، فيقول : « أردنا ـ أبقاك الله ـ أن نبتدىء صدر هذا الجزء من ـ البيَّان والتبيُّن ـ بالرد على الشعوبية . . »[٦٢] . أما المحقق

(٦٢) البيان والتبيين ٢ / ٥ .

فيعلق ـ في الحاشية ـ بعبارة : « ما عدا ل ، هـ : والتبيين »[٦٣]. كما أن المحقق نفسه قد آثر قراءة (. . والتبيّن) بمثناة واحدة . والذي يلفت النظر أيضاً أن نسخة (ل) التي وردت فيها قراءة (. . والتبيُّن) بمثناة واحدة ، هي النسخة الأم من بين سائر النسخ ، التي اعتمدها المحقق ، وفي موضع آخر من الجزء الأول ، يعكس المحقق الوضع ، فيثبت (. . والتبيين) بمثناتين ، مخالفاً قراءة النسختين (ل ، هـ) هذه المرة . مع أنه قد وافقهما في الموضع السابق . وقد أشار ـ في الحاشية ـ إلى أن : « ل ، هـ : والتبيُّن »[٦٤]. وآخر ما نورده أن المحقق نفسه في تقديمه لمجموعة (رسائل الجاحظ)[٦٥]، قد أورد العنوان صراحة هكذا (والتبيُّن) بمثناة واحدة .

* * *

ومن قبيل عناية المحقق ـ رحمه الله ـ بمقدمات تحقيقاته لكتب أبي عثمان الجاحظ ، مقدمته لنص (خطبة واصل بن عطاء التي جانب فيها حرف الراء) ، والتي أشار الجاحظ إليها ، وعثر عليها المحقق في ذيل إحدى خطيات البيان ، ثم نشرها ـ كما أسلفنا الإشارة ـ في مجموعة (نوادر المخطوطات) .

وقد طالت مقدمة المحقق لنص هذه الخطبة ، حتى بلغت حوالي ست عشرة صفحة ، مع أن النص المحقق ، لا يتجاوز الصفحتين ونصف الصفحة . وفي المقدمة أيضاً ترجم لواصل بن عطاء ، وفكره ، وأثره في تلميذه الجاحظ ، وحلل نص الخطبة وخصائصها ، وكشف عن أهميتها . وصنع قريباً من ذلك في تقديمه لنص رسالة (العققة والبررة) لأبي عبيدة الراوية (ت ٢١٠هـ) ، التي نشرها في (نوادر المخطوطات) فترجم لأبي عبيدة ، وكشف عن صلته بتلميذه الجاحظ ، وأثره فيه ، وتناول شعوبيته ، وتناول النص المحقق بشيء من التعريف والوصف ، مما يعكس اهتمامه المتميز بالجاحظ .

---

(٦٣) نفسه .

(٦٤) البيان والتبيين ١/٢٠٠ .

(٦٥) وانظر ص ٥ من مقدمة (رسائل الجاحظ) ـ بتحقيق هارون ـ المجلد الأول . ولم يعلق المحقق ـ في الحاشية ـ بأدنى عبارة .

وحين نستعرض مجموعة (نوادر المخطوطات) ـ بتحقيق هارون ـ نجده يفيض في مقدماته للنصوص التي لها صلة بالجاحظ وبفكره وأدبه ، بحيث فاقت مقدماته لهذه النصوص بالذات ما عداها من مقدمات النصوص الأخرى في المجموعة ذاتها(٦٦) .

* * *

وآخر ما نسوقه ، مقدمته لكتاب (البرصان . .) بتحقيقه ، والذي ألفه الجاحظ بعد (البيان) ، وبذل المحقق جهداً طيباً في تحقيق نصه ، إذ قارن بين هدف الجاحظ من كتابه ، وهدف الهيثم بن عديّ (ت ٢٠٧هـ) في كتاب له يشبه كتاب الجاحظ ، وهو : كتاب المثالب ، فبينما قصد الهيثم التشهير ، كان هدف الجاحظ في كتابه الفذّ أن يجعله ذريعةً إلى بيان نظرة العرب في أدبهم وأشعارهم إلى هؤلاء القوم الذين كتبت عليهم العاهة . . »(٦٧) .

* * *

وبعد . فإنه من منطلق الإعجاب ، عكف عبدالسلام هارون ـ رحمه الله ـ على إخراج تراث الجاحظ في أفضل صورة ، حتى اقترنت باسمه آثار أبي عثمان . ومن منطلق الإعجاب ـ أيضاً ـ تأثر بلغة الجاحظ وروائع بيانه . ثم دفعه إعجابه بشيخه الجاحظ ، كما لقبه ، بتهذيب كتابه (الحيوان) ، ليضع هذا السفر الهام بين يدي القارىء غير المتخصص ، وأخيراً فقد أسهم ـ لإحياء آثار الجاحظ ـ ببحثين هامين ، أحدهما أوردنا ذكره في صدر هذا البحث وهو : (مكتبة الجاحظ) ، والثاني بحث طريف عنوانه : (المعلمون في أدب الجاحظ) نشره في عدد أغسطس من مجلة الكتاب عام ١٩٤٦(٦٨)، استقاه مما أورده الجاحظ ـ في كتبه ـ بشأن المعلمين ، وبخاصة رسالته في المعلمين ، والتي نشرها عبدالسلام هارون في مجموعة (رسائل الجاحظ) .

رحم الله أستاذنا ، وجزاه خير ما يجزي العاملين المخلصين .

---

(٦٦) وانظر ـ على سبيل المثال ـ مقدمته لرسالة (المنسوبون إلى أمهم من الشعراء) ، لأبي جعفر محمد بن حبيب المجلد الأول ص ١١ .

(٦٧) وانظر مقدمة (البُرصان والعُرجان والعُميان) للمحقق ص خ، د. .

(٦٨) يقول هارون عن كتاب الجاحظ (المعلمون) بتحقيقه : « وكتابه في (المعلمين) حملني ـ من قبل ـ أن أكتب في هذا الجانب دراسة مستفيضة ، نشرت في مجلة الكتاب في عدد أغسطس عام ١٩٤٦م » . وانظر مقدمة (رسائل الجاحظ) بتحقيقه ٣/٥ .

نتائج البحث

١ ــ يمثل عبدالسلام هارون دور الريادة في الجيل الثاني من رواد تحقيق التراث العربي ونشره . وهو جيل تشبع بالتراث : قارئاً ، وحافظاً وباحثاً ومحققاً .

٢ ــ تضافرت جملة عوامل على تكوين هارون العلمي والتراثي ، من بينها : البيئة المنزلية والعائلية ، واتصاله ببعض محققي عصره ، وتخرجه بدار العلوم ، واستعداده الفطري .

٣ ــ كان (كتاب الحيوان) ، أول أثر جاحظي أخرجه هارون وفقاً لمنهج تحقيقي سديد ، وأكسبته تلك البداية الصعبة ، والجادة ، تمرساً بتراث الجاحظ ، وبصراً دقيقاً بخصائصه البيانية والفكرية والمنهجية .

٤ ــ لم تكن قراءة هارون مجرد قراءة لظواهر النص الجاحظي ، بل كانت قراءة تذوق ، انتهت به إلى الإعجاب بأبي عثمان ، والتوفر على تراثه بصبر وأناة وشغف : محققاً وباحثاً ومختصراً ، وجامعاً لما تفرق من رسائله ، وشارحاً لنصوصه .

٥ ــ عني هارون ـ رحمه الله ـ بتحقيق النص الجاحظي بمنهج علمي تميز بالشمول ، من سعيٍ دءوب طموح وراء تراث الجاحظ المخطوط ، ومقابلة متأنية صبور بين الخطيات ، وضبط دقيق للنصوص الأصلية والمنقولة .

٦ ــ افتنّ ـ رحمه الله ـ في صنع الفهارس ، التي كشفت عن كل مطويٍ مخبوء في كتب الجاحظ ، وفتحت أبصار الباحثين على الكثير من الأبعاد والموضوعات في تراث الجاحظ .

٧ ــ كانت مقدماته لكتب الجاحظ التي حققها ، شاهداً على فهمه وتذوقه وإعجابه ، وقد أسهمت المقدمات أيضاً في تجلية الكثير من خصائص تراث الجاحظ .

٨ ــ لم يضنّ في حواشي التحقيق ، بما يضيء الطريق أمام قراء الجاحظ ، ويسجل إضافةً ثرية لتراثه في غير مساسٍ به .

٩ ــ اتسق عمله التحقيقي في تراث الجاحظ مع عالم الجاحظ بكل عناصره وملامحه .

مراجع البحث

١ ـ الأعلام ، للزركلي (خير الدين)
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٠م .

٢ ـ الأستاذ عبدالسلام هارون : حياته ومنجزاته .
مصورة من ملفات أمانة جائزة الملك فيصل العالمية (في الأدب) .
الرياض . المملكة العربية السعودية .

٣ ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان ، من تأليف الجاحظ ، وتحقيق عبدالسلام محمد هارون .
بغداد . وزارة الثقافة والإعلام . دار الرشيد ١٩٨٢م .

٤ ـ البيان والتبيين ، من تأليف الجاحظ ، وتحقيق عبدالسلام محمد هارون ط خامسة . مكتبة الخانجي .
القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ، من تأليف جورجي زيدان ، وبتعليق شوقي ضيف (أ. د.) جـ٣ . دار الهلال . القاهرة . د ت .

٦ ـ تحقيق التراث العربي ، منهجه وتطوره . من تأليف عبدالمجيد دياب (الدكتور) . منشورات سمير أبو داود ط أولى (د ت) القاهرة .

٧ ـ تحقيق النصوص ونشرها ، من تأليف عبدالسلام محمد هارون . مكتبة الخانجي . ط أولى القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م .

٨ ـ التراث العربي ، من تأليف عبدالسلام محمد هارون . سلسلة كتابك . دار المعارف . القاهرة (د ت) .

٩ ـ حول ديوان البحتري . دراسة نقدية أدبية لغوية . من تأليف عبدالسلام محمد هارون . المؤسسة العربية الحديثة . ط أولى القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٣م .

١٠ ـ الحيوان ، من تأليف الجاحظ ، وتحقيق عبدالسلام محمد هارون . ط أولى . مكتبة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . ١٣٥٦هـ/ ١٩٤٧م .

١١ ـ رسائل الجاحظ ، جمعها وحققها وقدم لها عبدالسلام محمد هارون . مكتبة الخانجي . طبعت ما بين عامي ١٩٦٤ ، ١٩٧٩م . القاهرة .

١٢ ـ رواية الآثار الأدبية . رسالة ماجستير (مخطوطة) . كلية دار العلوم . القاهرة ١٩٧٠م . إعداد مصطفى إبراهيم حسين (الدكتور) .

١٣ ـ رواية الشعر العربي ، من تأليف مصطفى إبراهيم حسين (الدكتور) ، ط أولى . مكتبة النهضة العربية . القاهرة . ١٩٧٧م .

١٤ ــ نوادر المخطوطات ، جمعها وحققها وقدم لها عبدالسلام محمد هـارون . ط لجنة التـأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٦م .

١٥ ــ مقالات الأستاذ عبدالسلام محمد هارون في الرد على الأب أنستاس ماري الكرْملي في استدراكات الكرْملي على تحقيق هارون ، لكتاب (الحيوان) . مجلة الثقافة (الإصدار الأول) . القاهرة . الأعداد رقم ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٥ .

١٦ ــ مقال بعنوان : (حول المجلد الخامس من كتاب الحيوان) للجاحظ ، بقلم عبدالسلام محمد هارون . مجلة المقتطف . القاهرة . نوفمبر ١٩٤٤م .

١٧ ــ مقال بعنوان : (إحياء التراث وما تم فيه) ، بقلم عبدالسلام محمد هارون . مجلة المجلة . القاهرة . يوليو ١٩٦٣م .

١٨ ــ مقال بعنوان : (مكتبة الجاحظ) ، بقلم عبدالسلام محمد هارون . صحيفة دار العلوم . إبريـل ١٩٤٣م . القاهرة .

ملحوظات بشأن المراجع

١ ــ ورد في سجل أمانة جائزة الملك فيصل العالمية ، بالرياض ، السعودية ـ ضمن منجزات المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون ـ أن له مقالاً بعنوان (الإبل وأثرها في الفكر العـربي والبيان العـربي) وأن المقال المذكور ، نشر بمجلة (البيان) الكويتية . إبريل ١٩٦٦م . وقد بحثت عن المقال في المرجع المذكور ، وفي أعداد لاحقة ، فلم أجده .

٢ ــ ورد أيضاً ملف جائزة الملك فيصل العالمية ، أن للمرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون مقـالات بمجلة المجمع ، وهي : إحياء التراث وأثره في لغتنا المعاصرة ـ من كناشة النوادر (١) ، (٢) . ولم يرد تحديد لأرقام أعداد مجلة المجمع ، ولا تحديد لتواريخ الإصدار . لهذا فقد تعذر العثور على المقالات المذكورة .

توصيات البحث

١ ـ تخصيص جائزة تحمل اسم (جائزة عبدالسلام هارون في تحقيق التراث ونشره) ، تعطى لأفضل عمل في تحقيق أثرٍ مخطوط ، على أدق صورة ممكنة . وحبذا لو تعاونت جهات مختلفة لمنح هذه الجائزة ـ من خلال مسابقة سنوية ـ يعلن عنها ، وتوضع لها الشروط المناسبة . ومن هذه الجهات التي نأمل مشاركتها ، المؤسسات العلمية التي عمل بها الراحل الكريم ، مثل جامعة الإسكندرية ، وجامعة القاهرة ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وجامعة الكويت .

٢ ـ نشر كتاب (معجم الفِرق الإسلامية) ، للعالم الراحل ، والذي ما يزال ـ في حدود العلم ـ مخطوطاً . وهو الكتاب الذي وضعه ـ رحمه الله ـ لتيسير مهمته في التعريف بالفِرق الإسلامية ، الواردة في تراث الجاحظ بخاصة والذي نبه هذا البحث إليه .

٣ ـ تنفيذ فكرة عمل معجم لغوي شامل لتراث الجاحظ ، يتخذ من فهارس أستاذنا لكتب الجاحظ أساساً ، وينتفع بما ورد من حواشي تحقيقاته لآثار الجاحظ من شروح ، وما ورد ـ أيضاً ـ من شروح الجاحظ نفسه .

٤ ـ دعوة ـ مؤسسات النشر العربية ـ وبخاصة من تعاون معها أستاذنا الراحل ، للمساندة في نشر (معجم الفِرق الإسلامية) وكذلك (معجم الجاحظ الشامل) المقترح في هذا البحث .

بسم الله الرحمن الرحيم



براءة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي

إن هيئة جائزة الملك فيصل العالمية، بعد اطلاعها على نظام جائزة الملك فيصل العالمية المصادق عليه من مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالقرار رقم ٩٨/٦٨/١١ وتاريخ ١٣٩٨/٨/١٠ هـ، وعلى محضر لجنة الترشيح والاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٤٠١ هـ تقرر منح:

الأستاذ عبد السلام محمد هارون

جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي هذا العام ١٤٠١ هـ، وذلك تقديرًا لمكانته العلمية وتتويجًا لجهوده الطيبة في ميدان تحقيق التراث العربي واعترافًا بتأثيره في الحياة الأدبية، وفيما يتصل بها وبما يعود عليها من نشر آثار في اللغة والنحو وكتب النثر ودواوين الشعر.

وإن هيئة الجائزة إذ تمنحه ذلك فإنها ترجو له المزيد من الإنتاج المثمر في هذا الحقل.

والله ولي التوفيق

صدرت في الرياض بتاريخ ١٩ من شهر ربيع الثاني ١٤٠١ هـ
الموافق ٢٢ من شهر فبراير ١٩٨١ م
وسجلت برقم ٩ وتاريخ ١٩/٤/١٤٠١ هـ
الموافق ٢٢/٢/١٩٨١ م

رئيس هيئة الجائزة
خالد الفيصل بن عبد العزيز

الفهرس

ثالثاً: في الحديث عن الأستاذ عبدالسلام هارون


Bibliotheca Alexandrina
0338214